وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

The Syrian General Organization of Books

@ketab_n
Follow Me
9.3.2016

رحلة في أقاصي الليل

تأليف: لويس فرديناند سيلين
ترجمة: حسن عودة

قصص وروايات 3

لويس فرديناند سيلين

رحلــة في أقاصي الليـل

ترجمـة

حسن عودة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٧

Twitter: @ketab_n

رحلة في أقاصي الليل

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي للكتاب :

Louis - Ferdinand Céline

Voyage au bout de la nuit

رحلة في أقاصي الليل = Voyage au bout de la nuit / لويس فرديناند سيلين ؛ ترجمة حسن عودة .- دمشق : وزارة الثقافة، ٢٠٠٦ .- ٦٥٦ ص ؛ ٢٤ سم . - (قصص وروايات ؛ ٣) .

١- ٨٤٣ ف س ي ل ر ٢- العنوان ٣- سيلين

٤- عودة ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٣»

Twitter: @ketab_n

عن الكاتب والرواية

مات "سيلين في عزلته دون أن يحظى في حياته بشهرة أو بمال. مات كاتباً ملعوناً بسبب التهمة التي التصقت به بأنه معاد للسامية، وما تزال بعض كتبه مثل "مدرسة الجثث" و"لا شيء من أجل مجزرة" و"البيارق الجميلة" خاضعة للمنع والرقابة في بلد ديمقراطي مثل فرنسا، وما يزال صدور طبعة جديدة من أحد كتبه يشكّل حدثاً ثقافياً وسجالياً في كثير من البلدان. فقد أثار صدور ترجمة عبرية لروايته "رحلة في أقاصي الليل" قبل سنوات سجالاً حاداً في الكنيست الإسرائيلي بدعوى أن هذا الكاتب الراحل كان من غلاة المعادين للسامية ولليهود. ومنذ حوالي شهرين تقريباً صدرت الترجمة الكاملة لـ"رحلة في أقاصي الليل" باللغة الألمانية، بعد أن كانت الترجمة الوحيدة لهذه الرواية منقحة ومختصرة بسبب تعقّد أسلوب سيلين وبسبب المفردات التي ابتكرها أو التي قام بنحتها.

غير أن هذا الكاتب المعذب الروح، المسافر أبداً في أعماق الليل يركض خلفه الجميع اليوم، لعلّهم يقتنصون خيطاً واحداً من ضوئه ليتطهروا به من ذنب الجحود، وها هو الضوء يغمره في كل مكان، وينفض الغبار عن

Twitter: @ketab_n

رواياته، وتصدر حوله مئات المقالات والتحقيقات والدراسات، ويتخطى تأثيره حدود فرنسا وأوروبا حيث يعترف أحد كبار كتّاب اليابان هو كنزا بورو أوي بتأثير سيلين على أدبه وعلى أدب كتّاب يابانيين آخرين، ويشهد له أحد أعظم كتّاب أمريكا اللاتينية هو ماريو بارغاس يوسا بأنه أحد معلمي الرواية العظام في القرن العشرين.

يرجع سوء الفهم وروح العداء تجاه سيلين وحملات التشهير التي تعرض لها من كافة الاتجاهات السياسية في فرنسا، من اليسار ومن اليمين إلى أنه كتب في عام ١٩٣٦ مجموعة من المقالات، انتقد فيها الدور اليهودي في إشعال فتيل الحرب الفرنسية الألمانية وهو ما أثار حفيظة يهود فرنسا، كما أنه كتب في عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨ على التوالي روايتين تضمنتا نقداً مريراً لتطرف اليهود ولنشاطهم المشبوه في فرنسا وألمانيا وقد جرّت عليه هاتان الروايتان مشكلات واتهامات جعلته يعيش على الهامش منبوذاً من معظم أصدقائه، ومنهم سارتر الذي كان معجباً بسيلين أشد الإعجاب والروايتان هما "لا شيء من أجل مجزرة" و"مدرسة الجثث"، ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يذكر سيلين إلا من خلال هذه الأعمال.

ولد سيلين في ضواحي باريس في كوربفوا في ٢٢ أيار عام ١٨٩٤، وقاتل أثناء الحرب العالمية الأولى في الفلاندر، وجرح جرحاً بليغاً في ذراعه. وبعد إنهائه الخدمة العسكرية درس الطب في عام ١٩١٨، وأصبح

Twitter: @ketab_n

طبيباً في الثلاثين من عمره، وقام برحلات عديدة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٥ وإلى أفريقيا عام ١٩٢٦، ثم عمل طبيباً في باريس بمستشفى "كلشي" البلدي حيث بدأ الكتابة هناك. وفي عام ١٩٣٢ ظهرت روايته الأولى "رحلة في أقاصي الليل" فأحرزت نجاحاً ساحقاً وترددت أصداؤها في سائر أنحاء أوربا وفي أمريكا. وفي عام ١٩٣٦ صدرت روايته الثانية "موت بالتقسيط"، أما روايته الثالثة "البيارق الجميلة" فقد كتبها بعد اندحار ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

ولكونه مصنّفاً مع المتعاملين مع العدو الألماني ومن المعادين للسامية فقد غادر سيلين فرنسا عام ١٩٤٤ متجهاً إلى الدانمارك ترافقه زوجته لوسيت، وكان آنذاك في الخمسين من عمره. ولكنهما احتجزا في ألمانيا بعد أن طلبا تأشيرة لدخول الدانمارك، وفي ٢٢ آذار عام ١٩٤٥ حصلا على تأشيرة ودخلا الأراضي الدانماركية ، وهناك ألقي القبض عليهما بطلب من مدير المفوضية الفرنسية في الدانمارك والذي طالب بطرد الكاتب وتسليمه إلى فرنسا، وقد أخلي سبيل زوجته بعد أيام بينما ظل هو في السجن.

كانت عمليات التطهير قد بدأت في فرنسا عام ١٩٤٥، وقد أعدم عدد من الكتّاب من أصدقاء سيلين وعدد من قادة المتعاونين مع الاحتلال الألماني،كما اغتيل ناشر سيلين روبير دونويل في أحد شوارع باريس من قبل مجهول. كانت الدعوى المقدمة من مدير المفوضية الفرنسية تتضمن تهم

Twitter: @ketab_n

الخيانة والتعامل مع العدو ومعاداة السامية وكل واحدة منها كافية لإعدامه، ولكن السلطات الدانماركية رفضت تسليمه واحتجزته في السجن حتى عام ١٩٤٧، حيث أطلق سراحه. واستقر في الدانمارك حتى عام ١٩٥١، وحين أصدرت المحاكم الفرنسية عفواً عنه عاد إلى فرنسا واستقر في ضاحية ميدون القريبة من باريس، وكتب رواياته الأخرى "تورمانس" عام ١٩٤٥، و"من قصر إلى آخر" عام ١٩٥٧، و"شمال" عام ١٩٦٠ أما روايته الأخيرة "ريكودون" فقد انتهى منها في ٣٠ حزيران عام ١٩٦١، ومات في اليوم التالي في عزلة خانقة.

صدم سيلين الجميع قراءً وكتّاباً، ليس بمواقفه وحسب، بل بخروجه على كافة المقاييس والاعتبارات التي كانت تحكم الأدب الفرنسي آنذاك والتي لم تكن غالبيتها نابعة بالضرورة من الأدب ذاته.

وقد جاءت روايته الأولى "رحلة في أقاصي الليل" لتقدم الدليل على أن من الممكن كتابة رواية مختلفة كلياً، وأهم ما يميز هذه الرواية، مثل رواياته الأخرى تلك الروح الهجائية اللاذعة والمرة التي تخللتها إزاء المجتمع الفرنسي وإزاء المتحكمين بمصيره.

تحدث سيلين في عدد من مقابلاته الصحفية عن تجربته في الكتابة قائلاً "عندما دخلت عالم الكتابة بدأت بإهمال مهنة الطب، وقد كلفني دخولي في هذا

Twitter: @ketab_n

العالم كثيراً من المشكلات والمتاعب. ابتدأت المشاكل بكل بساطة عام ١٩٢٧ عندما فكرت في شراء شقة كي لا أطالب بدفع الإيجار شهرياً، ولم أكن أملك في ذلك الحين فلساً واحداً. كنت أعتقد بأنني إذا بعت كتاباً فسأحصل على المال اللازم لشراء شقة. وهكذا ذهبت إلى الناشر دينويل وتركت لديه مخطوطة رواية "رحلة في أقاصي الليل" لكن المخطوطة ضاعت، ثم وجدتها امرأة مجهولة. أما اسم سيلين فهو اسم جدتي، كنت أرغب في أن يمر هذا الاسم دون أن أثير ضجة حولي، لأن من الصعوبة الجمع بين مهنتي الطب والكتابة، وهكذا صرت سيلين متسمياً باسم امرأة. وقد كلفني ذلك غالياً، ولكني واصلت الكتابة. وبما أنني كنت محتاجاً إلى المال فقد اضطررت إلى العمل في أحد مستشفيات البلدية، فكانوا ينظرون إليَّ نظرة مريبة عندما يكتشفون بأنني سيلين الكاتب. إنهم، بصورة عامة لا يحبون هذا النمط من الأطباء، ووظيفة الكاتب تبدو لهم سخيفة. ذلك الرجل الذي يجلس إلى الطاولة وأمامه أكداس من الورق الأبيض لكي يكتب لهم أفكاراً جميلة، ومن أجل ماذا؟ هل لأنه يعرف الأشياء أكثر من غيره؟ كان هدفي تجارياً محضاً، ولم أكتب كتاباً واحداً إلا بنيّة الحصول على المال، ولو توفر لدي المال لما دخلت مغامرة الكتابة، ولكنت طورت مهنتي في الطب، وربما برعت فيها، ولحصلت على راتب تقاعدي يساعدني على العيش. حين بدأت الكتب تباع، قلت حسناً، ولكن الحياة أصبحت معقدة، وهكذا تحول شأن الكتابة بالنسبة إلي

Twitter: @ketab_n

إلى نوع من اللعنة. ولولا دخولي عالم الكتابة لكنت أنعم الآن بالهدوء والسكينة، ولكنني مضيت في مهنة الانفعالات الحسية والتي سببت لي الكثير من المتاعب، كثير من الناس يجهلون بأن الريشة الغنائية الانفعالية الساخرة تنتج قصصاً فظيعة".

وعن أسلوبه في الكتابة يقول سيلين:

يقلد الكتّاب الآخرون نموذجاً مسبقاً ويتحمسون له، فهم يتحمسون لبورجيه وفولتير وأنا تولي فرانس، ولكن هذا النموذج المثالي يعيق التعبير عن رؤيتهم الشخصية. تعرفت على أستاذ للغناء في جنيف، وقال لي بأن جميع الناس يمتلكون صوتاً، ليس هناك صوت جيد، كل شخص بإمكانه أن يغني، وأنا أقول أن أي شخص أيضاً بإمكانه أن يكتب كتاباً ويكوّن لنفسه أسلوباً، شريطة أن لا يحاول الظهور بمظهر الكاتب الكبير، فهذا التظاهر مرض خطير، وهو لا يليق إلا بامرأة تظهر على المسرح أو برجل سياسي أو بمحام، ونحن لا نتحمله عند كاتب له أسلوبه لأنه ببساطة ليس بحاجة إلى الحديث عن نفسه. لقد انتهى الدور الوثائقي أو البسيكولوجي للرواية، هذا هو انطباعي، فما الذي تبقّى للرواية إذن. لم يبق لها سوى الأسلوب.

يرى سيلين بأن الأسلوب يكمن في إرغام الجمل على الخروج بخفة من معناها المعتاد، إخراجها عن طورها، ونقلها من مكانها، وإرغام القارئ على

Twitter: @ketab_n

تغيير المعنى، لكن بخفة كبيرة، غير أن هذا يتطلب كثيراً من الحساسية، وهو أمر صعب، لأنه يقتضي الدوران حول العواطف والانفعالات، تقول الكتب السماوية "في البدء كانت الكلمة" ولكنني أقول في البدء كانت العاطفة، ثم جاءت الكلمة بعد ذلك لتأخذ مكان العاطفة. لقد جرى طرد البشر من مملكة الشعر العاطفي والوجداني لإدخالهم في الديالكتيك، في الأفكار. والواقع أنه لاشيء أكثر سوقية وبذاءة من الأفكار. أنا لست رجل فكر ولكنني رجل أسلوب. يعجب الناس جميعاً بالأسلوب، ولكن أحداً منهم لا يجرؤ على دخول هذه اللعبة لأنها عمل شاق جداً. الناس لا يحفرون أبداً بنحوٍ عميق ليجدوا ما يبحثون عنه، إنهم يظلون على السطح، أما أنا فأعمل بصعوبة بالغة وأبذل جهوداً كبيرة دون أن يرى ذلك بوضوح، وأنا حين أكتب لا أرغب في الدخول في تفاصيل لا تفيد القارئ. يكفي أن يفتح القارئ الكتاب ويقع في سحره، وحينئذٍ يقول: "آه يا فرديناند، آه يا ديستوش (وهم اسم الكاتب الحقيقي)، أنت خنزير لأن كل ما أردته هو أن تجعلنا ننفعل معك" في حين أنه حين يقرأ الكتّاب الآخرين يصاب بالضجر والاشمئزاز لأنهم يتبعون بعضهم بعضاً كالخرفان، يقلدون بعضهم بعضاً دون علم، في حين أن الأصالة غالباً ما تكون نادرة وهذا ما ينطبق على الرسامين، فما يميزهم على ما أعتقد، هو أسلوب كل واحد منهم، أما ما يبعث على الضجر فيعود إلى الروح الأكاديمية والسطحية والامتثالية.

Twitter: @ketab_n

إنني أكتب للناس الجالسين في بيوتهم والذين يريدون القراءة. وعلي أن أقوم بالعمل على أكمل وجه. وحين يقرؤني الآخرون بصوت خافت يشعرون بأن أحداً يكلمهم، أي أن أحداً يتحدث إلى أعصابهم وليس إلى مجرد آذانهم. ومن خلال البصر تعتمل الكيمياء في رؤوسهم مباشرة، إنهم ليسوا بحاجة للقراءة بصوت عال، لأنني أكتب بحميمية فائقة. يقال بأن الموسيقا هي رسالة مباشرة إلى الجهاز العصبي، وأعترف بأنه لو أتيح لي خيار لأصبحت موسيقياً أو شاعراً لأن لغة الشاعر أكثر انفعالية من غيرها.

كتب سيلين أكثر من مئتي رسالة خلال العامين اللذين قضاهما في السجن، كتبها إلى زوجته ومحاميته. وقد جمعت حديثاً في كتاب بعنوان "رسائل من السجن إلى لوسيت ديستوش والمحامية" ويعتبر نشر هذه الرسائل حدثاً أدبياً بالغ الأهمية. لم يكتب سيلين هذه الرسائل سعياً إلى المجد والشهرة بل من أجل الاستمرار في الحياة، بكل بساطة. فهو يشجع محاميته مدام ميكلسين على متابعة قضيته ويستذكر قطته "بيير" ويناجي زوجته لوسيت بعبارات رقيقة "قلبي الصغير"، "ظريفتي الصغيرة" وغيرها من عبارات الحب التي استخدمها سيلين لأول مرة، كما يحاول التخفيف من وطأة ظروف سجنه، بعد أن فقد أربعين كيلو غراماً من وزنه، ولم ينس الضحايا الذين كان يشعر بالانتماء إليهم من أمثال فيلون وشينييه، وشاتوبريان وهوغو ورامبو وآخرون. ويدافع سيلين فيها عن نفسه بأنه لم يتعاون مع المحتل الألماني

Twitter: @ketab_n

لامن قريب، ولا من بعيد. ويقول بأن العداء للسامية قديم قدم العالم، أما عدائي للسامية بشكله المبالغ به فهو أدبي صرف، فأنا لم ألاحق أحداً. وعلى أية حال ففي فرنسا لم يمارس أي اضطهاد لليهود، وفي أثناء الاحتلال كان الوكلاء النشطاء للغستابو يهوداً أو نصف يهود.

بعد مرور خمسين عاماً على موت الكاتب يبقى لهذه الرسائل وقع وأثر عظيمين، فهل يمكن القول بأن شبح سيلين ما زال يسيطر على الأدب الفرنسي بعد أن حيرّ الكتّاب والقراء بروايته العظيمة "رحلة في أقاصي الليل".

نقلاً عن كتاب سيلين الفضيحة لهنري غودار

وعن بعض الصحف والمجلات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رحلة في أقاصي الليل

إليكم كيف بدأت الأمور. لم أكن قد قلت شيئاً على الإطلاق، أي شيء كان أرتور غانار هو من دفعني إلى الكلام. وأرتور طالب في كلية الطب مثلي، وصديق لي. التقينا إذن. في ميدان كليشي، بعد الغداء، كان راغباً في الحديث إلي. وكنت أصغي إليه. «علينا ألا نبقى في الخارج، قال أرتور، فلنعد أدراجنا!» وعدت معه. «هذا الرصيف يصلح لسلق البيض، هكذا بدأ أرتور حديثه، تعال من هنا»، ولاحظنا آنذاك أن الشوارع قد خلت من المارة، بسبب القيظ، وما من سيارات أيضاً، لا شيء. الأمر هكذا! وحين تشتد برودة الجو كذلك، تقفر الشوارع تماماً. كان هو من ذكرني بذلك، حين قال: «يبدو على الباريسيين الانهماك دوماً، رغم أنهم يتنزهون من الصباح وحتى المساء. والدليل، أن أحداً لا يشاهدهم قط حين يتعكر الجو، ولا يعود ملائماً للنزهة، بسبب شدة البرد أو الحر. ويلوذ الجميع ببيوتهم يحتسون القهوة بالكريما وأكواب الجعة. ذلك هو ديدنهم! يقولون إنه عصر السرعة! ولكن أين هي السرعة؟، عصر التغيرات الكبرى، ولكن كيف؟ لا شيء تغير في الحقيقة، ومع ذلك فهم ما برحوا معجبين بأنفسهم! هذا كل شيء. وليس هذا جديداً أيضاً. فحتى الكلمات التي يتداولونها في أحاديثهم لم تتغير كثيراً أيضاً، كلمتان أو ثلاث، من هنا وهناك...» كان أرتور فخوراً وهو يطنطن بهذه الحقائق المفيدة، فيما مكثنا جالسين، مفتونين بالنظر إلى سيدات المقهى.

Twitter: @ketab_n

ثم تحوّل الحديث إلى الرئيس بوانكاريه الذي كان قد ذهب في ذلك الصباح بالذات لافتتاح معرض للكلاب الصغيرة. ثم تطرق أرتور إلى صحيفة الزمن التي أوردت خبر الرئيس:

«ألا ترى معي أن «الزمن» نموذج يحتذى في الصحافة» لقد بدأ أرتور غانار يغيظني الآن. «ليس لدينا صحيفة أخرى مثلها للدفاع عن العرق الفرنسي». «إنه بحاجة إلى ذلك، العرق الفرنسي، نظراً إلى أنه غير موجود!» أجبته بلباقة كي أظهر له بأنني لم أكن بالمقابل أقل اطلاعاً ومصداقيةً منه.

«بلى! هناك عرق فرنسي، وعرق أصيل، أصر أرتور على موقفه، وتابع بل إنه السلالة الأكثر أصالة في العالم، ومن ينكر ذلك فهو مخدوع بالتأكيد!». ها هو ذا يسترسل في مضايقتي، ولكنني تمسكت بموقفي.

«هذا ليس صحيحاً. إن ما تسميه أنت بالعرق ليس سوى هذه النفاية من الزريين من أمثالي، المرمّدين المبرغثين الهلعين الذين جنحوا إلى هذه البقعة من الأرض، يطاردهم الجوع، والطاعون والدمامل والبرد، جاؤوا مهزومين من أربعة أقطار الأرض، ولم يكن بمقدورهم الذهاب أبعد من ذلك بسبب البحر. تلك هي فرنسا بالضبط، وأولئك هم الفرنسيون.

ـ باردامو، رد علي بوقار وبشيء من الحزن، ليس آباؤنا بأقل قدر منا، فلا تأت على ذكرهم بسوء..

ـ أنت على حق، يا أرتور، بخصوص ذلك، أنت على حق. أولئك الحقودون والطّيعون، المغتصبون المسلوبون، الجوف والبلهاء على الدوام، ليسوا أقل قدراً منا! يمكنك قول ذلك. نحن لم نغير لا جواربنا، ولا أولياء أمورنا ولا أفكارنا، أو أننا سنغير بعد أمد طويل حين لا يعود لذلك أية أهمية. لقد ولدنا أوفياء، وسنهلك نحن أيضاً! مثلما هلكوا، جنوداً بالمجان، أبطالاً للعالم أجمع، وقردة ناطقة.

Twitter: @ketab_n

كلمات وجيعة، نحن الظرفاء المدللون في بلاط الملك، ملك البؤس، الملك المتوج الذي يهيمن علينا، وحين لا نكون عاقلين يشد على خناقنا، تلتف أصابعه دوماً حول أعناقنا. حتى نعجز عن النطق، ينبغي أن نتنبّه جيداً إذا ما أردنا تناول الطعام.. إنه يخنقك مجاناً وبلا ثمن. هذا غير محتمل..

ــ ولكن، هناك الحب يا باردامو!

ــ الحب اللانهائي موجود عند الكلاب يا أرتور، وأنا لدي كرامتي. أجبته:

ــ فلنتحدث عنك أنت إذن، لست إلا فوضوي، وهذا كل شيء.

ياله من ماكر صغير، وأنتم ترون ذلك في رده الآن، وفي اعتماده على كل ما كان هناك من أفكار مسبقة.

«أنت قلت ذلك، مزهواً متشدقاً، بأنني فوضوي، وأنا أقدم لك أفضل دليل على فوضويتي. لقد ألّفت نوعاً من صلاة انتقامية ــ اجتماعية، ستقول لي على الفور بأنني فوضوي فعلاً: الأجنحة الذهبية، ذلك هو عنوانها»، وتلوتها له حينئذ:

إله يعد الدقائق والقروش؛ إله قانط، شبق، ينخر مثل خنزير، خنزير بأجنحة ذهبية ترفرف في كل مكان، وببطن مشرّع في الفضاء، يتوق للمداعبة. ذلكم هو، سيدنا، فلنعانقه!

ــ «قطعتك الصغيرة هذه لا تصمد أمام الحياة، لقد توصلت أنا إلى تأييد النظام القائم، ولست معنياً بالسياسة، ومع ذلك، فحين يدعوني الوطن إلى التضحية من أجله فلن يجدني متقاعساً بالتأكيد، بل مستعداً لتقديمه له» ذلك ما أجابني به.

كانت الحرب تقترب منا كلينا، دون أن نعي شيئاً عنها. لم أعد أعاند أرتور كثيراً. فقد كانت هذه المناقشة القصيرة ولكن النزقة قد أتعبتني. كنت منزعجاً،

Twitter: @ketab_n

أيضاً، لأن عامل المقهى عاملني بنوع من الفظاظة بسبب البخشيش. وفي النهاية تصالحنا أنا وأرتور تماماً، واتفقت آراؤنا حول كافة الأمور تقريباً.

«هذا صحيح، أنت محق بوجه الإجمال، وافقت أرتور مصالحاً. ولكننا جميعاً في النهاية، جالسون، على ظهر سفينة، نجدّف بملء أذرعتنا، لا تستطيع أن تقول لي خلاف ذلك.. جالسون فوق مسامير تشدنا جميعاً. وما الذي نجنيه من ذلك؟ لا شيء، ضربات بالهراوة حسب، ضنك شديد، أكاذيب، ضروب من الأذى أيضاً. ثم نقول، ها نحن نعمل! ولكن عملنا هذا أفظع من كل ما تبقى من العمل في السفينة. إننا في قاع السفينة نتنفس بجهد من أشداقنا، متعفنين، ننضح بالعرق والهباب. وفي الأعلى، على سطح السفينة، في الهواء الطلق هناك السادة الذين لايقومون بأي عمل من تلك الأعمال، بصحبتهم نساء جميلات متوردات، عابقات بالعطور تفوح من ركبهن، يطلبون منا الصعود إلى سطح السفينة، وحينذاك، يعتمرون قبعاتهم بكثير من الأبهة، ويصيحون بنا بأعلى صوتهم هكذا: «أيتها العصابة القذرة من قطاع الطرق! إنها الحرب، وحين نقترب منهم، نحن القذرون الذين نقيم في الوطن رقم ٢، يفتحون لنا الصناديق. هيا، هيا، كل ما يلزمكم موجود على ظهر السفينة: الجميع بصوت واحد. لتطلقوا في البداية صيحة واحدة مدوية: يعيش الوطن رقم ١! وتُسمع الصيحة من بعيد! ومن يصرخ بصوت أعلى سينال الميدالية وبركة المسيح.. ومن لا يريد الهلاك في البحر، فيمكنه دوماً أن يختار الهلاك على اليابسة، وسيكون هلاكه هنا أسرع من هناك "الأمر هكذا تماماً" وافقني أرتور. وقد غدا بالإمكان إقناعه بسهولة .

في تلك اللحظة بالضبط، مر أمام المقهى، حيث كنا نجلس، فوج عسكري يتقدمه كولونيل على صهوة جواده تبدو على محياه علائم النبل والبسالة الفائقة. فما كان مني إلا أن وثبت من مقعدي وثبة ملؤها الحماس.

Twitter: @ketab_n

«سأرى إن كان الأمر يسير على هذا النحو» صُحت بأرتور. ها أنا ذاهب للتطوع، ودون تأخير أيضاً.

«أنت غير....... يا فردناند» صاح بي أرتور، مغتاظاً بلا ريب من الأثر الذي أحدثته حركتي في الجمع المحتشد حولنا. شعرت بالاستياء قليلاً، لأنه أخذ الأمر على هذا النحو. ولكن ذلك لم يثنني، كنت قد عقدت العزم «أنا على استعداد، لن أتراجع!» قلت لنفسي.

«سترى، يالفت!» كان ما يزال لدي الوقت لأصرخ في وجهه قبل أن ينعطف الشارع. وينعطف الفوج خلف الكولونيل وموسيقاه. هكذا حدثت الأمور بالضبط.

مشينا مسافةً طويلة بعد ذلك، كان ما يزال هناك المزيد من الشوارع احتشد فيها مدنيون ونساؤهم يهتفون لنا هتافات التشجيع ويرشقوننا بالزهور، من الأرصفة، وأمام المحطات، ومن الكنائس المكتظة بالمصلين، كان هناك الكثير من الوطنيين!.. ثم بدأ عددهم يتناقص بعد أن هطل المطر، وصار يقل أكثر فأكثر.. ولم تعد تسمع قط صيحة تشجيع، على الطريق.

لم يتطوع إذن سوانا من بين الوطنيين؟ بعضنا وراء البعض الآخر؟ ثم توقفت الموسيقا عن العزف. «باختصار، قلت لنفسي حينذاك حينما رأيت ما آلت إليه الأمور. لم يعد هذا مسلياً! لابد من إعادة النظر في الأمر. وكنت سأهم بالانصراف، ولكن الأوان قد فات، كانوا قد أغلقوا الباب بهدوء خلفنا، نحن المدنيين، كنا قد فعلنا، مثلما تفعل الفئران حينما تقع في المصيدة.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

حينما تمّ الأمر. تمّ على أحسن وجه. أركبونا على حصان، وبعد مضي شهرين فوق ظهره، أعادونا راجلين، ربما لأن كلفة الخيول كانت باهظة جداً. وذات صباح بحث الكولونيل عن حصانه فلم يجده، كان تابعه قد ذهب به لايدري أحد إلى أين، والأرجح أنه قاده إلى مكان صغير لا ينفذ إليه الرصاص بسهولة مثلما كان ينفذ إلى وسط الطريق، ذلك لأننا كنا قد انتهينا إلى الوقوف هناك بالضبط، أنا والكولونيل، في عرض الطريق تماماً، وكنت أنا أحمل سجله الذي كان يدوّن فيه أوامره.

على مسافة بعيدة منا، فوق الطريق المعبد، بقدر ما كان بوسعنا النظر، كان ثمة نقطتان سوداوان في وسط الطريق، مثلنا تماماً، كانتا شبحي جنديين ألمانيين منهمكين في الرمي منذ ربع ساعة.

ربما كان، كولونيلنا، يعلم لماذا كان هذان الألمانيان يطلقان النار، ولعل الألمانيين أيضاً كانا يعلمان، أما أنا، فلم أكن على علم في الحقيقة. كنت أنقّب في أعماق ذاكرتي، لم أكن قد فعلت شيئاً يسيء للألمان، كنت دائماً لطيفاً جداً ومهذباً معهم، وكانت لدي بعض المعرفة بهم، فقد تعلمت وأنا صغير في إحدى مدارسهم، في ضواحي هانوفر، وتكلمت لغتهم، كنا حينذاك مجموعة من الصغار البلهاء الصخابين، بعيون شاحبة زائغة كعيون الذئاب، كنا نذهب معاً، بعد الانصراف من المدرسة، إلى الغابة المجاورة لنتحسس أجساد الفتيات، ولنرمي بالمقاليع الصغيرة والمسدسات التي نشتريها بأربعة ماركات، ونشرب البيرة المحلاة بالسكر. ولكن بين هذا وبين أن نطلق النار على بعضنا الآن وفي وسط

Twitter: @ketab_n

الطريق، حتى من دون أن نتحادث فيما بيننا في أول الأمر، كان هناك مسافة، بل هوة عميقة. ما أفدح الفرق!

كانت الحرب بوجه الإجمال تمثل بالنسبة إليّ كل ما كنت أعجز عن فهمه ولا أستطيع الاستمرار به.

هل حدث إذن بين هؤلاء الناس شيء ما غير مألوف؟ لم أكن أستشعره أنا على الإطلاق. وما كنت خليقاً أن أدركه؟

لم تكن مشاعري قد تغيرت قط تجاه الألمان. كانت تراودني رغم كل شيء، رغبة في محاولة فهم شراستهم، ولكن كانت لدي رغبة أكبر أيضاً بالذهاب بعيداً جداً بالتأكيد، لفرط ما بدا لي كل ما كان يدور، نتيجة لخطأ فادح.

«في مثل هذا الوضع، ليس هناك ما يمكن فعله، ليس ثمة سوى الفرار» كنت أحدث نفسي، في نهاية المطاف.

على بعد ميلمترين فوق رؤوسنا. أو ميلمتر واحد ربما من صدوغنا كانت تلك الخطوط الفولاذية الطويلة المغوية تقبل مرتجة، واحداً بعد الآخر، تخطها الرصاصات التي تبغي قتلك. في غمرة قيظ الصيف.

ما شعرت قط في يوم من الأيام بهذا القدر من العبث وأنا وسط كل تلك الطلقات، وتحت أشعة هذه الشمس، يا لها من سخرية مريرة شاملة.

لم يكن لي من العمر آنذاك، سوى عشرين عاماً. على البعد كانت تلوح للنظر مزارع مهجورة، وكنائس خاوية أو مفتوحة على مصاريعها، كما لو كان الفلاحون قد غادروا جميعاً تلك القرى للاحتفال بأحد الأعياد في الطرف الآخر من المقاطعة، وعهدوا إلينا بكل ما كانوا يملكون، قراهم، وعرباتهم، وعرائشهم المعلقة، وحقولهم، وحدائقهم المسيّجة، والطريق والأشجار وحتى الأبقار، وكلب مربوط بسلسلته، وكل شيء، كي نجد أنفسنا مطمئنين كل الاطمئنان، لأن نفعل ما

Twitter: @ketab_n

نشاء أثناء غيابهم. كان ذلك يبدو لطفاً منهم. «على أي حال، لو لم يكونوا في مكان آخر ــ قلت لنفسي ــ لو كان ما يزال منهم أناس هنا فلن نتصرف، بالتأكيد، بهذه الطريقة الشائنة، بهذا القدر من الإساءة، لن نتجرأ على ذلك أمامهم. غير أن أحداً لم يعد موجوداً ليراقبنا. ما من أحد سوانا، على غرار الأزواج الذين يقترفون أشنع الموبقات. حينما يغيب بعضهم عن بعض».

كنت أفكر أيضاً (خلف شجرة) بأنني لو استطيع أن أرى ديروتيد[١] هنا، ذلك الشاعر الذي حدثوني عنه كثيراً، وشرحوا لي أشعاره، ترى ما الذي كان سيفعله، لو أنه تلقى رصاصة في وسط كرشه.

كان ذانك الألمانيان جاثيين فوق الطريق، عنيدين، يطلقان النار خبط عشواء، ولكنهما كما يبدو يملكان من الرصاص مخازن مملوءة، من دون شك، لم يكن للحرب نهاية بالتأكيد. كان كولونيلنا، لابد من قول ذلك، يبدي بسالة مذهلة، كان يتجول وسط الطريق المعبد، طولاً وعرضاً بين خطوط الرصاص المتجهة صوبه، بالبساطة، التي ينتظر فيها صديقاً على رصيف المحطة، فاقد الصبر حسب..

فيما يتعلق بي، لابد لي، من القول، منذ البداية، بأنني كنت أمقت الريف مقتاً شديداً. لقد وجدته على الدوام غارقاً في الكآبة، بأوحاله التي لا نهاية لها، وبيوته التي لا يقيم فيها أصحابها قط، ودروبه التي لا تفضي إلى مكان، وحين تضاف الحرب إلى كل ذلك، فإنه لا يطاق. هبت ريح عاصفة، من جوانب المنحدرات، واختلط حفيف أوراق الحور بأصوات الأزيز الصماء القادمة نحونا من هناك.. كان أولئك الجنود الذين لا نعرف عنهم شيئاً،

---

(١) بول ديرويد: باريس ١٨٤٦ ــ ١٩١٤ كاتب وسياسي فرنسي، ومؤلف أغان وطنية (أغنيات الجندي).

Twitter: @ketab_n

يخطئوننا باستمرار، ولكننا ونحن محاطون بألف موت، كنا نجد أنفسنا مستعدين لاستقباله. ولم أعد أجرؤ على الإتيان بحركة.

كان الكولونيل، إذن، وحشاً، كنت متأكداً من ذلك، أسوأ من كلب. لم تكن ميتته تخطر له على بال. كنت أتصور في الوقت نفسه بأن هناك العديد من أمثاله بلا شك، من الشجعان في صفوف جيشنا، ومثلهم أيضاً في صفوف الجيش المقابل. منذا الذي يعرف عددهم؟ واحد، اثنان، عدة ملايين ربما، في كلا الجيشين. وتحول خوفي إلى هلع، فمع مثل هذه الكائنات كان يمكن لهذا الغباء الجهنمي أن يستمر إلى ما لا نهاية، ولماذا يتوقفون؟ لم أشعر في يوم من الأيام بأن قرار البشر والأشياء كان أشد قسوة مما هو عليه الآن.

هل سأكون إذن، الجبان الوحيد على سطح الأرض؟ خطر لي ذلك، وبأي فزع!.. كنت ضائعاً بين مليونين من المجانين البطوليين الهائجين والمدججين حتى شعرهم بالسلاح؟. بخوذات ودون خوذات، بخيول، بدراجات نارية هادرة، بسيارات. صافرين، قانصين، متآمرين، طائرين في الجو، جاثمين على ركبهم حافرين في التراب، متسللين، واثبين في الدروب والمعابر، مفرقعين، محبوسين فوق الأرض كأنما داخل كوخ، لكي يدمروا كل شيء، ألمانيا وفرنسا والقارات، وكل من يتنفس، أشد سعاراً من الكلاب، يعشقون سعارهم (وهو ما لا تفعله الكلاب) أشد سعاراً بمئة مرة، ألف مرة، من ألف كلب، وأكثر فساداً وفجوراً! ما كان أجملنا! لقد انخرطت بالتأكيد في حملة صليبية قيامية، ذلك ما كنت أتصوره.

كنت ما إزال غراً أمام الأهوال مثلما أمام الملذات. كيف كان بمقدوري أن أتخيل كل هذا الهول حينما غادرت ميدان كليشي؟ منذا الذي كان يستطيع أن يتكهن بكل ما كانت تحتويه الروح القذرة البطولية للبشر، قبل الدخول فعلاً

Twitter: @ketab_n

في أتون الحرب؟ وها إني أقع الآن في فخ هذا الانفلات الجماعي، باتجاه القتل بالجملة، باتجاه النار.. كان ذلك صادراً عن الأعماق السحيقة. وها قد انفلت الآن.

لم يتعثر الكولونيل في سيره قط، كنت أشاهده فوق التلعة يتسلم رسائل صغيرة من الجنرال، ثم يمزقها نتفاً بعد أن يقرأها بكل تمهل بين زخات الرصاص. ألم يكن هناك إذن في أي من هذه الرسائل أمر بإيقاف شامل لهذه الفظاعة؟ ألم يقولوا له، إذن، في القيادة العليا بأن في الأمر خطأ ما؟ خطأ شنيعاً، سوء تفاهم؟ وأننا كنا مخدوعين؟ وأن هذا كله ليس سوى مناورات أرادوا القيام بها من أجل الضحك والمزاح، وليس مجزرة. ولكن لا، لا شيء من هذا، بل: «تابع أيها الكولونيل! أنت على الطريق الصحيح!» ذلكم من دون شك ما كان يكتبه له الجنرال انتراي، قائد الفرقة، قائدنا جميعاً والذي كان يرسل إلى كولونيلنا كل خمس دقائق رسالة، يسلمها له جندي ارتباط، كان الخوف في كل مرة يجعل لون هذا الجندي أشد اخضراراً، ويصيب معدته بالإسهال، كنت سأجعل من هذا الفتى أخاً لي في الرعب، غير أنه لم يكن ثمة وقت للتآخي.

ما من خطأ إذن، وما كنا نقوم به من التراشق بالنار على هذا النحو، من دون حتى أن نرى بعضنا لم يكن ممنوعاً، كان هذا يُعد من الأمور التي يمكن أن يقوم بها المرء دون أن يستحق اللوم والتأنيب، لا بل إنه كان مقرّراً، يحوز على التشجيع من دون ريب من قبل أصحاب الشأن، مثله مثل اليانصيب، ومثل الخطوبة، والصيد بالكلاب.. كان أمراً مسلماً به. كنت أكتشف الحرب بكل أهوالها دفعة واحدة.. لقد أزيلت بكارتي. ينبغي أن يقف المرء أمامها وحيداً تقريباً مثلما كنت في تلك اللحظة حتى يرى فظاعتها، مواجهة وجانبياً، لقد أشعلوا الحرب بيننا وبين أولئك الذين يواجهوننا وحمي

Twitter: @ketab_n

وطيسها الآن، على غرار التيار الكهربائي الذي يسري بين قطبين من الكربون داخل المصباح الكهربائي، دون أن يكون الكربون موشكاً على الانطفاء، وهو سيصعق الجميع، الكولونيل والآخرين، وكل ماكر مهما بلغ به المكر، وسيشوي لحمه ليس أقل مما سيشوي لحمي حينما سيمر القطب المقابل بين كتفيه.

هناك طرق عديدة للحكم على المرء بالموت. آه. كم كنت سأعطي في تلك اللحظة بالذات لكي أكون بين جدران السجن بدلاً من أن أكون هنا، أنا الأبله القميء، لو كنت قد سرقت شيئاً ما من مكان ما، حينما كان ذلك سهلاً جداً، مدركاً عواقب ذلك، أيام كان الوقت ما يزال مناسباً. هناك في السجن لايفكر المرء بأي شيء، وهو يخرج منه حياً، فليس ثمة حرب. وما تبقى كلام في كلام.

لو كان ما يزال لدى الوقت، ولكن لم يعد لدي، لم يعد ثمة شيء أسرقه! كنت أحدث نفسي، كم سيكون الجو رائعاً داخل سجن هادئ، لا ينفذ إليه الرصاص، لا ينفذ أبداً، كنت أعرف سجناً مجهزاً أفضل تجهيز، ضد الشمس وضد الحر! عبرت ذكراه كما لو في حلم، إنه سجن سانت جيرمين، القريب جداً من الغابة، كنت أعرفه جيداً وكنت أمر به غالباً فيما مضى، لكم يتغير المرء! كنت طفلاً آنذاك وكان ذلك السجن يثير مخاوفي لأنني لم أكن أعرف البشر بعد، لم أعد أصدق ما يقولونه على الإطلاق، ولا ما يفكرون به. من البشر، من البشر وحدهم، ينبغي أن يخاف المرء على الدوام. ترى كم من الوقت ينبغي انِ يستمر جنونهم حتى يتوقفوا مستنفَدين أخيراً، هؤلاء الوحوش؟ أشهر، سنوات، كم؟ ربما إلى أن يموت البشر جميعهم، أن يموت المجانين كافة؟ حتى آخر مجنون؟

Twitter: @ketab_n

لما أخذت الأحداث هذا المظهر الموئس. قررت المجازفة بالكل من أجل الكل، القيام بالمسعى الأخير، واليائس، أن أحاول، أنا وحدي إيقاف هذه الحرب! في الجانب الذي كنت فيه، على الأقل.

كان الكولونيل يتسكع على بعد خطوات مني. اتجهت نحوه لأكلمه. لم أكن قط قد فعلت ذلك من قبل، هذا أوان الجرأة. فهنا حيث نحن، لم يعد ثمة ما يخسره المرء تقريباً. «ماذا تريد؟» سألني، وقد فوجئ بلا شك من جرأتي على مقاطعته، كنت سأشرح له الأمور حينئذ، مثلما كنت أتصورها، وسأرى ما الذي كان يفكر به، المهم هو أن نتفاهم ونحن في الحياة، لأن من الممكن لشخصين اثنين، التوصل إلى رأي صائب أفضل من شخص بمفرده.

كنت على وشك القيام بهذا المسعى الحاسم حين وصل إلينا في تلك اللحظة بالضبط، وبخطوات سريعة جداً، منهوكاً ومخلع الحركات، خيّال راجل (هكذا كنا نسمي آنذاك جنود الخيالة الذين لا خيول تحتهم) حاملاً بيده خوذته مقلوبة على غرار بيليزير (جنرال بيزنطي) مرتعداً وملطخاً بالوحل ووجهه أشد اخضراراً، أيضاً، من وجه جندي الارتباط الآخر الذي كان يحمل الرسائل إلى الكولونيل، كان لا يفتأ يغمغم وقد بدا عليه كما لو أنه مصاب بمرض غريب، أو كمن خرج من القبر، كأن ألماً شديداً يعتصر قلبه، لم يكن هذا الشبح إذن يحب الرصاص هو أيضاً؟ ويتوقع خطره مثلي؟

«ما هذا؟» أوقفه الكولونيل على الفور، بخشونة، منزعجاً، مسلطاً على هذا الشبح نظرة فولاذية.

حين رأى الكولونيل هذا الخيال الزري، بزيه الغريب والبعيد عن الزي النظامي، وقد استحوذ عليه به الانفعال والهلع، استبد به السخط، فهو لم يكن يحب الخوف إطلاقاً، ذلك بديهي، كما أن تلك الخوذة على الأخص، التي

Twitter: @ketab_n

يحملها بيده، على غرار قبعة ميلون الدائرية كانت قد أحدثت أثراً مثبطاً في فوجنا المهاجم، وهو فوج كان يندفع بقوة في الحرب. كان يبدو على هذا الخيال الراجل وهو يدخل كما لو أنه يحييّ الحرب بخوذته.

تحت تلك النظرة القاسية كان الرسول المترنح يقف وقفة «استعداد» وأصابعه الصغيرة فوق درزة بنطاله. مثلما ينبغي للجندي أن يفعل في مثل تلك المواقف، كان يرتجف، على هذا النحو، متصلباً فوق التلعة، متصبباً عرقاً على امتداد أوداجه، وكان فكاه يصطكان بقوة بالغة مطلقاً صرخات قصيرة مخنوقة. على غرار كلب صغير يحلم. لم يكن بمقدور أحد أن يتبين ما إذا كان يتكلم أم أنه كان يبكي.

كان ألماننا الجاثمون في الطرف الأقصى من الطريق قد استبدلوا آلة رميهم، وواصلوا حماقاتهم برشاش، كانوا يمزقون الجو بطلقاته مثل رزم من عيدان الكبريت، وكان الرصاص الغاضب من حولنا يتطاير مثل أسراب النحل. مدبباً مثل إبره.

أفلح الرجل، رغم كل شيء، في أن يخرج من فمه شيئاً ما واضحاً «الماريشال باروس لقي مصرعه سيدي الكولونيل» قالها دفعة واحدة.

ـ وإذاً؟

ـ قتل وهو ذاهب للبحث عن مقطورة الخبز على طريق ايتراب سيدي الكولونيل!

ـ وإذاً؟

ـ تطايرت أشلاؤه بقذيفة مدفع!

ـ وإذاً؟ اللعنة

ـ هذا كل شيء، سيدي الكولونيل

Twitter: @ketab_n

ـ هذا كل شيء؟

ـ نعم هذا كل شيء. سيدي الكولونيل

ـ والخبز؟ سأل الكولونيل

بهذه العبارة انتهت تلك المحاورة، لأنني أذكر جيداً بأن الكولونيل وجد الوقت ليقول: «والخبز؟»، وكان هذا كل شيء. وبعدئذ لا شيء سوى النار ومعها الدوي، ولكنه من ذلك النوع الذي لا يصدق المرء بأنه قد سمع مثله في يوم من الأيام. فقد امتلأت به، في الحال مآقينا وآذاننا وأنوفنا وأفواهنا، حتى بت أحس، على الرغم من أنه قد انتهى، بأنني غدوت أنا نفسي من النار والدوي.

وبعد ذلك، لا! انقشعت النار أخيراً، ولكن الدوي لبث زمناً طويلاً داخل رأسي، وفي ذراعيّ وساقيّ، والتي كانت ترتجف كما لو أن أحداً كان يهزها بقوة. وبدت أطرافي كأنما ستنفصل عني، ولكنها بقيت مع ذلك معلقة بجسمي. ووسط الدخان الذي لفح عيوننا زمناً طويلاً ظلت رائحة البارود والكبريت عالقة بنا كأنما لتقتل كل ما في الأرض من البق والبراغيث.

فكرت على الفور، بعد ذلك، بالماريشال باروس الذي تطاير أشلاء كما أخبرنا بذلك الجندي الآخر. كان هذا خبراً سعيداً، نعم ما حل به! كنت أفكر حينئذ على هذا النحو: «كان بالتأكيد وغداً كبيراً، داخل الفوج، على الأقل» لقد أراد أن يحيلني إلى مجلس التأديب من أجل علبة محفوظات. «لكل إنسان حربه!». قلت لنفسي. من هذا الناحية، لابد من الاعتراف بين وقت وآخر، بأن للحرب، كما يبدو، فائدة ما، كنت أعرف أيضاً ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الأوغاد الذين كنت سأساعد، بكل طيبة خاطر، في البحث لهم عن قنابل مثل باروس..

Twitter: @ketab_n

أما الكولونيل، فما كنت أتمنى له السوء،غير أنه مات مع ذلك. ما عدت أراه في بادئ الأمر، كان الانفجار قد طوح به من فوق التلعة، كان ممدداً على الأرض طريحاً بين ذراعي المراسل جندي الخيالة الراجل. الذي لفظ أنفاسه هو أيضاً. كان الاثنان متعانقين في تلك اللحظة وحتى الأبد. ولكن جندي الخيالة كان بلا رأس، لا شيء سوى فتحة فوق العنق يفور داخلها الدم، مبقبقاً مثل المربى داخل القدر. كان بطن الكولونيل مفتوحاً، وقد رسم على وجهه تكشيرة قذرة، لاشك أن هذه الضربة قد أزهقت روحه في اللحظة التي حدثت فيها. وأسفا له! كانت تلك غلطته فلو أنه ذهب بعد الرصاصات الأولى لما أصابه سوء.

كل ذلك اللحم كان ينزف معاً بغزارة مريعة.

كانت ثمة قنابل ما تزال تنفجر ذات اليمين وذات الشمال فوق الميدان الفسيح.

غادرت تلك الأمكنة دون إبطاء، سعيداً كل السعادة لأن لدي حجة مقنعة أتذرع بها، كنت أدندن كذلك وأنا أسير مترنحاً، مثل من انتهى للتو من مباراة للتجديف، وصارت ساقاه رخوتين قليلاً. «قنبلة واحدة! لقد سويت الأمور مع ذلك بقنبلة واحدة» كنت أحدث نفسي. «آه! ما قولك يا فرديناند: كنت أكرر طوال الوقت، آه! ما قولك يا فرديناند!..».

لم يكن ثمة شخص في نهاية الطريق. كان الألمان قد رحلوا، ومع ذلك فقد علمتني تلك الضربة، بسرعة فائقة، ألا أسير بعد الآن إلا إلى جانب الأشجار. كنت أتعجل الوصول إلى المعسكر لأعرف ما إذا كان ثمة آخرون قد اختطفهم الموت في مواقع الاستطلاع الأمامية، كنت أحدث نفسي، لابد أن هناك وسائل ناجعة، لكي يقع الإنسان في الأسر. كانت سحب الدخان برائحتها

Twitter: @ketab_n

النفاذة ما تزال تتصاعد من جثث القتلى «لعلهم ماتوا جميعاً الآن؟ رحت أتساءل، فما داموا لا يريدون أن يفهموا أي شيء، سيكون مفيداً وعملياً أن تزهق أرواحهم جميعاً، وبأقصى سرعة.. هكذا سأتخلص من كل شيء، وعلى الفور.. سأرجع إلى بيتي.. وسأمر، ربما من جديد في ميدان كليشي مظفراً، سينجو واحد أو اثنان فقط ربما.. كنت أتمنى ذلك.. فتيان لطفاء مفعمون بالقوة، يمشون خلف الجنرال. سيكون الآخرون جميعاً قد ماتوا، مثل الكولونيل.. مثل باروس.. مثل فاناي (ضابط شديد القسوة أيضاً).. الخ. سيغمروننا بالأوسمة والزهور. ونحن نمر تحت قوس النصر. وحين ندخل إلى المطعم. سيقدمون لنا الطعام دون أن يطلبوا الثمن. لن ندفع بعد الآن شيئاً. لن ندفع في أي يوم من الأيام. سنقول عند دفع الحساب، نحن الأبطال!... المدافعون عن باريس! يكفي ذلك! سندفع بدل المال أعلاماً فرنسية صغيرة.. سترفض موظفة الصندوق أيضاً، أن تأخذ نقوداً من الأبطال، بل إنها ستقدمه لنا، مع القبلات، حين نمر أمام الصندوق. ألا أن كل هذا يستحق عناء العيش من أجله».

لاحظت، أثناء هروبي، أنني كنت أنزف من ذراعي، غير أن ذلك لم يكن سوى خدوش بسيطة، لابد من الإمعان في الفرار.

عاد المطر ينهمر من جديد، كانت حقول الفلاندر تغرق في ماء كدر، ومر وقت طويل، لم أصادف فيه أحداً، لا شيء سوى الريح، وبعد الريح الشمس، كنت أترقب بين وقت وآخر رصاصة لا أدري من أين، تبحث عني عبر الشمس والفضاء، طائشة، مصممة على قتلي وسط تلك العزلة، قتلي أنا. لماذا؟ لن أطأ أرض الريف أبداً، بعد الآن حتى لو عشت مئة سنة، أقسم على ذلك.

فيما كنت أحث السير، تذكرت احتفال فوجنا في الليلة الماضية، والذي أقمناه في أحد المروج، خلف الرابية. كان الكولونيل بصوته الجهوري يخطب

Twitter: @ketab_n

بالفوج مردداً: «البسالة! مزيداً من البسالة! ـ تحيا فرنسا!» حين لا يملك المرء خيالاً، فإن موته لا يساوي شيئاً بالنسبة إليه، أما إذا كان يتمتع بالخيال فإن موته أمر مهول إلى أبعد حد، ذلكم هو رأيي، لم أدرك في حياتي أموراً متعددة كهذه ودفعة واحدة.

لم يكن لدى الكولونيل خيال على الإطلاق. كل تعاسة هذا الرجل ناجمة عن ذلك، وتعاستنا على الأخص. هل كنت إذن الشخص الوحيد في الفوج الذي يتخيل الموت؟ كنت أفضل أن يتأخر تخيلي لميتتي، عشرين سنة، ثلاثين سنة، وأكثر ربما، على الموت الذي يريدونه لي الآن تواً، كنت أفضّل أن ألتهم وحل الفلاندر بفمي الملآن على أن ينشق فمي ذاته حتى أذني بشظية قنبلة.

للمرء كل الحق في أن يكون له رأي حول ميتته. ولكن إلى أين سأمضي الآن؟ هل أمضي مباشرة إلى الأمام؟ وظهري للعدو.

إذا ما وقعت في يد دورية من دوريات الدرك، فلن يساورني الشك بأن مصيري قد تقرر. سيحاكموني في المساء ذاته بسرعة فائقة، وبمنتهى البساطة، داخل صف من صفوف مدرسة خلت من تلاميذها. سيكون هناك صفوف عديدة فارغة، في كل مكان، حيثما نمر، ستكون عدالتهم معي أشبه بعدالة التلاميذ حين يخرج المعلم، أصحاب الرتب فوق المنصة، وأنا واقف أمام المقاعد الصغيرة مكبل اليدين، وحين يطلع الصباح، سيرمونني بالرصاص، اثنتا عشرة رصاصة زائد رصاصة.

عدت إلى التفكير في الكولونيل، كان رجلاً شجاعاً حقاً، كان يبدو بدرعه وخوذته وشاربيه، وهو يتجول تحت وابل الرصاص والقنابل، مثلما كنت أراه، كأنه يتجول في مسرح منوعات: كان المشهد خليقاً بقصر الحمراء في أيام مجده، سيكسف ربما شمس فراغسون أيام كان فارساً لا يشق له

Twitter: @ketab_n

غبار، ومع ذلك، فقد كانت تلح علي فكرة واحدة: «مزيداً من الجبن». ذلك ما كنت أفكر به.

بعد ساعات وساعات من السير متخفياً، وحذراً، وقعت أخيراً على جنودنا بالقرب من ضيعة صغيرة محفوفة بالبساتين، كانت عبارة عن موقع متقدم لقواتنا، تمركزت فيه إحدى السرايا، لم يكن بينهم قتلى، مثلما أخبروني. كان الجميع أحياء. أما أنا، الذي كنت أحمل الخبر العظيم «الكولونيل مات»، فقد هتفت به بصوت مرتفع ما أن شارفت على الموقع. «ليس الكولونيلات هم من ينقصنا».

رد العريف بستيل سريعاً، كان هو أيضاً يقوم بالحراسة حينئذ، وبمهمات السخرة كذلك.

«ريثما يعينون خلفاً للكولونيل، عليك إذن أيها الجزرة أن تتوجه حالاً إلى موقع توزيع اللحوم مع «امبوي وكيردونكيف». ليحمل كل منكم حقيبتين اثنتين.. يجري توزيع اللحوم خلف الكنيسة التي ترونها هناك، حاذروا أن تعودوا لنا بالعظام فقط، كما حدث البارحة.. وحاولوا أن تتدبروا أمر العودة إلى الفصيلة قبل هبوط الليل. أوغاد!»...

استأنفنا ثلاثتنا الطريق إذن، إلى مركز توزيع اللحوم.

«لن أخبرهم بعد الآن بأي شيء!» كنت أحدث نفسي، وقد تملكني الغيظ. كنت أرى بأنه لا حاجة إلى إخبار هؤلاء الناس بشيء، فالمأساة التي شهدتها ضاعت، بكل بساطة لدى هؤلاء الأوغاد! كذلك فإن الأوان كان قد فات على أن يثير ذلك اهتمام أحد. والقول بأن أربعة أعمدة في الصحف حول موت الكولونيل، مثلما شهدته أنا، كانت ستظهر قبل ثمانية أيام مضت، ومعها صورتي، هو مجرد بلاهة.

كانت كافة اللحوم المخصصة للفوج توزع إذن في أحد مروج آب، تظلله أشجار كرز، ويلتهب بحرارة أواخر الصيف. كان هناك كيلوغرامات وكيلو

Twitter: @ketab_n

غرامات من الأحشاء المكشوفة، مفروشة فوق أكياس الخيش وقماش الخيم، وفوق العشب أيضاً، بينها كتل مصفرة من الدهن باهتة اللون، وأعداد من الخرفان المبقورة، بكامل أعضائها، تسح دماً على شكل سواق سريعة الحركة، فوق الخضرة المحيطة بها، وثور بأكمله مقسوم إلى نصفين، معلق على شجرة، كان جزارو الفوج الأربعة منهمكين بتقطيع أجزاء كبيرة من جذعه، وهم يجدفون. كان أفراد الفصائل المختلفة يتبادلون الشتائم المقذعة، ويتنازعون على الشحوم الدسمة، وعلى الكلى بوجه الخصوص. وسط أسراب الذباب التي كانت تبدو للناظر في تلك اللحظات، لكثرتها وموسيقاها، كأنها طيور صغيرة.

إضافة إلى ذلك، كانت الدماء المنتشرة في كل مكان تشكل بقعاً رخوة، وسواقي جارية تبحث عن منحدر لتلتقي فيه، وقد نُحر آخر خنزير على بعد خطوات، واشتبك أربعة رجال مع أحد الجزارين في نزاع على أحشائه قبل إخراجها.

«أنت أيها المرتشي! من الذي أخفى بالأمس. حقوي الخروف»؟ كان ما يزال لدي الوقت لألقي نظرة أو نظرتين على تلك النزاعات اللحومية وأنا مستند إلى شجرة، كان علي أن أستسلم إلى نوبة إقياء وظللت أقيء حتى أغمي علي.

أعادوني إلى الموقع محمولاً على نقالة، ولكن ليس من دون أن يغتنموا هذه الفرصة ليسرقوا كيسيّ الكتانيين الأصفري اللون كليهما.

ثم استيقظت على صوت شتيمة أخرى من العريف. كانت المعارك ما تزال مستمرة.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

كل شيء يمكن أن يحدث في هذه الدنيا. وها أنذا أصبحت بدوري، عريفاً في نهاية شهر آب ذاته، كانوا يرسلونني غالباً مع خمسة من جنود الارتباط إلى المواقع الأخرى، لتبليغ أوامر الجنرال دي انتراي. كان هذا القائد ضئيلاً، صموتاً، ولم يكن يبدو للوهلة الأولى قاسياً ولا بطولياً، ولكن ينبغي الحذر، فقد كان، كما يبدو يفضل قبل كل شيء سائر ألوان الرفاهية، كان يفكر دون انقطاع برفاهيته، على الرغم من أننا كنا ملتحمين في القتال، ونحن نتراجع القهقرى، منذ أكثر من شهر، كان يشتم الجميع حينما لا يكون وصيفه قد وجد له، في كل موقع جديد سريراً نظيفاً جداً ومطبخاً عصرياً.

كان ذلك الشاغل الترفيهي يحمّل رئيس أركان الفوج، بشرائطه الأربع مشقة كبيرة. فالمتطلبات المنزلية للجنرال دي انتراي كانت تسبب له الضيق الشديد، لا سيما أنه كان مصفراً وممعوداً إلى حد بعيد، ومصاباً بالإمساك، لذا فهو لم يكن قط ميالاً إلى الطعام. كان يتوجب عليه مع ذلك أن يأكل حصته من البيض البرشت على طاولة الجنرال، وأن يستمع في تلك المناسبة إلى شكاواه، وسواء أكان عسكرياً حقيقياً أم لا، غير أني لم أكن متعاطفاً معه، لأنه كان وغداً كبيراً كضابط. لابد من قول ذلك. هكذا كنا إذن نجرجر أقدامنا حتى المساء من الطرقات إلى التلال، ومن حقول البرسيم إلى حقول الجزر. كنا نتوقف مع ذلك، كي نجد مكاناً آمناً، يتمكن جنرالنا من النوم فيه، كنا نبحث طويلاً كي نعثر له على قرية هادئة، تنعم بالأمان، لم تكن قد نزلت بها بعد أية قطعات عسكرية. وإذا ما وجدت قطعات داخل القرية فإنها سرعان ما

Twitter: @ketab_n

ترحل، لتخيم خارج القرية بكل بساطة، في الأرض العراء، حتى ولو كانت قد أعدت خرائط الرمي لبطاريات مدافعها.

كانت القرية حكراً على الجنرال، وحده، وعلى خيوله، ومطاعمه، وحقائبه، ومعه ذلك المقدم السافل أيضاً. كان ذلك الوغد يدعى بينسون، المقدم بينسون، كم أتمنى الآن أن يكون قد هلك (ولم يمت ميتة هادئة)، ولكن ذلك البينسون في الوقت الذي أتكلم عنه كان حياً يرزق بكل قذارة. كان يجمعنا كل مساء، نحن جنود الارتباط، ويوجه الينا شتيمة قاسية كي يجعلنا منضبطين، محاولاً أن يوقظ فينا الحماسة، ثم يطردنا بحنق شديد، نحن الذين كنا قد تجرجرنا طيلة النهار خلف الجنرال، راجلين وفوق الخيول، ثم راجلين من جديد، لننقل له أوامره، إلى كل مكان. كانوا سيفعلون خيراً، مع ذلك، لو أغرقونا، كي نخلص من كل ذلك، وهو ما كان أفضل لنا جميعاً.

«الجميع! هيا! اذهبوا إلى الأفواج، كان يصيح بنا..

ـ أين موقع الفوج، سيدي المقدم، كنا نسأله:

ـ في باربانييه

ـ وأين تقع باربانييه؟

ـ إنها هناك!».

هناك، حيث كان يشير، ما من شيء سوى الليل، مثلما في كل مكان، ليل بهيم يبتلع الطريق على بعد خطوة منا، ولا يظهر من وسط ظلمته الحالكة سوى طرف صغير من طريق طويل أشبه بلسان.

هيا إذن لنبحث له عن باربانييه في نهاية العالم، سيتطلب الأمر التضحية بسرية كاملة من أجل العثور على باربانييه، سرية من الشجعان أيضاً، وأنا الذي لم أكن قط شجاعاً ولم أكن أفهم لماذا سأكون شجاعاً، كنت

Twitter: @ketab_n

بلا ريب أقل رغبة من أي شخص آخر في العثور على «باربانييه» ذلك الوغد. والتي كان يذكرها هو نفسه بمحض الصدفة، كان وهو يقذفني بالشتائم المريرة يسعى إلى أن يخلق لدي الرغبة بالانتحار. ولكن هذه الرغبة إما أن تكون لدى المرء أو لا تكون.

وسط كل هذه الظلمة الكثيفة جداً، والتي يبدو لك فيها بأنك لن ترى قط ذراعك ما إن تمده أبعد من كتفك قليلاً، لم أكن أعرف إلا شيئاً واحداً، وكنت متيقناً منه حينئذ، ألا وهو أن هذه الظلمة كانت تكنّ في أعماقها نوايا إجرامية هائلة لا حصر لها.

لم يكن يتوانى قط ذلك الشدق الفظيع، رئيس أركان الفوج، عن إرسالنا كل مساء إلى المنية، كانت هذه الرغبة تنتابه في الأغلب عند غروب الشمس، وكنا نقاومه قليلاً بحجة الإنهاك والشلل الذي كان يعترينا ونتلكأ في فهم ما يقوله، ونتشبث بألف طريقة وطريقة بالمعسكر الهادئ ما وسعنا ذلك.. ولكننا أخيراً حين لا نعود نميز الأشجار بعد أن يعمّي الليل صور الأشياء كنا نضطر في النهاية إلى أن نذعن مع ذلك للذهاب إلى الموت، حين يكون عشاء الجنرال جاهزاً.

منذ تلك اللحظة، كان كل شيء يجري حسب مشيئة الصدفة. كنا نهتدي إلى الفوج وإلى باربانييه أحياناً، ولا نهتدي إليهما أحياناً أخرى، وحين نعثر عليهما فعن طريق الخطأ على الأخص، لأن جنود فصيلة الحرس كانوا يطلقون علينا النار ما إن نقترب منهم، فنتعرف بالتالي على بعضنا، بتلك الصورة، ثم نمضي الليل بطوله تقريباً في مهمات السخرة من كل صنف ولون، ننقل أحمالاً هائلة من حزم الشوفان، وسطولاً من الماء بالجملة، أو نتلقى سيلاً من الشتائم إلى أن يتمكن منا التعب، والنعاس أيضاً.

Twitter: @ketab_n

ما إن يطلع الصباح حتى نعود من جديد، جنود الارتباط الخمسة باتجاه موقع الجنرال دي انتراي، كي تستمر الحرب.

غير أننا في أغلب الأحيان لم نكن نعثر على أثر للفوج. كنا ننتظر فحسب، طلوع النهار، ونحن نلف وندور حول القرى، فوق دروب مجهولة وعلى تخوم ضيع خلت من سكانها، وأحراج مراوغة.. كنا نتحاشى الاقتراب منها قدر ما نستطيع، خوفاً من الدوريات الألمانية. كان علينا أن نكون في مكان ما مع ذلك، بانتظار الصباح، في مكان ما من الليل، لم يكن ممكناً، تجنب كل شيء. ومنذ ذلك الحين، عرفت ما كان ينبغي للأرانب البرية أن تستشعره في أماكن صيدها.

كنا في وضع يثير الشفقة. فإن قلنا للمقدم بينسون بأنه كان قاتلاً قذراً وجباناً فسندخل إلى قلبه سروراً أيما سرور، لأنه سيعدمنا رمياً بالرصاص فوراً، على يد ملازم الدرك الذي يلازمه كظله، والذي لم يكن يحلم بكل تأكيد سوى بذلك. لم يكن الألمان هم الذين نكّن لهم الضغينة، وإنما ملازم الدرك.

كان علينا إذن أن نطوف بين الكمائن طيلة ليال وليال، تتتالى غبية بلهاء، لا يحدونا سوى أمل واحد كان يغدو أقل فأقل معقولية، هو أن نعود إلى الفوج. نعود حسب، وإذا ما عدنا، فليس علينا أن ننسى أبداً، ولو للحظة بأننا كنا قد اكتشفنا فوق الأرض رجلاً قد يكون مثلك ومثلي، ولكنه لا يعيش إلا على الجثث والمصائب، على نحو أكثر هولاً من التماسيح وأسماك القرش التي تفتح شدقها الفاغر في الماء حول القوارب المحملة بالأقذار واللحوم المنتنة حين تسكب لها في عرض البحر، في هافانا.

الإخفاق الكبير، في النهاية هو النسيان، وعلى الأخص نسيان ما يودي بك إلى الهلاك أن لا تكون مدركاً إلى أي حد تبلغ قسوة البشر. وحين نكون

Twitter: @ketab_n

على شفا القبر. ينبغي ألا نتظاهر بالذكاء، ينبغي ألا ننسى كذلك، ينبغي أن نروي دون تبديل كلمة واحدة ما رأيناه لدى البشر من العيوب الأشد شناعة ثم نموت بعدها، وننزل في الحفرة، وهذا لعمري عمل، يكفي لحياة بأكملها.

لكم تمنيت أن تتاح لي الفرصة لأقدم لأسماك القرش، المقدم بينسون ومعه ضابط دركه لكي أعلّمهم كيف ينبغي عليهم أن يعيشوا، وأن تلتهم هذه الأسماك حصاني في الوقت ذاته حتى لا يعود يتألم، لأنه لم يعد له ظهر، ذلك الشقي الكبير. فلشدة ما ألم به من أذى لم يبق له من ظهره سوى صفيحتين عضليتين تحت السرج، بعرض كفيّ فقط، تنزان بنحو ظاهر سيولاً من القيح، يسح من حواف سرجه حتى ركبتيه، كان علينا مع ذلك أن نعدو به خبباً، واحد، اثنان.. كان جذعه يلتوي وهو يخب، ولكن الخيول ما تزال أكثر صبراً من البشر. كان يتموج أثناء عدوه، لم يعد بإمكاننا أن نتركه إلا في الهواء الطلق، أو في مخازن الحصيد بسبب الرائحة المنبعثة من جراحه. كانت تلك الرائحة تفوح بشدة حتى تكاد تخنقنا، وحين كنا نمتطي ظهره، فإن ذلك كان يسبب له ألماً، كان ينحني مطأطئاً كأنما عن تهذيب حتى ليبلغ بطنه حينذاك ركبتيه، كأننا كنا نمتطي حماراً. كان ذلك أسهل علينا، لابد من الاعتراف بذلك، وكنا نحن أنفسنا منهكين أشد الإنهاك، بسبب ما نكابده من أثقال الحديد فوق رؤوسنا، وعلى أكتافنا.

كان الجنرال دي انتراي في المنزل الذي حجز له ينتظر عشاءه. كانت طاولته قد أعدّت ووضع المصباح في مكانه:

«أغربوا جميعاً عن وجهي، تباً لكم! كان بينسون يأمرنا مرة أخرى بالرحيل، ويؤرجح مصباحه بالقرب من أنفه، سأتناول الطعام الآن، ولن أعود إلى تكرار ذلك، ألن تغرب عن وجهي هذه الجيف » كان يعوي أيضاً، وقد

Twitter: @ketab_n

استبد به الغيظ، وقد عاوده الكلب لإرسالنا إلى الهلاك من جديد، ذلك الأفعى!.. وظهرت على وجنتيه بعض الألوان.

كان طاهي الجنرال يقدم لنا أحياناً قبل الذهاب قليلاً من الطعام، كان لدى الجنرال أكثر مما يحتاجه من الطعام، ما دام أنه كان يصيب منه، كما تنص القواعد العسكرية أربعين حصة، له وحده. لم يعد شاباً ذلك الرجل، ينبغي أن يكون على عتبة التقاعد. فقد كان يحني ركبتيه حين يمشي. وكان يصبغ شاربيه بالتأكيد..

كانت شرايين صدغيه مرئية بوضوح على ضوء المصباح لحظة خروجنا، ترسم تعرجات أشبه بنهر السين لدى خروجه من باريس. كانت بناته كما يشاع قد تقدمن في السن، ولم يتزوجن، لافتقارهن إلى المال أسوة بوالدهن. ربما بسبب تلك الذكريات كان يبدو هرماً ومتذمراً على الدوام. على غرار كلب عجوز عكروا عليه عادته التي ألفها. فراح يحاول العثور على سلة فراشه في أي مكان حينما فتحوا له الباب.

كان يهوى الحدائق الجميلة والزهور، ولم يحرم نفسه فرصة أن يكون له حديقة ورد، في كل مكان نمر فيه. ليس ثمة من يحب حدائق الورد مثل الجنرالات، لا أحد يجهل ذلك.

بدأنا طريقنا في نهاية المطاف، كان الأمر يقضي بإخراج الفوج بهدوء من ذلك المكان على إيقاع قوائم الأرانب. كانوا خائفين من التحرك بسبب الجرحى أولاً، ثم إنهم كانوا خائفين منا ومن الليل أيضاً، كانوا خائفين من كل شيء، فكيف بنا نحن؟ الذين كنا نسير في المقدمة؟ كنا نلتفت عشر مرات إلى الخلف لنسأل المقدم عن الطريق، وكان ينعتنا عشر مرات بأننا أغبياء

Twitter: @ketab_n

ومتقاعسون قذرون، وأخيراً حثثنا الخيل واجتزنا آخر مراكز الحراسة. أبلغنا جنود الموقع الرسالة لينقلوها إلى فصيل المراسلة، ثم غصنا فجأة في مغامرة قذرة في غياهب تلك البلاد! التي لم يكن يسيطر عليها أحد..

لفرط ما طفنا بين الظلال المتشابكة، من أقصى الظل إلى أقصاه، التبس علينا الأمر بعض الالتباس، أو هكذا اعتقدنا على أي حال، فحين كانت تتبدى لنا غيمة بوضوح يخيّل إلينا بأننا كنا نرى في غيمة أخرى شيئاً ما من الأشياء.. غير أنه لم يكن أمامنا ما هو مؤكد سوى الصدى ذاهباً آيباً، صدى ضجة هائلة، لفرط ما كنا نتجنبها آنئذ. كانت الخيول تبدو وكأنها تخب حتى السماء، وتستدعي كل ما على الأرض من خيول، من أجل الفتك بنا، ولن يكون ذلك مستحيلاً، فبيد واحدة، وبمدفع رشاش، كان يكفي فتح النار من كمين ينتظرنا عند ضلع شجرة، كنت أحدث نفسي باستمرار بأن الضوء الأول الذي سأراه في هذا الليل لن يكون سوى طلقة بندقية حين تخرج من فوهتها.

أربعة أسابيع مرت على الحرب أشرفنا فيها على الإنهاك وانتابتنا تعاسة لا حد لها، حتى اني فقدت، من فرط التعب، بعضاً من خوفي ونحن نسيرعلى الطريق، وانتهى بنا العذاب الناجم عن القلق والاضطراب، نهاراً وليلاً بسبب هؤلاء الأشخاص، من ذوي الرتب العسكرية، والصغار منهم على الأخص، الأشد خبلاً، والأكثر حقارة والأعظم حقداً، من كل ما هو مألوف، انتهى بأشدنا صلابة وعناداً إلى الإحجام عن الرغبة بالعيش.

آه، يا للهفة الجارفة في الذهاب! والغرق في النوم! قبل كل شيء. وعندما لا تعود هناك وسيلة للذهاب إلى النوم، فإن الرغبة في العيش تتلاشى حينئذ من تلقاء ذاتها، غير أننا ما دمنا أحياء فسيكون علينا الانشغال بالبحث عن الفوج..

Twitter: @ketab_n

كي تجول الأفكار في دماغ أحد المغفلين ينبغي أن يتعرض لكثير من الأشياء والتجارب البالغة القسوة. أما ذلك الذي جعلني أفكر لأول مرة في حياتي، أفكر حقاً، وبأفكار عملية، تخصني، فقد كان المقدم بينسون بلا ريب، شدق التعذيب ذاك! كنت أفكر به بإلحاح ودون انقطاع، وأنا أترنح، مدججاً بالسلاح، مثقلاً بعتادي الحديدي الثقيل، تابعاً ثانوياً، في هذه القضية العالمية التي انخرطت فيها مدفوعاً بالحماس، أعترف بذلك.

كل متر في الظل الممتد أمامنا كان يحمل لنا وعداً جديداً بالهلاك، ولكن بأية طريقة؟ لم يكن ثمة ما هو غير متوقع في هذه الحكاية سوى زي الذي سيجهز علينا، أيكون زياً من عندنا أم زياً من الطرف المقابل.

لم أكن قد فعلت، أنا نفسي، ما يسيء إلى هذا البينسون، لا له ولا للألمان في الجهة الأخرى، برأسه الشبيه بدراقة متعفنة، وبشرائط رتبته الأربع التي كانت تتلامع في كل مكان فيه، من رأسه وحتى سرّته، وبشاربيه الخشنين، وركبتيه المدببتين ومناظيره المعلقة على عنقه مثل جرس البقرة. وخارطته ذات المقياس ١/١٠٠٠، وإذن؟ كنت أسأل نفسي، ترى أي سعار كان يتملكه كي يرسل الآخرين إلى الهلاك، أولئك الذين لم يكن لديهم خرائط يسترشدون بها.

كنا نحن الفرسان الأربعة نصدر جلبة على الطريق تعادل جلبة نصف فوج، كان لابد أن يسمعنا الألمان، ونحن قادمون نحوهم، من مسافة أربع ساعات، أو ربما كانوا لا يريدون أن يسمعونا. كان هذا محتملاً، لعل الألمان كانوا خائفين منا؟ من يدري؟

شهر من النعاس فوق كل جفن من أجفاننا، ذلك ما كنا نحمله، ومثله خلف رؤوسنا، بالإضافة إلى تلك الكيلوغرامات من الحديد.

Twitter: @ketab_n

كان فرساني المرافقين لي لا يجيدون التعبير عن أنفسهم، ولا يكادون يتفوهون بكلمة، كانوا فتياناً قدموا من أعماق بريتانيي لتأدية خدمتهم العسكرية، وكل ما كانوا يعرفونه لم يتعلموه في المدرسة. بل من الفوج. حاولت في ذلك المساء أن أتحدث. قليلاً عن قرية باربانييه مع الفارس الذي كان إلى جانبي وكان اسمه كيرسوزون.

«قل لي إذن، يا كيرسوزون، قلت له، هذه هي مقاطعة الأردين أنت تعلم، ألا ترى أنت أي شيء بعيد أمامنا؟ فأنا لا أرى شيئاً على الإطلاق».

«هذا مظلم جداً مثل مؤخرة أحدهم» أجابني كيرسوزون، وكان ذلك كافياً «قل لي إذن، ألم تسمع أحداً يتحدث عن باربانييه أثناء النهار؟ في أي مكان هي؟ سألته أيضاً:

- كلا

وهكذا انتهى الحديث

لم نعثر أبداً على باربانييه، كنا ندور حول أنفسنا وحسب، حتى الصباح، وساقتنا أقدامنا إلى قرية أخرى كان ينتظرنا فيها مقدمنا ذو المناظير. كان جنراله يرتشف بعض القهوة تحت أحد العرائش، أمام منزل العمدة، حينما وصلنا.

« آه، ما أروع الشباب، يابينسون!» هتف الجنرال العجوز بصوت عال جداً لافتاً أنظار رئيس أركانه حينما رآنا نمر، قال ذلك ثم نهض ومضى ليبول، ويقوم بجولة، عاقداً يديه وراء ظهره، محنياً إلى الأمام. كان الجنرال مرهقاً جداً ذلك الصباح، مثلما همس لي تابعه، وقد نام نوماً سيئاً، شيء ما في مثانته كان يقلقه، كما كان يشاع.

Twitter: @ketab_n

كان كيرسوزون يجيبني على الدوام جواباً مشابهاً حينما كنت أسأله عن الليل، وقد سلاني ذلك التكرار الذي كان يشبه عادة عصبية متحكمة، فقد كان يكرر ذلك مرتين أو ثلاث بخصوص الظلام والطيز، وبعد ذلك مات كيرسوزون، مات مقتولاً. في وقت متأخر، لدى خروجه من إحدى القرى، وأذكر ذلك جيداً، كنا قد توهمناها قرية أخرى، مات على يد فرنسيين توهمونا أشخاصاً آخرين.

بعد موت كيرسوزون ببضعة أيام فكرنا كثيراً، وعثرنا على وسيلة بسيطة سررنا بها أيما سرور، كي لا نتوه مرة أخرى في دياجير الظلام

كانوا يخرجوننا، إذن، خارج المعسكر. حسناً، لم نكن نتفوه قط بأي كلمة، ولم نعد نحتج.

«هيا انصرفوا، كان يقول لنا، جرياً على عادته الشدق المنقاري

«أمرك سيدي المقدم»

وها نحن أولاء ننطلق خمستنا معاً نحو نيران المدافع، دونما تلكؤ، كنا نفكر في التوجه نحو بساتين الكرز التي كانت منتشرة في ناحية من الأرض كثيرة الأودية، هي منطقة اللاموز، ذات الهضاب المغطاة بالكروم، والأعناب التي لم تنضج بعد، والخريف، والقرى المبنية من الأخشاب التي جففتها ثلاثة أشهر الصيف والتي كانت تشتعل بسهولة.

في ليلة من الليالي التي لم نعد نعرف فيها أين نولي وجوهنا، وقعت أنظارنا على قرية كانت تلتهمها النيران من جهة مدافع الألمان، لم ندن منها كثيراً، أكثر مما يلزمنا، كنا ننظر إليها فقط، كمراقبين، بعيدين بما يكفي، إن أمكن القول، على مسافة عشرة أو خمسة عشر كيلومتراً على وجه التقريب. وفي كل الأمسيات التي تلت، وفي الوقت ذاته تقريباً بدأ عدد من القرى يتوهج

Twitter: @ketab_n

في الأفق، وجعل ذلك يتكرر حتى بتنا كما لو أننا محاطون بحلقة عظيمة جداً من الاحتفالات الغريبة في سائر تلك القرى التي كانت تحترق أمام أبصارنا، من جهتين اثنتين، بألسنة من النار تتصاعد نحو السماء وتلحس الغيوم.

كنا نرى من مكاننا ألسنة اللهيب تأتي على كل شيء، الكنائس والأهراءات، بعضها في إثر بعض، وأكداس القش التي كانت تصدر لهيباً أشد اضطراماً، وأعلى من سواها، ثم العوارض الخشبية وهي تنتصب باستقامة، في قلب الليل، يتطاير منها شرر أشبه باللحى، ما تلبث أن تبتلعها أضواء اللهب.

كان مشهد النيران وهي تأتي على قرية من القرى يلوح للأنظار حتى على بعد عشرين كيلومتراً، وكان ذلك يبعث في نفوسنا الأنس، فحين تندلع النيران خلال الليل في أحد الضيع المجهولة، والتي لا يكاد أحد يتبينها في وضح النهار، فما من أحد يتصور الأثر الذي يمكن أن يحدثه ذلك، حتى يخيل إليك أنك أمام نوتردام، ولكن ذلك اللهيب كان يدوم الليل بطوله حينما يلتهم قرية مهما كانت صغيرة. ويتبدى المشهد في النهاية على هيئة زهرة عظيمة، ثم على هيئة بثرة صغيرة، ثم لا يعود هناك أي شيء..

كان الدخان يتصاعد من القرية، ثم ما يلبث أن يطلع الصباح.

كانت الخيول التي أطلقنا سبيلها، في الحقول، على مقربة منا، دون أن نرفع عنها السروج، جامدة دون حراك، أما نحن فكنا نستلقي على العشب ونسلم أنفسنا لطائر النوم ماعدا واحداً منا كان يقوم بحراستنا خلال نوبته، غير أننا حين يكون ثمة نيران حولنا، فقد كان الليل يمضي على نحو أفضل، إذ لم يعد ثمة ما نعانيه، لم يعد هناك شعور بالوحشة.

تعيسة تلك القرى التي زال أثرها من الوجود.. فبعد مرور شهر لم يبق منها قرية واحدة في تلك الناحية. كانت الغابات طعمة لنيران مدافعهم أيضاً،

Twitter: @ketab_n

وبعد ثمانية أيام لم يعد للغابات أثر. كانت نار الغابات جميلة أيضاً، ولكنها لم تكن تدوم طويلاً. وما أن انقضت تلك الأيام حتى شرعت أرتال المدفعية تصب حممها فوق جميع الطرقات من جهة، وفوق رؤوس المدنيين الفارين من الجهة الأخرى.

لم يعد بإمكاننا، في المحصلة لا الذهاب، ولا العودة. كان علينا البقاء حيث نحن.

كنا نذهب صفوفاً إلى الهلاك. ولم يعد الجنرال أيضاً يجد معسكرات خاوية من غير جنود. وانتهى بنا الأمر إلى النوم في أحضان الحقول، وبدءاً من تلك الأشهر جرى البدء بإعدام جنود رمياً بالرصاص على يد زمر مكلفة بذلك، وصار الدرك الآن يذكرون ضمن جدول الأعمال بصدد الطريقة التي كانوا يخوضون بها حربهم الخاصة. الحرب الأعمق غوراً، حقيقة الحقيقة.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

بعد استراحة دامت بضعة أسابيع، امتطينا خيولنا وتابعنا السير نحو الشمال، كان البرد يرافقنا أيضاً، ولم تفارقنا نيران المدافع قط. أنّى توجهنا، غير أننا نادراً ما كنا نلتقي بالألمان إلا بمحض الصدفة، نلتقي بجندي من الخيالة أحياناً أو بفصيل من رماة المدفعية، هنا وهناك، بزي أصفر أو بزي أخضر، كانت تلك ألواناً جميلة، كان يبدو علينا أننا نسعى في طلبهم. ولكننا كنا نمضي بعيداً عنهم ما إن نلاحظ وجودهم. وفي كل لقاء بيننا وبينهم كان فارسان أو ثلاثة يظلون هناك، أحياناً منهم، وأحياناً منا، كانت خيولهم المتحررة من أثقالها تعدو، وركاب سروجها يطير متأرجحاً في الفضاء، مصلصلاً، مقبلة نحونا من بعيد، بسروجها ذات الظهور الغريبة، وبجلودها الندية على غرار جلود محافظ عيد الميلاد. كانت خيولنا هي التي تلحق بنا على الفور. لحسن الحظ! ولسنا نحن الذي نستطيع فعل ذلك.

ذات صباح، وفيما كنا عائدين من الاستطلاع، كان الملازم دوسانت إنجانس يدعو الضباط الآخرين بأن ينصتوا إليه ولا يأخذوا روايته على محمل الهزل: «طعنت بسيفي اثنين» كان يؤكد لحلقة الضباط من حوله، عارضاً عليهم. في الوقت ذاته سيفه الذي كانت دماء الجنديين الألمانيين المتخثرة، وكان صادقاً فعلاً، تملأ أخدود السيف، المصنوع من أجل هذه الغاية.

«كان مدهشاً، برافو، سانت انجانس.. لو كنتم رأيتموه أيها السادة، هجوم وأي هجوم!» أيده النقيب أورتولان.

كان هذا قد حدث في سرية أورتولان.

Twitter: @ketab_n

«لم أضع أي وقت في المعركة. لم أكن بعيداً عنهما! طعنة واحدة بسنان السيف في العنق. إلى الأمام، ثم إلى اليمين! توك، وسقط الأول.. طعنة أخرى في وسط الصدر.. إلى اليسار، اختراق! عرض حقيقي للمبارزة بالسيوف أيها السادة، مرة أخرى، برافو سانت انجانس، جنديان رماحان! إنهما على بعد كيلومتر واحد من هنا. ما يزال ذلك الجسوران هناك، فوق الأرض المحروثة، لقد انتهت الحرب بالنسبة إليهما، ماذا يا سانت انجانس؟ يا لها من طعنة مزدوجة لابد أنهما قد فرغا من دمائهما مثل أرنبين!

كان الملازم دوسانت انجانس، الذي عدا حصانه طويلاً، يتلقى التقدير والإطراء من زملائه بتواضع. لقد ضمن أورتولان الحظوة الآن، كان مطمئناً واثقاً. مضى فجأة، مصطحباً فرسه إلى المعلف دائراً بها ببطء في حلقة دائرية حول السرية المجتمعة كما لو كان يقوم بمباراة في سباق التتابع.

«ينبغي أن نرسل إلى هناك حالاً دورية استطلاع أخرى، ودونما تأخير، انهمك النقيب أورتولان حقاً وفعلاً وقد غلبه الانفعال. لا شك أن هذين الجنديين قد تاها في ذلك المكان، من المحتم أن هناك آخرون خلفهم. ألا ترون ذلك؟ أنت يا عريف باردامو، اذهب إذن مع رجالك الأربعة».

إليّ أنا توجه النقيب أورتولان.

«وحين يطلقون النار عليكم، إيه، حاولوا جهدكم أن تحددوا مكانهم، وعودوا حالاً لتخبروني عن مكانهم، لا ريب أنهم برندبوريون[١]».

يروي المتطوعون في الجيش العامل أن النقيب أورتولان لم يكن يظهر قط تقريباً أيام السلم، في الثكنة. في حين أنه الآن، في الحرب يعوض عن تلك الفترة بحزم: كان أورتولان في الحقيقة لا يقر له قرار، وكانت حماسته،

---

(١) برندبوريون: الذين يرتدون زياً مزخرف العرى على طريقة برندبور في ألمانيا.

Twitter: @ketab_n

حتى بين عدد من المعروفين بطيشهم، تغدو يوماً بعد يوم أشد إثارة للانتباه، كان يشاع عنه أيضاً بأنه يستنشق الكوكايين. كان بادي الشحوب، تحيط بعينيه هالات زرقاء، مهتاجاً على الدوام فوق ساقيه الهشتين، وحين يضع ساقيه على الأرض يترنح في البداية، ثم يتمالك نفسه، ثم يذرع الحقول المحروقة بنزق شديد باحثاً عن مشروع بسالة، إنه يريد الآن أن يرسلنا لنتلقى النار من أفواه المدافع، وجهاً لوجه، كان يساعد الموت، بل يمكن القسم بأغلظ الإيمان بأن الموت أبرم عقداً مع النقيب أورتولان.

أمضى أورتولان القسم الأول من حياته (مثلما علمت) في سباقات الخيول، ولم يكن يمر عليه عام دون أن تتهشم أضلاعه بضع مرات. ولفرط ما تكسرت ساقاه أيضاً، لم يعد يستخدمهما في المشي، لفقدهما ليونتهما. لم يعد أورتولان يمشي إلا بخطوات عصبية وبأقدام مدببة حتى لكأنه يمشي على عصوين، كان يخيل لمن يراه فوق الأرض بدثاره الفضفاض أنه يرى الشبح الخلفي لحصان سباق.

كنا في بداية هذا المشروع الوحشي، أي في شهر آب، وحتى أيلول، نستطيع أحياناً خلال بضع ساعات، أو طيلة أيام بكاملها، نقضيها فوق دروب قصية، وفي ثنايا الغابات التي تظل ملاذاً ملائماً للمحكومين بالموت أن نتوهم بأننا ننعم ببعض الأمن بحيث يتاح لنا مثلاً، أن نأكل علبة من المحفوظات مع حصتنا من الخبز، حتى آخر لقمة دون أن يعذبنا الإحساس بأن تلك اللحظات هي الأخيرة. غير أن تلك الهداءات الصغيرة انتهت بدءاً من شهر تشرين الأول. وغدت حبات البرد أثقل وأكثف وأكثر امتلاء، محشوة بالقنابل والرصاص. وعما قريب سيداهمنا الإعصار، وما كنا حريصين على أن لاتراه أعيننا سيصبح ماثلاً أمامنا، ولن يعود بوسعنا أن نرى سواه: موتنا.

Twitter: @ketab_n

أما الليل الذي كان يملأ جوانحنا بالخوف، بادئ الأمر فقد غدا بالقياس إلى تلك الفترة بالغ العذوبة، وانتهينا فيما بعد إلى انتظار قدومه، إلى اشتهائه، لأن الرماية كانت أصعب على الألمان مما في النهار، ولم يعد ثمة ما يهمنا سوى هذا الفارق.

من الصعب الوصول إلى ما هو جوهري، وحتى فيما يخص الحرب. فالفانتازيا تقاوم أمداً طويلاً.

كانت القطط التي يحدق بها خطر النيران المميت تلجأ مع ذلك إلى إلقاء نفسها في الماء.

كنا نخرج في الليل من جحورنا، هنا وهناك، طيلة أربع ساعات تشبه، كثيراً زمن السلام المعبود، تلك الأوقات التي غدت نادرة الوجود، حيث كان كل شيء رحيماً، وحيث لم يكن أحد في الواقع يطلق النار وحيث يتم إنجاز جملة من الأمور الأخرى، تغدو كلها ممتعة على نحو خارق. قطيفة مخملية حية، زمن السلام الليلي ذاك.

ولكن سرعان ما صارت الليالي، هي أيضاً مطاردة دون رحمة، كان علينا باستمرار تقريباً أن نبذل جهوداً شاقة، وأن نعاني مزيداً من العذاب من أجل الطعام حسب، ومن اجل بضع لحظات إضافية من النوم خلال الليل، كان الطعام يصل إلى مقدمة الأرتال زاحفاً بخزي، بطيء الحركة ضمن موكب متعثر من العربات المتقلقلة والمكتظة باللحوم، والأسرى والجرحى، والشوفان، والرز، والدرك والخمر أيضاً، كان الخمر معبأً في زجاجات مرتجة منتفخة البطن، تثير في النفس حسّ المجون. وعلى الأقدام خلف ورش الحديد وعربات الخبز كان الأسرى من الفرنسيين ومن الألمان أيضاً، يجرون أقدامهم، مكبلين بالحديد، محكومين بالموت، تارة هؤلاء وتارة أولئك، وقد

Twitter: @ketab_n

اختلط بعضهم ببعض، وشدت معاصمهم إلى ركاب الدرك، لم يكن البعض من هؤلاء ممن كانوا سيعدمون في الغد، بأشد حزناً من غيرهم، كان هؤلاء يأكلون أيضاً حصتهم من ذلك الطون الذي يعسر هضمه، عند حافة الطريق (لن يتاح لهم الوقت لهضمه) بانتظار أن ينطلق الموكب من جديد، ويزدردون الخبز الأخير ذاته مع مدني فرنسي مشدود الوثاق إليهم، يزعمون بأنه كان جاسوساً، لم يكن هو نفسه يدري شيئاً عن ذلك، ولا نحن كنا ندري أيضاً.

كان عذاب الفوج متواصلاً آنذاك في شكله الليلي، كنا نتخبّط خبط عشواء في دروب القرى المتعرجة، دونما ضوء ودونما وجه، محنيي الظهور تحت أكياس أثقل وزناً من الرجال، كنا ننقلها من مخزن حصيد مجهول إلى مخزن آخر، تطاردنا الشتائم والتهديدات، تائهين دونما أمل في الخلاص، بطريقة أخرى غير التهديد والوعيد وماء المزابل والتقزز، معذبين حتى النخاع على يد زمرة من المجانين الفاجرين الذين أضحوا عاجزين فجأة عن فعل شيء آخر، سوى القتل وانتزاع الأمعاء.

ما أن نتمرغ قليلاً بالأرض، بين كومين من الزبل وتحت لسع الشتائم وركلات الأبواط، حتى نجد أنفسنا وقد نهضنا عن الأرض بأوامر من الرتب العسكرية، مدفوعين بوحشية إلى القيام بنقل أحمال أخرى خاصة بالموكب.

كانت القرية تسيل بالأطعمة، وزمر الجنود خلال الليالي المنتفخة بالشحم والتفاح والشوفان والسكر والتي كان ينبغي حملها، وبيعها أحياناً كيفما اتفق على الطريق، ودون تمييز من قبل تلك الزمر، كان الموكب يصطحب معه كل شيء عدا الفرار.

كان المكلفون بالسخرة ينطرحون منهارين حول العربة، بعد أن يهدهم التعب، وفي تلك اللحظة يظهر فجأة مسؤول الإمداد والتموين رافعاً فانوسه

Twitter: @ketab_n

فوق تلك اليرقات. كان يتوجب على هذا القرد ذي الذقنين أن يكتشف مورداً للماء، في أي فج من فجاج الأرض، كي تستقي منه الخيل، وقد رأيت بعيني أربعة رجال كانوا يغطون في نومهم وسط الماء، مغشياً عليهم من النعاس، وقد بلغ الماء أعناقهم.

كان علينا بعد أن ترتوي الخيل أن نهتدي إلى الطريق التي جئنا منها، وإلى الموقع الذي نعتقد أننا تركنا جماعتنا فيه، فإذا لم نعثر على ذلك الموقع، نكون بريئي الذمة كي ننطرح منهكين مرة أخرى عند أسفل جدار، خلال ساعة أخرى، إن كان ما يزال لدينا من العمر ساعة ننام فيها، ففي تلك الحرفة، حرفة القتل والموت خليق بك أن تكون شديد المراس، عليك أن تعمل كما لو أنك تعيش أبداً،وتلكم هي الكذبة الأقسى.

انطلقت العربات من جديد متقهقرة، واستأنف الموكب طريقه عند الفجر مولياً الأدبار، مطلقاً صريراً حاداً من جميع عجلاته الملتوية، مصحوباً بأمنية تمنيتها، بأن يفاجئه الألمان ويمزقوه شر ممزق، ويغدو طعاماً للنيران في النهاية في ذلك اليوم بالذات، على غرار ما نشاهده في النقوش الحربية، وأن يُسلب إلى الأبد. كل عتاد غيلانه الدرك، وحذوات خيوله، ومتطوعوه المجهزون بالمصابيح وكل ما كان يضمه من سخرة ومن عدس أيضاً ومن أطحنة أخرى حتى لا يعود بإمكاننا أبداً طبخها، وحتى لا نراها قط إلى الأبد لأن الهلاك من أجل الهلاك يكون بالتعب وبغير التعب، ولكن الطريقة الأشد قسوة هي أن يدركك الهلاك وأنت تحمل أكياساً كي تملأ الليل بها.

في اليوم الذي سيباد فيه هؤلاء الأوغاد عن بكرة أبيهم سننعم بالراحة على الأقل، كنت أفكر على هذا النحو، وسيكون بمقدورنا، على الأقل أن ننام جميعاً مرة واحدة، جسداً وروحاً.

Twitter: @ketab_n

لم يكن هذا التموين سوى كابوس، بالإضافة إلى ذلك، غول صغير يقض المضاجع يضاف إلى ويلات الحرب.. وحوش في الأمام وفي الجوار وفي الخلف كانوا ينتشرون في كل مكان. وكمحكومين بموت مؤجل لم نعد نخرج من أسوار الرغبة الحارقة بالنوم، كان كل شيء يغدو وجعاً مع تلك الرغبة. وقت الأكل والجهد المبذول لأجله. مجرى ماء صغير أو شقة جدار في تلك الأنحاء، يساورنا الظن بأننا كنا نعرفها سابقاً.. كنا نستعين بالروائح للعثور على المزرعة التي تركنا فيها جماعتنا، غدونا كالكلاب في ليل حرب القرى المهجورة، وما كان يرشدنا بنحو أفضل هو رائحة البراز ؟.

المساعد الأول المسؤول عن التموين، وحارس أحقاد الفوج، سيد العالم للحظة من الزمن، ذلك الذي يتحدث عن المستقبل كان وغداً زنيماً. لأن الزمن الراهن هو المهم، أما التذرع بالسلالة والأعقاب، فكلام يقال ليرقات الذباب. في ذلك الليل من ليالي قرى الحرب، كان المساعد الأول يرعى الحيوانات الآدمية من أجل المسالخ الكبرى التي فتحت أبوابها على مصاريعها. كان المساعد الأول، كريتل، هو الملك المتوج، ملك الموت، فعلاً وقولاً، لم يكن ثمة من هو أقوى منه. لم يكن ثمة من يماثله قوة سوى المساعد الأول لدى أولئك الآخرين الذين كانوا في مواجهتنا.

لم يبق من القرية شيء حي سوى قطط مذعورة، أما الأثاث الذي تحطم منذ البداية فكان يذهب لإيقاد النار من أجل الطبخ، الكراسي والمقاعد وصوانات الموائد، من أخفها إلى أثقلها وزناً. كل ما كان يسهل حمله على الظهور كان رفاقي يحملونه معهم. أمشاط ومصابيح صغيرة وطاسات، وأشياء صغيرة تافهة.. وحتى أكاليل الزواج حُملت كلها عن آخرها، كما لو كان ما يزال أمامهم سنوات وسنوات يعيشونها. كانوا يسرقون على سبيل التسلية، أو حتى يظهروا كمن سيعمر أمداً مديداً. رغبات أزلية

Twitter: @ketab_n

كانت المدافع تمثل بالنسبة إليهم ضجيجاً لا أكثر، بسبب ذلك أمكن للحروب أن تستمر، حتى أولئك الذين يشعلونها، أو الذين هم بسبيل إشعالها، لا يتخيلونها على حقيقتها. تستقر الرصاصة في البطن، ورغم ذلك يواصل الجريح لمّ النعال القديمة عن الطريق والتي ما يزال من الممكن استخدامها.

هكذا هو الخروف، يكون في النزع الأخير، جاثياً على بطنه في الحظيرة أو في الحقل، ولا يتوقف عن رم العشب، أغلب الناس لا يموتون إلا حين تحين لحظتهم الأخيرة. وثمة آخرون يشرعون في الموت ويحسون به قبل عشرين سنة من نهايتهم وربما أكثر من ذلك، أولئك هم التعساء على وجه الأرض.

لم أكن قط حكيماً فيما يتعلق بشؤوني، غير أني غدوت مع ذلك شخصاً عملياً بما يكفي لكي أكون رخواً رعديداً على نحو قاطع،وبفضل هذا القرار كنت بالتأكيد أعطي الانطباع بأني هادئ كل الهدوء، ولكني كنت أوحي، هكذا، بثقة متناقضة لنقيبنا أورتولان، هو ذاته، والذي قرر في تلك الليلة بأن يعهد إلي بمهمة خطيرة، كان الأمر يتعلق، مثلما شرح لي سراً بالذهاب سريعاً، وقبل طلوع النهار إلى نوارسو- سور لاليس، وهي مدينة تشتهر بنساجيها المهرة، تقع على بعد أربعة عشر كيلومتراً من القرية التي كنا نخيم فيها. كان علي أن أتأكد، في ذلك المكان، من وجود العدو، لأن الذين أرسلوا منذ الصباح لاستطلاع ذلك الموقع لم يتوصلوا إلا إلى مناقضة بعضهم بعضاً. وكان الجنرال انتراي نافد الصبر. وقد سمح لي بمناسبة هذه المهمة الاستطلاعية باختيار حصان من بين أقل الأحصنة تقيحاً في الكتيبة. لقد مر زمن طويل لم أكن فيه وحدي، وبدا لي على حين فجأة بأنني ذاهب في رحلة، غير أن الانعتاق كان أشبه بالوهم.

Twitter: @ketab_n

منذ أن بدأت رحلتي، لم أفلح، رغم كل محاولاتي في أن أتخيل مصرعي بقدر كافٍ من الدقة والتفصيل، كنت أتقدم من شجرة إلى شجرة مصحوباً بقعقعة عتادي، كانت صلصلة سيفي الجميل وحده تعادل صوت بيانو. ربما كنت خليقاً بالشفقة ولكنني، في كل حال كنت مثيراً للسخرية بلا ريب.

ما الذي كان يفكر به الجنرال انتراي حينما أرسلني، على هذا النحو، في هذا السكون الشامل، مدججاً بالصنوج؟ لم يكن يفكر بي قطعاً.

كان الأزتيك، مثلما يروون عنهم، يشقون، بطون ثمانين ألفاً من المؤمنين، كل أسبوع، في معابدهم التي يعبدون فيها الشمس. ويقدمونها قرابين إلى إله الغيوم كي يرسل لهم المطر، تلك أمور يصعب على المرء تصديقها قبل أن يذهب إلى الحرب، ولكنه حينما يكون هناك، يتضح له كل شيء، فاستهانة الأزتيك بأجساد الآخرين، هي نفسها التي كان ينبغي أن تكون لدى جنرالنا سيلدون دي انتراي تجاه أحشائي الوضيعة، فبعد منحه أرفع الألقاب غدا بفعل هذه الترقيات نوعاً من إله متميز، هو أيضاً، نوعاً من شمس صغيرة متطلبة بنحو فظيع.

لم يبق لي سوى أمل ضئيل جداً هو أن أقع أسيراً في يد الألمان، كان هزيلاً ذلك الأمل، خيطاً، خيطاً وسط عتمة الليل. لأن الظروف لم تكن ملائمة على الإطلاق كي يبادرني الألمان بالمجاملات، لحظة اقترابي منهم. طلقة بندقية تصل إليك بأسرع من البرق في تلك اللحظات. وفوق ذلك، ماذا كان بوسعي أن أقول لذلك العسكري المعادي في الأصل، والذي جاء قاصداً سفح دمي من الطرف الآخر لأوروبا؟ وإذا ما تردد ثانية واحدة (وهي كافية لي) فما الذي سأقوله له؟ ما الذي سيكونه في الحقيقة هذا العسكري أصلاً؟ موظف في مخزن؟ متطوع؟ أم لعله حفار؟ أم في السلك المدني أم طاه؟... للخيل قدر

Twitter: @ketab_n

وافر من الحظ، لأنها وإن كانت تقاسي من الحرب أيضاً مثلما نقاسي نحن، لايطلب منها أن توقّع بإمضائها كي تدخل الحرب، ولا أن تكون مؤمنة بها متحمسة لها. ولكنها تعيسة، خيولي الحرة. الحماسة، واحسرتاه، مختصة بنا، تلك البغيّ.

كنت أتبين الطريق بوضوح شديد، فقد قامت على جانبيها، فوق الطمي، تشكيلات كثيرة من البيوت، بيوت مربعة كبيرة، كتل ضخمة من البيوت ذات جدران بيض مغسولة بضوء القمر، كأنها قطع ثلجية ضخمة متباينة الأحجام، يلفها الصمت والشحوب. أتكون هنا نهاية كل شيء؟ كم سأمضي من الزمن في هذه العزلة الموحشة بعد أن يزهقوا روحي؟ أو قبل أن ألفظ أنفاسي؟ في أية حفرة؟ بمحاذاة هذه الجدران؟ سيجهزون علي ربما؟ بطعنة سكين؟ إنهم يبترون الأيدي أحياناً، ويقتلعون العيون ويقطعون الرؤوس.. كثير من الأشياء كانت تروى حول ذلك، وليس هزلاً! من يدري؟ خطوة يخطوها الحصان.. خطوة أخرى أيضاً، هل تكفيان؟ هذه البهائم يثير كل منها من الضجيج ما يعادل رجلين ينتعلان نعالاً من حديد، ملتصقة ببعضها، بخطوات غريبة ذات إيقاعات منفصلة.

قلبي يتقلب على الجمر، ذلك الأرنب، خلف شبكة أضلاعه الصغيرة مضطرباً، متكوراً، أرعن.

حينما يلقي المرء بنفسه، بقفزة واحدة، من فوق برج إيفل لابد أنه يحس بمثل ما كنت أحس به، وفيما هو يهوي في الفضاء يود لو يستدرك فعلته الحمقاء.

احتفظت لي تلك القرية بتهديدها الخفي الصامت، ولكن ليس كلياً مع ذلك، كان ثمة مجرى ماء صغير ينبجس في أحد ربوعها يقرقر لي وحدي.

Twitter: @ketab_n

كنت أملك كل شيء، أنا وحدي، في ذلك المساء، كنت المالك في النهاية، للقمر، وللقرية ولخوف عظيم. هممت أن أخب بحصاني. كانت نوارسو سيرلاليس ما تزال بعيدة بالتأكيد، على بعد ساعة في أقل تقدير، حين لمحت وميض ضوء يتسلل من فوق أحد الأبواب، توجهت مباشرة نحو ذلك الضوء، واكتشفت في نفسي وأنا أقترب منه نوعاً من الشجاعة. شجاعة هاربة ولكنها أكيدة. اختفى الضوء بسرعة، ولكنني كنت قد رأيته، طرقت الباب. وألححت بالطرق، ثم طرقت من جديد كنت أسأل بصوت عال جداً بالألمانية تارة وبالفرنسية تارة أخرى، تحسباً لجميع الحالات، متوجهاً إلى أولئك المجهولين القابعين في أعماق ذلك الظلام.

انفتح الباب أخيراً نصف انفتاح، مصراع واحد..

«من أنت!» نطق صوت من الداخل، لقد نجوت!

«أنا جندي من كتيبة الخيالة..

ـ جندي فرنسي؟» كانت المرأة هي التي تتكلم، أمكنني ملاحظة ذلك:

«نعم، أنا فرنسي..

ـ لقد مر من هنا، منذ وقت قريب خيالة ألمان... كانوا يتكلمون الفرنسية هم أيضاً..»

«نعم، ولكنني أنا فرنسي فعلاً..

ـ آه..»

كانت تبدو بهيئة المتشكك

«أين هم الآن؟ سألتها

ـ لقد رحلوا نحو نوارسير في الساعة الثامنة تقريباً..»

وأشارت لي نحو الشمال بأصبعها

Twitter: @ketab_n

ومن قلب العتم خرجت الآن أيضاً، فتاة شابة، بشال وصدار أبيض، ووقفت لدى الباب..

«ما الذي فعلوه بكم؟ الألمان؟ سألت الفتاة.

ــ أحرقوا منزلاً قرب دار العمدة، وبعد ذلك جاؤوا إلى هنا وقتلوا أخي الصغير بطعنة حربة في بطنه، حينما كان يلعب عند جسر روج، فقد رآهم يمرون.. انظر، وأشارت لي.. إنه هناك»..

لم تكن تبكي، وأعادت إشعال تلك الشمعة التي كان قد فاجأني ضوؤها. ولمحت في العمق ــ وكان ذلك صحيحاً ــ الجثة الصغيرة ممددة فوق حشية مرتدية بدلة بحار، كان العنق والرأس يبدوان كابيين بمقدار ما كان ضوء الشمعة ذاتها يعبر فوق ياقة مربعة كبيرة زرقاء اللون، انطوى الصبي على نفسه وقد انثنى ذراعاه وساقاه وظهره. كانت طعنة الحربة قد شكلت ما يشبه محوراً للموت في وسط البطن، كانت الأم تبكي بحرقة، بالقرب منه، جاثية على ركبتيها، وكذلك الأب، ثم جعل الاثنان يئنان معاً، ولكنني كنت ظامئاً جداً.

«أليس عندكم زجاجة من الخمر تبيعونها لي؟ سألت الفتاة ــ عليك أن نسأل أمي، فهي تعرف ربما، إن كان ما يزال عندنا شيء منها.. لقد سلب الألمان منا كمية كبيرة منها منذ وقت قريب..»

حينذاك بدأت الفتاة وأمها تتحدثان معاً على إثر سؤالي، وبصوت خفيض جداً.

«لم يعد لدينا منها، عادت الفتاة لتعلن لي ذلك، لقد أخذ الألمان كل ما كان لدينا من الخمر.. ومع ذلك فقد أعطيناهم الكثير منه، من تلقاء أنفسنا».

ــ آه، نعم، لقد شربوا آنذاك كثيراً من الخمر، همست الأم، التي كانت تتوقف عن الكلام ثم تبكي فجأة... كانوا يستمتعون بذلك..

Twitter: @ketab_n

ـ أكثر من مائة زجاجة، بالتأكيد، أضاف الأب، الذي كان جاثياً على ركبتيه باستمرار.

ـ ألم يعد لديكم زجاجة واحدة إذن، ألححت بالطلب، وأنا ما أزال آملاً إطفاء ظمئي. وكان قد بلغ مبلغاً كبيراً، وخاصة من الخمر الأبيض الذي تشوبه مرارة. والذي يعيد إلي بعض الصحو. أريد أن أدفع لكم فعلاً..

ـ لم يعد لدينا سوى من النوع الجيد جداً، وثمن الزجاجة الواحدة خمسة فرنكات.. وافقت الأم عندئذ..

ـ حسناً» وأخرجت فرنكاتي الخمسة من جيبي، قطعة واحدة كبيرة.

«اذهبي وابحثي له عن زجاجة» طلبت الأم ذلك من ابنتها بتمهل.

حملت الفتاة الشمعة، وعادت بلتر من المخبأ، بعد لحظة

شربت من الزجاجة حتى اكتفيت، ولم يعد علي سوى الذهاب.

«هل سيعودون؟ سألت، قلقاً من جديد.

ـ ربما، قالوا كلهم معاً، ولكنهم حينئذ سيحرقون كل شيء، لقد هددوا بذلك، وهم يغادرون..

ـ سأذهب لأرى ذلك.

ـ أنت شجاع حقاً.. إنهم هناك» أشار لي الأب، باتجاه نوارسير، وخرج كذلك إلى الطريق لينظر إلي وأنا أذهب، فيما ظلت الفتاة والأم فزعتين، إلى جانب الجثة الصغيرة.

«هيا، عد، كانتا تصيحان به من الداخل، عد يا جوزيف، ليس لديك ما تفعله على الطريق»،

«أنت شجاع حقاً» قال لي الأب مرة أخرى، وهو يضغط على يدي مودعاً.. وتابعت الطريق، خبباً، صوب الشمال.

Twitter: @ketab_n

«لا تقل لهم بأننا ما نزال هنا، في كل الأحوال» ـ كانت الفتاة هي التي خرجت لكي تهتف لي بذلك.

«سيرون ذلك بأعينهم، غداً، أجبتها، إن كنتم هنا»، كنت ساخطاً لأنهم أخذوا مني قروشي المئة. كان هناك تلك المئة قرش بيننا، يكفي هذا كي أكرههم، مئة قرش، بل وأتمنى أن يهلكوا جميعاً بسببها. لا حبّ نضيعه في هذا العالم، ما دام هناك مئة قرش.

«غداً، رددوا جميعاً وقد ساورهم الشك..

غداً، كان بالنسبة إليهم أيضاً، زمناً بعيداً. لم يكن ثمة معنى كبير لكلمة غداً على هذا النحو، كان ذلك يعني، في الواقع، العيش ساعة إضافية بالنسبة لنا جميعاً، وساعة واحدة في عالم يُختزل كل شيء فيه إلى القتل، ظاهرة غريبة!

لم يعد الموت بعيداً جداً بالنسبة إلي. كنت أخب من شجرة إلى شجرة وأنا أنتظر أن يبادرني أحد بالسؤال أو بالرصاص بين لحظة وأخرى. ثم ماذا؟ لا شيء من ذلك!

كنت خليقاً أن أصل إلى هناك، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لاأكثر، حين بلغت قمة رابية صغيرة مطلة على المدينة. ومن هناك لمحت فجأة في الأسفل صفوفاً وصفوفاً من قناديل غاز مضاءة. كان في مقدمة المشهد محطة تغمرها الأنوار بقاطراتها، ومطعمها. لم يكن يصدر عنها، مع ذلك، أية جلبة. شوارع، وجادات، ومصابيح وأيضاً مصابيح أخرى تنشر الضياء، وتغمر أحياء بكاملها. لم يكن يحيط بذلك المشهد أي شيء سوى الظلام والفراغ، كان ذلك المحيط المحدق بالمدينة متعطشاً للسلام والسكينة، فيما كانت المدينة تنفرش أمامي كما لو كان أهلها قد تركوها مضاءة تماماً، مستلقية، وسط الليل البهي. ترجلت عن حصاني وتمددت فوق رقعة صغيرة من الأرض لأشاهد كل ذلك، برهة من الزمن.

Twitter: @ketab_n

لم ينبئني ذلك المشهد على الإطلاق ما إذا كان الألمان قد دخلوا إلى نوارسير، أم لا، ولكنني كنت أعلم أن الألمان في مثل هذه الحالات كانوا يضرمون النار، في العادة، وأنهم إذا دخلوا، ولم يضرموا النار على الفور، فهذا يعني من دون ريب بأن لديهم أفكاراً ومشاريع غير عادية.

لم يكن ثمة مدافع أيضاً، كان الوضع مريباً.

كان حصاني يرغب في النوم أيضاً، وراح يجذب عنانه من يدي مما جعلني التفت نحوه. وحينما عدت بنظري من جديد إلى جهة المدينة بدا لي أن شيئاً ما قد تغير في مشهد الأرض أمامي، ليس شيئاً ذا بال بالتأكيد، ولكنه مع ذلك كان كافياً لكي أنادي: «هيه، هناك، من هناك؟» كان هذا التبدل في هيئة الظل قد حدث على بعد بضع خطوات مني، لا ريب أن هذا كان شخصاً ما..

«لا تصرخ عالياً، أجابني صوت رجل، قوي وأبح، صوت يبدو بوضوح أنه فرنسي.

ـ هل أنت متخلف عن فصيلك أيضاً؟ سألني كذلك، صار بإمكاني أن أراه الآن، كان جندياً من جنود المشاة، بواقية خوذته المهشمة تماماً. بعد أعوام وأعوام سأذكر بوضوح هذه اللحظة، سأتذكر طيفه المنبثق من بين الأعشاب، مثلما كانت تنبثق أهداف الرمي التي يجري التسديد عليها أيام الأعياد، الجنود الخشبية.

اقتربنا من بعضنا، كان المسدس في يدي، ظللت متأهباً لإطلاق النار دون أن أعرف لماذا.

«اسمع، سألني، هل رأيتهم أنت؟

ـ لا، ولكنني أتيت إلى هنا لكي أراهم

ـ هل أنت من فوج الخيالة ١٤٥؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، وأنت؟

ـ أنا جندي احتياط

ـ آه» قلت ذلك، وقد شعرت بالدهشة، جندي احتياط، لقد كان أول جندي احتياط ألتقيه في الحرب، كنا دوماً مع جنود من الجيش العامل. لم أكن أرى وجهه، ولكن صوته كان مختلفاً عن أصواتنا. كما لو كان أشد حزناً، وأخف على السمع من أصواتنا، لم أستطع أن أمنع نفسي، بسبب ذلك، من إيلائه بعض الثقة، كان شيئاً ما صغيراً.

«حسبي من هذه الحرب، كان لا ينفك يكرر، سأذهب لأسلم نفسي إلى الألمان..».

لم يكن يخفي شيئاً.

«كيف ستفعل ذلك؟»

أثار ذلك اهتمامي فجأة، أكثر من أي شيء آخر، مشروعه هذا، تُرى، كيف سيتصرف كي يوقع نفسه بأيدي الألمان؟

«لا أعرف بعد..

ـ ماذا ستفعل؟.. ليس من السهل إيقاع نفسك بأيديهم.

ـ الأمر سيان عندي. سأذهب إليهم وأسلم نفسي.

ـ ألست خائفاً، إذن؟

ـ بلى! أنا خائف، وارى أن ذلك حماقة غبية، إذا أردت رأيي، لست أبالي بالألمان، إنهم لم يفعلوا معي أي سوء..

ـ اصمت، قلت له، ربما كانوا ينصتون إلينا...».

كنت أود أن أكون مهذباً مع الألمان، وقد رغبت بقوة في أن يفسر لي هذا الجندي الاحتياطي، في تلك اللحظة من الزمن التي سيقدم فيها على

Twitter: @ketab_n

الاستسلام، لماذا لم أكن أنا أيضاً، أملك الشجاعة كي أخوض الحرب مثلما يخوضها الآخرون جميعهم. ولكنه لم يفسر لي أي شيء، كان يكرر فقط، بأنه لم يعد يطيق الاستمرار في الحرب.

روى لي بعد ذلك كيف تشتت فوجه في تلك الليلة عند طلوع الشمس، بعد أن فتح قناصة من مشاة جيشنا نيران رشاشاتهم خطأ على رفاقه عبر الحقول، لم يكن جنود القناصة يتوقعون وصولهم في تلك اللحظة وكان هؤلاء قد وصلوا في وقت مبكر جداً. قبل ثلاث ساعات من الموعد المحدد، وهكذا فإن القناصة المنهوكين من التعب، والمتفاجئين غربلوهم بالرصاص حينئذ، كنت أعرف هذه المعزوفة. فقد عزفها لي جنود الحرس مراراً.

«أنا، أنا متأكد، مما أقول، رأيت بعيني كثيراً مما جرى» أضاف: «قلت لنفسي: يا روبنسون، أنا ادعى روبنسون، روبنسون ليون ـ إما أن تلقي سلاحك الآن، أو أنك لن تلقيه أبداً في يوم من الأيام. ذلك ما قلته لنفسي، أليس صحيحاً؟ لجأت إلى غيضة صغيرة، وماذا وجدت هناك، احزر، التقيت بنقيبنا.. كان مستنداً إلى شجرة مثخناً بالجراح، على شفا الهلاك.. كان يمسك بنطاله بكلتا يديه، ويبصق دماً، كان الدم يسيل من كل أنحاء جسمه وهو يجيل عينيه في كل اتجاه.. لم يكن ثمة أحد بجانبه، لقد نال حسابه.. «ماما، ماما» كان يئن باكياً، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويبول دماً أيضاً.

«كف عن هذا، قلت له، ماما، لقد مللّت منك» ما قولك! كان يصيح، دون توقف، ومن طرف فمه، كأن ذلك كان خليقاً، أن يمتعه، الخبيث، ألا ترى يا عزيزي، لا يتاح لك غالباً، أليس كذلك، أن تقول لنقيبك ما تفكر به.. ينبغي أن تغتنم الفرصة، إنها نادرة.. ولكي أفرّ بسرعة، ألقيت بعتادي ومن ثم بأسلحتي أيضاً. في قاع مستنقع للبط قريب من تلك الناحية. هل تتصور أنني، كما تراني

Twitter: @ketab_n

أمامك. أرغب في قتل أي إنسان؟.. لم أتعلم.. أبداً في ما مضى، أمور العراك والمشاجرات. في السابق في زمن السلم.. كنت أذهب.. أنت تفهم؟ كنت أحاول الذهاب إلى المصنع بانتظام، يوم كنت مدنياً.. كنت نقاشاً متدرباً. ولكنني لم أكن أحب ذلك العمل، بسبب كثرة المشاجرات.. كنت أفضل أكثر بيع الصحف المسائية في حي هادئ، غدوت فيه معروفاً، حول بنك فرنسا.. في ساحة النصر، إن شئت أن تعرف.. شارع بوتيت شامب، تلك كانت منطقتي.. لم أكن أجتاز قط شارع اللوفر والباليه رويال القريب منه، أنت ترى، كنت أؤدي خدمات للتجار، تسليم بضاعة ما بعد الظهر، من وقت إلى آخر. عملت في حرف عديدة، كعامل يدوي.. ولكني لا أحب السلاح.. إذا رآك الألمان مع أسلحتك، فأنت في وضع صعب، أما إذا رأوك منطلقاً على هواك مثلي الآن.. لا شيء في يدك. هل تفهم؟ إنهم يعرفون خصمهم.. لو أستطيع أن أصل عارياً إلى الألمان فسيكون ذلك أفضل أيضاً، مثل حصان، لن يستطيعوا أن يعرفوا حينئذ في أي جيش كنت؟

ـ هذا صحيح!»

أدركت بأن العمر له شأنه بالنسبة إلى الأفكار، فهو يجعل صاحبه شخصاً عملياً.

«إنهم هناك، هيه؟» أنعمنا النظر، قدّرنا معاً حظوظنا. واستكشفنا مستقبلنا كما لو بورق اللعب، وسط تلك الخريطة المضيئة الضخمة التي كانت تقدمها لنا المدينة بصمت.

«هل نذهب؟»

كان هذا يعني اجتياز خط السكة الحديدية في البداية، فإذا كان ثمة حراس فسنكون في مرمى أنظارهم، وربما ليس هناك أحد بعد.. لابد من التأكد، علينا المرور بعد ذلك من فوق النفق أو من تحته..

Twitter: @ketab_n

«ينبغي أن نسرع أضاف ذلك الروبنسون.. علينا أن نفعل هذا تحت جنح الظلام، في النهار لا يعود ثمة أصدقاء، الجميع منهمكون بالعرض، خلال النهار، أنت ترى، حتى الحرب ليست سوى استعراض.. هل ستصطحب هذه البطة معك؟

قدت حصاني أو بطتي، وسرنا متوخيين أقصى الحذر كي ننسحب بأقصى سرعة فيما لو أسيء استقبالنا. بلغنا مزلقان السكة الحديدية، وقد ارتفعت أذرعه الضخمة الحمراء والبيضاء. لم أكن رأيت قط حواجز بهذا الشكل. لم يكن هناك مثلها حتى في ضواحي باريس.

«هل تعتقد بأنهم دخلوا المدينة؟

ـ هذا مؤكد، قال لي.. لنتقدم دون توقف..»

كنا مضطرين إلى أن نكون شجعاناً مثلما يكون الشجعان، بسبب الحصان الذي كان يسير خلفنا بهدوء واطمئنان كما لو أنه كان يدفعنا دفعاً بالجلبة التي يثيرها. لم نكن نسمع سواه، توك، توك وهو يقرع بحديد حوافره بقوة، مردداً صدى عالياً، كأنما لم يكن ثمة شيء غير عادي.

كان ذلك الروبنسون يعتمد إذن على الليل للخروج من تلك الورطة؟ كنا نتقدم وسط الشارع الخاوي، دون أن نتعمد أي خدعة على الإطلاق، وبخطوات موقّعة أيضاً كما في التدريب.

كان روبنسون على حق، فالنهار عديم الرحمة، من الأرض حتى السماء، وحيث أننا كنا نمشي فوق الطريق المعبد، كان خليقاً أن نبدو كلانا، مسالمين مأموني الجانب إلى أبعد حد، بل وساذجين للغاية، كما لو كنا عائدين من إجازة «هل سمعت ما يقال عن فوج الخيالة الأول الذي وقع بكامله في

Twitter: @ketab_n

الأسر؟ في مدينة ليل؟ لقد دخلوا المدينة، مثلما قيل، لم يكونوا يعلمون، عجباً! كان الكولونيل في المقدمة، كانوا يسيرون في شارع رئيسي يا صديقي! ثم أغلق الشارع.. من الأمام ومن الخلف. كان الألمان في كل مكان، على نوافذ البيوت.. في كل مكان. وانتهى الأمر، لقد علقوا مثل الفئران.. مثل الفئران! لعمري إنها لنهاية مريحة!

ــ آه! الأوغاد!

ــ آه، ما قولك بذلك،» لم يصدمنا أنا وروبنسون، ذلك الأسر الرائع، النظيف جداً والحاسم جداً، فقد كان لعابنا يسيل من أجله، كانت المخازن موصدة الأبواب، والدور أيضاً بحدائقها الأمامية الصغيرة. كل ذلك كان بالغ النظافة. ولكننا رأينا بعد مكتب البريد، واحداً من تلك البيوت، جدرانه أنصع بياضاً من البيوت الأخرى يتلألأ بكافة الأضواء من كل نوافذه، في طابقه الأول مثلما في الطابق الأرضي. قرعنا الباب، والحصان وراءنا باستمرار، فتح لنا. رجل بدين وملتح «أنا عمدة نوارسير ــ أعلن ذلك تواً، دون أن نسأله ــ أنا أنتظر الألمان!» وخرج إلى ضوء القمر كي نتعرف عليه وحين لاحظ بأننا لم نكن من الألمان وإنما فرنسيون بالتأكيد، لم يعد استقباله احتفالياً، بل ودياً وحسب. مع شيء من الضيق أيضاً، لم يكن يتوقعنا قط بالتأكيد، فقد اعترضنا نحن بمجيئنا الترتيبات التي كان عليه أن يقوم بها، والقرارات التي كان قد اتخذها، كان مقرراً أن يدخل الألمان إلى نوارسير تلك الليلة وقد أخطروه بذلك، فنظم كافة الأمور مع حاكم المقاطعة.. كولونيلهم يقيم هنا ومستوصفهم المتنقل هناك.. الخ.. وإذا دخلوا الآن؟ ورأونا هنا؟ فسيخلق ذلك متاعب من دون شك، وسيؤدي بالتأكيد إلى تعقيدات.. كل ذلك لم يقله لنا صراحة، ولكننا أدركنا تماماً أنه كان يفكر به.

Twitter: @ketab_n

بدأ يحدثنا إذن عن المصلحة العامة، في قلب ذلك الليل، ووسط ذلك السكون الذي كنا تائهين فيه. عن المصلحة العامة لاغير.. عن الثروات المادية للمجتمع.. وعن الميراث الفني لنوارسير الذي يحمل مسؤوليته على كاهله، وهي مسؤولية مقدسة، عن الكنيسة التي يعود عهدها إلى القرن الخامس عشر، على الأخص.. فيما لو قاموا بإحراق كنيسة القرن الخامس عشر، وماذا تُعد كنيسة كوندي سير ايزير إلى جانبها، هكذا إذن، بمزاحه المعتكر فقط، وبالكدر الذي أثاره وجودنا هناك، جعلنا العمدة نشعر بعظم المسؤولية التي كنا نتحملها.. نحن اللذين كنا جنديين شابين غير واعيين.. لم يكن الألمان يحبون المدن المريبة والتي ما يزال يتسكع فيه جنود معادون. كان ذلك معروفاً للجميع..

بينما كان يكلمنا على هذا النحو، بصوت خفيض كانت زوجته وابنتاه البدينتان والشقراوان اليانعتان يصدّقن بقوة على كلامه بكلمة هنا وكلمة هناك.. لقد رفضونا في المحصلة. وفاضت حولنا جميع القيم العاطفية والآثارية. وقد دبت فيها الحياة فجأة، ما دام أنه لم يكن هناك أي شخص في نوارسير، وسط ذلك الليل يعارض كلامهم.. وطنيون، أخلاقيون، مسوقون بكلمات كالأشباح، كان العمدة يحاول التقاطها، ولكنها كانت تتلاشى حالاً مدحورة أمام خوفنا وحبنا لأنانا، وأمام الحقيقة العارية والبسيطة أيضاً، لقد بذل عمدة نوارسير. جهوداً جبارة، بحمية فائقة ليقنعنا بان واجبنا يحتم علينا أن نذهب حالاً من هذا المكان. لقد فعل ذلك بخشونة أقل ولكن بتصميم كبير لا يقل، في نوعه عن تصميم قائدنا بنسون.

من المؤكد أنه لم يكن ثمة ما نعارض به، كل أولئك الأقوياء سوى رغبتنا الصغيرة نحن الاثنين بألا نموت وأن لا نحترق..

Twitter: @ketab_n

لم يكن ذلك بالكثير، خاصة وأن تلك الرغبة لا يجوز إعلانها خلال الحرب. انعطفنا إذن نحو شوارع أخرى خاوية. لا ريب في أن جميع الأشخاص الذين التقيتهم سحابة ذلك النهار، قد كشفوا لي عن روحهم.

«ذلك هو حظي فعلاً، علّق روبنسون فيما كنا نذهب.. ها أنت ترى! فلو كنت أنت ألمانياً، وكنت فتى طيباً أيضاً، لكنت أسرتني، ولكان ذلك شيئاً طيباً تفعله.. لقد تعبت من محاولة التخلص من ذاتي في هذه الحرب.

ـ وأنت، لو كنت أنت ألمانياً، ألا تأسرني أيضاً؟ ستحصل ربما حينذاك على ميدالية عسكرية، أليس كذلك؟».

لما لم يكن هناك البتة أي شخص في طريقنا يرغب فينا كأسرى فقد انتهى بنا المطاف إلى الجلوس على مقعد في حديقة صغيرة، وتناولنا حينذاك علبة التون التي كان روبنسون ليون يحملها ويدفئها في جيبه منذ الصباح.

ومن بعيد جداً، كنا نسمع دوي مدافع، ولكنها كانت قصية جداً. آه! لو كان ممكناً أن يبقى كل طرف في مكانه. ويتركنا الأعداء وادعين في ذلك المكان.

بعد ذلك، اجتزنا رصيفاً، وبمحاذاة قوارب أفرغت نصف حمولتها، تبولنا في الماء، برشقات بعيدة. كنا نقود الحصان من عنانه وراءنا، مثل كلب ضخم جداً، غير أنه بالقرب من الجسر داخل بيت القسّ ذي الحجرة الوحيدة كان ما يزال متمدداً فوق حشية شخص ميت، وحيداً. كان نقيباً فرنسياً من وحدة القناصة في فوج الخيالة، يشبه رأسه قليلاً رأس ذلك الروبنسون.

«أنا على يقين من أنه كان كريهاً، لفت روبنسون نظري.. أنا لا أحب الموتى.

ـ الأمر الأكثر غرابة، أجبت روبنسون، هو أنه يشبهك قليلاً، له أنف طويل. مثل أنفك. كما أنك لست أصغر منه سناً بكثير.

Twitter: @ketab_n

– ما تراه، ليس إلا بسبب التعب، نحن نشبه بعضنا بالضرورة بعض الشبه في كل شيء، ولكنك لو رأيتني سابقاً، حينما كنت أقود دراجتي أيام الآحاد.. كنت فتى وسيماً. كان لدي ساقان قويتان، يا عزيزي! بسبب الرياضة، أنت تعلم! فذلك يقوي الفخذين أيضاً».

خرجنا من بيت القس، بعد أن انطفأ عود الثقاب الذي أشعلناه كي نرى أمامنا.

«أنت ترى، لقد فات الأوان تماماً، أنت ترى..»

كان ثمة خط رمادي وأخضر يرسم من بعيد قمة الرابية على تخوم المدينة وسط الليل. إنه النهار، نهار أكثر، نهار أقل، كان علينا أن نجتازه مثلما اجتزنا النهارات الأخرى، والتي غدت نوعاً من الأطواق التي تضيق أكثر فأكثر. والتي كانت كلها مملوءة بانفجارات القذائف ولعلعة الرشاشات.

«أنت لن تعود إلى هنا، قل، في الليلة القادمة؟ سألني فيما كان يغادرني.

ـ ليس هناك ليلة قادمة يا عزيزي! هل تظن نفسك، جنرالاً إذن؟

ـ لم أعد أفكر في أي شيء، قال لي. وإلى الأبد، في أي شيء.. اسمع، أنا أفكر في أن لا أفطس.. هذا يكفي.. أقول لنفسي. كل يوم أعيشه هو يوم يضاف إلى حياتي.

ـ أنت على حق، إلى اللقاء، يا عزيزي، وحظاً سعيداً..

ـ حظاً سعيداً لك أيضاً. ربما نرى بعضنا ذات يوم».

عاد كل منا إلى الحرب، وبعدئذ حدثت أشياء وأشياء، ليس من السهل روايتها الآن. لأن الذين يعيشون اليوم لن يفهموها قط.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

إن شئت أن تنال الخطوة والاعتبار حقاً، فعليك أن تغدو حالاً وسريعاً رفيقاً أثيراً للمدنيين.. لأن هؤلاء الذين هم في المؤخرة، كانوا يغدون كلما امتد أمد الحرب أشد فساداً وفجوراً، أدركت ذلك على الفور حين عدت إلى باريس، أما نساؤهم فقد لذن بالفرار، وبقي المسنون ذوو الأفواه العريضة، والأيدي الممتدة إلى كل مكان، إلى المؤخرات، وإلى الجيوب..

ورثت باريس محاربي المؤخرة، وتعلّم الجميع فيها سريعاً المجد والطرائق المثلى في احتماله بشجاعة، ودون آلام.

الأمهات، الممرضات حيناً، والشهيدات حيناً آخر، لم يعدن يتركن خمرهن الطويلة السوداء، ولا كذلك شهادة التفوق التي مهرها الوزير بختمه، وطلب من موظف العمدية توزيعها عليهن في الموعد المحدد، لقد انتظمت الأمور، في المحصلة، أيما انتظام.

أثناء مواكب الجنازات المحكمة الإتقان، يبدو الجميع محزونين أيضاً، ولكنهم يفكرون مع ذلك بميراث الفقيد، وبالشواغر المقبلة، بالأرملة الظريفة التي تعاني من الحمى، وبأن يعيشوا هم أيضاً، بالمقابل، عمراً مديداً، وبأن لا يموتوا أبداً، ربما.. من يدري؟

حينما تسير خلف موكب الجنازة على هذا النحو، فإن جميع الناس يحيونك تحية كبيرة بقبعاتهم. وهو ما يبعث السرور في قلبك، تلك هي اللحظة التي ينبغي أن تتمالك فيها نفسك جيداً وأن تأخذ سمتاً مناسباً، وتتجنب المزاح بملء صوتك، وتغتبط في داخلك حسب. ذلك مباح.. ففي داخل المرء كل شيء مباح.

Twitter: @ketab_n

تبدلت الأحوال أيام الحرب، فبدل أن يرقصوا في الطابق الأرضي، صاروا يرقصون في القبو، لقد تسامح المقاتلون بذلك، وعلى أفضل نحو أيضاً. كانوا يحبون الرقص، ويطلبونه ما إن يصلوا، ما من أحد كان يجد تلك التصرفات مريبة، ليس ثمة ما هو مريب في الواقع سوى الشجاعة، وهل يكون المرء شجاعاً مع جسده، اطلبوا إذن من سرفة الذباب أن تكون شجاعة، إنها وردية وشاحبة ورخوة، مثلنا تماماً.

فيما يتعلق بي، لم يعد ثمة ما أشكو منه. كنت أيضاً على طريق الانعتاق.. بسبب الميدالية العسكرية التي حصلت عليها تقديراً للجرح الذي أصبت به، ولكل ما قمت به.. قدموها لي في المستشفى ذاته الذي أمضيت فيه نقاهتي، وفي ذلك اليوم أيضاً ذهبت إلى المسرح لأعرضها أمام المدنيين أثناء فترات الاستراحة. يا للأثر العظيم الذي ستحدثه، إنها من أوائل الميداليات التي تقع عليها العين في باريس، شأن وأي شأن!...

في ذلك اليوم بالذات، وفي صالة الاستراحة الملحقة بمسرح الأوبرا كوميك التقيت بالأمريكية الصغيرة "لولا"، وفقدت بسببها براعتي كلياً، ثمة أيام عظيمة، كهذا اليوم لا يعدّ المرء غيرها بين عدد من الشهور التي يمكن أن يستغني عن العيش فيها.. ويوم الميدالية ذاك في الأوبروا كوميك كان، بالنسبة إلي، حاسماً.

بسبب "لولا" غدوت شديد الفضول للتعرف على الولايات المتحدة، بسبب الأسئلة التي كنت أطرحها عليها والتي لم تكن تجيب عليها إلا لماماً. حينما ينطلق المرء في الأسفار على طريقة "لولا"، فإنه لا يرجع بذاكرته إلى موطنه إلا حينما يتمكن، وكيفما يتمكن.

Twitter: @ketab_n

في ذلك الوقت الذي أتكلم عنه. كان جميع الناس في باريس يريدون أن يكون لهم زيهم الخاص.. لم يكن هناك من لا يملك زياً سوى المحايدين والجواسيس وكان هؤلاء صنفاً واحداً. كان "للولا" زيها الرسمي، كان زياً بالغ الظرف، تعلوه في كل مكان صلبان صغيرة حمر، فوق الأكمام، وفوق القبعة الصغيرة التي تحاكي قبعات البوليس، والموضوعة دائماً بنحو مائل، وبشيء من الغنج فوق شعرها المتموج، جاءت "لولا" لمساعدتنا على إنقاذ فرنسا، مثلما قالت لمدير المستشفى، في حدود قدراتها البسيطة، ولكن بكل قلبها، تفاهمنا في الحال أنا "ولولا"، ولكن ليس كلياً مع ذلك، لأن اندفاعات قلبها لم تكن تسرني على الإطلاق، كنت أفضل اندفاعات جسدها، بكل بساطة. لقد علموني ذلك، في الحرب! لو تعلمون كيف! وما كنت لأنساه أبداً..

كان قلب "لولا" رقيقاً، ليناً ومفعماً بالحماس. وكان جسدها لطيفاً، شهياً، إلى أبعد حد. خليق بي الآن أن أنظر إليها بنحو شامل مثلما هي.. كانت فتاة لطيفة في المحصلة! ولكن كانت هناك الحرب تقف بيننا. ذلك السعار الهائل البشع الذي كان يدفع، نصف البشر، رضوا ذلك أم لم يرضوا إلى أن يرسلوا النصف الآخر إلى المجزرة. كان هذا الهوس إذن يفسد العلاقة فيما بيننا بالضرورة. أما أنا الذي كنت أتماثل للشفاء ما استطعت ذلك، ولم أكن قط حريصاً على مواصلة دوري في مقبرة المعارك الضارية، فقد بدت لي مذبحتنا المثيرة للهزء بريقاً خادعاً، في كل خطوة كنت أخطوها في المدينة، مكراً شريراً هائل الأبعاد، يشيع في كل مكان.

غير أن حظوظي كانت ضعيفة للإفلات منها، لم يكن لدي أية علاقة ضرورية للنأي بنفسي عن لهيبها، لم أكن أعرف سوى فقراء، أعني أشخاصاً لا يهتم لموتهم أحد، بالنسبة إلى "لولا" لم يكن يحق لي الاعتماد عليها من أجل

Twitter: @ketab_n

إرسالي إلى المؤخرة، لم تكن "لولا" سوى ممرضة، ولا سبيل إلى الحلم بالخلاص إلا عن طريق شخص مثل أورتولان ربما، شخص أشد قتالية من هذه الطفلة الفاتنة. قبل العبور في محرقة البطولات الموحلة، كان مظهرها الصغير الشبيه بجان دارك، ربما سيحرضني، يحولني إلى مقاتل حقيقي. ولكنني الآن، وبعد تجندي في ساحة كليشي غدوت متقززاً برعب إزاء كل بطولة، لقد شفيت، شفيت تماماً.

من أجل راحة سيدات البعثة الأمريكية، أقام فريق الممرضات الذي كانت "لولا" تعمل في عداده في فندق بارتيز، وبغية جعل الأمور أكثر جاذبية بالنسبة إلى "لولا" بوجه خاص عهد إليها (كان لها علاقات) بمسؤولية الإشراف على خدمة خاصة، داخل الفندق نفسه، هي عبارة عن إعداد فطائر بالتفاح لمستشفيات باريس، كان يوزع منها كل صباح آلاف الدزينات، وكانت "لولا" تنجز هذه المهمة العطوفة بشيء من الحماسة، ولكن هذه الحماسة ما لبثت أن انقلبت كلياً إلى وبال.

لم تتقن "لولا" طيلة حياتها، لابد من قول ذلك، صنع الفطائر، شغّلت إذن عدداً من الطاهيات بالأجرة، وبعد إجراء بعض التجارب كانت الفطائر جاهزة لتسليمها بدقة وانتظام مترعة بالعصير، مذهّبة ومحلاة بالسكر على نحو باهر، لم يكن على "لولا"، في المحصلة، إلا أن تتذوقها قبل أن ترسلها إلى مختلف دوائر الخدمة في المستشفيات، وفي كل صباح كانت "لولا" تنهض في الساعة العاشرة، وتنزل بعد أن تستحم، إلى المطابخ الواقعة في أعماق الأقبية. مرتدية فقط كيمونو يابانياً، أسود وأصفر، أهداه لها صديق من فرانسيسكو عشية سفرها.

Twitter: @ketab_n

كانت الأمور تسير سيراً حسناً بوجه الإجمال، وكنا على وشك كسب الحرب، حينما وجدتُ "لولا" ذات صباح ساعة الإفطار في حال من الاضطراب، ورفضت أن تمس صحناً واحداً من صحون المائدة، فانتابني الخوف من بلاء ألمّ بها أو مرض مفاجئ قد داهمها، وتوسلت إليها أن تعتمد على عنايتي الساهرة.

كانت "لولا" قد سمنت، وزاد وزنها كيلوغرامين اثنين، بسبب تذوقها الدائم والمنتظم لفطائر التفاح، وكشف لها زنارها الصغير، بعد أن زاد فرضة واحدة، عن كارثة. ثم ما لبثت الدموع أن انهمرت بغزارة، وحاولت التسرية عنها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، طفت معها، مدفوعاً بالتأثر في سيارة تاكسي، على صيدليات عديدة متباينة المواقع. وقد أبدت كافة الموازين بعناد وبمحض الصدفة، زيادة وزنها كيلوغرامين فعلاً، وبنحو قاطع، اقترحت عليها حينئذ بأن تترك مهمتها لزميلة من زميلاتها تسعى، على النقيض من "لولا"، إلى زيادة وزنها، فرفضت "لولا" أن تصغي إلى أية كلمة من هذه التسوية المقترحة التي تعتبرها عاراً وفراراً حقيقياً لا يليق بها، وأخبرتني في تلك المناسبة أن أحد أقاربها المتقدمين كان هو أيضاً واحداً من طاقم سفينة مايغلوير الظافرين الذين نزلوا في بوسطن عام ١٧٦٦، وبالنظر إلى هذه الذكرى فإنه لم يكن بمقدور "لولا" التفكير في التهرب من واجب الفطائر، المتواضع بالتأكيد، ولكن المقدس مع ذلك.

على أن "لولا" ما عادت منذ ذلك اليوم، إلى تذوق الفطائر إلا بأطراف أسنانها المصفوفة بانتظام فائق، والظريفة غاية الظرف. وقد بلغ خوفها من السمنة مبلغاً أفسد عليها كل متعة، وعراها الذبول، كان خوفها من الفطائر في ذلك الوقت لا يقل عن خوفي من القنابل، وصرنا الآن في أغلب الأوقات

Twitter: @ketab_n

نتمشى كما تنص القواعد الصحية، بسبب تلك الفطائر، طولاً وعرضاً، على الأرصفة وفي الشوارع، ولكننا لم نكن ندخل إلى النابوليتين بسبب البوظة التي كانت هي أيضاً تسمّن السيدات.

ما حلمت قط في يوم من الأيام بمسكن يحتوي على مثل هذا الرغد الذي وجدته في حجرتها. زرقة شاحبة تبهر العين، وصالة استحمام إلى جانب الحجرة. صور أصدقائها في كل مكان، كلمات إهداء، قليل من النساء وكثير من الرجال، فتيان بهيو الطلعة، سمر مجعدو الشعر، من طرازها، كانت تحدثني عن لون عيونهم، ومن ثم عن تلك الإهداءات الرقيقة الاحتفالية بأجمعها. في البداية. كان ذلك يزعجني وأنا أقف بتهذيب وسط كل تلك الصور، ثم ما لبثت أن اعتدت على ذلك.

ما إن كنت أتوقف عن احتضانها، حتى تعود إلى الحديث، دون أن أقاطعها، حول مواضيع الحرب أو الفطائر، كانت فرنسا حاضرة دوماً في أحاديثنا. بالنسبة إلى "لولا"، ظلت فرنسا نوعاً من جوهر فروسي غير محدد تماماً داخل المكان والزمان، غير أنها الآن جريحة على نحو خطير.. وبسبب ذلك فهي أقوى على التحريض. أما أنا، فحين كانت تحدثني عن فرنسا، كنت أفكر، على نحو لا يقاوم بأحشائي. كنت حينئذ، بالضرورة أكثر تحفظاً بكثير فيما يتعلق بالحماسة والحمية.. لكل رهابه. غير أنها حينما كانت تتسامح معي في الوصال. كنت أصغي إليها دون أن أعارضها على الإطلاق. ولكنني قلما كنت أرضيها أو أروق لها في مسألة الروح، كانت تريدني مرتعشاً بالوطنية حتى أعماقي، متوهجاً بقوة، ولم أكن أتصور، أنا بدوري، لماذا يتوجب علي أن أكون على تلك الحال من التسامي، كنت أرى، على العكس من ذلك، ألف سبب، يتعذر دحضه، كيما أظل في مزاج نقيض تماماً.

Twitter: @ketab_n

لم تكن "لولا" على أي حال، تفعل شيئاً، سوى الهذيان بالسعادة والتفاؤل، على غرار جميع الأشخاص الذين يكونون في الجانب الرخي للحياة، جانب المزايا والحظوظ، مزايا الصحة والأمن، والذين ما يزال لديهم فسحة مديدة للعيش.

كانت تربكني بأمور الروح، تتحدث عنها دون انقطاع. الروح! إنها باطل الأباطيل، إنها ملذات الجسد حينما يكون معافى. ولكنها أيضاً الرغبة في الخلاص من الجسد حين يكون مريضاً أو حين تسوء الأمور والأحوال. وأنت تأخذ من الوضعين ذلك الذي يقدم لك راحة أكثر في البرهة التي تكون فيها، وهذا كل شيء، وما دمت تستطيع الاختيار بين الوضعين، فأنت بخير. أما أنا فلم يعد باستطاعتي الاختيار. لقد انتهت لعبتي. كنت داخل الحقيقة حتى النخاع، وكانت منيتي تطاردني خطوة خطوة، كان من العسير جداً علي التفكير بشيء آخر سوى بمصيري كصريع مؤجل إلى حين، وأن العالم بأسره. فوق ذلك كان يجد مصرعي طبيعياً تماماً.

وسط هذا النوع من الاحتضار المؤجل، الصاحي، الحاد، يستحيل فهم شيء آخر سوى الحقائق المطلقة. ولابد للمرء من مكابدة ذلك الاحتضار كي يدرك دوماً كل ما يقال عنه.

توصلت إلى نتيجة مؤداها أن الألمان كان بوسعهم الوصول إلى هنا، وأن يذبحوا ويدمروا، ويحرقوا كل شيء، الفندق والفطائر و"لولا"، والتويللري، والوزراء، وأصدقاؤهم الصغار، والكوبول واللوفر والمخازن الكبرى، وأن ينقضوا على المدينة، ويطلقوا فيها رعود الإله، ونيران الجحيم، وسط هذا المعرض العفن الذي لم يعد من الممكن حقاً إضافة أي شيء إليه مما هو أكثر قذارة ونتناً، وأنني لم أكن أملك مع ذلك، ما أخسره، أبداً على الإطلاق، بل سأكسب كل شيء.

Twitter: @ketab_n

لن يخسر المالك شيئاً ذا بال حينما يحترق بيته، فسيأتي مالك آخر، إن لم يكن هو نفسه دائماً، ألمانياً كان أم فرنسياً أم إنكليزياً أم صينياً ليبرز إيصاله عند الحاجة.. بالمارك أم بالفرنك؟ ما دام سيُدفع له بالضرورة.

كانت معنوياتي، بوجه الإجمال، سيئة بقذارة. ولو أنني قلت "للولا" كل ما كان يجول في خاطري عن الحرب لاعتبرتني وحشاً قبيحاً ولحرمتني من آخر نفحات مودتها، تجنبت إذن بحرص أن أبوح لها بهذه الاعترافات، وكنت أشعر، من جهة أخرى ببعض الصعوبات والمنافسات أيضاً. كان بعض الضباط يحاولون اختطافها مني. كانت منافستهم تثير مخاوفي. كانوا مسلحين باغواءات وسام الشرف، الذي حصلوا عليه، وقد ضجت الصحف الأميركية في الحديث عن ذلك الوسام الشهير.. كنت أعتقد كذلك أنني إن وقعت مرتين أو ثلاث في دور الزوج المخدوع فإن علاقتنا ستكون مهددة بالخطر الشديد إذا لم تجد لدي هذه الطائشة فجأة فائدة فائقة القيمة. تلك التي تتكون من تذوق الفطائر كل صباح بدلاً عنها.

ذلك التخصص الذي ولد في اللحظة الأخيرة أنقذني. قبلت "لولا" أن أحل محلها، ألم أكن أنا أيضاً مقاتلاً مقداماً، جديراً إذن، بتلك المهمة المفعمة بالثقة، ومن يومها لم نعد عاشقين وحسب بل وشريكين. على هذا النحو بدأت الأزمنة الحديثة.

كان جسدها بالنسبة لي غبطة لا نهائية، كنت أجوب ذلك الجسد الأميركي دون كلال. والحق أنني كنت خنزيراً حقيراً، وظللت كذلك.

لقد تشكل لدي أيضاً ذلك اليقين السار والمنعش. بأن بلداً قادراً على إنتاج أجساد لها مثل هذه الجسارة في رهافتها، بتحليق روحي له هذا القدر من الإغواء خليق أن يقدم تجليات أخرى عظيمة بالمعنى البيولوجي، ذلك مفهوم.

Twitter: @ketab_n

قررت، لفرط ما علقت "بلولا" القيام برحلة إلى الولايات المتحدة بمثابة حج حقيقي، ما أن أجد إلى ذلك سبيلاً. والواقع أنني ما عرفت راحة ولا سكينة (خلال حياة ملؤها التنغيص والاضطراب بنحو لا راد له) قبل أن أعيش هذه المغامرة العميقة الغور، صوفياً وتشريحياً.

تلقيت، على هذا النحو، بالقرب من أكفال "لولا" رسالة عالم جديد، لم يكن "للولا" سوى جسد، هذا أكيد، كان يزينه رأس صغير ظريف يشي ببعض القسوة، بسبب عينيها الزرقاوين الرماديتين اللتين تصعدان قليلاً فيه نحو الزوايا، على غرار عيون القطط الوحشية.

كانت رؤيتها فقط قبالتي تجعل اللعاب يفيض في فمي كما لو بتأثير طعم رشفة من خمر غير مشوبة بالماء أو بفعل طعم حجر صوان. عينان قاسيتان باختصار، متوهجتان بتلك الحيوية التجارية الملاطفة، الشرقية الفراغوناردية[١] التي تمتلكها كل العيون في تلك الأمكنة.

كنا نلتقي في أغلب الأوقات في مقهى قريب، كان الجرحى الذين يتزايد عددهم أكثر فأكثر يظلعون عبر الطرقات مختلي الهندام. غالباً، وقد نظمت من أجلهم تبرعات أو «أيام لجمع الصدقات» لهؤلاء وأولئك، وعلى الأخص للقائمين على تنظيم تلك «الأيام»، كذب، تقبيل، موت. صار محظوراً القيام بشيء آخر. كان الكذب يجري على ألسنة الجميع حتى بلغ حد الهوس وتجاوز الخيال، تجاوز حدود المضحك واللامعقول، على صفحات الصحف، وفي الإعلانات، على الأرجل، وفوق الحصان، وفي السيارة. انخرط الجميع في الكذب، وتباروا فيه، ورد بعضهم على بعض بما هو أعظم وأفدح من الأكاذيب، وسرعان ما خلت المدينة من الحقيقة خلواً تاماً.

---

(١) نسبة إلى الرسام والنحات الفرنسي فراغونارد.

Twitter: @ketab_n

النزر اليسير من الأكاذيب الذي كنا نعثر عليه عام١٩١٤ صار مضحكاً الآن، كل ما نلمسه صار مزيفاً، السكر والطائرات، والنعال والمربيات والصور، كل ما نقرأه، ما نبتلعه، ما نعجب به، ما نعلنه، ما ننكره، ما ندافع عنه لم يكن سوى أشباح حقودة، تلفيقات. مساخر. الخونة أنفسهم كانوا مزيفين، كانت حمى الكذب والتصديق تنشر عدواها مثل الجرب.. أما الصغيرة "لولا" فلم تكن تعرف من اللغة الفرنسية سوى بضع جمل ولكنها كانت جملاً وطنية: «سننتصر عليهم» «هلمي إلينا، يا مادلين».. كان ذلك يدعو إلى البكاء.

كانت "لولا" تنحني على موتنا بعناد ووقاحة، على غرار جميع النساء في كل مكان، حينما تصبح الشجاعة هي نمط الوجود لدى الآخرين، أما أنا الذي تعرفت تماماً على طعم جميع الأشياء التي تنأى بي عن الحرب، فكنت أطلب منها مرات ومرات معلومات عن أمريكا ولكنها لم تكن تجيبني حينئذ إلا بتعليقات مبهمة كلياً، مزعومة وغير أكيدة، قاصدة إلى أن تترك في نفسي انطباعاً براقاً.

غير أنني صرت أشك الآن بالانطباعات، لقد خدعتني الانطباعات ذات مرة، ولن يملكني بعد أحد بالكلام المعسول.

كنت أؤمن بجسم "لولا"، ولم أكن أؤمن بعقلها، كنت أنظر إليها كجندية فاتنة من جنود المؤخرة، في الوجه الخلفي للحرب، في الوجه الخلفي للحياة.

كانت تخترق قلقي بذهنية البوتيت جورنال (الصحف الصغيرة). خصل من الريش، وأبواق صاخبة وقفازات بيض.. وبانتظار أن ينحف جسمها كنت أظهر لها آيات من التهذيب والود، تزداد يوماً بعد يوم، كنت أؤكد لها بأن ذلك سيجعلها تنحف، ولكنها كانت تعتمد بالأحرى، على نزهاتنا الطويلة لتخفيف وزنها، أما أنا فكنت أمقت هذه النزهات، ولكنها كانت تصر عليها.

Twitter: @ketab_n

كنا نتردد على هذا النحو، على سبيل التريض إلى غابة بولونيا، خلال بضع ساعات بعد الظهر، عند «برج البحيرات».

الطبيعة شيء مريع، وحتى حين تكون مستأنسة، كما في غابة بولونيا، إنها ما تزال تثير نوعاً من القلق لدى أبناء المدن الحقيقيين، لذا فهم يستسلمون بسهولة كبيرة للبوح بأسرارهم، لا شيء تستحقه غابة بولونيا، رطوبة متفشية، سخونة دبقة، أجواء دهنية، أشجار عارية الأغصان والأوراق كي تجعل سيل الذكريات يجري متدفقاً دون أن يتخثر لدى أناس المدينة المتنزهين بين الأشجار. لم تكن "لولا" تفلت من تلك الكآبة والقلق الحميم، كانت تروي لي فيما نحن نتنزه، ألفاً من الأشياء الصادقة، حول حياتها في نيويورك وحول أصدقائها الصغار هناك.

لم أكن لأتوصل إلى الكشف عما هو حقيقي في ذلك النسيج المعقد من الدولارات وحفلات الخطوبة، والطلاقات، وشراء الفساتين والحلي الذي كان يعج بها عالمها كما كان يبدو لي.

ذهبنا في ذلك اليوم إلى ميدان السباق، كنا ما نزال نلتقي في تلك الأنحاء عربات تجرها الجياد، وأطفالاً يمتطون الحمير، وأطفالاً آخرين يثيرون الغبار. وسيارات مكتظة بالجنود المجازين الذين لا يكفون عن البحث اللاهث عن نساء شاغرات عبر الممرات الضيقة، أو بين قطارين، مثيرين مزيداً من الغبار أيضاً، متعجلين للذهاب إلى الغداء، وممارسة الحب، هائجين، دبقين، مترصدين، مضطربين بسبب الوقت الذي يستعجلهم، ورغبات الحياة التي تفور في أعماقهم، نسح من أجسادهم الشهوة والحرارة كذلك.

كانت الغابة أقل تناسقاً من سابق عهدها، مهملة من قبل السلطات الإدارية دونما عناية.

Twitter: @ketab_n

«ينبغي أن يكون هذا المكان جميلاً جداً قبل الحرب؟ يزدان بالأناقة؟ حدثني يا فرديناند.. سباقات الخيل هنا؟ .. هل هي شبيهة بما يجري عندنا في نيويورك؟».

لم أكن، والحق يقال، قد ذهبت قط إلى سباقات الخيل قبل الحرب ولكنني رحت أبتدع على الفور من أجل تسليتها مئة تفصيل ملون حول هذا الموضوع، مستعيناً بحكايات كنت قد سمعتها عنه، ذات اليمين وذات الشمال، الفساتين.. الأنيقة، العربات التي يتطاير منها الشرر.. الانطلاق.. الأبواق الجذلى والصادحة طوعاً، القفز فوق النهر، رئيس الجمهورية، حمى المراهنات الحامية الوطيس.. الخ.

أعجبت "لولا" إعجاباً شديداً بوصفي المثالي الذي قرب المسافة ما بيننا، واعتقدت هي، منذ تلك اللحظة بأن لدينا، على أي حال، ميلاً مشتركاً، رغم أنه كامن عندي، ألا وهو الاحتفال بالمظاهر الاجتماعية، وعانقتني بعفوية مدفوعة بالانفعال، وهو ما لم يكن يحدث لها، إلا نادراً. لابد لي من قول ذلك، ثم ما لبثت أن اجتاحتها كآبة الأشياء التي ولت موضتها. كل يبكي بطريقته على الزمان الذي مضى، أما "لولا" فكان بكاؤها على الموضات الميتة التي كانت تتراءى لها عبر كر السنين.

«فرديناند، سألتني، هل تعتقد بأنه سيكون هناك، أيضاً سباقات في هذا الميدان؟

ــ حينما ستنتهي الحرب، من دون ريب، يا "لولا"

ــ ليس هذا أكيداً، أليس كذلك؟

ــ لا، ليس أكيداً.

Twitter: @ketab_n

هذا الاحتمال، بأنه لن يكون بعد سباقات على الإطلاق في لونغشامب آثار البلبلة في نفسها. كآبة الكون تمسك بتلابيب الكائنات ما أمكنها ذلك، ولكنها بإمساكها بهم تبدو وكأنها تداهمهم في كل آن..

«هب يا فرديناند أن الحرب استمرت زمناً طويلاً، سنوات مثلاً.. سيكون قد فات الأوان حينئذ بالنسبة إلي، لكي أعود إلى هنا، هل تفهمني يافرديناند؟.. أحب كثيراً، أنت تعلم، الأماكن الجميلة مثل هذا المكان الذي أمامنا، إنها اجتماعية جداً.. أنيقة جداً. ولكن سيكون قد فات الأوان.. وإلى الأبد.. ربما. سأكون عجوزاً حينذاك يا فرديناند.. حينما تعود الاحتفالات والسباقات.. سأكون عجوزاً! سترى يا فرديناند، سيكون الأوان قد فات.. لدي إحساس بأنه سيكون الأوان قد فات..»

ها هي ذي تنكفئ إلى قنوطها، أغدقتُ عليها، كي أهدئ من روعها، كل الآمال التي أمكنني التفكير بها، بأنها في واقع الأمر. ما تزال في الثالثة والعشرين من عمرها.. وأن الحرب ستنتهي بسرعة، وأن الأيام الجميلة ستعود.. مثلما في السابق، بل وأجمل من السابق، بالنسبة إليها على كل حال.. كم كانت لطيفة "لولا".. لقد عوضتني عن الزمن الضائع دونما خسارة.. لن تتلاشى مشاعر الاحترام والإعجاب تجاهي عما قريب. وتظاهرت بأن الكرب قد زايلها لكي ترضيني.

«هل ينبغي أن نمشي أيضاً؟ سألتني "لولا"

ــ من أجل التنحيف

ــ آه، هذا صحيح، لقد نسيت ذلك..»

غادرنا لو نغشامب، كان الأولاد قد رحلوا من الجوار ولم يعد ثمة غبار، وما زال الجنود المجازون يطاردون السعادة، ولكن خارج الغابة الآن. كان عليهم مطاردة السعادة بين أرصفة بورت ميّو.

Twitter: @ketab_n

كنا نحاذي حواف النهر نحو سانت كلود، كانت الحواف مكللة بهالة راقصة من الضباب الذي أطلقه الخريف. وقرب الجسر كانت بضعة قوارب تلامس أنف السفن التي غطست بقسوة في الماء حتى حوافها بسبب حمولتها من الفحمُ.

كانت المروحة الهائلة لخضرة المنتزه تنتشر فوق الحواجز المشبكة، وامتلكت الأشجار المدى العذب، والقوة اللذين تمتلكهما الأحلام العظيمة. أشجار فقط، كنت أخشى الاقتراب منها، حينما كنت أمر بكمائنها.

ثمة موت خلف كل شجرة، كان الممر الكبير يصعد بين صفين ورديين من الأشجار صوب الينابيع وإلى جانب الكشك كانت السيدة العجوز بائعة الصودا تبدو وكأنها تجمع بهدوء كافة ظلال المساء حول تنورتها، وأبعد من ذلك كانت الدروب تموج بأكواخ ممتدة على هيئة مكعبات ومستطيلات من نسيج الكتان الأسود، إنها أكواخ العيد التي فاجأتها الحرب هناك وغمرتها بالصمت على حين فجأة.

«ها قد مرت سنة على رحيلهم، ذكّرتنا العجوز بائعة الصودا، والآن، لا يمر شخصان اثنان في اليوم بهذه الناحية. أما أنا فما أزال أجيء إلى هذا المكان بحكم العادة. كان العديد من الناس يأتون إلى هنا".

لم تكن العجوز تدرك مع ذلك أي شيء مما حدث، لا شيء سوى ذلك.. رغبت "لولا" في أن نمر بهذه الخيام الفارغة، كانت تحركها رغبة حزينة غريبة.

عددنا من تلك الخيم نحو عشرين خيمة كبيرةٍ مجهزة بنوافذ زجاجية.. كانت الخيم الصغيرة أكثر عدداً، متاجر حلويات، محلات لبيع اليانصيب ومسرح صغير كذلك، تخترقها جميعاً تيارات هوائية. وبين كل شجرة وأخرى

Twitter: @ketab_n

ينتصب كوخ منها، أكواخ في كل مكان، وصوب الممر الكبير، كان أحدها قد انتزعت ستائره، وغدا مرتعاً للريح، مثل سر قديم.

كانت الخيام تحني هاماتها نحو الأوراق، والوحل، توقفنا عند الخيمة الأخيرة، تلك التي كانت راكعة أكثر من غيرها، وهي تهتز فوق أعمدتها بفعل الريح، على غرار مركب جنّت أشرعته، يوشك أن ينقطع حبله الأخير، كانت ترتعش، ويترجح قماشها في الوسط. مع الريح الصاعدة، يترجح نحو السماء، فوق السقف، وعلى جبهة الكوخ. كان ما يزال يقرأ اسمه القديم باللونين الأخضر والأحمر. كان كوخاً للرمي بالبنادق الصغيرة، «مركز الأمم».

لم يكن هناك أي شخص لحراسته أيضاً.. لعل مالكه كان يمارس هواية الرمي فيه الآن مع بعض الزبائن.

كم من أهداف الرمي الصغيرة في داخل المخزن كانت قد تلقت زخات الرصاص. كانت جميعها مثقّبة بنقاط صغيرة بيض، كان المشهد يعرض عرساً حافلاً بالدعابة، في الصف الأول، تقف العروس مع زهورها وابن العم والعسكري، والعريس ببوزه الضخم الأحمر، وكلهم من الزنك، وبعدهم، في الصف الثاني يقف المدعوون أيضاً، والذين كان ينبغي قتلهم عدة مرات خلال سير الاحتفال.

«أنا متأكدة من أنك ترمي بصورة جيدة يا فرديناند، حتى لو كان ذلك في الحفل أيضاً.. سأدخل في مباراة معك. ألست ترمي بصورة جيدة يافرديناند.؟

– لا، أنا لا أرمي بصورة جيدة".

في الصف الأخير، خلف العرس، ثمة نسق آخر ملطخ بالألوان، دار العمدة يعلوها العلم، خلف تلك الدار كان ينبغي إطلاق النار أيضاً حالما

Twitter: @ketab_n

يتحرك المشهد، صوب النوافذ التي تنفتح بقرعة جرس حادة، وعلى العلم الصغير المصنوع من الزنك أيضاً، ومن ثم على الفوج الذي كان يتقاطر على منحدر بالقرب من الدار على غرار فوجي في ساحة كليشي، سائراً بين البراميل والزوارق الصغيرة. كل هذا كان عرضة لإطلاق النار، بقدر ما كان ممكناً ذلك، وها أنا الآن تطلق عليّ النار، وبالأمس وغداً.

«عليّ أيضاً كانت تطلق النار يا "لولا"، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أصرخ بها.

ـ هيا، قالت "لولا" حينئذ، أنت تتفوه بحماقات يا فرديناند، وسيصيبنا البرد».

نزلنا صوب سانت كلو عبر الممر الكبير، متحاشين الوحل. كانت "لولا" تمسك بيدي، كانت يدها صغيرة جداً، ولكنني لم أعد أستطيع التفكير في شيء آخر سوى بالعرس المصنوع من الزنك، في مركز الأمم ذاك والذي خلّفناه وسط ظلال الممر. نسيت أيضاً أن أعانق "لولا". كانت أكثر قوة مني، كنت أشعر بأنني غريب الأطوار تماماً اعتقدت منذ تلك اللحظة بأن رأسي غدا من العسير تهدئته مع الأفكار التي تمور في داخله.

حينما بلغنا جسر سانت كلود كان الظلام يلف بردائه كل شيء

«فرديناند، هل ترغب بالعشاء في دوفال، أنت تحب دوفال كثيراً. سيغيّر ذلك من أفكارك، يصادف المرء فيه دائماً العديد من الأشخاص.. إلا إذا كنت تفضل العشاء في غرفتي»؟ لقد كانت "لولا"، بوجه الإجمال، ودودة جداً، في ذلك المساء.

قررنا أخيراً الذهاب إلى دوفال. ولكننا ما كدنا نتخذ أماكننا على الطاولة حتى بدا لي المكان غريباً كل الغرابة.. جميع أولئك الأشخاص

Twitter: @ketab_n

الجالسين صفوفاً حولنا خلقوا لدي انطباعاً بأنهم ينتظرون هم أيضاً أن ينهمر عليهم الرصاص من كل مكان، وهم يأكلون.

«ليذهب الجميع، صرخت بهم محذراً، اهربوا سيطلق عليكم الرصاص، سيقتلونكم، سيقتلوننا جميعاً».

أعادتني "لولا" إلى فندقها بسرعة كنت أرى الأمر نفسه في كل مكان، كان يخيّل إلي أن جميع الأشخاص الذين يسيرون أرتالاً في ممرات بارتيز، سيتعرضون لإطلاق الرصاص، وكذلك الموظفون خلف الصندوق الكبير، كانوا يستعدون أيضاً لذلك، والشخص الواقف عند مدخل بارتيز بزيه الأزرق مثل السماء والمذهب مثل الشمس، والذي يسمونه البواب. وعسكريون، ضباط متجولون وجنرالات، أقل جمالاً من البواب بالتأكيد، ولكنهم كانوا في زيهم العسكري مع ذلك، إطلاق نار غزير لن يخرج منه أحد سالماً، لا هؤلاء ولا أولئك، كان الأمر في غاية الجد، ولم يكن هزلاً.

«سيطلق عليكم الرصاص، صرخت بهم، ما وسعني الصراخ، وسط الصالة الكبيرة، سيطلق عليكم الرصاص، ليهرب الجميع إذن..». تملكتني تلك الحالة، ولم أعد أستطيع منها فكاكاً. فضيحة حقيقية. «يا للجندي المسكين»، كانوا يقولون، وقادني البواب بهدوء إلى البار، بكل رقة، وقدم لي الشراب، فشربت كثيراً، وأخيراً جاء الدرك يبحثون عني، كانوا أشد فظاظة من الجميع، في مركز الأمم ذاك كان هناك درك أيضاً. رأيتهم بعيني، عانقتني "لولا"، وساعدت الدرك على اقتيادي مكبلاً بقيودهم.

سقطت إذن مريضاً محموماً، واعتبرت مجنوناً مثلما فسروا حالتي في المستشفى، مجنوناً بالخوف، كان هذا ممكناً. أفضل ما يفعله المرء حينما يكون في هذا العالم هو الخروج منه! مجنوناً أم لا، بالخوف أم بعدمه.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> أثارت حالتي قصصاً وحكايات، قال البعض: «إن هذا الفتى ليس سوى فوضوي، لابد إذن من إعدامه رمياً بالرصاص، هذه هي اللحظة المناسبة، وفوراً، ليس ثمة مجال للتردد، لا ضرورة لإضاعة الوقت طالما أنها الحرب..» ولكن هناك آخرون أكثر صبراً، كانوا يريدون أن أكون مصاباً بالسفلس فقط، ومجنوناً بحق، وأن أسجن بالتالي حتى تنتهي الحرب ويحل السلام، أو على الأقل، لبضعة شهور، لأنهم، وهم غير المجانين الذين يملكون كامل عقلهم كما يزعمون، يريدون أن يعتنوا بي، بينما يتفرغون وحدهم لإدارة الحرب. هذا يثبت أنه لكي يصدّق الناس بأنك عاقل فليس عليك إلا أن تملك فقط وقاحة كبيرة. وحين تمتلك هذه الوقاحة فذلك يكفي، ويكون كل شيء تقريباً مباح لك، كل شيء قطعاً. وستكون معك الأغلبية، والأغلبية هي التي تقرر من الذي يكون مجنوناً، ومن الذي لا يكون.

غير أن تشخيص حالتي ظل غير مؤكد بالمرة. قررت السلطات إذن وضعي تحت المراقبة إلى حين، وقد حصلت صديقتي الصغيرة "لولا" على إذن بزيارتي بضع مرات، وكذلك أمي، كان هذا كل شيء.

جرت استضافتنا نحن، مرضى الاضطرابات العصبية في ثانوية اسي لي مولينو، التي أعدت خصيصاً. لتلقي ومطاردة الاعترافات طوعاً أو كرهاً، بحسب الحالة، اعترافات أولئك الجنود، على شاكلتي الذين كان مثلهم الأعلى الوطني، بكل بساطة، مشبوهاً أو معتلاً كل الاعتلال، لم يكونوا يعاملوننا معاملة سيئة بالتأكيد، ولكننا كنا نحس في كل وقت، مع ذلك، بأننا مراقبون من أفراد طاقم الممرضين الصامتين والمسلحين بآذان ضخمة.

Twitter: @ketab_n

بعد فترة من الخضوع لهذه المراقبة كان المريض يخرج من تلك المدرسة، ليذهب إما إلى مستشفى المجانين، وإما إلى جبهة القتال، وإما أيضاً وهو الغالب إلى الإعدام بالرصاص.

من بين الزملاء المجتمعين في تلك الأمكنة المريبة. كنت أسأل نفسي دائماً، ونحن في غرفة الطعام نتحدث همساً، من الذي كان على وشك أن يغدو شبحاً.

قريباً من السور المشبك عند المدخل كانت حاجبة المبنى تظل في شقتها الصغيرة، كانت تبيعنا السكر والبرتقال وكل ما كان يلزم في الوقت ذاته، من أجل خياطة الأزرار، وكانت تبيعنا أيضاً، بالإضافة إلى ذلك، المتعة. بالنسبة إلى ضباط الصف كانت تلك المتعة تكلف عشرة فرنكات. كان يمكن، للجميع أن يقضوا وطرهم منها، ولكن فقط مع الحذر من البوح لها بالأسرار، وهو ما كان يحدث بسهولة كبيرة جداً في تلك اللحظات، كان من الممكن لهذا البوح أن يكلف ثمناً غالياً. فكل ما كان يباح به أمامها من أسرار كانت تنقله بدقة متناهية إلى رئيس الأطباء، وكان هذا ينقلك إلى ملفات المجلس الحربي، كان يبدو من المؤكد بأنها قد دفعت إلى منصة الإعدام، من خلال ذلك البوح بالأسرار عريفاً من خيالة السباهي، لم يكن قد جاوز العشرين من عمره بالإضافة إلى جندي احتياط كان قد ابتلع مسامير كي يتلف معدته، وآخر أيضاً مصاباً بالهستيريا، روى لها كيف كان يصطنع نوبات الشلل في الجبهة.. أما أنا، فقد اقترحت علي ذات مساء، لكي تسبر نواياي، كتيباً يتحدث عن جندي أب لستة أطفال، مات قبل وقت، كما قالت لي، يمكنه أن يفيدني من أجل نقلي إلى المؤخرة. لقد كانت بوجه الإجمال، امرأة فاجرة، ففي السرير مثلاً كان الأمر يبلغ ذروة الروعة، وكنا نعاوده، وكانت تهبنا الكثير من الاستمتاع،

Twitter: @ketab_n

وتظهر الكثير من ضروب الغنج الحقيقي وغير المصطنع، وكان هذا ضرورياً لإثارة مزيد من اللذة. ففي ذلك المطبخ الخلفي كان الغنج في نهاية المطاف أشبه بالبهار فوق الصلصة، وكان ذلك ضرورياً، وكان يشد وثاقنا إليها.

كانت أبنية المدرسة تطل على شرفة فسيحة مذهبة بألق الصيف تظللها الأشجار، وكانت معالم باريس تلوح من تلك الشرفة رائعة جليلة بنوع من منظور بهي. في أيام الخميس كان زائرونا ينتظروننا فيها، وكانت "لولا" بينهم، تجيء بانتظام حاملة لي غاتو وصفائح وسكائر.

كنا نلتقي بأطبائنا كل صباح... فيسألوننا عن أحوالنا برفق، ولكننا لم نكن نعرف على الإطلاق بماذا يفكرون بالضبط، كانوا يجوسون حولنا بطلعات بشوشة دوماً، تخفي خلفها الحكم علينا بالموت.

العديد من هؤلاء المرضى الذين كانوا تحت المراقبة، وكانوا أشد انفعالية من الآخرين وسط ذلك الجو المشبع بالملق واللطف المصطنع وصلوا إلى حالة من القلق المتفاقم صاروا ينهضون معها في الليل بدل أن يناموا، ويذرعون عنبر النوم طولاً وعرضاً، محتجين بأعلى أصواتهم تجاه قلقهم الخاص، متشنجين ما بين الرجاء واليأس، كما لو كانوا على شفير هار، كانوا يقاسون من الإعياء أياماً وأياماً، ثم ينهارون فجأة ذات مساء، ويذهبون للاعتراف بما أخفوا من أمرهم إلى رئيس الأطباء، ثم ما يلبث هؤلاء أن يختفي أثرهم، ولا نعود إلى رؤيتهم أبداً. وأنا كذلك، لم أكن اشعر بالطمأنينة، ولكن حين يكون المرء ضعيفاً، فإن ذلك يمنحه القوة، القوة على تجريد الناس الذين يخشاهم أكثر من غيرهم، من أدنى هيبة كان ما يزال يميل إلى إعطائها لهم. ينبغي أن يتعلم المرء النظر إلى هؤلاء مثلما هم، بل وأسوأ مما هم عليه،

Twitter: @ketab_n

أعني من كافة الزوايا ووجهات النظر، فهذا يخلصك، هذا يحررك، ويحميك أكثر من كل ما يمكنك تخيله، إنه يمنحك أنا آخر، تصير اثنين.

حينئذ، لن يعود لأفعالهم عندك تلك الجاذبية الصوفية القذرة التي توهن من عزيمتك، وتجعلك تضيع الوقت هباء، ولن تكون كوميدياهم أكثر إمتاعاً وأجزل نفعاً لرقيك الداخلي من كوميديا أحقر خنزير.

بالقرب مني، بجوار السرير كان ينام عريف تطوع في الجيش بإرادته أيضاً، كان أستاذاً قبل شهر آب في ثانوية تورين، يعلم التاريخ والجغرافيا، مثلما أخبرني. وبعد بضعة شهور من الحرب تكشف هذا الأستاذ عن سارق لا يضاهيه أحد، لم يعد من الممكن منعه من اختلاس معلبات من تموين فوجه، ومن شاحنات الإدارة العسكرية ومن مستودع السرية، ومن كل مكان آخر تطوله يده.

لقد جنح معنا ذلك العريف إلى هذا المكان بانتظار أن يبتّ المجلس الحربي بوضعه الملتبس، ولما كانت عائلته قد استبسلت في إثبات أن القنابل هي التي خبلته وأفسدت أخلاقه فقد أجّل قسم التحقيق الحكم عليه شهراً بعد شهر، لم يكن يكلمني كثيراً، كان يقضي ساعات في تمشيط لحيته، ولكنه حين كان يكلمني فإن كلامه كان يدور بشكل دائم تقريباً حول موضوع واحد، حول الطريقة التي كان قد اكتشفها من أجل أن لا ينجب أطفالاً من زوجته، هل كان مجنوناً حقاً. حين تأتي اللحظة التي ينقلب فيها العالم رأساً على عقب، ويكون من الجنون أن تسأل لماذا يقتلونك يغدو بديهياً أن توصم بالجنون بسهولة. هل يمكن تصديق ذلك، ولكن حين يتعلق الأمر بتجنب التمزق إلى أشلاء يحدث في بعض الأدمغة جهد في الخيال يثير الدهشة.

Twitter: @ketab_n

برينشار، كان اسم ذلك الأستاذ، ماذا كان بوسع برينشار أن يفعل كي ينقذ شرايينه، ورئتيه وأعصابه البصرية؟ ذلك هو السؤال الجوهري.. السؤال الذي ينبغي أن نطرحه فيما بيننا، نحن البشر كي نظل آدميين وعمليين، ولكننا كنا بعيدين عن ذلك، مترنحين داخل مثال من السخافات المنافية للعقل، محاطين بنزاعات مبتذلة وجنونية، جرذاناً مسودة بالدخان، نسعى بجنون، إلى الخروج من سفينة تلتهمها النيران، ولكن لأنه لم يكن بحوزتنا أي خطة مشتركة، أي ثقة، بعضنا بالبعض الآخر، مذهولين بسبب الحرب، غدونا مجانين بنوع آخر من الجنون، الخوف، قفا الحرب ووجهها.

خصني ريتشارد، مع ذلك، عبر هذا الهذيان المشترك، بنوع من الود والتعاطف، مع بقائه حذراً مني بالتأكيد.

وحيث أننا وجدنا أنفسنا في الهم سواء داخل ذلك المحيط كان من المستحيل وجود صداقة أو ثقة. لا يتكلم أحدنا أمام الآخرين إلا بما يعتقد أنه مناسب للنجاة بجلده، لا أكثر، ما دام أن كل ما يقوله أو يكاد، كان ينقل حرفياً على لسان الجواسيس المتربصين

بين وقت وآخر كان واحد منا يختفي عن الأنظار، وهذا يعني أن أمره قد انتهى، وجرى حسمه في المجلس الحربي، إما على ساحة الإعدام أو إلى الجبهة، أما بالنسبة إلى المحظوظين أكثر فإلى مشفى الأمراض العقلية في كلامار

محاربون آخرون مشبوهون كانوا يصلون باستمرار. من كافة الأسلحة، فتية في مقتبل العمر، ومتقدمون في السن، ممن استبد بهم الهلع أو ممن يدّعون ذلك، كان آباؤهم وزوجاتهم يأتون لزيارتهم أيام الخميس، وأطفالهم أيضاً، جاحظي العيون.

Twitter: @ketab_n

كل هذا العالم كان يبكي بغزارة، في ردهة الاستقبال، عند المساء على الأخص. كان عجز العالم في الحرب يأتي ليبكي هنا، وحين تنتهي الزيارة، وتنصرف الزوجات والأطفال عبر الممر الشاحب بسبب الغاز، كانوا يجرون أقدامهم جراً مشكلين قطيعاً من الباكين الباعثين على التقزز، لا شيء غير ذلك.

بالنسبة إلى "لولا"، كانت تأتي لزيارتي في هذا النوع من السجن، كان ذلك ما يزال مغامرة، كلانا، لم نكن نبكي، لم يكن لدينا أي مكان نستقي منه الدموع.

«هل صحيح يا فرديناند أنك صرت مجنوناً فعلاً، سألتني "لولا"، ذات خميس»

ـ أجل، صرت كذلك. اعترفت لها.

ـ إذن، سيعتنون بك هنا؟

ـ لا يعتني أحد بالخوف، يا "لولا"

ـ أأنت خائف بهذا القدر؟

ـ وأكثر من ذلك أيضاً، يا "لولا"، خوف لا حد له. لاحظي أنني إذا ما مت ميتة طبيعية، حين تحين ساعتي.. فأنا لا أريد على الأخص أن يحرقوني، أريد أن يتركوا جسدي على الأرض، يتعفن بهدوء في المقبرة، مستعداً لأن أبعث إلى الحياة ربما.. لا أحد يعلم على الإطلاق، في حين أنهم إذا أحرقوني وحولوني إلى رماد، يا "لولا"، هل تفهميني، سينتهي كل شيء، سينتهي فعلاً... هيكل عظمي، مع ذلك، ما زال يشبه بعض الشبه إنساناً. وهو مهيأ للانبعاث للحياة من جديد أكثر من الرماد. الرماد يعني أن كل شيء قد انتهى، ماذا تقولين في ذلك؟ إذن، الحرب...

Twitter: @ketab_n

ـ أوه. أنت إذن جبان كلياً، يا فرديناند.. أنت منفر مثل جرذ.

ـ أجل، جبان كلياً، يا "لولا"، أنا أرفض الحرب، أرفض كل ما في داخلها، أنا لا أشتكي منها، ولست خاضعاً مستسلماً... لست أبكي على نفسي، ولكنني أرفض الحرب رفضاً تاماً، وأرفض جميع الذين يواصلونها، لا أريد قط أن أكون مرغماً على العمل معهم، أو معها وحتى لو كان عددهم ٩٩٥ مليوناً وكنت وحدي فإنهم هم الذين على باطل يا لولا، وأنا وحدي على حق. أنا الوحيد الذي يعرف ما يريد أنا لا أريد الموت أبداً.

ـ ولكن من المستحيل رفض الحرب يا فرديناند، ليس هناك سوى المجانين، والجبناء من يرفض الحرب، حينما يكون الوطن في خطر.

ـ إذن، فليعش المجانين والجبناء، أو بالأحرى، لينج من الموت المجانين والجبناء. هل تتذكرين اسماً واحداً مثلاً، يا "لولا" اسماً واحداً من أسماء أولئك الجنود الذين قتلوا خلال حرب المئة عام؟ هل سعيت في يوم من الأيام لمعرفة واحدٍ من هذه الأسماء؟ لا، أليس كذلك؟ أنت لم تحاولي على الإطلاق؟ إنهم مجهولون تماماً بالنسبة إليك، لا شأن لهم أبداً، مجهولون أكثر من آخر ذرة من ذرات ثقالة الورق هذه التي أمامنا، أكثر من بعرك الذي تتبعرينه صباحاً، لاحظي إذن جيداً بأنهم ماتوا بلا ثمن يا "لولا"، بلا أي ثمن على الإطلاق، هؤلاء الأغبياء. أؤكد لك ذلك، والدليل جاهز لدي، ليس ثمة أي شيء يمتلك قيمة سوى الحياة، أراهنك الآن بأن هذه الحرب التي تبدو لنا اليوم غاية في الأهمية، ستكون بعد عشرة آلاف سنة نسياً منسياً، لا يكاد يذكرها سوى دزينة من المتبحرين يتخاصمون هنا وهناك حول سبب نشوبها، وحول تواريخ مجازرها الرئيسية التي اشتهرت بها! ذلك كل ما أفلح البشر في العثور عليه حتى الآن، مما يستحق الذكر، بشأن بعضهم بعضاً خلال

Twitter: @ketab_n

بضع قرون، بضعة سنوات أو حتى بضعة ساعات من الزمن. أنا لا أومن بالمستقبل يا "لو لا".

حينما اكتشفت لو لا إلى أي حد غدوت متبجحاً بوضعي المخزي كفّت عن أن ترى فيّ إنساناً يستحق الشفقة، بل وأقل إنسان في العالم، واعتبرتني شخصاً جديراً بالاحتقار، بنحو قاطع.

قررت أن تغادرني على الفور، كان ذلك أكثر من أن تحتمل، ولدى مرافقتي لها ذلك المساء إلى بوابة المصح لم تعانقني.

كان من المستحيل، بالطبع، أن تقبل حقيقة أن محكوماً بالموت لا يقرّ بقدره في الوقت نفسه، وحينما سألتها عن أخبار فطائرنا لم تجب كذلك.

حينما عدت إلى مرقدي وجدت برينشار أمام النافذة يمسح نظارتيه على ضوء الغاز، وسط حلقة من الجنود، كانت تلك فكرة خطرت له، كما أوضح لنا، عند شاطئ البحر، خلال العطلة، وما دمنا الآن في فصل الصيف فقد نوى أن يضعهما على عينيه خلال النهار، حينما يكون في الحديقة. كانت فسيحة الأرجاء تلك الحديقة. ومراقبة أيضاً من قبل زمر من الممرضات. في اليوم التالي إذن، ألح علي برينشار بأن أرافقه حتى الرصيف كي يجرب نظارتيه الجميلتين. كانت شمس ما بعد الظهيرة تسطع متألقة فوق برينشار الذي كان يحمي عينيه بزجاج نظارته الكتيمة. لاحظت بأن أنفه شفاف تقريباً عند منخريه وأنه كان يتنفس بسرعة.

«يا صديقي، باح لي برينشار، الوقت يمر، ولا يعمل لصالحي، ضميري خالٍ من الندم. لقد تحررت، والحمد لله، من تلك الوضاعات. إنها ليست بالجرائم الخطيرة في هذا العالم. ولكنني أقلعت عنها منذ زمن طويل، تلك الحماقات، وأنا أعتقد بأنني ارتكبت واحدة منها يتعذر إصلاحها كلياً.

Twitter: @ketab_n

ـ سرقتك للمعلبات؟

ـ نعم، كنت أعتقد ذلك عملاً ذكياً كي أنجو بنفسي من المعركة، بتلك الطريقة المشينة، لأعود إلى السلم بعد الحرب مثلما يعود الغاطس إلى سطح البحر منهكاً بعد غطسة طويلة. كدت أفلح في ذلك... ولكن الحرب طالت كثيراً في الحقيقة، ومع امتدادها لم أعد أتصور أن هناك أفراداً منفرين إلى درجة كافية كي يتقزز الوطن. بدأ الوطن، يقبل كل الأضاحي من أي جهة جاؤوا، كل اللحوم. غدا متساهلاً إلى أبعد حد في اختيار شهدائه. لم يعد هناك حالياً جنود غير مؤهلين لحمل السلاح، ولا سيما للموت تحت السلاح، وبواسطة السلاح. إنهم يمثلون علي الآن دور الأبطال ... ينبغي أن تبلغ لوثة المذابح ذروتها القصوى كي يبدؤوا بالصفح عن سرقة علبة محفوظات. ماذا أقول؟ لنسيان ذلك. من المؤكد بأننا قد اعتدنا على الإعجاب في كل زمان بعصابات شديدة الجبروت من قطاع الطرق، يمجّد العالم كله ونحن أيضاً، ثراءها الفاحش ولكننا ما أن نتفحص عن قرب حياتهم في هذا الوجود حتى يتأكد لنا مع ذلك بأن تلك الحياة جريمة متواصلة، تتجدد كل يوم تقريباً. غير أن أولئك الأشخاص يتمتعون بالمجد والشرف والقوة. تكرس القوانين جرائمهم. ولكنها بعيدة جداً عن أن تدوّن في سجلات التاريخ ـ أنت تعلم بأنني أتقاضى راتباً لقاء معرفتي بالتاريخ ـ في حين يتكشف لنا أن سرقة زهيدة، قوتاً على الأخص، رقاقة خبز، أو فخذ خنزير أو قطعة جبن، تجلب على صاحبها بنحو لا راد له، العار المشين، والنبذ الصريح من المجتمع، والعقاب الأعظم، والفضح الفوري والخزي الذي لا يمحى. وكل ذلك لسببين اثنين، أولاً لأن صاحب مثل هذه الخطايا هو على الأغلب بائس فقير. وأن هذه الحال تتضمن بحد ذاتها دناءة كبرى، وثانياً لأن فعلته تشتمل على نوع من تعنيف ضمني للمجتمع. سرقة الفقير تغدو استيلاء فردياً ماكراً، هل تفهمني؟ أين سنذهب؟ كذلك فإن قمع السرقات الطفيفة يمارس، كما تلاحظ، في

Twitter: @ketab_n

كل الظروف، بقسوة متناهية، ليس فقط كوسيلة دفاعية اجتماعية فقط، بل وأيضاً، وبوجه خاص كنصيحة قاسية لكل التعساء بأن يلزموا حدهم وطبقتهم، قريري العين، خاضعين بكل سرور للهلاك على امتداد قرون، وإلى الأبد، من البؤس ومن الجوع... ومع ذلك، فقد ظل للصوص الصغار حتى الآن مزية في جمهوريتنا، مزية الحرمان من شرف حمل السلاح الوطني. ولكن هذا الوضع، سيتغير منذ الغد، وسأذهب لأستعيد منذ الغد، أنا السارق الصغير، موقعي في الجيش، تلك هي الأوامر... لقد قررت المراجع العليا أن تمحو بممحاتها ما كانوا يسمونه «لحظة متعتي» وذلك، كما تلاحظ، مراعاة لما يسمونه أيضاً «شرف عائلتي» يا للدماثة.. أسألك أيها الرفيق، هل إن عائلتي إذن هي التي ستذهب للقيام بفرز الرصاص الفرنسي عن الرصاص الألماني المختلطين معاً؟ سأكون أنا وحدي من دون شك من يقوم بذلك، أليس كذلك، وحينما ستزهق روحي، هل سيكون شرف عائلتي هو من يعيدني إلى الحياة من جديد؟ عجباً! إنني أراها من هنا! أرى عائلتي. فما إن تنتهي أوزار الحرب، مثلما ينتهي كل شيء، حتى تقفز بمرح حينذاك فوق عشب الصيف العائد. إنني أراها من هنا، خلال أيام الآحاد الجميلة... غير أنني أكون على مسافة ثلاثة أقدام تحتهم، أنا، بابا، تسبح فوقي يرقات الدود: أشد نتانة من ثلاثة كيلوغرامات من براز ١٤ تموز، أتعفن بشدة، بكل لحمي الخائب... سماد لأتلام حراث مجهول، ذلك هو المستقبل الحقيقي للجندي الحقيقي. آه! يا رفيق، أؤكد لك، بأن هذا العالم ليس سوى مشروع هائل للسخرية من العالم. أنت شاب في مقتبل العمر، وهذه اللحظات الدقيقة تهمك لسنوات، أصغ إلي جيداً، يا رفيق، ولا تدع قط هذه العلامة تمر دون أن تدرك أهميتها، هذه العلامة الجوهرية التي يسطع فيها كل الرياء المميت لمجتمعنا: «الحنو على مصير وشروط حياة البائسين»، أقول لكم أيها الصغار الطيبون. حمقى الحياة، المغلوبون، الخاضعون للابتزاز، الناضحون عرقاً

Twitter: @ketab_n

على الدوام. أنبهكم إلى أن كبار هذا العالم حينما يبدؤون بمحبتكم فإنما ليحولوكم إلى سجق للحرب. تلك هي العلامة، وهي أكيدة لا يأتيها الباطل. فمن خلال محبتهم يبدأ كل ذلك، لويس ١٤ لم يكن يبالي على الإطلاق بسحق شعبه الطيب حتى العظام، أما لويس ١٥ فقد مسح به محيط شرجه. لم يكن الفقراء يعيشون في ذلك الزمن، هم لم يعيشوا على الإطلاق، ولكنهم لم ينتزعوا منهما الصلف والقسوة اللذين ما نزال نجدهما لدى طغاتنا اليوم. ليس هناك راحة للصغار، أقول لك، إلا بازدرائهم للكبار الذين لا يستطيعون التفكير في الشعب إلا من خلال مصلحتهم أو ساديتهم... كان الفلاسفة، لاحظ أيضاً هم الذين بدؤوا برواية حكايات للشعب الطيب... ذلك الذي لم يكن يعرف سوى كتاب التعليم الديني. لقد بدؤوا بتربيته. كان لديهم حقائق يكشفونها له. حقائق جميلة، وجديدة، تشع بالأنوار، ظل الشعب منها، مبهوراً! ذلك ما هو مطلوب! بدأ الشعب بالكلام، الشعب الطيب. ذلك ما هو مطلوب فعلاً! ذلك ما هو مطلوب كلياً! لنمت جميعاً في سبيل هذه الحقائق، هكذا قال الشعب. لم يطلب الشعب أي شيء سوى أن يموت. «يعيش ديدرو» هتفوا بملء صوتهم «برافو فولتيير» يا لهم من فلاسفة، وليعش أيضاً كارنو الذي هيأ بنحو جيد جداً للانتصارات. ليعش كل البشر، إنهم في المحصلة، فتية لم يتركوا الشعب الطيب يعمه في الضلال والصنمية. لقد وضعوه على طريق الحرية، أعتقوه من أغلاله، ولم يتأخر ذلك. كل الناس في البداية صاروا يقرؤون الصحف! لقد قرب الخلاص! اللعنة! وبسرعة، لم يعد هناك أميون، لم يعد ثمة ضرورة لهم. جنود مواطنون فقط، ينتخبون، يقرؤون، يصارعون، يسيرون ويرسلون القبلات، وفي قلب ذلك النظام، نضج الشعب الطيب أيما نضوج، أليست الحماسة من أجل التحرر هي الخلاص بالضرورة. لم "يكن دانتون" فصيحاً عبثاً: فما أن أطلق بضع صيحات صريحة وصادقة، ما زال صداها يتردد، حتى عبأ ذلك الشعب الطيب بلمح البصر، وكانت تلك هي الانطلاقة الأولى

Twitter: @ketab_n

للجحافل الأولى من العتقاء الهائجين، أما المقترعون الأوائل البلهاء الذين قادهم دوموريبه فقد أطلق عليهم الرصاص في الفلاندر. ولكن "دوموريبه" نفسه الذي جاء متأخراً إلى هذه اللعبة المثالية الصغيرة الحديثة كلياً وفضّل المال في النتيجة، ولى الأدبار هارباً. وكان هو آخر مرتزق عندنا... وعاد الجندي المتطوع الجديد، الجديد كلياًإلى الظهور، إلى درجة أن غوته، وكل غوته أياً كان، حين وصل إلى فالمي بهره مشهد الكتائب الرثة الثياب والمفعمة بالحماس التي تحررت من نير ملك بروسيا للدفاع عن الفكرة الوطنية المستحدثة. شعر غوته بأنه مازال لديه الكثير من الأشياء ليتعلمها «منذ هذا اليوم، صاح غوته صيحته الرائعة، مثلما هو مألوف من عبقريته، يبدأ عصر جديد». صدقني! وبعد ذلك حل نظام، وأي نظام! بدؤوا بصنع أبطال بوفرة، كانوا يكلّفون أقل فأقل، بسبب مهارة النظام، وجدوا في ذلك النظام فرصة طيبة لهم، بسمارك والنابليونان، وباري، وكذلك الفارسة إلزا. وحلت عبادة الفرد محل عبادة السماء، كان الإصلاح قد وهن بسبب غيمة شائخة تكثفت منذ أمد بعيد في حصالات نقود انغليكانية. كانت صيغة التعصب، فيما سبق هي «يحيا المسيح» إلى المحرقة أيها الهراطقة» ولكن الهراطقة كانوا في نهاية المطاف نادرين في حين أننا الآن، وحيثما نحن فإن حشوداً هائلة تصرخ «إلى المشنقة بكل البقليات دون ليف! بكل الليمونيات دون عصير! بكل القراء السانجين! إلى الأمام أيها الملايين» تستثير الغرائز الداخلية، تحرض البشر الذين لا يرغبون بقتل إنسان، المسالمين المتعفنين الذين تمت السيطرة عليهم وتمزيق صفوفهم، تحض على القتل أيضاً بثلاث عشرة طريقة مسيخة.. لقد انتزعت أحشاء هؤلاء من أجسادهم في البداية ليتعلموا كيف يعيشون، انتزعت عيونهم من محاجرها وانتزعت سنوات من أعمارهم القذرة البائسة. شكلوا منهم أفواجاً وأفواجاً أيضاً.. يسيرون إلى الهلاك، يتحولون إلى زمارات مصوتة، ينزفون، يتصاعد منهم الدخان وسط الأحماض،

Twitter: @ketab_n

وكل هذا من أجل الوطن الذي غدا محبوباً أكثر، سعيداً أكثر، ولطيفاً أكثر، وإذا كان هناك داخل الوطن أنجاس يرفضون أن يفهموا تلك الأمور السامية، فليس عليهم إلا أن يدفنوا مع الآخرين، ليس دفناً لائقاً، مع ذلك، ولكن في الطرف الأقصى للمقبرة وتحت شاهدة قبر تفضح الجبناء المتخاذلين الذين ليس لهم مثل أعلى، ذلك لأن هؤلاء الأنجاس سيفقدون حقهم في بعض الظل الذي سيغطي تلك النصب التذكارية الشامخة، المشيدة بطريق الالتزام والمخصصة للموتى من ذوي الشأن وسط الممرات الظليلة، ويفقدون أيضاً حقهم باستقبال أصداء كلمة الوزير الذي سيذهب يوم الأحد ليبول عند حاكم المقاطعة ويرتجف شدقه فوق القبور بعد الإفطار...».

ولكنهم استدعوا برينشارد من قلب الحديقة، أرسل رئيس الأطباء في طلبه ممرضة الخدمة لتستدعيه على عجل.

«سأذهب» أجابها برينشارد، لم يعد له من الوقت سوى تلك اللحظات التي نقل إليّ فيها كلامه المشوش على غرار ممثل مبتدئ.

لم أر برينشارد مرة أخرى. كان لديه رذيلة المثقفين. كان هذا الفتى يعرف الكثير من الأشياء وكانت تلك الأشياء تشوشه، لقد كان بحاجة إلى كومة من الأشياء كي يتحرك، ويقرر.

ذلك المساء الذي غاب فيه برينشارد، حينما أفكر فيه، أتذكر جيداً، مساكن القرية المحيطة بحديقتنا وهي تلوح عن بعد، وما تزال صورتها ترتسم أمام ناظري، واضحة تمام الوضوح، مثلما تكون كافة الأشياء قبل أن يبتلعها المساء كانت الأشجار تتعاظم وسط الظلال وتشهق نحو السماء لتلتحق بالليل.

لم أفعل أي شيء إطلاقاً لمعرفة ماذا حل بذلك البرينشار، وما إذا كان قد «اختفى» حقاً، مثلما كان يتردد، غير أنه كان من الأفضل أن يختفي.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> داخل أتون الحرب كان سلامنا الفظ يضع بذوره.

كان من الممكن تخمين ما ستؤول إليه عليه تلك الهستريا، يكفي رؤيتها فقط وهي تضطرب داخل حانة أوليمبيا. في أسفل الحانة حيث يقع قبو الرقص المريب الواسع الأرجاء، كانت تلك الهستريا تخبط وسط الغبار والقنوط المرير، بصحبة موسيقى زنجية ــ يهودية ــ ساكسونية. بريطانيون وزنوج، اختلط بعضهم ببعض. شرق أوسطيون، وروس، منتشرون في كل مكان، مدخنين زاعقين، سوداويين، وعسكريين على امتداد الأرائك القرمزية. تلك الأزياء التي لم يعد يذكرها أحد إلا بمزيد من الألم. كانت بذور يومنا الذي نحن فيه، ما تزال تنمو وتنمو ولن تطلق أدخنتها إلا فيما بعد. ومع مرور الأيام كانت الرغبات الدفينة تجتذبنا إلى الأوليمبيا كل أسبوع، نقضي فيها بضع ساعات. كنا نمضي مجموعة من نزلاء المصح لزيارة بائعة الملابس الداخلية، والقفازات والكتب. مدام هيروت في زقاق بيريناس خلف الفولي بيرجيز الذي اختفى من الوجود الآن، حيث الكلاب الصغيرة تأتي مع فتياتها الصغيرات اللواتي يقدنها، لقضاء حاجتها.

كنا نمضي إلى هناك، نبحث عن متعتنا، نتلمسها تلمساً، في وقت كان العالم بأسره يرغي ويزبد متوعداً. كان الخجل من تلك الرغبة يعترينا، ولكن كان لابد من تلبيتها في النهاية. لأن العزوف عن الحب أشق من العزوف عن الحياة، ففي هذا العالم يمضي المرء وقته في القتل أو في العشق، وفي كليهما معاً، «أنا أكرهك، أنا أعبدك!». يدافع المرء عن نفسه، يحافظ عليها، يعبر

Twitter: @ketab_n

بحياته إلى القرن القادم، بحماس جامح وبأي ثمن، كما لو كان من المستحب للغاية الاستمرار في الحياة، كما لو كان ذلك يجعلنا في نهاية المطاف خالدين.

كانت أحوالي الذهنية تتحسن باطراد، ولكن وضعي العسكري ظل ملتبساً، حصلنا على إذن بالخروج إلى المدينة من وقت إلى آخر. كانت بائعتنا إذن تسمى مدام هيروت. كان جبين تلك المرأة منخفضاً وضيقاً جداً بحيث يشعر الواقف أمامها. للوهلة الأولى، بأنه على غير ما يرام. ولكن شفتيها المنفرجتين عن ابتسامة عريضة، والممتلئتين، تجعله بالمقابل، يحار كيف يتصرف فيما بعد للإفلات منها. وبغض النظر عن ذلاقة لسانها الهائلة، وعن مزاجها الذي لا ينسى، فقد كانت تنطوي على نوايا بسيطة، جشعة، وتجارية بنحو ورع.

جمعت مدام هيروت ثروة في بضعة أشهر، بمساعدة حلفائها وبطنها على الأخص، كانت قد حررته من مبايضه، إن صح القول، بعد إجراء عملية على أثر التهاب النفير، في السنة المنصرمة. هذا الخصاء المحرر هو الذي صنع لها ثروتها، ثمة أمراض نسائية تتكشف عن نعمة مرسلة من العناية الإلهية. ذلك أن امرأة تمضي وقتها في الخوف من الحمل ليست سوى نوع من امرأة مقعدة، وهي لن تقطع شوطاً بعيداً في النجاح.

كان الرجال الكبار في السن والفتيان أيضاً يعتقدون، مثلما كنت أعتقد أنا أيضاً بأن ثمة فرصة لممارسة الحب بسهولة وبكلفة ليست غالية في خلفية بعض محلات بيع الكتب والملابس الداخلية. وما يزال هذا صحيحاً منذ عشرين سنة. ولكن منذ ذلك الوقت، ثمة أشياء كثيرة لم تعد متاحة، تلك التي كانت الأكثر امتاعاً وإبهاجاً. فالبيوريتانيون الانكلو سكسون يجففون عروقنا كل شهر مزيداً من الجفاف، وقد تقلصت إلى اللاشيء تقريباً المداعبات

Twitter: @ketab_n

الجنسية المرتجلة في خلفيات المخازن. وتحول الجميع إلى الزواج وإلى إصلاح السلوك.

استطاعت مدام هيروت أن تستفيد كثيراً من الرخص الأخيرة التي كان ما يزال ممكناً فيها المضاجعة على الواقف، وبسعر رخيص، كان ثمة دلّال عاطل عن العمل مر من أمام مخزنها ذات أحد، دخل المخزن، وبقي فيه على الدوام. كان خرفاً بعض الشيء، وظل كذلك، لا أقل ولا أكثر، لم تكن متعتهما تثير أية ضجة، ففي غمرة ضجيج الصحف المحمومة التي تزعق بالدعوة إلى التضحيات النهائية والوطنية واصلت الحياة سيرها المتزن تماماً. مفعمة بالذكاء والتبصر، بل وأكثر ذكاء وفطنة من أي وقت مضى. ذانكما هما القفا والوجه، على غرار الضوء والظل، للميدالية ذاتها.

كان دلّال مدام هيروت يودع في هولندا مبالغ من المال لأصدقائه الأكثر إطلاعاً على الأوضاع، ولمدام هيروت بدورها. منذ أن أصبحا صديقين حميمين، كانت ربطات العنق، وحمالات الصدر، وأشباه القمصان، على النحو الذي كانت تبيعها فيه، تجتذب إليها زبائن وزبائن، وتحفزهم على الأخص، على العودة غالباً.

عدد كبير من اللقاءات الأجنبية والوطنية كان يجري في ظل السجف الوردية ووسط العبارات المتواصلة للمعلمة، بحيث أن جوهر شخصها الأساسي الثرثار والعابق بالعطور إلى حد الإغماء يمكنه أن يجعل أكثر المكبودين زناخة، ممراحاً وماجناً. ضمن هذا الخليط، ودون أن تفقد صفاء ذهنها كانت مدام هيروت تنظم حساباتها، من النقود أولاً، لأنها كانت تقتطع لحسابها العشر من أثمان مبيعاتها، بحساسية عالية، ثم لأنها كانت تصنع كثيراً من الحب حولها. كانت تجمع الأزواج من الرجال والنساء، ثم تفرق بينهم بفرح مماثل. عن طريق الوشايات والتلميحات والخيانات.

Twitter: @ketab_n

كانت تبتكر السعادة والمأساة دون توقف، وترعى حياة الشهوات والأهواء، وكانت تجارتها تسير من حسن إلى أحسن.

تاه بروست، الذي كان هو نفسه نصف شبح، في اللانهائي، بشغف بالغ، في الأباطيل الزاهية للطقوس والمساعي التي تلتف حول أناس العالم، أناس الفراغ، أشباح الهذيان والبحران، الفاسقين الغامضين الذين ينتظرون على الدوام والتو[١] ليرسمهم، والباحثين بفتور عن سيتيرات[٢] غير موجودة. غير أن مدام هيروت، ذات الشعبية، وذات الأصل العريق كانت تثبت أقدامها على الأرض، عبر شهوات متأرثة، بلهاء، ومتجددة باستمرار.

إذا كان الناس أشراراً وجبناء، فربما لأنهم يعانون الأوجاع تحديداً، ولكن الزمن الذين يفصل بين اللحظة التي تتوقف فيها آلامهم وبين اللحظة التي يصبحون فيها أفضل قليلاً، وأقل خبثاً وشراً، زمن طويل. والنجاح المادي الباهر والمثير لمدام هيروت لم يأخذ بعد وقته الكافي كي يلطف من تدبيراتها الماكرة والآسرة.

لم تكن مدام هيروت حقودة أكثر من أغلب البائعات الصغيرات اللواتي يجاورنها، ولكنها كانت تحمّل نفسها الكثير من العناء كي تثبت لك العكس. لم يكن حانوتها سوى مكان للمواعيد، كما كان أيضاً نوعاً من دخول عابر إلى عالم من الثراء والترف، لم أكن قط قد دخلته حتى ذلك الوقت على الرغم من رغبتي الشديدة، وفوق ذلك فقد أقصيت عنه بسرعة وبنحو مكدر، على إثر دخول عابر، كان الأول والوحيد.

---

(١) walto: رسام فرنسي.

(٢) cythere جزيرة يونانية.

Twitter: @ketab_n

الناس الأثرياء في باريس يقطنون معاً، تشكل أحياؤهم بمجموعها قطعة غاتو يلامس رأسها اللوفر، بينما ينتهي محيطها الدائري عند الأشجار، بين بونت دويتي وبورت دي تيرن.. تلكم هي القطعة الجيدة من باريس، وكل ما تبقى ليس سوى شقاء وزبل.

حينما تمر بالقرب من حي الأغنياء، لا تلاحظ في البداية فوارق كبيرة بينه وبين الأحياء الأخرى، سوى أن الشوارع فيه أكثر نظافة. وهذا كل شيء. أما إذا أردت القيام بجولة في داخل بيوت أولئك الناس والأشياء فلابد لك من الاعتماد على الصدفة. أو على الصداقة الحميمة من خلال مخزن مدام هيروت. كان بإمكاني الدخول إلى ذلك الحي بسبب الأرجنتينيين الذين كانوا ينزلون من الأحياء الراقية ليتزودوا من مخزنها بالسراويل الداخلية والقمصان ويشاكسوا نخبة جميلة من صديقاتهم الطموحات، من ممثلات المسرح، والموسيقيات، ذوات القدود الرشيقة واللواتي كانت مدام هيروت تجتذبهن إلى حانوتها عن قصد.

أما أنا الذي لم يكن لدي ما أقدمه لواحدة من أولئك الأرجنتينيات سوى شبابي، كما يقال فقد بدأت أتعلق بها كثيراً. بالصغيرة ميزين كما كانوا يسمونها في ذلك المحيط.

في ممر بيرزيناس الضيق كان الجميع يعرفون بعضهم، من حانوت إلى حانوت على غرار مقاطعة صغيرة حقيقية محصورة منذ سنوات بين شارعين من شوارع باريس، وكان هذا يعني أنهم يترصدون بعضهم بعضاً، ويتبادلون الوشاية والنميمة إلى درجة الحمى والهذيان.

بصدد الأمور المادية، قبل الحرب، كان التجار يتحدثون عن حياة شحيحة موئسة. ينقرون فيها رزقهم نقراً على غرار الطيور. كان ثمة همّ

Twitter: @ketab_n

يومي يضاف إلى الهموم الثقيلة الأخرى التي ترزح تحتها تلك الحوانيت، هو أن أصحابها كانوا مضطرين بسبب عتمة زقاقهم الضيق إلى اللجوء لفوانيس الغاز منذ الساعة الرابعة من مساء كل يوم لإضاءة واجهات بضائعهم. ولكنهم كانوا يوفرون على هذا النحو، في المقابل، جواً ملائماً لمعروضاتهم.

كان العديد من تلك الحوانيت، على الرغم من كل شيء، على طريق الانهيار من جراء الحرب، في حين كان حانوت مدام هيروت، بسبب التردد الدائم للشباب الأرجنتينيين، والضباط من ذوي الجيوب المحشوة بالمال، وبفضل نصائح الصديق الدلال يندفع بقفزات إلى الأمام، بحيث أن كل أصحاب الحوانيت المجاورة كانوا يعلّقون على نجاحه بعبارات نابية.

لنلاحظ، مثلاً بأن حانوت الحلوى الشهير ذا الرقم ١١٢ فقد في تلك الفترة ذاتها، وعلى حين فجأة زبوناته الجميلات على إثر التعبئة العامة، فلفرط ما صودرت الخيول من أجل الحرب، اضطرت الذواقات الشهيرات إلى السير على أقدامهن، ثم انقطعن عن المجيء إلى المحل، لم يعد لهن أثر إطلاقاً. أما سامبانيه، مجلد الكتب، فقد أصبح عرضة للخراب، فجأة بسبب تلك الرغبة التي كانت تتملكه باستمرار في أن يكون شاذاً، وقد جرّت عليه إحدى محاولاته الجريئة الفاشلة ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه، من قبل بعض الوطنيين الذين اتهموه بالتجسس، مما اضطره إلى أن يغلق محله.

في المقابل، فإن مدام هيروت، في حانوتها ذي الرقم ٢٦، والتي كانت تتخصص فيه حتى ذلك الحين بصنف الكاوتشوك، سواء أكان مسموحاً به أم لا، فستتدبر أمرها على أحسن وجه، بفضل الظروف.. على الرغم من أنها كانت تعاني بالتأكيد من كافة الصعوبات التي لا تخطر على بال في التزود بـــ «الأكياس الواقية» التي كانت تتلقاها من ألمانيا.

Twitter: @ketab_n

والخلاصة، فإن مدام هيروت، وحدها، وعلى عتبة حقبة جديدة وديمقراطية للملابس الداخلية الناعمة، دخلت بسهولة في عهد من الازدهار.

كان أصحاب الحوانيت يكتبون رسائل إلى بعضهم، مغفلة من التوقيع، حافلة بالفحش والبذاءة. كانت مدام هيروت، تفضل، من أجل تسليتها أن تبعث برسائل إلى الشخصيات الرفيعة. تعبر فيها عن رغبات دفينة. تشكل جوهر طباعها بالذات، فإلى رئيس الجمعية الوطنية مثلاً بعثت برسالة، لتؤكد له فقط بأنه زوج مخدوع. وإلى الماريشال بيتان بعثت برسالة مغفلة التوقيع ، كتبتها بالإنكليزية، مستعينة بالقاموس كي تثير حنقه، دوش فوق الريش، وكانت هي بدورها تتلقى كل يوم رزمة صغيرة من تلك الرسائل غير الموقعة، والتي لم تكن تفوح برائحة طيبة. فكانت تظل بسببها عشر دقائق، مطرقة، متأملة، مذهولة عن نفسها، ولكنها سرعان ما كانت تستعيد اتزانها ورباطة جأشها، ليس مهمّاً كيف، وليس مهماً بأي وسيلة، ولكنها كانت تعود إلى هدوئها دائماً وبقوة أيضاً. إذ لم يكن لديها في حياتها الداخلية أي مكان للشك، وأقل أيضاً بالنسبة إلى الحقيقة.

كان من بين زبوناتها ومحمياتها عدد من الفنانات الصغيرات يأتين إليها وعليهن من الديون أكثر مما عليهن من الثياب، كانت مدام هيروت تنصحهن، وتهدئ من روعهن، كانت "ميزين" من بينهن جميعاً هي الأكثر ظرفاً كما بدت لي، ملاك موسيقي حقيقي صغير. عشق للكمان، لا تشوبه شائبة، كما أثبتت لي. وبرغبة جارفة في النجاح على هذه الأرض، وليس في السماء، كانت تتدبر أمرها لحظة تعرفي عليها، خلال فاصل موسيقي قصير عزفت فيه أبدع ما في المنوعات الموسيقية من ألحان باريسية جداً، منسية منذ عهد بعيد.

Twitter: @ketab_n

كانت تظهر على المسرح مع كمانها في نوع من مقدمة مرتجلة، منظومة، رخيمة. لون من الموسيقى سهل المأخذ ولكنه على جانب من التعقيد.

بهذا الشعور الذي ملك علي نفسي ووقتي غدوت مفتوناً بها، كنت أعدو بقفزات من المستشفى إلى باب مسرحها، ولم أكن، مع ذلك الوحيد في انتظارها على الإطلاق، ثمة عسكريون من سلاح المشاة كانوا يختطفونها عنوة، وطيارون أيضاً، وبسهولة أكبر، ولكن الذين كانوا أشد إغواء لها هم الأرجنتينيون. كانت تجارتهم باللحوم الباردة قد أخذت أبعاداً هائلة بسبب تزايد عدد الوحدات العسكرية الجديدة. وقد استفادت "ميزين" الصغيرة من تلك الأيام الماركنتيلية، فعملت بنشاط واستقلّت بنفسها.

لم أكن أفهم شيئاً، كنت أشبه بالزوج المخدوع مع كل الأشياء وكل البشر، مع النساء والمال والأفكار، مخدوع وغير سعيد، في ذلك الوقت كنت ما أزال التقي صدفة، "بميزين"، خلال سنتين أو يكاد، وكذلك بأغلب من كنت أعرفهم جيداً، كانت تلك هي المهلة التي تلزمنا، سنتان اثنتان لكي نكشف بنظرة واحدة. لا تخطئ، كما لو أنها بوحي العزيزة مدى القبح الذي يحمله وجه من الوجوه التي اعتدنا النظر إليها حتى في لحظاته السعيدة.

نظل مترددين في البداية إزاء ذلك الوجه، ثم ننتهي، إلى قبوله مثلما هو، بعدم تناسق ملامحه المتزايد، بقبحه.. علينا أن نقول نعم لذلك الكاريكاتير المتقن والبطيء الذي حفرته سنتان اثنتان، أن نقبل الزمن، أن نقبل لوحتنا تلك، يمكن القول حينئذ بأننا تعرفنا عليها تماماً، بأننا لم نضل الطريق، بأننا سلكنا الطريق الصحيح، الطريق المحتوم خلال سنتين على الأكثر، طريق التعفن، وهذا كل شيء.

Twitter: @ketab_n

حينما كانت ميزين تلتقي بي مصادفة كنت أثير فزعها كلياً برأسي الضخم، كانت تبدو راغبة في الفرار مني قطعاً، في أن تتحاشاني، أن تحيد عن طريقي بطريقة ما.. كنت أشعرها بالنتانة، كان ذلك بديهياً بسبب ماض بكامله، ولكنها كانت تحاول عبثاً الإفلات مني، لم يكن بوسعها الخلاص مني قطعاً. كانت تظل متضايقة خلال وجودي كما لو أنها أمام وحش، كانت تظن، وهي الرقيقة جداً، بأنها ملزمة بأن تطرح علي أسئلة بلهاء غبية. ولكنها كانت ربما تتخيل فقط هذا الاشمئزاز أكثر مما تشعر به، هذا النوع من العزاء هو الذي بقي لي، كنت ربما أوحي لها فقط بأنني قذر، ولعلني كنت فناناً في هذا النوع من القبح.. وأياً كان الحال فلماذا لا يكون هناك فن في القبح مثلما في الجمال؟ ذلكم نوع من الفن ينبغي تعلمه وهذا كل شيء.

داخلني الاعتقاد زمناً طويلاً بأن "ميزين" الصغيرة كانت حمقاء. على أن ذلك لم يكن سوى رأي شخص مفعم بالغرور، مرفوض من الآخرين. قبل الحرب، كنا جميعاً، وهذا ليس بغريب، ما نزال أكثر جهلاً بكثير، وأشد غروراً مما نحن عليه اليوم. لم نكن نعرف أي شيء تقريباً عن أمور هذا العالم عموماً. كنا لا واعين في النهاية، والأشخاص الصغار من أمثالي كانوا ما يزالون ينظرون إلى الأباطيل على أنها مصابيح منيرة، بسهولة أكثر مما هم عليه اليوم. كنت أعتقد بأن عشقي "لميزين" الفائقة الظرف سيهبني كل أسباب القوة، وأولها، على الأخص، الشجاعة التي كنت أفتقدها، ذلك لأن صديقتي الصغيرة كانت جميلة للغاية وموسيقية بارعة جداً. مَثَل الحب كمثل الكحول، كلما كان شاربه ضعيفاً وثملاً. كلما ساوره الاعتقاد بأنه قوي وماكر، وواثق من حقوقه.

Twitter: @ketab_n

لم تعد مدام هيروت التي كانت تربطها علاقة قربى بالعديد من الأبطال الراحلين، لم تعد تخرج من زقاقها إلا لجنازة مهمة، ولم تكن تذهب أيضاً إلا نادراً إلى المدينة، كان صديقها الدلال يظهر غيرة شديدة عليها. كنا نجتمع في صالة الطعام الواقعة خلف الحانوت، والتي ما إن حل الازدهار حتى اتخذت كلياً شكل صالة صغيرة، كنا نتسامر هناك، ونتسلى على نحو مهذب ولائق تحت ضوء مصباح الغاز، كانت الصغيرة "ميزين" تجلس إلى البيانو، تسحرنا بمعزوفات كلاسيكية، كلاسيكية فقط، بسبب ملاءمتها لتلك الأوقات العصيبة. كنا نظل هناك فترة ما بعد الظهيرة، جنباً إلى جنب. الدلال في الوسط، نهدهد معاً أسرارنا ومخاوفنا وآمالنا.

كانت خادمة مدام هيروت التي بدأت العمل منذ وقت قريب، تحرص حرصاً شديداً على معرفة متى سيقرر هؤلاء أخيراً الزواج من أولئك، ففي قريتها لم يكن الناس يعرفون العلاقات الحرة بين الرجال والنساء. كان كل هؤلاء الأرجنتينيون، وهؤلاء الضباط، وهؤلاء الزبائن المتصيدين يسببون لها قلقاً حيوانياً تقريباً.

كانت ميزين تجد نفسها غالباً، محتكرة أكثر فأكثر من قبل الزبائن الأميركيين الجنوبيين. وانتهيت على هذا النحو إلى التعرف تماماً على جميع مطابخ وخدم هؤلاء السادة، لفرط ما كنت أذهب لانتظار صديقتي في حجرة الخدمة، وقد ظن خدم هؤلاء السادة بأنني قوادها، ثم انتهى الجميع إلى النظر إلي كقواد، بمن فيهم "ميزين" نفسها، بالإضافة إلى جميع الزوار المترددين إلى حانوت مدام هيروت، كما كنت أعتقد، لم أكن أملك شيئاً حيال ذلك، لابد على أي حال من أن يحين اليوم الذي يصنفك الناس فيه عاجلاً أم آجلاً.

Twitter: @ketab_n

حصلت من السلطات العسكرية على نقاهة جديدة لمدة شهرين اثنين، كما جرى الحديث أيضاً عن تسريحي من الخدمة، قررت أنا و"ميزين" أن نسكن معاً في ميلانكور، كان ذلك في الواقع من أجل أن أبتلع تلك الذريعة التي ستتذرع بها، لأنها استفادت من سكننا بعيداً كي لا تعود إلى المنزل إلا نادراً، كانت تجد على الدوام أعذاراً جديدة كي تبقى في باريس.

كانت ليالي بيلانكور رخية عذبة، ينعشها بين حين وآخر ذلك الخوف الصبياني من الطائرات والمناطيد، والتي كان سكان المدينة يجدون بفضلها، وسيلة لمعاناة رعشات لها ما يبررها.. وفيما كنت أنتظر معشوقتي كنت أتسكع، والليل قد أرخى سدوله، صوب جسر غرينيل، حيث تصعد الظلال من النهر لتلامس سطح المترو، المتمدد في لجة العتمة. بقعقعته الهائلة التي كانت تغوص راعدة في خاصرة الأبنية الضخمة الواقعة على رصيف باسي.

ثمة في المدن بعض الأماكن الشبيهة بهذا المكان بالغة القبح، يشعر المرء دوماً فيها على أنه وحيد تقريباً.

لم تعد "ميزين" ترجع إلى ما كنا نسميه منزلنا إلا مرة كل أسبوع. كانت تصطحب معها غالباً مغنيات من بيوت الأرجنتينيين. كان بوسع "ميزين" أن تمارس العزف في دور السينما وتكسب رزقها حيث كان من الأسهل علي الذهاب للبحث عنها. ولكن الأرجنتينيين الممراحين كانوا يدفعون لها الكثير من المال، في حين تخيم الكآبة في دور السينما، ولا يدفع أصحابها إلا القليل، والحق أن الحياة كلها ليست سوى تلك الأفضليات.

لكي يكتمل تعسي وسوء طالعي ظهر إلى الوجود فجأة مسرح الجنود. وسرعان ما أقامت "ميزين" مئة علاقة مع عسكريي الوزارة، وصارت ترحل غالباً إلى الجبهة لتسلية جنودنا الصغار، وتظل هناك أسابيع بكاملها.. كانت

Twitter: @ketab_n

تعزف السوناتا والأداجيو أمام مستمعيها من ضباط الأركان الذين كانوا يجلسون في مواقع تمكنهم من رؤية ساقيها، أما الجنود المحصورون في مدارج، خلف القادة فلم يكونوا يستمتعون إلا بالأصداء الشجية، كانت "ميزين" تمضي ليالي مريبة في الفنادق الواقعة في مناطق القوات. وقد عادت إلي ذات يوم من مواقع القوات تختال طرباً. وهي تحمل شهادة بطولة موقعة من أحد كبار جنرالاتنا. كانت تلك الشهادة سبباً في نجاحها الحاسم.

داخل الجالية الأرجنتينية حققت "ميزين" شعبية طاغية، وأقاموا لها الاحتفالات، شغف الجميع "بميزينتي" عازفة الحرب المحببة جداً، والغضة جداً والمجعدة الشعر، والبطلة فوق كل ذلك. هؤلاء الأرجنتينيون، كان لديهم تقدير عميق، وإعجاب يفوق الحد بقادتنا الكبار، وحين عادت إليهم "ميزينتي" بشهادتها المصدقة، وبوجهها الطفلي الجميل، وأناملها الرشيقة والمجيدة تنافسوا على حبها واحتضانها بل وزايدوا فيما بينهم على ذلك. يملك الشعر البطولي، دون أي مقاومة قلوب أولئك الذين لا يذهبون إلى الحرب، ويملك أكثر أيضاً قلوب أولئك الذين يثرون عن طريق الحرب ثراء فاحشاً. ذلك أمر مألوف.

آه: أيتها البطولة المتمردة..

قدم عشاق ريو ألقابهم وإعجابهم إلى الجميلة "ميزين"التي أنّثت على نحو بالغ الجمال البسالة الفرنسية والحربية، استطاعت ميزين أن تبدع، ينبغي الاعتراف بذلك، لائحة صغيرة مغناجة جداً لأحداث الحرب بلغت حد الإبهار. كانت تدهشني أنا نفسي غالباً بحساسيتها المرهفة، وعلي أن أعترف بأنني لم أكن حيال ما يدور حولها من إشاعات سوى مدع فظ بالقياس إليها. كانت تملك موهبة صنع خلفية دارمية لكل ما تقوم به وتبدعه، بحيث يغدو كل

Twitter: @ketab_n

شيء، ويظل نفيساً ومدهشاً، كنا نظل في عراك دائم بصدد الإشاعات واللغو الفارغ، وأدركت فجأة أن تلك الإشاعات طارئة ومؤقتة. كانت جميلتي تركز على ما هو خالد وأزلي، ينبغي أن نصدق كلودلورين[١]: فالمستويات الأمامية الأولى لأي لوحة، تكون منفرة دائماً، والفن يقتضي، أن توضع أهمية العمل في خلفياته البعيدة، فيما لا يطال ولا يدرك، هناك حيث تلتجئ الكذبة، يلتجئ ذلك الحلم الذي يؤخذ على أنه الواقع، الحب الوحيد للبشر. إن المرأة التي تستطيع أن تحسب حساباً لطبيعتنا البائسة تغدو حبيبتنا بسهولة، ضرورتنا التي لا غنى عنها، أملنا الأسمى، ونحن ننتظر منها أن تصون مبرر وجودنا الكاذب، ولكن فيما نحن ننتظر ذلك، تستطيع هي مع ممارستها لتلك الوظيفة السحرية أن تكسب قوتها وتعيش حياتها بكل أبعادها. و"ميزين" لم يكن ينقصها الغريزة من أجل ذلك.

كان أولئك الأرجنتنيون يقيمون "بجوار" تيرن، وعلى الأخص على تخوم غابة بولونيا، وفي فنادق صغيرة خاصة، مغلقة بإحكام، متلألئة بالأضواء، يشيع داخلها في تلك الأوقات من الشتاء دفء لذيذ جداً، وما إن تدخل إليهم من الشارع حتى يغدو مجرى أفكارك تفاؤلياً فجأة، رغماً عنك.

في ظل قنوطي، المترنح، كنت، زيادة في الحماقة، أواظب، على الذهاب ما وسعني ذلك، لانتظار رفيقتي في غرفة الخدم، كنت أنتظرها حتى الصباح أحياناً. كان النعاس يستحوذ علي، ولكن الغيرة كانت تبقيني مع ذلك صاحياً، والخمر الأبيض كذلك، والذي كان الخدم يقدمونه لي بوفرة. أما السادة الأرجنتنيون فلم أكن أراهم إلا نادراً جداً، كنت أسمع أغانيهم، وكلماتهم الإسبانيولية المشوشة، وصوت البيانو الذي لم يكن يتوقف، ولكن العزف عليه

(١) كلودلورين: رسام فرنسي.

Twitter: @ketab_n

كان يتم غالباً جداً بأنامل أخرى غير أنامل "ميزين"، ما الذي كانت تفعله إذن بيديها، تلك الصبية، في غضون ذلك.

حينما كنا نعثر على بعضنا صباحاً أمام الباب، كانت تقطب وجهها، وتبدي استياء، حينما تراني. كنت ما أزال كائناً طبيعياً مثل حيوان، في ذلك الوقت، لم أكن أريد التخلي عن جميلتي، وهذا كل شيء، مثل عظمة.

يضيع المرء القسم الأعظم من شبابه بسبب خراقاته. كان من الجلي بأن محبوبتي ستهجرني كلياً، وفي أقرب وقت، لم أكن قد تعلمت بعد أن هناك إنسانيتين مختلفتين أيما اختلاف، إنسانية الأغنياء وإنسانية الفقراء، كان يلزمني، مثل كثيرين آخرين، عشرون عاماً من العمر، بالإضافة إلى الحرب كي أتعلم الوقوف في صفوف طبقتي، وأن أسأل عن ثمن الأشياء والكائنات قبل أن ألمسها، وعلى الأخص قبل أن أتعلق بها.

فيما كنت أتدفأ إذن، في غرفة الخدمة مع رفاقي الخدم، لم أكن أدرك أن فوق رأسي تماماً كان يرقص الآلهة الأرجنتينيون، أو لعلهم ألمان أو فرنسيون أو صينيون، ليس لذلك أدنى أهمية، ولكنهم آلهة، أثرياء، هذا ما كان علي أن أدركه، كانوا هم فوق مع "ميزين"، وكنت أنا تحت مع اللاشيء. كانت "ميزين" تفكر بنحو جدي في مستقبلها، وإذن فقد كانت تفضل أن تصنعه مع إله، وكنت أنا أيضاً، بالتأكيد، أفكر في مستقبلي، ولكن بنوع من الهذيان، لأنني كنت أحمل طوال الوقت، على نحو، متكتم خوفاً من أن أقتل أثناء الحرب، وخوفاً أيضاً من أن أهلك من الجوع أثناء السلم، كنت ميتاً مع وقف التنفيذ، وعاشقاً. لم يكن ذلك سوى كابوس. كان على بعد مئة كيلو متر منا ملايين من الرجال الشجعان، المدججين بالسلاح، والمثقفين جيداً ينتظرونني لكي يقرروا مصيري، وفرنسيون أيضاً ينتظرونني لكي يخلصوني من جلدي،

Twitter: @ketab_n

إذا لم أرغب في جعله يتمزق إرباً دامية على يد أولئك الذين يقفون في الخندق المقابل.

للفقير في هذا العالم طريقتان اثنتان للهلاك لا ثالث لهما، إما باللامبالاة المطلقة من أقرانك من البشر أثناء السلم، وإما بهوس القتل الإجرامي من أقرانك أنفسهم أثناء الحرب القادمة.. وإذا ما بدؤوا يفكرون بك، فإنهم يفكرون بتعذيبك. ولا شيء غير ذلك. أنت لا تعنيهم إلا حين تنزف الدماء منك. لقد كان برينشار على حق، فحين تدهم المذبحة الكبرى، فأنت لا تفكر على الإطلاق بأمور مستقبلك. إنك لا تفكر إلا في الحب خلال الأيام المتبقية من حياتك ما دام ذلك هو الوسيلة الوحيدة لنسيان جسدك بعض الشيء، قبيل أن يسلخوه لك من أعلاه إلى أسفله.

لما كانت "ميزين" تفر مني فقد رحت أعتبر نفسي مثالياً، على هذا النحو يجري تسمية الغرائز الشخصية الصغيرة المكسوة بالكلمات الكبيرة. كانت إجازتي قد شارفت على الانتهاء، وكانت الصحف تعلن النفير لحشد ما يمكن حشده من المقاتلين، وقبل كل شيء، من أولئك الذين لا يملكون أية علاقات، كان من المطلوب رسمياً بأن لا يفكر الجميع مطلقاً إلا بكسب الحرب.

كانت ميزين ترغب بقوة أيضاً، مثلها مثل "لولا"، في أن أعود إلى الجبهة سريعاً، وأن أظل هناك.. ولما بدا لها بأنني تأخرت في الالتحاق، قررت أن تستعجل الأمور، وهو ما لم يكن مع ذلك، من عادتها.

ذات مساء عدنا معاً، بنحو استثنائي، إلى بيلانكور، وفجأة انطلقت أبواق الإنذار، فاندفع جميع سكان عمارتنا إلى القبو، إكراماً، لا أدري لأي منطاد.

Twitter: @ketab_n

كان هذا الهلع الشديد الذي يجعل جميع سكان الحي يهرعون بثياب النوم خلف شمعة، ليتواروا في الأعماق وهم يقرقون مثل الدجاج هرباً من خطر متخيل كلياً تقريباً، يكشف عن التفاهة المغثية لهذه الكائنات التي هي دجاج فزع أحياناً، وخرفان مزهوة راضية عن نفسها أحياناً أخرى. ما من شك في أن مثل هذه الرخاوة الفظيعة تثير إلى الأبد اشمئزاز أشد الناس صبراً وأكثرهم دأباً من محبي الشر.

ما إن انطلق بوق الإنذار الأول حتى نسيت "ميزين" نعوت البطولة التي أهيلت عليها في مسرح الجيوش، وألحت علي بأن ننطلق بسرعة إلى جوف الأرض، إلى المترو، إلى المجاري إلى أي مكان تحت الأرض، ولكن في مأمن، في الأعماق النهائية، وعلى الأخص، فوراً ودون تأخير. ولكني حين رأيتهم يهبطون جميعاً على هذا النحو، كباراً وصغاراً، مستأجري البيوت، حقراؤهم وكبراؤهم، أربعة أربعة، إلى الجحر المنقذ، حملني ذلك على اللجوء إلى حالة من اللامبالاة، جبان أو شجاع هذا لا يحمل كبير معنى، فكرت بميزين، أرنب هنا، وبطل هناك، إنه الإنسان نفسه، وهو لا يفكر هنا أكثر مما يفكر هناك، كل ما لا يكون كسباً للمال يتجاوزه قطعاً، بنحو كلي، كل ما يكون حياة أو موتاً يفلت منه، وحتى موته بالذات، يفكر فيه بنحو سيئ، ومنحرف. لم تكن ميزين تفهم إذن سوى المال والمسرح.

راحت ميزين "تتباكى" إزاء معارضتي. كان ثمة مستأجرون آخرون يحثوننا على مرافقتهم. ولم ألبث أن استسلمت للضغوط، كان السكان قد أبلغوا بصدد اختيار القبو بعروض مختلفة، ولكن قبو اللحام ضم أغلبية الهاربين، فقد زعموا أنه أعمق غوراً من أي قبو آخر في المبنى. ولكن ما إن بلغنا عتبته

Twitter: @ketab_n

حتى صدمتنا هبّات من رائحة واخزة، كنت أعرفها جيداً من قبل سببت لي على الفور شعوراً لا يطاق.

«هل ستدخلين إلى هذا القبو يا "ميزين"، بكل ما فيه من اللحم المعلق على الكلابات؟ سألت "ميزين".

ـ لم لا، أجابتني، مندهشة.

ـ وأنا، كما تعلمين، لدي ذكريات عنه، قلت لها: وأفضّل الصعود إلى أعلى.

ـ هل ستذهب إذن؟

ـ ستجدينني في الأعلى، ما إن ينتهي كل هذا؟

ـ ولكن ذلك قد يستمر طويلاً..

ـ أفضل انتظارك في الأعلى، قلت لها: أنا لا أحب اللحم وسينتهي هذا سريعاً».

أثناء فترة الإنذار، كان المستأجرون اللائذون إلى خلواتهم البعيدة تحت الأرض يتبادلون عبارات التهذيب المرحة والماجنة، بعض السيدات اللواتي وصلن أخيراً بثياب الحمام دخلن برشاقة ورزانة إلى تلك القبة العبقة بالرائحة، يستقبلهن الجزار وزوجته بغبطة، وهما يعتذران لهن، بسبب البرد الصناعي الضروري لحفظ البضاعة بصورة جيدة.

اختفت "ميزين" مع الآخرين، انتظرتها في منزلنا، في الأعلى، نهاراً كاملاً، سنة.. ولم تعد قط للبحث عني.

منذ ذلك الوقت غدوت برماً أكثر فأكثر، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، ولم يعد يدور في خلدي سوى فكرتين، النجاة بجلدي، والسفر إلى

Twitter: @ketab_n

أمريكا، ولكن الإفلات من رحى الحرب، يشكل أولوية كانت تبقيني مبهوراً لاهث الأنفاس طوال شهور وشهور.

«مدافع، رجال، عتاد» كان الوطنيون يطالبون بذلك دون أن يبدو عليهم الكلل إطلاقاً، لم يكن بمقدورهم أن يناموا لحظة واحدة كما يبدو ما دامت بلجيكا البائسة، والألزاس الصغيرة البريئة ترزح تحت النير الجرماني.. كان ذلك وسواساً، استحوذ على عقول أفضل الرجال من بيننا، يمنعهم من التنفس، مثلما يؤكدون، ومن الأكل، والنوم مع زوجاتهم ولم يكن يبدو، مع ذلك بأنه يمنعهم من عقد صفقات وصفقات، كانت الأخلاق في الخلف دائماً، يمكننا قول ذلك.

كان ينبغي أن أنضم إلى أفواجنا بسرعة، ولكن معنوياتي، ومنذ أول جولة في المشفى بدت لهم أقل من المتوسط بكثير، وكان هذا يقتضي بالضبط تحويلي إلى مستشفى آخر، كان مخصصاً لمرضى العظام ومرضى الأعصاب، خرجنا في الساعة السادسة صباحاً، من ذلك المستودع الذي كنا فيه، ثلاثة من المدفعيين، وثلاثة من الخيالة، جرحى ومرضى للبحث عن ذلك المكان الذي يجري فيه ترميم البسالة المفقودة، والانعكاسات المتعطلة والأذرع المبتورة. مررنا في البداية، مثل كل الجرحى في ذلك الزمن من أجل الفحص والتدقيق، على قلعة فال دوغراس، وهي حصن متكرش وملتح بالأشجار. ما يزال محتفظاً بالنبالة العريقة. تعج أروقته وممراته برائحة ثقيلة من العربات الدائبة على الحركة. رائحة تفوح اليوم ولن تختفي بلا شك في أي يوم من الأيام. خليط من الأقدام، والقش، ومصابيح الزيت. لم يطل بنا المقام في فال دو غراس، فما كدنا نضع أقدامنا حتى صاح في وجوهنا، وكما ينبغي، ضابطان إداريان، متقشري الجلد ومنهوكين. مهددين بالطرد من قبل ضباط

Twitter: @ketab_n

المجلس الحربي، وسيرميان في الشارع من جديد من قبل إداريين آخرين في القلعة. لم يكن لديهم مكان لنا، كما قالوا، وأشاروا لنا نحو مكان غامض: قلعة، في مكان ما، في المناطق المحيطة بالمدينة.

من قلعة إلى قلعة، ومن خمرة رديئة إلى قهوة بالحليب. رحنا نحن الستة نخبط خبط عشواء في اتجاهات شتى بحثاً عن الملجأ الجديد والذي كان مخصصاً كما يبدو، لمعالجة الأبطال العاجزين من أمثالي.

كان واحد منا يملك بعض عناصر الترفيه الأولية، يحتفظ بها بدقة داخل علبة بسكويت صغيرة من الزنك. من ماركة بيرو الشهيرة آنذاك، والتي لم أعد أسمع شيئاً عنها. كان رفيقنا يخبئ فيها سجائر، وفرشاة أسنان بحيث رحنا جميعاً نمازحه، ساخرين من تلك العناية بأسنانه، والتي لم تكن شائعة حينذاك وعاملناه، بسبب هذا التأنق الغريب على أنه «لوطي».

وصلنا أخيراً، عند منتصف الليل، وبعد الكثير من التيه والتردد إلى كتلة الردم الهائلة المغشاة بالظلام لحصن بيسير (الثالث والأربعين)، كما كان يسمى، كان ذلك موقعاً جيداً.

كانوا قد أعادوا ترميمه، لاستقبال العرج والمسنين وكانت حديقته ما تزال في طور الإعداد.

حين وصلنا إليه لم يكن قد وطئ أرضه بعد أحد من العسكريين، لم يكن هناك سوى موظفة المدخل. كان المطر يهطل بغزارة، فخافت منا لدى سماعها وقع أقدامنا، ولكننا جعلناها تضحك حين وضعنا أيدينا تواً على المكان الجيد من جسمها «كنت أظنكم من الألمان»، قالت لنا

ـــ إنهم بعيدون، أجبناها ـــ ما الذي تشكون منه؟ عبرت عن قلقها..

Twitter: @ketab_n

ـ من كل شيء ما عدا حمامتنا!» رد عليها أحد المدفعيين، هكذا إذن! يمكن القول بأنها كانت غاية في الظرف، وأنها كانت تتحلى بحس التقدير، علاوة على ذلك أقام معنا في المركز ذاته، فيما بعد مسنون تابعون للإسعاف الحكومي، شيدت لهم على وجه السرعة أبنية جديدة مجهزة بكيلومترات من الواجهات الزجاجية، احتجزوا داخلها حتى آخر قطرة من ضغائنهم، مثل حشرات.. وفوق الأكمات المحيطة بالمركز طفحت مساكن صغيرة تتنازع فيما بينها على أكوام الوحل المنحدر بقوة، والمنفلت بين سلسلة من الأكواخ الطارئة. وبعيداً عن هذه الأكواخ نبتت شتلات من الخس والفجل لا يدري أحد على الإطلاق لماذا رضيت بزاقات مقززة على إزجاء الاحترام لمالك ذلك المشتل.

كان مشفانا نظيفاً، مثلما تقتضي العادة في الإسراع برؤية ذلك، لبضعة أسابيع. كل شيء في بدايته، أما ما يتعلق بصيانة تلك الأشياء فقد كنا نفتقر لأي ذوق، بل كنا، على هذا الصعيد مقززين تماماً. نمنا في تلك الليلة، أقول إذن، في نعيم أسرّة معدنية، وعلى ضوء القمر، كانت تلك الأماكن جديدة ولم تصلها بعد أنوار الكهرباء.

حين استيقظنا صباحاً، جاء رئيس أطبائنا الجديد للتعرف علينا، مستبشراً برؤيتنا، مبدياً. كل حفاوة ظاهرة. كان لديه أسبابه الخاصة ليكون سعيداً، فقد جرى ترفيعه للتو ليحمل على كتفه نجمة رابعة. كان هذا الرجل، بالإضافة إلى ذلك يملك أجمل عينين في العالم، عينان مخمليتان خارقتان للطبيعة. كان يستخدمهما كثيراً ليثير انفعال أربع ممرضات فاتنات، يعملن متطوعات، كن يحطنه بكل ضروب المودة والإيماءات. ولا يفلتن شيئاً من حركات رئيس أطبائهن. منذ الاحتكاك الأول، أحاط بوضعنا، كما أخطرنا

Twitter: @ketab_n

بذلك، وبألفة متناهية أمسك بكتف واحد منا، دونما كلفة وهزه بأبوية، ثم حدد لنا بصوته المشجع القواعد والطرق الأقصر للانطلاق بحزم، وبأقصى سرعة نحو الشفاء، ودحر العدو.

من هنا كانوا ينطلقون، بالتأكيد، لم يكونوا يفكرون سوى بذلك. سيقولون ربما بأن هذا سيفيدنا. كانت تلك هي الرذيلة الجديدة «فرنسا، يا أصدقائي، وضعت ثقتها بكم. فرنسا امرأة، بل هي أجمل النساء، كان يصب كلامه صباً، إنها تعتمد على بطولتكم، ولأنها ضحية لأجبن وأشنع عدو فإن لها الحق بأن تطلب من أبنائها بقوة أن يثأروا لها ويحرروا سائر أرضها، مضحين بأغلى ما يملكون من أجلها. سنعمل جميعاً هنا لتأدية واجبنا، أيها الأصدقاء، فأدوا أنتم واجبكم، سنضع كل علمنا تحت تصرفكم، إنه علمكم، وكل موارد فرنسا من أجل شفائكم، ساعدونا أنتم بدوركم بإرادتكم الطيبة، وعما قريب سيكون بوسعكم استعادة موقعكم إلى جانب رفاقكم الأعزاء في الخنادق، موقعكم المقدس من أجل الدفاع عن أرضنا الحبيبة، تحيا فرنسا، إلى الأمام» كان يعرف كيف يتحدث إلى الجنود.

كان كل منا يقف بالقرب من سريره في وضعية الاستعداد، ونحن نصغي إليه. وخلفه تماماً كانت سمراء فريق الممرضات الحسناوات قد غلبها الانفعال، فسالت دموع من عينيها بنحو ظاهر، وهرعت نحوها رفيقاتها الممرضات الأخريات حالاً «عزيزتي، عزيزتي! أؤكد لك بأنه سيعود.. هيا».

كانت الشقراء السمينة بعض السمنة، والتي تربطها بها قرابة، هي التي تعزيها بنحو أفضل، وفيما هي تمَر، بالقرب منا، تسندها بذراعيها أخبرتني بأن قريبتها الجميلة قد خارت قواها على هذا النحو، لأن خطيبها كان قد رحل منذ وقت قريب مجنداً في البحرية. حاول المعلم المحتدم حمية، وقد تملكه البهت،

Twitter: @ketab_n

أن يلطف من حدة الانفعال الجميل والمأساوي الذي أشاعه خطابه القصير والمؤثر، وقف مشوشاً تماماً ومتكدراً أمامها. يقظة قلق ممض للغاية في قلب نقي، وشجي بالتأكيد، حساسية ورقة متناهيتان «لو كنا نعرف أيها المعلم، وشوشته القريبة الشقراء، لنبهناك، إنهما يحبان بعضهما بما يفوق الوصف». وتوارى فريق الممرضات والمعلم نفسه، وهم يثرثرون ويدمدمون، ولم يعودوا إلى الانشغال بنا البتة.

كنت أحاول أن أتذكر وأفهم معنى ذلك الخطاب الذي تفوه به الرجل ذو العينيين المشرقتين. ولكن بعيداً عن أن تكدرني تلك الكلمات، بدت لي، وأنا أفكر فيها مصوغة بنحو خارق كي تثير تقززي إلى حد الموت. كان هذا أيضاً رأي زملائي الآخرين، ولكنهم لم يجدوا فيها مع ذلك، مثلما وجدت، نوعاً من التحدي والإهانة. هؤلاء الرفاق قلما كانوا يبحثون عن فهم ما يدور حولنا في الحياة. لقد تبين لهم فقط، وبصعوبة أيضاً، أن الهذيان المعتاد للعالم كان قد تعاظم منذ بضعة أشهر إلى حدود لم يعد من الممكن معها قطعاً دعم وجود هذا العالم على أساس راسخ.

في المشفى هنا، مثلما في ليل الفلاندر كان الموت يثير قلقنا، يهددنا الموت المحتوم هنا، مثلما يهددنا هناك، ولكنه يهددنا هنا فقط من مكان أبعد، هذا صحيح، حينما تطلقه على هيكلك الهش عناية الإدارة العسكرية.

ما من أحد يشتمنا هنا، بالتأكيد، أنهم يكلموننا بلطف، يكلموننا طوال الوقت عن كل شيء عدا الموت. ولكن الحكم بالموت كان حاضراً مع ذلك، يطل علينا من زاوية كل ورقة يطلبون منا التوقيع عليها، من كل مراعاة يراعوننا بها: ميداليات، رخصة جديدة، نصيحة صغيرة، كنا نحس بأننا معدودون، مراقبون، مرقمون ضمن الاحتياطي الكبير للراحلين غداً. كان كل

Twitter: @ketab_n

هذا العالم المدني والصحي المحيط بنا أكثر خفة، بالقياس إلينا. الممرضات، أولئك الصبايا، لم يكنّ يقاسمننا مصيرنا. هن لا يفكرن، بالمقابل، إلا في أن يعشن عمراً مديداً، وأن يحببن، هذا واضح، وان يتنزهن وأن يمارسن ويعاودن ممارسة الحب والوصال آلافاً وآلافاً من المرات. كل من هؤلاء الملائكيات كانت تحرص على خطتها الصغيرة لعجانها[١]، في المستقبل. خطتها الصغيرة للحب، حين نكون نحن قد هلكنا في الوحول، في أي وحول لا على التعيين، والله وحده، هو الذي يعلم كيف.

ستسمع منهن حينذاك آهات تذكارية خاصة، مفعمة بالرقة تجعلهن أكثر جاذبية أيضاً.. سيتذكرن بصمت مشحون بالانفعال الأزمان المأساوية للحرب، وأشباحها «هل تذكرن الصغير باردامو، يقلن لبعضهن، في ساعة غسقية، وهن يفكرن بي، ذاك الذي كنا نجد صعوبة في إيقاف سعاله؟ كانت معنوياته سيئة جداً، الصغير المسكين، ترى ماذا يمكن أن يكون قد حل به؟».

بعض مشاعر الأسف الشاعرية المستثارة في الوقت المناسب تلائم امرأة، على غرار شعر شفيف تحت ضوء القمر.

وبمعزل عن كل كلمة من كلماتهن اللطيفة وعن عنايتهن كان عليك أن تفهم منذ الآن: «سوف تهلك، أيها العسكري المهذب.. سوف تهلك.. إنها الحرب.. لكل منا حياته.. لكل منا دوره.. لكل منا موته.. نحن نقاسمك تعاستك كما ترى، ولكننا لا نقاسم أحداً موته.. كل ما في أرواحنا وفي أجسادنا ينبغي أن يكون سليماً معافى.. نوع من التسلية، كما ترى، لا أكثر ولا أقل، نحن فتيات قويات، جميلات، مرموقات، معافيات ومربيات أحسن تربية.. كل شيء بالنسبة إلينا يتحول تلقائياً إلى بيولوجيا، إلى مشهد بهيج،

---

(١) العجان: ما بين الشرج وعضو التناسل.

Twitter: @ketab_n

وينقلب إلى فرح، ذلك ما تتطلبه صحتنا، وكل دواعي الحزن الشنيعة ممتنعة عنا. يلزمنا دائماً مهيجات، لا شيء سوى مهيجات، أما أنتم فستكونون منسيين سريعاً، أيها الجنود الصغار، كونوا لطفاء. اهلكوا بسرعة، ولتنته الحرب، وليتح لنا الزواج بواحد من ضباطكم المحببين، أسمر، على الأخص، ليحيا الوطن الذي يتحدث عنه بابا دائماً، كم سيكون الحب رائعاً حينما يعود من الحرب، زوجنا الصغير، مزيناً بالأوسمة.. سيغدو ولا شك متميزاً ومشهوراً، وسيكون بوسعك أن تمسح له حذاءه الجميل يوم زفافنا.. إن كنت ما تزال حياً حتى ذلك اليوم، أيها الجندي الصغير، ألن تكون سعيداً حينذاك لسعادتنا، أيها الجندي الصغير؟..».

في كل صباح كنا نرى، ونرى أيضاً رئيس الأطباء وخلفه ممرضاته. كان عالماً، كما أعلمونا. وحول صالاتنا المخصصة لنا، كان المسنون، من نزلاء المشفى ينطّون غير بعيد نطات سقيمة ومفككة، ويذهبون ليبصقوا نميمتهم مع نخر أسنانهم من صالة إلى أخرى، حاملين نتفاً من وشايات واغتيابات مبتذلة! كان أولئك المسنون المعزولون هنا وسط بؤسهم الرسمي كما لو أنهم وسط أرض مسورة موحلة يرمّون كل الذرق المتجمع حول أرواحهم، بعد سنين طويلة من العبودية. أحقاد عاجزة مترنحة وسط البطالة البولية للقاعات العامة. لم يكونوا يصلحون بما لديهم من طاقة أخيرة ومرتعشة، إلا ليلحقوا بأنفسهم نوعاً من الأذى، وليدمروا أنفسهم بما تبقى لديهم من متعة ونَفَس.

إنها المتعة النهائية! ففي هيكلهم المتخشب لم يعد ثمة خلية واحدة خالية من الخبث والشر.

Twitter: @ketab_n

حين تقرر بأن نتقاسم، نحن الجنود، الرفاهيات الخاصة بالحصن مع هؤلاء المسنين، بدؤوا يمقتوننا بسبب ما يسود بيننا من وفاق، ليس من دون أن يأتوا مع ذلك، في الوقت ذاته، ليتسولوا باستمرار بقايا التبغ بالقرب من النوافذ، وكسرات الخبز اليابس المتناثرة تحت المقاعد. كانت وجوههم الشبيهة بالرق تنسحق على زجاج واجهة مطعمنا ساعة تناولنا لوجبات الطعام. كانوا يرسلون من بين ثنيات أنوفهم الوسخة نظرات جرذان هرمة جشعة. كان واحد من هؤلاء العجّز، يبدو أجرأ وأخبث من الآخرين، يأتي ليغنينا أغنيات صغيرة من أيام زمانه كي يسلينا. كان يدعى الأب بيرويت، كان مستعداً لأن يقوم بكل ما نطلبه منه مقابل أن نعطيه بعض التبغ، كل ما نطلبه منه، ما عدا المرور من أمام مستودع الجثث في الحصن، والذي قلما كان يتعطل مع ذلك. إحدى مزحاتنا معه. كانت تتكون من اصطحابنا له إلى ذلك المكان. زاعمين بأننا نقوم بنزهة، وحين نصل أمام باب المستودع تماماً نسأله: «ألا تود الدخول؟» فما يلبث أن يولي الأدبار مدمدماً، ولكن بسرعة شديدة، وبعيداً جداً، بحيث لا نعود نراه يومين على الأقل. كان الأب بيرويت يحدس بموته.

قام رئيس أطبائنا ذو العينيين الجميلتين، البروفسور بيستومب من أجل أن يبث فينا الروح، بتركيب جهاز معقد جداً يصدر شرارات كهربائية تفرغ شحناتها فينا، محدثة صدمات يزعم أنها منشطة لقوانا، كان علينا الخضوع لذلك العلاج تحت طائلة الطرد من المشفى، كان غنياً جداً، كما يبدو، طبيبنا بيستومب، ولابد أن يكون كذلك، حتى يشتري مثل هذا الجهاز الصاعق الباهظ الثمن. كان حموه سياسياً كبيراً، ضارب ببراعة في صفقات حكومية لشراء الأراضي. مما أتاح لصهره بيستومب هذا السخاء.

Twitter: @ketab_n

كان ينبغي الانتفاع من ذلك، كل شيء يسير بانتظام، الجرائم والعقوبات. وعلى هذا النحو، لم نكن نكرهه نحن، كان يتفحص جهازنا العصبي بعناية فائقة، ويسألنا بلهجة ملؤها الألفة والمودة. تلك الطيبة المركزة بعناية كانت تسلي بعذوبة الممرضات المتفانيات في خدمته. كن ينتظرن كل صباح، أولئك الظريفات، لحظة الاستمتاع بتجليات لطفه الغامر. كان ذلك بالنسبة إليهن أشبه بالحلوى اللذيذة. كنا، في النتيجة، نمثل مسرحية، اختار هو فيها دور العالم المحسن، والإنساني، بعمق ومحبة، وكان الجميع يرفلون في جو من التفاهم.

كان يشاركني الغرفة، في هذا المشفى الجديد الرقيب برانليدور، أحد الذين أعيد تجنيدهم، وهو ضيف قديم على المستشفيات، كان يجر معه أينما حل معياً مثقوباً منذ شهور عديدة.

تعلم برانليدور خلال إقاماته في المشافي اجتذاب التعاطف الحار من الممرضات والاحتفاظ به، كان يقيء ويبول ويُسهل دماً في أغلب الأوقات، ويعاني صعوبة في التنفس. ولكن هذا لن يكون كافياً تماماً ليحظى بالعناية الطبية الخاصة جداً من فريق العاملين الذين كانوا يعنون به وبغيره. وإذن، فبين كل نوبتين من نوبات خمود تنفسه، وحين يمر طبيب أو ممرضة بجواره، كان برانليدور يصيح بملء فيه «النصر، النصر! سيكون حليفنا النصر». أو أنه كان يتمتم بذلك من طرف أو من كل رئتيه، حسب الحالة التي يكون فيها. وهكذا كان برانليدور قد جعل نفسه، متناغماً مع الأدب الحربي المحتدم آنذاك، ومن خلال الأثر المناسب الذي تحدثه كلماته، كان يبدو متمتعاً بنصيب أوفى من المعنويات، كان برانليدور على جانب كبير من الأرابة والحذق.

Twitter: @ketab_n

لما كان المسرح منتشراً في كل مكان، فلابد من التمثيل إذن. لقد كان برانليدور على حق، غير أنه ما من شيء يبدو أكثر حماقة وإثارة للغيظ، من أن يصعد على خشبة المسرح، عن طريق الصدفة مشاهد خامل من جمهور النظارة.. فحين يعتلي أحد الخشبة، خليق به أن يتخذ النبرة الملائمة، أن يحتدم، أن يمثل، أن يصمم، وإلا فإن عليه أن يختفي. كانت النساء على الأخص تطالب بالمشهد المؤثر. ولم تكن الصبايا لترحم مغرميهم المبلبلين، كانت الحرب تضغط على مبايضهن فيطالبن بأبطال للحرب، أما أولئك الذين لم يكونوا أبطالاً على الإطلاق فلم يكن أمامهم سوى أن يتظاهروا بذلك، أو أن يتأهبوا ليلاقوا أكثر المصائر خزياً وعاراً.

بعد أن أمضينا ثمانية أيام ننعم فيها بهذه الخدمات الجديدة أدركنا بأنه كان ينبغي لنا، وبنحو مستعجل تغيير قيافتنا، وبفضل برانليدور (الذي كان يعمل بائعاً للدانتيلا في حياته المدنية) تحول أولئك الرجال المذعورون، الساعون دوماً إلى الاختباء في الظل، والذين تتملكهم ذكريات مشينة عن المجازر حين وصلوا إلى هذا المشفى، تحولوا إلى زمرة شيطانية جسورة، وعازمة على النصر، ومسلحة، أؤكد لكم، بجاذبية، وبنوايا طيبة، غدت لغتنا ثرة وماجنة للغاية بحيث أن أولئك السيدات كانت وجوههن تحمر حياء في بعض الأحيان، ولكنهن لم يتشكين من ذلك على الإطلاق لأن من المفروض بأي جندي أن يكون شجاعاً بقدر ما يكون لا مبالياً. وأن يكون خشناً غالباً. وكلما كان أكثر خشونة كان أكثر شجاعة.

كنا نقلّد برانليدور، في البداية، قدر ما نستطيع، لم يكن مظهرنا الوطني البسيط بعد مناسباً تماماً، ولا مقنعاً بما يكفي، كنا بحاجة إلى أسبوع كامل، وإلى بروفتين اثنتين مكثفتين حتى نكون قطعاً، في وضع لائق.

Twitter: @ketab_n

ما إن لاحظ طبيبنا، العالم العظيم والأستاذ اللامع، بيستومب، التقدم المدهش الذي طرأ على أوضاعنا المعنوية حتى قرر. على سبيل التشجيع السماح لنا ببعض الزيارات، بدءاً بزيارة أهلنا.

بعض الجنود الموهوبين جداً، فيما روي لي عنهم، كانوا حينما يدخلون ساحة المعركة، يشعرون بنوع من النشوة الجنسية، بالتلذذ الحسي العميق، أما فيما يتعلق بي، فحينما أتخيل لذة من هذا النوع الخاص، أغدو بسببها مريضاً طوال ثمانية أيام على الأقل. كنت أشعر بأنني عاجز تماماً عن قتل أي كان، وأنه كان من الأفضل لي قطعاً أن أتخلى عن ذلك، وأن انتهي على الفور، ليس لأنني افتقر إلى التجربة. لقد تم فعل كل شيء لإكسابي هذا الميل، ولكن ما كان ينقصني هو القابلية والاستعداد للقتل. كان لابد لي، ربما، من تلقين وتدريب أبطأ.

عزمت في أحد الأيام على أن أبلغ الأستاذ بيستومب بالصعوبات التي كنت أعانيها جسداً وروحاً كي أكون شجاعاً بالقدر الذي كنت أرغب به، والذي كانت تتطلبه الظروف الدقيقة بالتأكيد. كنت أخشى بعض الشيء من أن يعتبرني سفيهاً، ثرثاراً وقحاً.. ولكن لا شيء من هذا. على النقيض من ذلك، فقد أعرب المعلم عن سعادة فائقة بأنني بهذه النوبة من الصراحة كشفت له عن الاضطراب الروحي الذي كنت استشعره.

«أنت تتحسن يا باردامو، يا صديقي، أنت تتحسن بكل بساطة!» ذلك ما استخلصه بيستومب من هذه المكاشفة التي قمت بها أمامه، وعلى نحو تلقائي بالتأكيد. أنا أعتبرها، يا باردامو علامة مشجعة جداً على التحسن العظيم لحالتك المعنوية.. لقد أجمل فودوسكين، ذلك الملاحظ البسيط، ولكن، ما أشد ما كان لبيباً، أجمل عام ١٨٠٢ حالات الخور المعنوي لدى جنود

Twitter: @ketab_n

الإمبراطورية، من خلال ملاحظته لمثل تلك الحالات، سجلها على مذكرة غدت الآن كلاسيكية، على الرغم من أنها أهملت ظلماً من قبل طلابنا اليوم. لقد لاحظ بكثير من الصحة والدقة بأن النوبات المعروفة تحت اسم «اعترافات» ليست سوى علامة إيجابية مشجعة لدى المريض المعنوي.. وبعد عقود تقريباً، استطاع عالمنا العظيم دوبريه أن يضع للأعراض ذاتها مدونة مصطلحات تعتبر اليوم شهيرة، حيث أدرج تلك النوبة ذاتها تحت عنوان نوبة «حشد الذكريات». وهي نوبة، ينبغي حسب رأي المؤلف، أن تسبق بقليل، حين يسير العلاج سيراً حسناً. الانقشاع الهائل للتمثلات الذهنية المضطربة في مجرى الشفاء السيكولوجي، وضمن مجموعة مصطلحاته الغنية بالصور، أطلق دوبريه، من جهة أخرى اسم «الإسهال التأملي لتحرر الشعور» على تلك النوبة التي تترافق لدى الذات مع إحساس بالغبطة بالغ الحيوية، ومع استعادة متميزة جداً لحيوية العلاقات واستعادة أخرى بالغة الأهمية للنوم الذي يلاحظ أنه يمتد أياماً بكاملها. ثم تأتي مرحلة أخرى في النهاية، يظهر فيها فرط نشاط متميز جداً للوظائف الجنسية، إلى حد لا يكون من النادر معه أن نلاحظ لدى المرضى الخاملين جنسياً في السابق «هياجات شبقية» حقيقية، ومن هنا جاءت تلك الصيغة القائلة: «لا يدخل المريض هنا إلى الشفاء، بل إنه يندفع إليه اندفاعاً» تلك هي العبارة المعبرة بنحو رائع عن تلك النجاحات العلاجية التي وصف بها عالم آخر من علماء النفس الفرنسيين العظام في القرن الأخير هو فيليب مارجيتون، وصف بها الاستعادة الظافرة حقاً لكافة النشاطات الطبيعية لدى الذات المتماثلة للشفاء للمريض بالخوف.. وفيما يخصك أنت يا باردامو، فأنا أعتبرك إذن، ومنذ الآن معافى.. هل يهمك أن تعلم ياباردامو، ما دمنا قد وصلنا بنحو مجمل إلى هذه النتيجة الطبيعية، بأنني سأقدم، في الغد، بالتحديد، إلى جمعية البسكيولوجيا العسكرية مذكرة

Twitter: @ketab_n

حول السمات الأساسية للذهن البشري؟ ستكون هذه المذكرة بالغة الأهمية كما أعتقد.

ــ بالتأكيد أيها المعلم هذه القضايا تستهويني جداً.

ــ حسناً، فلتعلم يا باردامو، وباختصار بأنني سأدافع عن هذه الأطروحة أمام الجمعية: فقبل الحرب ظل الإنسان بالنسبة إلى طبيب الأمراض العقلية. عالماً مجهولاً ومغلقاً وظلت قواه الذهنية لغزاً محيراً.

ــ هذا جيد أيضاً، حسب رأيي المتواضع جداً، أيها المعلم..

ــ الحرب، لاحظ يا باردامو، بوسائلها الفريدة التي وضعتها بين أيدينا، لاختبار الجهاز العصبي، تعمل على غرار كاشف عظيم للذهن البشري. ينبغي علينا لقرون، بأن نعكف، على هذه الكشوف المرضية الحديثة، قروناً كاملة من الدراسات المثيرة، لنعترف بصراحة، بأننا لم نفعل شيئاً حتى الآن سوى الارتياب بالثراء الانفعالي والروحي للإنسان، أما الآن، وبفضل الحرب فقد انجلت الأمور. لقد دخلنا، بعد رحلة من العذاب الأليم بالتأكيد، ولكن من أجل العلم، الحاسم والملهم، دخلنا إلى صميم هذا الثراء الانفعالي والروحي. ومنذ الكشوف الأولى لم يعد ثمة مجال للشك في الواجب الملقى على عاتق عالم النفس وعالم الأخلاق الحديثين. بالنسبة إلي أنا، بيستومب، فإن إصلاحاً جذرياً لتصوراتنا السيكولوجية، يفرض نفسه»

كان هذا هو رأيي أيضاً، أنا باردامو.

ــ «أعتقد، في الحقيقة، أيها المعلم، بأنكم ستفعلون حسناً..

ــ «آه، أنت تعتقد ذلك يا باردامو، قلت ذلك لوحدك. لدى الإنسان، لاحظ جيداً، يكون الخير والشر متوازنان، الأنانية، من جهة، والغيرية من

Twitter: @ketab_n

جهة أخرى. أما الأشخاص النخبة، فالغيرية لديهم تفوق الأنانية. أليس هذا صحيحاً؟ أليس ذلك كذلك؟

ـ هذا صحيح أيها المعلم. هو كذلك فعلاً..

ـ لدى إنسان النخبة أسألك يا باردامو، ماذا يمكن أن يكون الجوهر الأسمى الذي يمكنه أن يحفز غيريته، ويجبره على أن يظهر بالتأكيد تلك الغيرية؟

ـ إنه الوطنية أيها المعلم.

ـ آه.. لاحظ جيداً، قلتها لوحدك. أنت تفهمني تمام الفهم.. يا باردامو! الوطنية ولازمتها المجد، بكل بساطة، دليلها

ـ هذا صحيح!

ـ آه، يا جنودنا الصغار. لاحظ ذلك، فمنذ اختبارات النار الأولى استطاعوا أن يتحرروا تلقائياً من كافة المغالطات. والمفاهيم الثانوية.. ولا سيما من السفسطات الكلامية وانطلقوا غريزياً وباندفاعة واحدة، ليذوبوا في مبرر وجودنا الحقيقي، وطننا، وليقفوا إلى جانب تلك الحقيقة، ليس الذكاء فائضاً عن الحاجة فقط، يا باردامو، بل إنه مزعج، فتلك الحقيقة هي حقيقة القلب. الوطن، مثل جميع الحقائق الأساسية. الشعب لا يخطئ أبداً، وها هنا بالتحديد يتوه العالم الفاسد مهما بلغ علمه.

ـ هذا جميل، أيها المعلم، جميل إلى أقصى حد، هذا من الأدب الكلاسيكي».

ضغط بيستومب على يدي بمحبة تقريباً.

وبصوت غدا أبوياً، أراد أن يضيف لصالحي أيضاً: «على هذا النحو نويت معالجة مرضاي، يا باردامو، بكهربة أجسادهم وعقولهم بجرعات قوية

Twitter: @ketab_n

من الأخلاق الوطنية، بحقنات حقيقية من المعنويات التي تجددهم وتعيد تشكيلهم

ـ أنا أفهمك أيها المعلم

والواقع، أنني صرت أفهم، بصورة أفضل.

ما إن غادرته، حتى انطلقت دون أي تأخير، إلى القداس، مع رفاقي الذين أعيد تجديدهم، في كنيسة أنشأت حديثاً، لمحت برانليدور الذي كان يبدي معنويات عالية، واقفاً وراء باب الكنيسة، وهو يلقي درساً في الحمية والنشاط لابنة الحاجبة، الصغيرة، ذهبت لألتحق به، بعد أن لمحته يدعوني.

بعد الظهر، جاء أقارب من باريس لأول مرة، منذ وصولنا إلى هنا، ثم صاروا يجيئون كل أسبوع.

كتبت، أخيراً إلى أمي، كانت أمي سعيدة بعثورها علي، وجعلت تتباكى مثل كلبة أعادوا جروها إليها، كانت تعتقد أيضاً، من دون شك بأنها تساعدني كثيراً باحتضانها لي، ولكنها ظلت، مع ذلك، أدنى من الكلبة، لأنها كانت تصدق الكلمات التي يقولونها لها من أجل انتشالي من وضعي. بينما الكلبة لاتصدق في أي حال إلا ما تحس به. قمنا سوياً بجولة طويلة في الشوارع القريبة من المشفى، طيلة ما بعد الظهر، نجرجر أقدامنا فوق شوارع قيد الإنشاء في تلك الناحية.. ما تزال مصابيحها مضاءة، وبين واجهات طويلة تسح منها الرطوبة، نوافذها مرقشة بمئة من الخرق المعلقة، إنها شوارع الفقراء. كنا نسمع صوت جدجد، يصر ساعة الظهيرة. فيما تهب علينا عاصفة من روائح دهنية رديئة. في وسط ذلك الإهمال الكبير الرخو الذي يحيط بالمدينة، حيث ترشح أكذوبة بذخها وترفها مفضية إلى التعفن. تكشف المدينة لمن يريد أن يرى، عن مؤخرتها التي تشبه علبة قاذورات، كان ثمة

Twitter: @ketab_n

مصانع، يتحاشى المتنزهون المرور بها. تفوح بكل أنواع الروائح، يكاد بعضها لا يصدق، حتى ليرفض الجو المحيط أن يفوح بالنتانة أكثر مما كان يفوح. وغير بعيد، كان العيد السوقي الصغير، يتعفن بين مدخنتين، شاهقتين، إحداهما أعلى من الأخرى. خيوله الخشبية المدهونة كانت غالية جداً على أولئك الأطفال الذين كانوا يرغبون في شرائها، طوال أسابيع بكاملها في الغالب. أطفال مخاطيون مقعدون. مجذوبون مطرودون ومترددون في آن. أصابعهم في أنوفهم جميعاً، بعفويتهم الخالصة، البؤس والموسيقى.

كل شيء يجري، بجهد وكد، لنفي الحقيقة عن هذه الأمكنة، الحقيقة التي كانت تبكي دونما توقف على سائر العالم، عبث كل ما يفعله المرء، عبث كل ما يشربه من النبيذ الأحمر أيضاً، الخثر كالحبر، فالسماء ظلت كما هي، موصدة فوق الرؤوس، كأنها بركة كبيرة لأبخرة الضاحية.

على الأرض، يعييك الوحل، وتنغلق في وجهك أبواب الوجود، تغلقها في وجهك فنادق ومصانع أيضاً، والجدران أشبه بالتوابيت. لقد رحلت "لولا"، ورحلت ميزين أيضاً، ولم يعد لي أحد في الوجود، ولهذا ارتأيت أن أكتب لأمي. لابد لي من أن أرى أحداً ما. منذ عشرين عاماً، لم يعد لي سوى الماضي. جبنا أنا وأمي شوارع وشوارع يوم الأحد، روت لي أمي أشياء صغيرة عن تجارتها، وعما كان يقال حولها عن الحرب، في المدينة، بأن الحرب كانت محزنة «ومرعبة» أيضاً، لكننا بالكثير من الشجاعة سننتهي جميعاً إلى الخلاص منها. كان القتلى بالنسبة إلى أمي مجرد حوادث عارضة، مثلما في سباقات الخيول، ليس على المشاركين فيها سوى أن يتمالكوا أنفسهم، فلا يسقطون، أما فيما يخصها هي، فإنها لم تكن ترى في الحرب سوى كرب جديد تحاول أن لا يزعزعها كثيراً، كان هذا الكرب يخيفها، كان مفعماً بأشياء

Twitter: @ketab_n

مروعة لم تكن تفهمها . كانت تعتقد ، في الواقع . بأن الناس الصغار من نوعها خلقوا لكي يتألموا من كل شيء، وأن هذا هو دورهم فوق هذه الأرض، وأن الأمور إذا لم تكن تسير سيراً حسناً فلا ريب إن ذلك يعود، في جزء كبير منه إلى أن الناس الصغار اقترفوا خطايا كثيرة متراكمة، وقاموا بحماقات، دون إدراك لما يفعلونه بالتأكيد، ولكنهم، مع ذلك كانوا مذنبين، وكان من المفيد أن تتاح لهم الفرصة كي يتألموا بهذه الصورة، ليكفّروا عن أفعالهم الشائنة، لقد كانت أمي شخصاً «لا يُمس أو يُنقد» من قريب أو من بعيد.

هذا التفاؤل الخانع والمأساوي كان يساعدها في إيمانها ويشكل قاع طبيعتها.

سلكنا أنا وأمي شوارع الأراضي المفرزة، تنهمر فوقنا قطرات المطر، كانت الأرصفة تغوص في الخضرة ثم تختفي، كانت نبتات الدردار على الحواف تحتفظ أيام الشتاء بقطرات مطر فوق أغصانها وقتاً طويلاً، مهتزة مع الريح، يا لها من فتنة رهيفة، كانت الطريق إلى المشفى تمر أمام العديد من الفنادق الحديثة. بعضها اتخذ له اسماً، وأخرى لم تصب بعد بهذا الداء.

كانت تلك الفنادق تعمل يوماً فيوماً، بكل بساطة، لقد أفرغتها الحرب بقسوة من عمالها. ولن يعود إليها المستأجرون كي يموتوا. كان ذلك عملاً لفظ أنفاسه أيضاً، ولكنهم كان يسددون قسطهم في أماكن أخرى.

رافقتني، أمي إلى المستشفى متباكية. كانت تتقبل حادث موتي، لم تكن تتقبله وحسب، بل كانت تتساءل فيما إذا لم يكن لدي أي قدر من الاستسلام مثل ما لديها. كانت تؤمن بالقضاء والقدر إيمانها بمتر جميل من أعمال الزركشة، التي حدثتني عنها دائماً باحترام، لأنها كانت قد تعلمتها في بداية

Twitter: @ketab_n

حياتها، حين كانت قطع القماش المزركشة التي تستخدمها في تجارتها للألبسة نسخة دقيقة عن النموذج الأصلي الرائع.

بين قطع الأرض المفرزة في تلك الضاحية الريفية الموحشة كانت ما تزال توجد بعض الحقول المحروثة. هنا وهناك، تشبّث بتلك الفضلات بعض الفلاحين المسنين، المحصورين بين المساكن الجديدة. كنا نذهب أنا وأمي لمشاهدتهم، حين كان يتبقى لدينا بعض الوقت قبل حلول المساء، كان أولئك الفلاحون المضحكون مستبسلين في نقب الأرض الرخوة والخشنة بأدوات حديدية، حيثما كان الموتى يتعفنون وحيثما يأتي الخبز، مع ذلك، «لا شك أن هذه الأرض قاسية جداً» كانت أمي تعلق حائرة، في كل مرة تشاهدهم. لم تكن تعرف في الواقع من الشقاء، إلا ما كان يشابه شقاءها، شقاء المدن. كانت تتخيل ما يمكن أن يكون عليه شقاء الريف. ذلك هو الفضول الوحيد الذي عرفته في أمي في يوم من الأيام، وكان ذلك يكفيها كتسلية ليوم من أيام الآحاد، وكانت تعود به إلى المدينة.

لم أعد أتلقى قط أي خبر عن "لولا" ولا كذلك عن ميزين. لقد ظلتا بالتأكيد، تمثلان الوجه الجميل والطيب للأوضاع، حيث تسود تعليمات باسمة ولكنها مشددة باستبعادنا، نحن اللحوم المكرسة للتضحيات. لقد قادونا مرتين إلى الحظائر التي تزرب فيها الرهائن. مسألة وقت وانتظار حسب. كانت الرهانات قد حُسمت.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> كان الرقيب برانليدور، جاري في المستشفى يتمتع، كما قلت، بثبات شعبيته لدى الممرضات. كان ملفوفاً بالضماد، يفيض بالتفاؤل. جميع من في المشفى كانوا يحسدونه، ويقلدون أساليبه، ولما أن غدونا لائقين وغير منفرين من الناحية المعنوية بدأنا، بدورنا، نتلقى زيارات أشخاص من ذوي الشأن في هذا العالم، ومن أصحاب المراتب العليا في الإدارة الباريسية. كان يتردد على الألسنة في الصالونات أن مركز طب الأعصاب الذي يشرف عليه الدكتور بيستومب أصبح الموئل الحقيقي لمشاعر الحماسة الوطنية الفياضة وبؤرتها المتوقدة تقريباً. صرنا نستقبل كل يوم. ليس فقط أساقفة بل ودوقة إيطالية، ومموناً كبيراً للجيش، والأوبرا ذاتها، وممثلي المسرح الفرنسي. كانوا يأتون إلينا ليبدوا إعجابهم بنا حيث نحن. طالبة جميلة متفرغة لدراسة المسرح الفرنسي كانت تنشد الأشعار كما لا ينشدها أحد. جاءت إلى سريري بالذات كي تنشدني أشعاراً بطولية على الأخص، شعرها الأشقر والمنفلت (لون البشرة متناغم معه) كان يتموج في تلك اللحظة، تموجات ساحرة كانت تصلني مباشرة فتجعلني أرتعش حتى العجان. وحينما سألتني عما فعلته في الحرب رويت لها شيئاً من التفاصيل المثيرة للغاية والمؤثرة بعمق، بحيث لم تعد عيناها تفارقني بعد ذلك، وبسبب انفعالها الدائم طلبت مني إذناً تكليف شاعر من معجبيها، لينظم شعراً تلك المقاطع الأكثر حدة من روايتي. ووافقت أنا على الفور، وحين أطلع الأستاذ بيستومب على المشروع أعرب عن تشجيعه بوجه خاص، وأجرى مقابلة في تلك المناسبة، وفي اليوم ذاته؛ مع

Twitter: @ketab_n

مندوبي «مجلة وطنية مصورة» شهيرة، قاموا بتصويرنا معاً على درج مدخل المستشفى إلى جانب شريكتنا الحسناء. «ذلك هو الواجب الأسمى للشعراء، خلال الساعات العصيبة التي نجتازها. صرح الأستاذ بيستومب. أن يمنحونا من جديد أسلوب الملاحم. لقد ولى زمن التركيبات الشعرية الصغيرة الدنيئة، وحان وقت الآداب الصلبة الخالية من الميوعة، لقد تفتحت فينا روح جديدة وسط الضجيج العظيم والنبيل للمعارك، انطلاقة النهوض الوطني تتطلب ذلك الآن، الذرى الشامخة الموعودة لمجدنا. إننا نطالب بالإلهام العظيم للشعر الملحمي. وها إنني الآن أعبر عن ترحيبي الحار بأن يتشكل في هذا المشفى الذي أشرف عليه، وتحت أبصارنا وعلى نحو لا ينسى هذا التعاون الخلاق والسامي بين الشاعر وبين واحد من أبطالنا!».

برانليدور، شريكي في الغرفة، والذي كانت مخيلته، في ذلك الظرف أبطأ من مخيلتي، ولم يظهر كذلك في الصورة التي التقطت لنا. شعر بحسد قوي ومرير. وجعل ينازعني بقسوة متناهية على وسام البطولة. كان يبتدع حكايات جديدة، حتى أفرط في ذلك أيما إفراط، ولم يعد بوسع أحد إيقافه، كانت انفجاراته قد بلغت حد الهذيان.

كان يصعب علي أن أبزه في هذا، أو أضيف شيئاً على مثل تلك المبالغات، ومع ذلك لم يستسلم أحد في المشفى، فقد راح كل واحد من بيننا، تحت ضغط المنافسة يختلق بنحو يفوق غيره، «صفحات حربية ناصعة»، يبرز فيها نفسه بنحو من الرفعة والسمو.. كنا نعيش رواية عظيمة من المآثر، داخل جلود شخصيات خيالية خارقة. وفي أعماق هذه الشخصيات الهزلية كنا نرتعد بكل لحمنا وعظمنا.. كان لعابنا سيسيل لو فوجئنا بالحقيقة.. كانت الحرب في ذروة نضجها..

Twitter: @ketab_n

كان بيستومبنا العظيم يتلقى أيضاً زيارات من العديد من الشخصيات الأجنبية البارزة. رجال علم، أشخاص حياديون أو متشككون أو فضوليون، كان الجنرالات مِن مفتشي الوزارة يمرون متقلدين سيوفهم، متأنقين داخل صالاتنا، حياتهم العسكرية، تُمدد حيناً بعد حين، وتتجدد، منتفخة بالمكافآت والتعويضات الجديدة، لم يكونوا قط يبخلون بالأوسمة وعبارات التفريط، كل شيء كان في أحسن حال، وغدا بيستومب ومرضاه الرائعون شرف الدوائر الصحية.

راعيتي الحسناء في «الشعر الفرنسي» عادت إلي بعد وقت قصير مرة أخرى، لزيارتي، بوجه خاص، بينما كان شاعرها المقرب قد نظم قصة مآثري شعراً. التقيت هذا الشاب، أخيراً، في عطفة أحد الممرات كان شاحباً قلقاً. كانت أوتار قلبه من الهشاشة. كما أسرّ لي، وكما أخبره الأطباء، بحيث كان ينبض بمعجزة، وبسبب قلق هؤلاء الأطباء على الكائنات الهشة، أبقوه بعيداً عن السلاح، وكتعويض عن ذلك، بادر هذا الشاعر الغنائي الصغير، مجازفاً بصحته ذاتها وبجميع قواه الروحية السامية إلى نظم القصائد الوطنية، وقد نظم لنا «الفولاذ المعنوي لانتصارنا»، قصيدة رائعة لا تنسى، دون ريب، مثل بقية أشعاره.

لم أكن لأتذمر من الموقف الذي وضعت فيه، ما دام الشاعر قد اختارني من بين عدد من الشجعان الآخرين الذين لا يمكن إنكار شجاعتهم، لكي أغدو بطله. كنت بالإضافة إلى ذلك أعامل كملك. كان هذا رائعاً، والحق يقال: وفي مسرح الكوميدي فرانسيز بالذات جرى الاحتفال الشعري، خلال ما بعد ظهيرة سميت ما بعد ظهيرة شعرية، ودعي إلى الاحتفال جميع من في المستشفى. ولما أن ظهرت شقرائي على خشبة المسرح، لتنشد مرتعشة، بحركة باذخة، وبقدّ مشيق، يميس بين طيات ثوب متعدد الألوان، غدا شهوانياً

Twitter: @ketab_n

في النهاية كان ظهورها إشارة داخل الصالة لهتاف من تلك الهتافات المدوية التي لا تتوقف، تطلقه حناجر جميع الحضور وهم وقوف متهللون. كنت متهيئاً لهذا الموقف بالتأكيد، ولكن دهشتي مع ذلك بلغت قصارها، لم أستطع أن أخفي ذهولي عمن حولي وأنا أسمع تلك الصديقة الجميلة ترتج متحمسة بتلك الصورة الأخاذة، وتطلق كذلك أنات لتجعل الدراما المبثوثة في الحكاية التي ابتدعتها لها مؤثرة في النفوس. كان شاعرها من دون ريب قد خلع عليَّ صفات من وحي الخيال، ومجّد أيضاً، بمغالاة شديدة، مستعيناً بقوافٍ رنانة متموجة، ما لدي من خصال على نحو احتفالي، وسط صمت مهيب مفعم بالإعجاب، وحين بلغت الفنانة ذروة الإلهام الأشد حرارة في القصيدة وجهت وجهها صوب المقصورة التي كنا نجلس فيها أنا وبرانليدور وبعض الجرحى الآخرين، ومدت ذراعيها الرائعين لتقدم نفسها كما بدا ذلك إلى أكثرنا بطولة. كان الشاعر. يصور بورع شديد، في تلك اللحظة ملمحاً خيالياً من ملامح البسالة التي نسبتها إلى نفسي، ثم لم أعد أدرك بوضوح ما الذي جرى بعد ذلك، لم يخفق الشاعر في تصويره لحسن الحظ، فما من شيء من صور البطولة كان بعيداً عن التصديق وقد أدرك الجمهور التصوير الفني، والتفتت القاعة بأسرها نحونا في تلك اللحظة، وماجت بهتاف مدوٍّ من الفرح، مهتاجة، مترنحة، مطالبة بالبطل.

كان برانليدور يحتكر مقدمة المقصورة بكاملها ويتخطانا جميعاً. بحيث كان بوسعه أن يحجبنا خلفه كلياً تقريباً بضماداته، وقد فعل الوغد ذلك متعمداً.

غير أن اثنين من رفاقنا، تسلقا الكراسي خلفه، وحظيا مع ذلك بالإعجاب من فوق أكتاف برانليدور ورأسه، وصفق لهما الجمهور تصفيقاً حاداً.

Twitter: @ketab_n

«ولكنني كنت أنا المقصود، كدت أصرخ في تلك اللحظة، أنا وحدي»
كنت أعرف برانليدوري هذا، ربما كان سيتلقى الشتائم أمام الجميع، وربما سيضرب، ولكنه هو الذي حظي في النهاية بالطبق كله. لقد فرض نفسه، ظافراً، وظل وحيداً مثلما كان يرغب، يتلقى الإعجاب والاحترام بلا حدود. أما نحن المهزومين فلم يبق لنا ألا أن نندفع مسرعين نحو الكواليس، مما أتاح لنا لحسن الحظ، بعضاً من الحفاوة والترحيب، ومنحنا شيئاً من العزاء، لم تكن فنانتنا وملهمتنا في تلك الأثناء وحيدة في مقصورتها، كان يقف إلى جانبها الشاعر، شاعرها، شاعرنا. كان يحب أيضاً، مثلها، الجنود الصغار. بكل رقة، وقد عبرا لي عن حبهما بقوة، وكررا ذلك، ولكنني لم أكن أنتبه على الإطلاق لإشاراتهما اللطيفة. وأسفاه، إنها غلطتي، لأن أموري كانت ستسوى بصورة أفضل، فقد كانا يتمتعان بكثير من النفوذ. استأذنت بالانصراف فجأة. مغتاظاً بنحو أحمق. كنت شاباً.

خلاصة الأمر، لقد سلب الطيارون مني "لولا".. وسلب الأرجنتينيون مني "ميزين"، واختطفت مني أخيراً هذه الهارمونيا الشعرية.. غادرت المسرح. مبلبلاً، فيما كانت تنطفئ المصابيح الأخيرة في المعابر، واتجهت وحيداً تحت رداء الليل، دون ترامواي، نحو مشفانا، المصيدة المنصوبة في أعماق الوحول العنيدة، والضواحي العصيّة.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> علي أن أقر، دون تفاخر، بأن رأسي لم يكن صلباً بما فيه الكفاية، غير أنني الآن، وبلا سبب وجيه، انتابتني حالات أشبه بالسكر والدوار. كنت أترنح وسط معمعان الحرب. لم أكن أعتمد، بصدد النقود، خلال إقامتي في المشفى، سوى على بعض الفرنكات التي كانت أمي تعطيها لي كل أسبوع بصعوبة بالغة، ثم بدأت، ما أن أتيح لي ذلك في البحث عن مصادر إضافية زهيدة، من هنا وهناك، حيثما كان بإمكاني تحيّن ذلك. وقد بدا لي أحد أرباب عملي القديمين ملائماً في هذا الصعيد، وقمت بزيارته على الفور.

تذكرت في اللحظة المناسبة بأنني كنت قد اشتغلت فترة مظلمة من الزمن لدى روجر بوتا الصائغ، في شارع مادلين، كموظف إضافي، قبيل إعلان الحرب، كان عملي لدى هذا الصائغ الكريه يتألف من تنظيف فضيات المخزن العديدة، المتنوعة، خلال الأعياد التي يكثر فيها الطلب على الهدايا. بسبب التقليب المتواصل للقطع الفضية، وصيانتها الصعبة.

حينما كانت تغلق أبواب الكلية، التي كنت أتابع فيها دراساتي العسيرة واللامتناهية (لأنني كنت أفشل في امتحاناتها) كنت ألتحق، على جناح السرعة بخلفية مخزن السيد بوتا، وأنكب طوال ساعتين أو ثلاث على غلايات الشوكولا «من الفضة الإسبانية» إلى أن يحين موعد الغداء.

بخصوص أجرة عملي، كنت أتناول طعامي في المطبخ بوفرة. وكان عملي يتألف أيضاً، من جهة أخرى، وقبل بدء المحاضرات في الكلية من اصطحاب كلاب حراسة المخزن إلى النزهة والتبول، وكل ذلك لقاء أربعين

Twitter: @ketab_n

فرنكاً في الشهر. كان مخزن فضيات بوتا المرصعة بألف ماسة يقع عند زاوية شارع فينيون، وكل ماسة منها تعادل قيمتها عشرات أضعاف راتبي، كانت تلك الحلي تتألق هناك باستمرار.. حينما جرى فرز المعلم بوتا خلال التعبئة إلى إحدى الفرق المساعدة. انخرط في خدمة أحد الوزراء، بوجه خاص، حيث كان يقود سيارته من وقت إلى آخر، ومن ناحية ثانية، وبطريقة شبه رسمية تماماً هذه المرة غدا بوتا من بين أكثر الأشخاص نفعاً، بتزويده موظفي الوزارة بالمجوهرات.. كان الموظفون الكبار يضاربون بقوة لحسن حظه، على الصفقات المبرمة، والصفقات التي كانت ستبرم فيما بعد.. وكلما تقدمت الحرب، كلما اشتد الطلب على الحلي، حتى أن السيد بوتا كان يجد عنتاً في بعض الأحيان. وهو يواجه الطلبات التي كان يتلقاها بكثرة.

حين كان السيد بوتا يشعر بالإنهاك الشديد كانت ملامحه تشي ببعض الذكاء، بسبب الإرهاق الذي يكابده. وفقط في تلك اللحظات. أما حين كان يرتاح فإن وجهه، على الرغم من النعومة البادية بوضوح على محياه كان يشكل هارمونيا من البلادة الهادئة والمسالمة التي كان من الصعب على من يراه أن لا يحتفظ دائماً بذكرى مزعجة عنها.

زوجته السيدة بوتا، لم تكن تفعل شيئاً سوى الاهتمام بصندوق المنزل الذي لم تكن تفارقه قط تقريباً. لقد ربيت منذ صغرها كي تغدو زوجة لتاجر مجوهرات، كان ذلك طموح والديها. كانت تعرف واجبها حق المعرفة، كان الزوجان سعيدين في الوقت الذي كان فيه الصندوق مزدهراً. لم تكن مدام بوتا قبيحة على الإطلاق، كان بوسعها حتى أن تكون جميلة للغاية، مثل الكثير من الأخريات، كانت فقط حذرة جداً، ومتشككة جداً، بحيث توقفت على تخوم الجمال، مثلما على تخوم الحياة. بشعرها المسرّح بما يكفي، وبسمتها السهلة

Twitter: @ketab_n

والمفاجئة بما يكفي، وحركاتها السريعة المتكتمة بما يكفي. حتى ليجد المرء عنتاً في اكتناه ما يضمره هذا المخلوق من حسابات داخلية، وفي معرفة أسباب الكدر الذي يساوره على الرغم من كل شيء، لدى الاقتراب منه. كان ذلك النفور الغريزي الذي يوحيه التجار لأولئك الذين يقتربون منهم هو أحد أكثر العزاءات ندرة، والتي يشعر بها أولئك الذين لا يبيعون شيئاً لأحد.

كانت الهموم الضيقة للتجارة إذن تتملك السيدة بوتا تملكاً كلياً تماماً، مثل مدام هيروت، ولكن من نوع آخر، مثلما يمتلك الله عباده المؤمنين، جسداً وروحاً.

من وقت إلى آخر، مع ذلك، كان يساور معلمتنا قلق يسير ناتج عن الظرف المحيط. على هذا النحو، كان يتفق لها أن تستسلم للتفكير في الآباء أثناء الحرب «أية تعاسة تجلبها هذه الحرب مع ذلك للأشخاص الذين لهم أبناء كبار»!.

ـ فكري إذن قبل أن تتكلمي!! كان يوبخها على الفور زوجها الذي كان متأهباً وموطداً عزمه على مواجهة هذه الحساسيات من زوجته، أليس من الواجب حماية فرنسا والدفاع عنها؟».

هكذا كانت القلوب الطيبة، والوطنيون الطيبون قبل كل شيء، رابطي الجأش، ينامون كل مساء من أماسي الحرب فوق ملايين مخزنهم، الثروة الفرنسية

في المواخير التي كان يتردد إليها السيد بوتا، من وقت إلى آخر، كان يبدو متطلباً وراغباً في أن لا ينظر إليه على أنه سخي متلاف للمال: «أنا لست إنكليزياً، يا جميلتي، يستدرك منذ البداية، أنا أعرف العمل، لست سوى جندي فرنسي غير متعجل» هذا ما كان يصرح به مسبقاً. كانت النساء يقدرنه

Twitter: @ketab_n

كثيراً لهذه الطريقة المتعقلة في اجتناء متعته، كان طلاباً للمتعة ولكنه ليس غراً، إنه رجل وحسب! كان يستفيد مما يعرفه عن عالمه كي يعقد بضع صفقات لبيع الحلي مع المعلمة المشرفة على الماخور التي لم تكن تؤمن بإيداع المال في البورصة. كان السيد بوتا يتقدم بطريقة مدهشة على الصعيد العسكري، ولكنه سرعان ما تحرر كلياً بعد عدد من الزيارات الطبية جاءت في الوقت المناسب، كان يعتبر الاستغراق في التأمل وملامسة ربلات السيقان الرخصة الناعمة إحدى أرفع متعه في الوجود. كانت تلك على كل حال لذة تخطّى بها زوجته. التي نذرت نفسها للتجارة وحسب، أما بصدد السمات المشتركة بينهما، فكان ثمة على الدوام، كما يبدو، شعور بالقلق لدى الرجل أكثر مما لدى زوجته، ... كان بوتا شخصاً محدوداً جداً، متعفناً غاية التعفن، بدأ حياته بداية فنية متواضعة إجمالاً، والكثير من الرجال الذين يتصلون بالفن، يتملكهم على الدوام على غرار بوتا، هوس الربلات الجميلة الناعمة.. كانت السيدة بوتا سعيدة جداً لأنها لم ترزق بأبناء، وكانت غالباً ما تبدي رضاها لكونها عاقراً، ولأن زوجها قد انتهى، بدوره، إلى نقل شعورهما بالاكتفاء والرضى إلى معلمة الماخور. «ينبغي مع ذلك أن ينعم أطفال أحد بالرعاية، كانت المعلمة تجيب بدورها، ما دام ذلك واجباً» من الصحيح أن الحرب تتضمن الكثير من الواجبات!

لم يكن للوزير الذي كان بوتا يعمل لديه سائقاً أطفال أيضاً، فالوزراء ليس لهم أطفال.

ثمة مستخدم آخر إضافي كان يعمل في الوقت ذاته، مثلي في أعمال المخزن الصغيرة عام ١٩١٣، كان يدعى جان فواروز، وهو «ممثل ثانوي» يعمل خلال المساء في المسارح الصغيرة، وبعد الظهر مسلّماً للبضائع لدى

Twitter: @ketab_n

بوتا. كان يكتفي هو أيضاً بالحدود الدنيا للأجور، ولكنه كان يتدبر أمره بتوفير أجرة المترو. كان يذهب على رجليه بسرعة المترو ذاتها لتسليم البضائع للشارين، ويضع ثمن البطاقة في جيبه، يا لها من مدخرات إضافية. كانت قدماه تفوحان برائحة العرق، هذا صحيح، ولكنه لم يكن يجهل ذلك، كان يطلب مني أن أخطره حينما يكون المخزن خالياً من الزبائن كي يكون بوسعه الدخول إلى السيدة بوتا دون إضاعة للوقت، وتسوية حساباته المالية معها بهدوء، وما أن تودع النقود في الصندوق حتى ترسله السيدة بوتا على الفور كي يلتحق بي في خلفية المخزن. وقد أفادته قدماه أيضاً فائدة عظيمة خلال الحرب. فقد عرف في فوجه على أنه أسرع جندي ارتباط. جاء لزيارتي، خلال نقاهتي في مصح فورو دي بيسيتر. وفي تلك الزيارة ذاتها قررنا الذهاب معاً لقرع باب معلمنا القديم. ثم أتبعنا القول بالفعل. وفي اللحظة التي بلغنا فيها شارع مادلين كانوا قد انتهوا من عرض البضاعة...

«عجباً! آه! ها أنتم هنا، دهش السيد بوتا قليلاً لرؤيتنا. أنا مسرور جداً. مع ذلك، ادخلا، أنت يا فواروز تبدو بصحة جيدة! هذا جيد، ولكن أنت، باردامو، تبدو مريضاً يا فتاي، على كل حال أنت شاب، وستتعافى بسرعة، أنتما محظوظان، رغم كل شيء، أنتما! يمكنكما أن تقولا ما تريدان، أنتما تعيشان ساعات رائعة أليس كذلك؟ هناك في الجبهة؟ هذا من التاريخ يا صديقي! وياله من تاريخ».

لم نجب بشيء على السيد بوتا... تركناه يقول كل ما كان يريد قوله قبل أن نطلب منه أي شيء... وإذن، فقد تابع.

«آه، إنها قاسية، أنا مقتنع بذلك، الخنادق!... هذا صحيح ولكن الوضع هنا بالغ القسوة أيضاً. أنتم تعلمون... لقد أصبتما بجراح، أليس كذلك؟ وأنا!

Twitter: @ketab_n

أنا منهك جداً. عملت في الخدمة الليلية داخل المدينة منذ سنتين: أنتم تدركون ذلك؟ تصوروا إذن! لقد أنهكت فعلاً، فطست! آه، شوارع باريس خلال الليل! من دون أضواء، يا صديقيّ الصغيرين، وأنا أقود فيها سيارة، وغالباً برفقة الوزير، وبسرعة أيضاً، لا يمكنكما أن تتصورا! ذلك أشبه بالانتحار، عشر مرات في ليلة واحدة.

ــ نعم، أكدت السيد بوتا، وأحياناً يوصل زوجة الوزير أيضاً...

ــ آه، نعم. وهذا لا ينتهي...

ــ شيء فظيع، رددنا نحن معاً.

ــ والكلاب؟ سأل فواروز كي يكون مهذباً. ماذا فعلتم بها؟ هل ما تزالون تنزهونها في التويللري؟

ــ أمرت بقتلها. كانت تؤذيني، لقد ألحقت ضرراً بالغاً بالمخزن... كلاب ألمانية.

ــ هذا محزن! تأسفت زوجته، ولكن الكلاب الجديدة التي لدينا الآن لطيفة فعلاً، إنها كلاب اسكتلندية... ولكنها ترسل بعض الرائحة... في حين أن كلابنا الألمانية... هل تذكر يا فواروز؟ لم تكن تصدر على الإطلاق أية رائحة.... كان من الممكن إبقاؤها حبيسة في المخزن، وحتى بعد هطول المطر...

ــ آه، نعم! أضاف السيد بوتا، ليست مثل هذا الوغد فواروز برائحة قدميه، هل ما تزال قدماك ترسلان رائحة يا جان؟ أيها الفتى فواروز.

ــ أعتقد أنها ما تزال تفوح قليلاً أجاب فواروز، وفي تلك اللحظة دخل بعض الزبائن.

Twitter: @ketab_n

«لن أحتجزكم، يا صديقي، قال لنا السيد بوتا، كان حريصاً على إقصائنا من المخزن بأسرع وقت... أتمنى لكم صحة جيدة على الأخص، ولكني لم أسألكم من أين جئتم؟ إيه لا، الدفاع الوطني قبل كل شيء. هذا هو رأيي.

عند هذه الكلمات حول الدفاع الوطني كان بوتا بالغ الرصانة، مثلما حين كان يسلّم النقود... هكذا صرفنا بوتا وزوجته من المخزن، وفيما نحن ذاهبان أعطت السيدة بوتا عشرين فرنكاً لكل منا. كان المخزن نظيفاً ومتلألئاً مثل يخت.. لم نعد نجرؤ على إعادة اجتيازه، لأن أحذيتنا كانت تبدو فظيعة فوق طرف السجادة.

«آه، انظر إليهما إذن يا روجيه، إليهما كليهما، كم هما مضحكان... لم يعودا معتادين... كأنهما يمشيان فوق شيء ما. هتفت السيدة بوتا.

ـ «سيتذكران ذلك» رد السيد بوتا، حاراً وطيباً، ومسروراً جداً لتخلصه منا بمثل هذه السرعة، وبكلفة قليلة جداً.

ما إن غدونا في الشارع، حتى فكرنا بأننا لن نذهب بعيداً جداً بفرنكاتنا العشرين لكل منا، ولكن فواروز كان لديه فكرة إضافية.

«تعال معي»، قال لي فواروز! إلى بيت والدة رفيق لي، قتل حينما كان في الموز. لقد ذهبت طيلة ثمانية أيام إلى بيت والديه كي أروي لهما كيف مات ابنهما. إنهم أناس أغنياء، وقد أعطتني أمه، مئة فرنك في كل مرة... هذا يسعدهم كما يقولون... أنت تفهم إذن...

ـ ما الذي سأفعله أنا عندهم، ما الذي سأقوله لأمه؟

ـ إيه، حسناً، ستقول لها بأنك رأيته، أنت أيضاً، ستعطيك مئة فرنك أيضاً. إنهم أغنياء فعلاً، أقول لك، وهم ليسوا مثل هذا الفظ بوتا».

Twitter: @ketab_n

ـ أريد ذلك فعلاً... ولكن هل أنت متأكد بأنها لن تسألني عن التفاصيل، لأنني لا أعرف شيئاً عن ابنهم. سأرتبك إذا ما سألتني عنه.

ـ لا، لا، هذا ليس مهماً البتة، ستقول لها مثلما أقول أنا تماماً. سوف تفعل ... نعم، نعم... لا تقلق... إنها حزينة، أنت تفهم، هذه المرأة. وحينما يحدثها أحد عن ابنها، فإنها تفرح.. إنها لا تطلب شيئاً سوى هذا... أي كلام... ليس هذا معجزة...».

كان من الصعب علي أن أقرر.. ولكنني كنت راغباً بشدة بالمئة فرنك التي بدا من السهل، بنحو استثنائي الحصول عليها، والتي كأنها هبة من السماء.

ـ حسناً، قررت الذهاب أخيراً... ولكن ينبغي إذن.. أن لا أختلق شيئاً، أنا أحذرك: هل تعدني. سأقول مثلما تقول أنت، هذا كل شيء... كيف مات الفتى أولاً؟

ـ لقد انفجرت قنبلة في وجهه تماماً، يا عزيزي! ثم لم يعد الصغير غارانس موجوداً، هكذا كان يسمى، قُتل في منطقة الموز، على شاطئ النهر... لم يعثروا على «أثر» للفتى، يا عزيزي، لم يبق منه سوى ذكرى، ومع ذلك، أنت تعلم، كان الفتى كبيراً، وقوياً جداً ورياضياً ولكن أمام قنبلة. ماذا؟ ليس ثمة مقاومة!

ـ هذا صحيح

ـ لقد تلاشى من الوجود دون أثر، أقول لك... ما يزال عسيراً على أمه أن تصدق ذلك، منذ موته وحتى الآن... قلت لها ذلك، وأعدت قوله مرات ومرات. إنها تريد فقط أن يكون قد اختفى، أية فكرة حمقاء، القول بأنه اختفى: ليست هذه غلطتها، إنها لم تر قط قنبلة، ليس بمقدورها أن تفهم بأنه طار في الفضاء، هكذا، مثل ضرطة، ومن ثم فقد انتهى إلى الأبد، خاصة أنه ابنها.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا مؤكد.

ـ أولاً، أنا لم أذهب إلى بيتهم منذ خمسة عشر يوماً، ولكنك سوف ترى حين أصل إليهم، تستقبلني الأم، على الفور في الصالون ومن ثم، أنت تعلم، كم هو جميل منزلهم! حتى لتقول بأنه مسرح، لكثرة ما فيه من ستائر، وبسط وزجاج في كل مكان... مئة فرنك، أنتَ تفهم: إنها ليست شيئاً بالتأكيد، بالنسبة إليهم... مثل مئة قرش بالنسبة إلي تقريباً... ولكنها ستعطينا اليوم مائتي فرنك. فهي لم ترني منذ خمسة عشر يوماً. سوف تشاهد الخدم بأزرارهم المذهبة يا صديقي...»

عند جادة هنري مارتان، انعطفنا إلى اليسار، ثم تقدمنا قليلاً أيضاً، حتى وصلنا أخيراً أمام سور صغير مشبك ينفتح على ممر صغير خاص محفوف بالأشجار.

«أنت ترى. علّق فواروز، حينما كنا أمام السور تماماً. إنه نوع من قصر.. قلت لك ذلك... الأب موظف كبير متنفذ في السكك الحديدية، مثلما قيل لي، إنه من رجال السلطة...

ـ أليس ناظر محطة؟ قلت ذلك على سبيل المزاح.

ـ لا تمزح... ها هو ذا ينزل، إنه قادم نحونا..»

ولكن الرجل المتقدم في السن الذي أشار إليه فواروز لم يأت إلينا حالاً كان يتمشى محني الظهر حول مرجة العشب، متحدثاً مع جندي. اقتربنا قليلاً، وتعرفت حينئذ على الجندي. لقد كان الجندي الاحتياطي ذاته الذي التقيت به ليلة نوارسور سير لا ليس، حينما كنت أقوم باستطلاع المدينة. وتذكرت أيضاً على الفور اسمه الذي ذكره لي حينذاك: « روبنسون... » .

«هل تعرف جندي المشاة ذاك »؟ سألني فواروز:

Twitter: @ketab_n

ـ نعم أعرفه.

ـ يمكن أن يكون صديقاً لهم. لابد أنهما يتكلمان عن الأم، لا أريد أن يحولا دون ذهابنا إليها ورؤيتها لأنها بالأحرى هي التي تعطيني النقود...»

اقترب منا السيد العجوز، كان يتكلم وهو يرتعد.

«يا صديقي العزيز. قال لفواروز. يؤلمني جداً أن أخبرك بأن زوجتي البائسة. بعد زيارتك الأخيرة، ناءت تحت وطأة حزننا العظيم وفارقت الحياة... يوم الخميس تركناها وحدها، لحظة، بعد أن طلبت منا ذلك... كانت تبكي...»

لم يستطع أن ينهي جملته. استدار فجأة وغادرنا،

«أنا أعرفك جيداً» ، قلت حينئذ لروبنسون، بعد أن ابتعد السيد العجوز مسافة كافية عنا

ـ وأنا أيضاً أعرفك

ـ ما الذي حدث للمرأة العجوز؟ سألته حينئذ

ـ إيه، حسناً، لقد شنقت نفسها، قبل البارحة، هذا كل شيء، أجابني روبنسون «ماذا اقول؟! تصور إذن، أضاف روبنسون... أنا الذي كانت لي مثل إشبينه! إنه حظي المنكود، ماذا اقول؟! إنه حظي! لقد جئت إلى هنا لأول مرة في إجازة! منذ عشرة أشهر وأنا أنتظر هذا اليوم...»

لم نستطع أن نمنع أنفسنا، أنا وفواروز من المزاح بسبب سوء الطالع الذي أصاب روبنسون.. كانت تلك مفاجأة قاسية بالنسبة لنا، ليس لأن العجوز كانت ميتة، ولكن فقط لأننا لم نحصل على المائتي فرنك، نحن اللذين كنا على وشك نسج أكذوبة جديدة تناسب الظرف، وفجأة لم نعد مسرورين، لا نحن ولا الآخرون.

Twitter: @ketab_n

«كنت تنافق، هيه! أيها الوغد الكبير؟ شرعت في مناكدة روبنسون، على سبيل المزاح، من أجل إثارته «هل كنت تعتقد بأنك ستتناول وليمة فاخرة مع العجوزين؟ لعلك كنت تعتقد أيضاً بأنك كنت ستروي حكايات للإشبينة؟ لقد اكتفيت! هيا!..»

لما لم يكن بإمكاننا البقاء هناك للتفرج على مرجة العشب ونحن نتضاحك، فقد خرجنا نحن الثلاثة معاً من منطقة غرينيل، حسبنا نقودنا مجتمعة، لم تكن بالكثيرة. ولما كان علينا العودة في المساء ذاته إلى مستشفياتنا وسجوننا الخاصة، فقد كان معنا من النقود ما يكفي لوجبة عشاء لنا نحن الثلاثة، في حانة صغيرة، وربما بقي لدينا أيضاً شيء صغير من أجل قضاء وطرنا، غير أننا ذهبنا مع ذلك إلى بيت من بيوت المتعة ولكن من أجل تناول كأس فقط. وفي الطابق السفلي.

ـ «إنني سعيد برؤيتك ثانية، قال لي روبنسون، ولكن أم الفتى، صدقني! كانت رزمة من المال. وحين أفكر بها من جديد، وبأنها ستشنق نفسها في اليوم الذي أصل فيه، ماذا أقول إذن. كنت أحتفظ بها لهذا اليوم! هل أشنق نفسي، قل؟ من الحزن؟ سأمضي وقتي، وأنا أشنق نفسي إذن.. وأنت؟

- الناس الأغنياء، رد فواروز، أكثر حساسية من الآخرين... كان فواروز طيب القلب، أضاف أيضاً: «لو كنت أملك ستة فرنكات، لصعدت مع السمراء الصغيرة التي تراها هناك، بالقرب من آلة القروش.

- اذهب، قلنا له حينئذ، وستحكي لنا إن كانت تُمتع جيداً...».

ولكننا كنا نبحث عبثاً، لم يكن معنا ما يكفي مع النقود، كي نتمكن من أخذ الفتاة السمراء، كان معنا فقط ثمن فنجان من القهوة لكل منا، مع حبتي مشمش، وحالما تجرعنا قهوتنا، رحلنا على عجل، ورحنا نتسكع.

Twitter: @ketab_n

في ساحة الفاندوم غادرنا بعضنا، كل منا ذهب بسبيله. لم نعد ننظر إلى بعضنا ونحن نفترق. كنا نتكلم همساً لفرط ما كان هناك من أصداء، لم يكن ثمة ضوء، كان ذلك محظوراً.

أما جان فوازوز، فلم أره بعد ذلك قط، وأما روبنسون فقد التقيته كثيراً فيما بعد. منابع الغاز، في منطقة السوم هي التي استحوذت على جان فواروز، ثم انتهى به الأمر على شاطئ البحر في بريتانييه، ومن أحد مصحات البحرية، كتب لي بعد سنتين مرتين، ثم لا شيء على الإطلاق: «ليس لديك فكرة كم هو جميل البحر، كتب لي، أنا أستحم فيه قليلاً. إنه مفيد لقدميّ، ولكنني فقدت صوتي. كان ذلك يضايقه كثيراً، فقد كان طموحه في الحقيقة، أن يتمكن من العودة إلى جوقة المرتلين في المسرح

كان العمل في الجوقة أفضل أجراً، وأرقى فنياً من مجرد التمثيل الصامت.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> رجال السلطة كفوا، أخيراً، عن الاهتمام بي، واستطعت أن أنجو بأحشائي، ولكني دمغت على جبيني بدمغة إلى الأبد، لا مراء في ذلك: انصرف: أنت لم تعد تنفع لشيء!

«إلى أفريقيا، قلت لهم! كلما سيكون أبعد كلما سيكون أفضل!» كان المركب مثل غيره من المراكب التابعة لشركة كوارسير المتحدة، ذلك الذي أبحر بي نحو البلاد المدارية، محملاً بالأقمشة القطنية والضباط والموظفين

كان قديماً جداً، عفت عليه السنون، وقد اقتلعوا لوحته النحاسية من فوق جسره الأعلى، والتي كان مكتوباً عليها فيما مضى عام ميلاده.. كان ميلاده يرقى إلى زمن موغل في البعد، بحيث كان يثير لدى المسافرين الخوف، والمزاح أيضاً.

أركبوني فوقه إذن، كي أحاول ترميم نفسي في المستعمرات. كان أولئك الذين يريدون لي الخير حريصين على أن أكوّن ثروة هناك. أما أنا فلم أكن أرغب إلا في الذهاب. ولكن بما أنه ينبغي على المرء أن يبدو نافعاً إن لم يكن غنياً، وبما أنني من جهة أخرى لم أكمل دراساتي في الجامعة، فإن سفري لا يمكن أن يستمر، ولم يكن لدي ما يكفي من المال أيضاً من أجل الذهاب إلى أمريكا.

«اذهب إلى أفريقيا» قلت لنفسي إذن، واستسلمت لنزوة الاندفاع نحو البلدان المدارية، حيث يكفي، مثلما أكدوا لي، بعض الزهد والسلوك القويم كي يصنع الإنسان لنفسه على الفور وضعاً طيباً.

Twitter: @ketab_n

تلك النبوءات جعلت مني حالماً! لم أكن أملك الكثير من الأشياء، ولكن كان لدي بالتأكيد شيء من حسن التدبير، يمكنني قول ذلك، وهيئة متواضعة، وعريكة لينة، وخوف دائم من أن لا أصل في الوقت المناسب، وقلق من أنني لن أسبق أبداً أي شخص في الحياة، وبعض الرقة أخيراً.

حين يستطيع المرء الإفلات حياً من مجزرة عالمية مجنونة، فتلك رغم كل شيء، شهادة على الحصافة والفطنة، ولكن لنعد إلى تلك الرحلة. حينما كنا ما نزال في المياه الأوروبية لم يكن يعكر صفونا شيء. كان المسافرون يتعفنون تحت ظلال جسري القارب، وفي المراحيض وفي غرفة التدخين على هيئة مجموعات صغيرة، مرتابة، خنّاء، غائصين في مستنقع النمائم والقيل والقال. من الصباح وحتى المساء، يتجشؤون، ويهوّمون، ويزعقون الفينة بعد الفينة. دون أن يبدو عليهم قط أي شعور بالأسف على أوروبا.

كان سفينتنا تسمى: الأميرال براغتون.. وهي لم تكن تتماسك فوق المياه الفاترة إلا بفضل دهان جدرانها. طبقات تراكمت فوق طبقات من قشور الدهان، شكلت في النهاية ما يشبه هيكلاً ثانياً للأميرال براغتون، على غرار بصلة. كنا نندفع صوب أفريقيا. الحقيقية، الكبرى. أفريقيا الغابات التي لا يسبر غورها، والأبخرة الوبيلة المهلكة، والعزلة العصية على الانتهاك، صوب الزنوج الطغاة المتمرغين عند تقاطع الأنهار التي لا تنتهي قط. والذين كنت سأبادلهم علبة من شفرات «بيليت» بقطع كبيرة من العاج الثمين، صوب الطيور المتوهجة الريش والعبيد، من الأطفال القاصرين.. تلك كانت أفريقيا الموعودة، أفريقيا الحياة الرغيدة، ولكن ما من جامع يجمعها بأفريقيا التي قشرت أرضها الوكالات التجارية وصروح الأبنية الشاهقة، وخطوط السكك الحديدية، وحلوى النوغا.

Twitter: @ketab_n

آه! لا! لقد كنا على وشك أن نرى أفريقيا الحقيقية، غارقة في عصيرها! نحن المسافرين السكارى على ظهر الأميرال براغتون.

ولكن، ما إن اجتزنا شواطئ البرتغال حتى تعكرت الأحوال واضطربت. فلدى استيقاظنا ذات صباح وجدنا أنفسنا على نحو لا يقاوم محاطين بجو متعرق، ساخن للغاية، ومثير للقلق. الماء في الكؤوس، البحر، الفضاء، الثياب، عرق الأجساد، كل ذلك فاتر، حار، ومنذ الآن، سواء في الليل، أو في النهار غدا من المستحيل أن نقع على نفحة من البرودة الندية، تحت أيدينا، وخلف ظهورنا، وفي حلوقنا، باستثناء الثلج في البار مع أقداح الويسكي. حينذاك، داهم يأس فظيع ركاب الأميرال براغتون الذين حكم عليهم بأن لا يبتعدوا عن البار قيد أنملة منجذبين، مقيدين إلى مراوح التهوية. ملتحمين بقطع الثلج، يتبادلون التهديدات عقب ألعاب الورق، وعبارات الأسف بإيقاعات مشوشة ومتنافرة.

استمر الحال على هذا المنوال دون تغيير، وداخل هذه الاستمرارية المؤسة للحرارة شرع المحتوى البشري للسفينة يتخثر داخل مستنقع هائل من الثمل الدائم، كنا نتحرك برخاوة بين الجسور، على غرار أخطبوطات في قاع حوض ماء مسيخ الطعم واللون. ومنذ هذه اللحظة تبدت للعيان على سطح جلودنا الطبيعة المقلقة للبيض، مستثارة مفلتة الزمام، وقحة للغاية، طبيعة البيض الحقيقية، تماماً مثلما تبدت في الحرب! فرن حراري مداري يحيط بحشرات، كالعلاجيم والأفاعي، والتي ما تلبث أن تزدهر أخيراً في شهر آب على حواف الشقوق في جدران السجون. وسط برد أوروبا، وفي ظل الاكفهرار المحتشم للشمال لا يفعل البيض شيئاً خارج المذابح سوى الارتياب بالفظاظة الزاخرة لإخوانهم من الشعوب الأخرى. ولكن عفونتهم تطغى على

Twitter: @ketab_n

السطح حين تنعشهم الحمى الوبيلة للبلاد المدارية، فيكشفون حينئذ عن بواطنهم بشغف، وتكتسحهم الدناءات وتغطيهم كلياً، ذلكم اعتراف بيولوجي. ما أن تخف وطأة العمل والبرد عنا، نحن البيض ويرخيان قبضتهما لحظة من الزمن.. حتى يمكن رؤية البيض على حقيقتهم. مَا نكتشفه حينئذ فوق ذلك الشط البهيج، بمجرد أن يجزر البحر، وتتراجع أمواجه هو الحقيقة! مستنقعات آسنة تفوح بالنتانة، تعوم فيها السرطانات والجثث، والبراز .

وهكذا، فما إن ابتعدنا عن شواطئ البرتغال حتى بدأ الجميع على السفينة بإفلات العنان لغرائزهم المسعورة، يساعدهم على ذلك الكحول. وذلك الشعور أيضاً بالغبطة الداخلية بسبب حصولهم على مجانية كاملة بالسفر على السفينة، وعلى الأخص منهم العسكريون والموظفون في القوات المسلحة العاملة. فالشعور بأنهم آكلون نائمون شاربون دون أن يدفعوا شيئاً مقابل ذلك طوال أربعة أسابيع متتابعة، يحلمون فيها، كان يكفي، بحد ذاته، كي يهذوا بالادخار والتوفير؟ كنت أنا الدافع الوحيد لأجرة الرحلة، وهو ما جعلهم ينظرون إلي بالتالي، حينما عرفوا هذه الخصوصية على أنني وقح بالغ الوقاحة، وشخص لا يطاق بالكامل.

لو كان لدي أي خبرة بالأوساط الكولونيالية منذ انطلاقنا من مرسيليا، لكنت في تلك الرحلة، غير جدير بالاهتمام، خانعاً، ملتمساً الصفح والعطف من ضابط المشاة الاستعماري الذي كنت ألتقيه في كل مكان على ظهر السفينة. والأرفع رتبة من بين الضباط. ولعلني كنت أتصاغر وأذل نفسي أيضاً من أجل مزيد من الأمن عند أقدام الموظفين الأقدم عهداً. ربما كان سيتحملني حينئذ هؤلاء المسافرون العجيبون فيما بينهم. غير أن جهلي بذلك وادعائي اللاشعوري بالحق في التنفس بالقرب منهم كاد يكلفني حياتي فعلاً.

Twitter: @ketab_n

لم أكن على الإطلاق هياباً إلى حد كاف، كما أنني لم أفقد، بفضل بعض الحنكة ما تبقى لدي من حس الكرامة واحترام الذات. وإليكم كيف جرت الأمور، فبعد أن اجتزنا جزر الكناري، أخبرني خادم القمرة بأن الركاب أجمعوا على اعتباري مدعياً، لا بل وقحاً ومتغطرساً. كانوا يرتابون بكوني قواداً. وفي الوقت ذاته لوطياً.. وبأنني أتعاطى الكوكايين على الأرجح، ولكن ذلك بوصفه اتهاماً ملحقاً. ثم أخذت الفكرة طريقها بحيث كان ينبغي في رأيهم أن أكون فاراً من فرنسا من تبعات بعض أشنع الجرائم وأكثرها خطراً. لم أكن مع ذلك إلا في بدايات محنتي في تلك الرحلة. لقد أطلعت حينئذ على العرف المتبع بشأن هذا التقليد، والمتمثل في عدم تقبل الركاب الذين يدفعون أجرة، أي الذين لا يتمتعون بالمجانية العسكرية، ولا بالترتيبات البيروقراطية داخل المستعمرات الفرنسية التابعة شخصياً، كما هو معلوم إلى نبالة الحوليات الاستعمارية إلا باحتراس شديد للغاية مترافقاً بمضايقات لا تطاق.

بالنسبة إلى مدني غير معروف مثلي، لم يكن هناك على أي حال، سوى القليل من الأسباب كي يخاطر بنفسه في تلك النواحي، جاسوس، مشبوه، ثمة ألف سبب كي ينظر الضباط إلي شزراً ببياض عيونهم، وتنظر إليّ النساء مبتسمات بطريقة قد تعارفن عليها، ثم ما لبث الخدم أنفسهم أن تشجعوا وجعلوا يتبادلون خلف ظهري، تعليقات لاذعة، لم يعد لديهم شك بأنني كنت الشخص الأكثر فظاظة، والأثقل حضوراً، على ظهر السفينة، بل الشخص الوحيد الذي لا يطاق تقريباً. وكان هذا يعد بالويل والثبور.

كنت أجلس إلى طاولة الطعام بجوار أربعة أشخاص يعملون في دائرة بريد الغابون، كانوا مكبودين، درداً، عاملوني بألفة في بداية الرحلة، ثم لم يعودوا يوجهون إلي كلمة واحدة فيما بعد. وهذا يعني أنني قد وضعت، باتفاق

Twitter: @ketab_n

ضمني، ضمن نظام من المراقبة العامة. لم أعد أخرج من مقصورتي إلا بأقصى درجات الحيطة والحذر. كان الجو الشبيه بجو الأفران يضغط على الجلد بقسوة بالغة، تعريت من ثيابي، وأرتجت باب المقصورة بالمتراس، ولم أعد أتحرك، كنت أحاول أن أتصور أية خطة قد أعدها هؤلاء المسافرون الجهنميون للقضاء علي. لم أكن أعرف أحداً على ظهر السفينة، ومع ذلك فقد بدا أن كل واحد منهم يعرفني. كانت أوصافي بالتأكيد قد غدت محددة وفورية في أذهانهم على غرار أوصاف المجرم المشهور بعد نشرها في الصحف.

أخذت دون أن أريد ذلك، دور «المخلوق الشائن والمقزز» الضروري للنوع الإنساني، والذي يشار إليه عبر القرون، ويلهج العالم بذكره. على غرار دور الشيطان، ولكنه يظل على الدوام مختلفاً جداً، نائياً جداً، بحيث يستعصي إدراكه، في المحصلة. على الأرض وفي الحياة، كان من الضروري من أجل عزله في النهاية، ذلك «السافل»! من أجل التحقق منه، وإمساكه أن تتوفر هذه الظروف الاستثنائية التي تمت مصادفته فيها على متن هذه السفينة.

جذل حقيقي عام وأخلاقي، راح يشيع على متن الأميرال براغتون. فـ«النجس» لن يفلت من مصيره هذه المرة، كنت أنا ذلك النجس.

هذا الحدث وحده غطى على الرحلة بأكملها، وحيداً بين هؤلاء الأعداء الطوعيين، كنت أحاول كيفما اتفق التحقق من هويتهم دون أن يلاحظوا ذلك، ولكي أتوصل إلى هذا، كنت أراقبهم، دونما عقاب، من كوة مقصورتي، في الصباح، على الأخص، فيما هم يستنشقون الهواء في الخارج مشعرّين من عانتهم حتى حواجب عيونهم، ومن شرجهم حتى أطراف أقدامهم، ينضحون عرقاً تحت الشمس، متمرغين على امتداد درابزين السفينة. كان أعدائي يتجشؤون هناك والأقداح في أيديهم، موشكين على التقيؤ حولهم، وخصوصاً،

Twitter: @ketab_n

القبطان ذو العينين الجاحظتين والمحتقنتين والذي كان كبده يعمل بكد منذ الفجر. ولدى الاستيقاظ من نومه كان يستعلم بصورة منتظمة عن أخباري من أشخاص آخرين خليي البال، ويسألهم إن كانوا لم «يقذفوا بي في الماء بعد، من فوق ظهر السفينة». «مثل بصقة». ولكي يصور الموقف كان يبصق في الوقت ذاته في البحر المزبد الأمواج، يا له من مزاح!

قلما كانت الأميرال تتقدم، كانت تجرجر نفسها بالأحرى، وهي تخر خريراً صاخباً، مترنحة من جانب إلى جانب. لم تعد رحلتنا رحلة، كانت نوعاً من المرض. كان أعضاء ذلك المحفل الصباحي، يبدون لي وأنا أتفحصهم من زاويتي منخورين بالمرض حتى نخاعهم، بردائيين، كحوليين سفلسيين، دونما شك. كان انحطاط قواهم المرئي من مسافة عشرة أمتار يعزيني قليلاً. وينسيني مشاعر القلق والارتباك الشخصية.. هؤلاء المتبجحون. كانوا، على أي حال، مهزومين مثلي مع ذلك، ولكنهم كانوا يتعاظمون فحسب، هذا كل شيء، إنه الفرق الوحيد! كان البعوض قد تكفل سابقاً بأن يمتص دمائهم ويبث داخل عروقهم تلك السموم التي لاتزول منها أبداً.. ونحت السفلس شرايينهم حينما علق بهم.. والتهم الكحول أكبادهم.. وفتتت الشمس كلاهم، والتصق قمل العانة بشعرهم، والأكزيما بجلد بطونهم، وأعطب الضوء الرمادي شبكيات عيونهم. فما الذي سيبقى منهم بعد أجل ليس بالبعيد؟ مثقال ذرة من الدماغ!!.. وما الذي سيفعلونه بها؟ أنا أسألكم؟ إلى أين كانوا ذاهبين؟ إلى الانتحار؟ لم يكن من الممكن أن ينفعهم دماغهم، هناك حيث يذهبون، إلا للانتحار، عبثاً كل ما يقولونه. ليس مسلياً أن يشيخ المرء في بلاد ليس فيها تسليات.. حيث يكون مرغماً، على النظر إلى نفسه في مرآة، اخضرّ قصديرها، ليرى نفسه خائراً أكثر. فأكثر، قبيحاً أكثر فأكثر.. إنهم سيتعفنون سريعاً، وسط الخضرة الداكنة، وعلى الأخص حين يضربهم القيظ بشواظه.

Twitter: @ketab_n

يصون الشمال، على الأقل، جلدك ولحمك، وفي أرض المستعمرات يعتري الشحوب أبناء الشمال، فما بين سويدي ميت في بلده، وشاب حرم من النوم ثمة فرق ضئيل. ولكن المستعمر ما إن يهبط من السفينة وتطأ أقدامه شواطئ المستعمرات حتى تملأه تماماً سرف الذباب. لم تكن تلك الشعريات الدقيقة والدؤوبة إلى أبعد حد تنتظر شيئاً سوى أولئك القادمين من الشمال، وهي لا تتركهم قط إلا بعد أن يفارقوا الحياة، أكياساً من اليرقانات.

كان ما يزال أمامنا ثمانية أيام من الإبحار حتى نرسو على شواطئ براغامانس، أولى الأراضي الموعودة، كنت أشعر بأنني داخل صندوق من المتفجرات، لم أعد آكل تقريباً، كي أتحاشى الجلوس إلى طاولتهم والعبور من بينهم في وضح النهار. ولم أعد أتفوه بكلمة، ولا أتصور نفسي قط أقوم بنزهة، كان من الخطورة أن يظهر على ظهر السفينة واحد مثلي.

أسرّ لي خادم قمرتي، وهو أب لعائلة بأن ضباط المستعمرات الكبار أقسموا، والقدح في أيديهم على أن يوجهوا لي صفعة في أول مناسبة تسنح لهم، وأن يقذفوا بي إلى الماء من فوق ظهر السفينة، فيما بعد. وحين سألته لماذا، لم يكن لديه أي تفسير لذلك، وسألني بدوره عما أمكنني القيام به حتى وصل الأمر إلى هذا الحد. بقينا أنا وهو في شك مستغلق. كان من الممكن أن يستمر هذا الوضع طويلاً. لقد كان لي شدق قذر. هذا كل شيء.

لن أعود إلى السفر مرة ثانية مع أشخاص يصعب إرضاؤهم إلى هذا الحد. كانوا متبطلين كلياً منغلقين على أنفسهم طوال ثلاثين يوماً. بحيث كان يلزمهم شيء زهيد جداً كي يفتتهم وينكي حماسهم، لتتصور مع ذلك أن مئة شخص على الأقل، في حياتك اليومية، يرغبون بموتك البائس خلال يوم عادي واحد، أو أن جميع هؤلاء كانوا يقفون خلفك مستعجلين في صف لركوب المترو، أو أن جميع هؤلاء

Twitter: @ketab_n

أيضاً كانوا يمرون أمام شقتك التي تسكن فيها وليس لديهم شقق مثلها، أو أن جميع هؤلاء كانوا يريدون أن تنتهي من تبولك كي يتبولوا هم أيضاً، سواء أكانوا أولادك أم آخرين غيرهم، يحدث هذا كثيراً، أما على السفينة فإن هذه السرعة تميزت بحدة أكبر، ولذا فإنها كانت أشد بلاءً.

في ذلك الجو الفرني الذي يطبخ الأجساد تكثفت شحوم تلك الكائنات الغاطسة في ماء حار، وجعلتهم هواجس العزلة الاستعمارية الخانقة التي ستكفنهم عما قريب، وتكفن مصيرهم، جعلتهم يئنون مثل محتضرين، يتشبثون، يعضون، يمزقون، ويسيل من أفواههم اللعاب، بسبب ذلك. كانت أهميتي على ظهر السفينة تتعاظم يوماً بعد يوم على نحو عجيب، أما المرات القليلة جداً التي جلست فيها إلى طاولة الطعام والتي حرصت على أن تكون متكتمة وصامتة فقد اتخذت حجم أحداث حقيقية، فما أن كنت أدخل إلى صالة الطعام حتى ينتفض مئة وعشرون مسافراً، ويتبادلوا الهمسات.

كان ضباط المستعمرات المتكدسون، من جلسة شراب إلى أخرى حول طاولة القبطان، ومعهم محصلو ضرائب التبغ، والمعلمات الكونغوليات على الأخص اللواتي كانت الأميرال براغتون تحمل باقة منهن، قد انتهوا بافتراضاتهم السيئة النية واستنتاجاتهم الشنيعة، إلى تعظيم شأني حتى إنهم نسبوا إلي خطورة جهنمية.

حينما أبحرنا من مارسيليا لم أكن أكثر من شخص حالم لا يقيم له أحد شأناً. ولكنني الآن بفعل ذلك التركيز الكحولي القلق، ومهابل الكونغوليات النافذة الصبر. وجدت نفسي، وقد حبيت، ولكن بمعالم أخرى، حظوة مثيرة.

قبطان السفينة مهرّب كبير ماكر، كثير الثآليل كان يضغط على يدي بطيبة خاطر، في بداية الرحلة، في كل مرة كنا نلتقي فيها. أما الآن، فلم يعد

Twitter: @ketab_n

يبدو عليه أنه يعرفني، مثلما يتجنب الناس رجلاً مطلوباً بجريرة فاحشة. حينما لا ينطوي حقد البشر على أية مجازفة فإن حماقتهم سرعان ما تكوّن قناعات، ثم تأتي الأسباب بعد ذلك وحدها.

بحسب ما كنت أعتقد فقد لاح لي وسط تلك العدوانية المندمجة التي كنت أتخبط فيها، معلمة كونغولية كانت تهيج العنصر الأنثوي في ذلك التآمر والدس. كانت عائدة إلى الكونغو لتهلك، كما آمل. تلك الفتاة لم تكن تفارق إلا لماماً ضباط المستعمرات ذوي الجذوع المفتولة، والثياب الزاهية، والذين أقسموا، بالإضافة إلى ذلك، بأن يسحقوني، مثل حلزون مقزز، لا أكثر ولا أقل، وقبل الرسو القادم للسفينة بالتأكيد، كانوا يتساءلون من كل جهة إن كنت سأغدو مقرفاً مسطحاً مثل حلزون، كانوا يتسلون بي، باختصار. كانت تلك الآنسة تؤجج حميتهم، تستدعي العاصفة على متن الأميرال براغتون، لم تكن تعرف الراحة إلا بعد أن يلتقطوني أخيراً مختلج الأنفاس. ويصححوا إلى الأبد مخيلتي الوقحة. ويعاقبوني على اجترائي في أن أوجد في هذا الوجود، بوجه الإجمال. مضروباً بغضب مسعور، نازفاً، ممزقاً، متوسلاً الشفقة تحت بوط وقبضة واحد من أولئك الجسورين الذين كانت تذكي إعجابهم بالعمل العضلي، وغضبهم الساطع. مشهد لمذبحة سامية، كانت مبايضها الذاوية المجعدة تستشعر حدوثها.

كانت تستحق الاغتصاب من قبل غول. كان الوقت يمضي، وبات من الخطورة انتظار مصارعة الثيران زمناً طويلاً. كنت أنا البهيمة، وكانت السفينة بكاملها تطالب بها، مرتعشة، من السطح وحتى عنابر الفحم.

احتجزنا البحر داخل سيرك ثابت الأركان، كان عمال المكنات أنفسهم مطلعين على ما يجري، ولما لم يعد أمامنا سوى ثلاثة أيام على الرسو، أيام حاسمة، فإن العديد من مصارعي الثيران قد تقدموا.

Twitter: @ketab_n

وكلما كنت أتجنب الكارثة كلما كانوا يصبحون عدوانيين، متحفزين للهجوم. كان مقدمو القرابين يتمرنون، وقد حصروني على هذا النحو بين مقصورتين خلف سجف أحد الأبواب. فأفلت من قبضتهم بحنكة. ولكنهم أصبحوا يهددون باقتحام مقصورتي، دون تردد. ولما لم يبق أمامنا إذن سوى تلك الأيام الثلاثة في البحر، فقد اغتنمت الفرصة للإقلاع كلياً عن جميع حاجاتي الطبيعية، كانت الكوة كافية لي. كان كل ما حولي ينضح بالحقد، بلا حدود، من السخرية قول ذلك. لقد غطى الحقد البحر، والسفينة والسموات.. إلى حد أن أشخاصاً أقوياء سيغدون بسببه غريبي الأطوار، فكيف بهؤلاء المخبولين الحالمين الذين كان لديهم أسباب أقوى.

قربان، كنت على وشك أن أغدو قرباناً، ثم انجلت الأمور ذات مساء بعد الغداء، بعد أن ألجأني الجوع إلى الخروج رغم كل شيء من قمرتي. أبقيت أنفي فوق صحني، دون أن أجرؤ حتى على إخراج منديلي من جيبي لأمسح فمي. لم يكن ثمة أحد على الإطلاق ممن كانوا يأكلون أكثر احتشاماً وتحفظاً مني. مكنات تدور، كان يعلوك وأنت جالس في مؤخرة الطاولة، ذبذبات متصلة وخافتة، جيراني على الطاولة الذين كانوا بالتأكيد مطلعين على ما تقرر بشأني، بدؤوا، وهذا ما أدهشني، يكلمونني بحرية ومراعاة عن المبارزات بالسيف، وعن السيوف، موجهين لي أسئلة.. وفي تلك اللحظة أيضاً توجهت المعلمة الكونجولية، تلك التي كانت ترتدي ثوباً من الغيبور المخرم بأبهة عظيمة، توجهت نحو البيانو بنوع من التعجل المتشنج كي تعزف، إن أمكن القول بعض الألحان التي كانت تخفي فيها غايتها النهائية.. وغدا كل ما حولي عصبياً ومتكتماً.

Twitter: @ketab_n

ما كان مني إلا أن قفزت من مكاني محاولاً اللجوء إلى مقصورتي. كنت على وشك بلوغها حينما اعترض طريقي واحد من الضباط الاستعماريين كان أكثر انتفاخاً وأشد عضلاً من الجميع. دون عنف، ولكن بثبات. «لنصعد إلى ظهر السفينة» قال لي آمراً. كنا على بعد خطوات من السطح. وأمكنني ملاحظة قبعته العسكرية فوق رأسه مذهبة على أكمل وجه، وقد زرر سترته من العنق حتى فتحة البنطال، وهو ما لم يفعله منذ إقلاعنا، كنا إذن في غمرة احتفال دراماتيكي. وقد بلغت روحي التراقي، وراح قلبي يقفز داخل ضلوعي حتى سرتي.

تلك الفاتحة، تلك العصمة التي أبداها، جعلتني أتنبأ بمصرع بطيء ومؤلم. بدا لي هذا الرجل قطعة من الحرب، كانت ستوضع فجأة في دربي، عنيدة، راسخة، قاتلة.

خلفه، كان يحتجزني الباب المفضي إلى ما بين جسري السفينة. وانتصب في الوقت ذاته أربعة ضباط تابعون له، في غاية اليقظة والاستعداد، كانوا يمثلون موكب القدر.

ما من وسيلة إلى الفرار، إذن! وهذا الاستجواب كان ينبغي أن يتم بدقة متناهية «أيها السيد، يقف أمامك الكابتن فريميزون قائد القوات الاستعمارية. باسم رفاقي وباسم ركاب هذه السفينة الساخطين من سلوكك الشائن، تحديداً.. لي الشرف أن أسألك عن السبب.. بعض المواقف التي اتخذتها تجاهنا منذ انطلاقنا من مرسيليا غير مقبولة. وهذه هي اللحظة، أيها السيد لتدلي بصوت عال باعتراضاتك. ولتعلن لنا ما كنت ترويه بخزي همساً منذ واحد وعشرين يوماً. ولتخبرنا أخيراً بماذا تفكر..».

Twitter: @ketab_n

شعرت وأنا أسمع هذه الكلمات بانفراج عظيم، كنت مرتاعاً من قتل لا محيد عنه. ولكنهم قدموا لي، ما دام الكابتن كان يتكلم، طريقة للإفلات من قبضتهم، وانقضضت على هذه النعمة..، كل إمكانية للجبن تغدو أملاً زاهياً لمن يكون خبيراً باستغلالها. تلكم هو رأيي. لا يجوز أبداً أن يكون المرء متردداً إزاء وسيلة تنقذه من انتزاع أمعائه، ولا أن يضيع وقته أيضاً في البحث عن أسباب اضطهاد كان ضحية له، فالإنسان العاقل يكفيه أن ينجو منه.

«أيها الكابتن. أجبته بصوت مفعم بالثقة تماماً ما وسعني ذلك، أي خطأ فادح كنتم على وشك ارتكابه!، كيف تنسبون إلي مشاعر خؤون غدار من هذا النوع. لعمر الحق، إن هذا لظلم فادح إلى أبعد حد ! وسأكون متألماً جداً لذلك، كيف؟ أنا الذي كنت ما أزال حتى الأمس مدافعاً عن وطننا الغالي، أنا الذي امتزج دمي بدمكم طوال سنوات، في خضم معارك لا تنسى. أي ظلم كنتم ستنزلونه بي أيها الكابتن. ثم توجهت إلى الجمع بكامله

أي بهتان شنيع، أيها السادة، غدوتم ضحايا له؟ أن تذهبوا إلى حد التفكير بأنني أنا أخوكم، في النهاية، كنت مصراً على نشر افتراءات دنيئة بحق ضباط أبطال، هذا كثير! حقاً إنه كثير، في الوقت الذي يستعد فيه هؤلاء البواسل، هؤلاء الجسورون الذين لا مثيل لهم، وبحمية لا نظير لها، لمتابعة الحراسة المقدسة لإمبراطوريتنا الاستعمارية الخالدة! وتابعت. هناك، حيث يكلل المجد الأبدي أروع جنود عرقنا الفرنسي، أبناء مانجين وفيدهيرب وغالياني.. آه، أيها الكابتن. أنا؟ هكذا؟.

توقفت لحظة، آملاً أن يكون كلامي مؤثراً. ولحسن الحظ، كان كذلك فعلاً، ودون إبطاء، مستفيداً من تلك الهدنة التي علت فيها الغمغمات، ذهبت مباشرة إليه وضغطت على يديه في عناق مؤثر.

Twitter: @ketab_n

كنت مطمئناً قليلاً وأنا أحتضن يديه بين يدي، وفيما أنا ممسك بهما، رحت أتابع تبرير سلوكي بذلاقة لسان، وكنت أصوّب رأيه ألف مرة مؤكداً له بأن كل ما بيننا سيلتئم، وبنجاح هذه المرة. وأن طبيعتي وخجلي هما السبب في سوء التفاهم المتوهم هذا، وأن سلوكي بالتأكيد كان من الممكن أن يفسر على أنه استخفاف غير مبرر من مثل هذه المجموعة من المسافرين، ومن المسافرين «الأبطال والفاتنين أيضاً».. هذا الجمع العظيم من الشخصيات العظيمة والمواهب.. دون أن أنسى السيدات الموسيقيات الفريدات واللواتي هن زينة السفينة..» باعترافي بالذنب والاعتذار منه جهاراً، كنت ألتمس أن أقبل دون تأخير، ودون قيد أو شرط في صفوف هذا الجمع السعيد، الوطني والأخوي!.. وسأحرص، منذ هذه اللحظة وإلى الأبد على أن أقدم صورة لائقة ومحببة جداً. كنت أضاعف فصاحتي أضعافاً دون أن أترك يدي الكابتن، بالطبع.

ما دام العسكري لا يقتل، فهو ليس أكثر من طفل. من الممكن خداعه والسخرية منه بسهولة، وبما أنه غير معتاد على التفكير، فإنه مضطر حينما تكلمه بأن يقرر بذل جهود مضنية كي يفهمك. لم يقتلني الكابتن فريميزون، ولم يكن يحمل قدحاً أيضاً، لم يكن يفعل أي شيء بيديه، ولا برجليه. كان يحاول التفكير حسب. كان هذا باهظاً جداً بالنسبة إليه، والواقع أنني كنت أمسكه من رأسه.

شيئاً فشيئاً، وخلال المدة التي انقضت في هذه التجربة من الإذلال كنت أشعر بأن كبريائي كان يفارقني ويتلاشى أكثر فأكثر أيضاً، ثم تخلى عني وغادرني كلياً، من الناحية الرسمية تقريباً، من العبث قول ذلك، لقد كانت تلك اللحظة سعيدة جداً. فمنذ هذا الحادث غدوت حراً طليقاً على الدوام من الناحية المعنوية، بالطبع. ربما نكون في أغلب الأحيان في حاجة إلى الخوف كي

Twitter: @ketab_n

نخلص أنفسنا من المآزق في الحياة، أما أنا، فلم أعد أريد منذ ذلك اليوم أسلحة أخرى، أو فضائل أخرى.

رفاق العسكري المترددين الذين جاؤوا هم أيضاً في تلك اللحظة كي يمسحوا دمي المسفوح، ويلعبوا الكعاب بأسناني المتناثرة، كانوا خليقين بأن يكتفوا من هذا الانتصار بالتقاط كلمات من الهواء. أما المدنيون الذين هرعوا مرتعشين ليشهدوا موتي فكانوا يبرزون سحنات قذرة، ولما كنت لا أدرك بالضبط ما الذي كنت أتفوه به، باستثناء أنني بقيت أحوم بكل قوة في الفضاء الوجداني، ممسكاً يدي الكابتن، فقد ثبّت نقطة مثالية في الضباب الناعم الذي كانت الأميرال براغتون تتهادى فيه، وهي تصفر وتقذف بمروحتها آن بعد آن. غامرت في النهاية كي أكمل دفاعي بأن ألوح بإحدى ذراعي فوق رأسي مفلتاً إحدى يدي الكابتن، واندفعت إلى الخاتمة: «ما بين الشجعان أيها السادة الضباط ألا يجدر دوماً الوصول إلى التفاهم؟ عاشت فرنسا إذن! عاشت فرنسا». كانت تلك طريقة الرقيب برانليدور البارعة. فقد كان يفلح دوماً في مثل هذه الحالات. تلك هي المرة الوحيدة التي أنقذت فيها فرنسا حياتي. فحتى ذلك الوقت كان الأمر على العكس بالأحرى. لاحظت بين المستمعين لحظة صغيرة من التردد، ولكن كان من الصعب جداً، مع ذلك، على أي ضابط، مهما كان سيئ المزاج، أن يصفع علناً، مدنياً، في اللحظة التي يهتف فيها بقوة مثلما كنت أهتف: «عاشت فرنسا» هذا التردد أنقذ حياتي

أمسكت بذراعين لا على التعيين من بين مجموعة الضباط ودعوت جميع من في السفينة إلى البار ليشربوا نخبي ونخب مصالحتنا. لم يقاوم هؤلاء البواسل سوى دقيقة واحدة، وشربنا بعد ذلك طوال ساعتين كاملتين.

Twitter: @ketab_n

أما إناث السفينة فقد تابعننا فقط بأعينهن، صامتات، بعد أن خاب أملهن شيئاً فشيئاً، ولمحت من كوة البار المعلمة العنيدة، عازفة البيانو بين أخريات، كانت تروح وتجيء وسط حلقة من المسافرين، مثل ضبعة، كانت أولئك الفتيات يرتبن في أنني قد تخلصت من الفخ بالحيلة والخديعة، كن يأملن في أن يقبضن عليّ ثانية بطريقة غير مباشرة. وفي أثناء ذلك كنا نشرب بلا نهاية تحت مروحة عديمة الجدوى ولكنها مخبِّلة. بعد أن فقدت خلال دورانها منذ جزر الكناري القطن الفاتر المرطب للجو.

كنت ما أزال في حاجة مع ذلك إلى العثور على قريحة وعلى طلاقة لسان يمكنها أن تروق لأصحابي الجدد، بيسر وسهولة، ولم ينضب معيني، خوفاً من أن يساء الظن بي في موضوع إعجابي الوطني، كنت أطلب وأعاود الطلب من هؤلاء الأبطال كل بدوره، قصصاً، وقصصاً أيضاً عن شجاعتهم الاستعمارية، لم تكن قصص البسالة تلك سوى كومة من القذارات، كانت تروق دوماً وأبداً لكل العسكريين في جميع البلدان، والحقيقة أن ما هو ضروري للحصول على نوع من سلام مع الناس، عسكريين أم غير عسكريين. على هدنات هشة، هذا صحيح، ولكنها ثمينة مع ذلك، هو إتاحة الفرصة لهم في كل الظروف لأن يتفاخروا وأن يتمرغوا فوق ركام من التبجحات البليدة. ليس ثمة غرور ذكي. فالغرور غريزة من الغرائز. ما من إنسان أيضاً لا يكون قبل كل شيء مزهواً بنفسه. والدور الذي يؤديه المتزلف المعجب بكل من يطلب الإعجاب هو الدور الوحيد تقريباً الذي يتقبله آدمي من آدمي بسرور بالغ. مع هؤلاء الجنود لم يكن علي أن أذهب بعيداً في الخيال. كان يكفي أن لا أكف عن الظهور بمظهر المندهش. كان من السهل علي أن أطلب وأطلب من جديد قصصاً عن الحرب، كان هؤلاء الرفاق مدرعين بدروع من العُجب والخيلاء،

Twitter: @ketab_n

وأمكنني أن أتخيل نفسي عائداً إلى أجمل الأيام التي قضيتها في المستشفى. بعد كل قصة من قصصهم، لم أكن أنسى أن أعبر عن تقديري الشديد مثلما تعلمت ذلك من برانليدور، من خلال عبارة قوية «حسن، يا لها من صفحة جميلة من صفحات التاريخ». لم يكن ثمة ما هو أبلغ وأشد تأثيراً من هذه العبارة. والحلقة التي انضممت إليها بخوف بالغ راحت تعتقد شيئاً فشيئاً بأنني غدوت شخصاً مثيراً للاهتمام. شرع هؤلاء الرجال يروون عن الحرب ركاماً من الهراء كنت قد سمعته من قبل. ثم رويته أنا نفسي فيما بعد، حينما كنت أتنافس مع رفاق المستشفى في اختلاق روايات من الخيال. كان الإطار الذي يحيط بهؤلاء فقط مختلفاً عن إطار رفاقي في المشفى، وأكاذيب هؤلاء كانت تجول عبر الغابات الكونغولية بدلاً من أراضي الفوج والفلاندر.

الكابتن فريميزون. الذي كان يتصدى قبل لحظة لمهمة تطهير السفينة من وجودي العفن، ما إن استحسن طريقتي في الإصغاء بانتباه أكثر من أي شخص آخر، حتى بدأ يكشف لي عن ألف شميلة من شمائل التهذيب والدماثة. كان تدفق شرايينه كما لو أنه يخمد، بفعل عبارات التقريظ المبتكرة التي أسوقها له، وكانت نظرته. تصفو، وعيناه المخددتان والحمراوان كالدم بسبب الإدمان على الكحول تتلألآن وسط مستنقع الخبل الذي يغرق فيه. أما بعض الشكوك المستقرة في أعماقه والتي يمكن أن يتصورها حول قيمته الشخصية والتي مازالت تنبجس داخله في لحظات اكتئابه الشديد، فكانت تمحي وتتلاشى بافتتان، فترة من الزمن، بالتأثير المدهش لتعليقاتي الذكية والملائمة.

كنت بالفعل مخلوقاً مرحاً.. أنقر على كل الدفوف، بخفة وبراعة. لم يكن ثمة أحد سواي يستطيع أن يجعل الحياة مقبولة، على الرغم من كل رطوبة الاحتضار الدبقة تلك: ألم أكن أصغي مع ذلك بصورة رائعة؟

Twitter: @ketab_n

بينما كنا نهذي على تلك الصورة، كانت الأميرال براغتون تتهادى بطيئة كل البطء، كانت تتعفن وسط عصيرها. لم يكن ثمة ذرة هواء تتحرك حولنا، كان علينا أن نحاذي الشاطئ على مهل، حتى لكأننا نتقدم وسط ثقل من قصب السكر.

كانت السماء فوق إزار السفينة ثقلاً من قصب السكر أيضاً، لاشيء سوى لصقة سوداء ذائبة، كنت أسترق النظر إليها بلهفة، كانت العودة إلى الليل أمنيتي المفضلة، وحتى ناضحاً بالعرق ومتأوهاً، وفي أي حال مهما كان عسيراً، لم يكن فريميزون يكف عن رواية الحكايات عن نفسه. كان البر يبدو لي قريباً غاية القرب، ولكن خطة تملصي من هؤلاء السفلة كانت توحي لي بألف قلق.. وشيئاً فشيئاً تحولنا عن الحديث في الشؤون العسكرية لنخوض في أحاديث مرحة ماجنة، تحولت بعدئذ إلى هجر مقذع صريح ثم تهافتت الأحاديث فلم نعد نعرف من أين نبدأ ولا كيف ننتهي.

وأخيراً توقف ضيوفي، واحداً بعد الآخر، عن الحديث وناموا نوماً مقززاً يرهقهم الشخير ويكشط أعماق أنوفهم، لقد حانت اللحظة التي أختفي فيها عن أنظارهم، وإلا فلن تحين على الإطلاق. لا ينبغي أن نخلي السبيل لأحلام القسوة تلك، والتي فرضتها الطبيعة رغم كل شيء، على البنى العضوية الأعمق فساداً والأشد عدوانية في هذا العالم.

ألقينا المرساة الآن على مسافة صغيرة جداً من الشاطئ. لم نكن نلمح سوى بضعة مصابيح تهتز على امتداد الشاطئ.

وعلى طول السفينة تجمهرت مئة من الزوارق المصنوعة من الجذوع، جاءت مسرعة جداً مهتزة فوق الأمواج، محملة بزنوج عاري الصدور، اندفع هؤلاء السود إلى جميع الجسور يعرضون خدماتهم. وخلال ثوان قليلة هرعت

Twitter: @ketab_n

إلى جسر النزول حاملاً صرري القليلة التي جهزتها خلسة، وانسللت خلف واحد من أولئك النوتيين، متسربلاً بالظلمة، مخفياً ملامحي ومشيتي تماماً عن العيون. وفي أسفل الجسر، داخل الزورق، وعلى مستوى الماء الهادر بدأ القلق من المكان الذي أقصده يغزوني.

أين نحن؟ سألت أحد الظلال داخل الزورق.

ـ في بامبولا ـ فورت غونو، أجابني الظل

شرعنا نعوم بحرية وبضربات مجاديف قوية. كنت أساعد في التجديف كي نندفع بسرعة أكبر.

كان ما يزال لدي الوقت كي ألمح مرة أخرى، وأنا هارب، رفاق السفينة الخطرين، وعلى ضوء الفوانيس المعلقة على جسري السفينة رأيتهم يواصلون تخمرهم مسحوقين تحت ثقل البلادة والتهابات المعدة، ناخرين نخيراً عالياً خلال نومهم. وفيما هم شبعون مستغرقون كانوا متشابهين جميعاً في تلك اللحظة، ضباطاً وموظفين ومهندسين ونخاسين، متبثري الجلود، مخضوضرين، مختلطين، حتى كأنهم نسخ عن بعضهم تقريباً. فالكلاب خلال نومها، تشبه الذئاب.

وصلت إلى البر بعد لحظات، كان الليل أشد تلبداً تحت الأشجار. وخلف الليل كمنت جميع تواطؤات الصمت.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> في تلك المستعمرة التي تدعى بامبولا ــ براغامانس، كان الحاكم سيد الجميع الأوحد وصاحب الأمر والنهي. لا يكاد عسكريوه وموظفوه يجرؤون على التنفس إذا ما تنازل وخفض أبصاره إلى شخصهم.

يلي هؤلاء الأعيان في الرتبة التجار الذين كانوا يسرقون كما يبدو، ويجمعون أرباحاً عظيمة، بسهولة أكبر مما في أوروبا. ما من جوزة هند واحدة، ما من فولة سودانية فوق سائر أرض الإقليم كانت تفلت من نهبهم، كان الموظفون يدركون أنهم كلما كانوا يصبحون أشد غباء وأكثر مرضاً بحيث لا يعود يكترث بهم أحد، يُستقدمون إلى هنا كي لا يحصلوا إجمالاً إلا على الشارات والصياغات الكتابية التي يفرغونها على الورق، دون نقود تقريباً. كان هؤلاء ينظرون أيضاً إلى التجار بطمع، أما العنصر العسكري الأشد خبلاً من الفئتين الأخريين فكان ينتفخ بالأمجاد الاستعمارية، لكي يمرر مع هذا المجد الكثير من الكينين وكيلو مترات من النظم والقوانين.

كان الجميع يصبحون قساة عديمي الرحمة، هذا مفهوم. لطول انتظارهم انخفاض ميزان الحرارة الذي كان يزداد ارتفاعاً أكثر فأكثر، كانت الضغائن والعداوات الخاصة والعامة مستمرة دون انقطاع، غثة وخرقاء، بين العسكريين والإدارة، ثم بين هذه الأخيرة وبين التجار، ثم بين هؤلاء متحالفين، آنياً وبين أولئك، ثم بين جميع هؤلاء، وبين الزنوج، وأخيراً بين الزنوج، بعضهم مع بعض، وهكذا فإن الطاقات النادرة التي تفلت من قبضة الملاريا والعطش والشمس كانت تستهلك في الأحقاد المتأرثة بقوة، والمتأصلة بعمق، بحيث أن

Twitter: @ketab_n

كثيراً من المستوطنين كانوا يهلكون حيث هم، متسممين من تلقاء ذاتهم مثل العقارب.

غير أن هذه الفوضى البالغة السمّية كانت توجد كامنة داخل كادر البوليس المحكم الاغلاق، مثل سرطانات داخل سلة، كانوا يغتابون الموظفين عبثاً، وكان الحاكم يجند، من أجل إبقاء مستعمرته في طاعة رهبانية جميع الميليشيات التي هو بحاجة إليها، ومن ضمن أفرادها عدد من الزنوج المثقلين بالديون، والذين ألجأهم البؤس بالآلاف إلى الشاطئ، مهزومين في التجارة مع البيض، قادمين للبحث عن صحن حساء. كانوا يعلّمون هؤلاء المتطوعين قانون وطريقة الإعجاب بالحاكم، كان الحاكم يبدو وهو يتنزه بزيه المرصع بالذهب بأكمله، والشمس تسطع فوقه كائناً خارقاً، تكاد العين لا تصدق حين تراه. ناهيك عن الريش الذي يزينه.

كان الحاكم لا يشرب سوى الفيشي طوال العام، ولا يقرأ سوى الصحيفة الرسمية، وقد عاش عدد من الموظفين على أمل وحيد هو أن ينام هذا الحاكم ذات يوم مع زوجاتهم. ولكن الحاكم لم يكن يحب النساء، لم يكن يحب شيئاً، ومن خلال كل جائحة جديدة من جوائح الحمى الصفراء كان الحاكم ينجو من الموت، كما بفعل سحر، في حين أن عدداً من الذين يتمنون أن يدفنوه كانوا يهلكون مثل ذباب ما أن تبدأ الجائحة.

يذكرون هنا: أنه في أحد أعياد «الرابع عشر من تموز» بينما كان يمر أمام جنود مقر إقامته، يثب بفرسه وسط حراسه من الخيالة متقدماً وحده، حاملاً علماً كبيراً، إذا برقيب تهوسته الحمى، بلا ريب يلقي بنفسه أمام فرسه صائحاً بملء صوته «إلى الوراء يا ذا القرون الكبيرة» وقد بدا الحاكم متأثراً للغاية لهذا النوع من الاعتداء الذي ظل مع ذلك دون تفسير.

Twitter: @ketab_n

من الصعب رؤية الناس والأشياء بوضوح في البلدان المدارية، بسبب الألوان التي تنبجس منها. فالألوان والأشياء في فوران دائم. علبة سردين مفتوحة، ملقاة عند الظهر في عرض الطريق تصدر عدداً من الانعكاسات تبهر عين الناظر إليها وتخلب لبه، ولكن ينبغي الحذر هنا فليس في هذه البلدان سوى أشخاص مصابين بالهستريا، لذلك فإن الأشياء تتخذ صوراً عجيبة أمام أعينهم. قلما تصبح الحياة محمولة إلا بعد هبوط الليل. ولكن الظلام أيضاً يحتكره البعوض على الفور تقريباً، على هيئة أسراب. ليس بعوضة أو اثنتين أو مئة ولكن بالبلايين، والخروج بسلام من هذه الشروط يعد عملاً أصيلاً من أعمال الحفاظ على الذات. النهار كرنفال، والليل غربال صغير. حرب سرية صامته.

حينما يبدو لك الكوخ الذي تأوي إليه مؤاتياً تقريباً، ويعم فيه الهدوء أخيراً، يباشر دود الخشب عمله، منهمكاً إلى الأبد بالتهام دعائم كوخك، وتهب الزوبعة حينذاك داخل تلك الدانتيلا الغادرة، ويغمر الشوارع بكاملها سحاب كثيف من الضباب.

كانت مدينة فورت ـ غونو التي جنحت إليها، وهي العاصمة المؤقتة لبراغامانس، تقع بين البحر والغابة، ولكنها مجهزة ومزينة مع ذلك بكل ما يلزم من بنوك، ومواخير، ومقاهٍ، وأرصفة، وحتى مكتب للتجنيد ليجعلوا منها متروبولاً صغيراً دون أن أنسى حديقة فيدهيرب، وشارع بيجو، موئلي النزهة وانتصبت وسط صخور شاطئية خشنة عمارات حمراء زاهية محشوة بيرقانات الذباب والبعوض تغص بأجيال من التجار ورجال الإدارة المنزوعي الطحال.

Twitter: @ketab_n

عند الساعة الخامسة يبدأ العسكريون بالتذمر حول طاولات الشراب، فأسعار المشروبات الروحية، في الوقت الذي وصلت فيه كانت قد بلغت الذروة. ذهبت وفود من الزبائن إلى الحاكم تلتمس منه إصدار قرار يحظر على الحانات التحكم على هواها بأسعار الخمور والكشمش، وقد زعم بعض المدمنين أن استعمارنا قد غدا أكثر فأكثر صعب الاحتمال، بسبب ندرة قطع الثلج، فإدخال الثلج إلى المستعمرات صار ينظر إليه على أنه علامة على ضمور خصال الرجولة لدى المستوطن، وتعيّن منذ الآن على المستوطن الذي أدمن عادة تبريد شرابه بقطع الثلج أن يقلع عن هذه العادة، وأن يتغلب على قسوة المناخ برواقيته وحدها، لنلاحظ عرضاً أن روادنا العظام أمثال فيدهيرب وستانلي ومارشان لم يكونوا يفكرون إلا بالبيرة والخمر والماء الفاتر العكر التي ظلوا يشربونها طول سنين دون أي شكوى. كل شيء يكمن هنا. هاكم كيف أضاعوا مستعمراتهم!

عرفت أيضاً أشربة أخرى تؤخذ من أشجار النخيل التي كان يسيل منها بوفرة، في المقابل، نسغ ذو طاقة مهيجة، انتصبت على امتداد الشوارع ذات البيوت المتداعية، كانت فجاجة هذه الخضرة المستجدة تحول دون أن يصبح المكان أشبه بالغارين ـ بيرزون.

ما أن يحل الليل حتى يبلغ الإغواء الجنسي المحلي ذروة نشاطه. وتنقض نحوك سحائب البعوض الصغيرة المجدة والمكتظة بالحمى الصفراء. طوفان من العناصر السوداء يقدم للمنتزه كل ما كان تحت الوزرة من ثروات. كان من الممكن أن تضاجع عائلة بأكملها خلال ساعة أو ساعتين بأسعار زهيدة. كنت أتوق إلى الانتقال من فرج إلى فرج، ولكنني كنت في حاجة إلى أن أسعى للبحث عن مكان أجد فيه عملاً، كان مدير شركة

Twitter: @ketab_n

بوردورييير للكونغو الصغرى يبحث كما أكدوا لي عن موظف مبتدئ كي يوكل إليه وظيفة من وظائف الشركة في قلب الأدغال. ذهبت دون إبطاء لأعرض عليه، لا كفاءاتي ولكن خدماتي المستعجلة. لم يكن استقبال المدير لي حسناً. كان ذلك المهووس ــ ينبغي تسميته باسمه ــ يقيم غير بعيد عن دار الحاكم، في جناح فسيح مبني من القصب والقش. طرح علي بعض أسئلة خشنة جداً عن ماضيّ حتى قبل أن ينظر إلي، ثم هدأ قليلاً بعد أن استمع إلى أجوبتي الساذجة تماماً، واتخذ استخفافه لي مظهراً متسامحاً، غير أنه لم ير من المناسب أن يأذن لي بالجلوس.

«حسب أوراقك، لديك بعض الإلمام بالطب»؟ قال المدير. أجبته بأنني في الحقيقة أكملت بعض الدراسات في هذا المجال

«ذلك سيفيدك إذن، قال: هل تريد بعض الويسكي»

لم أكن أشرب: «هل ترغب بالتدخين؟» رفضت أيضاً. فاجأه هذا الزهد ومط شفتيه مستغرباً.

«لا أحب كثيراً الموظفين الذين لا يشربون، والذين لا يدخنون» هل أنت لوطي إذن؟.. لا.. هذا أسوأ! فهؤلاء الناس يسرقوننا أقل من غيرهم.. ذلك ما لاحظته بالتجربـــة.. إنهم يتعلقون..، أراد أن يتابـــع. ذلك بوجه عام ما أدلى به، كما بدالي، بخصوص خصلة اللوطيين، تلك الميزة.. لعلك ستثبت لي العكس..» ثم استرسل «أنت تشعر بالحر، أليس كذلك؟ ستشعر به، لا بد أن تشعر به مع ذلك! ورحلتك إلى هذه البلاد؟

ــ كريهة جداً، أجبته

ــ إيه حسن، يا صديقي، لم تر شيئاً بعد، ستروي لي أخبار البلد، بعد أن تمضي سنة في بيكو ميمبو، هناك حيث سأبعثك الآن لتحل محل ذلك المهرج الآخر..»

Twitter: @ketab_n

كانت زنجيته مقعية قرب الطاولة تقلب قدميها وتنظفهما بعود صغير من الخشب.

«انصرفي أيتها الفصيد، زجرها سيدها، اذهبي وابحثي لي عن الخادم، ثم عن الثلج أيضاً».

وصل الخادم المطلوب على مهل شديد، فنهض المدير حينذاك، محتداً واستقبل الخادم بزوج رهيب من الصفعات، وبركلتين مدويتين في أسفل البطن.

«هؤلاء الناس سيقضون علي، ولاشك، هذا كل ما في الأمر». تنبأ المدير بذلك وهو يتأوه. ثم ألقى بنفسه على أريكته المغطاة بقماش أصفر قذر ومتهدل.

«هيا يا عزيزي. قال المدير: وقد غدا فجأة لطيفاً وأليفا، كما لو أنه تخلى عن فظاظته التي أظهرها تجاهي، ضع لي سوطي إذن وحبات الكينين على الطاولة.. لا ينبغي أن نحتدم هكذا. من الحماقة الانسياق وراء الغضب».

كنا نطل من منزله على الجسر النهري الذي كان يلتمع في الأسفل عبر غبار كثيف، كنا، لفرط تراص ذرات الغبار نسمع أصوات حركته الارتجاجية أكثر مما نميز التفاصيل، أرتال من الزنوج، فوق الشاطئ يكدون، تحت لسع السياط، يفرغون، أنباراً بعد أنبار، من سفن لا تفرغ أبداً، يتسلقون عبّارات مهتزة رقيقة، يحملون سلالهم الضخمة المملوءة فوق رؤوسهم، بتوازن بالغ تحت وابل من الشتائم، نوع من نمال عمودية.

كانوا في ذهاب وإياب متواصل، أشبه بحبات مسابح متقطعة، عبر بخار قرمزي، بعض تلك الأشكال الكادحة كان يحمل بالإضافة إلى ذلك نقطة سوداء صغيرة فوق ظهره، أولئك هن الأمهات اللواتي كن يتسكعن هن أيضاً،

Twitter: @ketab_n

حاملات سلالاً من النخيل الكرنبي، مع أولادهن، كأحمال إضافية، كنت أسأل نفسي إن كان النمل يستطيع أن يفعل مثل ذلك.

«ألا ترى بأن كل الأيام هنا يوم أحد؟ تابع المدير كلامه مازحاً، ذلك مبهج، ذلك متألق. الإناث دائماً عاريات، هل لاحظت؟ ويا لهن من إناث جميلات، أليس كذلك؟ يتسلى المرء. هنا حينما يأتي من باريس، أليس صحيحاً؟ ونحن الأوربيين إذن؟ دوماً، داخل نسيج أبيض محبك.. كأننا في حمامات البحر كما ترى.. لسنا جميلين هكذا؟ مثل مقدمي القربان. العيد متواصل هنا: أقول لك! ١٥ اب حقيقي! والحال ذاته حتى الصحراء الكبرى! تصور!»

ثم توقف عن الكلام تنهد، ودمدم، وكرر مرتين أو ثلاث مرات «خراء». ومسح عرقه، وواصل المحادثة.

«هناك في الريف حيث تذهب لاشيء سوى الغابة، لاشيء سوى الرطوبة.. على بعد عشرة أيام من هنا.. البحر في البداية... ثم النهر. نهر شديد الاحمرار كما سترى.. ومن الجهة الأخرى الاسبنيوليون.. أما ذاك الذي ستحلّ محله في مخزن الشركة فهو وغد كبير، لا تنس ذلك.. الكلام بيني وبينك.. أقول لك.. ليس هناك من سبيل لدفعه إلى أن يقدم لنا حساباته، ذلك النذل! ما من وسيلة، أرسلت له عبثاً دعوات ودعوات!.. لا يبقى الإنسان شريفاً زمناً طويلاً حين يكون وحده، هيا! سترى! سترى ذلك أنت أيضاً!.. كتب لنا بأنه مريض.. أتمنى ذلك من كل قلبي! مريض! وأنا أيضاً مريض! ما الذي يعنيه بأنه مريض؟ نحن جميعاً مرضى! أنت أيضاً ستكون مريضاً. وليس بعد زمن طويل، قبل أن تبدأ البيع! ليس ذلك سبباً. لا أحد يكترث إن كان مريضاً أو لم يكن... الريف أولاً! حين تصل إلى هناك ضع قائمة جرد

Twitter: @ketab_n

بالمواد الغذائية على الأخص. هناك مؤن لثلاثة أشهر في المخزن، وبضائع أخرى لسنة على الأقل.. لن ينقصك شيء.. لا ترحل في الليل، بوجه الخصوص.. وكن على حذر! لا تأمن لزنوجه الذين سيرسلهم ليرافقوك من البحر، سيغرقونك ربما في الماء، لقد دربهم ولا شك.. إنهم أيضاً أنذال مثله، من المؤكد أنه ألقى في آذان زنوجه كلمتين بشأنك!... احذر من الآن.. خذ الكينين أيضاً معك، كينينك، مخصصك من الكينين، قبل أن ترحل، فهو لايتورع عن أن يضع شيئاً ما في كينينه كي يقتلك!».

مل المدير من إلقاء النصائح، ونهض كي يأذن لي بالانصراف. كان السقف الذي يظللنا، والمصنوع من صفائح فولاذية يزن كما بدا لي أكثر من ألفي طن على الأقل. كانت صفائحه تحتفظ لنا بكل لهيب الحر، وارتسمت على وجهينا كلينا تقطيبة، بسبب ما نالنا من الحر. كان الجو قاتلاً دون إمهال. أضاف المدير.

«ليس ثمة حاجة أن نرى بعضنا مرة أخرى قبل سفرك يا باردامو، اللقاء هنا متعب جداً. وأخيراً ربما سأشرف على أوضاعك، مع ذلك، في المستودعات، قبل سفرك. وسأكتب إليك حينما تكون هناك.. ثمة بريد كل شهر. ينطلق من هنا. هيا حظاً سعيداً..»

اختفى المدير في ظله بين قبعته وسترته. كنت أرى بوضوح أوتار عضلات رقبته من الخلف محدبة مثل إصبعين يسندان رأسه، ثم عاد أيضاً مرة أخرى:

«قل لمرقم اثنين أن ينزل إلى هنا بسرعة.. لدي كلمتان أقولهما له.. أن لا يضيع وقته على الطريق.. آه! للحصان العجوز. ينبغي أن لا يهلك في الطريق على الأخص.. سيكون ذلك خسارة.. خسارة كبيرة. آه، الوغد الكبير!».

Twitter: @ketab_n

تقدمني أحد خدمه من الفتيان الزنوج بفانوسه الكبير،ليقودني إلى المكان الذي كان علي أن أبيت فيه قبل رحيلي إلى بيكوميمبو اللطيفة الموعودة تلك. سرنا في دروب صغيرة، بدا لي أن جميع من في المدينة قد نزلوا للتنزه فيها بعد الغسق. كان الليل يلف بظلامه كل شيء على إيقاع الصنوج، تقطعه بين الفينة والفينة أصوات أغنيات قصيرة مفككة أشبه بالفواق. كان ذلك هو الليل الحالك الهائل للبلاد الحارة، بقلبه الوحشي الذي يضج بقرع طبول التام تام المتلاحقة بسرعة هائلة.

كان دليلي ينسل بمرونة بين جماعات المتسكعين، بأقدامه العارية. كان ثمة أوروبيون قابعون بين أجمات الشجر، تتناهى إلي أصواتهم قادمة من هناك، وهي تجوب المكان. أصوات البيض المميزة العدوانية المزيفة.. كانت الوطاويط تحوم دون انقطاع، شاقة طريقها بين أسراب الحشرات التي كان ضوء فانوسنا يجتذبها إلينا. وتحت كل ورقة من أوراق الأشجار كان يختبئ دون ريب جدجد على الأقل حتى لتظن وأنت تسمع صريره المصم بأن جداجد الكون تصر كلها مجتمعة.

عند تقاطع طريقين، في منتصف أكمة، أوقفنا مجموعة من الجنود المتطوعين الزنوج، كانوا يتناقشون بالقرب من نعش مسجى َعلى الأرض، مغطى بعلم عريض متموج بالعديد من الألوان.

كان هذا واحداً من الذين ماتوا في المستشفى. لم يكونوا يعرفون أين يدفنونه، كانت الأوامر غامضة. كان البعض منهم يريد أن يدفنه في أحد الحقول القريبة المنخفضة، بينما أصر آخرون على دفنه في أرض مسورة مرتفعة قريبة من الشاطئ. كان ينبغي أن يتفقوا. وهكذا تدخلنا أنا والخادم الزنجي في الأمر.

Twitter: @ketab_n

قرروا أخيراً أن يحملوه إلى المقبرة القريبة المنخفضة بدلاً من دفنه في أعلى الشاطئ، بسبب سهولة النزول. التقينا أيضاً في طريقنا بثلاثة من الفتيان البيض اليافعين من عرق أولئك الذين يترددون أيام الآحاد على مباريات الركبي في أوروبا، متفرجين مهووسين عدوانيين، شاحبي الوجوه. كانوا ينتمون هنا، بصفتهم موظفين مثلي، إلى شركة بوردوريير. وقد دلوني بلطف على طريق ذلك المنزل غير المكتمل والذي يوجد فيه، بنحو مؤقت سريري القابل بسهولة للفك والحمل.

ذهبنا إلى ذلك المنزل. كان مسكناً خاوياً من كل شيء، ما عدا بعض المواعين في المطبخ، وذلك النوع من السرير الذي سأنام فيه. ما إن استلقيت فوق ذلك الشيء الخيطي الشكل والمهتز حتى خرج عشرون وطواطاً من زواياه، واندفعت إلى الممرات ثم عادت مصوتة مثل عدد من صفقات المراوح فوق استراحتي المذعورة.

عاد الزنجي الصغير إلي كي يقدم خدماته الشخصية الحميمة ولما أن رآني في وضع سيئ ذلك المساء عرض علي خائباً أن يقدم لي أخته، كان لدي فضول لمعرفة كيف كان بوسعه أن يعثر على أخته في مثل ذلك الليل.

قرع طبول التام تام القريب جداً كان يفتتك على الفور، إلى قطع صغيرة من الصبر. واستولت ألف بعوضة مثابرة على فخذي. ولم أعد أجرؤ مع ذلك على وضع إحدى قدمي على الأرض خوفاً من العقارب والأفاعي السامة التي كنت أفترض أنها قد بدأت صيدها الكريه. كانت الأفاعي تفضل الجرذان. كنت أسمعها وهي تقضم فرائسها من الجرذان، كنت أسمعها في الجدار. وفوق الأرض الخشبية المرتجة وداخل السقف.

Twitter: @ketab_n

طلع القمر أخيراً وشمل الغرفة بعض الهدوء. لم أكن الآن، بوجه الإجمال، في المستعمرات.

جاء الغد مع ذلك. أشبه بالمرجل، واستبدت بي رغبة جارفة بالعودة إلى أوروبا. استولت علي جسداً وروحاً. لم يكن ينقصني سوى النقود كي أولي الفرار. حسبي كل ما لاقيته. لم يكن قد بقي لي من جهة أخرى أكثر من أسبوع أقضيه في فورت غونو قبل الالتحاق بوظيفتي في بيكو ميمبو.

أكبر بناء في فورت غونو، بعد قصر الحاكم كان بناء المستشفى. كنت أعثر عليه أينما ذهبت، معترضاً طريقي. لم أكن أمشي مئة مترفي المدينة دون أن اصطدم بجناح من أجنحته، تفوح منه إلى مسافة بعيدة، أبخرة حمض الفينيك. كنت أجازف بين وقت وآخر في الذهاب إلى أرصفة الشحن لرؤية زملائي الصغار المصابين بالأنيميا وهم يعملون هناك لصالح شركة بوردوريير التي كانت تتزود بهم من فرنسا تحت رعايتها الكاملة. كان ثمة تعجل نزق يتملكهم، كما يبدو وهم يفرغون ويملؤون من جديد سفن شحن واحدة بعد الأخرى «ستخسر الشركة كثيراً ان تأخرت السفينة في المرسى» كانوا يرددون ذلك، حزينين بصدق، كما لو كان الأمر يتعلق بأموالهم هم.

كانوا يضايقون الحمالين السود بهياج مسعور، كانوا متحمسين دونما شك، ولكنهم كانوا جبناء أيضاً وخبيثين، بقدر ما كانوا متحمسين. موظفون من ذهب في المحصلة. منتقون بدقة، مولعون بأرباب عملهم مسلحون بلا شعور يصنع لهم الأحلام بحماسة. أبناء كانت أمي تهيم في أن يكون لها أبناء مثلهم. ابناً لها وحدها، وابناً تستطيع أن تفخر به أمام العالم، وابناً شرعياً بالكامل.

جاؤوا إلى أفريقيا المدارية، هؤلاء المستخدمون الصغار ليقدموا لها لحومهم، لأرباب عملهم، ليقدموا دمهم، وحياتهم وشبابهم، شهداء من أجل

Twitter: @ketab_n

اثنين وعشرين فرنكاً في اليوم (مع طرح الحسومات)، مسرورين، بالرغم من ذلك، مسرورين حتى آخر كرية حمراء، تترصدها البعوضة العشرة ملايين.

تجعلهم المستوطنة بدينين أو ضامرين، هؤلاء الموظفون الصغار، ولكنها تحتفظ بهم، ليس ثمة سوى طريقين للهلاك تحت الشمس، طريق البدانة أو طريق النحول، وما من طريق آخر إطلاقاً. يمكنك أن تختار، ولكن ذلك يتعلق بالطبائع. أن تغدو سميناً، أو أن ينشق جلدك عن عظامك.

مدير الشركة، هناك في الأعلى، فوق الصخور الشاطئية الحمراء، والذي يتحرك مثل شيطان مع زنجيته، تحت سقف من صفائح الحديد يعادل ستة عشر ألف كيلو غرام من الشمس، لم يفلت هو أيضاً من الاستحقاق. إنه من النوع الضامر. كان يتخبط حسب. ويبدو كما لو أنه يسيطر على المناخ ظاهرياً، ولكنه في الواقع، كان يتفتت أيضاً أكثر من الآخرين جميعهم.

يزعمون أنه كان يملك خطة رائعة لاختلاس الشركة، كي يجمع ثروة خلال سنتين، غير أنه لن يملك الوقت الكافي كي ينفذ خطته، حتى لو دأب على غش الشركة نهاراً وليلاً. اثنان وعشرون مديراً قبله، حاولوا أن يجمعوا ثروة، كل واحد منهم بخطته، مثلما في لعبة الروليت، ولكن ذلك كان معروفاً جيداً من المساهمين الذين كانوا يراقبونه من أسفل ومن أعلى المواقع أيضاً، في شارع مونسي في باريس، وكان يجعلهم يبتسمون، كل ذلك كان صبيانياً، كان المساهمون أيضاً، أكبر قطاع الطرق على الأرض يعلمون أن مديرهم كان مصاباً بالسفلس، وأنه يتقلب تحت شموسه المدارية، ويلتهم الكينين والبزموت حتى يفجر طبلتي أذنيه، والزرنيخ حتى تتساقط لثته.

أثناء المحاسبة العامة للشركة كانت الشهور معدودة على المدير، ومعدودة مثل شهور خنزير.

Twitter: @ketab_n

لم يكن زملائي يتبادلون قط فيما بينهم أية أفكار. لاشيء سوى عبارات محددة مطبوخة ومعادة الطبخ، على غرار قوالب جامدة. «لا ضرورة للقلق» يقول زملائي «سننال منهم» «الوكيل العام زوج مخدوع..» «علينا أن نفصّل من جلود الزنوج أكياس تبغ».

عند المساء، كنا نجد أنفسنا على طاولة الشراب، عناصر السخرات الأخيرة، مع مساعد وكيل الإدارة الذي كان يدعى السيد تانديرو، وهو في الأصل من روشيل. إذا ما كان تانديرو هذا يختلط بالتجار، فذلك فقط كي يدفعوا عنه ثمن الشراب، من دون شك. سقوط مريع. لم يكن تانديرو يملك أية نقود، كان موقعه الوظيفي في أدنى سلم المراتب الاستعمارية. وقد تكوّن عمله من الإشراف على بناء الطرق في قلب الغابات، كان السكان المحليون يعملون معه في أعمال الطرق تحت هراوة ميليشياته بالطبع، ولكن لما كان أي واحد من البيض لا يسلك تلك الطرق الجديدة التي يشقها تانديرنو، وكان السود، من جهة أخرى يفضلون عليها ممراتهم داخل الغابة، حتى لا تقع عليهم، أنظار البيض إلا بأقل حد ممكن، بسبب الضرائب التي يفرضونها عليهم وكانت طرق الادارة في الواقع لا تفضي، في أي مكان إلى طرق تانديرنو، فقد كانت هذه الطرق حينئذ تختفي تحت النباتات التي تنمو بسرعة عظيمة من شهر إلى آخر.

«فقدت من هذه الطرق، في العام الماضي ١٢٢ كم. كان هذا الرائد الخرافي يذكرنا بطيبة خاطر بموضوع طرقه، صدقوني إن شئتم!..».

لم أكن أصدق من تبجحاته، خلال إقامتي سوى واحد منها، يزهو به تانديرو بابتذال، وهو أنه كان الأوروبي الوحيد الذي يمكنه أن يلتقط الزكام في براغامانس في درجة حرارة تبلغ ٤٤ في الظل.. هذا التفرد كان يعزيه في كثير من الأشياء.. «لم أزل مزكوماً مثل بقرة، كان يصرح بذلك، بقدر

Twitter: @ketab_n

كبير من التباهي على طاولة الشراب.. ليس ثمة أحد سواي يصيبه مثل هذا!
ـ «هذا التانديرو، ياله من نمط مع ذلك!..» هكذا كان يهتف حينئذ أعضاء مجموعتنا البائسة. مثل هذا التعويض كان أفضل من لاشيء، فأي شيء يدغدغ الغرور، أفضل من عدمه.

ثمة تسلية أخرى تتسلى بها مجموعة الأجراء الصغار في شركة بودورييير. تتكون من تنظيم مباريات للحمى، لم يكن ذلك صعباً، ولكنهم كانوا يتحدّون بعضهم بعضاً في هذه المباريات طوال أيام، كانت المباريات تدوم وقتاً لا بأس به، فحين يأتي المساء تأتي معه الحمى بصورة يومية تقريباً، حينذاك كانوا يقيسون درجة حرارتهم: «عندي ثلاث وثلاثون درجة!».

- هيا إذن، لا تقلق، عندي أنا أربعون درجة. كما أردت»

هذه النتائج، مع ذلك كانت مضبوطة ومنتظمة كلياً. كانوا يقارنون بين موازين الحرارة على ضوء مصباح المناجم، وكان الفائز يغتبط وهو يرتعد «لم يعد بإمكاني أن أتبول لفرط ما أتعرق» يعلق بصدق أكثرهم نحولاً، وهو زميل رقيق العود، من منطقة الأرييج، كان هو الفائز بين المحمومين، قدم إلى هنا، كما أفضى لي، هرباً من المدرسة الاكليركية التي «لم يكن ينعم فيها بحرية كافية»، ولكن الوقت كان يمضي، وما من أحد من هؤلاء الرفاق أو أولئك كان بمقدوره أن يقول لي إلى أي نوع فريد كان ينتمي ذلك الشخص الذي كنت على وشك أن أحلّ محله في بيكو ميمبو.

«إنه شخص غريب الأطوار» ذلك ما كانوا يخبرونني به، وهذا كل شيء.

« في بداية وجودك في المستعمرة، نصحني الأرييجي الصغير، وهو يتقلب تحت وطأة حمى شديدة، عليك أن تظهر مزاياك، إما أن تكون هذا أو

Twitter: @ketab_n

تكون ذاك، ستكون من الذهب الخالص بالنسبة إلى المدير أو من الزبل الخالص، وهو سيحكم بشأنك على الفور، انتبه إلى ذلك.

كنت أخشى كثيراً أن يصنفني المدير بين الذين هم من «الزبل الخالص» أو أسوأ أيضاً.

هؤلاء النخاسون الفتيان من رفاقي، اصطحبوني لزيارة زميل آخر في شركة بوردوريير يستحق أن آتي على ذكره بصورة خاصة في هذه القصة، مدير مكتب للصرافة في وسط الحي الأوروبي، متعفن من شدة الإعياء، مهدود مزّيت. كان يرتاع من أي ضوء، بسبب عينيه، فقد جعلهما عامان من العمل المتواصل تحت صفائح السقوف المعدنية المتموجة يابستين، على نحو فظيع.

كان يفتحهما، كما يقول، نصف ساعة في الصباح، ويمضي نصف ساعة أخرى قبل أن يبصر بهما أي شيء، بقليل من الوضوح. كان أي شعاع ساطع يجرحهما. خلد ضخم أجرب تماماً.

الاختناق والتوجع أصبحا بالنسبة إليه طبيعة ثانية، والاختلاس أيضاً. كانوا يثيرون اضطرابه الشديد إذا ما حاولوا علاجه وتخفيف أوجاعه. ويتوسوس دفعة واحدة.. مقته الشديد للمدير ما يزال يبدو لي اليوم، وبعد مضي زمن طويل، واحداً من أشد الأهواء التي أتيح لي أن أراها، تأصلاً ورسوخاً لدى إنسان من البشر، حقد حاد مدهش كان يهز كيانه، عبر أوجاعه، ولدى أصغر مناسبة كان يهيج بشدة، حاكاً جلده بالإضافة إلى ذلك، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

لم يكن يتوقف عن الحك في كل أنحاء جسمه على نحو دوراني، من نهاية عموده الفقري حتى منبت رقبته. كان يحزز بشرته وأدمته أيضاً حزوزاً عميقة

Twitter: @ketab_n

بأظافره الدامية، دون أن يتوقف لحظة، بسبب ذلك عن خدمة زبائنه العديدين الذين كانوا من الزنوج دائماً تقريباً، والعراة أكثر أو أقل، بيده الحرة، كان يغوص حينئذ بيده هذه بانهماك شديد في مخابئ شتى، ذات اليمين وذات اليسار، وسط دياجير حانوته، ويخرجها من المخبأ دون أن يتوه أو يخطئ على الإطلاق، مهتدياً بكل حذق وسرعة، وبدقة متناهية إلى ما كان يحتاجه الزبون من تبغ فاحت عفونته عساليجه، وعلب ثقاب رطب، وعلب سردين، ودبس شوندر بالملعقة الكبيرة، وجعة مفرطة الكحول، في زجاجات مزيفة، كان يتركها تسقط فجأة إذا ما استحوذ عليه سعار الحك من جديد في الأعماق القصيّة من بنطاله مثلاً، فكان يغوص بكامل ذراعه حينئذ، ثم يخرجها بعد وقت قليل من فتحة البنطال التي كان يتركها دائماً مفتوحة من قبيل الاحتياط.

هذا المرض الذي كان يقرض جلده، كان قد أعطاه هو اسماً محلياً «كوروكورو»، ذلك «الكوروكورو» اللعين.. «حينما أفكر بأن هذا المدير القذر لم يصب أيضاً بالكوروكورو، يقول محتداً، فإن ذلك يزيد المغص في بطني أكثر فأكثر، إنه لن يتحمل الكوروكورو على الإطلاق!.. فهو متعفن إلى أقصى حد. ليس إنساناً ذلك القواد! إنه قذارة! إنه خراء حقيقي!..»

وينفجر الجمع من حوله في مزاح ضاحك، والزبائن الزنوج أيضاً، على سبيل المنافسة. كان يخافنا قليلاً ذلك الرفيق، كان له مع ذلك صديق، مخلوق صغير مبهور الأنفاس شاحب الوجه يقود شاحنة من شاحنات شركة بوردوريير، وقد حمل إلينا قطعاً من الثلج مسروقة بالطبع، من هنا وهناك من المراكب الراسية على الرصيف.

دققنا أقداحنا نخب صحته، حول طاولة مكتبه، وسط الزبائن السود الذين كان يسيل لعابهم حسداً. كان هؤلاء زبائن بلديين وقحين بما يكفي

Twitter: @ketab_n

ليتجرؤوا ويقتربوا منا نحن البيض. إنه اصطفاء في المحصلة! أما الزنوج الآخرون الأقل جرأة فقد فضلوا البقاء على مسافة منا. إنها الغريزة. غير أن الأكثر حذقاً من بينهم والأشد فساداً فقد غدوا موظفين في المخزن. كنا نميز الموظفين الزنوج حينما كانوا يشتمون الزنوج الآخرين بشغف بالغ، كان رفيقنا المصاب بالكوروكورو يشتري المطاط الخام المحتلب من الأشجار يحمله إليه الزنوج من الأدغال في أكياس أو على شكل كرات لزجة.

بينما كنا جالسين عنده لا نمل من الاستماع اليه إذا بعائلة من جناة المطاط جاءت، ووقفت جافلة على عتبة الباب. الأب في المقدمة. متجعد الوجه، ملتفاً بوزرة برتقالية صغيرة، وفأسه الطويل يصل إلى نهاية ذراعه.

لم يجرؤ الهمجي على الدخول، كان أحد الموظفين الزنوج يدعوه إلى الدخول، مع ذلك «تعال يا.... همجي تعال وانظر هنا، نحن لا نأكل الهمج هنا!» انتهت هذه الخطبة إلى إقناع العائلة، فدخلوا الكوخ اللاهب الذي كان رجلنا صاحب الكوروكورو يهوج ويموج داخله.

لم يكن هذا الأسود كما يبدو قد شاهد بعد مخزناً على الإطلاق، ولا رجالاً بيضاً ربما. كانت إحدى نسائه تتبعه خافضة أنظارها، وهي تحمل على قمة رأسها بتوازن فريد، السلة الضخمة المملوءة بالمطاط الخام.

من دون استشارة المرأة استولى الموظفون الزنوج المجندون في المخزن على سلتها، كي يزنوا محتواها على الميزان. لم يكن المتوحش يفهم طريقة الميزان أكثر مما يفهم باقي الأمور، ولم تجرؤ المرأة قط على أن ترفع نظرها، كان بقية الزنوج الآخرين من أفراد العائلة ينتظرون في الخارج. بعيون جاحظة، أدخلوهم أيضاً. بمن فيهم الأطفال، كي لا يضيعوا أي شيء من المشهد.

Twitter: @ketab_n

كانت تلك هي المرة الأولى التي يجيئون فيها، على هذا النحو، من الغابة، كلهم مجتمعين، إلى البيض في المدينة. لا بد أنهم جميعاً قد بدؤوا الجني منذ زمن طويل جداً حتى جمعوا هذا القدر من الكاوتشوك. كانت ثمرة أتعابهم إذن، وبالضرورة تهمهم جميعاً. كان الكاوشوك الخام يسيل ببطء شديد في قواديس صغيرة، تعلق على جذوع الأشجار. حتى أن قدحاً صغيراً لم يكن يمتلئ في أقل من شهرين اثنين غالباً.

انتهى الوزن، وقاد صديقنا الحكاك الأب، مذهولاً، خلف مكتبه وأجرى له حسابه، ثم أغلق قبضة يده على بضع قطع من النقود، ثم: «هيا انصرف، قال له، هذا هو حسابك!..»

جميع الأصدقاء الصغار البيض كانوا يتلوون من الضحك، لفرط نجاح صديقهم في إدارة عمله، بقي الزنجي جامداً أمام المكتب، مرتبكاً غاية الارتباك بوزرته البرتقالية الملفوفة حول عضوه.

«أنت! هيه! ألا تعرف النقود؟ همجي، إذن؟ سأله كي يوقظه من ذهوله واحد من موظفينا المحنكين المعتادين على هذه المواقف والمدربين جيداً، من دون شك على هذه الصفقات التجارية الحاسمة. أنت، ألا تتكلم الفرنسية، قل؟ أنت غول أيضاً، أليس كذلك؟ أي لغة تتكلم ماذا؟ الكوكو؟ المابيليا؟ أنت أبله، باهمان! أبله حقيقي!»

ولكن الهمجي ظل واقفاً أمامنا مغلقاً يده على قطع النقود. لاشك أنه كان سيولي الفرار لو جرؤ على ذلك. ولكنه لم يكن يجرؤ.

«هل تشتري إذن شيئاً بنقودك؟ تدخل «الحكاك» في الوقت المناسب. أنا لم أر قط مغفلاً مثله، منذ زمن طويل جداً. أراد الحكاك أن يدلي بملاحظاته أيضاً. لابد أنه جاء من مكان بعيد! ما الذي تريد؟ أعطني النقود!».

Twitter: @ketab_n

استعاد المال منه بالقوة، وبدلاً من قطع النقود، دعك له في قعر يده منديلاً كبيراً فاقع الخضرة، سحبه بمهارة من أحد مخابئ الحانوت.

تردد الأب في الانصراف بهذا المنديل، وهنا تصرف الحكاك تصرفاً أكثر براعة أيضاً. كان يجيد قطعاً، كل الفنون التجارية التي تغري أمثال هؤلاء الزبائن. حرك أمام عيني أصغر الأطفال السود سناً القطعة الخضراء الكبيرة من الايتامين الرقيق: «ألا تجده جميلاً أنت، أيها الصبي؟ هل رأيت مثل هذا المنديل يا صغيري الظريف قل يا قذري الصغير، قل يا قصيدي الصغير؟» ثم عقده حول عنقه بالقوة، مسألة لباس.

كانت العائلة الهمجية تتأمل الآن الصغير المزين بهذا الشيء العظيم من النسيج القطني الأخضر. لم يعد بوسعها أن تفعل أي شيء ما دام المنديل قد دخل العائلة. لم يعد عليها سوى أن تقبل به. أخذته وانصرفت.

بدأ الجميع إذن يتراجعون بهدوء، عبروا الباب، وفي اللحظة التي استدار فيها الأب إلى الخلف، ليقول شيئاً ما، حثه على السير الموظف الزنجي الأكثر تعهراً والذي كان لديه حذاء في قدمه، بركلة قوية وسط البتيه.

تجمع سائر أفراد العائلة الصغيرة، صامتين في الجانب الآخر من شارع فيدهيرب، تحت شجرة منغوليا، ينظرون إلينا ونحن ننهي شرابنا، كانوا يحاولون، كما يبدو أن يفهموا ما الذي كان قد حدث لهم.

ذلكم كان رجل «الكوروكورو» الذي أولم لنا. كان قد شغل لنا فونوغرافه أيضاً، كل شيء كان موجوداً في مخزنه. وهو ما ذكرني بمواكب الحرب.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> في خدمة شركة بوردورييبر في توغو الصغرى كان يعمل معي إذن، خلال ذلك الوقت. في عنابرها، وداخل مزارعها عدد كبير من الزنوج ومن البيض الصغار من أمثالي، أما الزنوج فقلما كانوا يعملون، بوجه الإجمال، إلا تحت ضربات الهراوة. كانوا يحتفظون لأنفسهم بهذا الشرف، في حين كان البيض المهذبون والمتحضرون جداً، بفضل تعليمهم الرسمي، يعملون وحدهم دون تدخل من أحد.

تتعب الهراوة في النهاية من يستعملها، في حين أن الأمل الذي كان، يتزقمه البيض، بأن يصبحوا أقوياء وأثرياء لا يكلف شيئاً، أي شيء. لم يعد بمقدور فراعنة مصر ولا طغاة التتار أن يباهوا علينا في شيء، لم يكن هؤلاء القدامى الهواة سوى مضاربين مدّعين في الفن الأعظم، فنّ جعل البهيمة المنتصبة على قدمين تقدم جهدها الأقصى في العمل. لم يكن يعرف أولئك البدائيون، أن يخاطبوا العبد بكلمة «مسيو»، ولا أن يأخذوه إلى صناديق الاقتراع، من وقت إلى آخر، ولا أن يدفعوا له أجراً يومياً، ولا أن يقحموه، على الأخص، في الحرب حتى يجعلوه ينفّس أهواءه وانفعالاته. إنّ مسيحياً، عمر مسيحيته عشرون قرناً، لا يتمالك نفسه قط حين يمر من أمامه فوج من الجنود، مثلما حدث لي في ساحة كليشي.. لأن ذلك يجعل كثيراً من الأفكار تنبجس في رأسه.

قررت، فيما يخصني، أن أحافظ على نفسي منذ الآن إلى أبعد حد، وأن ألوذ بالصمت والكتمان بكل دقة، وأن أخفي رغبتي بالفرار، وأن أفلح في

Twitter: @ketab_n

النهاية، ما وسعني ذلك، في تحسين أوضاعي، على الرغم من كل شيء خلال الخدمة في شركة بوردوربيير. ما من دقيقة ينبغي أن تضيع.

على امتداد مستودعاتنا، وعند مستوى الشواطئ الموحلة، كانت تقيم، مجموعات من التماسيح الماكرة والدائمة في مكامن لها، تستمتع بتلك الحرارة الهذيانية، ومثلها الزنوج أيضاً، كما يبدو.

في ذروة الظهيرة يتساءل المرء إن كان من الممكن حدوث كل هذا الهياج الذي تمور فيه تلك الجموع المكدة من الزنوج، على امتداد الأرصفة، هذا الاضطراب الذي يعيشه الزنوج المهتاجون الناعقون.

بصدد تدريبي على ترقيم الأكياس قبل أن أتوجه إلى الأدغال، كان علي أن أتدرب أيضاً على الاختناق بالتدريج داخل العنبر الرئيسي للشركة، مع الموظفين الآخرين بين ميزانين ضخمين، مثبتين وسط ذلك الحشد القاعدي من الزنوج، بأسمالهم الرثة، وجلودهم المغطاة بالبثور والدمامل، وغنائهم المتواصل. كل واحد منهم كان يجر وراءه سحابته الصغيرة من الغبار، يهزها بإيقاع، وفوق تلك الظهور الرائعة كانت تهوي هراوة مأموري النقل بضربات مكتومة الصوت، دون أن تثير أي احتجاج أو شكوى... سلبية بشر مذهولين عن أنفسهم، يتحملون الألم بالبساطة التي يتحملون بها القيظ اللاهب المنبعث من ذلك الفرن المعفر بالغبار.

كان المدير يمر على العنابر، من وقت إلى آخر، عدوانياً على الدوام، كي يتأكد بنفسه من أنني كنت أحرز تقدماً حقيقياً في آلية الترقيم وفي الوزنات المغشوشة.

كان يشق طريقه حتى الموازين عبر أمواج الزنوج الصاخبة بضربات قوية من هرواته: «باردامو، قال لي ذات صباح مفعماً بالحميا. هؤلاء الزنوج الذين

Twitter: @ketab_n

حولنا؟ أنت تراهم، أليس كذلك؟ إيه حسناً حينما وصلت إلى توغو الصغرى كان لي من العمر ثلاثون عاماً. كانوا ما يزالون يعيشون على صيد الحيوانات البرية وصيد السمك والمذابح فيما بينهم، هؤلاء السفلة... بدأت حياتي هنا، وكيلاً تجارياً صغيراً. كنت أراهم، مثلما أراك الآن، يعودون إلى قراهم بعد ظفرهم بأعدائهم، يحملون أكثر من مئة سلة من اللحم البشري النازف بغزارة كي يأكلوها بشراهة، أنت تسمعني يا باردامو! النازف بغزارة.. لحم أعدائهم، حتى لتقول إنها وليمة الميلاد.. أما الآن فلم يعد ثمة انتصارات. فنحن هنا، لم يعد ثمة قبائل، ولا بهارج أو تعاظمات. بل أيد عاملة وفول سوداني، هيا إلى العمل! لم يعد ثمة صيد، ولا بنادق، بل فول سوداني، وكاوتشوك.. كي يسددوا الضرائب، ضرائب من أجل أن يجلبوا لنا مزيداً من الكاوتشوك والفول السوداني. تلك هي الحياة يا بارودامو فول سوداني، فول سوداني وكاوتشوك، ومن ثم تباً، ها هو الجنرال تومبا قادم إلينا.»

كان هذا قادماً في الواقع للقائنا. عجوز متهدم تحت وطأة الشمس الثقيلة.

لم يعد الجنرال تومبا عسكرياً، ولا مدنياً أيضاً. كان يقدم خدماته، معتمداً من «بوردوريير» كحلقة وصل بين الادارة وبين القطاع التجاري، حلقة وصل ضرورية، على الرغم من أن هذين القطاعين كانا في تنافس دائم، وفي حالة من العداء المستمر. ولكن الجنرال تومبا كان يناور بنحو مثير للإعجاب. لقد خرج بجلده مع آخرين من عملية بيع قذرة حديثة العهد، لبضائع معادية، كان الجميع يعتقدون بأنها متعذرة الحل لدى السلطات العليا.

في بداية الحرب شق الألمان برصاصة إذن الجنرال قليلاً، وهو ما كان يلزمه من أجل استيداع مشرف، على إثر هزيمة الجيش الفرنسي أمام الألمان في شارلروا، وقد هيأ له استيداعه في الحال موقعاً في خدمة «فرنسا الكبرى». ولكن معركة فيردوم هذه التي انتهت منذ زمن بعيد، كانت ما تزال

Twitter: @ketab_n

تؤرقه، وهو ما كان يجعله يقلب راديو بين يديه قائلاً. «سيصمد جنودنا البواسل، إنهم صامدون» كان الجو حاراً في العنبر، وكان كل ذلك يحدث بعيداً جداً عنا، في فرنسا، حيث كانوا قد أعفوا الجنرال تومبا من التنبؤ أكثر بما يجري هناك وأخيراً رددنا معاً مع ذلك، بلطف ومجاملة والمدير معنا «إنهم رائعون جنودنا الفرنسيون» وغادرنا الجنرال مع هذه الكلمات.

شق المدير بعد بضع لحظات، طريقاً آخر عنيفاً بين الجذوع المتراصة، واختفى بدوره في الغبار المفلفل.

عينان ملتهبتان فحميتان، رغبة حادة بامتلاك الشركة كانت تضني ذلك الرجل. كان يثير شيئاً من الخوف في نفسي، كان يصعب علي أن أكون وحدي في حضوره. ما كنت لأصدق قط بأن هناك في العالم هيكل بشري قادر على احتمال ذلك التوتر الأقصى من الطمع. لم يكن يكلمنا قط تقريباً بصوت مرتفع، بل بالتلميح حسب، حتى لتقول، بأنه لم يكن يعيش، ولم يكن يفكر إلا لكي يتآمر، يترصد، يغدر بشغف بالغ. كانوا يؤكدون بأنه يسرق، يزوّر، ينتزع لنفسه وحده أكثر من كل الموظفين الآخرين مجتمعين، رغم أنهم ليسوا كسولين بالتأكيد، وأنا أصدق ذلك بسهولة.

خلال فترة تدريبي في فورت غونو، كان لدي أيضاً بعض أوقات الفراغ، كي أتنزه في ذلك النوع من المدينة، ولم أكن أجد قطعاً سوى مكان واحد ترتاح إليه نفسي هو المستشفى.

حينما تصل إلى مكان ما تستيقظ في داخلك رغبات، أما أنا فكنت أرغب في أعماقي أن أكون مريضاً حسب، كل إنسان نسيج وحده. كنت أتنزه حول هذه الأجنحة المضيافة والواعدة، المنتحبة والمنعزلة والمقتصدة ولم أكن أغادرها إلا بأسف، هي وأثرها المطهر. ثمة مروج خضر كانت تحيط بذلك المثوى الهانئ،

Twitter: @ketab_n

سعيدة بعصافير صغيرة عابرة، وبسحالي قلقة متعددة الألوان، نوع من «جنة أرضية».

أما بصدد الزنوج، فقد ألفتهم واعتدت عليهم، واعتدت على تواثيهم المغتبط، على حركاتهم البالغة الطول، وعلى بطونهم البارزة، وعلى نسائهم. تفوح الزنوجة ببؤسها، بابتذالاتها التي لا تنتهي، بخضوعها المنفر، والمحصلة، أن كل شيء فيها يشبه الفقراء عندنا، ولكن مع أولاد أكثر، وثياب داخلية أقل قذارة، ونبيذ أحمر أقل.

حينما انتهيت من استنشاق هواء المستشفى وزفره بعمق، انطلقت خلف حشد من الزنوج، لأتوقف لحظة أمام ذلك النوع من الباغودا الصينية والذي أقيم على مقربة من فورت غونو على يد أحد ممولي الأطعمة من أجل تسلية ماجني المستعمرة الشهوانيين الفكهين.

يجوس الأثرياء البيض في فورت غونو ذلك المكان ليلاً. يكبون فيه على طاولات القمار بشغف، متجرعين كميات وافرة من الخمور، متناولين على مهل، أطباق الشواء وهم يتثاءبون. وبمبلغ مائتي فرنك يضاجعون مديرة الفندق الجميلة. بناطيل هؤلاء الممراحين تسبب لهم إزعاجا غريباً حينما يريدون أن يحكّوا ما تحتها، ثم ما تلبث أن تفلت حمالات بناطيلهم.

في الليل كانت جموع غفيرة من سكان المدينة الزنجية تخرج من أكواخها، وتحتشد أمام الباغودا كان هؤلاء الزنوج لا يكلون ولا يملون أبداً من النظر والاستماع إلى البيض، وهم يتحركون حول البيانو الميكانيكي، ذي الحبال المتعطنة، وهو يتوجع بفالسات ناشزة. كانت مديرة الفندق لدى سماعها الموسيقى تتظاهر بالرغبة بالرقص وقد استخفها الحبور.

Twitter: @ketab_n

أفلحت بعد بضعة أيام من المحاولات إلى أن أتبادل معها أطراف الحديث، على نحو عابر. وقد أفضت لي بأن القواعد التي تسير عليها لا تدوم أكثر من ثلاثة أسابيع، وهذا من تأثير المناطق الاستوائية. وأن زبائنها فضلاً عن ذلك، كانوا ينهكونها، ليس لأنهم يمارسون معها الحب غالباً، ولكن لأن الخمور الجيدة لما كانت متوفرة في فندقها فإن زبائنها كانوا يحاولون الحصول عليها خلسة ويقرصونها في الوقت نفسه، من إليتيها بشدة. ذلك على الأخص، ما كان سبب تعبها.

كانت تلك البائعة تحيط بكل ما كان يدور في المستعمرة، وبالغراميات اليائسة التي كانت تنعقد بين الضباط الذين كانت تعصف بهم الخمر، وزوجات الموظفين النادرات، الذائبات هن أيضاً تحت وطأة قواعد لانهاية لها، والكسيرات القلب، تحت ظلال الشرفات المغلقة في قاع أرائك محنية حتى نهايتها.

كانت الممرات والمكاتب والمخازن في فورت غونو تسحّ برغبات مجهضة. أن يفعل هؤلاء البيض كل ما كانوا يفعلونه في أوروبا، ذلكم ما كان يبدو أنه يستحوذ عليهم بقوة. تلبية الرغبات، والتكشير مهما كلف الثمن، على الرغم من الحر الفظيع والترهل المتفاقم الذي لا يقاوم.

كانت النباتات المنتفخة في حدائق المنازل تقاوم بمشقه، وتبدو عدوانية وحشية بين حباكات القصب، المحيطة بالمنزل، منفجرة بأوراق خس على نحو هائج، بيضة صلبة بيضاء ضخمة متجعدة يتعفن داخلها أوربي مصفر. كانت هناك على هذا النحو أطباق من السلطة الكاملة، بقدر ما كان هناك موظفون على امتداد جادة فاشودا الأشد حيوية والأكثر ارتياداً في فورت غونو.

كنت أعود كل مساء إلى مسكني، الخاوي من أي أثاث بلا شك، حيث أجد الهيكل الصغير لسريري قد أعده لي الخادم الفاسد. كان هذا الخادم

Twitter: @ketab_n

ينصب لي فخاخاً، كان شهوانياً مثل قطة، يريد بإلحاح أن يدخل في عائلتي غير أني كنت مسكوناً بانشغالات أخرى أكثر إلحاحية، وعلى الأخص نيتي باللجوء بعض الوقت أيضاً إلى المستشفى، وهي الهدنة الوحيدة التي في متناول يدي داخل هذا الكرنفال الملتهب.

في السلم كما في الحرب، لم أكن مهيأ على الإطلاق للسقوط في التفاهات الوضيعة. ثمة عروض أخرى كذلك عرضها علي طاهي المدير، داعرة للغاية كانت تبدو لي تافهة عديمة اللون.

قمت للمرة الأخيرة بجولة على أصدقائي الصغار في بوردوربير، محاولاً أن أستعلم منهم حول ذلك الموظف الخؤون الذي كان علي الذهاب للحلول محله في غابته، مهما كلف الأمر. تنفيذاً للأوامر. ثرثرات لا طائل منها.

مقهى فيدهيرب الواقع في نهاية شارع فاشادو والذي يضج ساعة الغسق بمئة غيبة ووشاية ونميمة لم يقدم لي أيضاً أي شيء جوهري، انطباعات لا أكثر. سلال قمامة مملوءة بالانطباعات، تتحطم في ذلك الغبش الموشى بقناديل ورقية متعددة الألوان، فيما كانت الريح تهز دانتيلا أشجار النخيل العملاقة طاردة سحائب بعوضها نحو الأطباق الصغيرة. من ذلك القيل والقال الذي يموج به جو المقهى كان الحاكم يأخذ نصيبه، بسبب مركزه الرفيع. كانت فظاظته التي لا تطاق تشكل جوهر الحديث الطويل الفاتح للشهية. حيث الكبد الاستعماري الكريه يرتاح قبل العشاء.

جميع سيارات فورت غونو وهي لا تزيد عن العشر، إجمالاً، كانت تمر وتعاود المرور في ذلك الوقت أمام رصيف المقهى. لم يكن يبدو عليها على الاطلاق أنها تذهب بعيداً. كان لساحة فيدهيرب جوها المبهج الطلق وديكورها البديع وغزارتها النباتية والكلامية المحيطة بمقر وكيل الحاكم.

Twitter: @ketab_n

كانت السيارات العشر تغادر ساحة فيدهيرب، ثم ما تلبث أن تعود اليها بعد خمس دقائق منجزة مرة أخرى أيضاً الرحلة ذاتها، بحمولتها المكونة من أوروبيين مصابين بالانيميا، مرتخي الأجساد، ملفوفين بنسيج رمادي.. كائنات هشة قصيمة، أشبه بقطع من حلوى السوربيت.

يمر المستوطنون الأوروبيون بعضهم أمام بعض طوال أسابيع وسنوات، إلى أن تأتي اللحظة التي لا يعودون ينظرون فيها إلى بعضهم، لشدة ما كانوا قد تعبوا من كراهيتهم تجاه بعضهم، كان بعض الضباط يتنزهون مع أسرهم متهيئين لتحيات العسكريين والمدنيين. الزوجة مضغوطة داخل فوطها الصحية الخاصة والأطفال نوع مكدر من سرف ذباب أوربية ضخمة، يذوبون تحت لهيب الحر من جراء إسهال مزمن.

لا يكفي أن يكون للضابط قبعة عسكرية كي يقود، لابد له أيضاً من قطعات عسكرية.. وفي مناخ فورت غونو كان الكادر العسكري الأوروبي يذوب على نحو أسوأ من الزبدة. الكتيبة الفرنسية التي جاءت إلى هنا غدت مثل قطعة السكر داخل القهوة، كلما دققت النظر فيها، كلما رأيتها تقلّ وتتلاشى. كان أغلبية أفراد الوحدة في المستشفى دائماً، يتخمرون في بردائهم المحمومة، محشوين بطفيليات في كل شعرة منهم، في كل ثنية في أجسادهم، فصائل بكاملها منهم، يتمرغون بين السكائر والذباب، يستمنون فوق أغطية الأسرة المتعفنة، متقلبين على فراش الحمى، مستثارين متدللين، كان أولئك البؤساء الأوغاد، تلك الكوكبة الشائنة، يكابدون من ذلك أشد المكابدة. وسط الظلال الناعمة للنوافذ الخضر مختلطين ــ كان المشفى مختلطاً ــ بموظفين في الحوانيت، فروا من الأدغال ومن أرباب عملهم مطاردين حتى الموت.

Twitter: @ketab_n

في بلادة قيلولات الملاريا الطويلة حينما كان الحر يبلغ أوجه يهدأ الذباب أيضاً. في طرف الأذرع المشعرة المنزوفة الدماء كانت تتدلى روايات ملطخة بالأقذار، من جانبي الأسرة. أجزاء كثيرة من الروايات كانت ناقصة دوماً. نصف أوراقها قد انتزع منها من قبل مرضى الدزنتاريا الذين لايملكون ما يكفي من الأوراق لاستعمالها عند قضاء الحاجة، ومن قبل الراهبات أيضاً ذوات الأمزجة الفاسدة واللواتي كن يراقبن بطريقتهن الكتب التي لا يكون الإله الطيب فيها معظماً. كان قمل العانة الذي يعشش في أجساد الجنود يثير الارتباك لدى الراهبات، مثلهن مثل غيرهن، كن يختبئن خلف الستائر ويرفعن أثوابهن ليحككن عاناتهن بنحو أفضل، حيث الموات الصباحي لم يكن قد تبرد، لفرط ما كان الصباح ما يزال ينفث الحر هو أيضاً.

كان المشفى كئيباً إلى أبعد حدود الكآبة، ومع ذلك فقد كان المكان الوحيد في المستعمرة الذي يمكن أن يحس المرء فيه بأنه منسي بعض النسيان، في مأمن من الرجال في الخارج، من المدراء، إجازة من العبودية، ذلكم ما هو جوهري، في النتيجة، وهو السعادة الوحيدة المتاحة لي.

استعلمت عن شروط الدخول، عن عادات الأطباء، وعن أهوائهم الصغيرة. رحيلي إلى الأدغال لم أعد أرتقبه إلا بقنوط وتمرد، كنت أعول على أن أمرض بأسرع وقت، بكل الحميات التي كانت تبدو لي في متناول يدي كي أعود إلى فورت غونو مريضاً. عظاماً دون لحم. مقززاً إلى أبعد حد، بحيث سيكون عليهم أن يقرروا ليس فقط استقبالي، بل وإعادة تسفيري خارج هذه البلاد. كنت ملماً ببعض الطرائق المشهورة للوقوع في براثن المرض، وقد تعلمت طرائق أخرى جديدة، أيضاً، خاصة بالمستعمرات.

Twitter: @ketab_n

كنت مستعداً لقهر ألف صعوبة، ذلك لأن ألف مدير لشركة بوردوريير، وألف قائد فوج لا يكلون بسهولة عن مطاردة فرائسهم الهزيلة المرتعشة حتى النخاع فوق الأسرّة التي تفوح برائحة البول.

سيجدوني مصمماً على التعفن، بكل ما يحتاجه التعفن، لم يكن المرضى بوجه عام، فضلاً عن ذلك، يقيمون زمناً مديداً في المستشفى. إلا إذا ختموا دربهم الاستعماري حتى نهايته. أكثر هؤلاء حذقاً وأشدهم مكراً، وأفضلهم حزماً وجزماً، كانوا يفلحون أحياناً في التسلل إلى سفينة نقل عائدة إلى البلد الأم. كانت تلك هي المعجزة الخارقة، أما أغلبية المرضى المقيمين في المستشفى فكانوا يعترفون بأن الحيل قد أعيتهم. كانوا يعودون إلى الأدغال. مهزومين أمام أنظمة حديدية، كي يفقدوا آخر كيلوغرام من وزنهم. وإذا ما أسلمهم الكينين كلياً لدعاميص البعوض فإن الواعظ كان يغلق أعينهم ببساطة في الساعة الثامنة عشرة ما دام أنهم في رعاية نظام عطوف، ثم يأتي أربعة سنغاليين موظفين ليحزموا تلك البقايا النازفة ويحملوها إلى المقبرة المسورة، عند الصخور الشاطئية الحمراء بالقرب من كنيسة فورت غونو، تلك الكنيسة المتوهجة الحرارة تحت صفائح سقفها المعدنية المتموجة، بحيث أن أحداً لا يدخلها مرتين على التوالي. فقد كانت أكثر استوائية من البلدان الاستوائية. كان على من يقف داخل الكنيسة أن يزفر مثل كلب.

على هذا النحو يمضي الرجال الذين كان عليهم قطعاً أن يعملوا كل ما كان يطلب منهم، تحت وطأة عذاب مبرح. فراشة في فترة الشباب، وسرف ذباب في النهاية.

كنت ما أزال. أسعى للحصول من هنا وهناك على بعض التفاصيل والمعلومات كي أكوّن فكرة عما أنا مقدم عليه. فما قاله لي المدير عن بيكو

Twitter: @ketab_n

ميمبو كان يبدو لي بعيداً عن التصديق. كان الأمر يتعلق، في نهاية المطاف، بمركز بيع تحت التجربة، بمحاولة توغل، بعيداً عن الشاطئ، على مسافة عشرة أيام على الأقل. بمكان منعزل وسط السكان المحليين وسط غابتهم التي صورها لي المدير على أنها مستودع لتفريخ الحشرات والأمراض.

كنت أتساءل ما إذا ما كان زملائي الصغار، بكل بساطة يشعرون بالحسد تجاهي، زملائي الصغار في بوردورييز الذين كان يتناوبهم التلف والعدوانية. كانت حماقتهم (لم يكونوا يتصفون سوى بذلك) مرتبطة بكمية الكحول التي يدخلونها إلى معدتهم، بالرسائل التي كانوا يتلقونها، بالمقدار الأكثر أو الأقل من الأمل الذي كانوا قد فقدوه خلال النهار، والقاعدة العامة في حياتهم، هي أنهم كلما كانوا يتلفون أكثر، كلما كانوا يتغطرسون أكثر.. أشباح، على غرار أورتولان في الحرب، تلبستها كافة الوقاحات.

كنا نجلس إلى الشراب ثلاث ساعات كاملة نتحدث فيها دوماً عن الحاكم، محور كافة أحاديثنا، ثم عن سرقة الأشياء الممكنة والمستحيلة، وأخيراً عن الجنس: الألوان الثلاثة للعلم الاستعماري. كان الموظفون الحاليون يتهمون العسكريين صراحة، بأنهم غارقون في الاختلاس وإساءة السلطة، ولكن العسكريين كانوا يردون لهم التهمة. أما التجار فكانوا من جانبهم يعتبرون كل هؤلاء النفعيين طغمة من الدجالين المخادعين والنهابين. أما بالنسبة إلى الحاكم، فإن الضجة حول استدعائه كانت تشيع في كل صباح منذ عشر سنين طويلة، ومع ذلك فإن البرقية المثيرة جداً للاهتمام التي تنص على تنحيته لم تصل أبداً، على الرغم من أن رسالتين على الأقل، مغفلتي التوقيع كانتا تطيران كل أسبوع، ودون انقطاع إلى الوزارة، تنسبان إلى هذا الطاغية المحلي ألفاً من الفظاعات الواضحة وضوح الشمس.

Twitter: @ketab_n

الزنوج محظوظون، جلدهم له قشور فوق قشور على غرار البصل، أما الأبيض فلا يني يتسمم، محتجزاً بين عصيره الحامضي، وقميصه القطني النخروبي. تعيس من يقترب منه! ولكني تروضت على ذلك منذ الأميرال براغتون.

في غضون بضعة أيام علمت الكثير عن مديري، عن ماضيه الحافل بنذالات لا يتسع لها سجن في مرفأ حربي. كل ما في ماضيه قد اكتشفته لابل كنت قد افترضته. والحق أن رأسه كان ضده بلا مراء. صورة مريعة لقاتل محترف، أو بالأحرى، لرجل متهور متعجل في تحقيق غاياته والأمران سيان.

في ساعة القيلولة. كان يمكن ملاحظتهن منهارات داخل ظلال مقصوراتهن الكائنة في شارع فيدهرب، بضعة من النسوة البيض، من هنا وهناك. زوجات ضباط، ومستوطنين. كان ذلك الجو ينتزع منهن أكثر مما من الرجال أصواتاً صغيرة متلعثمة بلطف، ابتسامات متسامحة للغاية تخضب شحوبهن، على غرار محتضرات سعيدات، كانت أولئك البرجوازيات يبدين شجاعة وتبرجاً أقل مما كانت تبديه مديرة الباغودا، التي لم تكن تعتمد بالتأكيد إلا على نفسها. كانت شركة بوردوريير، من جانبها تستهلك الكثير من الموظفين الصغار البيض من أمثالي، كانت تفقد العشرات من أشباه الرجال هؤلاء في كل فصل، في مراكز بيعها داخل الأدغال، وفي جوار المستنقعات. لقد كان هؤلاء رواداً بحق!.

في كل صباح كان جيش التجارة يتباكى على أفراد وحداته حتى في مكتب مدير المستشفى ذاته. لم يكن ينقضي يوم إلا وينبري أحد النقباء ليتوعد وينزل صواعق الرب على رأس الإدارة، كي يرسلوا إليه على عجل ثلاثة من رقبائه المصابين بالملاريا، والعريفين المصابين بالسفلس، من أجل تجهيز

Twitter: @ketab_n

حملة مستعجلة. فإذا جاءه الجواب بأن هؤلاء المقعدين قد ماتوا، أراح الإداريين في المشفى واستراح، ثم عاد إلى سيرته ليشرب أكثر قليلاً من الخمر في الباغودا.

يكاد المرء هنا لا يجد من الوقت ما يكفي كي يرى البشر والأيام والأشياء وهي تختفي في أعماق تلك الخضرة، ذلك المناخ، مناخ الجراد والبعوض. كل شيء كان يضمحل. كان ذلك مقززاً. كانوا يتلاشون في الشمس، بأطرافهم، بأقوالهم، بأعضائهم، بحسراتهم، بكريّاتهم، يذوبون داخل طوفان الضوء والألوان، ومعهم طعم الأشياء والزمن. كل شيء كان يتلاشى. لم يكن ثمة سوى قلق يتطاير كالشرر في الفضاء.

على شاطئ فورت غونو، رست أخيراً سفينة الشحن الصغيرة التي كان علي أن أساحل الشاطئ على متنها، كي أنزل على مقربة من موقع عملي، كانت تسمى بابوتاه. قوقعة صغيرة مسطحة، مصنوعة خصيصاً من أجل مصبات الأنهار. كانوا يزودون موقدها بالحطب، وقد خصص لي، أنا الأبيض الوحيد على سطحها ركناً بين المطبخ والمراحيض. كنا نسير الهوينا فوق الماء، حتى لقد ظننت في بداية الأمر أن الأمر يتعلق باحتياطات من أجل الخروج من المرسى، ولكننا لم نكن نتقدم إطلاقاً بنحو أسرع. فقد كانت البابوتاه تفتقر إلى القوة على نحو لا يصدق. انطلقنا، على هذا النحو بمحاذاة الشاطئ. شريط لا نهائي. رمادي متلبد من الأشجار الدقيقة الحجم غارقة في بخار متراقص. يا لها من نزهة! كانت البابوتاه تشق عباب الماء، كما لو كانت تنضبح به هي ذاتها بألم بالغ. كانت تفكك المويجات واحدة بعد الأخرى باحتراس من يضمّد الجراح. لا شك أن الربان، مثلما بدا لي من بعيد، كان خلاسياً. أقول: «بدا لي» لأنني لم أجد البتة، ما يكفي من النشاط كي أصعد

Twitter: @ketab_n

إلى الأعلى فوق الجسر، لأتأكد بنفسي. بقيت منحبساً مع الزنوج المسافرين تحت ظلال الممر، ما دام أن الشمس ستظل تسطع فوق الجسر حتى الساعة الخامسة. ولكي لا تحرق الشمس رأسك، من خلال عينيك، لابد من أن تطرف بهما مثل جرذ. وبعد الساعة الخامسة يمكنك أن تكتفي بنظرة سريعة شاملة. لم يكن ذلك الهدب الرمادي، ذلك المشهد المتلبد الرابض عند مستوى الماء، يقول لي أي شيء ذي أهمية. كان استنشاق الهواء يبعث على الغثيان، حتى في الليل، لفرط ما كان الجو ساخناً، عبقاً بروائح بحرية عفنة. كل ذلك الذبول الباهت اللون، كان يضغط على القلب ومعه رائحة أجهزة السفينة، يضاف إليه في النهار، مرأى الموجات الصلصالية اللون من جانب، والشديدة الزرقة من الجانب الآخر، كان الحال أسوأ مما على الأميرال براغتون، باستثناء العسكريين القتلة، بالطبع.

اقتربنا أخيراً من المرفأ القريب من المكان المقصود والذي سموه لي باسم «توبو»، وبعد أن سعلت «البابوتاه» وبصقت وترجفت، بما يعادل ثلاثة أمثال الزمن الذي تحتاجه وجباتنا الأربعة من المعلبات فوق هذا الماء الشبيه بماء غسيل الأواني المزيّت، أفلحت في الرسو أخيراً.

من فوق الضفة الوبرية لاحت لنا ثلاثة أكواخ مسقوفة بالقش. ومن بعيد كان المشهد آسراً من النظرة الأولى. مشهد مصب النهر. نهر عظيم كثير الرمال، نهري الذي كان علي أن أرتقيه في زورق صغير، كما أوضحوا لي، كي أصل إلى قلب غابتي. لم يكن ينبغي لي المكوث في توبو، ذلك المركز الصغير الجاثم على ضفة النهر، سوى بضعة أيام. ذلك أمر مسلم به، هو الوقت اللازم لاتخاذ القرارات الاستعمارية السامية.

Twitter: @ketab_n

اتجهت البابوتاه نحو رصيف للنزول بالغ الهشاشة، وقبل أن تلامسه ببطنها الضخم رفعت حاجز الركاب، كان الرصيف مبنياً من قصب الخيزران. ما أزال أذكره جيداً. كان له حكاية طريفة، فقد كانوا يعيدون بناءه كل شهر، كما علمت، بسبب رخويات سريعة الحركة وبارعة كانت تنقض عليه بالآلاف لتلتهمه، أولاً بأول. كان ذلك الرصيف بالذات، ذلك الترميم اللانهائي لخيزرانه، أحد المشاغل المؤنسة التي كان يعاني منها الملازم غرابا، قائد موقع توبو والمناطق المجاورة. لم تكن البابوتاه تحج إلى توبو سوى مرة واحدة كل شهر، ولكن الرخويات ليست محتاجة إلى أكثر من شهر كي تلتهم رصيفها.

استولى الملازم غرابا على أوراقي، حين وصلت، تحقق من صحتها، وأعاد نسخها في سجل نظيف، ثم قدم لي الشراب. كنت المسافر الأول، كما أفضى لي، الذي جاء إلى توغو منذ أكثر من سنتين، لم يكن أحد يأتي إلى توغو، لم يكن ثمة سبب للقدوم إليها، كان الرقيب آلسيد يعمل تحت إمرة الملازم غرابا، وفي عزلتهما تلك لم يكونا يحبان بعضهما قط «علي دائماً أن أكون حذراً من مرؤوسي، أفضى إلي الملازم غرابا، في أول حديث لنا، فقد كان لديه ميل لخلق جو من الألفة».

في مثل ذلك الجو الموحش القانط، لا يمكن لأحد أن يتخيل وقوع حوادث، كان ذلك مستبعداً كلياً. لم يكن الوسط يصلح لذلك. كان الرقيب آلسيد يجهز مسبقاً العديد من التقارير، تحمل عبارة «لاشيء»، يوقعها غرابا على الفور، وتعود بها البابوتاه إلى الحاكم العام.

ما بين البحيرات الشاطئية المجاورة، وبين الأعماق الغابية القصية كانت تتأسّن بضع قبائل وسط عفونتها، يفتك بها ويخبلها المرض والبؤس المزمن. كانت تلك القبائل مع ذلك، تدفع ضريبة صغيرة، تحت ضربات

Twitter: @ketab_n

الهراوة، بالطبع، ومن بين فتيانها اليافعين كان يتم أيضاً تجنيد بعض الميليشيات، يوكل إليهم استخدام تلك الهراوة ذاتها، كان عدد أفراد هذه الميليشيا لا يتجاوز اثني عشر رجلاً.

يمكنني الحديث عن هؤلاء مطولاً، فقد اطلعت على أوضاعهم باهتمام، كان الملازم يجهز هؤلاء المحظوظين بطريقته، ويغذيهم بالرز على نحو منتظم. بندقية واحدة للاثني عشر، كان ذلك هو التدبير المتبع، وعلم صغير لجميع الميليشيات، والجميع دون أحذية. ولكن لما كان كل شيء نسبياً في هذا العالم، وخاضعاً للمقارنة، فإن هؤلاء المجندين البلديين كانوا يجدون أن غرابا يدير الأمور بطريقة سيئة جداً، كان يرفض كل يوم متطوعين، ومتطوعين متحمسين، من أبناء الأدغال الكارهين لها.

قلما كان الصيد حول القرية يقدم لهم ما يكفيهم من القوت. لم يكونوا يلتهمون أقل من جدّة في الأسبوع، لعدم توفر الغزلان، كانت ميليشيا آلسيد تمضي إلى التدريب كل صباح، منذ الساعة السابعة، ولما كنت مقيماً في ركن من كوخه، كان قد خصني به، فقد أتيح لي أن أطلّع عن كثب على ذلك العرض الفروسي. ما من جنود في أي جيش من جيوش العالم على الإطلاق يمكن أن يكونوا مطواعين مثلما كان أفراد هذه الميليشيا. فلدى أي إشارة من آلسيد كان هؤلاء البدائيون يذرعون الرمال إليه، أربعة منهم، ثمانية، ثم الاثنا عشر. كانوا يفرغون جهوداً جبارة، متخيلين أنهم يحملون حقائب، أو أحذية أو حتى حربات وأكثر من ذلك، متخذين هيئة من يستخدم تلك الأشياء. كل ذلك كان نابعاً بالتحديد من طبيعتهم القوية جداً والأليفة للغاية: لم يكونوا يرتدون سوى ما يبدو أنه سروال قصير من الخاكي، وكل ما عدا ذلك، ينبغي أن يكون متخيّلاً منهم وموجوداً في نظرهم، وبإيعاز قاطع من آلسيد، كان

Twitter: @ketab_n

هؤلاء المحاربون البارعون يضعون حقائبهم المتخيلة على الأرض، ويعدون في الفراغ راشقين أعداء متخيلين بحراب وهمية، وبعد أن يتظاهروا بفك أزرارهم الوهمية يشكلون حزماً غير مرئية، ولدى إشارة أخرى من آلسيد كانوا يتحمسون بشغف لإطلاق رشقات من بنادق موهومة. حين كنت أراهم ينتثرون، ويقومونِ بحركات ايمائية، على هذا النحو، ويضيعون، بجنون في دانتيلا من حركات لا انتظام فيها، ولا جدوى، كنت أشعر بتثبيط مضن إلى أبعد حد، لا سيما أن الحر اللاهب والاختناق في توغو، واللذين كان الرمل يزيد من كثافتهما، ما بين صفحتي ماء البحر والنهر، الصقيلتين المتعانقتين. كانا يجعلانك تقسم بمؤخرتك بأنهم كانوا يجلسونك كرهاً فوق قطعة سقطت للتو من الشمس.

غير أن هذه الشروط القاسية لم تكن تمنع آلسيد من أن يزعق بكل ما أوتي من قوة، كانت عواءاته تتردد مدوية فوق ساحة تدريبه المبتكر، وتصل أصداؤها حتى ذرى أشجار الأرز المهيبة على التخوم المدارية، وبعيداً جداً كانت تهدر أيضاً كالرعد، إيعازاته «استعداد».

في أثناء ذلك الوقت كان الملازم غرابا يقيم ميزان عدله، وسنعود إلى ذلك. ويشرف أيضاً من بعيد، دون انقطاع، وفي ظل كوخه على ترميم جسره الخيزراني المتآكل. ولدى كل قدوم للباتوتاه، كان ينتظر متفائلاً ومتشككاً أعتدة لقواته. كان يطالب بمعدات كاملة منذ عامين في الحقيقة. ولكونه كورسيكياً، فقد كان غرابا يشعر ربما بالإذلال أكثر من الآخرين جميعاً، وهو يلاحظ أن ميليشياته كانت عارية تماماً.

في كوخنا، كوخ آلسيد، كان هذا يدير تجارة صغيرة، تكاد تكون سرية. أشياء صغيرة الحجم، وفضلات أطعمة مختلفة. وفضلاً عن ذلك فإن كل

Twitter: @ketab_n

تجارة التهريب في توبو كانت تمر من خلال آلسيد، لأنه كان الوحيد الذي يملك احتياطياً من البضائع، تبغ بعساليجه، داخل رزم، بضعه ليترات من الكحول وبضعة أمتار من النسيج القطني.

كان الميليشيون الاثنا عشر يشعرون بتعاطف حقيقي تجاه آلسيد، كان ذلك مرئياً، على الرغم من أنه كان يكيل لهم الشتائم المقذعة، ويرفسهم ببوطه على مؤخراتهم ظلماً وعدواناً، ولكنهم كانوا يميزون لديه، هؤلاء الميليشيون العراة، عناصر أكيدة من القرابة الوشيجة، قرابة البؤس المدقع، الفطري. كان التبغ يقربهم إلى بعضهم، لقد كانوا بأجمعهم سوداً. ثمة الكثير من الأشياء المشتركة بينهم. كنت قد حملت معي بعض الصحف الأوربية، تصفحها آلسيد برغبة من يهتم بالأخبار، ولكنه على الرغم من أنه أعاد تصفحها ثلاث مرات كي يركز انتباهه على تلك الأعمدة المتنافرة، فإنه لم يفلح في ذلك: «أنا الآن، اعترف لي بعد محاولته غير المجدية، لا أبالي بالأخبار.. منذ ثلاث سنوات وأنا قابع هنا لا أريم» لم يكن ذلك يعني أن آلسيد كان حريصاً على إدها شي وهو يمثل دور الناسك المنعزل، ولكن اللامبالاة التي أظهرها العالم بأسره تجاهه، قد اضطرته، هو، الرقيب المجند، إلى أن ينظر، هو بدوره، إلى العالم كله خارج توبو، على أنه نوع من عالم القمر.

كان آلسيد، فضلاً عن ذلك يتمتع بطبيعة خيّرة، كان خدوماً كريماً. أدركت هذا بعد مضي قليل من الوقت، كان استسلامه الذليل يضنيه، هذه المزية الأساسية التي تجعل من السهل إزهاق أرواح جنود الجيش الفقراء، مثلما من السهل إبقاؤهم على قيد الحياة، لا يسأل الناس الصغار أبداً أو تقريباً، عن السبب في كل ما يقاسونه، إنهم يكرهون بعضهم بعضاً. وهذا يكفي.

Twitter: @ketab_n

في قلب بحيرة الرمل المحرق، العديم الرحمة، حول كوخنا. كانت تنبت على نحو متفرق زهور صغيرة نضرة، قصيرة العمر، خضراء، ووردية وقرمزية، لا نراها في أوروبا إلا مرسومة على بعض الأواني الخزفية.. نوع بدائي بالغ الحيوية من نبات الدودية الأرجوانية. كانت تتحمل فظاعة النهار الطويل مغلقة تويجاتها. وما أن يحل المساء حتي تتفتح مرتعشة بلطف مع أولى النسمات الفاترة.

رآني آلسيد، ذات يوم، منشغلاً بقطف باقة من هذه الزهور، فنبهني قائلاً: «اقطفها حينما تشاء ولكن لا تسق تلك العرائس الصغيرات، فالماء يقتلها. إنها هشة للغاية وليست مثل زهور «دوار الشمس» التي كنا نزرعها ونتعهدها في رامبوييه. لقد كان من الممكن التبول فوقها، تلك، لأنها تشرب كل شيء.. الزهور مثل البشر... كلما كانت ضخمة كانت خرقاء!» كان يلمح بذلك إلى الملازم غرابا بالتأكيد، والذي كان جسمه مفرط الضخامة، بنحو فاجع. كانت يداه قصيرتين، أرجوانيتين. مربعتين، كانتا من الغرابة بحيث لايمكن فهمهما على الإطلاق، ولم يحاول غرابا أن يفهم شيئاً عنهما مع ذلك.

أقمت أسبوعين في توغو، تقاسمت خلالهما مع آلسيد لا العيش والطعام فقط. وقمل السرير (كان له نوعان) والرمل بل والكينين أيضاً، وماء البئر القريب الفاتر بالطبع، والمسبب للإسهال.

دعاني غرابا بحرارة ذات يوم، وعلى نحو استثنائي، لتناول القهوة في كوخه. كان غرابا غيوراً، لم يكن يسمح لأي شخص بأن يرى خليلته الزنجية. كان قد اختار يوماً لدعوتي ذهبت زنجيته فيه لزيارة أهلها في القرية. كان ذلك اليوم أيضاً يوم انعقاد محكمته، لقد أراد أن يدهشني.

Twitter: @ketab_n

حول كوخه تجمع أصحاب الشكاوى بعد أن وصلوا باكراً. حشد متنافر، ملون الوزرات، خليط من شهود مصأصئين، ومن متقاضين، ومن جمهور بسيط محتشد، اختلطوا في حلقة واحدة تفوح منهم رائحة الثوم والصندل والزبدة، والعرق الأصفر الزعفراني. وعلى غرار ميليشيي آلسيد، كانت تلك الكائنات قاطبة حريصة، قبل كل شيء كما يبدو، على أن تتحرك بهياج وسط دائرة الوهم والخيال، كانت تقرقع بلغة الصناجات، فيما هي تلوّح، فوق رؤوسها، بأيد متشنجة، وسط عاصفة من الحجج والأدلة.

كان الملازم غرابا غائصاً داخل أريكته من الأسل الهندي صاراً بأسنانه،متذمراً، مبتسماً أمام كل هذه الحشد المتنافر. كان يعتمد في حكومته هذه على مترجم الموقع الذي كان يغمغم له، بالمقابل وبصوت عال، بالتماسات وطلبات لا تصدق.

كانت القضية الأولى تدور حول خروف أعور رفض والدا إحدى الفتيات إعادته إلى صاحبه، ذلك أن ابنتهما التي باعاها شرعاً بهذا الخروف لم تسلم إلى زوجها إطلاقاً بسبب أن أخا الزوج قتل في تلك الأثناء أخت والد الزوجة، وربما كانت حول تظلمات أخرى، أكثر تعقيداً.

مئة من الوجوه المشبوبة بالانفعال من جراء تلك المصالح المتضاربة، وما تتضمنه من مشكلات، كانت تكشف لمقامنا الرفيع عن أسنانها، وهي تطقطق طقطقات صغيرة صماء، أو تبقبق بقبقات عالية تمثل كلها لغات زنجية.

بلغ الحر ذروته، كانت العيون تتفحص السماء من زاوية السقف كي تتساءل إن لم يكن ثمة كارثة قادمة. ولكن لم يكن ثمة إعصار.

«سأوفق بينهم جميعاً، في الحال، صمم غرابا أخيراً بعد أن دفعته الحرارة والمماحكات إلى اتخاذ قرار. أين والد الزوجة؟ قادوه إليه.

Twitter: @ketab_n

ـ ها هو، أجاب عشرون زنجياًغرابا، دافعين أمامهم زنجياً هرماً رخواً جداً، ملفوفاً بوزرة صفراء تغطيه بنحو لائق. على الطريقة الرومانية. كان العجوز يؤكد بقبضة يده المغلقة على كل ما كان يقال حوله. لم يكن يبدو عليه مطلقاً أنه جاء إلى هنا كي يشتكي، وإنما، بالأحرى، كي يمنح نفسه بعض التسلية بمناسبة المحاكمة التي لم يعد ينتظر منذ زمن طويل. نتيجة ايجابية منها

ـ هيا. أمر غرابا، عشرون جلدة، لننته من هذا، عشرون جلدة بالسوط لهذا العجوز القواد، فذلك يعلّمه أن يأتي ليزعجنا كل خميس، منذ عامين بقضية خروفه الفارغة.

رأى العجوز أربعة ميليشيين مفتولي العضلات، يدنون منه. لم يكن يدرك في البداية، ما كانوا يريدونه، ثم جعل يقلب عينيه اللتين احتقنتا بالدم على غرار حيوان شائخ مذعور، لم يكن قط، قد تعرض للضرب من قبل. لم يحاول أن يقاوم في الحقيقة، ولكنه لم يكن يعرف أيضاً كيف سيضع جسمه كي يتحمل بأقل قدر ممكن من الألم، هذه الجولة من جولات العدل.

جره الميليشيون من قماش وزرته، أراد اثنان منهما أن يجثو على ركبته، فيما أمره الآخرون، في المقابل أن يتمدد على بطنه، وأخيراً اتفقوا جميعاً بأن يطرحوه أرضاً، ببساطة مثلما هو، ثم شمروا وزرته وانهالوا على ظهره واليتيه الرخوتين، دفعة واحدة برشقة من عصا مرنة تجعل أتاناً قوية تجأر طوال ثمانية أيام. كان العجوز يتلوى، فينبجس الرمل الناعم من حول بطنه مبللاً بالدم. كان يبصق الرمل وهو يصيح، حتى ليقول من يراه بأنه كلبة حامل من كلاب الصيد الضخمة القصيرة القوائم يتسلون بتعذيبها.

Twitter: @ketab_n

أطبق الصمت على شهود ذلك المجلس القضائي طوال فترة تنفيذه. لم يكن يُسمع سوى صرخات العجوز. نفّذ الأمر إذن. كان العجوز الفاقد الوعي بسبب الضرب يحاول أن ينهض ويستجمع وزرته حوله على الطريقة الرومانية، كان ينزف بغزارة من فمه وأنفه، وخصوصاً من حول ظهره، ابتعد الحشد. مصطحبين العجوز مغمغمين بألف نميمة وتعليق، برنة جنائزية فاجعة.

أشعل الملازم غرابا سيجارة، كان حريصاً أن يبقى على مسافة من هذه الأشياء. لم يكن يأبه بأن يذهب بي التفكير إلى أنه كان أكثر نيرونية من غيره، بل كان فقط لا يحب أن يضطره أحد إلى التفكير، كان ذلك يزعجه كثيراً. أما ما كان يثير نزقه في مهمته القضائية السامية تلك فهي القضايا التي كانوا يطرحونها عليه.

شهدنا أيضاً خلال اليوم ذاته تأديبين آخرين يستحقان الذكر، يتعلقان بقضايا أخرى مثيرة للبلبلة. مهور مستردة، سموم مميته، وعود كاذبة، أبناء مشكوك ببنوتهم.

«آه، لو كانوا يعلمون جميعاً، كم أستخف بهم، وبخصوماتهم لما غادروا غابتهم، وجاؤوإلى هنا ليقصوا علي بلاهاتهم ويزعجوني، هل أطلعهم على ما أفكر به؟ غير أنني، استأنف غرابا، بت مقتنعاً بأنهم يحبون محكمتي، هؤلاء الأوغاد. منذ سنتين وأنا أحاول تنفيرهم منها، ومع ذلك فهم يعودون كل خميس.. صدقني أيها الشاب أن الذين يعودون هم نفسهم دوماً على وجه التقريب. داعرين، سفلة..

مضى بنا الحديث إلى تولوز حيث يمضي غرابا اجازاته بانتظام، وحيث كان يفكر أن يستقر بعد ستة أعوام، حين يحال على المعاش. وبينما كنا نتناول بكل تهذيب، شراب الكالفادوس إذا بزنجي يعكر هدوءنا من جديد،

Twitter: @ketab_n

كان مستحقاً لما لا أدري من قصاص، ومتأخراً عن تلقي هذا القصاص.. عاد من تلقاء نفسه متأخراً ساعتين عن الآخرين ليقدم نفسه كي يجلد بعصا الأطموط، ولأنه قطع مسافة يومين وليلتين من قريته إلى هنا عبر الغابة، من أجل هذه الغاية، فقد كان عازماً أن لا يعود إلى قريته خائباً. غير أنه كان متأخراً، وكان غرابا متشدداً بشأن دقة نظامه الجزائي «للأسف، انها غلطته. لم يكن عليه أن يذهب إلى قريته في المرة الأخيرة، لقد أمرت بجلد هذا الوغد خمسين جلدة في خميس سابق».

احتج الزبون مع ذلك، فقد كان لديه عذر مقنع. كان عليه أن يعود إلى قريته بسرعة، لدفن أمه. كان لديه وحده ثلاث أمهات أو أربع، «سيتم جلده في الجلسة القادمة»

غير أن هذا الزبون لم يكن لديه الوقت للذهاب إلى قريته والعودة إلى هنا يوم الخميس القادم. كان يحتج، ويبدي كثيراً من العناد. كان لابد من دفع هذا المازوخي بعيداً بركلات قوية على اليتيه. وقد أحدث لديه هذا سروراً مع ذلك ولكنه ليس كافياً.. وذهب أخيراً إلى آلسيد الذي استفاد من الوضع ببيع هذا المازوخي تشكيلة من عساليج التبغ في رزم صغيرة، ومسحوقاً للاستنشاق.

بعد أن تسليت كثيراً بهذه المشاهدات، استأذنت من غرابا الذي انسحب ليأخذ قيلولة في أعماق كوخه، حيث كانت ترتاح خليلته الزنجية التي عادت من قريتها. كان لديها زوج من الأثداء الرائعة تلك الزنجية. كانت قد تربت في كنف راهبات الغابون. لم تكن تلك الصبيّة الغضة تتكلم الفرنسية مثل الفرنسيين وحسب، بل إنها كانت تعرف أيضاً كيف تقدم الكينين داخل المربى، وكيف تلاحق البراغيث الخاشفة الناخرة للجلد في أعماق باطن القدم،

Twitter: @ketab_n

كانت تعرف كيف تجعل نفسها محببة بمئة طريقة للضابط الاستعماري، دون أن تتعبه، أو حين تتعبه، وقتما يشاء.

كان آلسيد ينتظرني وقد بدا مغتاظاً بعض الشيء، كانت تلك الدعوة التي شرفني بها الملازم غرابا هي التي دفعته من دون شك ليبوح لي بأسرار كبيرة. كانت قذرة تلك الأسرار، لقد صنع لي دون أن أطلب منه صورة لغرابا أشبه بالبراز الذي يفوح بالروائح. أجبته بأن ذلك كان هو رأيي في جميع الأحوال. كانت نقطة ضعف آلسيد هي اتجاره سراً، على الرغم من الأنظمة العسكرية التي تحظر ذلك. مع زنوج الغابة المجاورين، ومع الاثني عشر من المجندين الزنوج في ميليشياه أيضاً. كان يزود هذا العالم الصغير بالتبغ من خلال الكمبيالات، دون رحمة. فحينما كان ميليشيوه يتسلمون منه حصتهم من التبغ، لم يكن يتبقى لهم أي رصيد من رواتبهم. كانوا قد دخنوا به بأكمله. ثم إنهم كانوا يدخنون ديناً على رواتبهم. تلك الممارسة المحدودة كانت تسبب الضرر، كما يزعم غرابا، لعائدات الضرائب، نظراً إلى ندرة النقود العينية في المنطقة.

لم يكن الملازم غرابا يريد أن يثير في ظل سلطته قضية في توبو، ولكنه استاء أخيراً ربما بسبب غيرته من آلسيد، كان يريد أن تظل نقود هؤلاء البلديين للضرائب حصراً. لكل انسان نسيجه، ومطامحه الصغيرة.

كان الدين على الراتب قد بدا في أول الأمر مدهشاً، بل وحتى قاسياً للمجندين السود الذين كانوا يعملون فقط من أجل أن يدخنوا تبغ آلسيد.. ولكنهم ما لبثوا أن تعودوا على ذلك برفسات القدم على المؤخرة. أما الآن فلم يعودوا يذهبون حتى لقبض رواتبهم، لأنهم كانوا قد دخنوا به سلفاً بكل طمأنينة، عند تخوم كوخ آلسيد بين الأنهار الصغيرة المتدفقة، وبين تدريبين وهميين.

Twitter: @ketab_n

كانت مساحة توبو صغيرة جداً إجمالاً، وكان يسود فيها مع ذلك نظامان من نظم الحضارة، نظام الملازم غرابا، على الطريقة الرومانية بالأحرى، والذي كان يجلد الزنجي الخاضع لهذا النظام لينتزع منه الجزية والتي يقتطع منها غرابا، بحسب تأكيد آلسيد حصة شخصية شائنة، ومن ثم نظام آلسيد بحصر المعنى، وهو أكثر تعقيداً، تتبدى فيه علامات الطور الثاني من أطوار الحضارة، ولادة زبون في كل مجند زنجي، تركيب تجاري ـ عسكري في المحصلة، أكثر حداثة بكثير، وأكثر خبثاً، إنه نظامنا.

فيما يتعلق بالجغرافيا، لم يكن الملازم غرابا يعتمد في تقديراته للأراضي المتاخمة لمركز إدارته إلا على بضع خرائط تقريبية جداً كان يمتلكها في الموقع، لم يكن لديه كذلك رغبة كبيرة في معرفة المزيد بشأن هذه الأراضي.. فالأشجار والغابة في نهاية المطاف، معروفة، ومرئية بوضوح كامل من بعيد.

كانت بعض القبائل المبعثرة للغاية، والمتوارية داخل الأوراق، وفي ثنايا ذلك المنقوع الهائل، تتعفن هنا وهناك ما بين براغيثها وذبابها، مخبولة بطواطمها، مكتظة بطونها دوماً بالمينهوت[1]. قبائل في طور البراءة الأولى، ما تزال تأكل اللحم البشري، قد خبّلها البؤس المدقع ودمرتها ألف حائجة. ما من فائدة ترجى من الاقتراب منها، وما من شيء يبرر القيام بحملة ادارية مؤلمة ودون مردود. وحينما كان غرابا يعجز عن فرض قانونه، يلتفت بالأحرى صوت البحر متأملاً ذلك الأفق الذي جاء منه في أحدالأيام، والذي سيعود من خلاله ذات يوم. إذا ما سارت جميع الأحوال سيراً حسناً..

---

(١) المينيهوت: جذور نباتية يستخرج منها دقيق نشوي.

Twitter: @ketab_n

تلك الأماكن غدت أليفة جداً ومحببة إلى نفسي في النهاية غير أنه كان يتوجب علي التفكير بمغادرة توبو أخيراً صوب المخزن الذي كنت في حاجة من أجل الوصول إليه إلى بضعة أيام من الملاحة النهرية، ومن الضرب في الغابات.

توصلنا أنا وآلسيد إلى حالة من الوئام والتفاهم العميق. كنا نحاول معاً صيد أسماك أبو منشار، ذلك النوع من أسماك القرش التي تبيض وتفرخ على مقربة من الكوخ، كان آلسيد أخرق في هذه اللعبة بقدر ما كنت كذلك. لذلك لم نكن نصيد أي شيء.

لم يكن كوخه يحتوي من الأثاث سوى على سريره القابل للتفكيك، وسريري، وبضعة صناديق فارغة ومملوءة، كان خليقاً، مثلما بدا لي، أن يكون قد خبأ مبلغاً جيداً من المال في مكان ما، من عوائد تجارته.

«أين وضعتها... سألته مرات عدة، أين تخبىء نقودك القذرة؟ كان هذا من أجل إثارته، هل ستنفقها على اللهو والمجون حينما تعود؟» كنت أناكده..تخيلته، عشرين مرة، على الأقل، ونحن نتناول «معلبات البندورة» التي لا مفر منها، يخوض من أجل متعته في مغامرات عجيبة لدى عودته إلى بوردو، متنقلاً من ماخور إلى ماخور. لم يكن يجيبني بشيء، كان يضحك حسب، لم يكن ثمة أي موضوع آخر للحديث.

خطر لي، قبيل رحيلي أن أكتب إلى السيد بوتا كي أعلمه بأخباري، وتعهد آلسيد بإرسال رسالتي في بريد البابوتاه القادم. كانت أدوات الكتابة الخاصة بآلسيد محفوظة في علبة بسكويت صغيرة، تشبه العلبة التي رأيتها لدى برانليدور، شبهاً تاماً. كان لدى جميع الرقباء الذين أعيد تجنيدهم العادات نفسها، ولكنه حينما رآني أفتح علبته، فاجأني بحركة سريعة ليمنعني من

Twitter: @ketab_n

فتحها... استأت من تصرفه، لم أكن أعلم لماذا تصرف على هذا النحو، وضعت العلبة على الطاولة. «آه. افتحها، هيا، قال لي أخيراً .. هيا ليس لذلك أية أهمية» لمحت للتو صورة فوتوغرافية لفتاة صغيرة كانت ملصقة على ظهر الغطاء.. لا يظهر فيها سوى وجهها، وجه صغير عذب للغاية، وأقراط طويلة مثلما كانوا يعلقونها في ذلك الوقت. أخذت الورقة والريشة، وأغلقت العلبة بحركة سريعة، كنت منزعجاً من تطفلي، ولكني تساءلت بيني وبين نفسي لماذا أثار لديه ذلك كل هذا الاضطراب.

تصورت على الفور، بأن الأمر يتعلق بابن له كان قد تحاشى الحديث عنه أمامي حتى ذلك الوقت. لم أسأله عن ذلك، ولكني سمعته خلف ظهري يحاول أن يقول لي شيئاًما بشأن تلك الصورة بصوت متهدج غريب، لم أكن قد سمعته منه سابقاً. كان يغمغم غمغمة. لم أعد أعرف أين أضع نفسي، كان خليقاً أن أساعده كي يبوح لي بما يكنّه في صدره ولكني لم أكن أعرف كيف أتصرف في تلك اللحظة، كنت متأكداً بأن ما سيبوح به يشق سماعه. لم أكن أحتمل ذلك، في الحقيقة.

«هذا لاشيء، سمعت السيد أخيراً، تلك هي ابنة أخي... لقد ماتا كلاهما».

ـ والداها؟

ـ نعم والداها!

ـ فمن يربيها الآن إذا؟ أمك؟ سألته، بهذا النحو، كي أظهر له اهتمامي.

ـ أمي، لم يعد لي أم كذلك...

ـ من إذن؟

Twitter: @ketab_n

ـ ايه، حسناً، أنا»

كان آلسيد يضحك هازئاً، وقد اشتد احمراره، كما لو أنه كان قد فعل شيئاً ما غير لائق كلياً، ثم تابع بسرعة.

«هذا يعني، سأشرح لك... أنني عهدت بتربيتها إلى الراهبات... ولكن ليس إلى راهبات الفقراء، أنت تفهمني، أليس كذلك؟ إلى راهبات «راقيات». وما دمت أنا من يهتم بها، يمكنك إذن أن تكون مطمئناً. لا أحب أن ينقصها شيء. اسمها جينيت.. إنها فتاة صغيرة لطيفة، مثل أمها... تكتب لي... وهي تحرز تقدماً... المشكلة فقط، أنت تعلم، أن ذلك يكلّف غالياً.. ولا سيما أنها الآن في العاشرة من عمرها... كنت أود أن تتعلم البيانو في الوقت ذاته... ما رأيك أنت بالبيانو؟ إنه جيد، أليس كذلك، من أجل الفتيات؟ هل تعتقد ذلك؟ واللغة الإنكليزية؟ إنها مفيدة أيضاً... هل تعرف الإنكليزية أنت...»

بدأت أنظر إلى آلسيد عن قرب أكثر، فيما كان يعترف بخطئه من أنه لم يكن كريماً كفاية مع شاربه الصغير المدهون ومع حاجبيه المنحرفين الغريبين، مع جلده المتكلس. لقد بدا آلسيد حييّاً. كان عليه أن يقوم بتوفيرات من راتبه الزهيد، من علاواته الضئيلة، ومن تجارته السرية المحدودة... طوال شهور وسنين في هذه التوبو الجهنمية... لم أكن أعرف بماذا أجيبه، لم أكن جديراً بذلك. ولكنه تجاوزني كلياً بقلبه الذي اكتشفت أنه بالغ الحمرة. كنت إلى جانب آلسيد مجرد شخص فظ عاجز، ومتبلد الحس، عبثاً وباطلاً كنت. لا نكران في ذلك. كل شيء كان واضحاً كل الوضوح. لم أعد أجرؤ على التحدث إليه...شعرت فجأة بأنني غير أهل على الاطلاق للتحدث معه، أنا الذي كنت بالأمس استخف به، وحتى أزدريه إلى حد ما.

Twitter: @ketab_n

«لست محظوظاً، تابع آلسيد، دون أن يدرك بأنه كان يبلبلني بأسراره الحميمة. تخيل بأنها منذ عامين أصيبت بشلل الأطفال. تصور ذلك، أنت تعرف ما يعنيه شلل الأطفال؟»،

شرح لي حينئذ بأن ساقها اليسرى قد ضمرت وأنها تتابع علاجاً بالكهرباء في بوردو عند طبيب أخصائي.

«هل تعتقد بأنها ستشفى؟ عبر عن قلقه

أكدت له بأنها ستتعافى تماماً مع الزمن وبفضل العلاج الكهربائي. كان يتكلم عن أمه التي ماتت وعن مرض صغيرته بكثير من الحذر. كان خائفاً، وحتى من مسافة بعيدة، أن يسبب لها الأذى

«هل، رأيتها بعد مرضها؟

ـ لا.. كنت هنا

ـ هل ستذهب عما قريب؟

ـ أعتقد بأنني لن أتمكن من ذلك قبل ثلاث سنوات.. أنت تفهم، أنا هنا، أقوم بتجارة صغيرة، هذا إذن، يساعدها جيداً، إذا ذهبت في اجازة الآن، فإن موقعي هنا سيصبح مشغولاً، حينما أعود، خصوصاً مع ذلك الوحش، غرابا

هكذا طلب آلسيد أن يضاعفوا له إقامته، وأن يجعلوها ست سنوات في توبو، بدلاً من ثلاث، من أجل ابنة أخيه الصغيرة التي لم يكن لديه منها سوى بضع رسائل، وتلك الصورة الفوتوغرافية. «ما يقض مضجعي، حينما أنام، هو أنه ليس لها أحد هناك في أيام العطل... هذا قاسٍ بالنسبة إلى طفل صغير...»

كان آلسيد، بالتأكيد، يعيش في نوع من التسامي بحرية، ويناغي الملائكة بألفة، ودونما كلفة تقريباً من خلال تلك الطفلة، لم يكن يبدو عليه ذلك

Twitter: @ketab_n

اطلاقاً. كان يقدم دونما تردد تقريباً لفتاة صغيرة، تربطها به قرابة غامضة سنوات من العذاب، إلغاء حياته البائسة وسط تلك الوحشة المهلكة، دون شرط، ودون مساومة، ودون مصلحة سوى مصلحة قلبه الطيب، كان يقدم لهذه الفتاة الصغيرة فيضاً من الحنو كي يعيد بناء عالم بأكمله، دون أن يلحظ أحد ذلك.

نام السيد فجأة، على ضوء الشمعة، نهضت لأتملى جيداً ملامحه على الضوء، كان ينام مثلما ينام كل الناس، مظهره عادي تماماً، ومع ذلك، فلن يكون من الحماقة لو كان ثمة شيء ما يميز الأبرار من الأشرار.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

« يمكن التصرف بطريقتين اثنتين من أجل اختراق الغابة، إما بعمل نفق فيها على منوال الجرذان داخل حزم العشب، وتلك هي الطريقة التي تخنق الأنفاس، وقد أعرضت عنها، وإما تجشم صعود النهر إذن، متكوماً في قاع زورق مقدود من جذع شجرة، مدفوعاً بالمجداف، ما بين تعرجات النهر وحرجاته المتلبدة، مترقباً، على هذا النحو نهاية نهارات ونهارات، متعرضاً خلالها، على نحو يائس، للهيب الأشعة الحارقة منذهلاً وسط هؤلاء الزنوج الصخابين. لابد من الوصول إلى حيث ينبغي بأفضل ما ينبغي من السبل.

كان المجدفون، في كل مرة يهمون فيها بالانطلاق بحاجة إلى وقت طويل، كي يجدفوا معاً بإيقاع واحد منتظم، وقد ثار بينهم الجدال، تحركت لوحة مجداف واحدة في البداية، ثم اثنتان أو ثلاثة موزونة على إيقاع صيحات هادرة، وردت الغابة بدوامة من الأصوات. وانساب القارب. وتناغمت حركة المجاديف. أمواج، غمغمات، ويرتد بصرك إلى الخلف، لترى البحر وهو ينبسط خلفك نائياً. وتمتد أمامك مساحات صقيلة تمخرها بجهد شديد. كان آلسيد، ما يزال فوق الرصيف. كنت ألمحه من بعيد، ملفوفاً بضباب النهر، تحت قبعته الضخمة، ليس ثمة سوى قطعة من رأس، ووجه صغير كقرص من الجبن، أما ما تبقى منه أسفل ذلك فكان يتموج داخل قميص ضائع وسط ذكرى غريبة لبنطال أبيض.

هل ستستطيع تلك القرية الملتهبة دوماً أن تحمي نفسها أمام المنجل الماكر للنهر ذي المياه السمراء، وهل ستتمكن أكواخها الثلاثة المكتظة

Twitter: @ketab_n

بالبراغيث من أن تتمالك نفسها دوماً وتظل واقفة؟ هل هناك أيضاً غرابات جدد (ج غرابا)، وآلسيدات مجهولون (ج آلسيد) يدربون مجندين حديثين على تلك المعارك العابثة؟ هل ينشرون فيها تلك العدالة بتواضع؟ والماء الذي يحاولون شربه هل هو بتلك الزناخة دوماً وبتلك السخونة، وهل سيتقزز منه فمك طوال ثمانية أيام بعد كل شربة منه؟ ولن تجد بعد، قطعة ثلج في أي وقت من الأوقات. وتلك المعارك التي تخوضها أذنك مع طنين الكينين المتواصل والذي يسلمها إلى طنين الذباب؟ والسولفات؟ والكلوريدات؟ ولكن، وفي البداية، هل ما يزال يعيش في هذا الجو الفرني زنوج لم تجف عروقهم بعد. ولم تأكل جلودهم البثور والدمامل؟ لعل أحداً لا يعود موجوداً قط. لعل شيئاً من كل هذا لا يبقى له أثر. لعل الكونغو الصغري تلعق ذات مساء لعقة قوية من لسانها توبو، وتمسحها عن الوجود، بإعصار مدمر، تمسحها عن آخرها، ويختفي اسمها من الخرائط، ولا يبقى سواي في النهاية، كي أتذكر آلسيد. لعل ابنة أخيه تنساه أيضاً . ولعل الملازم غرابا لا يرى تولوزه أبداً. لعل الغابة التي كانت ترصد على الدوام الكثيب الرملي عند رحيل فصل الأمطار تسترجعه كلياً، وتسحقه تماماً تحت ظلال أشجار أكاجو عملاقة. وحتى الزهور الصغيرة التي نبتت في الرمل على نحو ليس في الحسبان، والتي لم يكن آلسيد يريد سقيها لا يعود لها وجود أبداً.

ماحدث في الأيام الثمانية من صعودي ذلك النهر، سيظل لأمد طويل عالقاً بذاكرتي. انقضت تلك الأيام في مراقبة دراردير المياه الطمية في جوف القارب، وفي اختيار ممر خفي إثر ممر، ما بين الأغصان الضخمة والمائلة التي كان القارب يتجنبها. محكومين بالأشغال الشاقة.

Twitter: @ketab_n

كنا نتوقف بعد كل غسق عند شناخ صخري نبيت ليلنا فوقه. وذات صباح غادرنا نهائياً ذلك القارب البدائي القذر، ودخلنا الغابة من ممر محتجب، ينسل داخل الغبش الأخضر الندي، مضاء فقط، من موضع إلى موضع بشعاع من الشمس ساقط من أعالي تلك الكاتدرائية اللانهائية من الأوراق. أشجار هائلة مقطوعة، كانت تضطر مجموعتنا إلى كثير من الالتفافات، كان يمكن لمترو بأكمله أن يتحرك داخل جوفها بكل حرية.

عاد إلينا النور الساطع في إحدى اللحظات، كنا قد وصلنا أمام فسحة مستصلحة من الغابة، كان علينا الآن أن نتسلق ربوة عالية، جهد جديد آخر. كانت تلك الربوة التي بلغنا قمتها أخيراً تتوج الغابة اللانهائية، لاحت فوقها ذرى صفراء وحمراء وخضراء. كانت مأهولة بالسكان، تعتصر كل ما في الجبال والوديان من ثروات. غنية غنى السماء والماء. كان الرجل الذي ذهب يبحث لنا عن بيوت السكان ما يزال بعيداً، هناك في واد صغير مثلما أشاروا لي. كان ينتظرنا.

بين صخرتين هائلتين، كان يقوم نوع من كوخ في مأمن، كما أعلموني، من الأعاصير الشرقية الأشد تدميراً، والأكثر هيجاناً. وفكرت بأن تلك كانت مزية حقيقية، غير أن الكوخ ذاته كان من دون ريب في الدرك الأسفل من التصدع والهلهلة. مسكن نظري تقريباً، متداع بكل أركانه. كنت أتوقع فعلاً شيئاً من هذا القبيل، فيما يخص مساكن أولئك الأقوام، ولكن الواقع مع ذلك، كان يتجاوز كل توقعاتي

كان علي أن أبدو لزميلي هنا حزيناً للغاية، وبادرني بالحديث بخشونة بالغة كي يخرجني من أفكاري التي كنت غارقاً فيها. «هيا إذن، ستكون هنا في وضع أقل سوءاً مما كنت عليه في الحرب. يمكن للمرء هنا في النهاية أن

Twitter: @ketab_n

يتدبر أموره. إنه يأكل بصورة سيئة، هذا صحيح. أما بالنسبة إلى الشرب فهو وحل حقيقي! ولكنه ينام هنا كما يحلو له. ما من مدافع هنا يا صديقي ولا رصاص. وفي المحصلة، ذلك وضع في غاية الصعوبة» كان يتكلم بلهجة المدير العام تقريباً، ولكن عينيه كانتا شاحبتين مثل عيني آلسيد وفوجئت بحديثه عن الحرب والمدافع.

كان يقارب الثلاثين من العمر على الأرجح، ملتحياً. لم أكن قد نظرت إليه ملياً حينما وصلت، لفرط ما كنت مبلبلاً في تلك اللحظة من بؤس الكوخ الذي كان يقيم فيه، والذي سيؤول إلي حتماً، ويصبح مأواي خلال سنين ربما. ولكنني حينما عاينته فيما بعد، وجدت في ملامح وجهه شخصاً مغامراً من دون ريب، وجه رسمت زواياه بحدة، ورأساً من تلك الرؤوس المتمردة التي تدخل إلى لب الوجود بدلاً من أن تتدحرج على سطحه، بأنف ضخم ومدور. ووجنات مملوءة بأخاديد أشبه بزوارق محفورة في الجذوع، هادرة في وجه القدر. كان ذلك الرجل تعيساً غاية التعاسة.

«هذا صحيح، تابعت الحديث، لا شيء أسوأ من الحرب» كان ذلك كافياً في تلك اللحظة كحوار فيما بيننا. لم يكن لدي رغبة بالتحدث عن الأوضاع أكثر من ذلك. ولكنه هو الذي استأنف الكلام حول الموضوع ذاته.

«الآن وقد أطالوا أمد الحرب على الأخص .. أضاف.. سترى أخيراً يا صديقي أن الحياة هنا ليست مسلية جداً.. هذا كل ما في الأمر!.. لا شيء تفعله البتة.. كما لو أنك في نوع من إجازة... إجازة فقط ... أليس كذلك. كل شيء يتعلق بالطبائع، وأخيراً لا يسعني قول أي شيء.

والماء؟ سألته، بعد أن أثار قلقي منظر الماء في القدح وسكبت منه بنفسي، كان مشوباً بصفرة كدرة. وحين شربت منه جرعة أثارت فيّ الغثيان، كان ساخناً مثل الماء في توبو .

Twitter: @ketab_n

«هل هذا هو الماء؟» كانت متاعب الماء على وشك أن تبدأ. «نعم! لايوجد هنا غير هذا الماء. بالإضافة إلى المطر.. ولكن المشكلة فقط هي أن الكوخ لن يصمد طويلاً حينما تمطر، هل ترى في أي حال هو الكوخ؟» كنت أرى بالطبع.

«بالنسبة إلى الطعام، مامن شيء سوى المعلبات. منذ عام وأنا آكل منها، ولم أمت بسببها مع ذلك!.. إنها طعام يسهل تناوله، بمعنى ما، ولكنه لايستقر في الجسم. أما الزنوج فيأكلون المانيهوت المتعفن. ذلك شأنهم، إنهم يحبون ذلك... منذ ثلاثة شهور وأنا أستفرغ كل شيء. إنه الإسهال وربما هي الحمى أيضاً. لدي الإثنان معاً... منذ الساعة الخامسة لا أعود أرى الأشياء بوضوح، ولهذا عرفت بأنني مصاب بالحمى. أما بصدد الحر فأنت تعلم... من الصعب أن يكون هناك حر في أي مكان من العالم أقسى مما لدينا هنا في هذه البلاد... وبوجه الإجمال، فإن القشعريرة هي التي تنبهك إلى أنك محموم... وتشعر حينئذ بالسأم أقل... ولكن ذلك مرهون بالطبائع أيضاً... يمكنك ربما أن تتجرع الكحول كي تشعر ببعض النشاط، ولكنني لا أحب الكحول.. لا احتمله.. أبداً»

كان يبدو أنه يولي كثيراً من الاعتبار لما يدعوه «الطبائع»

فيما هو ماض في الحديث، قدم إلي بعض المعلومات المشوقة الأخرى «النهار، يعني الحر، أما الليل، فيعني الضجيج.. وهو الأصعب على الاحتمال... ضجيج لا يصدق.. ضجيج حيوانات المنطقة. يطارد بعضها بعضاً كي تتسافد أو تلتهم بعضها، لا أدري عن ذلك شيئاً. ولكن هذا ما قيل لي... أما الأشد صخباً بينها فهي الضباع. إنها تأتي إلى هنا، على مقربة من الكوخ... أنت لا تخطىء أصواتها، ليس ذلك على غرار طنين الكينين في

Twitter: @ketab_n

الأذن. من الممكن أن تخطىء أحياناً في التمييز بين أصوات العصافير، وأزيز الذباب الكبير، وطنين الكينين... هذا يحدث.. بينما الضباع.. إنها تمجن أيما مجون... تتشمم لحمك، فيثير ذلك ضحكها. إنها تتعجل هلاكك، يمكنك حتى أن ترى عيونها وهي تتوهج، كما يزعمون... إنها تحب الجثث، ولكنني لم أرها بأم عيني، وهذا يؤسفني بعض الأسف.

- هذا مسلٍ هيا، أجبته.

غير أن ذلك لم يكن كل شيء للترفيه خلال الليالي.

«هناك القرية أيضاً، أضاف زميلي... لا يوجد مئة زنجي فيها، ولكنهم يثيرون من الضجيج ما يعادل عشرة آلاف، أولئك اللواطيون.. ستروي عما قريب قصصاً كثيرة عنهم. آه! فإذا تحدثت عن التام تام فحدث ولا حرج، فأنت لن تضل عن المستوطنة. لأنهم هنا يطبلون للقمر حيناً، وقت طلوعه... ويطبلون له، حيناً آخر، وقت اكتماله... ويطبلون له وقت انتظاره.. يطبلون دائماً من أجل شيء ما، حتى لتقول بأن هؤلاء القذرين اتفقوا مع الحيوانات على أن يقضّوا مضجعك، على أن يهلكوك، أقول لك! كنت أضربهم بقسوة حينما لا أكون متعباً. ولكنني كنت أفضل أيضاً أن أسد أذنيّ بالقطن. في السابق، حينما كان ما يزال في صيدليتي بعض الفازلين. كنت أضعه في أذني فوق القطن، أما الآن فأنا أضع شحم الموز بدلاً عنه. إنه جيد أيضاً، شحم الموز. فحين أضعه في أذني، لا أبالي بعد ذلك إذا ما أطلقوا رعود الرب! جلود النقانق هؤلاء! سيان عندي حين أضع قطني مع الشحم. لأنني لا أعود أسمع شيئاً. هؤلاء الزنوج، أنت ستكتشفهم للتو. إنهم خائرو القوى تماماً. متعفنون حتى العظام... تراهم في النهار مقعين على مؤخراتهم. حتى لتظنهم غير قادرين على النهوض ليتبولوا فقط، عند جذع شجرة.. وحين يجن الليل..

Twitter: @ketab_n

يظهرون لك، وقد غدوا داعرين كلياً، هائجي الأعصاب للغاية، هيستيريين إلى أبعد حد. قطع من الليل منفلتة بجنون... أولئك هم الزنوج. أقول لك إنهم منحلون، مقززون، في المحصلة.

- هل يأتون إليك ليشتروا أحياناً؟

- يشترون؟ آه ضع هذا في حسابك... عليك أن تسرقهم قبل أن يسرقوك. تلك هي التجارة. هذا كل ما في الأمر. في أثناء الليل، لايزعجونني بالمرة، ما دمت قد وضعت، قطني المشحم في كل أذن من أذنيّ، ولكنهم سيخطئون إن سلكوا معي سلوكاً أحمق، وبعد ذلك.. أنت ترى. ليس لكوخي أبواب في حين أنهم يضعون أبواباً لأكواخهم. يمكنك أن تقول في النهاية. تلك هي حياتهم هنا.

ـ ولكن، ما الذي سنفعله بشأن جرد المواد؟ سألته وأنا مذهول عن نفسي بسبب تلك المعلومات، لقد أوصاني المدير العام بأن أقوم بجرد كامل ودقيق للبضائع الموجودة، حال وصولي.

ـ فيما يتعلق بي. أجابني حينذاك بهدوء تام، لقد أضجرت المدير العام.. لي الشرف بأن أقول لك ذلك.

ـ ولكنك ستقابله مع ذلك في فورت غونو. حينما ستعود إليها

ـ لن أرى على الإطلاق، لا فورت غونو ولا المدير... الغابة واسعة أيها الصديق الصغير.

ـ ولكن، إلى أين ستذهب، إذن؟

ـ إذا ما سألوك عن ذلك، فستجيب بأنك لا تعرف عني شيئاً، ولكن، ما دمت تبدو فضولياً فدعني أقدم لك، ما دام ما يزال لدينا فسحة من الوقت، نصيحة ثمينة ومفيدة.. لا تهتم إذن بشؤون «شركة بوردوريير» إلا بقدر ما

Twitter: @ketab_n

تهتم هي بشؤونك، وإذا ما جريت بسرعة لصالح الشركة. فيمكنني أن أقول لك منذ الآن بأنك ستنال، بالتأكيد «الجائزة الكبرى»! الهلاك. لتكن سعيداً إذن بأنني سأترك لك بعض النقود. فلا تطلب مني أكثر من ذلك. أما بصدد البضائع، إذا كان صحيحاً أن المدير أوصاك بأن تأخذ أمرها على عاتقك، فستقول له بأنه لم يكن هناك أية بضائع، هذا كل ما في الأمر... وإذا رفض أن يصدقك ايه، حسناً، فالأمر سيان، فهم ينظرون إلينا على أي حال، على أننا لصوص قطعاً. ولن يغير من الأمر شيئاً، إذا ماعاد علينا ذلك ولو لمرة واحدة ببعض الفائدة. فكن مطمئناً، لأن المدير، بالإضافة إلى ذلك خبير بالحيل أكثر من أي شخص، وما من فائدة ترجى من إقناعه، هذا هو رأيي.. فهل ترى رأياً آخر؟أنت تعلم جيداً، بأن المرء حين يأتي إلى هنا، عليه أن يكون مستعداً لقتل أبيه وأمه، إذن؟..

لم أكن واثقاً تماماً، بأن كل ما رواه لي كان واقعياً، ولكن سلفي هذا ترك. لدي انطباعاً فورياً بأنه ابن آوى فريد من نوعه.

زايلتني الطمأنينة تماماً. وقلت في نفسي «لقد وقعت في شر ورطة» وازداد قلقي أكثر فأكثر. كففت عن التحدث مع هذا القرصان، وفي إحدى الزوايا وقع نظري بشي من الفرحة على ركام من البضائع كان يريد، كما يبدو، تركها لي، أقمشة قطنية زهيدة القيمة... إلى جانب وزارات ودزينات من النعال، وبهارات في علب، وفوانيس، ومحقنة، وبوجه خاص، كمية كبيرة من علب اليخنة مكدسة داخل برميل. وأخيراً، بطاقة بريدية بالألوان، «ساحة كليشي».

«إلى جانب العمود ستجد الكاوتشوك والعاج الذي اشتريته من الزنوج، كنت في البداية، أرهق نفسي كثيراً، وبعد ذلك... إليك، خذ الثلاثمئة فرنك، هذا هو حسابك.

Twitter: @ketab_n

لم أكن أدري عن أي حساب كان يتكلم، ولكنني أمسكت عن سؤاله حول ذلك.

ـ «ربما سيتاح لك أيضاً القيام ببعض المبادلات بالبضائع، قال لي مذكّرا، لأن الزنوج كما تعلم، ليسوا بحاجة إلى النقود.. النقود هنا لا يمكن أن تصلح إلا للفرار».

شرع يمازحني ضاحكاً، ولأنني لم أكن راغباً في معاكسته في تلك اللحظة، فقد ضحكت أنا أيضاً، وبادلته المزاح كما لو كنت مسروراً فعلاً.

على الرغم من هذا الاملاق الشديد الذي كان يتخبط فيه منذ شهور، فقد كان يتمتع بخدمة منزلية بالغة التعقيد، مكونة من غلمان يافعين يسارعون إلى تقديم ملعقته الوحيدة له، أو طاسه الذي لا مثيل له، أو إلى انتزاع البراغيث الدؤوبة والكلاسيكية التي تنخر الجلد وتتوغل فيه. في باطن قدميه. وكان هو يكافئهم بالمقابل، بتمرير يده مجاناً، بين أفخادهم، في كل لحظة. أما الجهد الوحيد الذي رأيته يقوم به بنفسه، فهو أنه كان يحك جسمه بيده، ولكنه كان ينخرط في الحك، على غرار صاحب المخزن في فورت غونو، برشاقة منقطعة النظير، لا تقع عليها العين قطعاً إلا في المستعمرات.

كشفت لي المنقولات التي أورثنيها، عن كل ما يمكن للمهارة أن تحققه، من صناديق صابون مفتت، ومن كراسي، وطاولات صغيرة وأرائك. وقد علمني هذا الرجل الغامض كيف كان يقذف بعيداً بضربة واحدة سريعة من رأس قدمه، من أجل التسلية، يساريع الفراش الثقيلة المجللة بأغلفتها، والتي كانت تقتحم دون توقف كوخنا الغابي، مرتعشة، مفرزة خيوطاً من اللعاب، ولكنك إذا سحقتها بقدمك بضربة غير موفقة، فالويل لك، وستكون عقوبتك ثمانية أيام متتالية من النتانة الشديدة، تتصاعد ببطء من سائلها المقزز الذي

Twitter: @ketab_n

لايمكن نسيانه. كان قد قرأ في الكتب بأن هذه المخلوقات الفظيعة تمثل في الواقع أقدم ما وجد في الكون من حيوانات... كانت ترقى، كما يزعم، إلى الحقبة الجيولوجية الثانية «حينما سنرحل بعيداً مثلها، يا صاحبي، أفلا نتعفن؟» مثلها.

كانت أوقات الغسق في ذلك الجحيم الأفريقي تكشف عن عجب عجاب، لا يمكن الإفلات من سحره. مشهد مأساوي فاجع أشبه بمصرع الشمس في كل يوم. خداع هائل للنظر. كل ما في الأمر أنه كان ثمة فيض زاخر من الفتنة، بالنسبة إلى شخص واحد. كانت السماء خلال ساعة واحدة، تتضح من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر لوناً قرمزياً هذيانياً، ثم ما يلبث اللون الأخضر أن ينفجر وسط الأشجار، ويتصاعد من الأرض على هيئة سحب متراقصة. حتى أوائل النجوم الذاريات... ثم يستعيد الرمادي الأفق ومعه الأحمر أيضاً، ولكن الأحمر ما يلبث أن يلفظ أنفاسه ويتلاشى، ليكتمل المشهد آنئذ. ثم تتساقط كافة الألوان مزقاً، بوهن شديد فوق الغابة على غرار طلاءات لمّاعة.. كان ذلك يحدث عند الساعة السادسة تماماً، من كل يوم.

وحينذاك، يدخل الليل بكل وحوشه في حلبة الرقص، بين ألف نقيق ونقيق من أشداق العلاجيم.

لم تكن الغابة تنتظر سوى إشارة من هذه العلاجيم حتى تشرع في الارتعاش، والصفير والعجيج بكل أعماقها. بؤرة شبق هائلة الأبعاد لا يتخللها الضوء، حافلة بقرقعة لا نهائية، جميع الأشجار منتفخة بولائم حية، بانتعاظات مبتورة، برعب لا يوصف. وانتهى بنا الأمر إلى أننا لم نعد نسمع بعضنا أنا ورفيقي داخل الكوخ. كان علي أن أنعق من فوق الطاولة مثل بوم حتى يفهم رفيقي ما أقول. لقد أتخمت، أنا الذي كنت لا أطيق الأرياف.

Twitter: @ketab_n

«ما اسمك؟ ألست روبنسون، مثلما قلت لي» سألته، كان رفيقي يكرر على مسامعي بأن السكان الأصليين في هذه النواحي يعانون، حتى تضوى أجسادهم، من جميع الأمراض المعدية وغير المعدية. ولكن هؤلاء الرثين المهلهلين قادرون على الانخراط في كل أنواع التجارة، دون تمييز. وفيما نحن نتكلم عن الزنوج كانت أعداد هائلة من البعوض والحشرات الكبيرة جداً، تأتي لتسقط حول السراج، في زخات كثيفة جداً. حتى اضطررنا إلى إطفائه.

كان وجه روبنسون ما يزال يبدو لي قبل أن أطفأ السراج مغشى بشبكة من الحشرات، لذلك فقد انطبعت ملامحه بدقة أكبر في ذاكرتي، بينما لم تكن تذكرني تلك الملامح قبل ذلك بأي شيء محدد. كان يواصل الحديث، وسط العتمة بينما كنت أعود إلى الماضي على رنة صوته كما لو أنها نداء أمام أبواب السنين، ثم أبواب الشهور، ثم أمام أبواب أيام حياتي كي أسائلها، ترى أين أمكنني فعلاً أن أقابل هذا المخلوق، ولكنني لم أهتد إلى شيء ولم تجبني بشيء. يمكن للمرء أن يتوه فيما هو يتلمس الطريق بين الأشكال التي عفا عليها الزمن. من المخيف أن يكون داخل ماضينا أشياء وأشخاص لم يعودوا يتحركون فيه، فالأحياء الذين نضيعهم وسط مدافن الزمن ينامون مع الأموات، بعد أن يتلبسهم ظل واحد.

حينما يشيخ المرء، لا يعود يعرف من يوقظ، الأحياء أم الأموات. كنت أسعى للتحقق من هوية هذا الروبنسون حينما طرق سمعي نوع من ضحك بالغ الفظاظة، غير بعيد في ذلك الليل، جعلني أنتفض ثم ما لبث أن خمد، كان رفيقي قد حذرني من قبل، تلك هي الضباع ولا شك.

بعد ذلك همد كل شيء، ولم يعد ثمة سوى زنوج القرية، وقرع طبولهم، ذلك القرع المجنون، بالخشب المجوّف، مثل أرضات الريح.

Twitter: @ketab_n

اسم روبنسون بالذات هو الذي كان يبلبلني بوجه خاص، أكثر فأكثر. بدأنا نتحدث عن أوروبا وسط عتمة الكوخ. عن وجبات الطعام التي يمكن أن يتناولها المرء هناك حينما يكون لديه المال، وعن الشراب، المرطب جداً.. لم نتطرق في حديثنا إلى الغد، حيث سيتعين علي أن أظل وحدي هنا، لسنوات ربما، مع كل «يخنة الفاصوليا» تلك. هل كان ينبغي إذن أن أفضّل الحرب؟ كانت الحرب أسوأ من دون ريب، كانت أسوأ. كان هو نفسه يوافقني على ذلك. لقد كان هو أيضاً في الحرب، غير أنه سيذهب من هنا. كان لديه من الغابة ما يكفيه.. حاولت أن أجره إلى موضوع الحرب، ولكنه كان يتهرب من الحديث عنها.

أخيراً، وفي اللحظة التي نمنا فيها، كل واحد في ركن من ذلك الخراب من الأوراق والعوارض اعترف لي، دون مواربة، بأنه إذا ما وازن بين كافة الأمور، فإنه يفضل أن يجازف بالمثول أمام محكمة مدنية بتهمة الاختلاس على أن يتحمل الحياة مع «يخنة الفاصوليا» التي كان يعيش عليها هنا منذ سنة تقريباً. كنت خامداً تماماً.

«أليس لديك قطن من أجل أذنيك؟ سألني أيضاً.. إذا لم يكن بحوزتك، فاصنع سدادات من وبر اللحاف القطني ومن لب الموز. يمكنك أن تنجح هكذا في صنع سدادات صغيرة جيدة جداً! أنا لا أحب سماع صرخات هؤلاء المتوحشين.

أثارت انتباهي طريقة القطن فجأة، كان خليقاً أن يضمر فيها حيلة دنيئة، ما عاد بوسعي، أن أحول دون أن يتملكني خوف شديد، من أن يغتالني فوق سريري «النقال» قبل أن يذهب حاملاً معه ما تبقى من الصندوق. تلك الفكرة أقضت مضجعي. لكن، ما العمل؟ أنادي؟من؟ أكلة لحوم البشر في القرية؟ أختفي من الوجود إذن؟.. لقد كنت مختفياً، تقريباً، في الحقيقة، في

Twitter: @ketab_n

باريس، دون ثروة، ودون ميراث. لم أكد أكون موجوداً حينذاك، من الصعوبة أن لا يختفي المرء من الوجود في مثل هذه الشروط، إذن؟ من الذي سيجشم نفسه، عناء المجيء إلى بيكوميمبو من أجل أن يبصق في الماء فقط، ليس أكثر، تحية لذكراي، لا أحد قطعاً.

كانت الساعات تمر، يتناوبني فيها الاطمئنان والقلق. لم يكن يشخر. وكانت كل تلك الأصوات، والنداءات التي تأتيني من الغابة تحول دون أن أسمع أنفاسه. ما من ضرورة للقطن. غير أن ذلك الاسم روبنسون انتهى أخيراً، لفرط ما قلّبته في ذاكرتي، إلى أن يكشف لي عن جسد، عن هيئة، عن صوت كنت قد عرفته فيما مضى. وفي اللحظة التي كنت فيها على وشك أن استسلم للرقاد، انتصب الشخص بلحمه ودمه أمام سريري، ليس هو بالتأكيد، وإنما ذكراه بالتحديد. ذكرى ذلك الروبنسون. رجل نوارسير سور لا لي، هناك في الفلاندر، والذي رافقته في غضون تلك الليلة، حين كنا نبحث معاً عن جحر كي نخلص من الحرب، وهو أيضاً الذي التقيته في باريس فيما بعد، كل شيء عاد الآن.. سنوات مرت بلمحة عين... كان الصداع قد ألم برأسي، واستولى علي كرب شديد... لم يكن بإمكاني الآن بعد أن عرفته، وميزته بوضوح إلا أن أشعر بخوف طاغٍ. هل عرفني؟ كان بإمكانه على أي حال أن يعتمد على صمتي، وعلى تواطؤي.

«روبنسون! روبنسون، ناديته، أيها الجسور، كأني أزف له خبراً جديداً. هيه يا صديقي، هيه روبنسون» ولكن ما من جواب.

كان قلبي يخفق بقوة، نهضت متهيئاً لتلقي ضربة قاتلة في معدتي ولكن لا شيء. جازفت حينئذ، وقد دبت فيّ الشجاعة، بالتحرك على غير هدى، نحو طرف الكوخ الآخر حيث كان ينام، كان قد رحل.

Twitter: @ketab_n

انتظرت طلوع النهار، وأنا أشعل عود ثقاب بين وقت وآخر، ثم انبلج النهار في إعصار من النور. وجاء الخدم الزنوج ليقدموا إلي بمرح لاجدواهم الهائلة، سوى أنهم كانوا جذلين، كانوا يريدون أن يعلموني اللامبالاة. حاولت عبثاً، عبر سلسلة من الحركات المدروسة أن أفهمهم مقدار القلق الذي سببه لي اختفاء روبنسون، ولكن ذلك، كما يبدو، لم يمنعهم من أن يظهروا لا مبالاة كاملة. ثمة الكثير من الجنون، حقاً، في الانشغال بشيء آخر غير ما يراه المرء أمامه. أما أنا، فلم آسف فيما جرى، على أي شيء سوى على الصندوق في النهاية، غير أنه من غير الشائع أن نرى مرة أخرى الأشخاص الذي يسرقون الصندوق، هذه الحال جعلتني أفترض بأن روبنسون تخلى عن العودة من أجل قتلي لا غير. كان ذلك بالنسبة إلي يعد مكسباً ثميناً.

لي وحدي إذن بقي المشهد، سيكون لدي الوقت بأكمله للعودة إلى سطح وإلى أعماق ذلك المدى الشاسع من الأوراق. إلى ذلك المحيط من اللون الأحمر، والمرمري الأصفر، والملحي المتألق، البالغ الروعة بالتأكيد لدى أولئك الذين يحبون الطبيعة، أما أنا فلم أكن أحب الطبيعةعلى الإطلاق. كانت شاعرية المناطق الاستوائية تثير تقززي. كانت نظرتي إلى هذه المجاميع العضوية، وأفكاري حولها ترتد إليّ مثل أسماك التون. عبث كل ما يقال، فهذه البلاد ستكون دوماً بلاداً للبعوض وللنمور الرقطاء. لكل موطنه.

كنت أفضل العودة إلى كوخي، وإنهاضه من كبوته، ليقف بتوازن، تحسباً للإعصار الذي لا يمكن أن يتأخر. ولكن كان عليّ هنا، أيضاً، أن أتخلى سريعاً عن مشروعي في دعم الكوخ وتعزيز أركانه. فما كان قد عفا عليه الزمن في هذا الهيكل، آيل للانهيار في أية لحظة، وهو لن يعود إلى الوقوف ثانية. كان القش الذي تفشت فيه الهوام الطفيلية قد تتسلّ كلياً، ولن يكون بإمكاني بعد أن أصنع من مسكني مبولة مناسبة.

Twitter: @ketab_n

بعد أن تمليت بحيوية، بعضاً من مشاهد هذه الأدغال، كان علي أن أنطرح خائراً وأنكفئ إلى الصمت بسبب الشمس، ودائماً الشمس، كل شيء يصمت، كل شيء يعتريه الخوف من الاحتراق وقت الظهيرة... فالعشب والحيوانات والبشر تتلظى في تلك الساعة. إنها سكتة الهاجرة.

كان ديكي الصغير، وحيدي في ذلك العالم، يخشى هو أيضاً، تلك الساعة. كان يروح ويغدو معي، إنه المخلوق، الوحيد، الذي تركه لي روبنسون... عاش إلى جانبي على هذا النحو طيلة ثلاثة أسابيع، يتبعني مثل كلب، قارقاً في كل لحظة، مكتشفاً الأفاعي في كل مكان. وفي ذات يوم، وقد أرهقني سأم شديد، ذبحته وأكلته. لم يكن له مذاق، لحمه الباهت اللون كان يبدو تحت الشمس مثل قماش الكاليكو الخشن. لعله هو الذي طرحني مريضاً، ففي اليوم التالي بعد تلك الوجبة تماماً لم أعد أقوى على النهوض. وعند الظهيرة جررت نفسي وأنا أهذي نحو علبة الأدوية الصغيرة، لم يكن في داخلها سوى صبغة يود. لم يكن ثمة زبائن من بين الذين كانوا يأتون إلى المخزن، سود فقط متسكعون، عدد لا يحصى من المومئين بإشارات غير مفهومة، يمضغون ورق الكولة، شهوانيين، وبردائيين. أما الآن وبعد أن سقطت مريضاً فقد أطبق علي الزنوج، وشكلوا حلقة حولي، كانوا يتناقشون، كما يبدو، حول هيئتي الزرية. مريض، كنت مريضاً مدنفاً، وبدا واضحاً أنني لم أعد بحاجة إلى ساقيّ. كانتا متدليتين ببساطة من حافة سريري كشيئين فائضين عن الحاجة، ومضحكين إلى حد كبير.

ومرت أيام لم يكن يصلني فيها من فورت غونو، من مدير الشركة عبر البريد سوى رسائل، حافلة بالشتائم والحماقات المتوعدة أيضاً، كان التجار الذين يعتبرون أنفسهم جميعاً ضليعين كثيراً أو قليلاً في أسرار المهنة

Twitter: @ketab_n

يتكشفون، في الأعم الأغلب خلال الممارسة، عن حمقى من الطراز الأول. أمي في فرنسا، كانت تحثني في رسائلها على العناية بصحتي، مثلما كانت تفعل في الحرب. وحتى تحت شفرة المقصلة كانت أمي ستؤنبني لأنني نسيت وشاحي. كانت ترتكب جميع الحماقات الممكنة كي تقنعني بأن العالم كان رحيماً، وأنها فعلت خيراً بحملها بي. كانت تلك هي الذريعة الكبرى للإهمال الأمومي، الحمل والرعاية الأمومية المفترضة، كان من السهل علي جداً مع ذلك بأن لا أجيب على كل هذا الهذر من رب العمل ومن أمي، ولم أجب عليه أبداً. ولكن هذا الموقف وحده لم يكن يحسّن شيئاً من وضعي.

كان روبنسون قد سرق تقريباً كل ما كانت تحتويه تلك المنشأة الهزيلة. ولكن من سيصدقني إذا ما قلت ذلك؟ ما الفائدة من قول ذلك؟ ولمن؟ لرب العمل؟ وفي كل مساء وعند الساعة الخامسة كنت أرتعد من الحمى، بحدة فيقعقع سريري ويهتز اهتزازات شديدة، كما لو بفعل زلزال حقيقي.

كان زنوج القرية قد استحوذوا ببساطة، على خدمتي في الكوخ، لم أكن قد طلبت منهم ذلك، ولكن صدهم وإبعادهم كان يحتاج إلى جهد كبير جداً. كانوا يتشاجرون حول ما تبقى من البضائع، ويقلبون، بلا تردد رزم التبغ في البراميل، ويجربون آخر الوزرات، يقيسونها، ويتخاطفونها. كانوا يضيفون أيضاً ما أمكنهم ذلك، تشتتاً جديداً على ما يسود كوخي من تشتت وفوضى. كان عصير الكاوتشوك المندلق على الأرض بإهمال، يختلط بشمام الغابة، وبالعنب الهندي ذي المذاق الحلو، وغير المستساغ على غرار مذاق الإجاص البولي، والذي ظلت ذكراه بعد خمس عشرة سنة تثير في الغثيان، لفرط ما التهمت منه. بدلاً من يخنة الفاصولياء.

كنت أحاول أن أتصور مدى الإعياء الذي هدّ قواي، ولكنني لم أفلح. «كل الناس يسرقون» كان قد كررها لي روبنسون ثلاث مرات قبل أن

Twitter: @ketab_n

يختفي. وكان ذلك أيضاً هو رأي المدير العام. كانت تلك الكلمات تعذبني وأنا أتقلب على فراش الحمى.. «ينبغي أن تتدبر أمورك» قال لي ذلك أيضاً... كنت أحاول أن أقف على ساقي، فلا أفلح أبداً.. أما بصدد الماء الذي كان علي أن أشربه، فقد كان روبنسون على حق. كان من الطين وأسوأ من ذلك. صغار الزنوج كانوا يجلبون لي موزاً.. من الحجم الكبير والصغير ومن الموز الدموي، ويجلبون لي دائماً من تلك الأعناب الهندية ولكن آلام المغص الشديد كانت تعتصرني بعد تناولها. حتى أكاد أقيء الأرض برمتها.

حينما كنت أشعر بدبيب بعض القوة في أوصالي، وأجد نفسي أقل ذهولاً، كان ثمة خوف شديد يتملكني. الخوف من أنه كان يتعين علي أن أقدم حساباتي إلى «شركة بوردوريير». ما الذي سأقوله لهؤلاء القساة الأشرار؟ كيف سيصدقونني؟ سيلقون علي القبض حتماً. من الذي سيحاكمني حينذاك؟ أشخاص مختصون، مسلحون. بقوانين رهيبة يستمدونها، لا أدري من أين، على غرار مجلس الحرب.. ولكنهم لا يطلعونك على نواياهم الحقيقية، سيتلهون بك ويجعلونك تصعد درباً عمودياً فوق الجحيم. الدرب الذي يقود البؤساء إلى الهلاك. إنه القانون، إنه «مدينة الملاهي» العظيمة للألم، وحينما يستسلم البؤساء للوقوع في شباكه فسيسمع صراخهم قروناً وقروناً بعد ذلك

كنت أفضل أن أظل مخبولاً، مرتعشاً. مريّلاً، في الدرجة ٤٠° من حرارة الجسم، على أن أكون مضطراً، في حالة الصحو، إلى أن أتخيل ما كان ينتظرني في فورت غونو، وانتهى بي الأمر إلى أن أقلع عن تناول الكينين كي أترك الحمى تنهي حياتي، لا مفر من أن أظل مهيضاً بكل ما يتاح لي من وسائل. ولما كنت أطهو طعامي على مهل أياماً وأسابيع. فقد نفذت ذخيرتي من أعواد الثقاب. لم يكن لدي الكثير منها. لم يترك لي روبنسون سوى «يخنة الفاصولياء» ولكنني أستطيع

Twitter: @ketab_n

القول بأنه قد ترك لي الكثير منها حقاً. تقيأت علباً كاملة منها. وبغية تحقيق هذه النتيجة كان ينبغي أيضاً تسخينها.

ذلك الشح في أعواد الثقاب أتاح لي تسلية صغيرة، ألا وهي مراقبة طباخي الزنجي وهو يشعل النار بحك حجرين، بعضهما ببعض داخل الهشيم اليابس. خطر لي أن أجرب أنا أيضاً، حينما كنت أشاهده يفعل ذلك، ومع اشتداد الحمى، اتخذت تلك الفكرة قواماً فريداً. وعلى الرغم من أنني كنت أفتقر إلى المهارة بطبعي، فقد تعلمت بعد أسبوع من التجريب، تماماً مثل أي زنجي، أن أشعل ناري بين جحرين حادين من الصوان. بدأت، في المحصلة أتدبر أموري وسط تلك الحال البدائية. النار، ذلكم هو الأمر الجوهري! لم يبق علي إلا الصيد. ولكنني لم أكن أطمح بأن أكون صياداً، كان يكفيني نار الصوان، وعلى مرّ الأيام، لم يكن لدي ما أفعل سوى إشعال النار، أما قذف يساريع الفراش بقدمي، فقد كنت فيها أقل مهارة بكثير، لم أكن قد اكتسبت تلك المهارة بعد. كنت أسحق الكثير من هذه اليساريع، إلى أن كففت عن الاهتمام بها، كنت أتركها تدخل بملء حريتها إلى كوخي كأصدقاء. فوجئت ذات يوم بثورة إعصارين عاتيين واحداً بعد الآخر، دام الثاني ثلاثة أيام، وثلاث ليالٍ على الأخص، وشربت أخيراً من ماء المطر المتجمع في الصحيفة. كان فاتراً، هذا صحيح، ولكنه مع ذلك أنقى وأطيب مذاقاً، غير أن الاقمشة القطنية في مخزوني الصغير شرعت في الذوبان بحرية تحت وابل المطر المدرار، بعضها داخل البعض الآخر.. أية بضاعة قذرة!

كان ثمة زنوج لطفاء يحضرون لي من الغابة حزماً من النباتات المعرشة كي يوثقوا كوخي إلى الأرض، ولكن عبثاً، فقد كانت الأوراق العازلة، تطقطق بجنون فوق سقف الكوخ، مع أقل هبة ريح، على غرار أجنحة جريحة، ليس ثمة ما يمكن عمله، كان كل ما يفعلونه من أجل التسلية في النهاية.

Twitter: @ketab_n

قرر الزنوج، صغارهم وكبارهم، العيش حولي بألفة بالغة، كانوا مغتبطين أيما غبطة، وقد وجدوا في ذلك تسلية عظيمة، كانوا يدخلون ويخرجون من مسكني (إذا جاز القول) كما يشتهون.. حرية وأي حرية! كنا نتفاهم بالإشارات إلى حد كبير. ولولا الحمى، لتعلمت ربما لغتهم، كان ينقصني الوقت لذلك. أما نار الصوان فإنني لم أمتلك بعد، في إشعالها الطريقة المثلى والسريعة، على الرغم من التقدم الذي أحرزته. فما زال الكثير، من الشرر يتطاير ويدخل في عيني، وكان ذلك يثير ضحكات السود.

حينما لا أكون متعفناً من الحمى فوق سريري «النقال»، أو منشغلاً بقداحتي البدائية كنت أفكر بحسابات «شركة بوردورييز». من الغريب أن أجد كل تلك المشقة في التحرر من رعب حسابات غير منتظمة. ما من ريب في أنني قد ورثت هذا الرعب عن أمي التي انتقل إلي عدوى تقليدها المأثور «تسرق بيضة.. ثم بيضة أخرى.. ثم ينتهي بك الأمر إلى قتل أمك»، طالما لقيت عنتاً شديداً في التخلص من هذه الأمور، إنهم يغرسونها فيك منذ نعومة أظفارك، ثم تأتيك فيما بعد، في اللحظات العصيبة لتروعك على نحو يائس، أي ضعف هذا! وإذا عزمت على التخلص منها، فلا يمكنك الاعتماد إلا على قوة الأشياء. وهي قوة عظيمة لحسن الحظ. وبينا نحن ننتظر أنا والحانوت، كنا نغوص ونغوص. كنا على وشك الاختفاء في الوحل، بعد كل وابل من المطر أكثر لزوجة، وأشد كثافة، كان ذلك فصل الأمطار، وما كان يبدو بالأمس صخرة عاتية صار اليوم أشبه بتفل رخو من قصب السكر، كانت الأغصان تتدلى بارتخاء، والماء الفاتر يلاحقك على هيئة شلال ينسكب داخل الكوخ، في كل مكان حولك، مثلما داخل سريرك، على غرار نهر قديم مهجور. كل شيء كان يذوب في عصيدة من سقط المتاع، ومن الآمال ومن

Twitter: @ketab_n

الحسابات، ووسط الحمى الدبقة أيضاً. كان ذلك المطر من الكثافة، حينما يهاجمك، كما لو أنه يغلق فمك بكمامة فاترة. ذلك الطوفان لم يمنع الحيوانات من أن تبحث عن بعضها، فقد شرعت العنادل تطلق صيحات صغيرة، مثلما بنات آوى، وعمت الفوضى في كل مكان وداخل سفينتي، أنا نوح، سفينتي الرثة، لقد حانت لحظة النهاية.

كان في جعبة أمي أمثال وحكم بصدد كل شيء. كانت تقول لي، أتذكر ذلك الآن، حينما كنا نحرق في البيت ضمادات قديمة.. «النار تطهر كل شيء».. كنت أجد لدى أمي كل شيء، لكل مناسبات القدر، يكفي أن أحسن الاختيار.

لقد حانت اللحظة الحاسمة، لم أكن قد اخترت حجارة صواني جيداً، لم تكن حادة بما يكفي. كان الشرر يعلق بقوة، بيدي، على الأخص، ومع ذلك فقد اشتعلت النار أخيراً في البضائع الأولى، على الرغم من الرطوبة، كان ذلك مخزوناً من الأحذية القديمة المبللة بالماء. حدث ذلك بعد غروب الشمس، ارتفعت ألسنة اللهيب وثابة جامحة، وتجمع سكان القرية حول الكوخ معقعقين بحنق، كان الكاوتشوك الطبيعي الذي اشتراه روبنسون يتجعد وينكمش وسط النار، فتذكرني رائحته بقوة بالحريق الشهير لشركة الهواتف في رصيف غرينيل.. كنت قد شاهدته مع عمي شارل، الذي كان يجيد غناء الأغنيات العاطفية.حدث ذلك الحريق في السنة السابقة على المعرض الكبير. كنت ما أزال صغيراً حينذاك. ما من شيء يرغم الذكريات على الحضور مثل الروائح والنيران. كان كوخي يصدر، هو أيضاً روائح مماثلة، على الرغم من غرقه في الماء والوحل، ثم أتت عليه النار بكامله دون إمهال، وعلى البضائع، وعلى كل شيء. سوّيت الحسابات الآن، وصمتت الغابة دفعة واحدة. كانت البوم والفهود والعلاجيم والببغاوات تحدق في النار دون انقطاع. كانت بحاجة إلى مثل هذا

Twitter: @ketab_n

المشهد كي تحس بالدهشة. مثلنا نحن مع الحرب، كان بوسع الغابة أن تعود الآن لتبتلع الأنقاض تحت رعود من الأوراق. لم أكن قد أنقذت سوى متاعي الصغير، السرير السهل الطي، والثلاثمئة فرنك، وبضع علب من «يخنة الفاصولياء» بالطبع، من أجل طريق العودة.

بعد ساعة من الحريق، لم يبق شيء من مسكني الصغير تقريباً، بضع شرارات تحت المطر، وبضعة زنوج مذهولين، ينبشون الرماد بأطراف حرابهم، وسط هبات تلك الرائحة الوفية لكل الكروب، الرائحة المنبعثة من كل هزائم العالم، رائحة الرماد المدخن..

حان الآن وقت الفرار ، وعلى جناح السرعة، هل أعود إلى فورت غونو، سيراً على قدمي؟ هل أحاول الذهاب إلى هناك لشرح تصرفي، وظروف مغامرتي؟ كنت متردداً.. وليس لوقت طويل. لن أشرح لأحد أي شيء. فالعالم لا يسعه سوى قتلك.. حينما ينقلب عليك فيهرسك، مثلما يقتل نائم براغيثه، ستكون تلك ميتة بلهاء بالتأكيد.. كنت أحدث نفسي.. فأن تضع ثقتك بالناس يعني أن تقتل نفسك بيدك تقريباً.

عزمت، على الرغم من الحالة التي كنت فيها، على أن أضرب في الغابة، في الاتجاه الذي سلكه ذلك الروبنسون، بكل ما فيه من ضروب الشقاء والتعاسة.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> في الطريق، كنت أسمع غالباً حيوانات الغابة، أسمع عويلها، وزغاريدها ونداءاتها، ولكني لم أكن أراها قط تقريباً، لم يكن لي أي شأن مع ذلك الخنزير البري الصغير الذي كدت أدوس فوقه ذات يوم بالقرب من كوخي. حين تسمع تلك الرشقات من الصراخ والنداء والعويل، تخال أنها على مقربة شديدة منك. كانت مئات من الحيوانات، آلاف تتحرك مجتمعة، غير أنني، وحين كنت أقترب من مكان لغطها لا أقع على أحد منها، ما عدا تلك الدجاجات الغابية الضخمة، الزرقاء، المرتبكة، بريشها الزاهي كما لو أنها تتزين لعرس، والبالغة الخرق، حينما تقفز من غصن إلى غصن، وهي تسعل، حتى لتظن بأن حادثاً قد وقع.

في الأسفل، فوق النباتات الحرجية المتعفنة كان ثمة فراشات ثقيلة. وعريضة، تزركشت حواف أجنحتها على غرار بطاقات الأعياد، ترتعش متهادية، فارشة أجنحتها، وفي الأسفل أيضاً. كنا نحن، نتخبط في الوحل الأصفر اللون.. لم نكن نتقدم إلا بصعوبة، كان الزنوج يحملونني على محفة مصنوعة من أكياس مدروزة، من طرفها إلى الطرف الآخر. كان بوسعهم أن يقذفوني في الماء، حينما كنا نجتاز خليجاً نهرياً، لماذا لم يفعلوا ذلك؟ علمت السبب فيما بعد، وكان بوسعهم أن يأكلوني ما دام ذلك جزءاً من أعرافهم.

من وقت إلى آخر، كنت أسأل، هؤلاء الرفاق، وكانوا يردون علي دائماً: نعم، نعم. لم يزعجوني قط. أناس طيبون كرماء، في المحصلة، وحينما كان الإسهال يدعني أستريح قليلاً، كانت الحمى تعاودني حالاً: كان من الغريب أن أغدو مدنفاً إلى هذا الحد.

Twitter: @ketab_n

في البداية لم أعد أرى الأشياء بوضوح كامل. أو كنت أراها بالأحرى خضراء، كانت جميع حيوانات الأرض تأتي خلال الليل، لتحيط بالمكان الذي كنا نتوقف فيه. كنا نشغل ناراً. ومن هنا وهناك تنطلق صيحة، فتخترق رغم كل شيء الظلمة الداكنة الهائلة الأبعاد التي كانت تخنق أنفاسنا. ثمة حيوان ذبيح، على الرغم من خوفه من البشر ومن النار، كان يأتي، مع ذلك ليشكو إلينا، نحن، هناك، على مقربة شديدة منه.

بدءاً من اليوم الرابع، لم أعد أتعرف على ما هو واقعي بين الأشياء اللامعقولة التي خلقتها الحمى، والتي كان بعضها يتداخل في بعض داخل رأسي. وتتداخل أيضاً في الوقت ذاته بقطع من الأشخاص وبنتف من القرارات ومشاعر القنوط، لم يكن لها نهاية.

ولكن هل كان القدر هو الذي قرر أن يضع في طريقنا، ذلك الأبيض الملتحي الذي التقينا به ذات صباح، فوق شناخ صخري، عند ملتقى نهرين؟ هكذا أقول لنفسي اليوم حينما أفكر بتلك الصدفة الغريبة، كنا نسمع حينذاك قرقعة مدوية، بالقرب من أحد الشلالات، كان ذلك الرجل نمطاً من نوع آلسيد في ثياب رقيب اسبنيولي، كنا قد عبرنا بطريقة ما، لفرط ما جبنا دروباً وممرات، إلى مستعمرة ريو دل ريو من مستعمرات التاج الكاستيللي، كان ذلك العسكري الإسباني البائس يمتلك كوخاً هو أيضاً، وقد ضحك كثيراً، كما خيلّ إلي، حين رويت له كل ما مر بي من تعاسات، وما كنت قد فعلته بكوخي. كان كوخه في الواقع يبدو أفضل حالاً من كوخي، بلا ريب، ولكن ليس كثيراً، أما أوجاعه الخاصة به فكانت ناجمة عن النمل الأحمر. كانت النملات الصغيرات قد اختارت طريقاً لعبورها إبان هجرتها السنوية، يمر

Twitter: @ketab_n

عبر كوخه، بوجه التحديد. وهي لم تتوقف عن المرور عبر الكوخ منذ ما يقارب الشهرين.

كانت تحتل المكان بكامله، بحيث كان من الصعب ثنيها عما همّت به، وإذا ضايقها، أحد لدغته لدغاً مؤلماً.

كان سعيداً جداً لأنني أعطيته يخنة فاصوليائي، فقد كان طعامه مؤلفاً من علب الطماطم فقط، كان قد استهلك وحده منها خلال ثلاث سنين، كما أخبرني، أكثر من ثلاثة آلاف علبة. ولما كان قد تعب من إعدادها بطرق مختلفة، فقد كان يزدردها الآن بأسهل طريقة في العالم. من خلال فتحتين في غطائها، مثل البيض.

ما أن عرف النمل الأحمر بالأمر، وأن هناك معلبات جديدة حتى شكل حراسة حول اليخنة، كان على الإسبنيولي أن لا يترك علبة واحدة مفتوحة الغطاء، سهواً، فقد كانت تلك النمال خليقة أن تستدعي إلى الكوخ حينئذ عرق النمل الأحمر بكامله، لم يكن ثمة من هو أكثر شيوعية منها. كانت ربما، ستلتهم الإسبنيولي أيضاً.

علمت من هذا المضيف بأن عاصمة ريو دل ريو كانت تدعى سان تابيتا، وأنها مدينة ومرفأ شهير على امتداد الشاطئ، وحتى أبعد من ذلك، يجري فيها تسليح السفن الشراعية البحرية ذات الرحلات البعيدة.

دربنا الذي كنا نسلكه، كان يقود إلى هذه المدينة بالضبط. إنه طريقها الوحيد. كان يكفي أن نواصل السير على هذا الطريق ثلاثة أيام وثلاث ليال أيضاً. سألت ذلك الإسبنيولي إن كان يعرف بعض العلاجات الشعبية النافعة التي يتداوى بها السكان الأصليون، لعلها تخلصني من حالة البحران التي كانت تلازمني. ولكنه لم يكن يرغب في سماع ما يروى عن تلك الأشياء. والواقع أن

Twitter: @ketab_n

الإسباني المستعمر كان مصاباً بالرهاب الأفريقي إلى الحد الذي كان يرفض فيه أن يستعمل في المرحاض حين يذهب إليه، أوراق الموز، ويصر على أن يستعمل كومة من قطع صحيفة بوليتان أستوريا. وهو لم يعد يقرأ الصحيفة أيضاً على غرار آلسيد تماماً.

كان يعيش هنا، منذ ثلاثة أعوام، وحيداً مع النمال، وبعض الأهواء الصغيرة، وصحائفه القديمة. بالإضافة إلى تلك اللهجة الإسبنيولية الرهيبة، التي هي أشبه بنوع من لهجة الخطابة، لفرط قوتها. كان من الصعب جداً إثارته، ولكنه حين كان يصرخ بزنوجه يتحول إلى إعصار، لم يكن آلسيد يعدّ شيئاً إلى جانبه في الزعبق، وقد تنازلت لذلك الأسباني عن كل معلبات يخنتي، لفرط ما راق لي، وعرفاناً منه حررّ لي جواز سفر جميل وموثق على ورق محبحب من أوراق القوات المسلحة الكاستيلية مع توقيع من تلك التواقيع الدقيقة، احتاج إلى عشر دقائق كاملة من أجل كتابته بإتقان.

بالنسبة إلى مدينة سان تابيتا، كان من المستحيل أن نضل الطريق إليها، مثلما قال لي الإسبنيولي بحق، كانت أمامنا مباشرة، لم أعد أعرف كيف وصلنا إليها، ولكنني متأكد من شيء واحد، وهو أنهم عهدوا بي، منذ وصولي، إلى خوري، بدا لي خرفاً جداً، مثلما كنت أنا أوحي بذلك، وهو ما منحني نوعاً من الشجاعة مقارنة به، ولكن ليس لوقت طويل.

كانت مدينة سان تابيتا تتكئ على خاصرة هضبة صخرية مشرفة على البحر، تتراءى خضراء للناظرين، مشهد بديع يلوح للنظر من المرسى، كان يبدو باذخاً عن بعد، ولكنك حين تقترب منه لا تجد سوى لحوم مترهلة، نال منها الإعياء على غرار فورت غونو، لا تني تتغطى بالبثور والدمامل، وتتلظى بالحر، أما زنوج محملي الصغير، ففي لحظة من لحظات صحوي

Twitter: @ketab_n

أعدتهم إلى قريتهم، كانوا قد اجتازوا مسافة طويلة من الغابة، وهم يشعرون الآن بالخوف على حياتهم خلال العودة. كما قالوا، كانوا يتباكون بسبب ذلك، وهم يغادرونني ولكن القدرة على الرثاء لهم كانت تعوزني، كنت أعاني بشدة من الحمى، وأنضح بالعرق بكثافة، وما كان ذلك ليتوقف.

بقدر ما أذكر تلك الأيام، كان العديد من الكائنات الناعقة التي تكتظ بها تلك الأرباض، تأتي في الليل والنهار، منذ لحظة وصولي لتحوم حول سريري الذي نصبوه لي بنحو خاص داخل بيت كاهن الرعية، كانت التسليات نادرة في سان تابيتا. أترع الخوري معدتي بالمناقيع المغلية. كان صليبه الطويل المذهب يترجح حول بطنه، ومن أعماق جبته كان ينبعث رنين عال للنقود، حين يقترب من وسادتي. لم يعد يبالي بالتحدث مع الرعية، كان يغمغم الآن، فيرهقني بغمغمته فوق ما أطيق.

كنت أعتقد بأن نهايتي قد حانت، حاولت أن أشاهد مرة أخرى القليل مما يمكن مشاهدته في ذلك العالم من خلال نافذة الخوري. أما الشمس فحدث ولا حرج. حضور دائم ثقيل، كما لو أن مرجلاً بخارياً فتح غطاؤه أمام وجهك على الدوام. وفي الأسفل، كانت الشمس أيضاً، وتلك الأشجار الخرقاء، وممرات أيضاً، وتلك الأشكال من غراس الخس المتفتحة على غرار سلاسل، وتلك الأنواع من نبات الهندباء التي يكفي ثلاثة منها، أو أربعة لتشكل شجرة كستناء مما نراه، عندنا، بالإضافة إلى علجوم أو اثنين داخل كتلة العروق الملتفة، ثقيلين مثل كلبين، يخبان عاويين من جهة إلى أخرى.

بسبب الروائح تنتهي الكائنات والبلدان والأشياء. جميع المغامرات تمر عبر الأنف. أغلقت عيني لأنني ما عدت قادراً على فتحهما، في الحقيقة، وليلة بعد ليلة تلاشت رائحة أفريقيا اللاذعة. وغدا من العسير علي أكثر فأكثر أن

Twitter: @ketab_n

أعثر على ذلك الخليط الثقيل المكون من رائحة أرضها الميتة، ورائحة ما بين الأفخاذ، ورائحة الزعفران المطحون.

من الزمن، من الماضي، ومن الزمن أيضاً حانت اللحظة التي تكالبت علي فيها آلام وتشنجات جديدة، واهتزازات منتظمة، أشبه باهتزازات مهود الأطفال.

كنت ما أزال راقداً، بالتأكيد، ولكنني كنت أرقد فوق مادة متحركة تركت الأمور تجري في أعنتها، كنت أقيء، وأستيقظ أيضاً، وأعاود النوم. كان ذلك كله وسط البحر، وقد بلغ مني الإنهاك مبلغاً لا أكاد أقوى معه على التقاط الرائحة الجديدة للحبال والقطران. كان الجو ندياً في ذلك الركن المنزوي من سفينة كثيرة الأسفار، تكومت في أسفل كوة كبيرة مفتوحة لإحدى قمراتها. تركت وحيداً هناك. كانت الرحلة متواصلة بالتأكيد.. ولكن أية رحلة؟ كنت أسمع وقع خطوات على السطح الخشبي للسفينة فوق أنفي تماماً، وأصواتاً مختلطة وهدير أمواج تبقبق وتصطدم ببطن السفينة.

من النادر جداً أن تعود الحياة إلى وسادتك حين لا يكون لك مظهر مهيب لخنزير، ما كان قد لعبه معي أولئك الأشخاص في سان تابيتا يمكن أن يكون بالغ الخطورة، هل كانوا قد استغلوا حالتي كي يبيعوني، وأنا ذاهل عن نفسي، في الوضع الذي كنت فيه، إلى ربان السفينة الشراعية؟ ولكن أية سفينة كانت، في الواقع! مرتفعة الجوانب، مسلحة أفضل تسليح! متوجة بأشرعة أرجوانية جميلة وقد طلي طرفها بالذهب، ونجّدت أماكن الضباط أفضل تنجيد في مقدمتها لوحة قيادة رائعة، مزودة بزيت كبد المورة، برزت فوقها صورة الانفاتنا كومبيتا بقميص البولو، تلك الملكة التي كانت ترعى، مثلما علمت فيما

Twitter: @ketab_n

بعد.. باسمها، وبأثدائها وبغبطتها الملكية السفينة التي كانت تقلنا، كان ذلك مما يداعب الغرور.

طفقت أقلب الأمور على كافة وجوهها فيما يخص مغامرتي الجديدة. فلو بقيت في سان تابيتا، وأنا ما أزال مريضاً مثل كلب، فسأفطس بالتأكيد في بيت الخوري حيث وضعني الزنوج، ولو عدت إلى فورت غونو فلن أنهي فيها سنوات عقوبتي (الخمس عشرة) بسبب حسابات الشركة.. أما هنا، فإن عجلة الحياة تتحرك، ولن أعـــدم الأمل.. فلأفكر ملياً في الأمر. لقد كان لدى قبطان الانفانتا كومبينا بعض الجرأة ليشتريني، وحتى بثمن بخس من الخوري، حين أقلع بسفينته، كان يجازف كل المجازفة بنقوده في هذه الصفقة.. كان من الجائز أن يخسر كل شيء. لقد اعتمد على التأثير المؤاتي لهواء البحر من أجل إنعاشي واستعادة قواي. إنه يستحق مكافأته، ولكنه سيكسب ولا شك ما دمت أتحسن، وقد وجدته سعيداً جداً بذلك. كنت ما أزال أهذي بشدة، ولكن مع بعض المنطق.. ومنذ اللحظة التي فتحت فيها عيني كان القبطان غالباً ما يأتي لزيارتي في عزلتي مزيناً قبعته بالريش، كان يبدو لي مهيباً على ذلك النحو.

سر القبطان أيما سرور حين رآني أحاول النهوض من فراشي القشي، على الرغم من الحمى التي كانت تجتاحني، كنت أتقيأ. «عما قريب، هيا! أيها الشخاخ، سيكون بإمكانك التجديف مع الآخرين» تنبأ لي القبطان بذلك. كان هذا لطفاً من جانبه، وقهقه، وهو يوجـــه لي بضع ضربات خفيفة بسوطه، ولكن بتحبب من دون ريب، على رقبتي وليس على أليتي، كان يريد أن أضحك أيضاً، وأن أكون مسروراً منه بسبب العمل الطيب الذي قام بها، باقتنائي في سفينته.

Twitter: @ketab_n

طعام السفينة بدا لي، مقبولاً جداً، ولكنني لم أكن أتوقف عن الغمغمة.. وبعد مضي أيام قلائل استعدت ما يكفي من القوة، مثلما تنبأ القبطان، كي أذهب إلى التجديف من وقت إلى آخر، مع رفاقي الآخرين، ولكنني كنت أرى مئة مجدف من هؤلاء، حين يكون عددهم عشرة! كان بصري قد أصيب بالعشا.

لم نكن نتعب كثيراً، أثناء تلك الرحلة، لأننا كنا نندفع معظم الوقت بقوة الأشرعة، وما كانت شروط حياتنا بين جسري السفينة أسوأ من شروط حياة مسافرين عاديين في الدرجة الدنيا من قطار شحن يوم الأحد، وأقل خطراً من تلك التي عشتها فوق ظهر الأميرال براغتون. كنا على الدوام معرضين للهواء الطلق على رحبه واتساعه، خلال عبورنا الأتلانتيك من الشرق إلى الغرب، وكانت درجة الحرارة قد انخفضت. قلما كنا نشكو من شيء، ونحن بين جسري السفينة. كنا نجد الرحلة طويلة، حسب. أما بالنسبة لي، فقد رأيت من مشاهد البحر والغابة ما يكفي لأبدية!

كنت ربما، سأسأل القبطان عن تفاصيل إبحارنا، عن غاياته وعن وسائله، ولكن ما أن بدأت أشعر بتحسن أحوالي حتى فقدت الاهتمام بمصيري، ومن ثم فقد كنت أثرثر مع ذلك كثيراً مع رفاقي المجدفين من أجل المحادثة، ولم أعد أرى القبطان إلا من بعيد، باعتباره رب عمل.

على ظهر السفينة، وبين أولئك المجدفين الذين كانوا محكومين في بلدهم بالأشغال الشاقة بدأت البحث بصمت شديد عن روبنسون، وخلال الليل كنت أناديه، مرات عديدة، بصوت مرتفع. لم يكن أحد يجيبني ما عدا بعض الشتائم والتهديدات من المجدفين النائمين.

ومع ذلك، فكلما كنت أفكر في التفاصيل، وفي ظروف مغامرتي تلك كلما بدا لي من المحتمل أنهم فعلوا بروبنسون أيضاً مثلما فعلوا بي في سان

Twitter: @ketab_n

تابيتا، مامن شك في أن روبنسون كان يجدف بالتأكيد، فوق سفينة شراعية أخرى. من المؤكد أن زنوج الغابة جميعهم كانوا مشاركين في التجارة، وفي المؤامرة. لكل دوره! كان ذلك أمراً اعتيادياً ومألوفاً. كان من المفيد لهم أن يعيش الأشخاص والأشياء الذين لا يأكلونهم مباشرة، كي يأخذوهم ويبيعوهم، أما الملاطفة الخاصة التي أبداها الزنوج تجاهي فهي لا تعدو أن تكون أسلوباً من أكثر الأساليب دناءة.

انسابت الانفانتا كومبيتا أسابيع وأسابيع فوق أمواج الأتلنتيك المضطربة، من دوار بحر إلى نوبة حمى، ثم إلى مساء جميل يسوده الهدوء. لم أعد أهذي، كنا نتحاور همساً حول المرساة. وذات صباح، علمنا ساعة الاستيقاظ، حين فتحنا الكوى بأننا بلغنا المكان المنشود. كان المشهد مهيباً.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> إن كان ثمة مفاجآت في تلك الرحلة، فقد كان ما اكتشفناه مفاجأة مذهلة.. كان مدهشاً تماماً ما رأيناه فجأة عبر الضباب. بحيث رفضنا في البداية أن نصدق عيوننا.. ولكننا حين صرنا مع ذلك أمام الأشياء. انفجرنا جميعاً نحن المجدفين في الضحك، ونحن نحدق، أمامنا مباشرة..

تصور نفسك أمام مدينة واقفة، واقفة تماماً باستقامة. كانت نيويورك مدينة واقفة، كنا قد رأينا من قبل مدناً بالتأكيد ومدناً جميلة، ومرافئ، وذات شهرة، أيضاً، ولكن المدن عندنا نائمة، في الحقيقة، على شاطئ البحر أو على ضفاف الأنهار، إنها تتمدد على مد النظر، تنتظر المسافر، في حين أن هذه المدينة الأميركية لم تكن متمددة على الأرض كانت تقف متصلبة، هناك، لايحضنها أحد، متصلبة بنحو يبعث على الخوف.

ضحكنا إذن مثل حمقى، كان ذلك المشهد مبهجاً بالتأكيد، مشهد المدينة المتيبسة الجسد! غير أننا لم نستطع أن نضحك إلا ابتداء من عنقنا وما فوق، بسبب البرد الذي كان يأتينا من البحر في تلك اللحظة عبر سحب ضباب رمادية ووردية، سريعة وواخزة، اقتحمت سراويلنا واندفعت بقوة نحو صدوع ذلك الجدار الهائل من الأبنية، نحو شوارع المدينة. كانت سفينتنا قد اتخذت موقعاً لها على عتبة أرصفة الميناء، وسط ماء قذر يبقبق تحت سلسلة من القوارب الصغيرة، وسفن القطر الجشعة والمهجورة.

لم يكن من اليسير على أحد أبداً النزول من السفينة في أي مكان من الرصيف، ولكن ذلك كان أصعب بكثير بالنسبة إلى محكوم بالأشغال الشاقة،

Twitter: @ketab_n

لا سيما وأن الناس في أمريكا لا يحبون مطلقاً المحكومين بالأشغال الشاقة الذين يأتون من أوروبا، «إنهم فوضويون جميعاً». هكذا كانوا يقولون. وهم لايرغبون أن يستقبلوا في بلدهم، بوجه الإجمال سوى أولئك الفضوليين الذين يجلبون معهم الأموال، لأن جميع نقود أوروبا هي أبناء للدولار الأمريكي.

لعل بإمكاني أن أحاول مثلما حاول آخرون بنجاح، اجتياز المرفأ سباحة، وأن أهتف لحظة وصولي إلى الرصيف «يحيا الدولار! يحيا الدولار!» كانت تلك طريقة بارعة، ثمة أشخاص عديدون نزلوا إلى الرصيف بتلك الطريقة، ثم كوّنوا، فيما بعد ثروة، ولكن هذا غير مؤكد. بل تتناقله الألسنة فقط، وغالباً ما أفضت الأحلام إلى كثير من المصائب. أما أنا فكان لدي تدبير آخر يسكن رأسي، جنباً إلى جنب مع الحمى.

لما كنت قد تعلمت على ظهر السفينة الشراعية عد البراغيث (ليس الإمساك بها وحسب، بل وإجراء عمليات حسابية لها من جمع وطرح، وبوجه الإجمال، القيام بإحصاء لها) وهي حرفة دقيقة لا قيمة لها في الظاهر، ولكنها تشكل تقنية بكل معنى الكلمة، فقد رغبت في أن استخدمها. يمكنك أن تقول عن الأمريكيين كل ما تريد، ولكنهم على صعيد التقنية بلغوا شأواً عظيماً. وهم سيحبون طريقتي في عد البراغيث حتى الجنون، كنت متأكداً من ذلك مسبقاً، ولم يكن خليقاً أن يخفق ذلك في رأيي.

كنت سأذهب لأقدم خدماتي لهم حينما يعطى الأمر لسفينتنا بالدخول إلى المحجر الصحي، داخل جون صغير مجاور، معزول عن المدينة. على مرمى حجر من قرية صغيرة مختبئة بهدوء. على بعد ميلين شرقاً من نيويورك.

بقينا جميعاً هناك في المحجر، نترقب، أسابيع وأسابيع، حتى غدا الترقب عادة من عاداتنا. ولما كان فريق منا ينزل من السفينة، كل مساء بعد تناول

Twitter: @ketab_n

الحساء، ليذهب إلى القرية، بغية التزود بالماء، فقد اغتنمت الفرصة بالمشاركة في هذا الفريق كي أحقق مآربي.

كان الرفاق يعلمون جيداً ما كنت أنتويه، ولكنهم لم يكونوا هم أنفسهم متحمسين لخوض مثل هذه المغامرة. «هذا جنون، كانوا يقولون لي، إنه محفوف بالمخاطر». كنا على متن الأنفانتا كومبيتا نأكل بصورة لا بأس بها. صحيح أنهم كانوا يقرعون الرفاق بالهراوة أحياناً، ولكن ليس بنحو مفرط، كان من الممكن تحمل ذلك! وبوجه الإجمال، كان عملهم رحيماً، لا بل كان مزية رفيعة، لقد حظر عليهم حظراً تاماً الخروج من السفينة، كان الملك قد وعدهم بنوع من معاش بسيط حينما يبلغون الثانية والستين من عمرهم، وقد جعلهم ذلك الاحتمال سعداء، لأنه منحهم شيئاً يحلمون به، ومنحهم أيضاً يوم أحد كي يشعروا بأنهم أحرار، وفوق ذلك كانوا يشاركون شكلياً في الانتخابات.

خلال الأسابيع التي فرض علينا فيها الحجر الإلزامي، كان هؤلاء المحكومون يزمجرون جميعهم معاً داخل العنبر. كانوا يتعاركون هناك، ويأتون بعضهم بعضاً، أيضاً بالتناوب، ما كان يمنعهم في النهاية من الفرار معي هو أنهم، بوجه خاص، لا يرغبون بأن يسمعوا أو يعرفوا شيئاً عن هذه الأمريكا التي كنت أنا مولهاً بها. لكل غيلانه. أما هم فكانت أمريكا غولهم الذي يمقتونه أشد المقت.. كانوا يسعون أيضاً إلى إثارة نفوري منها، إلى أبعد حد.. كنت عبثاً أقول لهم، بأنني أعرف أناساً في هذه البلاد، صغيرتي "لولا"، التي لا ريب أنها الآن غنية بالتأكيد، وروبنسون أيضاً الذي كان، بلاشك، قد صنع لنفسه مركزاً جيداً في أعمال التجارة. ولكنهم لم يكونوا يرغبون في التخلي عن كراهيتهم للولايات المتحدة وعن اشمئزازهم وسخطهم عليها «لن تكف أبداً عن

Twitter: @ketab_n

جنونك» كانوا يقولون لي. وفي أحد الأيام تظاهرت بالذهاب معهم من أجل التزود بالماء. من القرية، وأخبرتهم بأنني لن أعود إلى السفينة. لقد أزفت ساعة الخلاص!

كانوا فتياناً طيبين، في الحقيقة، كادحين بلاريب، وقد كرروا على مسامعي بأنهم لا يؤيدون تصرفي على الإطلاق، ولكنهم كانوا يتمنون لي مع ذلك شجاعة طيبة وحظاً سعيداً، والكثير من الاستمتاع أيضاً.. ولكن على طريقتهم «اذهب، قالوا لي، اذهب، ولكننا نحذرك أيضاً. هذه الرغبة الطائشة ليست ملائمة لمقمل مثلك، لاشك أن الحمى أفقدتك رشدك! ستعود من أمريكا هذه في حال أسوأ من حالنا، وستؤدي بك رغباتك هذه إلى الضياع، هل تريد أن تتعلم؟ أنت تعرف أكثر مما ينبغي بالقياس إلى وضعك».

كنت عبثاً أجيبهم بأن لدي أصدقاء هنا، وأنهم ينتظرونني.. كنت أغمغم.

«أصدقاء؟ ردوا علي بلهجة استنكار، أصدقاء، ولكنهم سيهربون من سحنتك، لقد نسيك أصدقاؤك منذ زمن بعيد!

ـ ولكنني أريد رؤية أمريكيين، كنت مصراً على موقفي دون جدوى. ولديهم هنا نساء لا يضاهيهن أحد في أي مكان آخر.

ـ هلم معنا، أيها الأحمق! ما من فائدة ستجنيها من ذهابك. سيتفاقم مرضك وسيودي بك إلى الهلاك. نحن نخبرك الآن من هم الأمريكيون، إنهم مليونيرات كلياً أو رمم بالية كلياً. ليس هناك وسط بينهم. وفي حالتك التي أنت فيها لن ترى المليونيرات بالتأكيد؟ أما الرمم فيمكنك أن تطمئن إلى أنهم سيجعلونك تلعن الساعة التي رأيتهم فيها، ليس بعد وقت طويل وإنما على الفور.

Twitter: @ketab_n

هكذا تعامل معي أولئك الرفاق، لقد أثاروا في القشعريرة في النهاية، أولئك المحبطون، الخانعون، أشباه الرجال. «هيا اهربوا جميعاً، كنت أجيبهم، إنها الغيرة التي تجعل لعابكم يسيل هكذا، وهذا كل شيء، وإذا أهلكني الأمريكيون فلن آسف على شيء، ولكن الأمر المؤكد هو أنكم جميعاً لاتملكون أي شيء سوى فرن صغير بين سيقانكم، ورطب أيضاً.

وشعرت بالانفراج بعد أن قلت لهم ذلك.

حين أقبل الليل، انطلقت صفارة السفينة، إيذاناً بالرحيل وعادوا يجدفون جميعاً بإيقاع واحد منتظم، إلا واحداً لم يكن يجدف معهم، هو أنا. انتظرت حتى لم أعد أسمع أصواتهم، لم أعد أسمع أصواتهم أبداً، ثم عددت حتى المئة وركضت بعدها ما وسعني الركض، حتى بلغت القرية. قوقعة صغيرة كانت القرية، مضاءة جيداً.. بيوت خشبية تنتظر من يشغلها. مصفوفة إلى يمين ويسار كنيسة صغيرة، صامتة صمتاً مطبقاً هي أيضاً، كنت أرتعد حسب، من البرداء، ثم من الخوف، التقيت، هنا، وهناك ببحار من حامية الموقع، لم يكن يبدو عليه القلق، وبأولاد، ثم بفتاة مفتولة العضلات على نحو رائع. هي ذي أمريكا، وطئت أرضها أخيراً. لقد سرّتني رؤيتها بعد مغامرات مريرة، ذلك يذكّرك بفاكهة ألقيت إليك وسط الحياة! ولكنني وقعت على القرية الوحيدة التي لم تكن تصلح لشيء. تقيم فيها حامية من البحارة مع عائلاتهم في حال طيبة، مع كل محاجرها الصحية الخاوية تلك، إلى أن يأتي يوم يصل فيه وباء جائح من سفينة كسفينتنا، يعرّض الميناء الكبير للويل والثبور.

في تلك الأبنية إذن، سيقضون على أكبر عدد ممكن من الأجانب، كي لايصاب المقيمون في المدينة بأي داء، كان لهؤلاء الأجانب مقبرة قريبة أيضاً.

Twitter: @ketab_n

على أتم استعداد لاستقبالهم، غرست فيها الزهور في كل مكان، كانت الحامية تنتظر! منذ ستين عاماً وهي تنتظر، لم تكن تفعل شيئاً سوى الانتظار.

ما إن وجدت كوخاً صغيراً خاوياً، حتى اندسست فيه، وغرقت في النوم حالاً. حين أطل الصباح لم يكن في الشوارع الصغيرة سوى البحارة في ثياب قصيرة، وأجسام متناسقة ومعافاة، ينبغي رؤيتهم وهم يكنسون الأرض، ويرشون سطولاً من الماء حول ملجئي، وفي كل مفارق طرق تلك القرية النظرية. كنت أحافظ عبثاً على مظهر اللامبالي، فقد كان الجوع يعضني بنابه، حتى ألجأني على الرغم من كل شيء إلى الاقتراب من مكان تفوح منه رائحة طعام.

تم اكتشافي هناك، ومحاصرتي بين زمرتين من البحارة أرادوا التحقق من هويتي، كان ذلك يعني إلقائي في الماء حالاً. ساقوني على جناح السرعة إلى مدير المحجر الصحي. وقد بلغ الخوف مني كل مبلغ. وعلى الرغم من أنني أظهرت بعض الشجاعة إزاء المحنة التي أحاقت بي، فقد كنت أشعر أيضاً. من جراء الحمى، بأنني أضعف من أن أجازف ببعض الكلمات المرتجلة المؤثرة. كنت أهذي بالأحرى، وقد سقط قلبي من بين ضلوعي.

كان من الأفضل أن أغيب عن الوعي، وهو ما حدث لي.. وفي مكتب المدير، حين استعدت وعيي فيما بعد، كانت بعض النسوة بثياب فاقعة اللون قد حللن محل الرجال من حولي، وأخضعنني لاستجواب غامض مشوب بالرفق والتسامح، وهو ما فرج عني بعض الكرب. ولكن التسامح لا يدوم طويلاً في هذا العالم، ففي الغد شرع الرجال من جديد، يحدثونني عن السجن. انتهزت الفرصة كي أحدثهم عن البراغيث، وعن براعتي في الإمساك بها، وعدّها.. ثم جمع تلك الطفيليات في إحصائيات حقيقية. ورأيت بوضوح أن كلامي قد أثار اهتمام

Twitter: @ketab_n

حراسي ودهشتهم. كانوا يصغون إلي بانتباه، أما بشأن تصديقي فكان ذلك أمراً آخر مختلفاً.

ظهر أخيراً، آمر موقع الحامية ذاته.. كانوا ينادونه «السرجون جنرال» وهو ما سيكون اسماً جميلاً لسمكة. بدا السرجون خشناً، ولكن أكثر حزماً وتصميماً من الآخرين «ما الذي تقصه علينا يا فتاي؟ آه.. آه..» كان يأمل أن يشوشني ببعض الكلمات المعسولة على هذا النحو، ولكنني ألقيت عليه سريعاً مرافعتي التي كنت قد أعددتها.. «أنا أؤمن بفائدة إحصاء البراغيث، فذلك مظهر من مظاهر الحضارة، لأن هذا الإحصاء يمثل قاعدة لإحصاء المواد الأعلى قيمة.. ينبغي لبلد متقدم أن يعرف عدد براغيثه، مصنفة بحسب الجنس ومجموعة الإعمار. والسنوات والفصول.

ـ هيا، هيا، كفاك خطباً أيها الشاب، قاطعني السرجون جنرال. لقد جاء مثلك إلى هنا كثيرون آخرون من أولئك الشجعان الأوروبيين، ورووا لنا أكاذيب من هذا النوع، ولكن هؤلاء كانوا في المحصلة فوضويين، مثل الآخرين، بل وأسوأ من الآخرين، لم يكونوا يؤمنون قط بأمريكا، دعك من التبجح والمفاخرة.. غداً، سنجري لك اختباراً على المهاجرين، في إليس إيسلاند في مصلحة الحمامات، وسيخبرني مساعدي الماجور المستر ميششييف إن كنت كاذباً. منذ شهرين يطالبني المستر ميششييف بعنصر معتمد «لحساب البراغيث».. ستذهب إليه على سبيل التجربة، هيا انصرف. وإذا كنت تخدعنا فسنرميك في الماء. هيا انصرف، وحاذر إذن!».

كنت أعرف كيف أنصرف من أمام هذه السلطة الأمريكية، مثلما كنت أنصرف من أمام كثير من السلطات الأخرى. مقدماً لها قضيبي في البداية، ثم مؤخرتي بعد ذلك من خلال نصف دورة رشيقة مترافقة بتحية عسكرية.

Twitter: @ketab_n

فكرت بأن هذه الوسيلة لإحصاء البراغيث كانت خليقة أن لا تقل جودة عن غيرها في تقريبي من نيويورك، وفي الغد أطلعني الماجور ميسشييف باختصار، على شؤون وظيفتي، كان هذا الرجل بديناً ومصفراً. وحسير النظر ما وسعه ذلك، بالحمالة الضخمة لنظارتيه المدخنتين، كان حرياً أن يتعرف علي بالطريقة التي تتعرف بها الحيوانات المفترسة على فريستها. وذلك بالنظر إلى مظهري العام، لأنه كان من المستحيل عليه أن يدقق في التفاصيل بنظارتين كاللتين يحملهما.

اتفقنا دون صعوبة على العمل. كنت أعتقد أن ميسشييف سيبدي تعاطفاً نحوي في نهاية فترة اختباري. فأن لا أكون مرئياً من قبله بسبب ضعف بصره، كان ذلك في البداية سبباً للتعاطف، وبعد ذلك، وبوجه خاص فإن براعتي في التقاط البراغيث. كان تفتنه.. لم يكن هناك اثنان مثلي في سائر أرجاء الموقع، في إدخال البراغيث داخل العلبة. وحتى أشدها حراناً وأصلبها قرتنة[٩] وأكثرها برماً ونفاذ صبر، كنت قادراً على تصنيفها حسب الجنس في جسم المهاجر ذاته، كان ذلك عملاً رائعاً، يمكنني حقاً قول ذلك. وقد انتهى ميسشييف إلى أن يتباهى كل التباهي ببراعتي.

عند المساء كان أظفرا إبهامي وسبابتي يغدوان مرضوضين لفرط ما سحقت من البراغيث، لم أكن مع ذلك قد أنهيت مهمتي ما دام قد بقي الجزء الأكثر أهمية، وهو وضع جداول للحالة الوصفية اليومية. براغيث بولونيا من جهة، ويوغسلافيا.. وإسبانيا، وقمل العانة من كريمي.. وقمل البيرو.. كل ما يسافر بنحو خفي، وما يلسع، فوق أجساد البشر المهزومين، كان يمر بين

---

(٩) القرتين: مادة ليفية تدخل في أنسجة الجسم القرنية كالأظافر والقرون.

Twitter: @ketab_n

أظافري، كان ذلك عملاً هائل الأبعاد وشديد التدقيق في آن معاً. كانت حساباتنا تتم في نيويورك في قسم خاص مجهز بآلات كهربائية. عداد ـ براغيث. ففي كل يوم كانت قاطرة «المحجر الصحي» الصغيرة تجتاز المرسى على اتساع عرضه كي تنقل إلى هناك حساباتنا لإكمالها وتدقيقها.

مرت أيام وأيام، على هذا الحال، استعدت فيها بعضاً من عافيتي، ولكنني كلما كنت أفقد هذياني وحمّاي في تلك البحبوحة من العيش، كان الميل إلى المغامرة وإلى مزيد من الطيش يعاودني بإلحاح. وفي الدرجة المئوية ٣٧ غدا كل شيء مبتذلاً.

كان بمقدوري مع ذلك أن أبقى هنا، مطمئناً إلى أبعد حد، مغذى جيداً في مطعم الموقع، خاصة وأن ابنة الماجور ميسشييف، التي كنت أراقبها أيضاً، كانت تأتي، متألقة في أعوامها الخمسة عشر، لتلعب التنس بعد الساعة الخامسة.. أمام نافذة مكتبنا، مرتدية تنورة قصيرة للغاية. نادراً ما رأيت أروع من ساقيها، ورغم أنهما عضلان قليلاً، فقد كانا مع ذلك، في غاية النعومة. لحم شهي في طور التفتح والازهرار. نداء حقيقي للغبطة، مفعم بالفرح والوعود، كان ثمة ضباط من المفرزة برتبة ملازم في ريعان شبابهم لا يغادرونها إلا نادراً.

لم يكن على هؤلاء الأوغاد أن يبرروا سلوكهم مثلي بأعمال من النوع المفيد. لم أكن أفوّت أي تفصيل من تفاصيل مناوراتهم حول معبودتي الصغيرة. كنت أتميز من الغيظ مرات عديدة كل يوم. وانتهى بي الأمر إلى أن أقول لنفسي بأن بإمكاني ربما، أيضاً أن أتصرف كبحار. كنت أداعب هذه الآمال حينما تسارعت الأحداث في الأسبوع الثالث والعشرين من إقامتي. فقد

Twitter: @ketab_n

وعد الرفيق المكلف بنقل الإحصاءات وهو أرمني، على حين فجأة بوظيفة عداد ـ براغيث في آلاسكا لكلاب المستكشفين.

كانت تلك ترقية جيدة بالنسبة إليه، جعلته مفتوناً طافحاً بالبشر. فقد كانت كلاب آلاسكا في الواقع نفيسة للغاية، كانوا في حاجة دائمة إليها، لذلك فهم يعتنون بها جيداً، في حين لم يكن أحد يبالي بالمهاجرين البائسين، وكان هناك أعداد كبيرة منهم باستمرار.

لما لم يعد تحت تصرفنا الآن أي شخص يقوم بنقل حسابات البراغيث إلى نيويورك، لم يترددوا طويلاً، في المكتب بتعييني لهذه المهمة. ضغط ميسشييف، رئيسي في العمل، على يدي لحظة الانطلاق، وأوصاني أن أكون متعقلاً ولائقاً في المدينة، كانت تلك هي الوصية الأخيرة التي قدمها لي هذا الرجل الشريف، وبقدر ما لم يكن يراني مطلقاً بعينيه الحسيرتين، فإنه لم يرني قط مرة أخرى.. ما أن بلغت رصيف المرفأ حتى بدأ المطر المدرار بالانهمار فوق رأسي، ثم تسرب إلى سترتي الرقيقة، وإلى إحصائياتي أيضاً التي ذابت بالتدريج داخل يدي، كنت أحتفظ مع ذلك ببعضها داخل ظرف مختوم سميك جداً برزت أطرافه من جيبي، كي أبدو، بطريقة ما، داخل المدينة، كرجل أعمال، كنت أغذ السير مسكوناً بالخوف والانفعال نحو مغامرات أخرى.

حين رفعت طرفي صوب كل ذلك الجدار الهائل من الأبنية شعرت بنوع من دوار شديد، بسبب النوافذ العديدة والمتشابهة في كل مكان، والتي كانت تثير في نفسي الغثيان.

ولما كنت أرتدي ثياباً مهلهلة فقد أسرعت مرتعداً نحو الشارع الأشد عتمة والذي أمكنني تمييزه في تلك الواجهة العملاقة، آملاً أن لا يراني المارة

Twitter: @ketab_n

بينهم إلا بصعوبة. خجل زائد لا مبرر له، إذ لم يكن ثمة ما أخشاه. كان الشارع الذي اخترته، وهو الأضيق فعلاً بين كافة الشوارع والأقل كثافة من أي شارع عندنا، حافلاً بالقذارة والرطوبة، ومغشى بالعتمة، كان يمشي فيه أناس آخرون، منهم الصغار ومنهم الكبار، يقودونني معهم مثل ظل. كانوا يصعدون مثلي إلى المدينة، إلى العمل دون ريب. أنوفهم إلى الأسفل، كانوا بؤساء كل الأمكنة.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> كما لو كنت عارفاً إلى أين أمضي. اتخذت سمت من يختار وجهته، وغيرّت الطريق، ملت نحو اليمين، إلى شارع آخر، أكثر إضاءة، «برودواي». ذلك هو اسمه. قرأته فوق لوحة معلقة. فوق الطوابق الأخيرة، في الأعلى كانت ما تزال بقية النهار، مع نوارس، ورقع من السماء، كنا نتقدم داخل ضوء منبعث من الأسفل، مريض مثل ضوء الغابة، بالغ الضبابية، بحيث بدا الشارع كما لو كان مملوءً بركام هائل من قطن وسخ.

مثل جرح حزين كان ذلك الشارع الذي لم يعد يتخلص منا. نحن، السائرين من جانب إلى آخر، ومن تعب إلى تعب، نحو النهاية التي لا نراها قط، نهاية كل شوارع العالم.

لم تكن السيارات تمر من هنا، لا شيء سوى أناس، وأناس أيضاً.

كان ذلك هو الحي النقيس، كما شرحوا لي فيما بعد، الحي المكرس للذهب: مانهاتن. لا يعبره أحد إلا على قدميه. كما في الكنيسة، إنه القلب النابض لبنك العالم اليوم، كان ثمة، مع ذلك، من يبصق على الأرض وهو يعبر الشارع، ذلك اجتراء ولا ريب.

حي مترع بالذهب، معجزة حقيقية.. يمكن سماع المعجزة عبر الأبواب، بحفيف دولاراتها حين تدعكها الأيدي. بالغ الخفة، دائماً، هو الدولار، روح قدس حقيقي، أنفس من الدم.

كان لدي الوقت مع ذلك، كي أذهب لرؤية أولئك الموظفين الذين كانوا يحرسون النقود، بل إني دخلت لأتحدث معهم.. كانوا حزينين للغاية، كانت أجورهم زهيدة.

Twitter: @ketab_n

حينما يدخل المؤمنون الورعون إلى بنكهم، فلا تظنن أن بإمكانهم أن يتصرفوا فيه هكذا على هواهم. مطلقاً، إنهم يتكلمون إلى الدولار هامسين له بأشياء، عبر سياج مشبك صغير. يعترفون له بذنوبهم، دونما كثير من الضجة، أنوار شفيفة عذبة.. كوة صغيرة غاية الصغر بين أقواس مقنطرة عالية. هذا كل ما في الأمر. إنهم لا يأكلون القربان، بل يضعونه فوق قلوبهم. لم أستطع البقاء طويلاً للإعجاب بهم، كان علي أن أتبع أناس الشارع بين جدران الظلال الناعمة.

اتسع شارعنا، فجأة على غرار صدع عميق ينتهي ببركة من نور. وجدت نفسي هناك أمام بحيرة من ضوء النهار خضراء مزرقة محصورة بين غيلان وغيلان من المنازل، وفي وسط تلك الفرجة المضاءة يقوم مبنى له مظهر ريفي، محاط بمرجة خضراء حزينة.

سألت العديد من العابرين قربي من حشد المارة عن كنه هذا البناء الذي كنت أراه، ولكن أغلبيتهم كانوا يتظاهرون بأنهم لم يسمعوني، لم يكن لديهم وقت يضيعونه، غير أن شاباً صغيراً مر بجواري أراد، مع ذلك أن يخبرني، بأن ذلك المبنى هو دار الحاكم، ذلكم صرح قديم من بقايا العهد الاستعماري. أضاف الشاب. كل ما كان فيه من معالم تاريخية.. أبقي على حاله.. ثم تحول محيط تلك الواحة إلى حديقة عامة، تضم عدداً من المقاعد، يؤمها الناس كثيراً لمشاهدة دار الحاكم، جالسين على المقاعد، لم يكن هناك أشياء أخرى تستحق المشاهدة، حين وصلت.

انتظرت ساعة كاملة في المكان ذاته، وعند الظهر برز من هذا الغبش، من هذا الجمهور المختلط في الشارع جرف مفاجئ من النساء الجميلات جمالاً أخاذاً.

Twitter: @ketab_n

أي اكتشاف رائع! أي أمريكا! أية فتنة طاغية! إنها ذكرى "لولا"! لم يخدعني مثال "لولا"! كان لعمري، مثالاً حقيقياً.

كنت ألمس الوتر الحساس في رحلة حجي، ولو لم تكن تعذبني في تلك اللحظة نداءات الجوع والرغبة الجارفة بالطعام، لاعتقدت بأنني قد بلغت إحدى لحظات الانخطاف الجمالي فوق الطبيعية. كان الجمال الذي كنت استكشفه يخطفني بشيء من الثقة والغبطة، من شرطي الإنساني المبتذل. لم أكن يعوزني شيء سوى شطيرة كي أتصور نفسي في قلب معجزة من المعجزات. ولكن كم كانت تعوزني الشطيرة.

يا لرشاقتهن الغضة، مع ذلك! ما كان أشهاهن وألذهن! أية لقى جميلة متناسقة، تفردات خطرة، نجاحات لكل المخاطرات! لكل الوعود الممكنة للوجه والجسد لدى هؤلاء الشقراوات! وأولئك السمراوات، وتلك الحوريات، لعل اليونان هي التي انبعثت أمامي؟ كنت أفكر، لقد وصلت في اللحظة المناسبة.

خيل إلي بالأحرى، أنني إزاء أطياف إلهية، لم يكن يبدو عليها قط أنها لحظت وجودي، أنا، هناك، غير بعيد، فوق ذلك المقعد، غارقاً كلياً في حال من البحران، مفعماً بإعجاب شهواني ــ صوفي، يسيل من فمي اللعاب بسبب الكينين والجوع، لابد من الاعتراف بذلك، ولو كان بمقدوري الخروج من جلدي لخرجت منه في تلك اللحظة بالضبط، مرة واحدة وإلى الأبد. لا شيء كان يبقيني داخله أبداً.

كان بوسع هؤلاء الفتيات الطائشات الخارقات الجمال أن يأخذنني معهن. أن يسمون بي، لم يكن ثمة سوى إشارة يشرن بها، أو كلمة يتفوهن بها، حتى أنتقل كلياً، وفي اللحظة ذاتها إلى عالم الحلم، ولكن كان لديهن مهمات أخرى.

Twitter: @ketab_n

انقضت ساعة، ساعتان وأنا في تلك الحال من الذهول، لم أعد أتمنى أي شيء.

أنتم تعرفون خدعة الأمعاء. لا شك أنكم رأيتموها في الأرياف عندنا، يخدعون بها المتشردين؟ يحشون محفظة نقود عتيقة بأمعاء عفنة لدجاجة ميتة، ويلقون بها في درب المتشرد. «إيه حسناً. ثمة متشرد، هو أنا، أقول لكم. وكل ما أراه أشبه بمحفظة ضخمة، نهمة» ثم ما من شيء داخلها سوى حلم.

كان حرياً بي أن أفكر بالأمور الجدية، بأن لا أمس الآن ذخيرتي من النقود، إذ لم يكن معي الكثير منها. لم أكن أتجرأ حتى على عدها. ولن يكون بمقدوري ذلك على كل حال، فقد كنت أرى الأشياء مزدوجة. كنت أحس بوريقاتها فقط عبر نسيج بنطالي، هزيلة فزعة، قريبة جداً داخل جيبي إلى جانب إحصائياتي الخائبة.

من حولي كان يمر رجال أيضاً، شبان على الأخص، رؤوسهم أشبه بخشب وردي، ونظراتهم جامدة ومتماثلة. وفكوكهم يستحيل أن تكون فكوكاً عادية، عريضة جداً، وفظة للغاية.. لابد ان نساءهم في النهاية يفضلنها على هذا النحو. كان الجنسان، كما بدالي، يمضيان كل إلى جهته وسط الشارع.. أما النساء فقلما كن ينظرن إلا إلى واجهات المخازن. تستحوذ عليهن كلياً جاذبية الحقائب والمناديل وأشياء الحرير الصغيرة المعروضة بندرة شديدة، في كل واجهة، ولكن بطريقة متميزة ولافتة للنظر، لم أعثر وسط ذلك الجمهور على كثير من المسنين، ولا على أزواج أيضاً. ما من شخص بدا عليه الاستغراب من وجودي هناك وحيداً طوال ساعات، جالساً على ذلك المقعد أراقب جميع العابرين.. غير أن رجل البوليس الواقف وسط الشارع

Twitter: @ketab_n

المعبد، والجامد مثل محبرة، بدا، في لحظة معينة يشتبه بأمري، وتذهب ظنونه إلى أن لدي نوايا شريرة. كان ذلك واضحاً من نظراته.

حيثما كنت، وحين تجتذب إليك انتباه السلطات، من الأفضل لك أن تتوارى بسرعة، لا ضرورة للشروح، الفرار الفرار، إلى لجة لا قرار لها! هكذا قلت لنفسي.

إلى اليمين من مقعدي كان ثمة فتحة عريضة. أشبه بمداخل المترو على الرصيف عندنا.. بدت لي ملائمة للاختفاء عن الأنظار.. في داخل تلك الفتحة الواسعة ثمة درج من رخام وردي، كنت أرى عدداً من الأشخاص العابرين في الشارع يتوارون فيها ثم يخرجون منها.. وتبينت أنهم كانوا في ذلك المكان تحت الأرضي، يذهبون لقضاء حاجتهم. وعلى الفور. وجدت نفسي داخلها، كانت الصالة التي يحدث فيها ذلك الأمر، من رخام أيضاً، نوع من حوض سباحة، ولكنه فارغ من مائه. حوض ملوث، يغمره ضوء ملطف خافت، يسقط فوق الرجال المفكوكي الأزرار وسط روائحهم، محمري الوجه بسبب الضغط على فضلاتهم القذرة، أمام أنظار الجميع. مع دوي أصوات بربرية.

على ذلك النحو، ببساطة، ومع ضحكات جميع أولئك المقعين داخل الكابينات المحيطة بالحوض، يتبادلون التشجيع مثلما في كرة القدم، يخلع الرجل منهم سترته، في البداية، كما لو من أجل تمرين رياضي، ثم يتخذ الوضعية المناسبة في نهاية المطاف، كان ذلك هو الطقس المتعارف عليه بين الرجال. كانوا يستقرون، بعد ذلك، فوق المغارة الغائطية، مختلي الهندام، متجشئين وأسوأ من ذلك، يومئون إيماءات أشبه بالمجانين، أما الواصلون الجدد فكان عليهم أن يردوا على ألف مزحة بذيئة أثناء نزولهم الدرج من الشارع، ولكنهم كانوا يبدون مبتهجين متهللين مع ذلك.

Twitter: @ketab_n

وبقدر ما كان الرجال متزنين في الأعلى، فوق الرصيف، يتخذون سمت الوقار بصرامة، وبحزن أيضاً، كانت إمكانية اضطرارهم إلى إفراغ أحشاءهم، وبمشاركة صاخبة تحررهم كما يبدو، تسرهم من أعماقهم.

كانت أبواب الكابينات الملطخة بشدة تتدلى، مقتلعة من مفاصلها، كان الرجال يدخلون من أحدها إلى الآخر بغية بعض الثرثرة. أما أولئك الذين كانوا ينتظرون مقعداً شاغراً فكانوا يدخنون سجائر ثقيلة، يربتون على كتف الشخص الجالس المنهمك في العمل، مثابراً بعناد، ورأسه المتشنج بين يديه. كان كثير منهم يتأوهون بشدة على غرار الجرحى والنساء الواضعات، وينذرون المصابين بالإمساك بعذابات مضنية.

ما إن يعلن صوت انبجاس الماء عن شغور أحد النخاريب حتى تزداد الضجة حول هذا النخروب الشاغر، كانوا غالباً ما يلعبون للفوز به لعبة الطرة والنقش. أما الصحف المقروءة حديثاً، وعلى الرغم من أنها سميكة مثل مخدات فكانت ترمى على الفور إلى الأسفل من قبل هذا الرهط من المنشغلين بمعيهم المستقيم. كان من الصعب تمييز الوجوه بسبب سحب الدخان، ولم أجرؤ على الاقتراب أكثر مما ينبغي من هؤلاء الرجال بسبب روائحهم.

تلك المفارقة كانت تبدو مصممة لبلبلة أي غريب. كل ذلك الانفلات الشخصي من أبسط حدود اللياقة، تلك الألفة المعوية المذهلة، يقابلهما في الشارع ذلك التشدد المطلق، كان يذهلني أيما ذهول.

صعدت إلى ضوء النهار عبر الدرج ذاته كي أستريح على المقعد ذاته. إفراط مفاجئ في الهضم وفي الابتذال، اكتشاف لشيوعية مرحة للخراء. كل جانب من تلك الجوانب المثيرة للبلبلة، في المغامرة ذاتها تركته في مكانه، لم

Twitter: @ketab_n

يكن لدي القوة لتحليلها ولا لصنع توليف لها، كان النوم هو ما أشتهيه بقوة. هياج لذيذ ونادر الوجود.

تابعت السير إذن مع أرتال المارة الذين دلفوا إلى أحد الشوارع المفضية إلى الحديقة. تقدمنا دونما انتظام، بسبب المتاجر التي كان كل عرض من عروض بضائعها يفرق الجمهور أشتاتاً، كان باب أحد الفنادق مفتوحاً على مصراعيه، هناك، محدثاً دردوراً بشرياً عظيماً. أشخاص ينبجسون فوق الرصيف عبر فتحة الباب الواسع. قادتني قدماي في الاتجاه المعاكس، إلى داخل الفندق، فتلقفني على الفور بهو عظيم واسع.

كنت مندهشاً في البداية، فقد كان علي أن أخمن وأتخيل عظمة المبنى، وضخامة أبعاده، كان كل شيء يجري تحت ضوء مصابيح محتجبة، لم تكن تألفها العين إلا بعد لأي.

وسط ذلك الغبش كان جمع غفير من الفتيات يغصن في مقاعد عميقة أشبه بعلب الجواهر، ومن حولهن رجال بالغو الحذر، يمرون ويعاودون المرور بصمت، على مسافة منهن، وقد بدا عليهم الفضول والوجل، إزاء صف السيقان المتصالبة على غرار أعمدة حريرية رائعة. خيل إلي أن تلك التحف العجيبة تنتظر هناك أحداثاً جليلة الشأن للغاية، وباهظة الثمن، لم أكن بالطبع، من يفكرن به، وجعلت أمر، بدوري، خلسة أمام هذا الإغواء المديد والصارخ.

لما كانت تلك الفاتنات اللواتي يقارب عددهن المئة، قد انتظمن في صف واحد على الأرائك، كاشفات عن سيقانهن الرائعة، فقد بلغت مكتب الدخول، كمن يمشي في الحلم، مرتشفاً جرعة من الجمال أكبر بكثير مما كانت تحتمله طبيعتي الهشة المتداعية.

Twitter: @ketab_n

خلف المكتب ثمة موظف جامد كأنه ملصق بالصمغ، عرض علي، بفظاظة غرفة صغيرة. كنت عازماً على اختيار أصغر غرفة في الفندق، فقد كان كل ما أملكه، في تلك اللحظة، لا يعدو الخمسين دولاراً، لم يكن لدي أية أفكار، ولا ثقة لي بأحد.

كنت آمل أن تكون تلك الغرفة التي قدمها لي الموظف أصغر غرفة في أمريكا فقد كان فندقه، واسمه لوف كالفين، مثلما قرأت على لوحته، هو الأكثر ازدحاماً بالزبائن بين أضخم الفنادق في القارة.

من فوقي، أية أجنحة باذخة لا نهاية لها! وعلى مقربة مني، فوق تلك الأرائك! أي إغراء بهتك هذا الطوفان من الجمال! أية هوى سحيقة! أية مخاطر!. أيكون عذاب الجمال للفقير البائس إذن عذاباً لا نهاية له؟ أيكون أيضاً أشد عناداً من عذاب جوعه؟ ولكن ما من وقت للاستسلام لتلك الخواطر، فقد وضع موظف المكتب مفتاحاً ثقيلاً في يدي.. وفارقتني فجأة الجرأة على الحركة.

من الظل برز أمام عيني صبي نشط، عليه نوع من ثياب جنرال فتي جداً، يأمر وينهي على هواه، قرع الموظف الهامد فوق المكتب ثلاث قرعات بجرسه المعدني، فشرع الصبي يصفر. كانت تلك إشارة الانطلاق، كانوا يرسلوني إلى غرفتي، وانسللنا أنا والصبي.

مشينا في البداية داخل رواق، بسرعة لا بأس بها، متجهمين ومصممين على غرار مترو، كان الولد يقودني، مررنا بفسحة صغيرة، تلاها انعطاف، ثم انعطاف آخر. كنا نسير دون إبطاء، لوينا قليلاً خط سيرنا، ثم توقفنا. هوذا المصعد. صعود مفاجئ. هل وصلنا الغرفة؟ لا، ثمة رواق أيضاً أكثر عتمة من سابقه. كانت جميع الجدران من خشب الأبنوس كما بدا لي. لم يكن لدي الوقت لأتفحصها، كان الصغير يصفر، حاملاً حقيبتي البالية. لم أجرؤ على

Twitter: @ketab_n

سؤاله، عن أي شيء..عليّ السير فقط، ذلك ما كنت أدركه جيداً. وفي قلب العتمة، هنا وهناك، داخل الممر الذي نسير فيه، مصباح كهربائي أحمر أو أخضر يعطي إيعازاً للسائر.. ثمة خطوط ذهبية تميز الأبواب. اجتزنا منذ وقت طويل الرقم ١٨٠٠ ثم الرقم ٣٠٠٠، كنا نمضي مع ذلك كمن يجرفه قدر غير مرئي، كان الصياد الصغير المزين بشرائط الجنرال يطارد داخل الظل شيئاً لا اسم له. كما لو بوحي غريزته، ما من شيء كان يفاجئه في هذا الكهف، كما يبدو. كان صفيره يتموج بنغمة شاكية، حينما مررنا بزنجي، ثم بوصيفة زنجية هي أيضاً. كان هذا كل شيء.

خلال الجهد الذي بذلته في سيري المتعجل فقدت على امتداد تلك الرواقات المتماثلة، بعضاً من التوازن الذي بقي لي بعد فراري من المحجر الصحي. كانت قواي تتنسّل، خيطاً خيطاً، مثلما كنت أرى كوخي يتنسل مع رياح أفريقيا بين طوفان المياه الفاترة. كنت أصارع هنا سيلاً جارفاً من إحساسات غامضة.

استدار الصبي فجأة دون سابق إنذار. لقد وصلنا. واصطدمت بأحد الأبواب. كانت تلك غرفتي. علبة كبيرة ذات جدران من الأبنوس. لا شيء سوى قليل من النور، كان ينزف على الطاولة من مصباح خجل، مخضر.

«مدير فندق لوف كالفين، يسعده أن يعلن للمسافر بأنه يرحب به بحرارة، وهو يهتم شخصياً بأن يوفر له الراحة والسرور طوال مدة إقامته في نيويورك» كانت قراءة هذا الإعلان البارز للعيان خليقة أن تضيف أيضاً إلى بؤسي بؤساً جديداً.

ما أن غدوت وحيداً، حتى غدت حالي أسوأ بكثير، كل هذه الأمريكا جاءت إلي تقلقني، تطرح علي أسئلة عويصة، تثير في داخلي هواجس قذرة، هنا، حتى داخل غرفتي.

Twitter: @ketab_n

على السرير وبعد أن بلغ القلق مني كل مبلغ، كنت أحاول التآلف مع الغبش الذي يسود ذلك الحيز المغلق، كان ثمة هدير يأتي من النافذة ترتج له الجدران، ذلكم هو المترو الهوائي. ففي مقابل الفندق، كان يندفع بين شارعين على غرار قذيفة مندفع. مكتظ بلحوم مرتعشة مهشمة، مترجحاً عبر المدينة المعتوهة، من حي إلى حي. كنت أراه هناك في الأسفل، يهز هيكله وفوقه سيل من الأقفاص التي كان صداها يتردد خلفه، بعيداً، من جدار إلى جدار. كانت ساعة الغداء قد حانت، وأنا في تلك الحال من الخور، ثم تلتها ساعة النوم أيضاً.

كان المترو الهائج على الأخص هو الذي أصابني بالبهت.. وفي الجانب الآخر من ذلك البئر أضاء النور داخل إحدى الغرف، ثم داخل غرفتين، ثم في عشرات. كان بمقدوري أن أتبين ما يجري في قلب بعض تلك الغرف. أسر عديدة كانت تنام الآن. وقد بدا على هؤلاء الأميركيين الإعياء الشديد على منوال الناس عندنا. بعد ساعات الوقوف العمودي على الأرجل. كانت أفخاذ النساء ممتلئة جداً وشاحبة جداً، تلك التي استطعت أن أراها، على الأقل، أما أغلبية الرجال فكانوا حليقين من الأعلى إلى الأسفل يدخنون سيكاراً قبل نومهم.

في السرير كانوا يخلعون نظاراتهم في البداية، ثم يضعون طقم أسنانهم في قدح، ويجعلون كل ذلك في متناولِ أيديهم. لم يكن يبدو عليهم أنهم يتحاورون فيما بينهم، أو بين أعضائهم الجنسية. إنهم تماماً كما في الشارع، حتى ليخيل إليك بأنك ترى حيوانات ضخمة وديعة جداً، معتادة على السأم. لم ألاحظ في جميع من شاهدت سوى زوجين وزوجتين يمارسان في النور الأشياء التي كنت أتوقعها، ودونما عنف على الإطلاق. أما النساء الأخريات

Twitter: @ketab_n

فكن يأكلن حبات الملبس في السرير، بانتظار أن ينتهي الزوج من تواليته. ومن ثم ينطفئ الجميع.

كان الحزن يخيم على هؤلاء الناس الذين ينامون. لاحظت بوضوح أنهم غير مبالين بأن تسير الأمور كيفما تشاء. رأيت بوضوح أيضاً أنهم لايسعون إلى معرفة السبب في وصولهم إلى ما وصلوا إليه، كان ذلك سيان عندهم. إنهم ينامون،لا يهمهم كيف. ينامون منفوخين، محارات، لا متشككين. وسواء أكانوا أمريكيين أم لا؛ فقد كانت سرائرهم مطمئنة.

رأيت كثيراً من الأشياء أقل وضوحاً من أن تبهجني. كنت أدرك الكثير منها ولم أكن أدرك منها ما يكفي. وقلت لنفسي. لا بد من الخروج، ومن الخروج أيضاً، لعلني ألتقي بروبنسون. كانت فكرة حمقاء بالطبع، ولكنني أقنعت نفسي بها، كي أجد حجة للخروج من جديد، لا سيما أنني كنت أتقلب وأتقلب عبثاً فوق سريري الصغير دون أن أتمكن من الحصول على أصغر ذرة من النوم. وحتى ممارسة الاستنماء في مثل تلك الحالة لن تشعرني بالتفريج ولا بالتسلية. إنه القنوط الحقيقي، إذن!

والأسوأ من ذلك. أنني كنت أتساءل. كيف سأجد في الغد ما يكفي من القوة كي أواصل القيام بماَ قمت به عشية الليلة الماضية. أين سأجد القوة من أجل تلك المساعي البلهاء، تلك المشروعات الألف التي لا تفضي إلى شيء، تلك المحاولات للخروج من الضرورة المضنية، تلك المحاولات المجهضة دوماً. وكل ذلك من أجل أن أقتنع مرة واحدة إلى الأبد بأن القدر لا يمكن قهره، وأن علي أن أسقط كل مساء أسفل جدار من الجدران تحت وطأة القلق من ذلك الغد القادم، الأشد عرضية دوماً والأكثر بؤساً وقذارة.

Twitter: @ketab_n

ربما كان العمر القادم هو الذي يهددنا بالأسوأ. لم يعد لدي الكثير من الموسيقا في داخلي كي أرقّص الحياة. كل فترة الشباب كانت على وشك أن تمضي إلى أقاصي العالم. داخل صمت الحقيقة. إلى أين تذهب خارج هذه الغرفة؟ أنا أسألك، حينما لا يعود في داخلك القدر الكافي من البطاح والهذيان؟ الحقيقة، إنها احتضار لا ينتهي، فحقيقة هذا العالم ليست سوى الموت. لا مفر أمامك من الاختيار أن تموت أو أن تموت. وأنا غير قادر بالمرة على أن أقتل نفسي.

كان من الأفضل إذن الخروج إلى الشارع، القيام بذلك الانتحار الصغير. كل أمرئ له مواهبه الصغيرة، أسلوبه من أجل أن يكسب نومه وقوته. كان حرياً أن أتمكن من النوم كي أجد ما يكفي من القوة لأكسب ما أعيش به غداً. ما يلزمني تحديداً هو أن أسترد نشاطي كي أجد عملاً في الغد. وأن أعبر فوراً، بانتظار الغد، عتبة النوم الخفية. لا ينبغي لك الظن بأن من السهل عليك أن تنام، حينما تبدأ بالارتياب بكل الناس، بسبب الكثير من الخوف، على الأخص، الذي يخلقونه في نفسك.

ارتديت ثيابي، كيفما اتفق، وبلغت باب المصعد، وأنا في حال من البطاح.. كان ينبغي المرور في الرواق أمام صفوف أخرى، ألغاز أخرى تسبي العقل.. ذوات سيقان شديدة الإغواء، ووجوه ناعمة وقاسية، إلهات في النهاية، إلهات صيادات، لعل بإمكاني محاولة التقرب منهن، ولكنني كنت أخشى من أن تنتهي بي الأمور إلى قبضة البوليس، فجميع رغبات الفقير تقريباً تنتهي به إلى السجن. ثم استعادني الشارع. لم يعد الجمهور هو نفسه الذي رأيتهِ من قبل. كان هذا يبدي جرأة أكبر قليلاً، وهو يرغي ويزبد على امتداد الأرصفة، كما لو أنه قد دخل الآن إلى بلد أقل قحولة وقحطاً، بلد التسلية. بلد المساء..

Twitter: @ketab_n

كان الناس يتقدمون نحو الأضواء البعيدة المعلقة في قلب الليل، مثل أفاع متحركة ومتعددة الألوان. كانوا يتدفقون من كل الشوارع المحيطة. مثل هذا الجمهور، كنت أفكر، كان يلد الكثير من الدولارات، من المناديل حسب، على سبيل المثال، أو من جراب حريري، أو من السجائر فقط.. والقول أن بمقدورك، أنت ذاتك أن تتسكع وسط كل هذا المال، فإن ذلك لا يقدم لك قرشاً واحداً، حتى من أجل أن تأكل. كان هذا موئساً حين يفكر المرء به، كان ذلك محظوراً على الناس، يحظره بعضهم على بعض.

كنت أجر نفسي أنا أيضاً نحو الأضواء. هي ذي سينما، ثم سينما أخرى إلى جانبها. وبعدها أيضاً سينما أخرى.. وهكذا دواليك. وعلى امتداد الشارع، كنا نفقد قطعة ضخمة من الجمهور أمام كل منها. اخترت واحدة من تلك السينمات، كان ملصقاً على واجهتها صور لنساء بثيابهن الداخلية، أية أفخاذ ! يا سادتي: ثقيلة فسيحة محكمة التكوين، ورؤوس صغيرة ظريفة فوقها، كما لو أنها مرسومة على سبيل التضاد، ناعمة رقيقة، بقلم رصاص دونما رتوش.. كاملة دونما هنات، بإتقان يفوق الوصف. كاملة، أقول لكم. لطيفة ولكنها صارمة ومختصرة، في الوقت ذاته، كل ما يمكن أن تتفتق عنه الحياة من الجمال الأشد خطورة. من الطيش المطلق للجمال، تلك الهارمونيات السماوية العميقة وهي تبوح بأسرارها.

كان جو السينما لطيفاً دافئاً، أرغنات ضخمة الحجم بالغة العذوبة، كما في الكنيسة، سيسري بها الدفء بعد لحظات، أرغنات شبيهة بالأفخاذ، ما من لحظة أضيعها، غصت في غمرة هذا العفو الدافئ. كان علي أن أترك نفسي على سجيتها، كي أتصور أن هذا العالم ربما كان قد اهتدى إلى سبيل التسامح.

ما لبثت الأحلام أن صعدت وسط الظلمة كي تتعانق مع سراب الضوء الذي ينوس، لم يكن ما يجري على الشاشة نابضاً بالحياة، غير أن حيزاً

Twitter: @ketab_n

فسيحاً مضطرباً من الوهم بقي فيه، من أجل البؤساء، من أجل الأحلام، ومن أجل الموتى. حري بك أن تسرع في زقم الأحلام كي تجتاز الحياة التي تنتظرك في الخارج، حينما تخرج من السينما، كي تصمد بضعة أيام وسط تلك القسوة الفظيعة من الأشياء والناس. إنك تصطفي من أحلامك تلك التي تدفئ روحك أكثر من غيرها، أما أنا، فقد كانت أحلامي، ينبغي أن أعترف بذلك، أحلاماً قذرة، ينبغي أن لا أكون فخوراً. نحن ننتزع من معجزة ما نستطيع انتزاعه منها. كان ثمة امرأة شقراء تمتلك ثديين وعنقاً لا ينسيان قط، عنّ لها أن تقطع صمت الشاشة بأغنية، تشكو فيها وحدتها. كنت سأبكي معها.

كان ذلك مفيداً .. أية حيوية وهبها لي، دبت في عروقي بعد ذلك نفحة من شجاعة، دامت يومين اثنين، كنت أشعر بها. لم أكن أتمنى البتة أن يضيئوا أنوار الصالة، كنت مستعداً أن أتخذ كل القرارات بالنوم الآن بعد أن تجرعت قليلاً من ذلك الهياج الرائع. هياج الروح.

لدى عودتي إلى اللوف كالفين، ورغم أنني ألقيت التحية على بواب الفندق، فقد تقاعس عن أن يتمنى لي ليلة سعيدة، مثل البوابين عندنا، ولكنني لم أكن أبالي الآن باستخفاف البواب. ثمة حياة داخلية فوارة كانت تكفيني، بحد ذاتها، تذيب عشرين عاماً من الجليد.

في الغرفة، ما كدت أغلق عيني، حتى جاءت شقراء السينما تغني لي من جديد، لي أنا وحدي الآن. كل شجى كروبها. كنت أساعدها تقريباً بأن أغفو على صوتها. وقد غفوت عميقاً بما يكفي. لم أعد وحدي كلياً.. من المستحيل أن ينام المرء وحده.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> كي تتغذى بنحو اقتصادي في أمريكا يمكنك شراء رغيف خبز صغير ساخن مع قطعة نقانق في داخله. ذلك سهل ميسور، يباع في أي ركن من أركان الشوارع الصغيرة، بثمن بخس، لم يكن يزعجني قط، بالتأكيد أن آكل في حي الفقراء، ولكن المرء لا يصادف في هذا الحي تلك المخلوقات الجميلة التي هي من نصيب الأغنياء. ذلك ما كان يغدو مكدراً، إلى حد أن الأكل لا يعود حينئذ يستحق العناء.

في اللوف كالفين كان ما يزال بمقدوري أن أتخذ هيئة من يبحث فوق تلك البسط السميكة عن شخص بين صفي النساء الفائقات الحسن في المدخل، وأن أتجاسر شيئا فشيئاً على اقتحام محيطهن المشوب بالغموض. وخلال مروري بهن كنت أعترف لنفسي بأنهم كانوا على حق، رفاقي المجدفون في الانفانتا كومبيتا. بدأت أدرك ذلك بالتجربة، لم يكن لدي الميول الحقيقية لبائس زري. لقد كانوا على حق، أولئك الرفاق حين عنفوني، غير أن الشجاعة لم تكن توافيني دائماً. كنت أذهب لأرتشف من جديد جرعات وجرعات أيضاً من السينما، في هذه الصالة أو تلك. كان هذا كافياً تماماً كي استرد ما كان يلزمني من الحيوية من أجل نزهة أو نزهتين لا أكثر. كنت قد عرفت في أفريقيا، بالتأكيد نوعاً من العزلة بالغ القسوة ولكن العزلة في قرية النمل الأميركية هذه كانت تتخذ شكلاً أشد إرهاقاً.

ما كان يخيفني دائماً هو أن أغدو خاوياً تقريباً، أن لا يكون لدي في النهاية أي سبب جدي للعيش في هذا الوجود. كنت في تلك اللحظات أمام

Twitter: @ketab_n

الوقائع الأكيدة لعدمي الذاتي، في ذلك الوسط المختلف جداً عن الوسط الذي نشأت فيه وتعودت فيه عادات دنيئة، كنت كمن يذوب ويتحلل في الحال وشعرت بأنني لم أعد موجوداً، بكل بساطة، وهكذا فحين توقفت عن التحدث إلى نفسي عن الأشياء المألوفة لي، لم يعد ثمة ما يحول بيني وبين الغرق، بنحو مقزز، في نوع من السأم لا يمكن مقاومته. في كارثة روحية رهيبة.

عشية اليوم الذي فارقت فيه آخر دولار خلال تلك المغامرة كنت ما أزال غارقاً في السأم. كان ذلك من العمق بحيث رفضت حتى أن أتفحص السبل الأشد استعجالاً للخروج من مأزقي.. والحق أننا، نحن البشر، بطبيعتنا، من التفاهة والبطلان بحيث أن التسليات وحدها، يمكنها أن تمنعنا فعلاً من أن نموت. كنت أتشبث بالسينما بحماسة قانطة.

لدى خروجي من الظلمات الهاذية لفندقي كنت ما أزال أحاول القيام ببضع نزهات وسط الشوارع الراقية المحيطة بالفندق. كرنفال فسيح من المنازل المصابة بالدوار. كان سأمي يتفاقم أمام تلك الامتدادات الواسعة لواجهات المباني، تلك الرتابة المتكبرة المنفوخة للشقق، للقرميد، للأعمدة التي لا نهاية لها. للتجارة وللتجارة أيضاً، قرحة العالم تلك، وهي تنفجر بإعلانات واعدة متقيحة، مئة ألف كذبة مهذارة.

على مقربة من النهر جبت شوارع صغيرة أخرى، وشوارع أيضاً، غدت أبعادها وقياساتها مألوفة لدي، فقد كان بإمكاني على سبيل المثال وأنا أقف على رصيف إحداها أن أكسر كل ألواح الزجاج للمبنى المقابل لي.

كانت الروائح العفنة للقلي المتواصل تستأثر بتلك الأحياء. ولم تعد المتاجر تعرض بضائعها خوفاً من السرقات. كل شيء كان يذكرني بالأنحاء المجاورة لمشفاي في فيليجويف، وحتى الأولاد ذوو الركب الغليظة، الملتوية

Twitter: @ketab_n

إلى الداخل، المنتشرون على امتداد الأرصفة، والأرغنات الجوالة التي كنت سأبقى ربما هناك مع عازفيها، لولا أن أولئك البؤساء لا يملكون إطعامي. أراهم دوماً غارقين في بؤسهم المدقع الذي كان يملؤني بالفزع. كنت أعود في النهاية إلى الأحياء الراقية في المدينة. «قذر! كنت أقول لنفسي حينذاك. أنت لا تملك في الحقيقة أي فضيلة». ينبغي أن تتصدى للتعرف على نفسك كل يوم أكثر قليلاً، في اللحظة التي تمتلك فيها الشجاعة للخلاص من تباكيك، مرة واحدة وإلى الأبد.

كان أحد الترامات يسير محاذياً حافة "الهدسون"، متجهاً صوب مركز المدينة. عربة عتيقة، ترتج بكل عجلاتها وهيكلها الوجل، تستغرق ساعة كاملة كي تنهي خط سيرها، كان ركابها يخضعون، دون تبرم، إلى طقس معقد في الدفع، من خلال نوع من مطحنة للقهوة، توضع فيها النقود مثبتة في مقدمة الحافلة. كان المراقب يتابعهم بعينيه، وهم يقومون بذلك، مرتدياً على منوال المراقبين عندنا، زي «ميليشيا بلقاني سجين».

كنت أعود، في النهاية، من نزهاتي الشعبية منهكاً، فأعاود المرور أمام صف الجمال المزدوج الذي لا ينفد، في البهو الفضي. ثم أمر ثانية وثالثة، ولا أكف عن المرور حالماً متشهياً.

بلغ بي العوز حداً لم أعد أجرؤ معه على التفتيش داخل جيوبي، كي أعرف ما بداخلها. حسبي أن لا تكون "لولا" قد اختارت التغيب في تلك اللحظات. كنت أفكر في ذلك.. ولكن قبل كل شيء، هل كانت سترغب في استقبالي؟ هل أستطع أن أستلف منها خمسين أو مئة دولار في المحصلة؟ كنت متردداً، وشعرت بأنني سأفتقد الشجاعة إن لم آكل جيداً وأنام جيداً، مرة واحدة، ثم إنني إذا ما أفلحت في مشروعي الأول هذا في الاستلاف من لولا،

Twitter: @ketab_n

فسأبدأ، على الفور، في البحث عن روبنسون، في اللحظة التي سأستعيد فيها ما يكفيني من القوة. لم يكن شخصاً من نسيجي هذا الروبنسون.. فهو عزوم. على الأقل، شجاع، آه، كان علي أن أعرف من قبل بعض الأمور والحقائق حول أمريكا. كـان روبنسون يمتلك ربما، وسيلة كي يشعر بتلك الثقة وبتلك الطمأنينة التي كنت أفتقدها كلياً.

إذا ما أقلته سفينة شراعية هو أيضاً، مثلما يخيل إلي، ووطئ هذا الشاطئ قبلي، في ذلك الوقت، فقد كوّن لنفسه مركزاً أمريكياً، فهذا الهياج الخالي من التأثر والقلق لدى هؤلاء الأمريكيين الطائشين لم يكن ليزعجه. وأنا أيضاً، إذا ما فكرت جيداً، فسيكون بوسعي البحث عن وظيفة في مكتب من تلك المكاتب التي كنت أقرأ لوحاتها المشعة على أبوابها. ولكنني حين كنت أفكر في الدخول إلى إحدى تلك البيوت يعتريني الخوف ويشلني الخجل. بحسبي فندقي! قبر هائل، مكتظ ببشاعة لا حدود لها.

ألم تكن تلك الأكداس من الأبنية، تلك النخاريب التجارية تؤثر ربما على المعتادين على رؤيتها مثلما كانت تؤثر علي؟ تلك الأقفاص المنتظمة أيما انتظام؟ لعل ذلك الطوفان المعلق كان يمثل بالنسبة إليهم الأمن في حين كان يمثل لي نظاماً فظيعاً للإكراه، طوفان من القرميد، والأروقة والرتاجات والكوى، تعذيب معماري فظيع، يستعصي على التسكين.

ليست الفلسفة سوى التعبير، بطريقة أخرى عن الخوف وهي نادراً ما تعتمد إلا على صور الخوف والتهيب.

حينما لم يعد في جيبي سوى ثلاثة دولارات، رحت أحدق بها وهي ترتعص في راحة يدي، على ضوء إعلانات التايم سكوير، تلك الساحة الصغيرة المدهشة التي تنبجس فيها الدعاية فوق رؤوس الجمهور المنشغل

Twitter: @ketab_n

باختيار سينما، كنت أبحث عن مطعم اقتصادي جداً، ثم وقعت على إحدى صالات الطعام المعقولة التي قلصت الخدمة فيها إلى الحدود الدنيا، واختصر الطقس الغذائي إلى العيار المضبوط للحاجة الطبيعية.

من المدخل، ثمة طبق يلقى بين يديك، تتقدم لتأخذ دورك في الرتل، انتظار، جارات، مرشحات رائعات للغذاء مثلي، لم يكن يكلمنني، لا شك أن ذلك سيحدث فيّ تأثيراً عجيباً لو أنهن فعلن ذلك، كنت أفكر. هل أستطيع أن أسمح لنفسي بالاقتراب هكذا من إحدى أولئك الآنسات ذوات الأنف الدقيق والمغناج: «آنستي، سأقول لها. أنا ثري، ثري جداً، قولي لي ما الذي يسعدك كي توافقي على..

حينذاك يغدو كل شيء بسيطاً على الفور، ربانياً من دون ريب، كل ما كان بالغ التعقيد قبل لحظة.. سينقلب عالياً سافلاً، والعالم المعادي على نحو مرير سيتدحرج عند أقدامك مثل كرة مداجية، طيعاً ناعم الملمس، وتتخلى حينئذ، في الوقت ذاته عن التعود المضني على الأحلام، تدخل في عداد الكائنات المحظوظة، وتحوز على الثروات النفيسة، ما دمت تملك ملامسة كل ذلك بأصابعك. لا ريب في أن حياة الأشخاص الذين يفتقرون إلى الوسائل، ليست سوى رفض مديد وسط هذيان مديد، إنهم لا يعرفون في الحقيقة، ولا يتحررون أيضاً إلا بما يملكونه. أما أنا فلفرط ما كنت أتمسك ثم أتخلى عن الأحلام فقد صار شعوري وسط مجرى هوائي، مصدعاً بألف صدع، وفاسداً على نحو مقزز.

بينما كنت أنتظر دوري في الرتل لم أتجرأ أن أخوض مع هذا الصبا الغض في المطعم أقل الأحاديث شأناً. كنت أمسك طبقي باحتشام شديد، صامتاً. ولما جاء دوري في المرور أمام القدر الخزفي المملوء بالنقانق

Twitter: @ketab_n

والفاصولياء، أخذت كل ما قدموه لي. كان ذلك المطعم نظيفاً للغاية، مضاء أفضل إضاءة، بحيث كنت أشعر بأني محمول فوق فسيفسائه مثل ذبابة فوق الحليب.

ثمة نادلات أشبه بالممرضات كن يقفن خلف أطباق المعكرونة والرز، والفواكه المطبوخة. لكل منهن اختصاصها، ملأت طبقي مما كانت توزعه تلك اللطيفات، دون أن يبتسمن، للأسف، أصغر ابتسامة للزبائن. حين يقدم إليك الطعام عليك أن تذهب لتجلس بهدوء، مفسحاً المكان، لغيرك، تمشي بخطوات وئيدة، حاملاً طبقك بتوازن، كما لو عبر غرفة عمليات، كان ذلك مختلفاً بالقياس إلى فندقي اللوف كالفين، وغرفتي الابنوسية ذات الخطوط المذهبة.

ولكنهم إذا ما كانوا يغمروننا بفيض من الأضواء المشعة، إذا ما كانوا ينتزعوننا بعض لحظات من عتمة شرطنا المعتادة، فقد كان ذلك يشكل جزءاً من خطة. لقد كان لصاحب المطعم أفكاره، كنت مرتاباً. كان ذلك النور المتلألئ يترك أثره في داخلك، بعد أيام وأيام من الظلمة، حين تستحم فجأة بشلالات من النور. أما أنا فقد سبب لي ذلك نوعاً من هياج إضافي. لم تكن هذه الإنارة تلزمني كثيراً.

تحت الطاولة الصغيرة التي كانت من نصيبي، والتي تشع بالنظافة، لم أفلح في إخفاء قدميّ، كانتا تبرزان من كل ناحية، كنت أرغب بعمق بأن لاتكونا معي في تلك اللحظة، فقد كنا مراقبين من الجهة الأخرى، من جهة واجهة المطعم الزجاجية، من قبل الأشخاص المصطفين الذين تركناهم خلفنا في الشارع والذين كانوا ينتظرون أن ننتهي من طعامنا، كي يجلسوا هم بدورهم. لأجل ذلك التأثير بالذات، ولكي يبقوهم مفتوحي الشهية، كنا نحن

Twitter: @ketab_n

مغمورين بالأضواء، ظاهرين للعيان، على هيئة دعاية حية، كانت حبات الفريز فوق قطعة الجاتو التي أمامي تتألق ببريق منعكس، بحيث لم أستطع أن أقرر التهامها.

لا يفلت المرء من التجارة الأمريكية.

عبر الافتتان بتلك الأضواء وبذلك القسر، كنت أراقب رغم كل شيء الذاهبات والآيبات في الأنحاء المحيطة بنا مباشرة من النادلات الرائعات، وعزمت على أن لا أضيع حركة واحدة من حركاتهن الرشيقة، وحينما جاء دوري في تبديل غطاء طاولتي، برعاية إحداهن، تبينت بوضوح الشكل غير المتوقع لعينيها اللتين كانت زاويتهما الخارجية حادة وصاعدة أكثر من عيون النساء عندنا. كانت جفونها تتموج أيضاً بخفة أكبر باتجاه الحاجب من جهة الصدغين، بقسوة في المحصلة، ولكن بما يلزم من القسوة بالضبط. قسوة يمكن عناقها بشغف، مرارة خادعة على غرار مرارة خمور الرين، لذيذة على الرغم منك.

حينما صارت النادلة على مقربة مني أشرت إليها بإشارات بسيطة ذكية، إن أمكنني قول ذلك، كما لو كنت أعرفها من قبل. تفحصتني دون أية مجاملة، كأنها تتفحص حيواناً، ولكن بفضول مع ذلك «هي ذي، كنت أقول لنفسي، أول أمريكية تجد نفسها مجبرة على النظر إلي».

ما أن أتيت على كعكة الفاكهة الساطعة، حتى كان علي أن أترك مكاني لشخص آخر. نهضت حينئذ من مكاني، ومشيت متعثراً قليلاً، وبدلاً من أن أسلك الطريق الصحيح الذي كان يقودني إلى المخرج مباشرة، استعدت بعض الشجاعة، وتجاوزت الرجل الواقف على الصندوق والذي كان ينتظرنا جميعاً، مع نقودنا، واتجهت نحو الشقراء، وقد بدوت غريباً كل الغرابة، وسط أمواج الضوء المتهادية بانتظام.

Twitter: @ketab_n

أشارت إلي النادلات الخمس والعشرون جميعهن، من مواقعهن خلف الأشياء التي كانت تطهى على مهل، وفي وقت واحد، إلى أنني أخطأت الطريق، كنت ألتقط دوامة من الأشكال عبر زجاج الواجهة لأشخاص ينتظرون الدخول، ولأولئك الذين كان علهم أن يبدؤوا بالأكل، وكانوا مترددين في الجلوس، كنت قد خرقت نظام الأشياء. كان الجميع حولي مدهوشين على نحو يفوق الوصف

«إنه غريب، أيضاً على أي حال» كانوا يقولون

ولكنني كنت متشبثاً بفكرتي، مهما كلفني ذلك، لم أكن راغباً في أن أترك جميلتي التي كانت مكلفة بخدمتي. كانت الفتاة الظريفة قد شاهدتني، ويا لتعاستها! كنت وحيداً تماماً! ما من أحلام! ولكن مفعماً بالانجذاب «آنستي أنتِ لا تعرفيني إلا قليلاً جداً. ولكنني أحبك، هل ترغبين في الزواج مني؟..» سألتها بهذه الطريقة الأشد استقامة ونزاهة.

لم يصلني جوابها أبداً. لأن عملاقاً من حراس المطعم، يرتدي البياض هو أيضاً، ظهر في تلك اللحظة بالتحديد ودفعني خارجاً، ببساطة. دونما شتائم، ولا خشونة، إلى قلب العتمة، مثل كلب نسيه أصحابه، واتخذت طريقي نحو اللوف كالفين.

داخل غرفتي كان صدى الرعود المتواصل ذاته يتردد مدوياً كالإعصار. صواعق المترو الهوائي أولاً، وهو يندفع نحونا من بعيد جداً، محتلاً جميع أقنيته، مهمشاً المدينة، ثم نداءات متنافرة في الوقت ذاته، صادرة عن الآلات الميكانيكية، منبعثة من وسط الشارع، وبعد ذلك تلك الضجة الرخوة للجمهور المدوم متلكئاً متردداً، مضجراً دوماً، يهم بالانطلاق، ثم يتردد، ثم يهم بالعودة. مربّى من البشر داخل المدينة.

Twitter: @ketab_n

من هناك في الأعلى حيث أقبع. كان بوسعي الصراخ بهؤلاء الناس مثلما أشاء. حاولت ذلك، كانوا يثيرون تقززي جميعاً، لم يكن لدي الجرأة بأن أقول لهم ذلك أثناء النهار، حينما أكون في مواجهتهم. ولكنني من هنا، حيث كنت، لم أكن أجازف بأي شيء، صرخت بأعلى صوتي. «النجدة، النجدة،» لا لشيء إلا لأرى إن كان ذلك سيدفعهم إلى فعل شيء ما، ولكن ما من مجيب. كانوا يدفعون الحياة والليل والنهار أمامهم، ولكن الحياة كلها كانت متوارية عنهم. ففي قلب ضجيجهم لم يكونوا يسمعون شيئاً، ولم يكونوا يبالون بشيء. وبقدر ما كانت المدينة كبيرة، وبقدر ما كانت عالية، بقدر ما كانوا لامبالين. أقول لكم، لقد حاولت الصراخ، ولكن هذا لا يستحق العناء.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> لأسباب مالية حسب، ولكنها ملحة وقهرية شرعت في البحث عن "لولا". كم كنت سأترك صديقتي الصغيرة تشيخ وتختفي إلى الأبد دون أن أراها ثانية لولا هذه الضرورة المثيرة للرثاء، حاصل الكلام، أنني لم يكن لدي مجال للشك، حينما كنت أفكر بها بأنها تصرفت معي بأشنع الطرق وأشدها وقاحة.

حين نفكر في سن متقدم بأنانية الكائنات البشرية التي كانت قد اختلطت بحياتنا، فإن تلك الأنانية لا تبرح راسخة بقوة، على النحو الذي كانت عليه. أعني، من حديد، من بلاتين، بل وأكثر استمرارية منهما، من الزمن نفسه.

والواقع أن اللامبالاة الأشد برودة، والفظاظة الأكثر كلبية ولؤماً. تبدو للمرء في فترة شبابه، كأعذار لنزوات عاطفية. ثم لا أدري كيف، كعلامات على رومانسية غرة غير ناضجة، ولكن حين تطلعك الحياة، فيما بعد على كل ما يمكن أن تتطلبه من حذر ومكر، ومن قسوة وخبث كي تحافظ فقط بأي طريقة من الطرق على الدرجة ٣٧ من حرارة جسمك، فإنك تدرك آنئذ، تفتح عينيك على اتساعهما، تتوصل إلى أن تفهم كل القذارات التي يحتويها ماضيك. يكفي في كل ذلك، ومن أجل كل ذلك أن تتأمل بدقة ذاتك، وما الذي غدوت إليه من التمرغ في الأقذار. والحقيقة أنه كلما كان هناك خفايا مجهولة، كلما كانت هناك غباوات، لقد ابتلعنا كل الأشعار، ما دمنا قد عشنا حتى الآن. يخنة فاصولياء، تلكم هي حياتنا.

انتهيت أخيراً إلى اكتشاف صديقتي الصغيرة الفظة، بكثير من المشقة، في الطابق الثالث والعشرين من شارع ٧٧. من الغريب أن الأشخاص الذين

Twitter: @ketab_n

تهيئ نفسك لتطلب منهم خدمة يمكنهم أن يثيروا اشمئزازك، كان بيتها ينم عن ثراء، مرتباً، بنحو ملائم، مثلما كنت قد تخيلته.

بعد تجرعي مسبقاً جرعات كبيرة من السينما وجدت نفسي في حالة جيدة تقريباً من الناحية المعنوية، خارجاً من الفاقة التي كنت أتخبط فيها منذ وصولي إلى نيويورك، كان اللقاء أقل إزعاجاً مما كنت قد توقعت، لم يبد على "لولا" بأنها أحست بدهشة قوية لدى رؤيتي، بل بشيء من الضيق حين تعرفت علي.

حاولت في البداية أن أصوغ نوعاً من خطة حديث بسيط، بالاعتماد على موضوعات من ماضينا المشترك، وأن يكون ذلك بالطبع بألفاظ حذرة، قدر ما أستطيع. معرجاً، ولكن من دون إلحاح على الحرب، بوصفها، حادثاً عرضياً، وقد ارتكبت هنا هفوة شنيعة، فهي لم تعد ترغب في سماع أي حديث عن الحرب، أي حديث على الإطلاق، كان ذلك يؤرقها، وتكدرت لولا بسرعة، واعترفت لي بأنها ما كانت لتتعرف علي أبداً لو صادفتني في الشارع، لفرط ما غضن العمر وجهي وكوّرني، وحولني إلى كاريكاتور.. خضنا بعض الوقت في هذه المجاملات. ولكن إن كانت البغي الصغيرة تتخيل أنها تؤثر فيّ بهذه الأفكار الثابتة! فإنني لم أكن لأتنازل قط لالتقاط تلك الوقاحات الدنيئة.

لم يكن أثاثها يبدي أية أناقة غير متوقعة، ولكنه كان بهيجاً مع ذلك، يمكن للعين احتماله، بدا لي هكذا، على الأقل، بالقياس إلى فندقي لوف كالفين.

إن أسلوب وتفاصيل جمع ثروة سريعة تمنحك على الدوام انطباعاً سحرياً، فمنذ صعود نجم ميزين ومدام هيروت عرفت أن الإست هو منجم الذهب الصغير للفقير، تلك الانسلاخات الأنثوية كانت تسحرني، وأنا، على

Twitter: @ketab_n

سبيل المثال، أهب آخر دولار في جيبي لحاجبة العمارة التي تسكنها "لولا"، لالشيء إلا لكي أجعلها تثرثر.

ولكن لم يكن لعمارة "لولا" حاجبة، المدينة بكاملها كانت خاوية من الحاجبات، مدينة دون حاجبات، هي مدينة دون تاريخ، ودون ذوق، إنها عديمة الطعم، مثل حساء بلا بهار، ولا ملح، يخنة غليظة عديمة الشكل. أوه! أية قشارات شهية، أية بقايا! أية بقع تسّح من المخدع، من المطبخ، من السقائف، وتقطر شلالات من بيت الحاجبة في قلب الحياة، أي جحيم عذب! بعض الحاجبات عندنا، يرزحن تحت وطأة عملهن، تراهن مقتصدات، شهيات، منذهلات، ترهقهن الحقيقة، أولئك الشهيدات، وتستنفد قواهن.

في مواجهة كراهيتك لفقرك الذي تتمرغ فيه يجدر بك، لنعترف بذلك، فالاعتراف واجب، أن تثمل بطريقة ما، من الخمر، الخمر الرخيص، من الاستمناء، من السينما، لا يسعك أن تكون شكساً صعب الإرضاء، «فريداً» كما يقولون في نيويورك. أما حاجباتنا فكن يزودننا بالكراهية، طوال سنة سعيدة أو تعيسة. لنعترف بذلك، يزودن أولئك الذين يحسنون احتضان تلك الكراهية، وتأريثها داخل قلوبهم، كي يفعلوا كل ما في وسعهم لقلب عالم، رأساً على عقب. أما في نيويورك، فتجد نفسك محروماً بقسوة من هذا الفلفل الحلو المفعم بالحيوية، الدنيء والحي، المتعذر ردّه، والذي لولاه لاختنق ذهنك، وحكم عليه بأن لا يثلب أو يغتاب قط إلا بإبهام، بل يغمغم بوشايات باهتة، ما من شيء ينهش، يجرح، يشق، يزعزع يعذب، من دون وجود حاجبة العمارة، وكل ذلك يضاف بالطبع إلى الكراهية الكلية، ويضيء ألف تفصيل من تفصيلاتها التي لا تنكر!.

Twitter: @ketab_n

ألم بي اضطراب بعدما أشعرتني "لولا"، وقد تفاجأت بي في عقر دارها، بتقزز جديد. كان لدي رغبة شديدة بأن أتقيأ فوق سوقية نجاحها، وكبريائها، الغث والمثير للاشمئزاز، ولكن مع من؟ لقد استيقظت ذكرى ميزين، بتأثير عدوى فورية، في اللحظة ذاتها، لتجعلني عدوانياً ومنفراً، كراهية مضطرمة ولدت في داخلي لهاتين المرأتين، وتعمقت أيضاً، واندمجت بمبرر وجودي. كان يعوزني توثيق الأحداث كي أتجرد في الوقت المناسب، وبصورة نهائية من كل تسامح راهن، قبل المجيء إلى "لولا". لا يغير المرء حياته.

لا تتكون الشجاعة من الصفح عن أخطاء الآخرين، نحن نصفح دوماً أكثر مما ينبغي، وهذا لا يفيد في شيء، فالدليل دامغ، ينبغي أن ننوم الناس السعداء ذات مساء، وفيما هم نائمون أقول لكم، نتخلص منهم ومن سعادتهم مرة واحدة وإلى الأبد، ثم لا نعود في الغد إلى التحدث عن سعادتهم، نتحرر من كوننا تعساء ما وسعنا ذلك، ولكنني سأعود إلى ما كنت فيه: كانت لولا تروح وتجيء إذن عبر حجرتها، متخففة من بعض ملابسها. كان جسدها يبدو لي مع ذلك شهياً جداً ما يزال، جسد باذخ، إمكانية دائمة للاستباحة، لهصر ثمين، مباشر. حميم، في صميم الثراء، والترف. دونما خشية أو تردد.

لم "تنتظر" لولا ربما سوى حركة مني كي تأذن لي بالانصراف. كان ثمة رغبة ملحة حقيرة، تدفعني إلى الحذر، أن آكل أولاً، ومن ثم أن لا تتوقف هي عن حديثها لي عن تفاهات وجودها. سيكون من الضروري إغلاق أبواب العالم خلال جيلين اثنين على الأقل إن لم يعد هناك أكاذيب تلهج بها الألسنة، لن يعود ثمة شيء يقال أو يكاد، سألتني عما كنت أفكر به حول أمريكاها، فبحت لها بأنني قد وصلت إلى ذلك الحد من الوهن والاحتضار، بحيث أن أي إنسان أو أي شيء، تقريباً كان يغدو بالنسبة إلي مرعباً، أما بلدها فقد كان

Twitter: @ketab_n

يخيفني بكل صراحة، أكثر من مجموع الأخطار الداهمة والمحتجبة، وغير المتوقعة التي صادفتني فيه، وعلى الأخص تلك اللامبالاة الهائلة تجاهي والتي تلخص بلدها في رأيي.

لابد لي من أن أكسب قوتي، اعترفت لها أيضاً، كان علي التغلب بأقصى سرعة على تلك الحساسيات الزائفة، ولكني وجدت نفسي على هذا الصعيد متأخراً جداً، أكدت لها امتناني العميق، فيما لو رغبت بأن توصي بي موظفاً من معارفها، وأن يكون ذلك بأسرع وقت.. بحسبي معاش متواضع جداً، وتفوهت أيضاً بالكثير من العبارات الرقيقة، ومن الهذر.. استاءت كثيراً من اقتراحي المتواضع، المتطفل مع ذلك، واتخذت على الفور موقفاً مثبطاً، فهي لم تكن تعرف على الإطلاق أي شخص يمكنه أن يقدم لي عملاً أو مساعدة، هذا ما أجابتني به، وعدنا، بالضرورة، إلى الحديث عن الحياة عامة، وعن حياتها بوجه خاص.

كنا نراقب بعضنا، على هذا النحو، معنوياً وجسدياً، حينما قرع جرس الباب، ومن دون مقدمات، تقريباً، ولا تلكؤ، دخلت أربع نسوة إلى الغرفة، مخضبات، ناضجات، مثقلات باللحم والحلي، من صديقات "لولا" المقربات للغاية، قدمتني "لولا" إليهن باقتضاب شديد، منزعجة جداً (كان ذلك بادياً عليها). وحاولت أن تجرهن بعيداً عني، ولكنهن بدأن، على النقيض من ذلك، بمحاولة جذب انتباهي إليهن كلهن مجتمعات، كي يحدثنني عن كل ما كن يعرفنه عن أوروبا، الحديقة العجوز المكتظة بمجانين مهجورين، شهوانيين وكواسر. كن يحفظن عن ظهر قلب منطقتي الشابانية والأنفاليد.

بالنسبة إلي لم أكن قد زرت أياً من هذين الموقعين. فالأول مكلف جداً، والثاني بعيد جداً، وعلى سبيل الرد، اجتاحتني نفحة من الوطنية العفوية

Twitter: @ketab_n

والمرهقة، وهو ما يساورك عادة في تلك المناسبات، ورددت عليهن بحيوية بهجوم عكسي، بأن مدينتهن كانت قد أدمت فؤادي، إنها نوع من معرض فاشل، قلت، معاكساً قناعاتهن، وبأن الناس مصرون هنا على إنجاح هذا المعرض مع ذلك.

بينما أنا أخطب هكذا، مخاتلاً حيناً وصادقاً حيناً لم أستطع أن أمنع نفسي من أن ألتقط بأكبر قدر من الوضوح أسباباً أخرى أيضاً غير البرداء للانحطاط الجسدي والنفسي الذي كنت أرزح تحت وطأته المضنية، كان ذلك يعني، بالإضافة إلى تغيير العادات، ضرورة أن أتعلم مرة أخرى التعرف على وجوه جديدة في وسط جديد، وأن أتعلم دونما كسل طرقاً أخرى في الحديث وفي الكذب، لأن الكسل من القوة بقدر قوة الحياة تقريباً. كان ابتذال التمثيلية الهزلية الجديدة التي يجدر بي أداؤها يسحقني، كان يلزمني في المحصلة، من الجبن أكثر مما يلزمني من الشجاعة، لأبدأ كل شيء من جديد. إنه المنفى، الغربة، تلك المراقبة القاسية لوجودك مثلما هو فعلاً، خلال ساعات الصحو تلك، الاستثنائية في نسيج الزمن الإنساني، حيث تفارقك عادات البلد السابق دون أن تخبلك العادات الأخرى الجديدة إلى حد كاف.

كل ما يخالجك في تلك اللحظات يضاف إلى كربك القذر يدفعك، وأنت في غمرة ضعفك، إلى أن تتبين الأشياء والأشخاص والمستقبل. مثلما هم عليه، أعني هياكل من المومياء، لا شيء سوى اللاشيء، حيث يتوجب عليك أن تحب هذه المومياءات، تتعلق بها، تحميها، تبعث فيها الحياة كما لو كانت موجودة.

نمط آخر، أشخاص آخرون حولك، يتحركون بطريقة غريبة إلى حد ما، ابتذالات صغيرة مشتتة. بعض الغطرسة التي لم تعد تعرف هي سبب

Twitter: @ketab_n

وجودها ولا زيفها، ولا صداها المألوف، ثم لا تحتاج أنت إلى أكثر من ذلك، حتى تصاب بالدوار ويغزوك الشك، وتتفتح اللانهاية من أجلك وحدك، لانهاية صغيرة مضحكة، ثم تسقط في داخلها.

إنما السفر هو البحث عن ذلك اللاشيء، على الإطلاق، عن ذلك الدوار الصغير، بالنسبة إلى البلهاء.

كانت زائرات لولا الأربعة يضحكن كثيراً وهن يسمعنني، على هذا النحو أعترف، بكثير من الاندفاع، وأمثل دور جان جاك أمامهن.. وكن يخاطبنني بكومة من الأسماء. لا أكاد أفهمها، بسبب التحريفات الأمريكية، وبسبب كلامهن اللذيذ وغير المحتشم، قطط مثيرة للشجى.

لما دخل الخادم الزنجي ليقدم الشاي صمتنا جميعاً.

إحدى تلك الزائرات كانت تتمتع مع ذلك ببصيرة أكثر من الأخريات أعلنت بصوت عال بأنني كنت أرتعش من الحمى، وأنني أعاني أيضاً من عطش غير عادي، وقدمت لي وجبة خفيفة، سررت بها كثيراً، على الرغم من ارتعاشي، لقد أنقذت تلك الشطائر حياتي. يمكنني قول ذلك.

دار الحديث، حول المزايا المقارنة للمنازل الباريسية والأمريكية دون أن أتحمل عبء المشاركة فيه. وتذوقت أولئك الجميلات أيضاً بتلذذ مشروبات معقدة التركيب، وما أن دبت فيهن الحرارة والحميمية تحت تأثير الشراب حتى تأرجت وجوههن بالحمرة وهن يتحدثن عن «الزواج» وعلى الرغم من أنني كنت مشغولاً بالتهام شطائري، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أعلق حول موضوع العلاقات الخاصة جداً، والتي تحدث بين المثليين.

أدركت لولا أن هذه الأحاديث كانت تجعلني شديد الانتباه والفضول كانت تحدق بي بشيء من القسوة، ثم كفت عن الشراب.. لم يكن الرجال

Twitter: @ketab_n

الأمريكيون الذين كانت تعرفهم مفرطين بالفضول مثلي، على الإطلاق. لبثت بشيء من الصعوبة على حدود مراقبتها، كنت راغباً في أن أطرح ألف سؤال على هؤلاء النساء..

ما لبثت المدعوات أخيراً أن غادرننا، ثقيلات الحركة متهيجات بسبب الكحول، ومنتعشات جنسياً، لقد انتشين بعد أن خوّضن في حديث مفعم بالشبق، أنيق وبذيء. كنت أهجس ها هنا بشيء ما اليزابيتي، أحسست برعشاته اللذيذة جداً بالتأكيد والمكثفة جداً في طرف عضوي، ولكن هذه المشاركة العضوية، هذه الرسالة الحيوية، لم أملك سوى أن أستشعرها بحسرة مرة، وبحزن متعاظم، وبكآبة لا أمل في شفائها.

بدت لولا بعد أن عبرت الصديقات بابها، مرهقة بوضوح. لقد كدرها كلياً هذا الفاصل الترفيهي، ولم تنبس بكلمة.

«أية مشعوذات، أكدت "لولا" بعد بضع دقائق

ـ من أين تعرفت بهن؟ سألتها

ـ إنهن صديقات منذ زمن بعيد..»

لم تكن مهيأة لمزيد من المسارات في تلك اللحظة

بحسب طريقتهن المتعالية بعض الشيء، تجاهها، بدا لي أن أولئك النسوة كان لهن، في وسط ما من الأوساط، تأثيراً على "لولا"، وحتى سلطة كبيرة لا جدال فيها، لم يكن خليقاً بي أبداً أن أعرف أكثر من ذلك.

أخبرتني لولا بأنها ستذهب إلى المدينة. ولكنها عرضت علي البقاء في البيت بانتظارها. وأن أتناول بعض الطعام إن كنت جائعاً، ولأنني غادرت اللوف كالفين دون تسديد الحساب، ودون نية بالعودة إليه أيضاً، بسبب ذلك،

Twitter: @ketab_n

فقد سررت جداً بالإذن الذي منحته لي. بقضاء لحظات من الدفء قبل الذهاب لمواجهة الشارع، وأي شارع يا جدودي.

لما أن بقيت وحيداً توجهت عبر رواق صغير نحو المكان الذي كان قد ظهر منه خادمها الزنجي. وفي منتصف الطريق إلى غرفة الخدمة التقيت به، فصافحته، وقادني، واثقاً بي إلى مطبخه. مكان جميل مرتب بعناية، أكثر انسجاماً بكثير، وأكثر أناقة من الصالون.

وفي الحال بدأ الزنجي يبصق أمامي فوق البلاط، مثلما يجيد الزنوج وحدهم أن يبصقوا بوفرة واتقان، وبصقت أنا أيضاً من قبيل المجاملة، ولكن على قدر ما استطعت، وفجأة دخلنا في مسارات حميمة. أعلمني أن "لولا" تملك قارب نزهة على النهر وسيارتين على الطريق، وقبواً في داخله مشروبات من كل أنحاء العالم وهكذا، بدأ يكرر لي دون توقف تلك المعلومات الموجزة. فكففت عن الإنصات إليه.

وفيما أنا ناعس مهوم في أرجاء بيتها عادت الأيام المنصرمة إلى ذاكرتي، حين تركتني لولا في باريس خلال الحرب، وتلك المطاردة، التعقب، الترصد، للمهذارة، الكاذبة، المراوغة ميزين، والأرجنتينيون، وقواربهم المكتظة باللحوم، وتوبو، وموكب فاقدي العقول في ساحة كليشي، وروبنسون، والأمواج، والحر، والبؤس، ومطبخ لولا المرتب جيداً، وزنجيها، واللاشيء على الإطلاق، وأنا داخل هذا كله.. مثل أي إنسان آخر، كل شيء كان يمكن أن يستمر.. كانت الحرب قد أحرقت البعض وأدفأت آخرين، مثل النار، عذاب أو رفاه، حسبما يكون المرء داخلها أو أمامها، ينبغي أن يتدبر المرء أمره وهذا كل شيء.

Twitter: @ketab_n

كان صحيحاً ما قالته "لولا" بأنني كنت قد تبدلت كثيراً.. إنه الوجود! إنه يلويك، يهشم وجهك، وجهها أيضاً كان قد هشمه، ولكن أقل، أقل بكثير. الفقراء، مسيخون، البؤس عملاق جبار يمسح أقذار العالم بوجهك مثلما بخرق الغسيل، ثم لا تمحّي آثاره أبداً.

كنت أعتقد بأنني لاحظت مع ذلك لدى لولا شيئاً ما جديداً، برهات من الانحطاط، والكآبة، ثلمات في حماقتها المتفائلة، تلك البرهات التي يجدر بالكائن فيها أن يستدرك أخطاءه ليوجه بعيداً خبرات حياته وسنواته التي تضغط بثقلها، على الرغم منه،على بشاشته وحيوية روحه التي ما يزال يملكها، وعلى شاعريته القذرة.

عاد زنجيها فجأة إلى التململ والحركة، كان ذلك يعاوده، صديق جديد كان ينوي أن يزقمني الغاتو، وأن يقدم لي لفافات السيكار، ومن أحد الأدراج أخرج، بحذر شديد، كتلة مدورة ورصاصية.

«القنبلة» أعلن لي بقوة، فتقهقرت، "ليبيرتا، ليبيرتا"، كان يزعق جذلاً.

أعاد كل شيء إلى مكانه وبصق من جديد بروعة وشموخ، أي انفعال، كان فرحاً متهللاً.. ضحكته أسرتني أيضاً، ذلك الإسهال من الأحاسيس، ومن الحركات. حينما عادت لولا من تسوقها، وجدتنا معاً في الصالون. غارقين في التدخين والضحك، فتظاهرت بأنها لم تلاحظ شيئاً.

غادرنا الزنجي: بخفة.. وقادتني لولا إلى غرفتها. وجدتها حزينة شاحبة، ومرتعشة، ترى من أين أمكنها أن تعود؟ بدأت لولا ببناء نفسها متأخرة جداً. كانت تلك هي الساعة التي يتخبط فيها الأمريكيون في الحيرة والقنوط لأن الحياة لم تعد تتحرك حولهم إلا ببطء. ها قد أزفت اللحظة المناسبة لأنصاف الأحاديث الخاصة الحميمة.. ولكن ينبغي الإسراع من

Twitter: @ketab_n

الانتفاع بها، لقد هيأتني لتلك اللحظة وهي تسألني، ولكن اللهجة التي اختارتها لتطرح علي بها بضعة أسئلة حول الحياة التي عشتها في أوروبا أزعجتني إلى أبعد الحدود.

لم تخف إطلاقاً أنها كانت تجدني خليقاً بكل الدناءات، لم يغظني هذا الافتراض، ولكنه كدرني حسب، كانت تستشعر في قرارة نفسها بأنني جئت إليها، لأطلب منها نقوداً، وهذا وحده كاف ليخلق بيننا نفوراً غريزياً. كل تلك المشاعر تلامس القتل. بقينا وسط مستنقع من التفاهات فيما كنت أفعل المستحيل حتى لا نتبادل فيما بيننا شتائم مقذعة. تحرّت من بين تفاصيل أخرى عن مجوني الجنسي، وفيما إذا لم أكن قد تركت في مكان ما خلال تطوافي في بقاع الأرض ولداً صغيراً، يمكنها هي أن تتبناه. فكرة غريبة تلك التي خطرت لها، كانت مهووسة بفكرة تبني ولد من الأولاد، وكانت تعتقد بكل بساطة أن شخصاً محبطاً من نمطي لابد وأن يكون له ذرية غير شرعية تحت كل سماء.. كانت غنية، كما أفضت إلي. وهي تذوي يوماً بعد يوم، ويجف عودها، لعدم قدرتها على أن تكرس نفسها لولد صغير. كانت قد قرأت كل الكتب التي تتحدث عن فن رعاية الأطفال، وعلى الأخص تلك الكتب التي تتغنى بالأمومة، تلك الكتب التي تحرر المرأة إذا ما تمثلتها كلياً من شهوة الجماع، وإلى الأبد. لكل فضيلة أدبها القذر.

ما دامت ترغب، بأن تضحي بنفسها، بوجه الحصر من أجل «كائن صغير» فقد حاق بي إذن سوء الطالع، إذ ليس لدي ما أقدمه له سوى الكائن الكبير الذي كنته، والذي كانت تجده مقززاً قطعاً، لم يكن لدي في المحصلة كي أحقق حظوة لديها سوى البؤس الذي عرضته أمامها، كانت محادثتنا قد ذوت تماماً «هيا يا فرديناند، اقترحت علي أخيراً، كفانا ثرثرة، سأصطحبك

Twitter: @ketab_n

إلى الجهة الأخرى من نيويورك كي نزور محميي الصغير، إنني منشغلة به، بسرور بالغ، ولكن والدته تزعجني..»

كانت ساعة مسلية، تحدثنا في الطريق، داخل السيارة عن زنجيها الكارثي.

«هل أراك قنابله؟» سألتني، واعترفت لها بأنني خضعت لتلك التجربة.

«ليس خطراً، أنت تعلم، يا فرديناند، هذا المهووس، إنه يحشو قنابله بفوانيري القديمة. حينما كان سابقاً في شيكاغو، كان عاطلاً طيلة الوقت، وقد شارك في جماعة سرية خطيرة لتحرير السود. كان أعضاء الجماعة، مثلما قيل لي. أشخاصاً أشراراً. وقد حلّت السلطات تلك العصابة. ولكن زنجيي احتفظ بهذا الميل إلى القنابل. لم يضع في داخلها باروداً في يوم من الأيام.. روح التمرد كانت تكفيه.. ليس هو في الواقع سوى فنان.. ولن يكف قط عن صنع الثورة.. ولكنني أحتفظ به لأنه خادم ممتاز، وإذا ما اعتبرنا كل شيء، فلعله أكثر استقامة من الآخرين الذين لا يصنعون الثورة».

ثم عادت إلى وسواسها بالتبني.

«من سوء الحظ مع ذلك أن لا يكون لك ابنة في مكان ما، يا فرديناند. طبيعة كطبيعتك تلائم امرأة كل الملاءمة. ولكنها لا تلائم أي رجل على الإطلاق.

كان الليل ينغلق حول سيارتنا فيما كان المطر يسوطها وهي تنزلق فوق الطريق الإسمنتي الناعم الطويل. كل شيء كان معادياً لي وبارداً. وحتى يدها التي كنت أمسك بها، مع ذلك، مغلقة بقوة داخل يدي. كنا منفصلين تماماً، وصلنا أمام منزل يختلف مظهره تماماً عن البيت الذي غادرناه. في إحدى شقق الطابق كان ثمة ولد صغير، في العاشرة من عمره تقريباً، إلى جانب

Twitter: @ketab_n

أمه ينتظراننا. تصاعدت إلى أنوفنا من الداخل رائحة طهو. جلس الولد فوق ركبتي لولا وعانقها برقة. بدت لي الأم بالغة اللطف أيضاً مع لولا، وفيما كانت لولا تستفسر من الصبي تدبرت الأمر كي أنتقل مع الأم إلى الغرفة المجاورة.

حينما عدنا وجدنا الطفل يجرب أمام لولا خطوة من خطوات الرقص كان قد تعلمها في دروس الكونسرفاتوار «ينبغي أيضاً إعطاؤه بضع ساعات من الدروس الخاصة. هكذا ارتأت لولا، ويمكنني ربما تقديمه إلى صديقتي "فيتا" في مسرح الغولد، لعل هذا الطفل يكون له مستقبل باهر، بالغت الأم بعد هذه الكلمات الطيبة المشجعة، في شكرها وتباكيها وتلقت في الوقت ذاته رزمة صغيرة من الدولارات الخضراء دستها في صدارها، مثل كلمة غزل.

«هذا الصغير يعجبني كثيراً، أكدت لولا بعد أن صرنا خارجاً، ولكن لابد لي من تحمل الأم في الوقت ذاته مع الابن، لا أحب الأمهات الخبيثات.. ثم إن هذا الصغير فاسق جداً مع ذلك..إنه ليس من النوع الذي يتعلق به المرء، والذي كنت أرغب به. أريد أن أشعر بشعور أمومي خالص، هل تفهمني يا فرديناند؟». من أجل أن آكل، كنت أفهم كل ما تريده. لم يعد ذلك من الذكاء، إنما من الكاوتشوك.

لم تقلع عن رغبتها في الطهر والعفاف، حينما بلغنا بضعة شوارع بعيدة سألتني أين كنت سأنام هذا المساء، ثم سارت معي بضع خطوات على الرصيف، أجبتها بأنني إن لم أجد بضعة دولارات في تلك اللحظة فلن أنام في أي مكان.

«حسناً، أجابتني، هلم معي إلى البيت، وسأعطيك هناك قليلاً من المال، وبعد ذلك ستذهب حيث تشاء.

Twitter: @ketab_n

كانت متلهفة إلى أن ترميني في الشارع بأسرع وقت ممكن. كان ذلك أمراً مألوفاً، فلفرط ما كنت مدفوعاً على هذا النحو إلى جوف الليل كان لابد لي مع ذلك من أن أنتهي إلى مكان ما، كنت أقول لنفسي معزياً. «تشجع يا فرديناند، كنت أكرر بيني وبين نفسي، كي أتمالك قواي. لفرط ما طُردت من كل مكان، سينتهي بك الأمر بالتأكيد إلى أن تجد وسيلة تملأ قلوبهم بالخوف، جميعاً، جميع هؤلاء الأوغاد، الخليقين بأن يكونوا هم في أقاصي الليل».

بعد أن بردت حرارة الحديث فيما بيننا كلياً، ونحن داخل سياراتها باتت الشوارع التي كنا نعبرها مهددة متوعدة بكل صمتها وسكونها، مسلحة حتى أعاليها بصخر لا نهائي، بنوع من طوفان موشك على ابتلاع كل شيء، مدينة مترصدة، مباغتة، دبقة بالقار والمطـــر.. أبطأنا أخيراً من حركتنا، سبقتني لولا نحو بابها.

«اصعد، دعتني لولا، اتبعني»..

صالونها من جديد، سألت نفسي كم كانت ستعطيني كي أنتهي من كل ذلك، وأستريح، بحثت عن أوراق مالية داخل حقيبة صغيرة ملقاة فوق أحد المقاعد. كنت أسمع حفيف الأوراق المدعوكة، يا لها من ثوان! لم يعد في المدينة سوى تلك الضجة الخفيفة. كنت مع ذلك ما أزال متضايقاً لأنني طلبت منها، لا أعلم لماذا. ثم أتت باختصار شديد، في الوقت المناسب، على أخبار أمها التي كنت قد نسيتها.

«إنها مريضة، أمي، قالت ذلك، وهي تلتفت كي تنظر إلي وجهاً لوجه.

ـــ أين هي الآن إذن؟

ـــ في شيكاغو.

Twitter: @ketab_n

ـ مم تشكو؟

ـ من سرطان في الكبد.. لقد عالجتها عند أفضل الاختصاصيين في المدينة.. كلفني علاجها غالياً جداً، ولكنهم سينقذونها. لقد وعدوني بذلك».

قدمت لي على عجل أيضاً تفاصيل أخرى تتعلق بحالة أمها، في شيكاغو.. غدت فجأة رقيقة وأنيسة بحيث لم تعد تستطيع أن تمنع نفسها من أن تطلب مني بعض التعزية القلبية.

«وأنت يا فرديناند، هل تظن أيضاً بأنهم سينقذون أمي أليس كذلك؟

ـ لا، أجبتها بصراحة شديدة، وبوضوح تام. فسرطان الكبد لا أمل في شفائه مطلقاً..

وفجأة، شحبت لولا حتى بياض عينيها، تلك هي المرة الأولى التي أراها مضطربة بسبب شيء ما..

«ولكن، مع ذلك، يا فرديناند، لقد أكد لي الاختصاصيون بأنها ستتعافى، تكفلوا بذلك، كتبوا إلي بذلك. إنهم أطباء كبار أنت تعلم؟

ـ من أجل المال، يا لولا، سيكون هناك دوماً، لحسن الحظ، أطباء كبار.. سأقول لك مثلما قالوا لو كنت مكانهم، وأنت أيضاً يا لولا ستقولين مثل ذلك لو..

ما قلته لها بدا لها فجأة يقينياً جداً، بديهياً جداً بحيث لم تعد تجرؤ على الحوار.

لمرة واحدة، للمرة الأولى ربما، في حياتها. كانت تنقصها الشجاعة.

«اسمع، يا فرديناند، أنت تسبب لي ألماً لا حدود له، ألا تدرك ذلك. إنني أحب أمي، أنت تعلم بأنني أحبها كثيراً أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

لقد سقط ذلك في العمق إذن، اللعنة! ما الذي يمكن أن يهم العالم أن تحب أمها أو لا تحبها.

كانت لولا تنتحب في خوائها الرهيب.

«أنت يا فرديناند، شخص محبط فظيع، تابعت كلامها حانقة، لست سوى شرير بغيض، أنت تنتقم بكل ما يمكنك من جبن ونذالة من وضعك القذر، حين تقول لي أشياء كريهة.. أنا متأكدة من أنك تسبب لأمي الكثير من الألم حين تتحدث عنها بهذا النحو.

لم يسبب لي هياجها من الخوف بقدر ما سببه لي هياج ضباط الأميرال براغتون الذين كانوا يزعمون بأنهم سيزهقون أنفاسي من أجل خاطر السيدات المتبطلات.

كنت أنظر إلى لولا بانتباه، فيما هي تنعتني بجميع الألقاب، وشعرت بالفخر وأنا ألاحظ، على نحو مفارق، بأن لا مبالاتي كانت تزداد، لا بل سروري، كلما كانت تشتمني أكثر. بقيت مهذباً في داخلي.

«كي تتخلص مني، كنت أخمن، ينبغي الآن أن تعطيني عشرين دولاراً على الأقل، وربما أكثر..».

أخذت موقف الهجوم: «"لولا"، أعطيني، أرجوك، النقود التي وعدتني بها، وإلا سأنام هنا، وستسمعيني أكرر كل ما أعرفه عن السرطان، وعن مضاعفاته، وعن قابليته للتوارث، إنه مرض وراثي، يا لولا، السرطان، لاتنسي ذلك".

كلما كنت أفصلّ وأزيد في ذكر التفاصيل حول حالة أمها كنت أراها أمامي تمتقع، وتخور قواها، وترتخي أطرافها «آه الصبية، كنت أقول لنفسي،

Twitter: @ketab_n

أمسك الحبل جيداً، يا فرديناند، لمرة واحدة أنت تشد الآن جيداً. لا تفلت الحبل، لن تجد حبلاً قوياً قبل وقت طويل.

«خذ، امسك، قالت، وقد هدها الإعياء، خذ مئة دولار وانصرف عن وجهي، ولا تعد إلى هنا أبداً، أنت تسمعني، أبداً، وو وو وو خنزير قذر!

ــ عانقيني مع ذلك يا لولا، هيا، نحن لسنا غاضبين من بعضنا!»

اقترحت ذلك كي أعرف إلى أي حد كان يمكنني أن أثير اشمئزازها. أخرجت حينئذ مسدساً من أحد الأدراج، وليس عن مزاح. كان الدرج يكفيني، لم استدع المصعد.

منحتني تلك الشتائم الرغبة في العمل، وملأت جوانحي بالشجاعة، ففي اليوم التالي ركبت القطار إلى ديتروا، بعد أن أكدوا لي بأن إمكانية العمل كانت متاحة في أعمال عدة ليست جذابة، ولكن أجرها كان جيداً.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

<< قال لي العابرون بالقرب من المصنع مثلما قال لي الرقيب الإسباني في الغابة

«ذاك هو، لن تضيع أبداً، إنه أمامك تماماً».

ورأيت في الواقع الأبنية الضخمة المنتفخة والمزججة، على شاكلة أقفاص الذباب، ليس لها نهاية، في جوفها، يميز المرء رجالاً يتحركون ولكنهم يتحركون بمشقة بالغة، كما لو أنهم لم يعودوا يصارعون إلا بوهن شديد ضد ما لا أدري من مستحيل. أكانت تلك شركة فورد؟ كان كل ما حول وما فوق، وحتى قبة السماء ضجيج ثقيل متكرر أصم لطوفان من الأعتدة، إصرار عنيد للآلات على الدوران، على السير، على الأنين. على وشك التحطم دوماً، وما تحطمت يوماً.

«إنه هنا إذن، قلت لنفسي، ليس هذا مشجعاً.. » كان ذلك أسوأ من سائر ما تبقى، اقتربت أكثر حتى بلغت الباب، كان مكتوباً فوق لوح اردواز بأنهم كانوا يطلبون العالم كله ليعمل عندهم.

لم أكن الوحيد الذي ينتظر، أخبرني واحد من الذين كانوا ينتظرون بصبر، بأنه يقف هنا منذ يومين، وفي المكان نفسه أيضاً. لقد جاء من يوغسلافيا هذا النعجة كي يجد لنفسه عملاً. بائس آخر وجه إلي الكلام. زاعماً أنه جاء ليعمل بحماس، لا لشيء إلا من أجل متعته، أي مهووس.

ضمن هذا الحشد، ما من شخص تقريباً كان يتكلم الإنكليزية، كانوا يراقبون بعضهم مثل حيوانات لا تثق ببعضها، حيوانات مضروبة دائماً.

Twitter: @ketab_n

يتصاعد من كتلتهم رائحة ما بين الأفخاذ البولية، مثلما في المشفى. وحينما كانوا يكلمونك عليك أن تتحاشى أفواههم بسبب رائحة الموت التي تفوح من أولئك البؤساء.

انهمر المطر بغزارة فوق حشدنا، ومكثت الصفوف متراصة تحت وابل المزاريب. كان هؤلاء الأشخاص الباحثون عن عمل، قابلين للضغط إلى أبعد حد. ما كان يجده حسناً لدى فورد، قال لي ذلك، العجوز الروسي همساً، هو أنهم كانوا يشغلون أي إنسان كان، وفي أي عمل كان. «فقط، احذر، أضاف العجوز كي يحيطني علماً، عليك أن لا تتعاظم في حضرته، لأنك إن تعاظمت فسترمى خارج الباب في أقل من دقيقتين، وسيستعيضون عنك في أقل من دقيقتين، بواحدة من الآلات الميكانيكية التي هي جاهزة دوماً، ولن تحلم بالعودة حينذاك إلى المصنع» كان يتكلم اللهجة الباريسية جيداً، ذلك الروسي، فقد كان يعمل سائقاً لتاكسي طوال سنوات، ثم احتجزوا سيارته في قضية كوكايين في بيزونس، وفي نهاية المطاف لعب القمار عليها، مع زبون في بياريتز، وخسرها.

كان صحيحاً ما شرحه لي العجوز الروسي، فقد كانوا يشغلون أي إنسان لدى فورد، لم يكن كاذباً، كنت أرتاب بكلامه مع ذلك ، لأن البائسين المدقعين يهذون بسهولة، ثمة لحظة للبؤس لا يعود العقل فيها دائماً مع الجسد، يحسّ البائس فيها بالإغماء، وعندئذ فإن روحاً هي التي تكلمك تقريباً، والروح ليست مسؤولة.

عراة تماماً أدخلونا في البداية، ثم حدثت المعاينة، داخل نوع من المخبر، كنا نسير في رتل بطيء الخطو «أنت منهك للغاية، علق الممرض وهو يتفرس بي، في البداية، ومع ذلك، فهذا ليس مهماً بالمرة».

Twitter: @ketab_n

وأنا الذي كنت خائفاً أن يرفضوا تشغيلي بسبب الحمى الأفريقية لم أشعر إلا بمحض الصدفة، أنهم جسوا كبدي، كانوا على العكس يبدون سعيدين جداً بأن يجدوا مرضى وعاجزين في بضاعتنا الآدمية المعروضة.

«بالنسبة لما ستفعله هنا، ليس مهماً أن تكون خائر القوى! طمأنني الطبيب الفاحص، على الفور.

ـ حسناً جداً يا سيدي، أجبته، ولكن أنت تعلم يا سيدي! لدي بعض المعارف، وقد قمت فيما مضى بدراسات في الطب.

وفجأة حدجني الطبيب بنظرة عكرة، وشعرت بأني قد زللت مرة أخرى، وجلبت على نفسي الويل.

«لن تنفعك دراساتك هنا في أي شيء يا فتاي. أنت لم تأت إلى هنا لتفكر، بل لتقوم بحركات، نحن نطلب منك تنفيذها. لسنا في حاجة إلى الخيال في مصنعنا. نحن بحاجة إلى شامبانزيات. نصيحة لك أيضاً، إياك أن تعود إلى الحديث هنا عن ذكائك في أي يوم من الأيام. نحن نفكر من أجلك ياصديقي، إياك أن تنسى ذلك"!

كان الطبيب محقاً في تحذيري، من الأفضل أن أكون على بينة من عادات المصنع. حماقات، كان لدي منها ما يكفي لأنتفع به طوال عشر سنوات، على الأقل صرت حريصاً من الآن، على أن أنزوي، بعيداً عن القلق والمجازفة.. ما إن ألبسنا ثياباً جديدة حتى تم توزيعنا في أرتال بطيئة الخطى، على هيئة مجموعات أثقلها التردد والحيرة، نحو مواقع كانت تصدر منها قرقعة ميكانيكية هائلة، كل شيء كان يرتج داخل البناء المترامي الأرجاء، ونحن أنفسنا، من أقدامنا وحتى آذاننا كنا مرتعاً للارتجاج، كان ينبعث من زجاج النوافذ، ومن أرضية البناء، ومن الحديد ارتجاجات مزلزلة، من الأعلى

Twitter: @ketab_n

إلى الأسفل. كنا نغدو، نحن أنفسنا آلات أيضاً، لفرط ما كان لحمنا كله يهتز وسط جلبة ذلك السعار العنيف الذي كان يستولي على داخلك، ثم على كل رأسك ثم ينحدر إلى أخمصيك، مهيجاً أحشاءك ثم يصعد من جديد إلى عينيك بضربات متسارعة. ليس لها نهاية ودونما كلل، كنا كلما تقدمنا إلى الأمام. نفقد بعضاً من رفاقنا. كنا نرسم ابتسامة صغيرة لهؤلاء الذين نتركهم خلفنا، كما لو أن كل ما كان يجري لا يعدو أن يكون في غاية اللطف، لم يعد بوسعنا لا أن نتبادل الكلام، ولا أن نسمع بعضنا بعضاً. وفي كل مرة كان يبقى من الرفاق ثلاثة أو أربعة حول آلة من الآلات.

يقاوم المرء على الرغم من ذلك، يجد مشقة في التقزز من جوهره. يرغب في أن يوقف كل ذلك، كي يفكر في هذا الجوهر، ويسمع قلبه ينبض، في داخله، بيسر، ولكن ذلك لا يعود ممكناً له أن ينتهي، كانت مفجعة تلك العلبة الحديدية الهائلة الأبعاد، ونحن ندور في داخلها ومع المكنات ومع الأرض. كلنا معاً.. والألف بكرة، ومدقات الهاون التي لا تسقط أبداً في وقت واحد، والتي كانت تصدر جلبات ينسحق بعضها على بعض، وهي من العنف بحيث تشيع حولها نوعاً من الصمت ينفعك قليلاً.

كانت العربة الصغيرة المتعرجة المسار، المحملة بخردة الحديد تتعثر خلال مرورها بين الآلات، نصطف نحن، نقفز، حتى تتمكن تلك الصغيرة الهستيرية من أن تنطلق أيضاً بقوة أكبر، ثم هوب، وتختلج بعيداً تلك المقعقعة المجنونة بين السيور والدواليب، حاملة إلى الرجال حصصهم من الإرهاق.

للعمال المنحنون على الآلات المنشغلون بإسعادها. ما أمكنهم ذلك، يثيرون تقززك، وهم يدخلون محازق في القالب، ومحازق أيضاً، بدلاً من أن ينتهوا إلى الأبد من رائحة الزيت تلك، من ذلك البخار الذي يحرق طبلات الآذان، يدخل

Twitter: @ketab_n

الآذان عن طريق الحلق. لم يكن الخجل للأسف هو الذي يحني رؤوسهم. استسلمنا للضجيج مثلما كنا قد استسلمنا للحرب. استسلمنا للآلات بالأفكار الثلاث التي بقيت تتذبذب في الأعلى، داخل رؤوسنا خلف جباهنا، وهذا يكفي. كل ما كنا نشاهده، وكل ما تلمسه أيدينا كان صلباً الآن، وكل ما يمكننا أن نتذكره أيضاً كان صلباً كذلك مثل الحديد، ولم يعد له طعم داخل أفكارنا.

غدونا بقذارة هرمين دفعة واحدة.

كان ينبغي إلغاء الحياة الخارجية، أن نجعل منها شيئاً حديدياً، أداة ما، لم نكن نحب تلك الحياة بما يكفي، مثلما كانت عليه، ولهذا كان علينا أن نجعل منها شيئاً إذن، شيئاً من الأشياء الصلبة، تلكم هي القاعدة.

حاولت أن أكلم رئيس العمال في أذنه، كان يدمدم مثل خنزير، وهو يجيبني، ومن خلال الحركات فقط أراني بصبر بالغ العمل البسيط جداً الذي كان علي إنجازه، منذ الآن وباستمرار. دقائقي، ساعاتي ما تبقى لي من الزمن، مثلي مثل أولئك الذين كانوا هنا، ستنقضي في إدخال أوتاد معدنية صغيرة، على نحو أعمى في فتحات جانبية من أجل معايرتها. كان هو، منذ سنوات يعمل مع الأوتاد، مع الأوتاد ذاتها، باشرت بالعمل تواً على نحو سيئ جداً. لم يوجه إلي اللوم قط، ولكن بعد ثلاثة أيام تم نقلي بعد إخفاقي، إلى العمل في جر عربة صغيرة، مملوءة بالرنديلات، أنتقل فيها من آلة إلى أخرى. كنت أترك هنا ثلاث رنديلات، وهناك اثنتي عشرة، وهنالك خمس فقط، ما من شخص كان يكلمني، لم نعد موجودين إلا عبر نوع من التردد بين التبلد والهذيان، لم يعد ثمة ما يهم سوى الجلجلة المتواصلة لألف وألف آلة، كانت هي التي تقود الرجال.

Twitter: @ketab_n

في الساعة السادسة حين يتوقف كل شيء، تحمل الضجة معك داخل رأسك، كانت تبيت الليل بطوله معي، ورائحة الزيت أيضاً، كما لو ركبّوا لي أنفاً جديداً ودماغاً جديداً إلى الأبد.

لفرط ما زهدت بالحياة إذن غدوت شخصاً آخر، فرديناند جديداً، غير أن الرغبة في رؤية الناس خارج المصنع عاودتني بعد بضعة أسابيع. ليس هؤلاء العاملين في الورشة بالطبع، لم يكن رفاقي هؤلاء سوى أصداء وروائح للآلات مثلي، لحوم مرتعشة بلا نهاية.. جسد حقيقي، هو ما كنت أرغب في ملامسته، جسد وردي مفعم بحياة حقيقية صامتة وطرية.

لم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة، وخاصة من النساء. ثم ما لبثت أن حصلت بكثير من العناء على عنوان مبهم لـــ«منزل». سري بعيد عن الأنظار، في الحي الشمالي من المدينة. كنت أمضي لأتنزه في تلك الناحية خلال بعض الأمسيات، مستطلعاً بعد انتهاء عملي في المصنع، كان ذلك الشارع يشبه أي شارع آخر، ولكنه كان أفضل تنظيماً من الشارع الذي أسكن فيه.

استدللت على المنزل الصغير الذي كان موئلاً للمتعة. محاطاً بالحدائق، كان يتعين على من يدلف إلى داخله أن يسرع الخطى حتى لا يتمكن الشرطي الذي كان يحرس على مقربة من بابه أن يلحظ شيئاً. كان ذلك هو أول مكان في أمريكا أستقبل فيه دونما فظاظة، وحتى باحتفاء وبشاشة، لقاء دولارات خمسة، حسناوات في ريعان الشباب، فاتنات مفعمات بالصحة والقوة الرشيقة، لسن أقل جمالاً، في النهاية عن حسناوات فندق لوف كالفين.

ثم إن هؤلاء على الأقل، كان يمكنك أن تلمسهن دون تهيب. لم يعد بمقدوري أن أمتنع عن ارتياد هذا المكان. كل ما كنت أكسبه في المصنع صرت أنفقه هنا. ما إن يحل المساء حتى أجد نفسي مرغماً على الذهاب إلى

Twitter: @ketab_n

تلك الوصالات البهيجة بهاتيك البهيات الحفيات، من أجل ترميم روحي. لم تعد السينما تكفي كترياق لتخفيف أوجاعي، لم يعد لها تأثير حقيقي على الفظاعة المادية للمصنع. كان لابد لي كي أصمد أيضاً، من اللجوء إلى المقويات الفعالة البعيدة عن الاعتدال، إلى المنشطات الحيوية، لم يكن يطلب مني في هذا المنزل سوى دريهمات قليلة، تسويات ودية بين أصدقاء، لأنني كنت قد جلبت لهؤلاء السيدات من فرنسا أشياء وأشياء، مساء السبت فقط، يبلغ الشغل ذروة النشاط. كنت أترك المكان كلياً لفرق لاعبات البيسبول القادمات إلى المنزل للهو والشراب، بأجسادهن القوية الرائعة المفعمة بالحيوية، تغمرهن السعادة كما لو كن يتنفسنها.

فيما تكون فرق اللاعبات لاهية مستمتعة، كانت قريحتي تستيقظ. كنت ألوذ في المطبخ، لأكتب قصصاً صغيرة لي وحدي، حماس تلك الرياضيات تجاه المخلوقات التي تعيش في المنزل لم يكن ليبلغ بالتأكيد مستوى حماستي العاجزة نوعاً ما. كانت تلك اللاعبات المطمئنات إلى قوتهن سئمات من كمالهن الجسدي. فالجمال مثله مثل الكحول، أو مثل الرفاه، يعتاده المرء، ولا يعود يوليه اهتماماً.

كن يأتين إلى المنزل من أجل التسلية والضحك، ويشتبكن غالباً في عراك صاخب لا نهاية له. كان البوليس يقتحم المكان حينئذ كالإعصار ويأخذ الجميع في شاحنات صغيرة.

أحسست بعد وقت قصير تجاه فتاة من فتيات المنزل اسمها موللي، بشعور استثنائي من الثقة التي تأخذ لدى الكائنات المذعورة مكان الحب، أتذكر الآن كما لو كان ذلك بالأمس، رقتها المتناهية وساقيها الطويلين الشقراويين، والنحيلين، بنحو رائع، والمفتولين. ساقان نبيلتان، عنوان

Twitter: @ketab_n

أرستقراطيتها الإنسانية الحقيقية. عبثاً أقول. كان ساقاها هما اللذان يضفيان عليها تلك المسحة الأرستقراطية، ولست مخطئاً.

غدونا حميمين بالجسد والروح، كنا نذهب معاً للنزهة في المدينة بضع ساعات كل أسبوع، كانت تلك الصديقة تملك ثروة وفيرة، كانت تكسب مئات الدولارات في اليوم في ذلك المنزل. في حين أنني كنت لدى فورد لا أكاد أكسب ستة دولارات، لم يكن وصالها الجنسي مع الرجال يتعبها كثيراً، لأن الرجال الأمريكيين يمارسون ذلك كالعصافير.

عند المساء بعد أن أكون قد جررت عربتي الصغيرة الجوالة طوال النهار، أجدني مضطراً، مع ذلك، إلى أن أبدو بوجه متهلل، حينما ألتقي بها بعد العشاء. ينبغي أن يكون المرء مرحاً مع النساء، في البداية، على الأقل، كان لدي رغبة مبهمة في أن أقترح عليها أشياء وأشياء، ولكنني لم أكن أقوى على ذلك قط. كانت موللي تتفهم آفة الخرف الصناعي، فقد اعتادت على معاشرة العمال.

ذات مساء، ونحن على هذا المنوال، قدمت لي موللي، ومن غير مناسبة خمسين دولاراً. نظرت إليها في البداية. دون أن أجرؤ على أخذها. كنت أفكر فيما ستقوله أمي في مثل هذه الحالة، ومن ثم فكرت بأن أمي، المسكينة، لم تقدم لي مثل هذا المبلغ، ولكي أسعد موللي، اشتريت على الفور بدولاراتها بدلة جميلة لي فاتحة اللون، كانت دارجة في ربيع ذلك العام. لم يروني قط أصل إلى المنزل بمثل تلك الأناقة. وشغّلت مديرة المنزل فونوغرافها الضخم، لا لشيء إلا لتعلمني الرقص.

ذهبت، بعد ذلك، إلى السينما مع موللي، مرتدياً بدلتي الجديدة. سألتني في الطريق إن كنت غيوراً، كانت بدلتي تمنحني مظهراً حزيناً، ورغبة بعدم

Twitter: @ketab_n

العودة إلى المصنع، بدلة جديدة، كان هذا يبلبل أفكارك، كانت موللي تقبل بدلتي قبلات صغيرة مشبوبة، حينما نكون بعيدين عن أنظار الناس، وكنت أحاول أن أفكر بشيء آخر.

تلك الموللي، أي امرأة كانت! في النهاية، أية سخية! أي لون كان لون بشرتها! أي امتلاء بالفتوة الغضة، مأدبة للرغبات المشبوبة، وعاودني القلق من جديد، هل صرت قواداً؟ كنت أفكر بيني وبين نفسي.

«لا تذهب إذن إلى فورد! شجعتني موللي فوق ذلك. ابحث بالأحرى، عن وظيفة صغيرة في مكتب من المكاتب.. كمترجم على سبيل المثال. ذلك هو نمطك.. الكتب.. ذلك هو ما يعجبك..»

كانت تنصحني هكذا، بلطف بالغ، تحدوها الرغبة في أن أكون سعيداً. لأول مرة يهتم بي كائن إنساني، من أعماقه، إن تجرأت على قول ذلك، يهتم بأناي.. كان يضع نفسه في مكاني، ولا يحاكمني فقط من مكانه هو، مثل الآخرين.

آه، لو كنت التقيت بموللي في وقت أبكر، حينما كان ما يزال ثمة وقت لاختيار طريق دون آخر. قبل أن أفقد حماستي عند تلك الطائشة ميزين، وعند تلك البعرة الصغيرة لولا. ولكن الأوان قد فات كي أرمم شبابي، لم أعد أؤمن بذلك. لقد غدوت هرماً بسرعة، وعلى نحو لا برء منه. لاحظت ذلك بطريقة طفقت معها أحب تعاستي، على الرغم مني، إنها الطبيعة، تفوقك قوة وجبروتاً، وهذا كل ما في الأمر، إنها تختبرنا داخل نمط من الأنماط، ثم لايعود بوسعنا الخروج من هذا النمط، أما أنا فقد مضيت باتجاه قلق الروح. يحمل المرء رويداً رويداً، دوره وقدره على محمل الجد، دون أن يدرك ذلك

Twitter: @ketab_n

بوضوح، وحينما يلتفت إلى الوراء يكون الأوان قد فات على تغييرهما، فيغدو نهباً للقلق، ويظل هكذا بالتأكيد حتى نهاية أيامه.

كانت موللي تحاول أن تحتفظ بي بالقرب منها، وأن تثنيني عن العودة إلى أوروبا.. «لن تكون حياتك هنا أقل راحة وطمأنينة مما في أوروبا، أنت تعلم يا فرديناند، لن نكون تعيسين معاً» كان رأيها مصيباً «سنجمع توفيراتنا.. وسنشتري محلاً تجارياً.. وسنعيش مثل غيرنا من الناس» كانت تقول ذلك كي تهدئ من روعي.. خطط ومشروعات.. كنت أصوّب رأيها. ولكنني كنت أشعر بالخجل كذلك من مقدار العناء الذي كانت تتحمله في سبيل الاحتفاظ بي، كنت أحبها بقوة من دون ريب، ولكنني كنت ما أزال أحب عيبي أكثر، ذلك النزوع لأن أفر من كل مكان، لأبحث عما لا أدري كنهه، بكبرياء أرعن من دون شك، وبيقين بنوع من التفوق.

كنت أحرص على أن أتجنب تكديرها، كانت تتفهم ما يقلقني وتتجاوزه، ولفرط ما كانت مسايرة لي اعترفت لها، بالهوس الذي كان يستبد بي، بالفرار من كل مكان. أصغت إلي طوال أيام وأيام وأنا أتفاخر وأتحدث عن ذاتي، على نحو يبعث على التقزز، متخبطاً في الأوهام والغطرسات، ولم تكن هي برمة نافذة الصبر، بل على العكس من ذلك كانت تحاول فقط مساعدتي على التخلص من هذا القلق العبثي والأبله، لم تكن تفهم جيداً إلى أين كنت أريد أن أمضي بهذياناتي، ولكنها كانت توافقني الرأي سواء أكان ضد الأوهام، أو مع الأوهام، تبعاً لاختياري. ولفرط ما كانت تتمتع به من رقة وعذوبة غدت طيبتها، بالنسبة إلي مألوفة وشخصية تقريباً، ولكن كان يتبين لي أكثر فأكثر أنني قد بدأت المراوغة مع قدري الفريد، مع مبرر وجودي، مثلما كنت أدعوه، وانقطعت مذاك بنحو مفاجئ عن الإفضاء إليها بكل ما كنت أفكر به،

Twitter: @ketab_n

كنت أعود وحيداً إلى ذاتي، مسروراً لكوني ما أزال أشد تعاسة مما كنت قبلاً. ذلك لأنني كنت قد حصلت داخل أسوار عزلتي على طريقة في الغم وعلى شيء ما كان يشبه شعوراً حقيقياً.

كل ذلك تافه ومتبدل، كانت موللي تتمتع بصبر القديسيين، كانت تؤمن إيماناً صلباً كالحديد بالأقدار، أختها الصغرى، مثلاً، في جامعة أريزونا، كانت مصابة بهوس تصوير الطيور في أعشاشها، والجوارح في أوكارها، ولكي تتمكن إذن من الاستمرار في متابعة دروسها الغريبة في تلك التقنية الخاصة، كانت موللي تبعث بانتظام، لأختها المصورة الفوتوغرافية خمسين دولاراً في الشهر.

قلب لا نهائي حقاً، مفعم بسمو حقيقي، يمكن أن يتحول إلى مال، دون أي تصنع، على منوالي ومنوال كثيرين آخرين، وفيما يخصني كانت موللي تتقبل مسرورة بأن تتحمل مالياً أعباء مغامرتي الموحلة، وعلى الرغم من أنني بدوت لها شخصاً مذهولاً عن نفسه أحياناً، فقد كان كل ما أومن به يبدو لها واقعياً، وجديراً حقاً بأن لا يحبط أو يثبط، كانت تطلب مني فقط بان أعد لها نوعاً من ميزانية بخصوص نفقة مالية تريد أن تخصصها لي. لم يكن بمقدوري الموافقة على تلك الهبة، كان الأثر الأخير الباقي لدي من اللياقة يمنعني من أن آمل منها المزيد، وان أعتمد على تلك الطبيعة الروحانية إلى أبعد حد، والرقيقة بنحو يعز على الوصف. على هذا النحو بدأت عن عمد أضع العقبات في وجه العناية الإلهية.

بذلت في تلك اللحظات، وأنا شاعر بالخجل، بعض الجهود للعودة إلى فورد، بطولة صغيرة دون نتيجة مع ذلك، وصلت تماماً أمام باب المصنع، ولكنني لبثت جامداً في ذلك المكان الاستهلالي. فالآفاق التي كانت تنتظرني من تلك المكنات وهي تدور، دمرت في داخلي نهائياً تلك الإرادة الواهية للعمل.

Twitter: @ketab_n

كنت واقفاً أمام الواجهة الزجاجية للمرجل المركزي، ذلك العملاق المتعدد الأشكال الذي يهدر، ممتصاً ونافثاً، لا أدري إلى أين، ولا أدري ماذا، عبر ألف من الأنابيب اللامعة، المتشابكة والداعرة على غرار النباتات المعرشة. كنت كامناً على هذا النحو ذات صباح أتأمل ببلادة، وإذا بالعجوز الروسي يمر بي «هيا!.. قال لي، لقد تبخترت أيها المغنج.. منذ ثلاثة أسابيع وأنت غائب عن المصنع، استعاضوا عنك بآلة ميكانيكية، كنت قد حذرتك مع ذلك..».

«هكذا إذن قلت لنفسي، هذا كاف على كل حال، لم يعد ثمة مجال لتغيير دفة الأمور..» ومضيت نحو المدينة، وفيما أنا عائد مررت ثانية بالقنصلية لأسألهم ما إذا كانوا يعرفون أية أخبار عن فرنسي يدعى روبنسون.

«بالتأكيد، أجابني الموظفون في القنصلية لقد جاء إلى هنا مرتين، كان لديه أوراق مزورة أيضاً، البوليس يبحث عنه، هل تعرف عنه شيئاً..» ولم ألح في طلبي.

منذئذ بت أترقب اللقاء بروبنسون في كل لحظة، كنت أحس بأنني سألتقيه لا محالة، استمرت موللي في رفقها وحنوها علي. بل إنها أصبحت أكثر رقة أيضاً مما كانت عليه قبلاً. منذ أن غدت مقتنعة بأنني عزمت على الرحيل بنحو قاطع. كنت أجوب برفقتها الأنحاء المحيطة بالمدينة خلال ساعات بعد الظهر.

قطع صغيرة جرداء من الأرض، أجمات من البتولا، تحيط ببحيرات صغيرة، أشخاص يقرؤون هنا وهناك، متاجر مكفهرة تحت سماء ملبدة بالغيوم الرصاصية، كنا نتحاشى أنا وموللي المناجيات المؤثرة ومن ثم فقد كفت موللي عن الكلام، كان لديها الكثير من الأشياء لتقولها عن حزنها.. ما

Twitter: @ketab_n

كان يدور في داخلها كان يكفيها، داخل قلبها. كنا نتعانق ولكنني لم أكن أقبلها كما كان ينبغي من ركبتيها، في الحقيقة. كنت أفكر دائماً بشيء آخر في الوقت ذاته، أن لا أفقد الزمن والحنان. كما لو كنت أريد أن أحتفظ بهما كليهما من أجل شيء ما رائع، وسامٍ، لزمن قادم، ولكن ليس من أجل موللي، كما لو أن الحياة كانت، ستخفي عني ما كنت أريد أن أعرفه عنها، عن الحياة في قلب الظلمة، حينما سأفقد حماستي في تقبيل موللي، وحينئذ سأفقد كل شيء في نهاية المطاف بسبب افتقاري إلى القوة، وستخدعني الحياة، مثلما خدعني الآخرون جميعهم، الحياة. تلك المعلمة الحقيقية للرجال الحقيقيين.

كنا نعود نحو الجمهور المحتشد، وأتركها أمام منزلها، فقد كانت تنشغل خلال الليل وحتى الصباح بزبائنها الكثيرين، وخلال فترة انشغالها بالزبائن، كنت أكابد الألم مع ذلك، وكان ذلك الألم يحدثني عنها طويلاً. كنت أشعر أيضاً بأنها كانت معي أفضل مما هي في الواقع. كنت أدخل إلى صالة سينما. كي أمضي الوقت، ولدى خروجي، كنت أركب هذا الترام أو ذاك كي أتنزه في قلب الليل. في الساعة الثانية كان يصعد إلى الترام ركاب يبدو عليهم التهيب والوجل، نوع من البشر قلما كنت أصادفه قبل أو بعد تلك الساعة، شاحبون جداً وناعسون، على هيئة رزم طيعة، متجهين إلى الضواحي.

كنت أذهب معهم بعيداً، أبعد من المصانع، نحو مساكن ضائعة المعالم، وشوارع غير مميزة. وفوق البلاط الدبق بأمطار الفجر الخفيفة كان النهار يبزغ بزرقة شفيفة. كان رفاقي في الترام يتوارون في الوقت الذي تتوارى فيه ظلالهم. كانوا يغلقون أعينهم أمام ضوء النهار، كان من الصعب جعل هذه الكائنات الظلية تنطق بكلمة.. من الصعب للغاية. لم يكونوا يشتكون أيضاً. لا. كان هؤلاء هم الذين ينظفون أثناء الليل مخازن، وأيضاً مخازن

Twitter: @ketab_n

ومكاتب المدينة بطولها وعرضها بعد إغلاقها. كانوا يبدون أقل قلقاً منا نحن، أناس النهار، ربما لأنهم بلغوا أدنى درجة يبلغها البشر والأشياء.

في ليلة من تلك الليالي، كنت قد صعدت إلى ترام آخر حملني حتى محطته الأخيرة. ولما أن نزلت منه باحتراس، خُيل إلي أنني سمعت أحداً يناديني باسمي «فرديناند، هيه فرديناند» كان ذلك أشبه بفضيحة وسط ذلك الغبش، لم أكن أحب ذلك. كانت السماء فوق الأسطح تختفي وتعود على هيئة حزم باردة جداً متحولة إلى مزاريب، من المؤكد أن أحداً كان يناديني.. وحين التفت خلفي عرفته فوراً، كان ذلك روبنسون، وحين ناديته بصوت هامس دنا مني، وخضنا حينئذ في شروح طويلة.

هو أيضاً كان عائداً من تنظيف أحد المكاتب مع الآخرين، ذلك كل ما وجده كوسيلة للعيش.. كان يمشي بكثير من الاتزان، وبشيء من عظمة حقيقية، كما لو أنه كان قد أنجز أموراً خطيرة. ومقدسة تقريباً داخل المدينة، كان ذلك هو السمت الذي يتخذه جميع عمال التنظيف هؤلاء، خلال الليل.. كنت قد لاحظت ذلك من قبل. فوسط التعب والوحشة ينبثق هذا الشعاع السماوي من داخل البشر.. كان ذلك يسطع في عينيه هو أيضاً حينما كان يفتحهما، متسعتين أكثر من المعتاد، زرقاوين وسط ذلك الغبش الذي كان يحيط بنا. كان قد نظف هو أيضاً مساحات لا نهاية لها من المغاسل، ولمّع جبالاً حقيقية من الطوابق بصمت مطبق.

أضاف روبنسون: «لقد عرفتك، في الحال يا فرديناند، من الطريقة التي صعدت فيها إلى الترام، تصوّر، عرفتك فقط من طريقتك في إظهار حزنك حينما تجد أنه ليس ثمة امرأة، أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا هو نوعك من الرجال؟» ما من ريب في أن روحي كانت تكشف عما بداخلها مثل فتحة

Twitter: @ketab_n

سروال. لا شيء إذن كان يدهشني في ملاحظته الدقيقة، ولكن ما فاجأني بالأحرى، أنه هو أيضاً لم يحقق النجاح في أمريكا، لم يكن هذا أبداً ما كنت قد توقعته..

حدثته عن صفقة السفينة الشراعية في سان تابيتا، ولكنه لم يكن يفهم ماذا يعنيه ذلك. «لقد كنت محموماً» أجابني بهذه الكلمات فقط، هو أيضاً كان قد وصل على متن سفينة شحن، وقد حاول أن يشتغل لدى فورد ولكن أوراقه، كانت مزورة، بنحو فاضح جداً، بحيث لم يجرؤ على إبرازها خشية أن يعتقلوه. «كان من الخير لي أن أحتفظ بها في جيبي». علق قائلاً: أما بالنسبة للعمل في فرق التنظيف فلم يكن خطراً على الحالة المدنية، وكان أجره زهيداً كذلك، فهم يشغلونك محل شخص آخر. كان ذلك نوعاً من جحفل أجنبي يجوس في الليل.

«وأنت ماذا فعلت؟» سألني حينئذ.. أما زلت إذن أخرق؟ ألم تمتلك بعد ما يكفي من المهارات والحيل؟ وهل ما تزال إذن ترغب بالأسفار.

ــ أريد أن أعود إلى فرنسا، قلت له: حسبي ما رأيت وعانيت! أنت على حق.

ــ أنت تحسن صنعاً، أجابني روبنسون، بالنسبة إلينا فإن طبختنا قد احترقت: لقد شخنا دون أن نلاحظ ذلك. أنا أعلم ما الذي.. أريد فعلاً أن أعود أنا أيضاً. ولكنها الأوراق دائماً.. سألبث قليلاً كي أحصل على أوراق حقيقية.. لا يمكن القول بأن العمل الذي أقوم به سيئ، هناك ما هو أسوأ منه، ولكنني لم أتعلم الإنكليزية، يظل عامل التنظيف ثلاثين عاماً في العمل ذاته ولا يتعلم، في النهاية سوى Exit (مخرج) لأن هذه الكلمة معلقة على الأبواب التي يلمعها و Lavtory (مغسلة)، أنت تفهم؟

Twitter: @ketab_n

كنت أفهم بالطبع، لو أن موللي قد تخلت عني، في يوم من الأيام لكنت مضطراً إلى الذهاب للعمل أيضاً، في أعمال الليل.

ليس هناك طريق للخلاص من كل ذلك.

حاصل الكلام، أنني حينما كنت في الحرب، قلت بأنني سأكون أفضل حالاً في السلم، ابتلعت هذا الأمل كما لو كان حبة من اللوز والسكر. ثم لاشيء مع ذلك سوى الخراء. لم أكن أجرؤ على قول ذلك في البداية، حتى لايتقزز مني أحد، كنت مهذباً في المحصلة، وبعد ذلك صرّحت به جهاراً أمام الجميع، حسبي تقلباً في مهاوي البؤس، غير أن الجميع وجدوا فجأة بأنني سيئ التربية، وهذا كل شيء.

تواعدت مع روبنسون بعد ذلك، مرتين أو ثلاث مرات، كان متجهماً للغاية. أحد الفرنسيين الفارين، كان يصنّع خموراً مهربة لحثالات مدينة ديترو‌ا كان قد أوكل إلى روبنسون جزءاً من «العمل» كان هذا قد أغراه. «سأسلك أنا أيضاً، بعض الوقت، هذا «المنحدر» من أجل طلعته القذرة. أفضى إلي روبنسون. ولكن أنت تراني، لقد فقدت معدتي. أشعر بأن شجاعتي تخونني مع أول شرطي يوقفني.. بالإضافة إلى ذلك، فإنني أنام طوال الوقت.. بالضرورة. والنوم في النهار ليس نوماً.. دون حساب غبار «المكاتب» الذي تعج به رئتاي. أنت تدرك ذلك؟ كل هذا يزهق روح أي إنسان..»

تواعدنا أنا وروبنسون لليلة أخرى، ثم عدت للقاء موللي، وحدثتها عن كل شيء، بذلت موللي جهداً مضنياً كي تخفي عني الألم الذي سببته لها، لم يكن من الصعب مع ذلك رؤية ما كانت تعانيه، كنت أعانقها الآن دون توقف، ولكن أساها العميق كان حقيقياً وصادقاً أكثر مما لدينا نحن، (القادمين من

Twitter: @ketab_n

أوروبا)، لأننا معتادون، بالأحرى على أن نتكلم عن الحزن أكثر مما نشعر به، على عكس الأميركيين تماماً، إنهم لا يجرؤون على فهم الحزن، على قبوله، ذلك مهين إلى حد ما، ولكن في داخلهم مع ذلك، حزناً حقيقياً، ليس كبرياء، ولا كذلك حسداً، ولا تأثراً، إنه ألم حقيقي في أعماق القلب حسب. ينبغي القول بأن كل ذلك ينقصنا في داخلنا، ولأننا نستمتع بالشعور بالحزن فنحن قاحلون بلا إحساس. علينا أن نخجل من أننا لسنا أغنياء في قلوبنا وفي كل شيء، ومن أننا نحكم على البشر مع ذلك بأنهم أدنى مما هم عليه في الواقع.

من وقت إلى آخر كانت موللي تسمح لنفسها بأن توجه لي ملامة بسيطة، ولكن دوماً بعبارات موزونة وعذبة «أنت لطيف جداً يا فرديناند، كانت تقول لي، أعلم بأنك تبذل جهوداً كي لا تغدو خبيثاً مثل الآخرين. ولكنني فقط، لا أعرف إن كنت تدرك فعلاً ما ترغب به في الواقع. فكّر جيداً في ذلك. ينبغي أن تجد ما تقتات به لدى عودتك إلى هناك، يا فرديناند، لن يعود بإمكانك، كذلك، أن تتنزه مثلما تفعل هنا، حالماً، طوال ليال وليال.. مثلما تحب كثيراً أن تفعل.. في حين أنني أعمل.. هل فكرت في ذلك يافرديناند؟»

بمعنى من المعاني، كانت ألف مرة على حق، ولكن لكل طبيعته. كنت خائفاً أن أجرحها، خاصة أنها كانت تتجرح بسهولة فائقة.

«أؤكد لك بأنني أحبك جداً يا موللي، وسأحبك دائماً.. قدر ما أستطيع.. بطريقتي..»

طريقتي لم تكن كثيرة، كانت موللي ربلاء مع ذلك شهية جداً، ولكن كان لدي هذا النزوع القذر إلى الأوهام، ربما لم يكن ذلك خطئي كلياً، فالحياة ترغمك على أن تبقى دائماً مع الأوهام.

Twitter: @ketab_n

«أنت ودود جداً، يا فرديناند، كانت تؤكد لي، لا تحزن من أجلي، أنت أشبه بالمريض دوماً بسبب رغبتك الملحة في أن تعرف المزيد دوماً. هذا كل شيء.. وفي النهاية، هذا ما ينبغي أن يكون طريقك، وحدك تماماً، فالمسافر الحقيقي هو الذي يمضي إلى أبعد ما يكون، هل سترحل عما قريب إذن؟

ــ نعم، سوف أنهي دراستي في فرنسا، ومن ثم سأعود. أكدت لها بشيء من القحة..

ــ لا، يا فرديناند. أنت لن تعود قط. ومن ثم فإنني لن أكون هنا أنا أيضاً..

لم تكن موللي مغفلة؟

دنت لحظة الرحيل، توجهنا ذات مساء إلى محطة القطار قبل ساعة من عودتها إلى المنزل. كنت خلال النهار قد ودعت روبنسون. لم يكن سعيداً كذلك بأن أغادره.. لن أنتهي قط من مفارقة كل من عرفته. فيما كنت أنتظر القطار على رصيف المحطة مع موللي، كان كثير من الرجال العابرين يتظاهرون بأنهم لا يعرفونها، ولكنهم يهمسون فيما بينهم بأشياء..

«ها أنت الآن ترحل بعيداً، يا فرديناند.. أنت تفعل بالضبط ما ترغب في أن تفعله، أليس كذلك يا فرديناند؟ ذلك هو المهم.. ذلك هو وحده ما يحوز على أهمية كبيرة.

دخل القطار المحطة، لم أعد واثقاً جداً من مغامرتي حينما شاهدت الآلة الضخمة، عانقت موللي بكل ما كان في داخل هيكلي من شجاعة. كنت متألماً، ألماً حقيقياً صادقاً، لمرة واحدة، لكل العالم، لي، لها ولجميع البشر.

ربما كان ذلك ما نبحث عنه طوال حياتنا، لا شيء سوى هذا، أكبر قدر ممكن من الحزن كي نغدو نحن ذواتنا، قبل أن نموت. مرت سنون في إثر

Twitter: @ketab_n

هذا الرحيل، وسنون أيضاً، كتبت مراراً إلى مدينة ديتروا وإلى كل العناوين التي كنت أتذكرها، وحيثما كان من الممكن أن يتعرف أحد على موللي، أن يقتفي أثرها، ولم أتلق قط أي جواب.

لقد أغلق المنزل الآن، ذلك كل ما أمكنني معرفته. الطيبة، الرائعة موللي، كنت أتمنى لو كان بإمكانها أن تقرأ رسائلي، من مكان لا أعرفه، وأن تعلم كل العلم بأنني لم أتغير تجاهها. وأنني ما أزال أحبها، وسأظل أحبها إلى الأبد، بطريقتي، وأن تتمكن من المجيء إلى هنا حينما ترغب وتقاسمني خبزي، ومصيري العابر.. فإن لم تعد جميلة، إيه! وحتى أسوأ من ذلك فسنتدبر أمرنا. فأنا أحتفظ بكثير من جمالها في داخلي. حياً جداً، حاراً جداً، بما يكفينا لكلينا، ولعشرين عاماً على الأقل أيضاً، حتى تحين نهايتي.

من أجل مغادرتها كنت في حاجة بالتأكيد إلى كثير من الجنون، وإلى نوع قذر وبارد منه. ومع ذلك فقد حميت روحي حتى الآن، وإذا ما حانت منيتي غداً، فلن أكون على الإطلاق، أنا على يقين من ذلك، بمثل تلك البرودة وتلك الحقارة، التي يتصف بها الآخرون، لقد أهدت إلي موللي كثيراً من اللطف ومن الحلم، خلال تلك الشهور التي قضيتها في أمريكا.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

<< لم تكن العودة من العالم الآخر نهاية الآلام! وجدت خيط الأيام من جديد مثلما تركته، يتجرجر دبقاً، مترجحاً كأنه في انتظاري.

درت طوال أسابيع وأشهر حول ساحة كليشي التي انطلقت منها، وفي الأحياء المجاورة لها، تنقلت بين مهن صغيرة لأكسب عيشي بالقرب من الباتينيول، لا ضرورة للخوض فيها طويلاً، تحت المطر أو وسط لهيب الحر، إبان شهر حزيران، ذلك اللهيب الذي يحرق الحلق وجوف الأنف، مثلما لدى فورد، كنت أنظر إلى الناس وهم يعبرون ويعبرون كي أتسلى، متقاطرين نحو مسرحهم أو نحو الغابة، عند المساء.

كنت وحيداً أكثر أو أقل دائماً، خلال الساعات التي أتحرر فيها من العمل، أقضي الوقت بهدوء مع الكتب ومع الصحف، ومع جميع الأشياء التي كنت أراها. وبعد أن استأنفت دراستي الجامعية في الطب اجتزت الامتحانات على طريقة «حا، دي»، في الوقت الذي كنت أكسب فيه معاشي. كان العلم محظوراً تماماً، أؤكد لكم، كانت الكلية خزانة مقفلة بإحكام، قدوراً عديدة جداً، في جوفها قليل من المربّى. حينما أتممت مع ذلك سنواتي الخمس أو الست من محنتي الأكاديمية حصلت على لقبي الرنان جداً، تعلقت حينئذ بالضواحي، ذلك هو نوعي من الأطباء، علقت في ضاحية غارين رانسي ما إن خرجت من باريس.

لم يكن لدي إدعاء، ولا طموح كذلك، لا شيء سوى الرغبة في أن أتنفس قليلاً، وآكل أفضل قليلاً، وما أن علقت لوحتي حتى رحت أنتظر.

Twitter: @ketab_n

سكان الحي جاؤوا للتفرج على لوحتي، متشككين، كانوا قد سألوا مفوض البوليس إن كنت طبيباً حقيقياً. نعم، أجابهم المفوض، فهو يحمل دبلوماً في الطب، إنه طبيب بالتأكيد.. حينئذ تردد في كل أرجاء رانسي بأن طبيباً حقيقياً، جاء ليستقر في الحي، بالإضافة إلى الأطباء الآخرين «لن يكسب من هنا بفتيكه» تنبأت على الفور بوابة عيادتي، صار عندنا أطباء أكثر مما ينبغي». كانت تلك ملاحظة صائبة.

عبر الترام كانت الحياة تصل إلى الضاحية، عند الصباح، كان يحمل منذ الفجر، رزماً كبيرة على دفعات متلاحقة، من أشخاص منذهلين مترنحين عبر شارع ميناتور متجهين إلى العمل.

كان الشباب منهم يبدون سعداء بذهابهم إلى العمل، كانوا يستعجلون سير الترام، ويتعلقون بسلالمه، أولئك الظرفاء وهم يتضاحكون. ينبغي أن تراهم!. ولكن حين تعلم أن حجرة التلفون في الحانة، على سبيل المثال، لم تنظف منذ عشرين عاماً، وأنها من القذارة بحيث تصلح بيتاً للكلاب، تداخلك الرغبة بأن تأخذ على سبيل المزاح كافة الأمور الجدية، ومعها رانسي، بنحو خاص، وتدرك الموقع الذي سيضعونك فيه. البيوت تستحوذ عليك، تفوح منها روائح البول، مسطحة الواجهات، قلوبها للمالك. والمالك لا يراه أحد على الإطلاق، بل إنه لن يتجرأ على الظهور علانية، إنه يرسل وكيله، الفظ، ويقال، مع ذلك في الحي بأن المالك يكون بالغ اللطف حينما تلتقيه، ولكن ذلك لا يعد بشيء.

ضوء السماء فوق رانسي هو نفسه الذي كان فوق ديتروا، عصير من الزبل، دخاني اللون، يغمر السهل بدءاً من لوفالوا، نفاية من هياكل العمارات محاطة بأكوام من القمامة السوداء، تلوح لك من بعيد مداخنها الصغيرة منها

Twitter: @ketab_n

والكبيرة أشبه بالأوتاد الضخمة المغروسة في وحل شاطئ البحر، وفي داخلها، نقبع نحن.

ينبغي أن يكون لدى المرء في رانسي شجاعة السرطانات، لا سيما حين يشيخ، وأن يكون على يقين بأنه لن يخرج منها على الإطلاق. بعد محطة الترام يمتد الجسر الدبق فوق السين، ذلك المجرور الضخم الذي ترى من فوقه كل شيء، يتسلق الناس كتلته الضخمة أيام الآحاد، وفي الليل يقف الرجال على امتداد حافتيه، ليتبولوا، وهو ما يجعلهم متأملين مفكرين، شاعرين بذواتهم أمام الماء الجاري، يخالجهم أثناء ذلك إحساس بالخلود، أما النساء فلا يفكرن ولا يتأملن لا بالسين ولا بغيره. في الصباح ينقل الترام إذن جمهوره إلى المترو، وفي داخل المترو ينضغط ذلك الحشد، حتى يخيل إليك وهم يفرّون جميعاً إلى تلك الجهة بأن كارثة قد ألمت بهم، أو أن النيران قد أتت على بلدتهم بلهيبها، وبعد كل فجر، يحملهم الترام من جديد فيتعلقون ببواباته وحواجزه على هيئة عناقيد، هروب كبير.. إنهم مع ذلك يبحثون بالتحديد، عن رب عمل في باريس، عن ذلك الذي سينقذهم من الهلاك جوعاً، إنهم هلعون جداً من أن يفقدوه، أو أن يتخلى عنهم، فذلك المعاش اليومي الذي يجعلك تنضح بالعرق مع ذلك، وتتعفن من أجل تحصيله طوال عشر سنوات.. عشرين سنة وأكثر، لم يكن متيسراً بسهولة.

كانوا، يتشاتمون داخل الترام، مطلقين سيلاً من الكلمات البذيئة كي يشقوا أمامهم، مدخلاً إلى الترام، والنساء أشد احتجاجاً ونخيراً، وكذلك الفتيان. كان هناك بالتأكيد ثملات بين هؤلاء الراكبات، وخصوصاً أولئك اللواتي ينزلن إلى السوق نحو سانت أوين، من أنصاف القرويات، «بكم الجزر؟» يسألن قبل أن يصلن إلى البائع، كي يظهرن بأنهن على سعة من العيش.

Twitter: @ketab_n

كانوا يجتازون رانسي بكاملها، مضغوطين مثل القمامة داخل علبة معدنية، تفوح منهم روائح قوية في الوقت ذاته، وخصوصاً أيام الصيف. عند التحصينات القديمة كانوا يتبادلون التهديد والوعيد، مرة أخرى، ويوجهون آخر شتيمة، وبعدئذ ينسون كل شيء، ثم يبتلع المترو الجميع. البدلات المبللة بالعرق والفساتين المدعوكة، وجوارب الحرير، والتهابات الرحم، والأقدام القذرة كأنها الأحذية.. والياقات العتيقة والمتصلبة، والإجهاضات المتواصلة، كل ذلك يسيل عبر الدرج المغسول بالقطران والفينيك، وحتى النهاية الكئيبة، مع بطاقة العودة التي تكلف وحدها ثمن رغيفين من الخبز.

ثمة قلق بطيء ينهش الصدور من التسريح دون سابق إنذار، ولا سيما صدور أولئك المتخلفين دراسياً (بشهادة الدراسة الابتدائية فقط) حينما يرغب رب العمل بأن يقلص نفقاته السخية. ذكريات «الأزمة» ما تزال تحت الجلد، ذكريات التسريحات العمالية، في المرة الأخيرة، والتي طالت الجميع في كل مكان. تلك الذكريات، تخنق أنفاس رجل، مهما كان مستور الحال والعيال، في كل الفصول.

تواري المدينة، قدر ما تستطيع حشودها ذات الأقدام الوسخة، داخل مجاريرها الكهربائية الطويلة، إنهم لا يعودون إلى السطح إلا يوم الأحد. حينذاك، وعندما يكونون خارج المجارير لابد لهم أن يظهروا للملأ. وإذا ما شاهدتهم على سبيل التسلية، يوم أحد واحد، فسيفقدك ذلك حس الدعابة والضحك. حول المترو، وعلى مقربة من التحصينات ثمة رائحة مستوطنة تقضم الجو، رائحة الحروب التي لم تنطفئ بعد نيرانها، رائحة بقايا القرى المحروقة، والمطبوخة على عجل، والثورات المجهضة، والتجارات المفلسة. يحرق جامعو الخرق في المنطقة، منذ فصول وفصول، الأكوام الصغيرة

Twitter: @ketab_n

الرطبة ذاتها داخل الحفائر. جامعو الخرق هؤلاء برابرة خائبون مترعون بالأنبذة وبالتعب، يذهبون ليسعلوا في المستشفى المجاور بدل أن يقذفوا بالترامات في المنحدرات، ويذهبوا ليبولوا رشقة بول قوية على الهبات الممنوحة للفقراء، لم يعد ثمة دماء، لم يعد ثمة حكايات، وحينما ستعود الحرب. الحرب القادمة سيجمعون أيضاً ثروة من بيع جلود الجرذان، ومن الكوكايين ومن الأقنعة المعدنية المتموجة.

فيما يتعلق بي، فقد وجدت لنفسي من أجل ممارسة المهنة شقة صغيرة في محيط الحي، كنت ألمح بوضوح من خلالها منحدرات المياه، والعامل الذي يقف فوقها دائماً ينظر إلى اللاشيء، ذراعه داخل لفافة ضخمة من قطن أبيض، مجروحة من جراء العمل، لم يعد يدري ماذا يفعل، وبماذا يفكر، وليس لديه ما يكفي من النقود كي يذهب ليشرب ويترع أحاسيسه.

كانت موللي على حق، لقد بدأت أفهمها. الدراسة تغيرك، تخلق لديك كبرياء رجل. ينبغي العبور من هنا للدخول إلى أعماق الحياة. كنت في السابق أدور حول الحياة حسب، أعتبر نفسي منعتقاً متحرراً، ولكنني كنت أستند إلي التفاهات والأباطيل. كنت أحلم أكثر مما ينبغي، أنزلق فوق الكلمات، لم يكن ذلك سوى نوايا، سوى مظاهر سطحية. كان يلزمني شيء آخر هو العزيمة. مع الطب، وعلى الرغم من أنني لست موهوباً جداً، كنت أقترب، مع ذلك، من البشر، من الحيوانات، من كل شيء، لم يعد ثمة أمامي الآن سوى المضي قدماً وسط الركام. الموت يجري خلفك، عليك أن تحث خطاك، عليك أن تأكل أيضاً، فيما أنت تبحث، وتنتقل من حضيض الحرب إلى ما فوق مستوى السوق. وهذا يحتاج إلى إنجاز كثير من الأشياء، ولم يكن ذلك بالسهل.

Twitter: @ketab_n

كنت أنتظر المرضى. لم يأت منهم الكثير، لابد من مرور زمن من أجل الإقلاع، كنت أقول لأطمئن نفسي، كان المريض في تلك اللحظة هو أنا على الأخص.

قلما وجدت مكاناً أكثر مدعاة للحزن والرثاء، مثلما وجدت غارين رانسي، حينما لا يكون لدي زبائن. يمكنني قول ذلك. ينبغي الابتعاد عن التفكير داخل هذه الأماكن. وأنا الذي جئت إلى هنا كي أفكر بهدوء! ومن الطرف الآخر للأرض أيضاً! لقد وقعت على أم رأسي. غطريس صغير! كانت تتوارد علي أفكار سود ثقيلة، لم يكن هناكِ ما يدعو إلى المرح. ولم تعد تفارقني تلك الحال لحظة. الدماغ، طاغية مستبد، ليس كمثله أحد.

تحت عيادتي كان يقيم بيزين، المتكسب البسيط الذي يكد لكسب رزقه، كان يقول لي دائماً حينما أتوقف أمام بابه «عليك أن تختار، يا دكتور، إما المراهنة على خيول السباق، أو تناول الشراب، إما هذه أو تلك، لا يمكن للمرء أن يعمل كل شيء!.. أما أنا فأفضل الشراب، لا أحب المراهنة كثيراً..».

بالنسبة إليه، فقد كان مشروبه المُفضل، هو عصير الجنطايا مع الكشمش المخلوط بالكحول، لم يكن بيزين شريراً في العادة، ولكنه بعد الإفراط في معاقرة شرابه لا يغدو لطيفاً جداً.. وحينما كان يذهب إلى التعيش في «سوق البراغيث». (سوق شعبي تباع فيه الأشياء الرخيصة)، يظل ثلاثة أيام خارج البيت، في «نزهة»، كما كان يسمي ذلك، كانوا يعيدونه إلى البيت، وحينئذ كان يتنبأ:

«المستقبل، أنا أرى كيف سيكون المستقبل.. على منوال فسق جماعي ليس له نهاية.. سنرى ذلك في السينما.. ليس علينا إلا أن نرى كيف تجري الأمور..»

Twitter: @ketab_n

كان يرى أيضاً أبعد من ذلك فيما يتعلق بتلك الأوضاع: «أرى أيضاً بأنهم لن يعودوا يشربون.. سأكون أنا آخر من يشرب.. عليّ أن أستعجل.. إنني أعرف عيبي..».

جميع الناس كانوا يسعلون في شارعي، كان السعال يستولي على الحي بأجمعه.. فمن أجل رؤية الشمس كان ينبغي الصعود على الأقل حتى الساكري كور بسبب الأدخنة.

من هناك، إذن، من ذلك المكان المطل على حينا، تدرك بوضوح، أنه في قاع السهلة المنبسطة، كنا نحن، والبيوت التي نقيم فيها، ولكن حين تبحث عنها بالتفصيل، فلن تعثر عليها، ولا حتى على بيتك لفرط ما كان المشهد شائهاً، ومثله في القبح كل ما تراه.

في القاع أيضاً، بالإضافة إلى ذلك، كان السين على الدوام ينساب مثل خيط مخاطي متلوياً من جسر إلى آخر.

حينما يسكن المرء في رانسي، لا يعود يدرك قط، كم غدا كئيباً، وتفارقه الرغبة بفعل شيء ذي قيمة، هذا كل ما في الأمر، فلفرط ما يقتصد في كل شيء، وبسبب كل شيء، تزايله كافة الرغبات.

خلال أشهر، كنت أقترض النقود من هنا وهناك. كان الناس في الحي على حال من الفقر ومن الريبة بحيث كان لابد من هبوط الليل، حتى يقرروا القدوم إلي، أنا الطبيب الرخيص الأجر، مع ذلك، كنت أجوب الحي على هذا النحو، ليالي وليالي سعياً للحصول على عشرة أو خمسة عشر فرنكاً من عيادتي للمرضى، خابطاً في الأزقة والساحات المظلمة.

عند الصباح يغدو الشارع مثل طبل ضخم من البسط المنفوضة عن طريق الضرب بالمخابيط.

Twitter: @ketab_n

في ذلك الصباح التقيت ببيبرت على الرصيف، كان يحرس منزل عمته المسافرة خارج الحي للقيام ببعض أعمال الخدمة، كان بيبرت أيضاً، قد آثار سحابة من الغبار فوق الرصيف بمكنسته.

كل من لا يثير الغبار في تلك الأماكن، عند الساعة السادسة ينظر إليه بين سكان شارعه على أنه خنزير فريد من نوعه. فالسجاجيد المنفوضة علامة على الملكية، على منزل مؤثث جيداً.. وهذا كافٍ.. من الممكن أن تفوح من أفواههم رائحة كريهة، ولكنهم، مع ذلك مطمئنون كل الاطمئنان.. كان بيبرت يبتلع كل الغبار الذي كانوا يرسلونه إليه من الطوابق، كان يصل إلى بلاط الشارع، مع ذلك بضع بقع من الشمس، ولكن مثلما داخل كنيسة، بقع شاحبة باهتة، متزهدة.

رآني بيبرت قادماً، كنت طبيب تلك الناحية القريبة من موقف الأتوبيس. سحنة بالغة الاخضرار، تفاحة لن تنضج أبداً، ذلكم هو بيبرت.. كان يحك جسمه، وحين رأيته يفعل ذلك انتابني أنا أيضاً رغبة بان أحك جلدي. ذلك لأنني لم أسلم من البراغيث، أنا أيضاً، هذا صحيح، كانت تنتقل إلي خلال الليل، وأنا بجانب المرضى. إنها تقفز فوق معطفك، بطيبة خاطر، لأنه المكان الأكثر دفئاً، والأكثر رطوبة الذي يعرض لها. يعلمونك كل هذا وأنت في الكلية.

حينما يكون عليك أن تحب أحداً ما فإن مجازفتك مع الأطفال أقل مما هي مع الكبار. لديك العذر، على الأقل، حين تأمل بأنهم سيكونون أقل سوءاً منا نحن في المستقبل، لا أحد يعلم!

فوق وجهه الأدكن كانت تتراقص تلك الابتسامة الصغيرة اللانهائية من المودة الخالصة والتي ما استطعت أن أنساها في يوم من الأيام. بشاشة للكون كله..

Twitter: @ketab_n

قليل من الكائنات ما يزال لديهم قدر ضئيل جداً من هذه المودة الفياضة، بعد العشرين عاماً المنصرمة، إنها مودة الحيوان الأليف. ليس العالم مثلما كان يعتقده المرء، هذا كل ما في الأمر.. لقد غيرّ الناس وجوههم إذن. وكيف؟ ماداموا قد خُدعوا! إنهم يغدون قساة بلمح البصر. مكشرين كالوحوش. ذلك ما بقي منطبعاً على وجوهنا بعد العشرين عاماً الماضية! خطأ فادح، ليس وجهنا سوى خطأ فادح.

«هيه. ناداني بيبرت، دكتور، ألم يرفعوا الجثة من ساحة الأعياد هذه الليلة؟ جثة الرجل الذي قطعت عنقه بسكين حلاقة؟ ألم تكن أنت الطبيب المناوب في الخدمة؟ هل كان ذلك صحيحاً؟

ـ لا، لم أكن أنا المناوب في الخدمة، يا بيبرت، لقد كان الدكتور فروليشون

ـ يا لسوء الحظ، لأن عمتي قالت بأنها تتمنى أن تكون أنت.. كي تروي لها كل شيء.

ـ سيكون هذا في المرة القادمة، يا بيبرت..

ـ كثيراً ما يُقتل أشخاص هنا؟» علّق بيبرت أيضاً

تجاوزت غباره قليلاً، ولكن عربة الكناسة التابعة للبلدية كانت تمر، في تلك اللحظة بالذات، وهي تطلق أزيزاً حاداً، مثيرة إعصاراً هائلاً من الغبار، مندفعاً بقوة على هيئة سيول، ليغمر الشارع بكامله بسحب أخرى أيضاً، أشد كثافة، سحباً كالفلفل، لم نعد نرى بعضنا. كان بيبرت يثب يميناً وشمالاً، عاطساً وعاوياً، جذلاً، رأسه المطوق بالغبار، شعره الدبق، ساقاه اللتان تشبهان ساقي قرد هزيل، كل ذلك كان يرقص بتشنج، خلف المكنسة.

عادت عمة بيبرت من أعمال خدمتها. تناولت كأساً صغيراً من الشراب، ينبغي القول أيضاً بأنها كانت تفوح قليلاً برائحة الإيتير، وهي عادة

Twitter: @ketab_n

أدمنتها منذ أن كانت تعمل خادمة عند طبيب، وكانت تشكو كثيراً من أضراس العقل، لم يبق في فمها سوى سنّين من الأمام، ولكنها لم تكن تتوقف عن تنظيفهما بالفرشاة «حينما يعمل المرء مثلي، في عيادة طبيب فإنه يتعلم القواعد الصحية» كانت تعطي استشارات طبية لسكان الجوار، بل وحتى أبعد من ذلك، حتى حدود بيزون.

كان يثير اهتمامي معرفة ما إذا كانت عمة بيبرت تفكر في بعض الأحيان بشيء ما، لا، لم تكن تفكر في شيء، كانت تثرثر كثيراً دون أن تفكر إطلاقاً، وحينما نكون وحيدين دونما متطفلين حولنا، كانت تقدم لي بدورها، نصيحة طبية، كان ذلك يداعب غرورها بمعنى ما.

«بيبرت، دكتور، ينبغي أن أقول لك، لأنك طبيب. إنه وغد صغير.. إنه «يلعب بعضوه» لقد لاحظت ذلك منذ شهرين وتساءلت، من الذي أمكنه أن يعلمه هذه القذارات. لقد ربيته انا أفضل تربية، وقد منعته من ذلك، ولكنه يعود إليها من جديد.

ـ قولي له بأنه سيغدو مجنوناً» نصحتها حسب الطريقة التقليدية

كان بيبرت يسمعنا، لم يكن سعيداً.

ـ لم ألمس أعضائي، ليس هذا صحيحاً. إنه الولد غاغات الذي اقترح علي ذلك.

ـ انظر، لقد كنت أرتاب بِه، إنه الولد الخامس في عائلة غاغات، أنت تعلم، إنهم جميعاً فاسقون، الجد كان يجري وراء الخادمات، أسألك يا دكتور هل توجد أدوية مثبطة لذلك؟ قل لي يا دكتور، طالما أنت موجود هنا، هل يمكنك أن تصف له شراباً لمنعه من ممارسة ذلك؟»

Twitter: @ketab_n

تبعتها إلى حجرتها كي أصف للغلام شراباً مضاداً للرّذيلة! كنت مسايراً جداً للناس جميعاً، أعلم هذا جيداً. وما من أحد كان يدفع لي، كنت أنظر في العيون، من قبيل الفضول على الأخص، وهذا خطأ، فالناس ينتقمون من الخدمات التي تقدمها لهم مجاناً. استفادت عمة بيبرت مثل الآخرين من ترفعي المتغطرس، بل إنها جاوزت الحد بقذارة، كنت أستسلم للذهاب معهم، للكذب، كنت أتبعهم كظل، كان مرضاي هؤلاء يمسكون بي يتباكون أمامي، كل يوم أكثر من سابقه، كانوا يقودونني كألعوبة في أيديهم، ويكشفون لي في الوقت ذاته، عن كل ما كانوا يخفونه داخل مخزن روحهم من قبائح وشناعات، مما لا يكشفونه لأحد آخر سواي، لم يكن هؤلاء القبيحون يدفعون لي إلا أقل القليل. كانوا ينسلون فقط من بين أصابعك مثل أفاع لزجة.

كنت أحدث نفسي النهار بطوله، فيما إن كنت قادراً على العيش ما يكفي من الزمن كي أروي كل شيء.

«حذار أيها الأنذال. دعوني أظل رقيقاً عطوفاً بضع سنوات، لا تقتلوني مزيداً من القتل، وعلى الرغم من أنني أظهر بمظهر الخانع الأعزل. سأروي كل شيء، أؤكد لكم ذلك، ستتلوون حينئذ مثل يساريع الفراش القذرة، في أفريقيا، والتي كانت تطلق رائحتها الخانقة في كوخي، وسأجعلكم أكثر خسة وأشد قذارة أيضاً، لعل ذلك أن يهلككم في النهاية.

«هل هو محلى بالسكر، سألني بيبرت بشأن الشراب

ـ لا تحلّه له بالسكر، إنه لا يستحق أن يكون شرابه محلّى بالسكر، لقد سرق مني ما يكفي من السكر، إنه يحمل كل العيوب، وكل الوقاحات، سينتهي إلى قتل أمه!

ـ ليس لي أم، رد بيبرت، وقد طاش صوابه.

ـ خراء، صاحت العمة، سأجلدك بالسوط إن رددت علي»

Twitter: @ketab_n

ثم ذهبت لتفك السوط، ولكنه كان قد انسل سريعاً إلى الشارع. «فاجرة» صاح بها وسط الممر، احمرت العمة خجلاً، وعادت إلي. صمتت قليلاً، ثم غيرت دفة الحديث.

«ربما سيكون من الضروري، يا دكتور أن تذهب لمعاينة السيدة المقيمة في الطابق فوق الأرضي، رقم ٤ في شارع مينور، إنه منزل موظف قديم في توثيق العقود. حدثته عنك سابقاً.. قلت له بأنك تعامل مرضاك بمنتهى اللطف والرقة..

كنت أعلم على الفور، بأن العمة كانت تكذب، لأن طبيبها المفضل كان فروليشون، فهو الذي كانت توصي بالذهاب إليه دائماً حين يسعها ذلك، أما أنا فكانت، على العكس من ذلك، تغتابني وتثلبني في كل مناسبة. مغالاتي في الإنسانية كانت تقابل من جانبها بحقد حيواني. إنها حيوان، ينبغي عدم نسيان ذلك، أما فروليشون الذي يعجبها فكان فقط يجعلها تدفع نقداً، في حين أنها كانت تستشيرني، على الواقف وبسرعة، ولكي توصي بي ينبغي إذن أن يكون هناك معاينة مجانية أيضاً، أو قضية قذرة مشبوهة للغاية.. وفيما أنا منصرف كنت أفكر ببيبرت.

«ينبغي أن تخرجي به خارج البيت. فهذا الولد لا يخرج كفاية

ـ أين تريدنا أن نذهب نحن الاثنين؟ لا يمكنني الذهاب بعيداً مع كوخي هذا..

ـ اذهبي معه إلى الحديقة على الأقل، يوم الأحد

ـ ولكن الحديقة تعج بالناس والغبار أكثر مما يوجد هنا، الناس فوق بعضهم بعضاً.

Twitter: @ketab_n

كانت ملاحظتها في محلها، فكرت بمكان آخر أنصحها به.

وبشيء من الوجل اقترحت عليها المقبرة.

كانت مقبرة غارين رانسي المكان الوحيد المشجر في المنطقة، والممتد على مساحة واسعة

«عجباً، هذا صحيح، لم أكن أفكر به، يمكننا فعلاً الذهاب إلى هناك

عاد بيبرت في تلك اللحظة ذاتها

«وأنت يا بيبرت، ألا يعجبك الذهاب للتنزه في المقبرة. ينبغي أن أسأله، يا دكتور، لأنه، بخصوص النزهات، له رأس خنزير حقيقي لابد من أن أنبهك إلى ذلك..»

لم يوافق بيبرت أبداً، ولكن الفكرة راقت للعمة، وهذا كافٍ، كانت العمة تحس بالضعف تجاه المقابر، على شاكلة كل الباريسيين. لقد بدأت أخيراً، كما يبدو، تفكر في هذا الأمر، وتدرس الإيجابيات والسلبيات، التحصينات القديمة، سوقية جداً.. والحديقة تعج فعلاً بالغبار.. في حين أن المقبرة، ليست سيئة، هذا صحيح.. ومن ثم فإن الأشخاص الذين يأتون إلى المقبرة يوم الأحد. أشخاص محترمون بالأحرى، إضافة إلى ذلك، فإنه لمن المريح جداً أنها تستطيع لدى عودتها القيام بأعمال تسليم الطلبات أثناء مرورها في شارع ليبرتي، حيث المخازن ما تزال مفتوحة يوم الأحد.

أنهت العمة الحديث قائلة: «هيا يا بيبرت، رافق الدكتور إلى منزل السيدة هنروي، شارع المينور، أنت تعرف أين تسكن السيدة هنروي، أليس كذلك يا بيبرت؟

كان بيبرت يعرف كل شيء شرط أن تتاح له فرصة التطواف والتنزه.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

»» بين شارع فانترو وساحة لينين، قلما كان هناك مساكن معدة للإيجار، فقد استولى المتعهدون تقريباً على كل ما بقي هناك من أراض زراعية، من أراضي الغارين، كما كانوا يسمونها، ولم يبق منها في الأطراف تقريباً سوى مساحة صغيرة جداً من أراض بور تقع بعد مصباح الغاز الأخير.

أمام زحف العمارات، ما تزال بضعة دور صامدة، تتعفن بهدوء، محاصرة من كل اتجاه، يقيم فيها بعض أرباب المعاشات من الذين ظلوا هناك.. كان ثمة دار من بين تلك الدور، مؤلفة من أربع غرف وموقد ضخم، في بهو الطابق السفلي، لا يكاد سكان البيت يشعلون النار فيه، من أجل التوفير، كان ينفث الأدخنة وسط الرطوبة.. ما أن تدخل إلى تلك الدار حتى تبدأ في السعال بسبب الدخان، لم يكن سكان المنزل من أرباب المعاشات الأغنياء الذين ظلوا مقيمين هنا، لا، وعلى الأخص عائلة هنروي. التي أرسلتني العمة إليهم، ومع ذلك فقد كان هؤلاء الناس يملكون شيئاً ما صغيراً.

حينما تدخل إلى بيت هنروي تصدمك على الفور روائح المراحيض والمجاري، بالإضافة إلى سحب الدخان.. كان الزوجان قد انتهيا للتو من تسديد ثمنه. كان بيتهم حصيلة خمسين عاماً من التوفير، ولكنك ما إن تصبح داخل البيت. وترى الزوجين هنروي حتى تتساءل، ما عسى أن يكون لدى هذين الزوجين كليهما؟ إيه، حسناً، إن ما لدى الزوجين هنروي شيء خارق وغير طبيعي، فهما لم ينفقا قط طوال خمسين عاماً قرشاً واحداً على نفسيهما

Twitter: @ketab_n

من غير أن يتأسفا عليه أشد الأسف، فبلحمهما وعقلهما كانا قد ملكا منزلهما، على غرار الحلزون، ولكن الحلزون يفعل ذلك دون أن يتشكك فيما يفعله.

أما الزوجان هنروي، فلم يصدقا أنهما أمضيا كل حياتهما، من أجل امتلاك بيت فقط، كانت حالهما حال من خرج من السجن للتو، فأدهشه ذلك كل الدهش. ولابد لمن يخرج من زنزانة مظلمة من أن يبدو في هيئة عجيبة.

منذ ما قبل زواجهما كان آل هنروي يفكران في شراء منزل. منفصلين في البداية، ثم مجتمعين معاً فيما بعد. رفض الزوجان أن يفكرا في شيء آخر طوال نصف قرن. وحينما أجبرتهما الحياة على أن يفكرا في شيء آخر، في الحرب، على سبيل المثال، أو في أولادهما، فقد جعلهما ذلك مريضين كلياً.

حينما أقاما في دارهما، وهما زوجان شابان، مع عشر سنوات من التوفير لكل منهما، لم تكن الدار مكتملة تماماً، كانت تقع وسط الحقول.. ومن أجل الوصول إليها، في الشتاء، كان عليهما أن ينتعلا القباقيب، كانا يتركانها عند بائع الفاكهة، في زاوية شارع ريفولت حينما يذهبان صباحاً إلى عملهما في الساعة السادسة، كانا ينطلقان من محطة العربات إلى باريس، على بعد ثلاثة كيلو مترات وبقرشين اثنين.

كل ذلك كان يدل على تمتعهما بصحة جيدة، بمحافظتهما طوال حياة بكاملها على مثل هذا النظام. كانت صورتهما الفوتوغرافية معلقة فوق السرير في الطابق الأول، تظهرهما في يوم عرسهما. غرفة النوم أيضاً كان قد سدد ثمنها منذ زمن طويل، وكذلك الأثاث، كانت جميع الفواتير المدفوعة منذ عشر سنوات، عشرين سنة، أربعين، مشبوكة معاً. بدبوس داخل درج من الأدراج، أما دفتر الحسابات اليومية فكان في الطابق الأرضي في صالة الطعام التي لم يكونوا يأكلون فيها أبداً. كان الزوج هنروي يكشف لك عن كل حساباته إذا

Twitter: @ketab_n

شئت، وفي أيام السبت كان هو الذي يسوي الحسابات في صالة الطعام. كان آل هنروي يأكلون دوماً في المطبخ.

علمت كل ذلك، شيئاً فشيئاً، منهم هم ومن آخرين، ثم من عمة بيبرت، وحينما توثقت معرفتي بهم حدثوني. هم أنفسهم عن خوفهم الكبير، الخوف الذي يملأ حياتهم بأكملها، الخوف من أن ابنهم، الوحيد الذي كان يعمل في التجارة قد تبور تجارته. خلال ثلاثين عاماً كانت تلك الفكرة الرهيبة توقظهم من نومهم، كل ليلة تقريباً، قليلاً أو كثيراً، كان ذلك الابن يعمل في تجارة ريش الطيور. وكان الأبوان يفكران طوال ثلاثين عاماً، فيما إن كانت الأزمات الاقتصادية ستصيب الريش مثلما أصابت غيره! ليس هناك مهنة. ربما، أسوأ من مهنة الريش. وأقل ثباتاً كما يقولون.

ثمة أعمال تجارية شهدت انهياراً شديداً، بحيث لم يفكر أحد باقتراض المال من أجل تعويمها، ولكن هناك أعمالاً أخرى كان يجري الحديث دائماً بشأن ضرورة الاقتراض، أكثر أو أقل لتعزيز وضعها في السوق. وحينما كان الزوجان هنروي يفكران بالاقتراض على هذا النحو.. ويفكران أيضاً بمنزلهما الحالي الذي سددت أقساطه، وبكل شيء، كانا ينهضان من مقعديهما، وينظران إلى بعضهما وقد اعتراهما الاحمرار.. ما الذي سيفعلانه في مثل هذه الحالة؟ سيرفضان.

كانا قد قررا باستمرار أن يرفضا اقتراض أي مبلغ.. انسجاماً مع مبادئهما، من أجل أن يحتفظا لابنهما ببعض الوفر، بإرث، بمنزل. على هذا النحو كانا يحاكمان الأمور. كان ابنهما متعقلاً رصيناً بالتأكيد، ولكنه معرض مع ذلك، للضياع، في أعماله التجارية..

Twitter: @ketab_n

لو سئلت أنا، حول كل ذلك، لقلت بأنني كنت أجد الجميع مثل الزوجين هنروي. أمي، أيضاً كانت تعمل في التجارة، لم تكن تصيب قط من تجارتها سوى البؤس والإملاق، قليل من الخبز وكثير من الضجر، لم أكن أحب الأعمال التجارية إذن، فالخطر الذي كان يحيق بهذا الابن، والمجازفة بقرض كان لابد منه ربما، عند الضرورة، في لحظة الاستحقاقات الخطرة، كل ذلك كنت أفهمه حق الفهم، ولا ضرورة لشرحه لي، كان الأب هنروي قد عمل موظفاً صغيراً لدى كاتب العدل في شارع سيباستبول طوال خمسين عاماً. كان قد عرف أيضاً حكايات عن تبديد الثروة، وروى لي أيضاً بعضاً منها شهيرة. قصة والده في البداية، فبسبب إفلاس والده حرم هنروي من التقدم للحصول على رتبة الإستاذية بعد البكالوريا، وتعين عليه أن ينخرط، على الفور في الأعمال الكتابية، كان هنروي يتذكر تلك الأشياء.

أخيراً، فإن منزلهما الذي سددت كافة أقساطه، وصار ملكاً لهما بالكامل، لم يستدينا من أجله قرشاً واحداً، ولم يكن عليهما قط أن يشعرا بالقلق وعدم الأمان، كانا آنذاك في السنتين من عمرهما.

ولكن ها هو ذا الأب يبدأ الآن بالشعور بتوعك لم يألفه من قبل، أو بالأحرى كان يستشعر هذا النوع من التوعك منذ أمد طويل، ولكنه لم يكن يفكر فيه سابقاً، بسبب المنزل والأقساط المترتبة عليه. وحينما تم تسديد حساب البيت، وسويت على نحو محكم مسألة شرائه، وثبتت التواقيع. بدأ يفكر بتوعكه الغريب، واستولت عليه حالة من الذهول، وصفير كصفير البخار داخل كل إذن من أذنيه.

منذ تلك اللحظة بدأ أيضاً يشتري الصحيفة، ما دام قد صار بوسعه منذ الآن أن يدفع ثمنها، كل ما كان يستشعره هنروي داخل أذنيه كان مكتوباً

Twitter: @ketab_n

وموصوفاً على صفحات الصحيفة. اشترى حينئذ الدواء الذي كانوا ينصحون به في إعلان الصحيفة، ولكن ذلك لم يغير شيئاً من توعكه وانحراف صحته. على عكس ذلك تماماً، فقد بدا وكأن الدواء كان يزيد الصفير في أذنيه أيضاً، أو ربما كان يجعله يفكر أكثر بهذا الصفير. ومع ذلك، فقد استشار الزوجان معاً الطبيب، طبيب المستوصف. «إنه ارتفاع الضغط الشرياني» قال لهما الطبيب.

صدمته هذه الكلمة، غير أن ذلك الوسواس في الواقع، وصل إليه في وقته تماماً.. فلفرط ما انتابه القلق طوال سنين، بسبب البيت والديون المستحقة على ابنه، ظهر الآن لديه فجأة حيز فارغ في نسيج القلق الذي كان يمسك بتلابيبه، منذ أربعين عاماً، من جراء الأقساط المستحقة، وفي قلب حماسته الوجلة الدائمة ذاتها.. أما وقد تحدث إليه الطبيب عن ضغطه الشرياني فقد شرع ينصت الآن إلى ضغطه، يقرع في أذنه، وفي أعماق أذنه. كان ينهض ليجرب قواه، ثم يظل بعد ذلك هامداً قرب سريره، طوال الليل، وقتاً طويلاً، يشعر بجسده وهو يرتج رجات صغيرة رخوة، في كل مرة كان قلبه ينبض فيها، كان ذلك موته. هذا ما كان يقوله. لقد انتابه دوماً خوف من الحياة، أما الآن فكان خوفه يتعلق بشيء ما، بالموت، بضغط دمه. كان ذلك الخوف يرتبط خلال أربعين عاماً، بشيء آخر، بالخطر الذي سيداهمه إذا عجز عن الانتهاء من سداد ثمن المنزل.

كان تعيساً دوماً، ولكن كان ينبغي، مع ذلك بأن يسارع إلى إيجاد مسوغ جديد كي يكون تعيساً. ليس ببساطة، بأن يظهر ذلك على ملامحه، ليس المهم أن يقول: «أنا تعيس» بل ينبغي أيضاً أن يشعر بالتعاسة داخل نفسه. أن يقتنع تمام الاقتناع بأنه تعيس. لم يكن يطلب أكثر من ذلك. أن

Twitter: @ketab_n

يعطي لخوفه الذي يشعر به سبباً حقيقياً قوياً جداً، ومقبولاً جداً. كان ضغطه قد بلغ ٢٢. بحسب كلام الطبيب، وهذا الــ٢٢ شيء، وأي شيء! كان الطبيب قد علّمه العثور على الطريق المؤدي إلى موته..

الابن الشهير الريّاش، لم يكن يراه أحد تقريباً، مرة أو مرتين في يوم رأس السنة، كان هذا كل شيء، أما الآن فلم يعد بوسع الرياش القدوم إلى منزل أهله ليس ثمة ما يقترضه البابا والماما، وإذن فإن الابن لم يعد يأتي البتة، تقريباً.

أما السيدة هنروي، فقد كنت في حاجة إلى زمن أطول كي أتعرف عليها. لم تكن تشكو أبداً من أي قلق، وحتى من قلق موتها الذي لم تكن تتخيله. كانت تتذمر فقط من عمرها، ولكن دون أن تفكر به حقاً. بل كي تفعل مثلما يفعل جميع الناس، وتتذمر أيضاً، من أن تكاليف الحياة «كانت ترتفع». كان عملها الكبير قد أنجز. المنزل المسدّد الأقساط، ولكي تنتهي بسرعة من كمبيالاتها الأخيرة، بدأت في تركيب أزرار على صدارات، لحساب مخزن كبير. «ما يلزمني خياطته من أجل مئة قرش، هذا لا يصدق».

كانت جدران المنزل تظل جافة فيما مضى، حينما كانت التيارات الهوائية ما تزال تتحرك حولها، أما الآن وبعد أن أحاطتها العمارات الشاهقة المعدة للإيجار، فقد صارت تسح كلها بالرطوبة، وحتى الستائر، فقد تبقعت ببقع رطبة عفنة.

حينما غدا المنزل ملكاً لآل هنروي ظهرت السيدة هنروي باسمة طوال الشهر الذي أعقب ذلك. كاملة، مفتونة، مثل امرأة ورعة بعد تناول القربان. وهي نفسها التي اقترحت على هنروي: «جول، أنت تعلم، سنشتري منذ الآن الصحيفة كل يوم، صار باستطاعتنا ذلك..» هكذا، بدأت تفكر في ذاتها،

Twitter: @ketab_n

وتلتفت إلى زوجها، ومن ثم فقد نظرت إلى ما حولها، وأخيراً فكرت في أم زوجها، حماتها هنروي، وحينذاك عادت الابنة رصينة من جديد، على نحو مفاجئ، مثلما كانت سابقاً يوم انتهت من تسديد أقساط البيت. هكذا، بدأ كل شيء مع تلك الفكرة التي طرأت لها، فقد كان ما يزال هناك فرصة للقيام بتوفيرات من خلال أم زوجها، تلك العجوز، التي لم يكن يجري الحديث عنها، غالباً داخل الأسرة، ولا إلى أحد خارجها.

في عمق الحديقة داخل السور كانت العجوز الأم هنروي، حيث تراكمت المكانس القديمة، وأقفاص الدجاج العتيقة، وسائر ظلال العمارات المحيطة بالمنزل. كانت تقيم في كوخ وطيء، لا تخرج منه مطلقاً تقريباً. كان ذلك يخلق قصصاً يطول شرحها، من أجل إدخال الطعام لها.. لم تكن تريد أن تسمح لأحد بالدخول إلى خلوتها، ولا حتى ابنها، كانت تخاف أن يقتلوها، كما كانت تقول.

حينما خطرت للكنة فكرة الشروع بتوفيرات جديدة، لامستها في البداية ببضع كلمات مع زوجها، كي تسبر نواياه، لترى ما إذا كان من الممكن إدخال عجوزته مثلاً إلى دار العجزة التي يشرف عليها أخوات القديس فنسان، أولئك الفتيات المتدينات اللواتي نذرن أنفسهن لرعاية أولئك العجائز البائسات داخل ذلك المأوى، لم يجب الابن لا بنعم ولا بلا. كان ثمة شيء آخر يشغله في تلك اللحظة ألا وهو ذلك الطنين الذي لا يتوقف داخل أذنه، فلفرط ما كان يفكر بهذا الطنين، ولفرط ما كان ينصت إليه، توصل إلى قناعة بأن هذا الطنين الكريه سيحرمه من الرقاد. كان ينصت إليه، في الواقع بدل أن ينام، إلى تلك الصفرات، تلك الطبول، ذلك الهدير، كان ذلك عذاباً جديداً، يقض مضجعه طيلة النهار والليل، كان يسكن في داخله كل ضجيج الكون.

Twitter: @ketab_n

شيئاً فشيئاً، مع ذلك، وبعد شهور مرت على هذا النحو تآكل قلقه، وبدأ يتلاشى مع مرور الأيام. ولم يبق منه ما يشغله ويؤرقه. فالتفت حينئذ إلى سوق سانت أوين هو وزوجته، كان ذلك السوق، بحسب ما يقال، أكثر الأسواق رخصاً وتوفيراً في الجوار. صار الزوجان يذهبان كل صباح، وفي كل الأيام، إلى ذلك السوق يتبادلان الملاحظات حول أسعار المواد وحول التوفيرات التي كان بوسعهما تحقيقها ربما، بشراء هذا بدل ذاك.. وحين تقرع الساعة الحادية عشرة ليلاً، في منزلهما كان الخوف يستولي عليهما من أن يقتلهما أحد. كان ذلك خوفاً معتاداً. ولكن خوفه هو كان أقل من خوف زوجته، فقد كانت تشغله، بالأحرى تلك الضجة في أذنيه والتي كان يعود إلى التعلق بها، بيأس شديد، في تلك الساعة من الليل، حينما كانت تهدأ حركة الشارع ويعم الصمت من حوله. «مع هذه الضجة لن أعرف طعم النوم أبداً». كان يكرر بصوت عال كي يقلق مزيداً من القلق. «ليس بوسعك أن تتخيلي!».

غير أنها لم تكن تحاول قط أن تسمع ما كان يريد قوله، ولا أن تتخيل ما كان يزعجه من ضجيج أذنيه. «أنت تسمعني جيداً، مع ذلك» سألته.

ـ نعم، أجابها هنروي

ـ حسناً، هذا جيد الآن.. ستحسن صنعاً إذن أن تفكر بأمك التي تكلفنا غالياً، فيما تتضاعف تكاليف الحياة كل يوم.. كذلك فإن كوخها غدا بالغ النتانة.

كانت خادمة المنزل تمر بهما ثلاث ساعات في الأسبوع. من أجل الغسيل. تلك هي الزيارة الوحيدة التي كانوا يتلقونها منذ سنوات عديدة. كانت الخادمة تساعد السيدة هنروي في ترتيب سريرها.. ولكي تشجع الخادمة على

Twitter: @ketab_n

أن تردد أمام الجيران ما تسمعه منها، في كل مرة تقلبان فيها معاً، وجوه الفراش، كانت السيدة هنروي من باب التوضيح والحيطة تعلن بأعلى ما يمكنها من نبرة صوتها «ليس لدينا على الإطلاق نقود في المنزل»، من أجل تثبيط عزيمة اللصوص والقتلة المحتملين.

قبل ان يصعدا إلى غرفة نومهما.. معاً، كانا يغلقان بعناية شديدة كافة المداخل، أحدهما يراقب الآخر، ثم يذهبان ليلقيا نظرة على كوخ الحماة، في نهاية الحديقة، كي يريا فيما إذا كان مصباحها ما يزال مضاء، تلك كانت علامة على أنها ما تزال على قيد الحياة. كانت العجوز تستهلك كثيراً من الزيت، فهي لم تكن تطفئ مصباحها أبداً.. كانت تخشى من القتلة أيضاً، وتخشى من ولديها، في الوقت ذاته. منذ عشرين عاماً، عاشتها هنا لم تفتح نوافذها، لا في الشتاء، ولا في الصيف، ولم تطفئ مصباحها على الإطلاق.

كان الابن يحتفظ عنده بنقود أمه، مداخيل ضئيلة، كان يتعهدها كأمانة لديه. كانا يضعان وجبات طعامها أمام بابها، ويحتفظان بنقودها، كانت الأمور تجري على هذا النحو. ولكنها كانت تشكو من تلك الترتيبات المختلفة. ليس فقط من ذلك، بل من كل شيء، ومن خلال بابها كانت تشتم كل من يقترب من كوخها. «ليست غلطتي إن كنتِ قد هرمتِ يا حماتي، كانت الكنة تحاول أن تفاوضها، لديك من الأوجاع مثلما لدى كل الناس المسنين..

ــ أنت الهرمة! أيتها النذلة الصغيرة، أيتها الساقطة، أنت التي ستقضين علي بأكاذيبك القذرة.

كانت الأم هنروي تنكر الشيخوخة بهياج جنوني، وتتصدى عبر بابها، على نحو لا يقبل المصالحة، لكوارث العالم بأجمعه، كانت ترفض الاحتكاك بأحد، وترفض القدر، والخضوع للحياة في الخارج. باعتبار أن كل هذا غش

Twitter: @ketab_n

وتضليل، لم تكن ترغب بأن تسمع أي شيء عن كل ذلك. «إنها خداع وأضاليل» كانت تعوي على هذا النحو. وأنت نفسك التي اختلقتها».

كانت تدافع عن نفسها بضراوة، إزاء كل ما كان يجري خارج كوخها، وإزاء جميع الإغراءات بالاقتراب منها وبمصالحتها أيضاً.. كانت متيقنة بأنها إذا ما فتحت بابها، فإن قوى الشر ستندفع إلى داخل كوخها وتستحوذ عليها، وستكون تلك نهايتها مرة واحدة وإلى الأبد.

«إنهم ما كرون اليوم، كانت تصرخ، لديهم عيون في كل مكان حول رؤوسهم، وحول أشداقهم، حتى فتحة مؤخرتهم، وعيون أخرى في كل مكان أيضاً، كي يكذبوا.. إنهم هكذا..».

كانت تتكلم بغزارة مثلما كانت قد تدربت على الكلام في باريس. في سوق تامبل، حينما كانت تعمل لكسب رزقها مع أمها أيام صباها. لقد جاءت من زمن لم يتعلم فيه الفقراء بعد، أن يولوا أية أهمية للشيخوخة..

«أريد أن أعمل إن لم ترغبي بإعطائي نقودي، كانت تصرخ بكنتها، هل تسمعين ما أقول أيتها النصابة، أريد أن أعمل!

– ولكن لم يعد باستطاعتك ذلك، أيتها الجدة.

– آه، لم أعد أستطيع! جربي إذن أن تدخلي إلى جحري لتري، سأريك إن كنت لم أعد أستطيع!».

وكانا يتركانها مرة أخرى داخل خلوتها التي تحرسها. كانا يريدان مع ذلك، بكل الوسائل أن يجعلاني أرى العجوز. لقد جاؤوا بي من أجل ذلك، من أجل أن تستقبلنا في غرفتها. كانت تلك مكيدة فريدة. ثم إني، وباختصار، لم أكن أتبين بوضوح ما الذي يريدانه مني. كانت حاجبة العمارة، عمة بيبرت هي التي رددت أمامهما مراراً بأنني كنت طبيباً لطيفاً جداً، محبباً جداً، مسايراً

Twitter: @ketab_n

للغاية.. كانا يريدان أن يعرفا، إن كان بمقدوري أن أجعل عجوزتهما تمكث هادئة عن طريق الأدوية فقط، غير أن ما كانا يرغبان به أكثر، في الواقع «وعلى الأخص الكنة» هو أن أعمل على احتجاز العجوز في ملجأ العجزة، احتجازاً نهائياً. حينما قرعنا على بابها مدة نصف ساعة بالكامل، انتهت العجوز إلى أن تفتحه دفعة واحدة. وإذ بها تقف أمامي، بعينيها المحاطتين بمصال وردي، غير ان نظرتها كان تتراقص مرحة مع ذلك فوق وجنتيها المجعدتين والرماديتين، نظرة تستحوذ على اهتمامك، وتجعلك تنسى ما عداها، لفرط ما تعكسه من مرح طلق على الرغم منها، وتسعى إلى أن تستجمع ما في داخلها، بنحو فطري، من شباب.

كانت تلك النظرة المرحة تبعث الحيوية في كل ما حولها، داخل الظل المعتم.. تمده بمرح فتي، ببشاشة خفيفة، ولكنها صافية، بشاشة لم نعد نعهدها فينا منذ أمد بعيد. كان صوتها المتقطع وهي تزعق، يستعيد طروباً الكلمات، حينما ترغب في أن تتكلم مثلما يتكلم الناس، ويجعل الجمل والأمثال. تنط أمامك، وتلعب وتتقافز حية بطريقة مضحكة، مثلما يتفق للناس أن يفعلوا ذلك بصوتهم وبالأشياء التي حولهم حينما لا يعرفون بعد كيف يتدبرون أمرهم في التحدث والغناء بمهارة فيعرفون بين الناس على أنهم حمقى، أو خجولون أو مرضى.

كان العمر يكسوها، على غرار شجرة عجوز مرتعشة، بأغصان راقصة مياسة.

كانت العجوز هنروي جذلة! مستاءة، ووسخة هذا صحيح، ولكنها جذلة.. تلك الفاقة التي كانت تعيش داخلها منذ عشرين عاماً لم تترك أثراً على روحها. كان جزعها على العكس، ينبع من مواجهتها للخارج، كما لو أن

Twitter: @ketab_n

البرد المريع والموت لم يكونا يأتيانها إلا من هناك، وليس من الداخل. من الداخل لم يكن يبدو عليها أي رهبة. كانت تبدو بكل تأكيد واثقة من رأسها، مثل شيء يقيني لا مراء فيه، مرة واحدة وإلى الأبد.

وأنا، الذي كنت أعدو وأعدو خلف رأسي، وحول العالم بأسره أيضاً.

«مجنونة» كانوا يقولون عنها، تلك كلمة تقال سريعاً، «مجنونة». إنها لم تخرج من عزلتها أكثر من ثلاث مرات خلال اثنتي عشرة سنة. هذا كل شيء. ربما كان لديها أسبابها. وهي لن تقولها لنا..

عادت كنتها إلى مشروعها بإيداع العجوز في الملجأ «ألا تصدق يا دكتور بأنها مجنونة؟ لم يعد ثمة وسيلة لإخراجها.. هذا سيفيدها مع ذلك، من وقت إلى آخر.. ولكن بلى أيتها الجدة، فهذا يفيدك.. لا تقولي لا.. فهذا يفيدك.. أنا أؤكد لك» كانت العجوز تهز رأسها، منغلقة على داخلها، عنيدة، متوحشة، في حين أنهم كانوا يدعونها إلى الخروج، هكذا..

«إنها لا تريد أن نهتم بها، إنها تفضل أن تظل في الزوايا المظلمة، البرد شديد عندها، وليس ثمة نار.. ليس من الممكن، أن تظل هكذا! أليس كذلك يا دكتور، هذا ليس ممكناً.

لم أكن أعرف كيف سأتصرف إزاء ذلك، كان هنروي يظل قابعاً بالقرب من الموقد. كان يفضل أن لا يعرف، بالتحديد ما يحاك بين زوجته وأمه وبيني.

كانت العجوز تستشيط غضباً من جديد.

«أعيدي إلي إذن كل ما كنت أملكه، وبعدها سأخرج من هنا!.. لديّ ما يكفل لي العيش.. ولن تعودي تسمعي عني شيئاً، بالمرة.

Twitter: @ketab_n

ـ ما يكفل لك العيش؟ ولكن أيتها الجدة.. لن تعيشي بآلافك الثلاثة من الفرنكات في السنة. تكاليف الحياة تضاعفت منذ آخر مرة خرجت فيها أليس كذلك يا دكتور، سيكون من الأفضل بان تذهب إلى ملجأ الأخوات مثلما نقول لها، وستهتم بها الأخوات على أحسن وجه. إنهن لطيفات.. الأخوات..».

ولكن احتمال ذهابها إلى ملجأ الأخوات كان يسبب لها الهلع.

«إلى ملجأ الأخوات؟ إلى ملجأ الأخوات؟ عارضت العجوز على الفور. لن تطأ قدمي يوماً من الأيام ملجأ الأخوات، لن أذهب إلى الخوري حينما تكونين أنت هناك. هه؟ إذا لم يكن لدي ما يكفي من المال كما تقولين. إيه حسناً، سأذهب للعمل أيضاً».

ـ تعملين؟ أيتها الجدة! ولكن أين تعملين؟ آه! دكتور! اسمع هذه الفكرة، تريد أن تعمل!!. في سنها، في الثمانين، عما قريب، هذا جنون، دكتور! من الذي ينتظر منها ذلك؟ ولكن ايتها الجدة أنت مجنونة.

ـ مجنونة! ما من شخص مجنون! في أي مكان سواك، أنت المجنونة بالتأكيد! أيتها الخرية.

ـ اسمعها الآن يا دكتور. اسمعها وهي تهذي وتشتمني! كيف تريد منا أن نبقيها هنا؟

وجهت العجوز حينئذ سهام غضبها نحوي، أنا، الخطر الجديد الذي يتهددها.

ـ ما الذي يعرفه هذا إن كنت مجنونة؟ هل هو داخل رأسي؟ أم أنه عرف ذلك من داخل رأسك؟ ينبغي أن يكون هناك حتى يعرف. أغربا عن وجهي كلاكما! انصرفا من أمامي! أنتما أشد خبثاً، من الشتاء بشهوره الستة،

Twitter: @ketab_n

اذهبا إذن لتريا ولدي بدلاً من أن تبقيا هنا تنفثان السموم! إنه في حاجة إلى طبيب أكثر مما أحتاج أنا، ذلك الذي لم يعد لديه أسنان، والذي كانت له أسنان جميلة جداً حينما كنت أعتني به، انصرفا، انصرفا، أقول لكما! أغربا عن وجهي كلاكما. وصفقت الباب في وجهينا.

كانت ما تزال تراقبنا من خلف مصباحها ونحن نبتعد عبر الفناء. وحينما اجتزناه، وصرنا بعيدين بما يكفي عادت إلى مرحها وضحكها، لقد دافعت عن نفسها بحمية.

لدى عودتنا من هذه الغارة المزعجة، كان هنروي ما يزال جالساً بالقرب من الموقد مديراً لنا ظهره، وواصلت زوجته، مع ذلك، مضايقتي بالأسئلة وفي الموضوع ذاته أيضاً، كان لتلك الكنة رأس صغير، مصفر، وماكر. نادراً ما كان مرفقاها ينفصلان عن جسدها حينما تتكلم، فهي لم تكن تومئ قط أثناء كلامها، كانت حريصة، مع ذلك، على أن لا تذهب هذه الزيارة الطبية سدى أبداً، وأن تتمكن من الاستفادة منها في أي شيء.. فتكاليف الحياة تتزايد، ونفقة حماتها لم تعد تكفي. هما أيضاً كانا يشيخان، على أي حال.. لم يعد بمقدورهما أن يظلا، كما كانا سابقاً قلقين دوماً من أن تموت العجوز منسية، دون عناية.. أن تشعل النار مثلاً في براغيثها وأقذارها.. بدلاً من أن تذهب إلى ملجأ مناسب تلقى فيه العناية اللائقة.

لما أن بدوت مؤيداً لرأيهما، أصبح كلاهما أكثر لطفاً ومودة، ووعداني بأن يثنيا علي في الحي أطيب الثناء.. إذا ما وافقت على مساعدتهما، والعطف عليهما.. وتخليصهما من العجوز.. الشقية جداً، أيضاً في تلك الظروف التي تصر على البقاء فيها..

Twitter: @ketab_n

«ويمكننا كذلك تأجير جناحها» اقترح الزوج فجأة، بعد أن صحا من غفوته.. كانت تلك هي الغلطة التي اقترفها، حين تحدث عن ذلك أمامي. فما كان من زوجته إلا أن هرست قدمه تحت الطاولة، ولم يفهم هو لماذا.

بينما كانا يتشاجران، كنت أتخيل ورقة الألف فرنك التي سيمكنني الحصول عليها لقاء كتابتي شهادة الاحتجاز المطلوبة فقط، كانا يبدوان حريصين على تلك الشهادة حرصاً شديداً.. عمة بيبرت كانت من دون شك قد طمأنتهما من جانبي وحدثتهما بأنه ليس ثمة طبيب في سائر أنحاء رانسي أشد بؤساً ورثاثة مني، وأنني سأفعل كل ما يشتهون.. ليس فروليشون من يعرض عليه مثل هذا العمل. فقد كان هذا إنساناً فاضلاً!..

كنت أقلّب هذه الأفكار، حينما اقتحمت العجوز علينا فجأة، الغرفة التي كنا نتآمر فيها. يبدو أنها كانت تشتبه بذلك، يا لها من مفاجأة، كانت قد جمعت مزق تنورتها أمام بطنها، وانهالت علينا بالسباب والشتائم دفعة واحدة مشمرة عن ساقيها، وعلي أنا بصورة خاصة. جاءت من أجل ذلك من عمق فنائها.

«أيها النصاب. توجهت إلي بالشتيمة مباشرة، يمكنك أن تذهب، انصرف من هنا، قلت لك، لا فائدة من بقائك!.. لن أذهب إلى مأوى المجانين!.. ولا إلى مأوى الأخوات أيضاً.. لقد قلت لك ذلك! أنت تحاول عبثاً وتكذب عبثاً. لن تنال مني! أيها المرتشي الصغير!.. هما من سيذهبان قبلي، النذلان، سارقا المرأة العجوز، وأنت أيضاً أيها الحقير. ستذهب إلى السجن، أقول لك، وفي أقرب وقت أيضاً.

من المؤكد، أنني لست محظوظاً! ولو لمرة واحدة، كنت على وشك أن أكسب ألف فرنك دفعة واحدة! وانسحبت على عجل.

Twitter: @ketab_n

في الشارع كانت العجوز ما تزال منحنية فوق أعمدة السور. لا لشيء، إلا لتشتمني من بعد، في قلب الظلمة التي لذت فيها: «وغد!.. حقير» كانت تعوي، وكان صوتها يرن في إثري. أية أمطار كانت تنهمر في تلك اللحظة! كنت أخب من مصباح إلى مصباح، حتى وصلت إلى مبولة ساحة الأعياد، ملجئي الأول.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> في كوخ صغير جداً لا يرتفع كثيراً عن الأرض، وجدت بيبرت. كان قد لجأ إلى داخله ليحتمي من المطر هو أيضاً. كان قد رآني وأنا خارج من بيت هنروي «أنت قادم من عندهم؟ سألني بيبرت. عليك الآن أن تصعد إلى الناس الذين في الطابق الخامس من العمارة التي نسكنها، من أجل ابنتهم..» تلك الزبونة التي تحدث عنها، كنت أعرفها جيداً، بحوضها الواسع.. وفخذيها الطويلين والمخمليين.. كانت رقتها العفوية ودقة حركاتها البالغة الرشاقة هما اللتان تكملان النساء المتناغمات جنسياً. كانت قد جاءت لاستشارتي مرات عديدة، حينما كان الألم ينشب مخالبه في أحشائها، كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وهي تتوجع الآن بعد إجهاضها الثالث من المضاعفات التي خلّفها ذلك الإجهاض، أما عائلتها فكانت تسمي ذلك بالأنيميا.

كان ينبغي رؤيتها، حينما كانت قوية متينة البنيان، بميلها الجارف إلى المضاجعة، والذي لا تملكه إلا القليلات من الإناث. رصينة في حياتها، متعقلة في مظهرها وتعبيرها، بريئة من أي هستيريا. ولكنها موهوبة جداً، مغذاة أفضل تغذية، متزنة للغاية. بطلة في نوعها، باختصار. مصارعة حسناء في سبيل المتعة، دون أي شائبة تشوبها. لا شيء سوى أن الرجال المتزوجين كانوا يعاشرونها، والرجال الخبيرين فقط. الرجال الذين يعرفون كيف يقدّرون ويتذوقون النجاحات الطبيعية الباهرة ولا ينظرون إلى أية فاسقة صغيرة على أنها مكسب كبير. جلدها الكامد وبسمتها المتهللة، ومشيتها الأنيقة، واتساع عجيزتيها المهتزتين بجزالة أكسبها هذا الولع العميق الذي تستحقه من قبل بعض مدراء المكاتب الذين كانوا يعرفون مزاياها حق المعرفة.

Twitter: @ketab_n

غير أن مدراء المكتب بالتأكيد لم يكن بوسعهم أن يطلقوا زوجاتهم من أجلها، على العكس، فقد كان ذلك سبباً كي يظلوا هانئين داخل أسرهم، وهكذا، وفي كل مرة كان حملها يبلغ شهره الثالث، ولم يكن ذلك يخطئ أبداً، كانت تذهب لرؤية القابلة.

حينما كان يشتد شبقها ولا تجد زوجاً من أولئك الأزواج تحت يدها فإنها كانت تكف عن المجون.

شقت لي والدتها الباب باحتراس من يتوقع الاغتيال. كانت الأم تتحدث همساً ولكن بقوة وحدّة بالغتين بحيث كان ذلك أسوأ من اللعنات.

«ما الذي فعلته مع السماء يا دكتور، حتى يكون لي مثل هذه البنت، آه! أنت على الأقل، لن تقول شيئاً لأي شخص في حينا، يا دكتور! أنا أثق بك!». لم تكن تكف عن تهييج هلعها، وعن التلمظ بما سيمكن أن يفكر به الجيران والجارات. لقد استبد بها قلق أبله، جعلها تنتفض بقوة، واستمر حالها على هذا المنوال وقتاً طويلاً.

تركتني لحظة أتآلف مع غبش الرواق، مع رائحة الكراث من أجل الحساء، مع ورق الجدران، ومع تشجيراته الخرقاء، مع صوتها المخنوق. وأخيراً وصلت إلى سرير الفتاة ترافقني غمغماتها المخنوقة. كانت المريضة منهكة خائرة مشرفة على الهلاك. كنت أريد أن أفحصها، ولكنها كانت قد فقدت دمها كلياً. كان ذلك أشبه بعصيدة مهروسة، بحيث لم يكن بالوسع إطلاقاً رؤية مهبلها، بسبب الدم المتخثر.. كان الدم يصدر «بقبقة» بين ساقيها، على غرار عنق الكولونيل المقطوع أثناء الحرب، أعدت كتلة القطن إلى مكانها، ثم رفعت اللحاف فوقها ببساطة.

لم تكن الأم تنظر إلى شيء ولا تسمع أي شيء سوى نفسها «سأموت بسببها، يا دكتور! كانت تولول، سأموت بسببها من العار!» لم أحاول قط

Twitter: @ketab_n

ثنيها عما هي فيه.. لم أكن أعرف ماذا أفعل.. كنت ألمح الأب في غرفة الطعام الصغيرة المجاورة يروح ويجيء طولاً وعرضاً، لم يكن مهيأ بعد لاتخاذ موقف لمواجهة الظرف. كان ينتظر ربما، أن تتضح الأمور قبل أن يختار هيئة فيظهر فيها.. ظل في نوع من الغموض. تمضي الكائنات الإنسانية من كوميديا إلى أخرى. في غضون ذلك لا تكون المسرحية مخرجة. إنهم لا يتبينون بعد حدودها، فإذا كان دورهم رئيسياً، يهزون أذرعهم، ويطلقون غرائزهم من عقالها، مفعمة بالتشوش.

أخذت الأم الدور الرئيسي بيني وبين ابنتها، كان من الممكن أن ينهار المسرح، لم تعبأ بذلك، لقد وجدت نفسها على المسرح كلياً، حقاً وفعلاً.

لم يعد ممكناً سوى الاعتماد على نفسي كي أضع حداً لهذا السحر الملوث بالخراء.

جازفت بنصيحة عابرة بضرورة نقلها فوراً إلى المستشفى لإجراء عملية سريعة لها.

آه! ويحي! لقد قدمت لها حجتها الأقوى، تلك التي كانت تنتظرها.

«أي عار! المستشفى: أي عار سينالنا! يا دكتور! لم يكن ينقصنا سوى ذلك. إنه طفاح الكيل!.

لم يعد لدي ما أقوله، جلست إذن، ورحت أصغي إلى الأم وهي ما تزال تتخبط بصخب، غارقة في هذياناتها المأساوية. خزي بلا حدود، غم بلا حدود يوديان بك إلى العجز المطلق. العالم أثقل من أن تتحمله، يا لتعسك! وفيما هي تتضرع وتسترحم السماء والجحيم، وترعد بالويل والثبور. كنت أنكس رأسي خجلاً مرتبكاً. وبينما أنا على هذا الحال، عاجز عن فعل أي شيء، رأيت تحت سرير الفتاة بركة صغيرة من الدماء تتشكل، تسيل منها

Twitter: @ketab_n

ببطء، ساقية رقيقة على امتداد الجدار، صوب الباب. كان الدم يسيل نقطة نقطة من عارضة السرير، على نحو منتظم، تيك تيك، كانت المناشف بين ساقيها تطفح بحمرة الدم. سألت مع ذلك بصوت خجول، إذا ما كانت المشيمة قد تم إخراجها كلياً، يدا الفتاة اللتان علا أطرافهما الشحوب والزرقة كانت تمـتدان هامدتين على جانبي السرير، كانت الأم أيضاً هي التي أجابت على سؤالي بسيل من النواح المقزز. ولكن أن أستجيب لنواحها، كان ذلك على كل حال أكثر بكثير من أن أغامر به.

كنت موسوساً إلى أبعد حد، أنا نفسي، ومنذ زمن طويل، بأنني منحوس نكد الطالع. كان نومي سيئاً جداً، لم أعد أكترث إطلاقاً إزاء هذا الانحراف في سير الأحداث أن تكون النتيجة على هذا النحو أو ذاك. كنت أفكر فقط بأن من الأفضل لي أن أنصت إلى هذه الأم المولولة، جالساً أو واقفاً، ما من شيء مهما بلغت أهميته، يبهجك حينما تغدو مستسلماً تماماً. ثم أيـة قوة، لن أكون بحاجة إليها، كانت ستوقف هذه الأم المستشرسة في اللحظة التي «لم تعد تعرف فيها كيف تنقذ شرف عائلتها» أي دور! ذاك الذي كانت تؤديه، مرة أخرى! فبعد كل إجهاض لابنتها كـنت أتعرض من جديد للتجربة. كانت تؤدي الدور على النحو ذاته، متدربة بالطبع على القيام به، بصـورة أفضل في كل مرة، كان ذلك يستمر بقدر ما تشاء، وهي، اليوم، تبدو لي مستعدة لأن تضاعف تأثيره عشرة أضعاف.

هي أيضاً، الأم، كنـت أفكر، وأنا أنظر إليها، كانت بالتأكيد كائناً جميلاً، مكتنزة باللحم، في زمانها، ولكنها كانت أكثر شفاهية مع ذلك، مبددة طاقتها بالكلام، وأكثر طلاقة وانفتاحاً من ابنتها التي كـانت حميميتها المركزة بالفطرة تحقق لها النجاح، على نحو يثير الإعجاب. والحق أن هذه

Twitter: @ketab_n

الأمور لم تدرس بعد بما تستحقه من الاهتمام، كانت الأم تستشعر هذا التفوق الحيواني لدى ابنتها، وبشـــعور من الغيرة كانت تستنكره غريزياً، بطريقتها في خداع ذاتها، في أعماقها الغائرة، وفي الاستمتاع مثل امرأة عفيفة.

كان الجانب التمثيلي من الفاجعة يثير حماسها، كانت قد استأثرت من خلال ترجيفات صوتها الوجيع، بعالمنا الصغير الضيق الذي كنا نتعثر داخله جميعاً. لم يكن ممكناً إبعادها أيضاً، كان علي مع ذلك أن أحاول، لابد من عمل شيء ما، كان ذلك واجبي كما يقال، ولكنني كنت جالساً أكثر مما ينبغي، واقفاً أقل مما ينبغي.

كان بيتهم مبهجاً إلى حد ما أكثر من بيت آل هنروي، أشد قبحاً منه، ولكنه أبعث على الراحة، كان الجو لطيفاً داخله، وليس كئيباً مثلما هناك، كان قبيحاً فقط، بهدوء وسكينة.

أخذ مني التعب كل مأخذ، فتاهت نظراتي فوق محتويات الغرفة، أشياء صغيرة دونما قيمة كانوا يمتلكونها داخل العائلة، وعلى الأخص واجهة الموقد ذات الجلاجل الوردية من المخمل، والذي لم يعد يعثر عليه في المتاجر، وتلك المرآة النابولية المبرغلة الحواف، وطاولة للعمل ذات مرآة مائلة. لم أنبّه الأم قط إلى بركة الدماء التي كنت أراها تتشكل تحت السرير، ولا إلى قطرات الدم التي كانت تسقط دوماً بانتظام، لأنها كانت ستصرخ ربما بصوت أعلى أيضاً، ولن تصغي إلي أكثر، لم تكن تتوقف عن شكواها وعن سخطها، كانت موهوبة.

كنت صامتاً، أنظر خارجاً، عبر النافذة. كان مخمل المساء الرمادي يستولي على الجادة المقابلة، وعلى بيوتها، بيتاً بيتاً، الصغيرة منها في البداية ثم البيوت الأخرى، ثم يغمر المنازل الكبيرة أخيراً، وبعد ذلك الأشخاص

Twitter: @ketab_n

الذين كانوا يتحركون بين البيوت، بوهن أكثر فأكثر، مبهمين، مرتبكين مترددين من رصيف إلى آخر. قبل أن يذهبوا ليغطسوا في غياهب الظلمة.

بعيداً جداً، أبعد من التحصينات، ثمة خيوط وصفوف من المصابيح الضعيفة النور منثورة فوق مساحة الظلال الفسيحة كأنها المسامير، تنشر النسيان فوق المدينة، وأضواء صغيرة أخرى تتلألأ مخضرة، وترف بأشعة حمر. مراكب ومراكب على الدوام، أسطول جرار قادم من كل مــكان، يهتز فوق المياه، حين كانت تنفتح من خلف البرج أبواب الليل العظيمة.

لو أن هذه الأم كانــت قد تركت وقتاً قليلاً لتتنفس، ولحظة طويلة أيضاً من الصمت، لكنت استطعت، على الأقل، أن أستسلم للتخلي عن كل شيء، ولمحاولة نسيان ضرورة أن أعيش، ولكنها ما انفكت تلاحقني.

«لو أنني أقوم بغســلها، دكتور، ما رأيك في ذلك» لم أجب لا بنعم ولا بلا، ولكني نصحت مرة أخرى، ما دام الكلام كان لي بإرسالها فوراً إلى المستشفى، وكان الجواب، عواءات أخرى أيضاً أكثر حدة، وأشد تصميماً، وأقوى صريراً، لا شيء أفعله.

توجهت ببطء نحو الباب، بكل هدوء

كان الظل يفصلنا الآن عن السرير

لم أعد أتبين تقريباً يدي الفتاة الممددتين فوق الغطاء، بعد أن تحول لونهما الشاحب إلى ما يشبه لون الغطاء.

عدت لأجس نبضها، كان أشــد خفوتاً، وأكثر خفاء منه قبل قليل. كانت الفتاة تتنفس بصعوبة شديدة. كنت أسمع باستمرار صوت قطرات الدم وهي تسقط فوق ارض الغرفة مثل دقات صغيرة صادرة عن ساعة. أكثر فأكثر بطئاً، أكــثر فأكثر وهناً، ما من شيء يمكن فعله. سبقتني الأم نحو

Twitter: @ketab_n

الباب. «على الأخص، يا دكتور، أوصتني، وهي ترتعد، هل تعدني بأنك لن تقول أي شيء لأحد؟». كانت تتوسل إلي، «هل تقسم لي؟»

وعدتها بكل ما تشاء، مددت يدي، كان ذلك عشرون فرنكاً، وأغلقت الباب خلفي، بهدوء.

في الأسفل كانت عمة بيبرت تنتظرني برأسها المترصد لما يجري «لم تسر الأمور سيراً حسناً إذن؟» كانت تستعلم، فهمت بأنها كانت تنتظرني هناك، في الأسفل، منذ نصف ساعة كي تقبض عمولة الانتفاع، فرنكين اثنين، ولم أفلت منها. «وعند هنروي إذن، هل سارت الأمور؟» أرادت أن تعرف. كانت تأمل في أن تقبض عمولة عن هؤلاء أيضاً. «لم يدفعوا لي»، أجبتها. كان ذلك صحيحاً، فانقلبت البسمة الجاهزة للعمة إلى برطمة. كانت مرتابة بي.

«ألست تعيساً مع ذلك، يا دكتور، لأنك لا تعرف كيف تحصل على أجرك! كيف تريد من الناس أن يحترموك. إما أن يدفعوا لك ثمن أتعابك نقداً، في وقته، أو لن يدفعوه لك أبداً».

كان هذا صحيحا أيضاً، وانسللت من أمامها، كنت قد طهوت فاصوليائي قبل أن أخرج. كانت تلك هي اللحظة المناسبة، بعد أن خيم الليل، كي أذهب لشراء حليبي، فقد كان الناس في النهار يبتسمون حين يلتقون بي حاملاً زجاجة الحليب. بالضرورة، إذ لم يكن لدي خادمة.

ومن ثم فقد أبطأ الشتاء في الرحيل، أطال إقامته شهوراً وأسابيع أيضاً.. ولم نعد نخلص من ضبابه وأمطاره في النهاية.

لم يكن ينقصني المرضى، غير أن الكثير منهم لا يقدرون أو لايرغبون في الدفع. الطب، إنه مهنة عاقة. فحين يأخذ الطبيب ثمن أتعابه من الأغنياء يبدو مثل خادم، وحين يأخذه من الفقراء يبدو مثل لص. «أجور أتعاب؟» إنها

Twitter: @ketab_n

ليست أكثر من كلمة.. فهؤلاء المرضى لا يملكون ما يكفي للطعام والذهاب إلى السينما، فهل ينبغي أيضاً أن نأخذ منهم المال كي نسمي ذلك «أجور أتعاب»؟ ولا سيما في اللحظة التي يقلبون فيها عيونهم ويسقطون مغشياً عليهم، ليس هذا مناسباً. ليس أمامك إلا أن تتركهم يذهبون، وأن تغدو لطيفاً، وأن تنسل بسرعة.

في شهر كانون الثاني بعت، في البداية، طاولة السفرة، كي أخلي مكانها، كما أعلنت ذلك في الحي، وأحوّل صالة الطعام إلى قاعة للتدريبات الرياضية. منذا الذي صدقني؟ وفي شهر شباط، ومن أجل أن أصفّي ما علي من أقساط وديون بعت أيضاً دراجتي وجهاز الحاكي الذي أهدتني إياه موللي حينما ودعتها، كان يصدح بأغنية «لا وقت للقلق». لحنها ما يزال يرن في أذني. كل ما بقي لدي، أسطواناتي، ظلت زمناً طويلاً لدى بيزين في حانوته ثم باعها. مع ذلك.

لكي أتظاهر أيضاً بأنني أكثر غنى تحدثت في الحي بأنني كنت سأشتري سيارة، وأنني جمعت من أجل ذلك بعض المال مقدماً، كانت الجرأة هي التي تنقصني في الواقع، كي أمارس الطب على نحو جاد، فحينما كانوا يرافقونني إلى الباب، بعد أن أكون قد قدمت نصائحي للعائلة وأعطيتهم وصفة الدواء، كنت أخوض في ركام من التعليقات، لا لشيء إلا لكي أتملص في تلك اللحظة من دفع أتعابي بضع دقائق أخرى. لم أكن أقوى على أن آخذ منهم الأجر سلفاً. كان أغلب زبائني معدمين جداً، متعفنين للغاية، تشي نظراتهم أيضاً بالوعيد والتهديد. بحيث كنت أسأل نفسي دائماً، من أين كانوا سيجدون العشرين فرنكاً التي كان عليهم أن يدفعوها لي، أو إذا ما كانوا

Twitter: @ketab_n

سيقتلوني، بالمقابل. كنت مع ذلك في أمـــس الحاجة إلى العشرين فرنكاً. أي عار! لن أنتهي قط من الاحمرار خجلاً من ذلك.

«أتعاب!..» هكذا كان زملائي مصرين على تسميه هذا العار، غير متقززين، كما لو كانت هذه الكلمة ستجعل منه شيئاً ذا قيمة.. وأنهم بحاجة إلى تفسيره.. عار وأي عار! لقد كان بوسعي أن أتجرأ على قول ذلك لنفسي. وليس ثمة سبيل للخلاص منه.

إنهم يفسرون كل شيء. أعرف ذلك جيداً، ولكن هذا لا يمنع من أن ذلك الطبيب الذي يتلقى المئة قرش من الفقير ومن غيره هو شخص مقزز دوماً. وأنا على يقين بأنني منذ ذلك الزمن غدوت مقززاً أيضاً، مثل أي طبيب آخر. ليس لأنني مارست التهتك أو المجون بقروشهم المئة، وفرنكاتهم العشرة، لا. ما دام مالك بيتي كان يعتبرني عفيفاً شريفاً. وأنا لا أقدم كلامه مع ذلك على أنه حجة على ما أقول، أتمنى فعلاً أن يكون حجة، ولكنه ليس كذلك. فالمالك أقذر من الخراء. وهذا كل ما في الأمر.

لفرط ما نالني من القلق والاضطراب، وما انهمرت فوقي من أمطار الفصل المحملة بالصقيع غدوت، بدوري أشبه بنوع من مسلول بنحو قدري لاراد له. حدث ذلك حينما كان علي أن أقلع عن كل متع الحياة تقريباً. كنت أشتري، من وقت إلى آخر بيضات من هنا وهناك، ولكن حميتي الأساسية كانت في المحصلة مقتصرة على الخضار المجففة، كانت تستغرق وقتاً طويلاً في الطبخ، كنت أمضي الوقت في مراقبتها وهي تغلي ساعات داخل المطبخ، بعد أن أفرغ من المعاينة، وبما أنني كنت أسكن في الطابق الأول، فقد كنت أطل من مطبخي على بانوراما عجيبة في الفناء الخلفي للبناء. والفناءات الخلفيـــة هي زنازين البيوت المبنية على نحو متسلسل. لقد كان لدي الكثير

Twitter: @ketab_n

من الوقت كي أتفرج على فنائي الخلفي، وعلى الأخص أن أسمع ما يدور فيه.

ها هنا تسقط، تفرقع، ترتد الصيحات، والنداءات من عشرين منزلاً تحيط بالفناء، وحتى أصوات العصافير الصغيرة اليائسة لحاجبات العمارات وهي تتعفن بعد أن رحل الربيع الذي لن تراه مرة أخرى قط داخل أقفاصها، بالقرب من المراحيض. التي كانت كلها مجمعة هناك في عمق الظل، بأبوابها المخلعة، والمتمايلة على الدوام. مئة سكير ذكر وأنثى يكتظون داخل تلك الأكواخ ويترعونها بصدى خصوماتهم المتبجحة، وأيمانهم الكاذبة والزاخرة بعد إفطار أيام السبت على الأخص.تلك هي البرهة المكثفة في حياة العائلات، بالأفواه يتحدّون بعضهم، وبالأقداح المترعة حتى الجمام. البابا يشهر الكرسي مثل فأس، ليتك تراه، والماما تُشهر جمرة النار مثل سيف. فليحذر الضعاف إذن! الصغير هو من يتلقى الضربات، والصفعات تسطّح على الجدار كل من لا يملك الدفاع عن نفسه ولايستطيع ردّ الضربات: أولاد، كلاب، قطط. بعد قدح الخمر الثالث، تستيقظ السويداء، الأشد سوءاً. الكلب هو الذي يبدأ بالتوجع، لقد سحقت رجله بدعسة عقب ثقيلة، ذلك سيعلمه الجوع في الوقت ذاته مع البشر، منظره يثير الضحك وهو يختفي مصأصئاً تحت السرير، مثل جريح مبقور البطن، تلكم هي الإشارة! لا شيء يثير النساء الثملات مثلما يثيرهن ألم الحيوانات، ليس ثمة ثيران دائماً تحت اليد، تحتدم المجادلة من جديد بسبب ذلك، حقودة قهرية، أشبه بهذيان، الزوجة هي التي تثيرها، مطلقة تجاه الذكر دعوات حاسمة للنزال، ثم يبدأ العراك، الأشياء المحطمة تتقطع إرباً، فيلتقط الفناء التقصف والقرقعة، ويدوّم الصدى حول الظلال، الأولاد يعوون وسط الرعب، ويكتشفون كل ما في داخل البابا والماما! يجتذبون إليهم الصاعقة وهم يصرخون.

Twitter: @ketab_n

كنت أمضي أياماً وأياماً أنتظر أن يحدث ما يحدث، من وقت إلى آخر في نهاية الجلسات العائلية.

في الطابق الثالث، أمام نافذتي كانت المعركة تجري، في المنزل الواقع في الجهة المقابلة.

لم أكن أستطيع رؤية أي شيء، ولكنني كنت أسمع بوضوح.

ثمة نهاية لكل شيء، لم تكن دائماً الموت. كانت في الغالب شيئاً ما آخر، ليس أقل سوءاً، لا سيما مع الأولاد.

كان هؤلاء المستأجرون يظلون على هذا المنوال إلى أن تشحب الظلال على ارتفاع الفناء. وحين يكون الأب والأم وحدهما، في النهار حين تحدث المشاحنات، يتجادلان في البداية، وقتاً طويلاً ثم يسود صمت مديد. كان النزاع يتخمر. كانا في البداية، يفرغان سخطهما بابنتهما الصغيرة، كانا يناديانها، فتعرف هي حقيقة ما يدور، كانت تبكي على الفور، لأنها تعرف ما الذي كان ينتظرها. وبحسب صوتها، لم يكن عمرها يزيد عن العاشرة بالتأكيد، وقد توصلت بعد العديد من المرات إلى فهم ما كانا يفعلانه بها كلاهما.

كانا يقيدانها في البداية، ويلبثان في تقييدها زمناً، كما لو أنهما يجهزانها لعملية جراحية.. كان ذلك يهيجهما. «الجيفة الصغيرة» يصيحان بها. «آه! أيتها القحبة الصغيرة!» تقول أمها. «سنؤدبك أيتها البغي» كان يصرخان بها سوياً، وأشياء وأشياء كانا ينهالان بها عليها في الوقت ذاته، أشياء كانا يتخيلانها، دون ريب، كان عليهما أن يقيداها بقوائم السرير، والطفلة في أثناء ذلك تئن وتجوح مثل فأرة عالقة في المصيدة. «عبثاً ما تقومين به أيتها المتوحشة الصغيرة فلن تفلتي، هيا! لن تفلتي!». كانت الأم تتابع برشقة كثيفة

Twitter: @ketab_n

من الشتائم، كأنها تشتم حصاناً! فتهتاج الصغيرة «اسكتي يا ماما. كانت ترد بهدوء، اسكتي يا ماما! اضربيني يا ماما، ولكن اسكتي يا ماما» لم تكن تكف عن التوسل، وهي تتلقى ضربـــات متتابعة، كنت أصغي حتى النهاية كي أتيقن تماماً بأنني لم أكن مخطئاً في فهم ما يجري، وأن ذلك هو ما كان يحدث بالفعل، لم يعد بوسعي تناول فاصوليائي، طالما كان ذلك يدور، لم يكن باستطـــاعتي كذلك إغلاق النافذة، لم أكن صالحاً لشيء، لم أكن أستطيع فعل أي شيء، كنت أصغي فقط مثلـــما كنت في كل زمان.. وفي كل مكان، ومع ذلك كنت أعتقد بأن لدي مزيداً من القوى للإصغاء إلى تـــلك الأشياء، للذهاب أبعد وأبعد، قوى عجيبة، تمكنني من الغوص أعمق في المرة القادمة، والاستماع إلى أنات وشكاوى أخرى، لم أكن قد فهمتها بعد، أو أنني فهمتها خطأً في الســـابق. لأن هناك كما يبدو ما يزال ثمة في أعماق الآخرين شكاوى أيضاً. لم نسمعها بعد، ولم نفهمها!.

حينما كانا يضربان ابنتهما كل هذا الضرب، حتى لا يعود بمقدورها أن تعوي، كانت تطلق صرخات صغيرة أيضاً، رغم ذلك، مع كل شهقة نفس من أنفاسها.

كنت أسمع الرجل يقول حينئذ «تعالي أنت! أيتها الكبيرة. بسرعة.. تعالي إلى هنا». وقد اجتاحه فيض من الحبور.

على هذا النحو، كان يكلّم الأم، ثم يصفقان باباً مجاوراً خلفهما، وذات يوم، كانت هي التي قالت له، فقد سمعتها: «آه، أحبك يا جوليان، إلى حد أنني سألعق فضلاتك، وحتى لو كانت فضلات كبيرة هكذا !..

على هذا النحو كانا يتضاجعان، كما أوضحت لي حاجبة عمارتهما، كان هذا يجري في المطبخ، أمام مغسلة الأطباق، وخلاف ذلك، لم يكونا يتضاجعان أبداً.

Twitter: @ketab_n

أحطت بكل هذه الأمور عنهم من الشارع، شيئاً فشيئاً. وحينما كنت ألتقي بهم. ثلاثتهم معاً، لم يكن ثمة ما ألاحظه عليهم. كانوا يتنزهون مثل أية عائلة حقيقية، كنت ألمح الأب حينما أمر أمام واجهة مخزنه، في زاوية شارع بوانكاريه، في سوق «باعة الأحذية الطبية» كان الأب، هو البائع الأول هناك.

لم يكن فناؤنا يقدم في غالبية الأوقات سوى قباحات لا رونق لها، ولا سيما، في الصيف، تهديدات مزمجرة، أصداء، ضربات، أشياء ساقطة، وشتائم غير واضحة، لم تكن الشمس تصل قط إلى قاعة. كان أشبه ببقعة من الظلال الزرقاء، الكثيفة للغاية، وعلى الأخص في زواياه، كان لحاجبات العمارات فيه مراحيض صغيرة أشبه بقفائر النحل، وفي الليل حينما كن يذهبن للتبول، كن يتعثرن بعلب القمامة. فينجم عن ذلك جلبة مدوية كالرعد داخل الفناء.

بعد العشاء، وفي الأمسيات التي لا تحتدم فيها العراكات العنيفة، كانت سباقات الخيول هي الموضوع الذي تحمى حوله النقاشات. ولكن هذه المجادلات الرياضية كانت تنتهي، هي أيضاً، في الغالب، نهايات سيئة، بوابل من اللطمات. وخلف نافذة واحدة على الأقل كانت تختتم دائماً بالعراك وتبادل الضربات.

في الصيف أيضاً كان الفناء يعبق بروائح قوية، لم يكن ثمة نسمة هواء، لا شيء سوى الروائح، كانت رائحة الكرنب هي التي تتفوق، وبسهولة، على الروائح الأخرى، كرنبة واحدة تعادل عشرة مراحيض، حتى لو فاضت أقذارها. لا جدال في ذلك، كانت رائحة الكرنب تنبعث بقوة من بيت أولئك الذين يسكنون في الطابق الثاني غالباً.

حاجبة العمارة ٨، الأم سيزان. كانت تصل حينئذ، ومعها قضبان الأسل، لتفتح بها المجاري المسدودة. كنت ألاحظها وهي تكد في عملها، كنا

Twitter: @ketab_n

نتبادل الحديث حينما نلتقي. وقد وجهت إلي ذات مرة نصيحة: «لو كنت مكانك يا دكتور لتركت بهدوء النساء الحوامل.. ثمة في هذا الحي نساء يستسلمن للملذات.. لن تتخيل ذلك! لن يطلبن منك أكثر من ان تفحصهن بين وقت وآخر. أقول لك! أليس هذا أفضل من معالجة الدوالي في سيقان الموظفات الصغيرات؟ فهو يضمن لك على الأخص الدفع نقداً..».

كان لدى الأم سيزال استخفافاً أرستقراطياً، لا أدري من أين جاءها، بكل الناس الذين يعملون.

«لن ترى هؤلاء المستأجرين مسرورين في يوم من الأيام، حتى ليخيل إليك بأنهم سجناء.. إنهم خليقون بأن يزعجوا العالم بأسره. مراحيضهم هي التي تنسد وتفيض.. وفي يوم آخر فإن الغاز هو الذي يتسرب.. أما رسائلهم التي يبعثونها لنا.. فهي حافلة بالمماحكات والانتقادات دون وجه حق.. مضجرة دوماً. حتى أن واحداً منهم بصق لي داخل مغلفه. هل تتخيل ذلك؟..»

كانت الأم سيزان ترفض غالباً فتح المراحيض المسدودة لفرط ما كان ذلك صعباً. «لا أعلم ما الذي يضعونه داخلها. ولكن ينبغي في البداية أن لاتجف!. هذا ما أعرفه.. إنهم يخبرونك دائماً بعد فوات الأوان.. هم يفعـلون ذلك عن قـصد.. حيث كنت أعمل سابقاً. كان ينبغي تذويب الأنبوب لفرط صلابة ما كان يحتويه من أقذار لا أدري ما الذي يمكنهم أن يأكلوه.. فهم يبلون في داخلها بلاء مضاعفاً !..".

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> لن أتخلص إلا بصعوبة من تلك الأفكار التي إذا ما عاودتني من جديد، فليس مرد ذلك، بوجه خاص، إلى عودة روبنسون، لم أول في البداية اهتماماً كبيراً للمضايقات والإزعاجات، واصلت التسكع على هذا النحو أو ذاك، من مريض، إلى آخر، ولكنني غدوت أشد قلقاً من السابق، وعلى نحو متزايد، مثلما كنت في نيويورك، وبدأ النوم مرة أخرى، يجافيني أكثر من المعتاد.

بسحنته الملطخة بالغم، طلع علي روبنسون، كأنما كان يعيدني إلى حلم قذر، لم أكن لأفلح في الخلاص منه منذ سنوات عديدة. كنت أغمغم بذلك.

جاء ليسقط من جديد هنا، أمامي، وسوف لن أتخلص منه بعد ذلك. من المؤكد أنه كان قد بحث عني هنا، لم أكن، بالتأكيد راغباً باللقاء به من جديد.. وما من شك بأنه سيضطرني مرة أخرى إلى التفكير بشؤونه، إنه يجعلني، الآن، بالإضافة إلى ذلك، أعيد التفكير في جوهره القذر. وهؤلاء الناس أيضاً، وهم يمشون في الشارع على هذا النحو كانوا يجعلونني أفكر بثرثراتهم، عند زوايا الأبواب، وباحتكاكهم ببعض. كنت أعرف ما الذي كان يبحث عنه هؤلاء الناس بمظهرهم الذي لا ينم عن شيء. إنهم يسعون إلى أن يقتلوا بعضهم وأن يقتلوا أنفسهم، ليس بضربة واحدة، بالتأكيد، ولكن رويداً رويداً، مثلهم مثل روبنسون، بكل ما كانوا يحملونه من كآبات قديمة، ومن بؤس جديد، ومن ضغائن أيضاً لا اسم لها، حينما لا تكون الحرب محتدمة، ولكنها حين تضرى ويشتد أوارها فإن ذلك يحدث بسرعة أكبر من المعتاد..

Twitter: @ketab_n

لم أعد أجرؤ كذلك على التخلص من خوفي من اللقاء بروبنسون.

كان علي أن أسأل نفسي، مرتين أو ثلاث مرات متتالية كي أقرر الاستجابة لدعوة المرضى. وحينما كنت أقرر الذهاب لزيارة مريض، كنت أجد نفسي، في أغلب الأوقات ذاهباً لزيارة مريض آخر، كان ذلك يكشف عن حالة من الاضطراب في تفكيري، مثلما في حياتي. في شارع سانت فنسان والذي لم أكن قد ذهبت إليه سوى مرة واحدة، كانوا يسألون عني لدى ساكني الطابق الثالث رقم ١٢. كانوا قد جاؤوا بسيارة للبحث عني، تعرفت فوراً على الجد، كان يتكلم همساً، كان غالباً ما يمسح حذاءه بممسحة الأرجل أمام بابي، كائن يتحرك خلسة، عجوز شاحب، محني الظهر، كان راغباً في استعجالي من أجل حفيده.

كنت أتذكر جيداً ابنته أيضاً، مستهترة أخرى، متهتكة ولكنها صلبة وصامتة، جاءتني مرات عديدة، من أجل إجهاضها في بيت والديها. لم يكونوا يوجهون إليها أي لوم، كانوا فقط راغبين في أن تتزوج في نهاية المطاف، لا سيما وأن لها ولداً صغيراً في الثانية من عمره يعيش في بيت جديه على الدوام.

كان ذلك الولد مريضاً بلا سبب ظاهر، وحينما كان يمرض كان جده وجدته وأمه ينخرطون جميعاً في البكاء، ويذرفون دموعاً غزيرة، لا سيما وأنه كان بلا أب شرعي. في مثل تلك اللحظات بالذات كان التأثر يبلغ أقصاه بسبب الأوضاع غير المألوفة داخل العائلة. كان الجدان يعتقدان دون أن يعترفا بذلك كلياً، بأن أبناء السفاح هم أكثر هشاشة وأشد تعرضاً للمرض غالباً، من الأبناء الآخرين.

أخيراً، فإن الأب، ذاك الذي كانوا يعتقدون على الأقل بأنه والد الطفل كان قد رحل نهائياً وإلى الأبد، فلفرط ما كانوا قد تحدثوا مع ذلك الرجل عن

Twitter: @ketab_n

الزواج بابنتهم، انتهى به الأمر إلى الضجر، ولا شك أنه الآن بعيد جداً، وأنه ما يزال يعدو هارباً منهم. ما من أحد كان يفهم شيئاً عن سبب هذا الهجر، ولا سيما الفتاة نفسها، لأنه كان يجد مع ذلك كثيراً من المتعة في مضاجعتها.

إذن، فمنذ أن رحل هذا القُلّب، كان ثلاثتهم جميعاً مستغرقين في تأمل هذا الولد متباكين، وهكذا، فقد وهبت لذلك الرجل مثلما كانت تقول «جسدها وروحها» وكان ذلك خليقاً أن ينجح، وأن يكون كافياً للوصول إلى السعادة، حسب رأيها، كان الصغير قد خرج، دفعة واحدة من جسدها، وتركها مترهلة تماماً حول خاصرتيها. يغتبط العقل بالجمل والكلمات ولكن الجسد ليس على هذا الغرار. إنه أصعب إرضاء، شيء ما حقيقي دوماً، هو الجسد، لذلك فهو حزين على الدوام ومنفر للنظر.. لقد رأيت.، وهذا صحيح أيضاً، ولادات ذهبت بصبا الأم دفعة واحدة، ولم يبق لتلك الأم على وجه التقريب سوى مشاعر وروح، ما من أحد يرغب بذلك قط.

قبل تلك الولادة السرية كانت العائلة تسكن في حي «فتيات غالفير» منذ سنوات عديدة، وإذا كانت قد هاجرت إلى رانسي فلم يكن ذلك عن رغبة منها، وإنما لتتوارى عن الأنظار، لينساها الآخرون، لتختفي بالجملة.

ما أن غدا من المستحيل إخفاء ذلك الحمل عن الجيران حتى قرروا مغادرة حيهم في باريس، تحاشياً لجميع التعليقات، رحيل شرف. كانوا غير معروفين في رانسي، ثم إن بلدية هذه الضاحية كانت تمارس سياسة بغيضة تماماً! فوضوية باختصار، كان الناس يتقولون عليها شتى الأقاويل، في كل أنحاء فرنسا، سياسة داعرة، ففي هذه الوسط من المنبوذين لن يكون لرأي الآخرين أية قيمة.

Twitter: @ketab_n

نالت العائلة قصاصها على نحو تلقائي، فقد قطعت كل صلة لها مع أقارب وأصدقاء الماضي. إذا تكلمنا عن مأساة فقد كانت تلك مأساة كاملة، لم يعد ثمة ما يفقدونه، كما كانوا يقولون، لقد انحط مقامهم، وحينما يقرر المرء أن يفقد اعتباره، يذهب إلى الشعب.

لم يوجهوا أية ملامة لأحد، كانوا يحاولون فقط أن يكتشفوا عبر نوبات من التمردات الصغيرة العاجزة إن كان بوسع القدر أن يمتص قذارة أخرى مماثلة يلطخهم بها ذات يوم.

لم تشعر الفتاة من عيشها في رانسي سوى بعزاء وحيد، ولكنه على قدر كبير من الأهمية، ألا وهو، قدرتها على أن تكلم الناس جميعاً بحرية منذ الآن عن «مسؤولياتها الجديدة». لقد أيقظ عشيقها حين تركها رغبة عميقة داخل طبيعتها المولعة بالبطولة وبالتفرد. فمنذ أن اطمأنت إلى أنها لن تواجه قط، فيما تبقى لها من أيامها، مصيراً مماثلاً لغالبية النساء من طبقتها ووسطها، إلى أنها تستطيع الآن أن تصرّح علناً بقصة حياتها المسلوبة منذ مغامراتها العشقية الأولى، ارتضت، بشيء من اللذة، بالشقاء العظيم الذي حل بها، وغدت ضربات القدر الفتاكة، في النهاية، مقبولة ومرحباً بها. كانت فرحة وفخورة بكونها فتاة أماً.

داخل صالة طعامهم التي دخلناها أنا والأب، كان ثمة إضاءة مقتصدة، لا تظهر إطلاقاً سوى نصف لون الأشياء. بدت لي الوجوه مثل بقع شاحبة، لحوم تهذر بكلمات ما تنفك تتسكع داخل الغبش الثقيل لرائحة بهار قديم يفوح من سائر أثاث العائلة.

فوق الطاولة في الوسط، وضعوا الطفل على ظهره، بين أقمطته، من أجل أن أفحصه، ضغطت بأصابعي قليلاً على جدار بطنه، في البداية، بكثير

Twitter: @ketab_n

من الاحتراس، على نحو تدريجي، من سرته وحتى كيس خصيتيه، كنت أتسمع بانتباه شديد.

كان قلبه ينبض بإيقاع قلب قطة صغيرة، على نحو خاطف ومجنون. تضايق الولد من حركة أصابعي ومن ملامساتي، وبدأ يصرخ، مثلما يفعل الأطفال في هذا السن، على نحو يفوق التصور. كان زعيقه أعلى مما أطيقه. منذ عودة روبنسون، كنت قد غدوت غريباً عما يجري داخل رأسي وجسدي، وقد خلقت لديّ صرخات الصغير البريء انطباعاً كريهاً، أية صرخات! يالهي! أية صرخات!.. لم أعد أحتمل سماعها.

ثمة فكرة أخرى أيضاً، كانت خليقة أن تحدد سلوكي الأخرق، فلفرط ما شعرت بالإرهاق من صراخ الطفل، لم يعد بوسعي الامتناع عن إبلاغهم علانية بما كنت أشعر به، في الواقع، من ضغينة ومن اشمئزاز، منذ مدة طويلة جداً.

«إيه! أجبت على عواء الصغير، لا تتعجل إذن!.. أيها الصغير الأبله!.. سيكون لديك الوقت دائماً كي تصرخ.. سيكون لديك الكثير منه!.. لاتخش شيئاً أيها الكر الصغير! لا ترهق نفسك! سيبقى ما يكفي ويزيد من الشقاء كي تذيب عينيك ورأسك وكل ما بقي منك أيضاً إذا لم تحترس!

ــ ما الذي تتفوه به يا دكتور؟» انتفض الجد، فكررت ببساطة: «سيبقى الكثير أيضاً».

ــ ماذا؟ ما الذي يبقى؟ سألني الجد، مذعوراً.

ــ عليك أن تفهم، أجبت الجد، عليك أن تفهم، أنا أشرح لك كثيراً من الأشياء!.. إنه الشقاء.. سيبقى منه الكثير.. حاول إذن أن تفهم!.. ابذل قليلاً من الجهد!».

Twitter: @ketab_n

«يبقى ماذا؟ ما الذي يقوله؟» كان الثلاثة يسألون بعضهم، كانت الفتاة صاحبة «المسؤوليات الجديدة» تنظر إلي نظرات غريبة، ثم ما لبثت أن أطلقت صرخات طويلة فريدة، لقد وجدت فرصة سانحة جليلة لتنخرط في نوبة عصبية، ولم تكن لتفوّتها، إنها الحرب! وسأضربك بقدميّ! وبالاختناق، وبحول العينين المخيف! لقد كانت مستعدة للغاية، ينبغي أن تروا ذلك! «إنه مجنون. ماما! كانت تختنق بصيحاتها المزمجرة، الدكتور، صار مجنوناً، خذي ابني من بين يديه، ماما!». كانت تنقذ ابنها.

لم أكن أعرف أبداً لماذا، ولكنها لفرط هياجها بدأت تتكلم باللهجة الباسكية. «إنه يقول أشياء مخيفة! ماما!.. إنه معتوه!..».

انتزعوا الصغير من بين يديّ، كما لو كانوا ينتشلونه من بين ألسنة اللهب. وتناول الجد الذي كان خجلاً جداً قبل قليل، تناول الآن ميزان الحرارة الضخم المعلق على الحائط، والمصنوع من خشب الأكاجو. ولوّح به مثل هراوة.. ثم رافقني على مسافة مني نحو الباب، وصفق مصراعه خلفي بعنف، بركلة من رجله.

لقد استفادوا من ذلك، بالطبع، كي لا يدفعوا لي لقاء زيارتي.

حينما وجدت نفسي في الشارع من جديد، لم أكن فخوراً جداً بما كان قد جرى لي. ليس بخصوص سمعتي التي لم يكن ممكناً أن تغدو أسوأ مما كانت عليه بين سكان الحي الذين كانوا قد شوهوها ولطخوها من دون أن أكون بحاجة إلى تلطيخها، ولكن بصدد روبنسون دائماً الذي كنت قد رجوت أن أتخلص منه عبر موقف صريح، أن أتخذ القرار بعدم استقباله، بافتعال سبب للخلاف، يوجه إلي خلاله نوعاً من عبارات نابية.

Twitter: @ketab_n

على هذا النحو حسبت الأمور: سأتمعن جيداً، على سبيل التجريب في الفضيحة التي يمكن أن تحدث، دفعة واحدة. المسألة هي أنني لن أخلص، مطلقاً من الفضيحة ومن الانفعال، فأنا لا أعرف البتة إلى أي حد سأكون مضطراً إلى المضي في الصراحة.. فما يخفيه عنك الناس، ما يظهرونه لك.. إذا ما عشت ردحاً من الزمن.. إذا ما مضيت بعيداً بما يكفي مع هذرهم وهذيانهم، هو بلا نهاية على الإطلاق.

كنت متعجلاً في أن أواري نفسي، أنا أيضاً، للحظة. سلكت في البداية، في الطريق إلى منزلي زقاق جيبيه، ومن ثم شارع فالنتين، ذلك طريق ملائم.. ولكنني سرعان ما غيرت رأيي واتجهت نحو الأضواء، في ساحة ترانزيتوار التقيت بيريدون موقد المصابيح، تبادلنا بضع كلمات بلا معنى «هل أنت ذاهب إلى السينما، دكتور؟» سألني بيريدون، لقد أوحى لي بالفكرة، فوجدتها فكرة جيدة.

سيقلني الأوتوبيس بسرعة أكبر من المترو.

بعد هذا الفصل المخزي، سأرحل عن رانسي نهائياً، وإلى الأبد، حينما أجد إلى ذلك سبيلا.

كلما طال بقاؤك في مكان، كلما كشفت لك الأشياء والبشر عن سوءاتهم، وعن عفونتهم، وعن نتن روائحهم التي يطلقونها متعمدين في وجهك.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> على الرغم من كل شيء، فقد فعلت خيراً بالعودة إلى رانسي في اليوم التالي، بسبب بيبرت الذي سقط مريضاً في ذلك الوقت بالذات، كان زميلي فروليشون، قد سافر في إجازة، وقد ترددت العمة بعض التردد، ثم طلبت مني العناية بابن أخيها مع ذلك، لأنني، بلا شك كنت أرخص طبيب من الأطباء الذين كانت تعرفهم العمة.

بعد عيد الفصح بدأ الجو يتحسن، كانت الرياح الجنوبية تهب على رانسي، وتحمل معها أيضاً. كل سخام المصانع لتلصقه على زجاج النوافذ.

استمر مرض بيبرت أسابيع، كنت أذهب لرؤيته مرتين كل يوم. كان سكان الحي ينتظرونني أمام بيوتهم، دون أن يتظاهروا بذلك، على بعد خطوة من منازلهم، والجيران أيضاً. كان ذلك أشبه بتسلية لهم. كانوا يريدون أن يعرفوا، عن بعد، ما إذا كانت صحة بيبرت تسوء أم تتحسن. كانت الشمس تمر عبر كثير من الأشياء ولكنها لم تكن تترك، قط في الشارع سوى ضوء خريفي، مع كثير من الحسرات والغيوم.

نصائح كثيرة، كنت أتلقاها بخصوص بيبرت، كل سكان الحي، في الحقيقة، كانوا مهتمين بحالته، كانوا يتحدثون عن حسنات، ومن ثم عن سيئات مهارتي في الطب. وحينما كنت أدخل المنزل كان يسود صمت حرج ومعاد، بما فيه الكفاية، صمت بالغ الحماقة على الأخص. كان المنزل مكتظاً دائماً بثرثارات تربطهن صداقة حميمة مع العمة. كان عابقاً دوماً برائحة التنانير الداخلية وبول الأرانب. كان لكل منهن طبيبها المفضل، فهو الأكثر براعة

Twitter: @ketab_n

دوماً، والأوسع علماً، أما أنا فلم يكن لي سوى ميزة وحيدة، في المحصلة، ولكنها تلك التي لا يغفرونها لك إلا بصعوبة، ألا وهي أنني كنت تقريباً طبيباً مجانياً، وحين يكون الطبيب مجانياً. فإن ذلك يؤذي المريض وعائلته، مهما كانت تلك العائلة فقيرة.

لم يكن بيبرت يهذي بعد. لم يعد لديه فقط أي رغبة بالحركة، وقد بدأ يفقد وزنه كل يوم، قليل من اللحم المصفر والمتحرك كان ما يزال يكسو هيكله المرتعش من أعلاه إلى أسفله، مع كل نبضة من نبضات قلبه، حتى لكأن قلبه كان في كل مكان تحت جلده، لفرط ما غدا نحيلاً بعد شهر من المرض. كان يوجه لي ابتسامات مضيئة، حينما كنت آتي لرؤيته. لقد تجاوزت حرارته الـ٣٩ درجة، ثم الـ٤٠ دون أن يفقد أبداً لطفه ومحبته، وظل طوال أيام وأسابيع متأملاً مفكراً.

انتهت عمة بيبرت إلى الصمت، وتركتنا هادئين، أفرغت كل ما كان في جعبتها من الكلام، ثم ذهبت لتتباكى، مبلبلة، في زوايا كوخها. زاوية إثر زاوية، لقد غزتها الكآبة أخيراً، بعدما نضب معينها من الكلام.

لم يكن يبدو عليها أنها تعرف ما تفعل بكربها، كانت تحاول أن تتمخطه من جديد. كانت تتحرك في كل مكان، وانتهى بها الأمر، على هذا النحو إلى أن تغدو أيضاً أقل نظافة من المعتاد، وكانت تدهش لذلك «يا إلهي! يا إلهي!» كانت تردد. وهذا كل شيء. لقد بلغت أقصى ما في داخلها من قوة في البكاء، ثم تهدل ذراعاها، وظلت منذهلة عن نفسها أمامي.

كانت تثوب مع ذلك من حزنها قليلاً، فتهمّ بالخروج من بيتها منتحبة. على تلك الصورة، وطوال أسابيع، استمرت تلك الروحات والجيئات دون أن يفارقها الهم والقلق. كنت أستشعر بعمق بأن ذلك المرض كان سيؤول إلى

Twitter: @ketab_n

نهاية خطيرة. كان نوعاً من التفوئيد الخبيث، كل ما كنت أجربه في العلاج كان يذهب سدى، المغاطس، السيرومات، الحمية، اللقاحات، ما من شيء كان ناجعاً، عبثاً كنت أكافح، كل شيء كان قبض الريح. كان بيبرت يمضي، على نحو لا راد له، باسماً. ومن فوق حمّاه، كان يلبث متزناً هادئاً، بينما كنت أنا أتخبط في الأسفل خبط عشواء. كانت النصائح، بالطبع، تنهال على العمة من كل حدب وصوب وعلى نحو آمر أيضاً، بأن تصفّي حسابي، دون مواربة، وأن تستدعي على عجل طبيباً آخر أوسع خبرة مني، وأكثر جدية.

كان حادث الفتاة «ذات المسؤوليات الجديدة» قد شاع في كل الأنحاء ودارت حوله التعليقات بكثافة، كانوا يتمضمضون به في الحي.

ولكن بما أن الأطباء الآخرين الذين علموا بطبيعة مرض بيبرت، تهربوا من علاجه، فقد بقيت أنا في النهاية.. وما دام بيبرت قد آل إلي، فلابد لي من أن أواصل العلاج. هكذا كان الزملاء يفكرون بالضبط.

لم يكن قد بقي في يدي من حيلة في الواقع، سوى الذهاب من وقت إلى آخر كي أهتف من الحانة القريبة إلى بعض الاختصاصيين الآخرين الموزعين هنا وهناك بعيداً عن رانسي، ممن كنت أعرفهم، أكثر أو أقل، في باريس، داخل المستشفيات، كي أسألهم عما يفعلونه هم، أولئك الجهابذة، أولئك الإعلام، إزاء تيفوئيد كالذي كان يربكني ويقض مضجعي. كانوا جميعاً يعطونني نصائح طيبة، جواباً على أسئلتي، نصائح طيبة، غير أنها عديمة الفائدة، ولكنني كنت أشعر، مع ذلك، بالسرور للاستماع إليهم، وهم يجشمون أنفسهم العناء، على ذلك النحو، وبصورة مجانية في النهاية، من أجل الصغير المجهول الذي كنت أعالجه، وهكذا فإننا نفرح بالشيء الزهيد القيمة، بأقل القليل، والذي تريد أن تتركه لنا الحياة كعزاء!

Twitter: @ketab_n

بينما كنت أضرب أخماساً بأسداس على هذا المنوال كانت عمة بيبرت تترنح يمنة ويسرة. دونما تبصر. منهارة فوق الكراسي وعلى الأدراج، لم تكن تخرج من ذهولها إلا لكي تأكل. ولكنها، في واقع الحال، لم تفوّت قط وجبة واحدة، ينبغي قول ذلك، فجيرانها لن يتركوها تنسى نفسها.. كانوا يزقمّونها بين شهقاتها. «هذا يسندك» كانوا يؤكدون لها. لا بل إنها بدأت تسمن.

فيما يتعلق برائحة كراث بروكسيل والتي كانت أقوى من مرض بيبرت، فقد كان لها داخل المنزل قصف وعربدة، كان ذلك هو فصل الكراث، كانوا يأتون به من كل مكان، كهدية إلى العمة، مطبوخاً جاهزاً، يتصاعد منه البخار. «إنه يمدني بالقوة، هذا صحيح، كانت تبدي إعجابها، به بطيبة خاطر، كما أنه مدر للبول!».

قبل منتصف الليل، وعلى قرعات جرس صغير كي لا تغرق العمة بالنوم، ولكي تلبي أول نداء على الفور، كانت العمة تحسو القهوة. على هذا النحو، لم يكن الجيران يوقظون بيبرت حينما يقرعون الجرس مرتين أو ثلاث مرات متتالية. حينما كنت أمر في المساء من أمام المنزل كنت أدخل لأرى إن لم يكن كل ذلك قد توقف أحياناً. «ألا تعتقد أن المرض انتقل إليه من البابونج الذي شربه عند بائع الفاكهة، في اليوم الذي جرى فيه سباق الدراجات؟» كانت هذه الفكرة تقض مضجع العمة، منذ البداية. فكرة بلهاء..

«بابونج» كان بيبرت يهمس بوهن، فيضيع الصدى داخل الحمى. ما الفائدة من ثنيها عن هذه الفكرة؟ كنت أقوم، مرة أخرى بالإجراءات المهنية الصغيرة المطلوبة، ومن ثم أخرج إلى الليل، غير فخور، لأنني، على غرار أمي، لم أتوصل قط، إلى الشعور بأنني بريء من صنوف الشقاء التي كانت تحل بالأرض.

Twitter: @ketab_n

في اليوم السابع عشر، قلت لنفسي، مع ذلك، بأن من الخير لي أن أذهب لأسأل عما كانوا يفكرون به في معهد بيوديريه جوسبين، عن حالة تيفوئيد من هذا النوع، ولأن أطلب في الوقت ذاته نصيحة صغيرة، وربما لقاحاً أيضاً يشيرون به علي، وهكذا، أكون. قد فعلت كل شيء، وجربت كل شيء، وحتى الأشياء التي لا تخطر على بال، وإذا مات بيبرت، إيه حسناً، فلن يكون ثمة ما ألام عليه، وصلت إلى المعهد في طرف باريس، خلف مجمع "الفييت" للعلوم والصناعة، في الساعة الحادية عشرة صباحاً. جالوا بي، في البداية، عبر مخابر ومخابر، بحثاً عن عالم من العلماء. لم يكن هناك أي شخص في تلك المخابر، لا من العلماء ولا من غيرهم، أشياء مركومة فقط، في حالة من الفوضى العارمة، جثث صغيرة لحيوانات مبقورة البطون، أعقاب سكائر، مصابيح غاز مكسورة، أقفاص وقوارير زجاجية، في داخلها فئران على وشك الاختناق، مقطرات، مباول ملقاة بإهمال، مقاعد محطمة، كتب، وغبار، وأعقاب سكائر أيضاً، ودائماً، رائحتها ورائحة المبولة تحتلان المكان. وما دمت قد جئت مبكراً. فقد عزمت على القيام بجولة، أزور خلالها. قبر العالم العظيم بيوديريه جوسبين الذي كان مشاداً في أقبية المعهد ذاتها، مجللاً بالذهب والرخام، فانتازيا برجوازية ـ بيزنطية رفيعة الذوق. بفضل هذا البيوديريه كان العديد من الطلاب الشباب قد اختاروا، خلال نصف قرن ميدان العلوم، وقد فشل عدد منهم لا يقل عن عدد الفاشلين في التخرج من الكونسرفاتوار. ثم انتهوا جميعاً، إضافة إلى ذلك، إلى التجمع في هذا المعهد بعد عدد من السنوات لم يحققوا فيها أي نجاح. وفي مستنقعات الهزيمة كان «خريج الكلية» يستحق «جائزة روما». لم يكن الباص ينقلهم إلى المعهد في ساعة واحدة. كان علي الانتظار أيضاً وقتاً طويلاً في حدائق المعهد. تركيبة

Twitter: @ketab_n

صغيرة من سجن وحديقة عامة. زهور مزروعة بعناية على امتداد تلك الجدران المزخرفة بعدوانية.

مع ذلك، فإن بعض العاملين الشبان من ملاك المعهد كانوا أول من وصل، كان عدد منهم يحمل زاده من السوق القريب، في أكياس شبكية كبيرة، تلوح عليهم علائم البؤس والعوز. وبعدهم، وصل العلماء وعبروا البوابة بتباطؤ أكثر، وبتحفظ أشد من مرؤوسيهم، على هيئة مجموعات صغيرة، بشعور كثة، وأصوات هامسة، واختفوا على امتداد الممرات وراقبت باهتمام، عودة أولئك التلاميذ الهرمين الشائبين، الذين أخبلهم الروتين الصارم والاختبارات الكيماوية المونسة والمقززة، مقيدين طوال مرحلة نضجهم المديدة. وبأجور هزيلة جداً، إلى تلك المطابخ الصغيرة الحافلة بالمكروبات، يطهون فيها، بلا نهاية، طعامهم المؤلف من قشارات الخضار، ومن خنازير الهند المخنوقة، ومن نباتات أخرى لا يعلمها إلا علام الغيوب.

لم يعد هؤلاء في نهاية المطاف سوى قوارض مدجنة هرمة، مسيخة داخل معاطف. قلما يبتسم المجد في أيامنا إلا للأغنياء، سواء أكانوا علماء أم غير ذلك. أما العاملون في البحث العلمي من عامة الناس فلم يكن بمقدورهم المحافظة على أنفسهم إلا بالاعتماد على خوفهم من أن يفقدوا موقعهم داخل علبة الأقذار تلك، المرتفعة الحرارة، والذائعة الصيت، والمقسمة إلى خانات ومراتب. كانوا حريصين، في الأساس، على لقب عالم رسمي. وهو لقب ما يزالون ينالون بفضله بعض الثقة من صيادلة المدينة، من أجل تحليل بول وبصاق الزبائن، وبعض التعويض الشحيح، ذلك التعويض الملوث بالوحل الذي كان من نصيب العالم.

Twitter: @ketab_n

ما أن يصل الباحث المنهجي حتى ينحني على نحو طقوسي، بضعة دقائق فوق الأحشاء المصفرة والمتفسخة للأرنب الذي كان معروضاً منذ الأسبوع الفائت.. على النحو الكلاسيكي، في زاوية من زوايا الغرفة، جرن الأقذار. وحينما تغدو رائحته لا تطاق. كانوا يضحّون بأرنب آخر، ولكن ليس قبل ذلك، بغية الاقتصاد في النفقات الذي كان البروفيسور جونيسيه كبير أمناء سر المعهد يحرص عليه في ذلك الوقت على نحو متزمت.

بعض الحيوانات المتعفنة كانت تخضع بسبب ذلك، وعلى سبيل الاقتصاد لإطالات في العرض ولتفسخات لا تصدق. كل الأمور منوطة بالتعود. كان بعض فتيان المخابر المدربين جيداً يطهون طعامهم في نواويس مستخدمة في التجارب، حتى أن آثار العفونة المتبقية لم تعد تزعجهم. كان هؤلاء المساعدون المتواضعون العاملون في البحث العلمي العظيم يتوصلون في هذا الصدد إلى تخطي البروفيسور جونيسيه نفسه في الاقتصاد بالنفقات، والمشهور بقذارته مع ذلك. يتفوقون عليه في لعبته الخاصة. مستغلين غاز مجففاتهم، على سبيل المثال، كي يجهزوا العديد من وجبات طعامهم من الخضار واللحم واليخنات الأخرى البطيئة النضج، والأشد خطراً أيضاً.

حينما يفرغ العلماء من فحوصهم واستقصاءاتهم المسطحة لأمعاء خنزير الهند والأرنب الطقسيين، ينتقلون بهدوء إلى العمل الثاني في حياتهم اليومية العلمية، ألا وهو التدخين، محاولة تخفيف النتانة والضجر من خلال تدخين التبغ، ومن عقب سيكارة إلى آخر يصل العلماء، مع ذلك، إلى نهاية نهارهم، في الساعة الخامسة، حينذاك يعيدون الأنسجة المتفسخة، من أجل تفتير حرارتها إلى داخل مجففاتهم المرتجة. كان الباحث الشاب يخبئ فاصولياءه المطبوخة داخل صحيفة كي يمررها بسلام، ودون مساءلة، من

Twitter: @ketab_n

أمام حاجبة المبنى، كان يحمل بقية الطعام الذي أعده في النهار ليتناوله في غارغان. أما معلمه، العالم، فكان ما يزال يسجل شيئاً ما في زاوية دفتر التجارب، بتواضع جم، من أجل بحثه القادم العديم النفع كلياً، ولكنه الذي يؤكد حضوره في المعهد، والمزايا الهزيلة التي يتمتع بها.

يقضي العالم الحقيقي عشرين سنة كاملة في المتوسط لإنجاز اكتشافه العظيم. ذاك الذي يتكون من الاقتناع بأن هذيان البعض لا يخلق سعادة لدى الآخرين، أو أن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا يجد نفسه منحرف المزاج من جراء الهوس المستحوذ على جاره، وهكذا دواليك.

والواقع أن الهذيان العلمي الذي يبدو أكثر معقولية وأشد برودة من الهذيانات الأخرى. هو في الوقت ذاته أشد إثارة للقرف والنفور من أي هذيان آخر، ولكن حينما يحوز المرء على بعض الفرص في المحافظة على موقع معين، ولو بأجر ضئيل، بمساعدة بعض التكشيرات، فلابد له من المواظبة على هذيانه، وإلا فإنه يهلك مثل خنزير هندي.

كنت أبحث عن بارابين عبر أرجاء المعهد، ما دمت قد جئت من رانسي، على أمل اللقاء به. كان لزاماً علي المضي في البحث عنه. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً، كررت المحاولة عدة مرات، متردداً، زمناً طويلاً، أمام عدد من الممرات والأبواب.

قلما كان هذا الفتى المسنّ يفطر أو يتغدى أكثر من مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، ولكنه كان يأكل حينئذ بشراهة فائقة على منوال جنون الطلاب الروس الذين كان بارابين يحتفظ بعاداتهم الغريبة الأطوار.

لقد نال هذا البارابين، في وسطه الاختصاصي حظوة كبيرة، لم يسبقه أحد إليها. كل ما كان يتعلق بأمراض التيفوئيد صار مألوفاً، وعادياً بالنسبة

Twitter: @ketab_n

إليه، التيفوئيد الحيواني أو الإنساني. كانت شهرته قد ذاعت منذ عشرين عاماً حين زعم بعض العلماء الألمان، في أحد الأيام، بأنهم قد عزلوا بكتيريا التفوئيد الحية داخل المفرزات المهبلية لطفلة صغيرة في الشهر الثامن عشر من عمرها، وقد أثار ذلك ضجة في ميدان الحقائق العلمية. ورد بارابين في أقصر مهلة باسم المعهد الوطني، متجاوزاً، دفعة واحدة، ذلك المتشدق التوتوني، وذلك بزرعه الجرثوم ذاته، ولكن في حالته النقية داخل مني شخص عليل في الثانية والسبعين من عمره. طارت شهرة بارابين على الفور، ولم يبق عليه حتى نهاية حياته سوى أن يسوّد، على نحو منتظم، بضعة أعمدة غير مقروءة، في مختلف الدوريات الاختصاصية، كي يحافظ على نجوميته، وهو ما صنع له، فوق ذلك منذ ذلك اليوم، ودون مشقة جرأة وحظاً.

أغدق الجمهور العلمي الجاد الثناء على بارابين ومحضه الثقة، وكان هذا يعفي الجمهور الجاد من أن يقرأ ما يكتبه بارابين.

لو أن ذلك الجمهور العلمي شرع بالنقد، فلن يعود هناك أي تقدم ممكن. لذلك فإنه سيراوح مكانه سنة عند كل صفحة..

حين وصلت أمام باب زنزانته الصغيرة كان سيرج بارابين يتفل في أربعة أركان المخبر لعاباً متواصلاً، مع تكشيرة متقززة، بحيث يجعلك تفكر بما يفعله في تلك الزنزانة. كان يحلق لحيته من وقت إلى آخر، ولكنه كان يحتفظ دائماً، مع ذلك، فوق مساحة عارضيه بما يكفي من الشعر كي يبدو شخصاً فاراً. كان يرتعد باستمرار أو على الأقل، كان يبدو عليه ذلك، على الرغم من أنه لم يكن يخلع معطفه قط. تشكيلة كبيرة من البقع، وعلى الأخص من القشور، كان يزيلها بضربات دقيقة من اظفره، من حواشي المعطف ساحباً مشعله المهتز دوماً قريباً من أنفه المخضر والمحمر.

Twitter: @ketab_n

خلال فترة تدريبي، في الدروس العملية للكلية، كان بارابين يعطيني بضعة دروس بالمجهر، ويبدي لي في مختلف المناسبات أريحية حقيقية. كنت أتمنى أن لا يكون قد نسيني كلياً، منذ تلك الأيام البعيدة، وأن يقدم لي، بالأريحية ذاتها، رأياً طبياً، من طراز رفيع، من أجل حالة بيبرت التي كانت تعذبني في الحقيقة.

من المؤكد أنني كنت متلهفاً للحيلولة دون موت بيبرت، أكبر بكثير مما تجاه شخص راشد. ما من أحد، تقريباً، يتألم جداً لموت شخص راشد، إنه مثير للغم على كل حال، كما يقال في حين أنه بالنسبة إلى طفل، فإن الأمر أعظم من ذلك. ثمة المستقبل.

بعد أن أطلع بارابين على الصعوبات التي كانت تعترضني لم يتلكأ في إبداء رغبته بمساعدتي وتوجيه علاجي المحفوف بالمخاطر، ولكنه فقط، كما ذكر لي، كان قد درس خلال عشرين عاماً كثيراً من الأشياء، ومن الأشياء المختلفة جداً، والمتناقضة جداً، في الغالب، حول موضوع التفوئيد، بحيث صار من العسير، جداً، عليه الآن، أو من المستحيل، كما قال، أن يصوغ حول موضوع هذا الداء المبتذل جداً، وحول كيفية علاجه أي رأي جازم، مهما كان هذا الرأي بسيطاً.

«بداية، هل تؤمن، أنت، يا زميلي العزيز بالسيرومات؟ بدأ كلامه بسؤاله لي، ماذا؟ ما رأيك فيها، واللقاحات إذن؟ ما هو انطباعك في المحصلة؟ ثمة العديد من العقول اللامعة لم تعد ترغب الآن في أن تسمع كلمة واحدة عن اللقاحات.. هذا تهور، أيها الزميل، بالتأكيد.. هذا هو رأيي.. ولكن أخيراً؟ ماذا؟ مع ذلك؟ ألا ترى أن هناك بعض الصواب في هذا الموقف السلبي من اللقاحات؟ ما الذي تراه أنت...».

Twitter: @ketab_n

كانت الجمل تخرج من فمه بقفزات مخيفة مع وابل هائل من حرف «الراء».

وفيما هو يتخبط مثل أسد بين فرضيات أخرى حانقة ويائسة مرّ جونيسيه، السكرتير العظيم اللامع، الذي كان ما يزال آنذاك على قيد الحياة، مر في تلك اللحظة بالضبط تحت نوافذنا مختالاً وشامخاً.

ما أن رآه بارابين حتى أربد لونه أكثر من ذي قبل، وغير دفة الحديث بعصبية، ثم لم يلبث أن أظهر لي على الفور كل الاشمئزاز الذي كان يتولد لديه بسبب هذه الرؤية اليومية الوحيدة لهذا الجونيسيه المبجل، مع ذلك، على نطاق عالمي. ونعت لي بارابين هذا الجونيسيه الشهير، خلال لحظة واحدة، بالمزيّف، والمهووس، والبالغ الخطورة، وحمّله أيضاً جرائم بشعة وحقيرة ومستحدثة، كان ينبغي أن يحتويها سجن للأشغال الشاقة بكامله، طوال قرن من الزمان.

ولم يعد بمستطاعي أن أمنع بارابين من أن يعطيني، مئة وألف تفصيل حقود عن مهنة الباحث المضحكة، والتي كان هو مضطراً من أجل الحصول على قوته، إلى أن يلتزم بها، كان حقده أشد تميزاً وأكثر علمية، في الحقيقة من تلك الأحقاد التي ينفثها الرجال الآخرون الموجودون ضمن شروط مشابهة، داخل المكاتب أو المتاجر.

كان يرسل كلامه بنبرة عالية جداً، وشعرت بالدهشة من صراحته.. كان تلميذه في المخبر ينصت إلينا.. كان هو أيضاً يطهو طعامه البسيط من الخضار، .ويتحرك أيضاً مراعاة للشكل بين المجففات وأنابيب الاختبار، ولكن الباحث التلميذ كان معتاداً على سماع بارابين، وهو يصب لعناته اليومية تقريباً، بحيث أنه كان الآن يعتبر أقواله هذه أقوالاً أكاديمية، قطعاً، ولكنها

Twitter: @ketab_n

عديمة الجدوى. كانت بعض التجارب الشخصية الصغيرة التي يتابعها الآن، بكثير من الرصانة، في داخل إحدى مجففات المخبر، تبدو له، بالقياس إلى ما كان يرويه بارابين خارقة وحافلة بالفائدة على نحو لذيذ. لم يكن سخط بارابين يسليه قط، وقبل أن ينصرف، أغلق باب فرن التجفيف على مكروباته الشخصية. كأنه يغلقها على وعاء خبز القربان. برفق، وبتدقيق شديدين.

«رأيت بعينك تلميذي، أيها الزميل؟ رأيت فتاي الأبله العجوز، قال ذلك بارابين بعد أن خرج تلميذه، إيه حسناً، ثلاثون سنة ستنقضي عما قريب وهو يكنس أقذاري، ولا يسمع حوله سوى الحديث عن العلم، وبغزارة وإخلاص، في الواقع، غير أنه، بدل أن يتقزز من ذلك فقد انتهى به الأمر الآن، هو وحده، إلى أن يصدق كل ما يسمعه هنا. ولفرط ما قلّب أفكاري وآرائي وجدها خارقة، إنه يتلمظ بها، أقل حركة قردية مني تسكره، أليست الأمور في الديانات على هذا المنوال؟ ألم يحدث منذ زمن طويل أن الكاهن كان يفكر في كل شيء، ما عدا الإله الرحيم، بحيث أن قواس كنيسته كان يصدق كلامه في النهاية.. رغم انه صلب كالحديد؟ هذا يدعو إلى التقيؤ، في الحقيقة! أليس من المثير للسخرية أن تلميذي الأبله يقلّد بيوديريه جوسبين العظيم، في بزته وفي عثنونه! لقد لاحظته ولا شك؟ وفيما بيننا، وبهذه المناسبة فإن العظيم بيوديريه لا يختلف كثيراً عن تلميذي إلا بشهرته العالمية وبحدة نزواته الغريبة.. بهوسه في تنظيف القوارير تنظيفاً كاملاً، وبمراقبته عن كثب على نحو لايصدق، تفريخ العثّة.. لقد بدا لي ذلك العبقري التجريبي العظيم دائماً، سوقياً بصورة فظيعة.. قم بتجريد بيوديريه العظيم قليلاً من هوسه الحقير الهائل في الانشغال بشؤون وأدوات المخابر وقل لي إذن ما الذي يبقى منه مما يثير الإعجاب؟ أنا أسألك؟ شخصية عدوانية لبواب عمارة مماحك وسيئ النية. هذا

Twitter: @ketab_n

كل ما في الأمر، بالإضافة إلى ذلك، فقد كشف في الأكاديمية عن طبيعته الخنزيرية طول العشرين سنة التي قضاها فيها، ولأنه كان مكروهاً من الجميع تقريباً فقد تخاصم مع كل من كان يعمل في الأكاديمية، وليس قليلاً.. لقد كان مصاباً بجنون العظمة على نحو لا يصدق.. وهذا كل ما في الأمر.

كان بارابين يتأهب بدوره، بهدوء، للخروج، ساعدته في وضع نوع من الوشاح حول عنقه، وفوق البقع والقشور التي تشكل أيضاً وعلى نحو دائم نوعاً آخر من وشاح، وحينئذ استعاد الفكرة التي جئت لرؤيته من أجلها، بخصوص شيء ما محدد جداً ومستعجل. «هذا صحيح، لقد أضجرتك بالحديث عن شؤوني الصغيرة، نسيت مريضك، اعذرني أيها الزميل، ولنعد بسرعة إلى موضوعنا. ولكنك كنت تقول لي بأنك في المحصلة، لم تكن تعرف ماذا تفعل.. الواقع أن العقل يحتار إزاء الكثير من النظريات المتذبذبة، والتجارب الخاضعة للنقاش في اختيار أي منها: ابذل إذن كل ما في وسعك أيها الزميل: ما دام يتوجب عليك أن تتصرف. ابذل أقصى جهودك، من أجلي أنا أيضاً، يمكنني الآن أن أؤكد لك، بيني وبينك، بأن هذا المرض النموذجي أثار قرفي وتقززي في النهاية على نحو يتجاوز كل حد، وكل خيال أيضاً. حينما تصديت في شبابي للتفوئيد، لم نكن سوى بضعة باحثين، ننقّب في هذا الميدان، وكان بمقدورنا، في المحصلة أن نعتمد على بعضنا، وأن نقدر بعضنا على نحو متبادل. أما الآن، فماذا أقول لك؟ في كل يوم يصل إلى هنا من لابونيا يا عزيزي! من البيرو! يصل المزيد من الاختصاصيين. يأتون إلى هنا من كل مكان! يفبركونهم، بالجملة في اليابان. سيغدو العالم خلال بضع سنوات، مثلما أراه، مؤسسة فوضوية حقيقية للنشرات الشاملة والسخيفة حول هذا الموضوع المكرر والمعاد دونما فائدة. لقد استسلمت لهذا الوضع، بغية

Twitter: @ketab_n

الحفاظ على موقعي هنا، وللدفاع عنه بالتأكيد، كيفما اتفق، بإنتاج وإعادة إنتاج بحث صغير أقدمه إلى مؤتمر، أو أنشره في صحيفة أو أخرى حيث أدخل عليه، ببساطة، في نهاية كل فصل بعض التعديلات البارعة والعديمة الجدوى، ومع ذلك، صدقني أيها الزميل، فإن التفوئيد، في أيامنا هذه قد انحط وتحول إلى سفاسف بقدر ما انحط الماندولين والبيانو، هذا مرهق إلى حد الإعياء، أقول لك، كل واحد يريد أن يعزف لحناً بطريقته، لا، أود أن أعترف لك أيضاً، لم يعد لدي القوة لأتحمل هذا النكد أكثر من ذلك، ما أبحث عنه كي أنهي وجودي على هذه الأرض هو ركن هادئ، أجري فيه أبحاثي، ليس لي فيه أعداء ولا تلاميذ، بل تلك الشهرة المتواضعة دونما حسد، والتي تكفيني، وَالتي أنا في حاجة إليها. من بين السخافات الأخرى، أفكر بدراسة مقارنة لتأثير التدفئة المركزية على البواسير بين بلدان الشمال والوسط، ما الذي تفكر به أنت؟ بعلم الصحة؟ بالحمية؟ تلك الموضوعات مطابقة لذوق العصر أليس كذلك؟ مثل هذه الدراسة إذا ما أنجزتها بنحو ملائم، وأطلت العمل بها زمناً. فسأحوز على رضى الأكاديمية، أنا واثق من ذلك، والتي تضم أغلبية من العجائز الذين لا يمكن أن يظلوا غير مبالين بمعضلات التدفئة المركزية والبواسير.

انظر ماذا، فعلوا بشأن السرطان الذي يثير اهتمامهم جدا!.. ولكن هل ستكرّمني الأكاديمية بإحدى جوائزها؟ من يدري؟ عشرة آلاف فرنك؟ أليس كذلك؟ بهذا المبلغ سأغطي نفقات رحلة إلى فينيسيا، لقد كنت في فينيسيا أيام شبابي، هل تعلم ذلك يا صديقي الشاب؟.. كدت أهلك فيها من الجوع مثلما كدت أهلك في أمكنة أخرى، ولكنني كنت أتنسم فيها رائحة موت باذخ! ليس من السهل نسيانه فيما بعد..»

Twitter: @ketab_n

في الشارع، كان علينا أن نعود على أعقابنا بسرعة كي نبحث عن نعليه من الكاوتشوك واللذين نسيهما، تأخرنا بعض الشيء، ومن ثم فقد أسرعنا متجهين إلى مكان لم يكن قد حدثني عنه.

عبر امتداد شارع فوجيرارد الموشى بالخضار وبالأنقاض، وصلنا إلى حواشي ساحة محاطة بأشجار الكستناء ورجال البوليس، اندسسنا داخل غرفة داخلية تابعة لمقهى، وجثم بارابين خلف لوح زجاجي في ظل سجف.

«تأخرنا كثيراً، قال بارابين مغتاظاً، لقد خرجن..

ـ من؟

ـ طالبات الثانوية الصغيرات، إنهن فاتنات، كما تعلم.. أعرف سيقانهن عن ظهر قلب. لم أعد أطلب شيئاً آخر، حتى نهاية حياتي.. لنذهب من هنا.. سيكون ذلك في يوم آخر..

وافترقنا، كصديقين حميمين حقاً.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> سأكون مسروراً لو ينزاح عن كاهلي واجب العودة إلى رانسي.
منذ ذلك الصباح الذي غادرت فيه ذلك المكان، نسيت همومي المعتادة. كانت همومي ما تزال مقيمة في نانسي لا تبرح، لم تتبعني إلى باريس، ربما ستموت همومي هناك، مهملة، مثلما سيموت بيبرت، إن لم أعد. كانت تلك هموم الضواحي. غير أنني في شارع بونابرت، عاودني التفكير الحزين، رغم أن ذلك الشارع، كان يخلق البهجة في قلب العابر. فهو يصادف فيه بعض العطوفات والرشيقات. غير أنني حين اقتربت من أرصفة السين، غدوت مع ذلك وجلا. رحت أتسكع. لم أكن قادراً على اتخاذ قرار باجتياز السين. ليس كل الناس يوليوس قيصر! فعلى الجانب الآخر، فوق الضفة الأخرى، كانت تبدأ أكداري، قررت الانتظار هكذا على الضفة اليسرى حتى يخيم الليل.. كانت بضع ساعات من الشمس مغنماً لي، قلت ذلك لنفسي.

كان الماء يبقبق بالقرب من بضعة صيادين، جلست أراقبهم وهم يصيدون، لم أكن مستعجلاً على الإطلاق، ولا هم كانوا مستعجلين أيضاً. كنت كأنما وصلت في اللحظة المناسبة، في العمر المناسب، ربما، حين يعرف المرء جيداً ما الذي يفقده في كل ساعة تمضي. ولكنه لا يملك بعد، قوة الحكمةِ التي يحتاجها كي يتوقف في درب الزمن، وإذا ما توقف، فإنه لايعرف أيضاً ما الذي سيفعله من دون ذلك الجنون الذي يدفعه للمضي قدماً، ذلك الجنون الذي يستحوذ عليه، والذي يسبي عقله أيام شبابه، يكون المرء في السابق أقل تباهياً بذلك الشباب. ولا يجرؤ بعد على الاعتراف به أمام الملأ.

Twitter: @ketab_n

يكتشف المرء داخل ماضيه المضحك الكثير من المساخر والخدع والسذاجات بحيث يرغب، ربما أن يكف عن كونه شاباً، أن ينتظر الشباب الذي انفصل عنه. ينتظر أن يتجاوزه، يراه يمضي، ينأى، يشاهد خيلاءه، يضع يده داخل الفراغ، وحين يتأكد بأن شبابه قد تسرب بهدوء، من بين يديه، يعبر بتؤدة إلى الجانب الآخر من الزمن، كي يشاهد فعلاً كيف يكون الناس والأشياء.

عند حافة الرصيف لم يكن الصيادون قد صادوا أي شيء، لم يكن يبدو عليهم، أيضاً بأنهم حريصون كثيراً على أن يصيدوا أسماكاً.

لا ريب في أن الأسماك كانت تعرفهم. ظلوا هناك جميعاً متظاهرين بأنهم كانوا يصيدون. ثمة شمس أخيرة جميلة كانت ما تزال تنشر بعضاً من الدفء حولنا، مرقّصة فوق الماء انعكاسات صغيرة من النور. مقدودة من الزرقة والعسجد. ومن الضفة المقابلة كانت الريح تهب طرية عبر الأشجار، باسمة كانت الريح، منحنية عبر ألف ورقة، بهبات بليلة. مكثت جالساً هناك بهدوء، ساعتين كاملتين، لا أعاني من شيء ولا أفعل أي شيء. ثم اكتسى السين لوناً معتماً داكناً، وغدت زاوية الجسر حمراء قانية بلون الشفق، والعابرون على الرصيف كانوا قد نسونا هناك، بين الضفة والماء.

خرج الليل من تحت عقود الجسور، وصعد على امتداد القصر، اجتاح واجهة القصر ثم نوافذه، واحدة بعد الأخرى، والتي كانت تتلامع أمام الظلمة ثم ما لبث ذلك اللمعان أن خبا وانطفأ. لم يبق ثمة إلا الرحيل، نهائياً.

باعة الكتب القديمة فوق الأرصفة كانوا يغلقون صناديقهم «هيا تعال» كانت المرأة تهتف من فوق الدرابزين لزوجها الذي يصيد بالقرب مني. والذي راح يجمع أدواته وطعوم ذبابه، وكرسيه المطوي. تذمر الزوج،

Twitter: @ketab_n

والصيادون الآخرون تذمروا في إثره، ثم صعدوا جميعاً، وصعدت أنا إلى الأعلى متذمراً، نحو الناس الذين يمشون فوق الجسر. تحدثت مع الزوجة. لأقول لها بضع كلمات لطيفة قبل أن يطمس الليل بعتمته كل شيء، رغبت المرأة على الفور أن تبيعني كتاباً. كان أحد الكتب قد نسيت إعادته إلى علبتها، مثلما زعمت «ستأخذه إذن بأرخص الأسعار، بلا شيء تقريباً». أضافت المرأة. كتاب صغير قديم لـ«مونتانيي»، تحفة حقيقية بفرنك واحد.. رغبت أن أفرح قلب تلك المرأة لقاء نقود قليلة جداً، أخذت منها «مونتانيي».

تحت الجسر كان الماء قد غدا ثقيلاً جداً. لم يكن لدي قط رغبة في أن أتقدم إلى الضفة الأخرى، عدت إلى الشوارع الفسيحة، تناولت قهوة بالكريما. وفتحت ذلك الكتاب الذي ابتعته من المرأة فوقعت بالضبط على صفحة تضم سطورها رسالة كتبها مونتانيي إلى زوجته، بمناسبة موت ابن لهما، أثار ذلك المقطع اهتمامي مباشرة، ربما بسبب الروابط التي أقمتها في تلك الفترة مع بيبرت. «آه! كتب مونتانيي لزوجته، لا تجزعي!.. يا زوجتي العزيزة! ينبغي أن تتأسّي! ستنفرج هذه الكربة، كل كروب الحياة تنفرج في النهاية.. لقد عثرت بالأمس في بعض الأوراق القديمة لصديق لي على رسالة أرسلها بلوتارك هو أيضاً إلى زوجته في ظروف مشابهة تماماً لظروفنا.. ولأنني وجدتها جميلة جداً، يا زوجتي العزيزة فإنني أرسلها إليك! إنها رسالة رائعة! أنا لا أريد، بالإضافة إلى ذلك أن أحرمك منها زمناً أطول، ستقولين لي كم خففتْ من كربك.. أيتها الزوجة العزيزة، إنها ستثير اهتمامك إلى أبعد الحدود! آه.. لا.. اطّلعي عليها يا زوجتي العزيزة، اقرئيها جيداً. اعرضيها على الأصدقاء، واقرئيها مرة أخرى أيضاً، إنني مطمئن الآن تماماً، وأنا واثق من أنها ستعيد إليك رباطة جأشك.. زوجك الطيب، ميشيل». قلت لنفسي بعد

Twitter: @ketab_n

قراءة الرسالة. ذلك ما يمكن أن نسميه بالإنشاء الجميل الصنع. كانت زوجة مونتانيي خليقة بأن تفخر بزوج طيب لا يجيد إنشاء مثل هذه الرسالة على غرار ميشيلها، ولكن، كانت تلك، في النهاية شؤون أولئك الناس.. لعلنا نخطئ كثيراً حينما يتعلق الأمر بالحكم على قلوب الآخرين. ربما كانوا يشعرون بالحزن حقاً؟ بحزن عصرهم؟

فيما يخص بيبرت، فقد أمضيت من أجله نهاراً عسيراً، لم يكن حظي سعيداً مع بيبرت. لقد بدا لي بأنه لم يعد ثمة شيء من أجله فوق هذه الأرض، وربما ينطبق الأمر نفسه على الناس جميعاً. فما أن يلحّ المرء قليلاً، حتى يصطدم بالخواء. ذلك أمر لا خلاف فيه، لقد غادرت رانسي في الصباح، ولابد من العودة إليها. لم أكن أحمل في جعبتي أي شيء، لم يكن لدي قطعاً ما أقدمه لبيبرت ولا للعمة كذلك.

قمت بجولة صغيرة في ساحة بلانش قبل أن أعود. رأيت الناس متجمهرين على امتداد شارع ليبل، أكثر من المعتاد. صعدت أنا أيضاً لأرى، كان الناس محتشدين في ركن من أركان حانوت جزار. كان علي أن أنهرس كي أرى ما الذي يجري داخل الحلقة. خنزير، بالغ الضخامة، يتأوه، هو أيضاً، وسط الحلقة على غرار رجل يتعرض للتعذيب، ولكن شكوى الخنزير كانت رهيبة. لم يكف المحتشدون عن تعذيبه، بشتى ألوان العذاب. كانوا يلوون أذنيه كي يسمعوه يبعق، كان الخنزير يثني قوائمه ويرفعها وهو يلتمس سبيلاً إلى الفرار باجتذاب حبله، كان آخرون يضايقونه، فيبعق أيضاً بصوت أعلى بسبب الألم، وكان الجمع يغرق في مزيد من الضحك.

لم يكن الخنزير الضخم يعرف كيف يختبئ داخل كومة القش الصغيرة جداً التي تركوها له، والتي كانت تتطاير أشلاء حين كان ينخر، أو ينفخ داخلها. لم يكن

Twitter: @ketab_n

يعرف كيف يفلت من هؤلاء الناس، كان يدرك ذلك. وبال في الوقت ذاته قدر ما يستطيع. ولكن ذلك لم يكن يفيد في شيء وظل ينخر ويبعق، لم يعد يملك أي حيلة، كان الجميع ينفجر بالضحك فيما الجزار، في الخلف، داخل الحانوت، يتبادل الإشارات والغمزات مع الزبائن، وهو يشير بسكينه الضخم.

كان الجزار سعيداً هو أيضاً، فقد اشترى الخنزير، وربطه من أجل الدعاية وهو لن يتسلى أكثر من ذلك، في عرس ابنته.

كان يجتمع عند باب الحانوت المزيد من الناس أيضاً، كي يروا الخنزير وهو يخر على الأرض، فتبدو غضون جلده وردية أكثر مع كل جهد يبذله من اجل الفرار، غير أن ذلك لم يكن كافياً أيضاً، فقد وضعوا فوق ظهره كلباً صغير شرساً. وأخذوا يحرضونه على القفز، وغرز أنيابه في اللحم السمين المنبسط. كانوا يتسلون على هذا النحو، ولكن لم يعد بوسعهم التقدم أكثر، فقد جاء رجال البوليس وفرقوا الحشود.

حينما بلغت في تلك الساعة أعلى جسر كولينكور لمحت فيما وراء بحيرة الليل الشاسعة التي تخيم فوق المقبرة أولى أنوار رانسي، كانت رانسي قابعة على الضفة الأخرى، ينبغي القيام بدورة طويلة. للوصول إليها. كانت بعيدة جداً، وخيل إلي بأنني سأطوف حول الليل ذاته، لفرط ما يحتاج السير حول المقبرة من وقت، ومن خطوات للوصول إلى التحصينات القديمة.

لما أن وصلت باب المقبرة، مررت أمام مكتب الدخول المتعفن، حيث يقبع الموظف الصغير الأخضر بخمول، مثل نبتة ذاوية، كلاب المنطقة اتخذت مواقعها من أجل النباح. كان ثمة زهور تحت ضوء مصباح غاز.. زهور البائعة التي كانت تقف دوماً هناك، تنتظر الأموات الذين يعبرون من يوم إلى آخر، ومن ساعة إلى أخرى.. المقبرة، ومقبرة أخرى أيضاً، إلى جانبها، ثم شارع ريفولت الذي كان يصعد بجميع مصابيحه مستقيماً

Twitter: @ketab_n

وعريضاً، ليشق جوف الليل. لم يكن علي إلا أن اتبعه، على اليسار.. كان ذلك هو شارعي، لم أصادف أحداً، في الحقيقة.. ومع ذلك، كنت أرغب في أن أكون في مكان آخر، بعيد، كنت أرغب أن يكون في قدمّي خفين حتى لايسمعني أحداً أبداً، وأنا أعود إلى منزلي.. لن يكون لعودتي أية فائدة مع ذلك، إن لم تتحسن حالة بيبرت. لقد عملت كل ما في وسعي، لا شيء يمكن أن ألام عليه. لم تكن غلطتي إن أعجزتني الحيل أمام حالة كحالته.. وصلت أمام باب بيبرت، كنت أتخيله دون أن تقع أنظاري عليه. نظرت من نافذتي دون أن أفتح مغلقها كي أرى من بين الشقوق. إن كان ما يزال هناك أحد لأكلمه أمام منزل بيبرت.. كان بعض الزائرين يخرجون من المنزل. ولكن مظهرهم قد تغير عما كان عليه بالأمس. إحدى الخادمات التي تقيم في الجوار والتي كنت أعرفها، خرجت وهي تبكي، «من المؤكد أن حالة بيبرت قد تدهورت.. قلت لنفسي.. على كل حال فإن حالته لن تكون أفضل بالتأكيد، ربما يكون قد مات؟ ما دام هناك من يبكي!». كان النهار قد أدبر.

كنت أسأل نفسي مع ذلك، فيما إن كانت جهودي كلها مع ذلك مجانية ودون جدوى. كان ثمة برد وصمت يسودان منزلي، مثل ليل صغير في زاوية من الليل الكبير، ليل خاص بي وحدي..

من وقت إلى آخر كانت تتصاعد جلبة أقدام، كان الصدى يقتحم غرفتي ويتعاظم دويه أكثر فأكثر، ثم يتلاشى.. صمت.. كنت أنظر أيضاً إن كان ثمة شيء ما يدور في الخارج.. كان ذلك يدور في داخلي فقط. وأنا أطرح على نفسي السؤال ذاته دائماً.

انتهى بي الأمر إلى أن أغفو مع السؤال. داخل ليلي الخاص بي، داخل ذلك التابوت، لفرط ما كنت متعباً من السير، ومن إخفاقي في العثور على شيء.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> بقدر ما لا يصنع الناس لأنفسهم أوهاماً، بقدر ما لا يجدون ما يقولون فيما بينهم، إنهم لا يتحدثون إلى بعضهم إلا عن كروبهم، وكل واحد عن كربه هو، بطبيعة الحال.. كل منهم لنفسه والأرض للجميع! إنهم يحاولون التخلص من كربهم من خلال الآخر، من خلال ممارسة الحب، ولكن ذلك لا يفيد، عبثاً يفعلون، فهم يحتفظون بكربهم كاملاً. ثم يبدؤون من جديد، يحاولون مرة أخرى أن يلقوا به بعيداً، «أنت جميلة، يا آنستي» يقولون، وتدب فيهم الحياة من جديد، حتى يلتقوا بأخرى، فيحاولون أيضاً بالطريقة نفسها «أنت جميلة جداً، يا آنستي».

ولكنهم يفلحون في تنفيس كربهم، في غضون ذلك، من خلال التباهي بأنفسهم. غير أن الجميع، من حولهم يعلمون جيداً، دونما ريب، بأن تباهيهم لاصلة له بالحقيقة والواقع، وأنهم إنما يحتفظون به برمته لأنفسهم هم، في واقع الحال. وما أن يغدو أحدهم قبيحاً أكثر فأكثر، ومنفراً، في تلك اللعبة، حينما يشيخ، حتى لا يعود بوسعه إخفاء كربه وإفلاسه. ثم ينتهي به الأمر إلى أن يرسم على وجهه تلك التكشيرة القذرة، والتي تستغرق عشرين سنة، ثلاثين سنة، وأكثر في التسلق من بطنه إلى وجهه. لهذه التكشيرة يصلح الإنسان، لها وحدها. إنه يمضي كل حياته من أجل أن يتقنها، رغم أنه لا يصل بها دائماً إلى الكمال. لفرط ما هي ثقيلة ومعقدة، بحيث يتوجب عليه من أجل أن يبرزها جيداً. أن يستغل كل موارد روحه دون أن يضيع منها شيئاً.

بخصوص تكشيرتي، فقد كنت على وشك أن أتقنها، بسبب فواتير لن أتوصل إلى تسديدها. إنها فواتير صغيرة مع ذلك، إيجار بيتي المستحيل،

Twitter: @ketab_n

معطفي الرقيق جداً، بالقياس إلى فصل البرد، وبائع الفواكه الذي كان يضحك في زاوية حانوته حينما يراني أعدّ قروشي، وأتردد أمام جبنه الأبيض، وأحمر حينما كان سعر العنب يرتفع، ثم مرضاي. الذين لم أنل رضاهم أبداً. صدمة موت بيبرت أساءت إلى سمعتي أيضاً في الأنحاء المجاورة. غير أن العمة لم تحقد علي. ليس بإمكاني القول بأن العمة كانت خبيثة خلال ذلك الظرف. لا! آل هنروي بالأحرى. هم الذين بدأت أشعر تجاههم، وفي منزلهم بكثير من الضجر، وبكثير من المخاوف.

غادرت العجوز، الأم هنروي، ذات يوم جناحها، وابنها، وكنّتها، وقررت من تلقاء ذاتها، القدوم لزيارتي. لم تكن العجوز غبية، ومن ثم فقد صارت تعود إلي غالباً كي تسألني إن كنت أعتقد حقاً بأنها كانت مجنونة. كان ذلك يوفر لتلك العجوز فرصة للتسلية، بقدومها إلي وطرحها مزيداً من الأسئلة. كانت تنتظرني في الغرفة التي كنت أستخدمها كصالة انتظار. ثلاثة كراسي واسكملة بثلاث أرجل.

حينما عدت ذلك المساء، وجدتها في صالة الانتظار، تعزي خالة بيبرت، وتروي لها عن كل ما كانت قد فقدته هي، العجوز هنروي، من أقارب، في درب حياتها، قبل أن تبلغ هذا العمر، بنات إخوة وأخوات بالدزينات. أعمام وأخوال من هنا وهناك. والدها الذي توفي منذ زمن بعيد، في منتصف القرن الماضي، وخالات أيضاً، ومن ثم بناتها اللواتي اختفين في أمكنة مختلفة، حتى إنها لم تعد تعرف تماماً أين متن ولا كيف متن، وقد خبت صورهن، وغدت مبهمة جداً، بحيث أنها كانت تجبر نفسها على تخيلهن الآن، وبكثير من المشقة أيضاً، حينما تريد أن تتحدث عنهن إلى الآخرين، لم يكن ذلك على الإطلاق ذكريات أبنائها وأقربائها، كانت العجوز تجرجر حشداً من

Twitter: @ketab_n

المنايا القديمة والخفيفة حول خاصرتيها الشائختين، ظلال خرساء منذ زمن طويل، أحزان غير محسوسة كانت تحاول إثارتها قليلاً مع ذلك، بكثير من المشقة، من أجل تعزية عمة بيبرت،

بعد ذلك، جاء روبنسون، بدوره وقمت بتعريف الجميع بعضهم على بعض. كأصدقاء.

ومنذ ذلك اليوم بالذات، اعتاد روبنسون على اللقاء بالعجوز الأم هنروي في صالة انتظاري. كانا يتبادلان الحديث.. وفي اليوم التالي على دفن بيبرت.. «هل ستذهبون معي إلى المقبرة؟» سألت العمة كل أولئك الذين كانت تلتقي بهم، سأكون مسرورة جداً، بأن تذهبوا معي إلى هناك..

ـ سأذهب بالطبع، أجابت العجوز هنروي، من دواعي سرور المرء أن يكون حوله أناس في هذه اللحظات. لم يعد أحد قادراً على إبقائها في كوخها القذر، لقد غدت العجوز دوارة جوالة.

ـ آه، حسن إذن، حبذا أن تأتي معنا! شكرتها الخالة وأنت، يا سيدي، هل ستذهب إلى هناك أيضاً؟ سألت العمة روبنسون:

ـ أنا أخاف من المآتم، يا سيدتي! أرجو أن لا تغضبي مني» أجابها روبنسون كي يتملص من الذهاب.

ومن ثم فإن كلاً منهم تكلم أيضاً ما طاب له الكلام، لا لشيء إلا لأن عليه أن يتكلم بدوره، وبصوت حاد تقريباً، وحتى العجوز هنروي، شاركت في الحديث، بصوت أعلى بكثير من جميع الذين تكلموا، مثلما في مشفى المجانين.

وجدت العجوز، إذن في غرفة الانتظار، فأدخلتها إلى الغرفة المجاورة التي كنت أعاين فيها المرضى.

Twitter: @ketab_n

لم يكن لدي شيء مهم أقوله لها، كانت هي التي تسألني، بالأحرى، عن أشياء، وقد وعدتها بأن لا أصر على شهادة عجزها، وعدنا إلى غرفة الانتظار لنجلس مع روبنسون والخالة، ثم خضنا أيضاً ساعة كاملة في حديث حول الحالة التعسة التي عاشها بيبرت. جميع من في الحي كانوا مجمعين، قطعاً على أنني بذلت أقصى الجهود وتحملت الكثير من المشقة من أجل إنقاذ الصغير بيبرت، وأن وفاته كان قضاء وقدراً، وأنني كنت قد تصرفت بروية في المحصلة. وأن ذلك كان مفاجأة تقريباً لكل من في الحي، وحينما عرفت الأم هنروي بان عمر الصبي سبع سنوات. بدا عليها كما لو أنها شعرت بشيء من الراحة والطمأنينة، فموت صبي في عمر غض، كان يبدو لها أشبه بحادث عرضي، لا أكثر ولا أقل، وليس كموت طبيعي، يدفعها إلى التفكير.

شرع روبنسون يحدثنا مرة أخرى بأن الأحماض كانت تحرق معدته ورئتيه، وتسبب له الاختناق، وتجعله يبصق بصاقاً أسود تماماً، ولكن الأم هنروي لم تكن تبصق، ولم تكن تعمل في الأحماض. لذلك فإن ما كان يتفوه به روبنسون حول هذا الموضوع لم يكن يملك إذن أن يثير اهتمامها. لقد جاءت فقط كي تكوّن رأياً بصددي.

كانت تتفرّس بي من زاويتها حينما كنت أتكلم، بحدقتيها الصغيرتين السريعتي الحركة والمائلتين إلى الزرقة. ولم يكن روبنسون يفوّت أدنى خلجة من ذلك القلق الخفي الكامن بيني وبينها. كانت الظلمة تزحف داخل صالة انتظاري. وغرق المنزل الكبير في الجهة الأخرى من الشارع في الشحوب قبل أن يستسلم لليل. ثم، لم يعد ثمة سوى أصواتنا وهي تتردد فيما بيننا، وكل ما كان يبدو على أصواتنا أنها تقوله دون أن تقول شيئاً على الإطلاق.

Twitter: @ketab_n

ما أن اختليت بروبنسون حتى حاولت أن أفهمه بأنني لمْ أعد راغباً على الإطلاق في رؤيته ثانية، ولكنه عاد مع ذلك، في نهاية الشهر ثم في كل مساء تقريباً. لم يكن صدره في الواقع في حالة طبيعية.

«السيد روبنسون جاء مرة أخرى يسأل عنك، كانت حاجبة العمارة تذكرني بذلك، كان روبنسون قد أثار اهتمامها، ولكن ألن يتخلص المسكين من السعال، إنه ما يزال يسعل حينما يأتي..» كانت تعلم جيداً بأنها تزعجني بالحديث عنه.

كان روبنسون يسعل بالفعل «ليس هناك من وسيلة، كان هو نفسه يتنبأ بذلك، لن أتخلص من هذا السعال أبداً».

ـ انتظر حتى الصيف المقبل، اصبر قليلاً وسترى.. سينتهي ذلك من تلقاء ذاته».

هذا ما يقال، أخيراً، في مثل تلك الحالات، لم يكن بوسعي شفاؤه ما دام مستمراً في العمل بالأحماض.. كنت أرفع من معنوياته، مع ذلك

«سيذهب من تلقاء ذاته؟ كان يجيبني، أنت تبالغ بالتأكيد! ستقول بأن من السهل التنفس كما أتنفس أنا.. بودّي لو أراك تتنفس مع ذلك الشيء الذي في داخل صدري، ستخونك الشجاعة لو كنت مكاني.. هذا ما أقوله لك.

ـ أنت مكتئب الآن، لأنك تمر بلحظة عصيبة ولكن حينما ستغدو أفضل.. وحتى أفضل قليلاً، سترى!

ـ أفضل قليلاً؟ في الجحر الذي أنا فيه سأكون أفضل قليلاً! كان من الخير لي، على الأخص، أن أموت في الحرب، لكان ذلك أفضل حقاً! أنت أيضاً تتمنى ذلك.. وتسلّم به..أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

يتشبث الناس بذكرياتهم القذرة، بكل تعاساتهم. إنهم لا يملكون أن يتخلصوا منها، فهي تحتل أرواحهم، إنهم ينتقمون من جور حاضرهم بصنع المستقبل في أعماقهم بالقذارة ، محقون وجبناء، هم في واقع الأمر. تلك هي طبيعتهم.

لم أعد أجيبه بشيء، كان إذن حاقداً علي.

لكي أهدئ من قلقه بحثت له عن شراب مضاد للسعال، كان جيرانه يشتكون من أنه لم يكن يتوقف عن السعال، وأنهم لا يستطيعون النوم بسبب سعاله المتواصل. وفيما كنت أملأ له القارورة، كان يتساءل أيضاً، من أين أمكنه أن يلتقط عدوى هذا السعال الذي لا يتوقف.. ويطلب مني في الوقت ذاته أن أحقنه عن طريق الإبر، بملح الذهب.

«إذا مت بسبب الإبر، فلن أخسر أي شيء، أنت تعلم!»

ولكنني رفضت، بالطبع، اللجوء إلى علاجات شديدة التأثير أياً كان نوعها. كنت أريد قبل كل شيء أن يغرب عن وجهي.

كنت أفقد أنا نفسي كل مرح، بسبب رؤيته فقط، يتسكع مرة أخرى ها هنا، كنت أشعر بكل آلام العالم لأنني لم أكن أستسلم لفاقتي وبؤسي، ولأنني لم أخضع بعد للرغبة بإغلاق بابي، نهائياً، وعشرين مرة في اليوم، هكذا كنت أردد لنفسي.

ما الجدوى، إذن في الانصات أكثر، إلى نواحه؟ لقد طفح الكيل حقاً.

«أنت تفتقر إلى الشجاعة يا روبنسون، قلت له أخيراً، ينبغي لك أن تتزوج، لعل الزواج يمنحك رغبة بالحياة..» لو كان لديه زوجة، لارتحت منه قليلاً. وحينئذ أشاح عني مغيظاً. لم يكن يحب نصائحي، وعلى الأخص الأخيرة منها. لم يجب بكلمة على مسألة الزواج تلك. لقد كانت في الحقيقة نصيحة بلهاء تلك التي قدمتها له.

Twitter: @ketab_n

في أحد أيام الأحد. لم أكن فيه مناوباً، خرجنا معاً، أنا وروبنسون، فساقتنا أقدامنا، إلى مقهى رصيف في أحد أركان شارع ماغنانيم، جلسنا لتناول كأس صغير من عصير الكشمش ومن الليمونادة، لم نتكلم كثيراً. لم يعد لدى أحدنا ما يقوله للآخر. وماذا تفيد الكلمات في الأصل إن كانت مواقف أصحابها ثابتة؟ مقتصرة على توجيه اللوم، لا أكثر. لم تكن الحافلات تعبر كثيراً أيام الآحاد، لذا فقد كان ممتعاً أن تسرح بنظرك من موقعك على الرصيف إلى الشارع أمامك، خالياً تماماً، هادئاً تماماً هو أيضاً، وجهاز الفونوغراف، في المقهى خلفك.

«هل تسمع؟» قال لي روبنسون، كان الفونوغراف يرسل ألحاناً أمريكية، كنت أعرف هذه الألحان، فقد استمعت إليها هي ذاتها في ديترووا، عند موللي..»

طوال سنتين قضاهما هناك، لم يدخل روبنسون عميقاً في حياة الأميركيين، كان كما لو أنه لامسها من السطح، من خلال بعض موسيقاهم التي كانوا يحاولون من خلالها، هم أيضاً التحرر من وطأة الإدمان على نمط في العيش، ومن العناء الفظيع الناجم عن عملهم في كل الأيام عملاً وحيداً متكرراً. يجعلهم يترنحون طوال حياتهم الخالية من المعنى، دببة، هنا، وهناك!..

لم يكف رأسه عن التفكير في كل ذلك. دوّم بعض الغبار هنا وهناك.. كان ثمة أولاد صغار، يتسكعون حول أشجار دلب قريبة، معفرين بالأتربة، متكرشين، جذبتهم أسطوانة الموسيقى هم أيضاً! ما من أحد يقاوم الموسيقى في الحقيقة، لا شيء يمكن فعله مع القلب. نحن نقدمه عن طيب خاطر. كنا بحاجة إلى الاستماع في قاع كل الموسيقى، إلى اللحن الذي لا علامات له، المصنوع من أجلنا، لحن الموت.

Twitter: @ketab_n

بعض المتاجر ما زالت تفتح أبوابها أيام الأحد، من قبيل العناد. خرجت بائعة الصنادل من محلها، متسكعة من واجهة إلى أخرى وهي تثرثر، حاملة معها كيلوغرامات من الدوالي خلف ساقيها

في الكشك المجاور كانت صحف الصباح تتدلى مسترخية مصفرة قليلاً. ركام هائل من الأخبار يتزنخ فوق صفحاتها، بال كلب فوقها بسرعة، كان النعاس يداعب أجفان مديرة الكشك.

الأفكار أيضاً كان لها يوم أحدها، كنا ذاهلين أكثر من المعتاد. كنا هناك في الفراغ! نعاني من الفراغ! كنا مسرورين. ليس لدينا ما نتحدث به. ما من شيء في الواقع كان يخطر لنا، كنا بؤساء، كان وجودنا مقززاً ربما، ليس ذلك غريباً.

«هلاّ وجدت لي عملاً، أعمل به، كي أخلص من مهنتي التي أنهكتني؟»

كان يخرج من سبحات تفكيره

«أريد الخلاص من عملي، هل تفهم؟ حسبي الكد مثل بغل! أريد أن أذهب لأتنزه أنا أيضاً.. ألا تعرف أناساً يحتاجون إلى سائق. عن طريق الصدفة، ألا تعرف أحداً من الناس، أنت؟».

كانت تلك أفكار يوم الأحد، لم أجرؤ أن أثنيه عن تلك الأفكار أو التلميح له بأنه ما من أحد على الإطلاق يمكن أن يعهد إليه بسيارته مع هذا الرأس الذي يحمله والذي هو أشبه برأس قاتل معوز. وأنه، ببدلة السائقين أو من دونها، سيحتفظ بذلك المظهر الغريب والمضحك للغاية.

«أنتَ لست مشجعاً لي في المحصلة، استنتج حينئذ. لن أتخلص قط، إذن برأيك؟ لم يعد ثمة حاجة إلى أن أحاول؟ في أمريكا، لم تسر أموري جيداً. أنت تعلم.. وفي أفريقيا كانت الحرارة قد أنهكتني.. وها هنا.. لست

Twitter: @ketab_n

ذكياً بما يكفي.. في النهاية، ثمة في كل مكان شيء ما يقف في طريقي، كثيراً أو قليلاً، ولكنني متأكد من كل هذا، آه لو كنت أملك المال! لاعتبرني الجميع شخصاً مهذباً ولطيفاً. هنا، وهناك، وفي كل مكان وفي أمريكا أيضاً، أليس هذا صحيح؟ وأنت نفسك؟..

ـ هذا صحيح» أجبته

لم يصدق بأنه توصل لوحده إلى هذه النتيجة العظيمة، نظر إلي بغرابة حينئذ، كما لو أنه اكتشف فيّ فجأة جانباً منفراً لم يكن يعرفه سابقاً.

«حين أفكر في الأمر، أرى أنك سلكت الطريق الصحيح، أنت تبيع الأكاذيب للمرضى، وبعد ذلك، تولي الفرار، لا أحد يراقبك أو يتحكم فيك، أنت تغدو وتروح حينما تريد، تملك الحرية، في المحصلة.. إنك تبدو لطيفاً، ولكنك، في الحقيقة، قاس عديم الرحمة في أعماقك.

ـ أنت غير منصف يا روبنسون.

«هيا إذن، ابحث لي عن عمل ما»

كان مصمماً على ترك مهنته في الأحماض، إلى مهنة أخرى.

انطلقنا في الشوارع الصغيرة الجانبية، وعند المساء خيل إلينا بأننا قد بلغنا قرية رانسي، مررنا بحقل للبقول كانت أبواب سياجاته نصف مفتوحة والفناء الواسع فارغاً، كوخ الكلب أيضاً. في مساء مثل هذا المساء ومنذ زمن طويل، غادر الفلاحون أحواشهم، طردتهم المدينة التي زحفت نحوهم من باريس، ولم يبق من ذلك الزمن سوى حوشين أو ثلاثة تفوح بروائح متعفنة، اكتسحتها معرشات الوستاريا، بعناقيد زهورها الضجرة، والمتهدلة نحو الأرض على هيئة جدران قرمزية، مشط الأعشاب المعلق بين مزرابين ما يزال لامعاً لم يصدأ. ذلك ماض لن نعود إلى رؤياه قط. لقد مضى وحيداً. أما

Twitter: @ketab_n

مستأجرو اليوم فهم أشد تعباً من أن يلمسوا أي شيء حول بيوتهم حينما يعودون، تراهم متكدسين ببساطة داخل حانات يشربون، تعلقت في سقوفها حلقات من الدخان «على صورة ثريات مهتزة». الحي بأكمله يرتج دون أن يشكو أحد أو يتذمر، من جراء الهدير المتواصل للمصنع الجديد. قرميد الأسطح المغطى بالطحالب، يتساقط متدحرجاً فوق الشقق العليا المحدودبة، مثلما يحدث في سجن فرساي وفي السجون الجليلة الأخرى.

رافقني روبنسون حتى حديقة البلدية الصغيرة المحاطة كلياً بالمخازن والمستودعات، حيث كانت ترمى فوق المرجة المحشوشة مهملات المحيط المجاور، ما بين ملعب الكرة المعد للمعاقين وتمثال فينوس غير المكتمل وكثبان الرمل التي غدت مرتعاً للعب والتبول.

عدنا للحديث هكذا في أشياء مختلفة «ما ينقصني، أنت ترى، هو القدرة على تحمل الشراب» كانت تلك فكرته الدائمة. «حينما أشرب أشعر بتشنجات لا تحتمل في معدتي وهذا أسوأ»، وقدم لي الدليل على الفور بسلسلة من التجشؤات، لم يكن رأسي الصغير لما بعد تلك الظهيرة، يتحملها على الإطلاق.. «هكذا، أنت ترى».

أمام باب منزله تركني. «قصر التيارات الهوائية» كما كان يدعوه ثم اختفى، كنت أعتقد أنني لن أراه عما قريب.

بدت أعمالي راغبة في الازدهار، قليلاً، تلك الليلة. كل ما في الأمر، أن سكان مبنى القوميسارية وجهوا لي دعوتين على نحو مستعجل. ففي مساء الأحد تنفلت الآهات والانفعالات واللهفات. ويراود الذات إحساس بالتأله.. ويعروها الثمل والانشراح أيضاً، ها هم أولاء العبيد، بعد يوم كامل من الحرية الكحولية ينتفضون قليلاً، ويغدو من العسير ضبطهم. إنهم ينخرون، يحمحمون، ويصلصلون بحديد سلاسلهم.

Twitter: @ketab_n

كان الأمر يتعلق بدرامتين كانتا تحدثان في ذلك المبنى، في آن معاً. في الطابق الأول كان مريض بالسرطان يلفظ أنفاسه، وفي الطابق الثالث كان هناك إجهاض، لم تفلح القابلة في أن تتدبر أمره، كانت تلك العجوز تعطي نصائح طبية للجميع، وبعد محاولتها تجفيف الدماء النازفة بمناشف ومناشف أيضاً انسلت بين حقنتين، ونزلت إلى مريض السرطان في الطابق الأول لتحقنه بإبرتين من زيت الكافور، بعشرة فرنكات لكل إبرة، إن كان هذا يعجبكم، كان ذلك النهار طيباً، بالنسبة إليها.

جميع عائلات ذلك المبنى أمضوا يوم أحدهم بالمئزر والقميص الداخلي لمواجهة الأحداث. مدعومين جيداً بالأطعمة المتبّلة، كانت رائحة الثوم وروائح غريبة أيضاً تحتل الأروقة والأدراج. الكلاب أيضاً كانت تتسلى متشقلبة حتى الطابق السادس. حاجبة العمارة كانت حريصة على أن تحيط بكل شيء، كنت تجدها في كل مكان، لم تكن قد شربت سوى من النبيذ الأبيض، لأن النبيذ الأحمر كان سيضيع عليها الكثير من التفاصيل.

القابلة العجوز الضخمة والملفوفة بوزرتها الفضفاضة قامت بإخراج الدرامتين. في الطابق الأول والثالث، واثبة، ناضحة بالعرق، مبهورة الأنفاس ومترعة بالحقد، أثار قدومي سخطها الشديد.. فقد كانت تسيطر على جمهورها. نجمة من النجوم.

بذلت عبثاً كل ما في وسعي لمداراتها، كي ألفت انتباهها إلى وجودي، ولو بأدنى حد ممكن، كي يجعلها وجودي وكلامي (على الرغم من أنها في الواقع، لم تفعل شيئاً سوى حماقات فظيعة) تشعر بالخوف. ولكن دون فائدة. أن تشرف على قابلة فذلك أشبه بداحس متقيح في إصبعك. فأنت لا تعود تدري كيف تعاملها كي ينالك أدنى قدر ممكن من أذاها، كان المطبخ يكتظ

Twitter: @ketab_n

بالعائلات حتى أول الدرج، مختلطين بأقارب آخرين للعائلة، ما أكثر ما كان هناك من أقارب! جسيمين ونحفاء، متكدسين على هيئة عناقيد، يغالبون النعاس تحت أضواء «الثريات» كان الوقت يمضي، وما يزال آخرون يأتون من المقاطعة حيث ينامون هناك أبكر مما في باريس.. حسبهم تعباً وسهراً! كل ما كنت أقوله لأقارب دراما الطابق الأول، مثلما لأقارب دراما الطابق الثالث، لم يعوه أو يعقلوه بالمرة.

لم يدم الاحتضار في الطابق الأول إلا بعض الوقت. هذا أفضل وهذا أسوأ! وفي اللحظة التي هاجمه فيها الفواق. وصل طبيبه المعتاد، الدكتور أومانون كي يرى إن كان زبونه قد مات، وعنفني أيضاً، أو كاد، لأنه وجدني عند فراش مريضه. شرحت حينئذ لأومانون بأنني كنت مناوباً في الخدمة البلدية ليوم الأحد، وأن وجودي كان طبيعياً. ثم صعدت إلى الطابق الثالث، بوقار.

كانت المرأة في الأعلى تنزف باستمرار من فرجها، ولن تلبث طويلاً حتى تموت هي أيضاً، دون تأخير، مكثت دقيقة ريثما أحقنها بإبرة، ثم نزلت مرة أخرى إلى مريض أومانون، كان كل شيء قد انتهى، وكان أومانون قد غادر، ولكنه قبض مع ذلك العشرين فرنكاً التي هي من حقي، الوغد!.. عزمت حينئذ على أن لا أتخلى عن المكان الذي شغلته بالقرب من الإجهاض، صعدت إذن بسرعة.

أمام فرج المرأة النازفة، كنت ما أزال أشرح الأمور للعائلة، كانت القابلة، بالطبع تعاكس رأيي، كأنها كانت تكسب مالها بمعارضة أقوالي. غير أنني أنا الطبيب! تعساً لها. ينبغي أن لا أبالي بها سواء أرضيت أم لم ترض، كان ينتظرني مئة فرنك، على الأقل، إن عرفت كيف أتصرف بثبات، مزيداً من الهدوء، ومن العلم! قلت لنفسي. اللعنة! ينبغي الصمود. أمام هجمة

Twitter: @ketab_n

الملاحظات والأسئلة المترعة بالنبيذ الأبيض والتي كانت تتقاطع، عنيدة فوق رأسي الساذج، ذلكم هو العمل. إنه ليس سهلاً: قالت العائلة كل ما كانت تفكر به، بمساعدة الآهات والتجشؤات. كانت القابلة تنتظر، بدورها أن أتعثر، وأن يرتجّ علي الكلام. وأن أولّي الأدبار، وأترك لها المئة فرنك. كانت تريد أن تنهي الوضع بسرعة. وأجري إذن؟ منذا الذي سيدفعه؟ هذه الولادة تتعثر منذ الصباح، أودّ ذلك، وهذا النزيف لا يتوقف، أود ذلك أيضاً، ولكن الجنين لايخرج، ينبغي التمكن من إمساكه.

الآن، وقد مات مريض السرطان في الطابق الأول، فإن جمهور احتضاره صعد خلسة إلى هنا، فما دام أنهم قد سهروا حتى هذه اللحظة، وضحّوا بليلتهم تلك، فليتسلوا إذن بمشاهدة كل ما يتيحه لهم الجوار من تسليات، أسرة مريض السرطان في الأسفل صعدت لترى إن كانت الأمور هنا ستنتهي نهاية سيئة أيضاً، مثلما انتهت لديها. ميتان في ليلة واحدة، وفي بناء واحد، سيكون هذا لعمري، حدث مفجع، بكل بساطة. كلاب الحي جميعاً كأن يُسمع رنين أجراسها الصغيرة، وهي تتواثب وتتشقلب عبر الأدراج. وقد صعدت هي أيضاً. أشخاص قدموا من بعيد، دخلوا كذلك، بأعداد وفيرة، يتبادلون الوشوشات.. الفتيات اليافعات كن «يتعلمن دروس الحياة» دفعة واحدة، كما تقول الأمهات، إنهن يتكلفن، برقة بالغة مظهر الرصانة أمام المحنة. تلك الغريزة الأنثوية في التعزية والمواساة، كن يراقبن منذ الصباح ابن عم لأسرة المريضة قد اعتراه ذهول شديد، لم تكن عيونهن تفارقنه، ذلك كشف مباح وسط التعب، كان الجميع بثياب البيت، مهملي الهندام. سيتزوج ابن العم إحدى هؤلاء الفتيات، ولكنه يريد أن يرى سيقانهن أيضاً، أثناء وجوده هنا، كي يستطيع أن يختار بصورة أفضل.

Twitter: @ketab_n

إخراج الجنين لم يكن يتقدم، ينبغي أن يكون مضيق الحوض جافاً، لم يعد ثمة انزلاق، كان هناك نزيف وحسب. سيكون هذا ولدها السادس تُرى أين هو زوجها؟ طلبت أن أراه.

لابد من حضور الزوج، كي يتمكن من نقلها إلى المستشفى، هكذا اقترحت عليّ إحدى القريبات، وهي أم لعائلة كانت تريد مع ذلك. أن تذهب لتنام مع أولادها الذين تركتهم. ولكن حين ورد ذكر المستشفى، فإن معظم الحضور لم يكن موافقاً. قلة منهم كانوا يريدون المستشفى. أما الغالبية فبدوا كارهين جداً بسبب التقاليد.. لم يكن يريد هؤلاء حتى مجرد الحديث عن ذلك، كانوا يتبادلون فيما بينهم بصدد الموضوع كلمات رنانة منقولة عن الأجداد، لن ينسوها أبداً، فهم يموتون في البيوت وبين أفراد العائلة وليس في مكان آخر. كانت القابلة تحتقر الجميع. غير أنني، من جانبي، كنت أريد أن يعثروا على الزوج كي أتمكن من أن أشاوره في الأمر، بغية اتخاذ قرار في النهاية، على هذا النحو أو ذاك. هو ذا الزوج قد برز أخيراً من بين الحشد.. أكثر تردداً وحيرة أيضاً. من جميع الآخرين. كان عليه هو، مع ذلك، أن يحسم الأمر. المستشفى؟ أم لا؟ ما الذي يريده الزوج؟ إنه لا يدري. إنه يريد أن يرى بعينيه. أمعن النظر في زوجته حينئذ. أريته، ثقب زوجته الذي تسح منه خثرات متجمدة وتبقبق الدماء فيه، ثم أريته زوجته بأكملها، والتي كانت تئن مثل كلب ضخم مرت فوقه عجلات سيارة. لم يكن، في المحصلة، يعرف ما يريد، ناولوه قدحاً من النبيذ الأبيض ليتماسك. ثم ما لبث أن جلس.

لم تؤاته أية فكرة رغم كل شيء، ذلكم رجل يكدح طوال النهار، جميع من في السوق يعرفونه جيداً، وفي محطة القطار على الأخص، حيث كان يحمل الأكياس للسباخين، وليس أكياساً صغيرة بل ضخمة ثقيلة، منذ خمس

Twitter: @ketab_n

عشرة سنة. كان مشهوراً. بنطاله كان كبيراً وفضفاضاً، وسترته أيضاً، بحيث لم يكن يبدو عليه، لفرط اتساعهما أنه يتحرك داخلهما غير أنه فوق الأرض فقط، وحين ينتصب، كان يبدو واقفاً على رجليه كليهما، كما لو كان سيزلزل الأرض بين لحظة وأخرى. كان يدعى بيير.

كنا ننتظر قراره. «ما الذي تفكر به يا بيير؟» كان جميع من حوله يسألونه.. حك جلده، ثم جلس بيير، عند رأس زوجته، كما لو كان يصعب عليه التعرف عليها، هي التي لم تكف عن وضع الأبناء والآلام في هذا العالم. ومن ثم ذرف بيير نوعاً من الدمع. وبعد ذلك عاد إلى الوقوف من جديد. وحينئذ، طرحوا عليه السؤال نفسه مرة أخرى، كنت قد جهزت بطاقة دخول إلى المستشفى «فكر إذن قليلاً يا بيير!» كان الجميع يناشدونه. كان يحاول فعلاً. ولكنه أعطى إشارة بأن شيئاً لم يخطر له. نهض ومضى مترنحاً صوب المطبخ، حاملاً قدحه. ما جدوى انتظاره أيضاً؟ ربما سيدوم تردده بقية الليل، جميع من كانوا حوله أدركوا ذلك. لابد لي إذن من الانسحاب.

كانت المئة فرنك قد ضاعت علي. هذا كل شيء! كنت قد سئمت من القابلة، لا يهم كيف! كان ذلك غاية مناها، ولم أكن، بالإضافة إلى ذلك، قادراً على المضي في إجراءاتي العملية، أمام أنظار الجميع. كنت متعباً للغاية «تعساً لي، قلت لنفسي، لنذهب من هنا! لندع الطبيعة هادئة! تلك الصبية!

ما كدت أبلغ الدرج، حتى كان الجميع يبحثون عني، وكذلك الزوج الذي كان يتدحرج خلفي «هيه، صاح لي، دكتور، لا تذهب!

ــ ما الذي تريد مني أن أفعله؟ أجبته

ــ انتظر، سأرافقك يا دكتور، أرجوك سيدي الدكتور!

Twitter: @ketab_n

ــ حسناً» قلت له، وتركته يرافقني إلى الأسفل، لدى مرورنا بالطابق الأول، دخلت، مع ذلك لأودع عائلة مريض السرطان الراحل، ودخل الزوج معي إلى الحجرة. ثم خرجنا. وفي الشارع سار إلى جانبي، كان قد شعر بالحيوية في الخارج. صادفنا كلباً صغيراً كان يتدرب على الرد على كلاب تلك الناحية، بنباحات طويلة، كان عنيداً ونائحاً. إنه يعرف كيف ينبح الآن، محتجاً، وعما قريب سيغدو كلباً حقيقياً.

«عجباً إنه «مح البيض» لاحظ الزوج، مسروراً جداً بالتعرف على الكلب، وبتغيير دفة الحديث. بنات الكواء في شارع غونيس هن اللواتي ربينه على رضاعة الأطفال: «مح البيض»، ذلك الجرو الصغير!.. أنت تعرف بنات الكواء؟

ــ نعم ــ أجبته

كان يحدثني دونما توقف، فيما نحن نمشي، عن الطرائق التي تُربى فيها الكلاب، دون أن يكلف ذلك غالياً جداً، كان يبحث باستمرار، مع ذلك، فيما وراء هذه الكلمات عن فكرته حول مصير زوجته.

كان هناك خمارة مفتوحة بالقرب من باب العمارة

«هل ندخل إلى هنا، دكتور؟ أريد أن أقدم لك..

لم أكن أريد أن أعاكسه، «لندخل» قلت له «اثنان بالكريم»

وانتهزت الفرصة كي أعاود التحدث إليه عن زوجته. جعله حديثي جدياً تماماً، ولكن دون أن أتوصل، إطلاقاً إلى إقناعه بشيء.. فوق مكتب الخمار، كان ثمة باقة كبيرة من الورد تشع بالبهجة، كان ذلك عيد ميلاد الخمار ما رترودون، «هدية الأولاد» أعلن لنا الخمار ذلك وتناولنا قدحاً من الفيرموت على شرفه، ثمل الزوج، واشتبك في جدال طويل مع الخمار، حول

Twitter: @ketab_n

تاريخ الخمارة واسمها السابق، حتى أنه لم ينتبه إلى خروجي لفرط ما كان مستغرقاً في الجدال.

لم أر الزوج مرة أخرى أبداً، كنت أشعر بخيبة مريرة من كل ما حدث لي في ذلك الأحد، وكنت متعباً جداً بالإضافة إلى ذلك.

ما كدت أخطو بضع خطوات في الشارع حتى لمحت روبنسون قادماً نحوي، حاملاً أنواعاً شتى من الألواح الخشبية، الصغيرة منها والكبيرة. تعرفت عليه جيداً، رغم عتمة الليل، ولشدة انزعاجه من لقائه بي، انسل مبتعداً عني، ولكنني أوقفته.

«أنت لم تنم إذن؟ قلت له

ــ الوقت مبكر! أجابني. أنا ذاهب إلى العمل في بعض الإنشاءات!

ــ ما الذي ستفعله بكل هذه الأخشاب؟ انشاءات، أيضاً؟ تابوت؟ هل سرقتها؟

ــ لا، إنها من أجل قفص للأرانب

ــ هل تربي أرانب في هذه الأيام؟

ــ لا ــ إنه من أجل آل هنروي؟

ــ آل هنروي؟ وهل لديهم أرانب؟

ــ نعم، ثلاثة أرانب، سيضعونها، في الفناء الصغير. أنت تعلم، حيث تقيم العجوز..

ــ إذن فأنت تصنع أقفاصاً للأرانب، في هذه الساعة من الليل؟ إنها ساعة غريبة!

ــ تلك هي فكرة زوجته!

Twitter: @ketab_n

ـ يا لها من فكرة عجيبة!.. ما الذي تريد أن تفعله زوجته بالأرانب؟ هل ستبيعها من جديد، أم لتصنع منها قبعات بالفراء؟

ـ لست أعلم.. ستسألها حين تراها. حسبي أنا أن تعطيني «مئة فرنك».

كانت مسألة القفص هذه تبدو لي، مع ذلك.. في منتصف الليل، غريبة ومضحكة.. ألحفت عليه بالسؤال..

ولكنه حوّل مجرى الحديث. سألته من جديد

«ولكن كيف ذهبت إلى بيتهم؟ فأنت لم تكن تعرف آل هنروي؟

- العجوز هي التي قادتني إلى بيتهم. أقول لك. في اليوم الذي التقيت بها في عيادتك، إنها ثرثارة، تلك العجوز.. وحين بدأت الحديث.. ليس لديك فكرة.. لم أستطع التخلص منها.. ثم غدت بعد ذلك أليفة معي.. وكذلك هم.. ثمة أشخاص يثيرون اهتمامي أنت تعلم!

- أنت لم تحدثني إطلاقاً عن كل ذلك.. ولكن ما دمت تذهب إليهم، فلا شك أنك تعرف! إذا ما توصلوا إلى وضع عجوزتهم في الملجأ؟

- لا، لم يتمكنوا من ذلك، كما قالوا لي..»

لم تكن هذه المحادثة بأكملها تروق له. كنت أحس بذلك، لم يكن يعرف كيف يتخلص مني. ولكنه كلما كان يتهرب، كلما أصررت على معرفة ما يقوم به.

«الحياة قاسية مع ذلك، ألا ترى أنت؟ ينبغي القيام بأعمال كثيرة، أليس كذلك؟» كان يتحدث بغموض. ولكنني كنت أعيده من جديد إلى الموضوع، كنت عازماً على أن لا أتركه يتملص.

Twitter: @ketab_n

ـ يقال بأن لدى آل هنروي من المال أكثر مما يتظاهرون به؟ ماذا تقول في ذلك، وأنت الآن ذاهب إليهم؟

ـ نعم، أكبر الظن أنهم يملكون كثيراً من المال، ولكنهم يريدون فعلاً التخلص من العجوز».

بصدد الكتمان، لم يكن روبنسون ناجحاً على الإطلاق.

«بسبب أعباء الحياة، أنت تعلم، والتي تزداد أكثر فأكثر يريدون التخلص من العجوز. قالوا لي بأنك لست راغباً في أن تعتبرها مجنونة؟ هل صحيح ما يقولونه؟

ودون أن يلح على سؤاله هذا، سألني، عن الجهة التي كنت قادماً منها.

«هل أنت عائد من زيارة مريض؟»

رويت له قليلاً عن مغامرتي مع الزوج الذي كنت قد أضعته في الطريق، جعله ذلك، يضحك، كما جعله يسعل في الوقت ذاته.

التوى جسده كلياً، داخل ظلمة الليل، ليسعل بينه وبين ذاته، بحيث لم أعد أراه تقريباً. ولقربه مني كنت ما أزال أرى يديه فقط على نحو مبهم، منضمتين إلى بعضهما برفق، على غرار وردة ضخمة ذاوية أمام وجهه، في قلب الليل، ترتعشان. لم يتوقف عن السعال، «إنها تيارات الهواء!» قال أخيراً، بعد أن توقف سعاله، حينما كنا قد وصلنا أمام بيته.

«نعم، في بيتي تيارات هوائية! وهناك براغيث أيضاً هل لديك في البيت براغيث أيضاً.

كان بيتي لا يخلو منها. «نعم بالضرورة، أجبته إنها تنتقل إلي من بيوت المرضى.

Twitter: @ketab_n

ـ ألا تجد بأن مرضاك يفوحون برائحة البول؟ سألني حينئذ.

ـ نعم! وبرائحة العرق أيضاً..

ـ مع ذلك، قال بتمهل بعد أن فكر طويلاً، بودي لو أكون ممرضاً.

ـ لماذا؟

ـ لأن الناس، كما ترى، حينما ينعمون بالصحة، فمن المؤكد أنهم يثيرون فيك الخوف.. منذ الحرب على الأخص. أنا أعرف بمَ يفكرون.. إنهم لا ينتبهون دائماً إلى ذلك، هم أنفسهم ولكنني، أعرف بم يفكرون.. فحينما يكونون أصحاء، يفكرون بقتلك.. في حين أنهمّ حين يكونون مرضى فمن المؤكد، أنهم أضعف من أن يثيروا خوفك.. لا شك أنك توافقني الرأي فيما أقوله لك.. أليس هذا صحيحاً.

ـ هذا صحيح، قلت ذلك على الرغم مني.

ـ وإذن، أنت، أليس بسبب ذلك أيضاً صرت طبيباً؟» سألني أيضاً

فيما كنت أبحث عن جواب، شعرت بأن روبنسون ربما كان على حق. ولكنه عاد فوراً إلى سعاله في نوبة شديدة.

«قدماك رطبتان، ستصاب بذات الجنب، وأنت تترنح هكذا في الليل، عد إذن إلى بيتك. نصحته، اذهب ونم.

بسبب سعاله المتواصل على هذا النحو، ثارت أعصابه.

ـ العجوز هنروي، لن تلبث طويلاً حتى تصاب بنزلة صدرية محترمة. كان يسعل في أذني وهو يضحك.

ـ وكيف ذلك؟

ـ سترى! قال لي.

Twitter: @ketab_n

ـ ما الذي ابتكره الزوجان هنروي؟

ـ لا أستطيع أن أخبرك أكثر من ذلك.. سترى..

ـ أخبرني إذن، يا روبنسون، هيا أيها الوغد، أنت تعلم جيداً بأنني لاأكرر ما أسمعه أمام أي كان..

الآن فقط، استبدت به الرغبة فجأة بأن يروي لي كل شيء. ربما ليُفهمني، في الوقت ذاته بأن علي أن لا أحسبه خانعاً، خائراً بقدر ما كان يبدو عليه ذلك.

ـ هيا إذن! كنت ما أزال أحثه بصوت هادئ. أنت تعلم جيداً بأنني لاأتكلم مطلقاً..».

كان ذلك هو العذر الذي يحتاج إليه كي يعترف.

«بخصوص ذلك أنا أصدقك، فأنت تصمت جيداً» وافقني على ذلك، ثم انطلق ليعترف لي بما كان يكتمه، بكل جدية. أنت تريد ذلك، إليك إذن!.

كنا وحيدين تماماً في تلك الساعة فوق شارع كوتومانس.

«أنت تذكر، بدأ كلامه، قصة بائعي الجزر؟»

لم أكن أتذكر، في البداية، تلك القصة عن بائعي الجزر

«أنت تعرف جيداً، هيا؟ ألحّ علي، أنت نفسك من رواها لي..

ـ آه، نعم» وتذكرت ذلك حينئذ فجأة

«هل تقصد قصة عامل سكة الحديد، في شارع برومير؟ الذي انفجرت فيه المفرقعة، وأصابت خصيتيه، حينما كان يحاول سرقة الأرانب؟..

ـ نعم! أنت تعلم، في منزل بائع الفواكه، فوق رصيف ارجنتوي .

Twitter: @ketab_n

ـ صحيح! فهمت الآن. قلت له. وإذن؟» ذلك أنني لم أتبين بعد الصلة بين هذه القصة القديمة وبين موضوع العجوز هنروي.

لم يتأخر في أن يضع لي النقاط على الحروف.

ـ أنت لم تفهم؟

ـ لا»، قلت له، ولكن بعد قليل لم أعد أجرؤ على أن أفهم

ـ إيه حسناً، هل يحتاج منك ذلك إلى كل هذا الوقت؟

ـ ذلك لأن تصرفك يبدو لي غريباً. لم أستطع أن أمنع نفسي من تحذيره، أنت لن تشارك، مع ذلك في قتل العجوز هنروي الآن، من أجل إسعاد الكنة.

ـ أوه، أنت تعلم، سأكتفي أنا بصنع القفص الذي طلباه مني.. أما بالنسبة إلى المتفجرة، فإنهما من سيهتم بشأنها.. إن شاءا!..

ـ كم أعطياك من أجل ذلك؟

ـ مئة فرنك من أجل الخشب، ومئتين وخمسين لصنع القفص، وألف فرنك أيضاً لكل الحكاية.. أنت تفهم، ليس ذلك سوى البداية، تلك حكاية.. حين تروى بصورة جيدة، فإنها تؤمن دخلا.. صغيراً، هيه!.. هل تفهم ذلك؟

كنت أفهم في الواقع، ولم أكن مفاجأ، ولكن ذلك جعلني مغموماً، هذا كل شيء. كل ما تقوله لتثني الناس عما عزموا عليه في مثل هذه الحالات لاأهمية له على الدوام، هل كانت الحياة لطيفة بهم؟ هل سيكون لديهم إذن رحمة بأي إنسان أو بأي شيء..؟ هل رأينا أحداً ينزل في الجحيم ليحل محل آخر؟ أبداً على الإطلاق. ولكننا نراه يُدخل الآخر في الجحيم. هذا كل شيء.

نزعة القتل التي استأثرت فجأة بروبنسون، كانت تبدو لي في المحصلة كنوع من التطور، فيما لاحظته حتى ذلك الحين لدى الأشخاص الذين هم دائماً

Twitter: @ketab_n

أنصاف حقودين، أنصاف عطوفين، مربكين دوماً بسبب غموض نزعاتهم الداخلية. من المؤكد أنني بمتابعتي لروبنسون حتى النهاية، خلال تلك الليلة تعلمت أموراً كثيرة، مع ذلك.

ولكن كان ثمة خطر: القانون «هذا عمل خطر، لفتّ أنظاره إلى القانون، إذا ما علقت في حبائله فلن تنجو، مع صحتك هذه، ستظل في السجن، ولن تصمد.

ــ تعساً لي حينئذ، أجابني روبنسون، يكفيني ما تعاملت به مع جميع الناس بالطرق القانونية.. أنت رجل عجوز، ما تزال تنتظر دورك كي تمرح وتضحك، وحين يصل دورك.. هذا إن وصل.. فستكون هالكاً، مدفوناً تحت الثرى منذ زمن طويل.. المهن الشريفة هي عمل الناس السذج. كما يقال: أنت تعرف هذا مثلما أعرفه أنا.

ــ هذا ممكن.. ولكن الآخرين.. الرجال الأقوياء، جميع الناس، سيحاولون فعل ذلك ربما لو لم يكن هناك مجازفات.. والبوليس خبيث، كما تعلم، ليس ثمة إيجاب وسلب..»

ــ لا أقول العكس، ولكن أنت تفهم، ففي عمل كالذي أعمله، وفي شروط كالتي أعيش فيها، حيث لا يغمض لي جفن، أسعل طوال الليل والنهار، وأكدّ مثل حصان، في أعمال لا أرغب بها، ما من شيء يمكن أن يحدث لي الآن، أسوأ من ذلك.. هذا هو رأيي.. لا شيء..».

لم أكن أجرؤ على أن أقول له، في المحصلة، بأنه على حق تماماً، مخافة اللوم الذي سيوجهه إلي، فيما بعد، إذا ما أخفقت مكيدته الجديدة، وحتى يطمئنني، ساق لي بعض الحجج كي لا أقلق بشأن العجوز، فهي في نهاية المطاف، وبأي طريقة من الطرق، لم يعد لديها من العمر الكثير لتعيشه في

Twitter: @ketab_n

هذه الحياة الدنيا، فقد كانت مسنة جداً، وهو سيرتب أمر خروجها من البيت في النهاية، وهذا كل شيء.

إذا ما تحدثنا، مع ذلك عن خدعة شنيعة فقد كانت تلك رغم كل شيء، خدعة شنيعة، كل التفاصيل كان متفقاً عليها بينه وبين ولديْ العجوز.. فما دامت العجوز قد استأنفت عادة الخروج من بيتها، فسيغرونها ذات مساء جميل على الأكل مع الأرانب..

ستكون المتفجرة مجهزة جيداً، وستنطلق في وجهها تماماً حينما ستلمس باب القفص. مثلما حدث في بيت بائع الفواكه.. كان يُنظر إلى العجوز في الحي على أنها مجنونة. ولن يفاجئ الحدث أحداً من الناس.. سيقولون بأنهم نبهوها إلى أن لا تقترب أبداً من الأرانب.. وأنها لم تسمع كلامهم.. وعجوز في عمرها، لن تنجو بالتأكيد من صدمة مفرقعة كالتي كانوا قد جهزوها.. على هذا النحو، في وسط معدتها.

لا نكران أبداً، في أنني كنت قد رويت لروبنسون حكاية مفيدة!

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> وعادت الموسيقى في العيد مرة أخرى، تلك التي ما برحت أصداؤها ترن في ذاكرتي منذ أزمان بعيدة، حينما كنت ما أزال صغيراً، تلك التي لا تتوقف أبداً، هنا وهناك، في جيوب المدينة، وفي ساحات الريف الصغيرة، في كل مكان حيث يجلس الفقراء، في نهاية الأسبوع كي يتأملوا فيما آلوا إليه، ذلكم هو فردوس النعيم! كان يقال لهم، ومن ثم فقد كانت الموسيقى تصدح لهم، تارة هنا وطوراً هناك، ومن فصل إلى آخر، كانت أصوات الموسيقى تضج للفقراء، تطحن كل ما ارتكبه الأغنياء بحقهم، في السنة المنصرمة. كانت الموسيقى الآلية، تنهمر من ظهور الخيول الخشبية، من السيارات التي لم تكن تشبه السيارات. من منصة المصارع الذي لا حول له ولا قوة. من الساحر الذي كانت تخدعه زوجته. من الأورغ الذي لم يكن ذهبياً، من خلف خط الرماية على البيض الذي كان فارغاً.. ذلكم هو العيد..! عيد أناس نهاية الأسبوع.

ويشرب المحتفلون بالعيد كؤوس الجعة من دون رغوة، ولكن الصبي تفوح رائحة أنفاسه تحت الأجمة المزيفة. والنقود التي يدفعها تحتوي على قطع غريبة جداً، بحيث لا ينتهون بعد ذلك من تفحصها، أسابيع وأسابيع. يدسونها بصعوبة في أيدي المتسولين، حينما يتصدقون، ذلك هو عيد الفقراء، ينبغي أن تتسلى حيثما يمكنك ذلك، ما بين الجوع وبين السجن، وأن تقبل الأمور كيفما تكون.. وما دمت لابثاً في مكانك لا تبرحه، فعليك ألا تشكو! «مركز الرماية» ذاته، رأيته من جديد. ذلك الذي شاهدته لولا منذ سنين

Twitter: @ketab_n

مضت، رأيته الآن في ممرات حديقة سانت كلود. كل شيء نراه من جديد، في الأعياد! إنها عودة الفرح إلى الأعياد، ينبغي للجموع منذ الآن أن تعاود التنزه وسط الممر الكبير لسانت كلود.. متنزهون ومتنزهون... كانت الحرب قد انتهت. ترى هل كان مالك مركز الرماية هو نفسه الآن أيضاً؟ هل عاد من الحرب ذلك المالك؟ كل شيء هنا كان يثير اهتمامي، تعرفت على أهداف الرمي، ولكنهم أضافوا إليها الرمي على الطائرات.. إنه الجديد، التقدم، الموضة.. كان العرس هو هو، الجنود أيضاً ودار العمدة مع علمها، كل شيء كان على حاله، في المحصلة، مع أهداف أخرى للرمي أكثر مما كان في ذلك الزمن الغابر.

ولكن الناس كانوا يمرحون أكثر في حلبة السيارات. تلك الابتكارات الحديثة. بسبب أنواع من الاصطدامات، لا نهاية لها، داخل الحلبة، وبسبب الرجات الهائلة التي تخترقك من رأسك حتى أحشائك. بعض المخبولين والصخابين كانوا يعمدون إلى التصادم بعنف بالغ، والسقوط دائماً كيفما اتفق، مسببين أشد الأذى لأنفسهم، لم يكن من السهل إيقافهم. لم يطلبوا هم قط عناية من أحد، وما كانوا سعداء في يوم من الأيام. مثلما هم الآن. كان بعضهم ما ينفك يهذي، كان ينبغي انتزاعهم من كوارثهم. كانوا يطلبون الموت لأنفسهم، كعلاوة، لقاء عشرين قرشاً، فيما هم مندفعون فوق الآلة. كان على الجوقة الموسيقية أن تعزف وسط العيد حتى الساعة الرابعة. كان لها صليبها وعلمها، لم يكن من السهل جمع الموسيقيين، بسبب البارات التي كانوا يدخلونها بأجمعهم بين حين وآخر، وحين كانوا يجتمعون من جديد، يكون واحد منهم ناقصاً، فينتظرونه، ثم يذهبون للبحث عنه، وأثناء فترة انتظاره وعودته، يستبد بهم العطش، وها هما اثنان آخران يختفيان. ثم يبدأ كل شيء من جديد.

Twitter: @ketab_n

تنتظر العائلات الألعاب النارية كي تذهب بعدها إلى النوم، انتظار، إنه العيد أيضاً، ألف ليتر فارغ كانت تهتز وتطقطق، وتحت الطاولات أقدام متحركة متوافقة أو متعاكسة، لم يكن أحد يسمع الموسيقى لفرط ما كانوا يحفظون الألحان غيباً، ولا الأسطوانات المبهورة خلف الأكواخ حيث تمور الحياة في الأشياء التي لا بد من رؤيتها لقاء فرنكين اثنين. يقرع القلب من جراء التعب على امتداد صدغيك حينما تشرب، بم، بم! فوق نوع من المخمل الممتد حول رأسك، وفي أعماق أذنيك، هكذا ستؤول إلى الانفجار ذات يوم. حينما تنضم حركة داخلك إلى حركة الخارج، وتتبدد حينذاك جميع أفكارك لتلهو أخيراً مع النجوم.

كان ثمة الكثير من الدموع خلال العيد، تنهمر من مآقي الأطفال الذين ينهرسون هنا وهناك بين الكراسي عن غير قصد، ثم من أولئك الأطفال الذين كان آباؤهم يعلمونهم مقاومة رغباتهم، ومسراتهم الصغيرة المضطرمة التي كانت تثيرها فيهم الأحصنة الخشبية التي ما تنفك تدور وتدور. ينبغي أن يستفيد الأطفال من العيد لتكوين طبائعهم، كانوا أصغر سناً من أن يتركوا ليتصرفوا على هواهم. لم يكونوا يعرفون بعد، هؤلاء الأولاد الظرفاء بأن لكل شيء ثمناً ينبغي تسديده، كانوا يعتقدون بأن أريحية الأشخاص الكبار خلف المكتب المزخرف، ولطافتهم، هي التي تجعلهم يحثون الزبائن على اجتناء المتعة من تلك الأشياء العجيبة التي يكومونها، ويسيطرون عليها، ويحمونها بابتساماتهم الزاعقة، دون أن يبتغوا شيئاً آخر، لم يكن الأولاد يعرفون القانون، وليس إلا بالصفعات يعلمهم الآباء القانون ويحمونهم من رغائبهم.

ليس هناك على الإطلاق فرح حقيقي بالعيد إلا للتجارة. ومن الأعماق أيضاً وفي الخفاء. تغتبط التجارة. عند المساء، أيما اغتباط، حينما يرحل

Twitter: @ketab_n

المنوّمون فاقدو الشعور، زبن التجارة، تلك الحيوانات التي تدر الأرباح، حين يعم السكون من جديد، ساحة العيد، ويقذف آخر كلب في النهاية آخر قطرة بول فوق البليارد الياباني، حينذاك، يمكن للحسابات أن تبدأ. تلك هي اللحظة التي تحصي فيها التجارة قواها وضحاياها، بالقروش.

في مساء الأحد الأخير للعيد جرحت الخادمة في خمارة مارتريدون جرحاً عميقاً في يدها، فيما هي تقطع السجق.

في الساعات الأخيرة من المساء نفسه. غدا كل شيء حولي رائقاً إلى حد كبير، كما لو أن الأشياء قد كفت عن الانجرار من حافة الأقدار إلى حافتها الأخرى، بكثير من الحيرة والالتباس. وخرجت كلها، في الوقت ذاته من عتمة الظل وجعلت تحدثني، ولكن ينبغي الارتياب بالأشياء وبالناس في تلك اللحظات، اعتقدت بأن الأشياء ستحدثني، ولكنها لم تقل شيئاً على الإطلاق، ثم ابتلعها الليل في الأغلب دون أن أتمكن من فهم ما الذي كان عليها أن تقوله لي. هذا ما شعرت أنا على الأقل، كانت تلك تجربتي.

أخيراً، التقيت بروبنسون، في ذلك المساء ذاته، في مقهى مارتريدون حينما ذهبت لأضمد جرح خادمة المقهى. أتذكر الظرف بالتحديد. كان إلى جوارنا رجال عرب. لجؤوا زرافات إلى المقاعد المنجدة، وبدا عليهم النعاس. لم يكن يبدو عليهم الاهتمام بأي شيء مما كان يدور حولهم. حين تحدثت مع روبنسون تحاشيت العودة إلى محادثتنا في مساء اليوم السابق، حينما فوجئت به يحمل أخشاباً. كان من الصعب خياطة جرح الخادمة، لم أكن أرى الجرح بوضوح في عمق المقهى. وحينما فرغت من ذلك اجتذبني روبنسون إلى ركن من أركان المقهى، وأصر هو نفسه على أن يؤكد لي بأنه كان قد رتب

Twitter: @ketab_n

الأمر في بيت هنروي، ولأجل قريب. كان ذلك سراً.. كدرني كثيراً، ولم أكن أريد سماعه.

«لأجل قريب، بصدد ماذا؟

ــ أنت تعرف الأمر جيداً..

ــ وماذا أيضاً؟

ــ احزر كم سيعطياني الآن؟» لم أحرص على أن أحزر

«عشرة آلاف.. من أجل أن أصمت فقط

ــ إنه مبلغ!

ــ ها أنذا قد تخلصت من المأزق، بكل بساطة، هذه الآلاف العشرة من الفرنكات.. كانت تنقصني دائماً.. لم يكن لدي قط أي مهنة، ولكن بهذه العشرة آلاف فرنك..»

كان من المؤكد أنه قد ابتزّهما..

تركني أقدّر كل ما سيكون في وسعه أن ينجز، أن يفعل بهذه الآلاف العشرة من الفرنكات.. منحني الوقت كي أفكر في ذلك، كان واقفاً، لصق الحائط، وسط الظل.. عالم جديد. عشرة آلاف فرنك.

ومع ذلك، فحينما عدت إلى التفكير في فعلته، أخذت أتساءل إن لم أكن قد عرضت نفسي لبعض المخاطرة الشخصية، إن لم أكن قد انزلقت إلى نوع من التواطؤ، لأنني لم أظهر بمظهر المستنكر على الفور لمشروعه، كان خليقاً أن أندد به أيضاً، لست مبالياً بالتأكيد، بأخلاق الناس لا من قريب ولا من بعيد، ولا كذلك بسائر العالم. ما حيلتي إزاء ذلك؟ غير أن هناك سائر الحكايات القذرة، التي يهتم بها القضاء لحظة الجريمة، من أجل تسلية دافعي الضرائب، أولئك القذرين.. ولا يعود المرء يعرف حينئذ كيف يخلص نفسه..

Twitter: @ketab_n

كنت قد شهدت ذلك سابقاً. كارثة فوق كارثة. كنت أفضل الكارثة التي تمر دون ضجة، على تلك التي تنشر على صفحات الصحف.

كنت مبلبلاً، بوجه الإجمال، ومسمماً في الوقت ذاته، فبانتهائي إلى هذا الحد، كانت الشجاعة تنقصني مرة أخرى للذهاب إلى أبعد مدى تصل إليه الأمور. وفيما كان علي أن أفتح عيني الآن على اتساعهما، كنت أحب أن أحتفظ بها مغلقتين. ولكن روبنسون كان يدفعني دفعاً، كما يبدو، إلى أن أفتحهما، إلى أن أقدر العواقب.

لكي أغير الحديث، فيما كنا نتمشى في المقهى، تطرقت إلى موضوع النساء. لم يكن روبنسون يحب النساء كثيراً.

«بالنسبة إلى النساء، قال، أنا مشغوف كما تعلم بأكفالهن الجميلة، بأفخاذهن الضخمة، بثغورهن من الداخل، ببطونهن التي ينمو دائماً في داخلها شيء ما، حيناً أطفال، وحيناً أمراض، ليس من خلال ابتساماتهن تسدد ما عليك من أقساط، أليس كذلك. حتى لو كان لدي أنا امرأة في كوخي، فلن يفيدني في شيء، أن أكشف إليتيها للمالك، في منتصف الشهر، لأن هذا لن يجعله يخفض لي الأجرة.

كانت هذه الاستقلالية نقطة ضعف روبنسون، هو نفسه كان يقول ذلك، غير أن المعلم مارتريدون سئم من «محادثتنا الانفرادية» ومن دسائسنا الصغيرة في أركان المقهى.

«الأقداح يا روبنسون، اللعنة! قال آمراً، هل سأقوم أنا بغسلها.

قفز روبنسون بنحو مفاجئ.

«أنت ترى، أخبرني قبل أن يبتعد، أنا أعمل هنا كخادم إضافي».

Twitter: @ketab_n

كنا ما نزال في موسم العيد. كان مارتريدون يعاني ألف صعوبة في الانتهاء من حسابات صندوقه. كان ذلك يقلقه.. كان العرب قد انصرفوا، ما عدا اثنين ما يزالان غافيين قرب الباب.

«ما الذي ينتظره هذان؟»

ـ ينتظران الخادمة، أجابني المعلم مارتريدون

ـ كيف تسير الأحوال؟ سألته كي أقول شيئاً ما.

ـ بين بين.. ولكن الوضع صعب للغاية. تصور يا دكتور، قبل الأزمة، اشتريت بمبلغ كبير ستين سنداً، كنت خليقاً أن أتمكن من جني مائتي فرنك على الأقل لدى بيعها. هل تلاحظ؟ صحيح أن مقهاي يكتظ بالزبائن. ولكنهم من العرب على الأخص.. هؤلاء الناس لا يشربون الخمر إذن، ليس من عاداتهم شرب الخمر.. في حين أن لدي زبائن بولونيون، هؤلاء يا دكتور، هؤلاء البولونيون ما أروعهم! إنهم يشربون على نحو يفوق الوصف! حينما كنت سابقاً في الأردين. كان لدي الكثير من البولونيين، وكانوا يأتون إلي من أفران طلاء الخزف. كانت تلك الأفران تحمّيهم، هذا ما نحن بحاجة إليه.. الظمأ.. وها إن السبت مر على الحانة.. خراء! كان هناك عمل كثير! البلاد بكاملها في أزمة، وهؤلاء العرب الجديان، ليس الشرب هو ما يهمهم، وإنما النكاح بالأحرى. الشراب محرّم في ديانتهم، كما يبدو، ولكن النكاح ليس محرماً..».

كان مارتريدون يحتقر العرب، ويصفهم بالجديان.. «أوغاد! يبدو أنهم يفعلون بخادمتي!.. إنهم كلبون، مهووسون أليس كذلك؟ أية أفكار. ألا توافقني يا دكتور. أنا أسألك؟»

Twitter: @ketab_n

كان المعلم مارتريدون يضغط بأصابعه الصغيرة على الجيوب المصلية التي تتدلى تحت عينيه: «كيف حال كليتيك؟» سألته حين رأيته يفعل ذلك. كنت أعالجه لقصور في كليتيه. «هل عدت إلى تناول الملح؟».

إنه الزلال أيضاً يا دكتور! لقد أجريت تحليلاً أول أمس في الصيدلية.. أوه. لم أعد أبالي إن فطست، بالزلال أو بشيء آخر. ولكن ما يضايقني هو أن أعمل مثلما تراني أعمل.. من اجل ربح زهيد..»

انتهت الخادمة من جمع آنية الموائد، ولكن ضمادها كان ملطخاً بفضلات الطعام، بحيث كان ينبغي تغييره، قدمت لي ورقة مالية من فئة المئة قرش. لم أكن أرغب بقبول هذه المئة قرش، ولكنها أصرت على إعطائها لي، كانت تسمى سيفيرين.

«هل قصصت شعرك يا سيفرين؟ قلت لها معلقاً..

ـ هذا ضروري. إنها الموضة، قالت لي، ومن ثم فإن الشعر الطويل، مع عمل المطبخ هنا يحتفظ بكل الروائح.

ـ ولكن إستك يفوح بروائح أسوأ. شوشت ثرثرتنا حسابات مارتريدون، فقطعها على هذا النحو، ثم أكمل، وهذا لا يمنع زبائنك مع ذلك، من..

ـ نعم، ولكن هذا ليس الشيء نفسه، ردت سيفيرين، مغتاظة بالتأكيد. ليس هناك روائح في أي مكان من جسمي.. ولكن هل تريد أيها المعلم أن أقول لك بأنك تفوح بروائح نتنة؟ ليس فقط من مكان واحد، فقط ولكن من كل أنحاء جسمك؟

كانت سيفيرين غاضبة بشدة ولم يكن مارتريدون يريد أن يسمع منها البقية، فعاد مدمدماً إلى حساباته القذرة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن بمقدور سيفيرين أن تخلع خفيها، كي ترتدي حذاءها، بسبب انتفاخ قدميها من جراء عملها الشاق، احتفظت به إذن في يدها كي تخرج.

ــ سأنام مع هذا الحذاء بالتأكيد، علقت بصوت مرتفع أخيراً.

ــ هيا، اذهبي واطفئي النور في الداخل، أمرها مارتريدون أيضاً. لست أنت التي تدفعين ثمن الكهرباء، بالتأكيد.

لم يكن مارتريدون قد انتهى من عملية حساباته. خلع فوطته، وصدرته كي يحسب بنحو أفضل، كان متعباً، ومن العمق غير المرئي للمقهى، كان يتناهى إلى مسامعنا، طقطقة صحون. إنه روبنسون والعامل الآخر يغسلان الأواني. كان مارتريدون يخط أرقاماً كبيرة طفولية بواسطة قلم رصاص أزرق، يسحقه بين أصابعه التي تشبه أصابع قاتل، وكانت الخادمة تغفو أمامنا، مخلعة الأوصال، ثم ما تلبث أن تستعيد وعيها قليلاً بين لحظة وأخرى.

«آه! يا قدمّي! آه! يا قدمّي!» كانت تقول حينئذ، ثم تسقط في بئر النوم.

ولكن مارتريدون أيقظها بضربة قوية على فكها.

«إيه، سيفيرين. اصطحبي معك هؤلاء الجديان خارج المحل، كفاني تعباً! أغربوا عن وجهي جميعاً! اللعنة!. حان وقت إغلاق المحل»

لم يكن يبدو على العرب أنهم مستعجلون على الإطلاق، على الرغم من الساعة المتأخرة. واستيقظت سيفيرين أخيرا.. «صحيح! ينبغي علي أن أذهب، وافقت، أشكرك يا معلم» اصطحبت معها الجديين كليهما. وبادر الاثنان معاً إلى الدفع لها.

«سأضاجع الاثنين معاً هذا المساء، أوضحت لي سيفيرين، وهي تخرج، لأنني لن أستطيع في الأحد القادم، بسبب ذهابي إلى آشير لرؤية طفلي. أنت تفهم.. السبت القادم هو يوم مجيء المرضعة».

Twitter: @ketab_n

نهض العربيان كي يتبعاها. لم يكن يبدو عليهما مظهر الوقاحة والتهتك. نظرت إليهما سيفيرين، مع ذلك، نظرة جانبية سريعة، بسبب التعب.. «لست مع رأي المعلم، فأنا أجد الجديان أفضل من غيرهم، العرب ليسوا خشنين مثل البولونيين.. ولكنهم فاسقون.. لا جدال في أنهم فاسقون. إنهم يفعلون في النهاية كل ما يريدون.. أعتقد بأن ذلك لا يمنعني من النوم! هيا، دعتهما سيفيرين، إلى الأمام أيها الفتيان!».

وها هم يمضون ثلاثتهم إذن. كانت سيفيرين تتقدمهما قليلاً. كنت أراهم يجتازون الساحة الباردة المغطاة بحطام العيد. يضيء أشباحهم مصباح الغاز الأخير في طرف الساحة. كنت ما أزال أسمع أصواتهم قليلاً، ثم لم أعد أسمع شيئاً على الإطلاق، لم يعد ثمة حس ولا نأمة.

غادرت المقهى بدوري، دون أن أكلم روبنسون. تمنى لي المعلم كثيراً من الأشياء. كان أحد رجال البوليس يذرع الشارع. صوت أقدامي على بلاط الشارع كان يهز جدار الصمت، مما يثير الرعدة في تاجر هنا أو هناك قد شوشتة حساباته العدائية، مثل كلب يقرض عظماً.. ثمة عائلة عائدة من جولة، كانت تشغل الشارع كله بزعيقها، في إحدى زوايا ساحة جان جوريه. لم تعد العائلة تتقدم قط خطوة واحدة، كانت مترددة أمام شارع صغير مثل فريق من الصيادين يواجهون ريحاً عاصفة.. راح الأب يتعثر من رصيف إلى آخر.. لم يكن لينتهي من تبوله.

كان الليل قد حط رحاله وطاب له المقام

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> ما أزال أذكر مساءً آخر في ذلك الحين، بسبب ما نشأ فيه من ظروف وأحوال. في البداية وبعد ساعة الغداء سمعت ضجة عظيمة صادرة عن علب قمامة كانت تقرقع وتنقلب. كان ذلك العبث بعلب الأقذار يحدث على الأغلب فوق درج شقتي، ومن ثم، فقد سمعت أنين امرأة، وأصوات عويل، شققت بابي المطل على الدرج. ولكن دون أن أتحرك قيد أنملة.

إذا ما خرجت بنحو عفوي، لحظة وقوع حادث فسينظرون إلي على الأرجح، على أنني جار من الجيران لا أكثر، وسيعتبرون إسعافي الطبي مجانياً. أما إذا كانوا يريدونني، فليس عليهم سوى دعوتي حسب الأصول وسيعني ذلك بالنسبة إلي عشرين فرنكاً. الإيثار يلازمه البؤس ويتبعه كظله بكل قسوة، والمبادرات الأكثر وداً ولطفاً تجازى دونما رحمة، رحت أنتظر إذن أن يأتوا ليقرعوا بابي، ولكن أحداً لم يقرعه.. من باب التوفير بلا شك.

غير أنني، حين كففت تقريباً عن الانتظار، فإن فتاة صغيرة ظهرت أمام بابي، كانت تحاول قراءة الأسماء فوق الأجراس، كنت أنا في المحصلة، من كانت تطلبه. مرسلة من طرف آل هنروي.

«من هو المريض عندهم؟ سألت الفتاة

ــ إنهم يطلبونك من أجل سيد أصيب بجراح في بيتهم.

ــ سيد؟» وخطر لي على الفور أنه هنروي نفسه

«من هو؟ السيد هنروي؟

ــ لا، بل من أجل صديق لهم كان عندهم.

Twitter: @ketab_n

ـ هل تعرفينه، أنت؟

ـ لا» فهي لم تكن قد رأت هذا الصديق على الإطلاق.

كان الجو بارداً في الخارج. وكانت الطفلة تخب إلى جانبي بينما كنت أعدو بسرعة..

ـ «كيف حدث ذلك؟

ـ لا أعرف أي شيء عنه.

حاذينا حديقة أخرى خلف غابة مسورة تكاثفت بين أشجارها سحب شتائية ضبابية، عذبة ومتهادية.. ثم اجتزنا شوارع صغيرة، من شارع إلى آخر. إلى أن بلغنا بيتهم بعد بضع لحظات. كانت الفتاة خائفة من الاقتراب أكثر. لمحت الكنة هنروي واقفة على درج المدخل تحت طنف الباب. مصباحها الزيتي كان يرتعش مع هبات الريح.

«من هنا، دكتور، من هنا» كانت تناديني من بعيد..

سألت أنا على الفور: «هل كان زوجك هو الذي أصيب؟

ـ ادخل إذن، قالت ذلك فجأة دون أن تترك لي الوقت للتفكير، ووقعت أول ما وقعت على العجوز التي كانت تعوي من الرواق، وتهاجمني مطلقة رشقات من الشتائم.

«آه! القذرون! آه! قطاع الطرق! دكتور، لقد أرادوا قتلي!».

لقد أخفقوا إذن وخاب سعيهم.

«يريدون قتلك؟» قلت، كما لو أنني مندهش تماماً. ولماذا إذن؟

ـ لأنني لا أريد أبداً أن أموت بسرعة، أجل، بكل بساطة أقسم بالله، أنا لا أريد أن أموت أبداً.

Twitter: @ketab_n

ـ ماما، ماما، قاطعتها كنتها، لم يعد عقلك سليماً، يا ماما! أنت تروين للدكتور أكاذيب فظيعة. هيا، كفّي عن ذلك يا ماما!

ـ أنا أروي أكاذيب فظيعة؟ إيه حسناً، لديك كل الوقاحة لتقولي ذلك! لم يعد عقلي سليماً؟ ما يزال لدى ما يكفي من العقل السليم كي أوصلكم جميعاً إلى حبل المشنقة. وأنا أقول لكم ذلك مرة أخرى!

ـ ولكن من الذي جُرح، أين هو

ـ ستراه الآن! قاطعتني العجوز. إنه فوق، ممدداً على سريرها، ذلك القاتل، لقد لوث سريرها، أليس كذلك ، لوث فراشك القذر، وبدمه الخنزيري، وليس بدمي أنا، بدمه الذي يجب أن يكون مثل الأقذار، ولن تنتهي يوماً من غسله! سينتن أزماناً وأزماناً دم ذلك القاتل، أنا أقول لك! آه. هناك من يذهب إلى المسرح كي يحرك إحساسه، ولكنني أقول لك الآن: يوجد مسرح هنا، يا دكتور! إنه فوق، ومسرح حقيقي، ينبغي أن لا تضيع مكانك، اصعد إلى الأعلى بسرعة، ربما سيكون قد مات ذلك الوغد القذر حينما ستصل. وحينئذ لن ترى شيئاً.

كان الكنة تخشى أن يسمع أحد في الشارع صوت العجوز. فأنذرتْها بأن تصمت، لم تبد لي الكنة، رغم حرج الموقف. مضطربة جداً. أو مغتاظة جداً لأن الأمور حادت كلياً عن مسارها المرسوم، لا: كانت تحتفظ بفكرتها بإصرار، بل وكانت على يقين بأنها على حق.

«ولكن يا دكتور، اسمع ما تقوله: أليس من المؤسف سماع ذلك، أنا التي حاولت دائماً أن أجعل حياتها أفضل.. أنت تعرف ذلك. أليس صحيحاً؟ أنا التي عرضت عليها باستمرار أن نضعها في ملجأ الأخوات.».

Twitter: @ketab_n

كان الحديث عن الأخوات أثقل من أن تتحمل العجوز سماعه مرة أخرى.

«إلى الجنة! أجل أيتها الطفلة البريئة! كنتم تودون جميعاً أن ترسلوني إلى الجنة.. آه أيتها المجرمة! من أجل ذلك جئتما به إلى هنا أنت وزوجك. ذلك الفاجر الذي يرقد فوق، من أجل قتلي، أجل، وليس من أجل أن ترسلاني إلى ملجأ الأخوات، هذا أكيد، وقد خاب سعيه، نعم. يمكنك يا دكتور أن تقول له بأن مكيدته كانت خائبة! اذهب يا دكتور، اذهب لترى حاله التي آل إليها، وغدك الذي فوق! هو نفسه الذي جر على نفسه الوبال.. وينبغي أن أتمنى له الهلاك.. اذهب يا دكتور. اذهب لتراه طالما ما يزال هناك وقت..».

إذا لم يكن يبدو على الكنة أي وهن أو خور، فإن العجوز كانت أقل وهناً وخوراً، لقد كادت أن تلاقي حتفها، مع ذلك، في تلك المكيدة ولكنها لم تكن ساخطة بالقدر الذي كانت تريد أن تظهر فيه، كانت تصطنع ذلك اصطناعاً. هذا الاغتيال المخفق كان يحثها بالأحرى، ويخرجها من ذلك النوع من القبر الهامد الذي انزوت فيه منذ سنين في عمق الحديقة المتعفن.. في عمرها المديد ذاك، كان ثمة حيوية فياضة. تعود لتملأ أوصالها الجافة. كانت مستمتعة ببذاءة، بنصرها، وبنشوة امتلاكها منذ الآن وبلا حدود، وسيلة لإقلاق كنتها القاسية. إنها تملك الآن هذه الوسيلة، لم تكن تريد أن يفوتني تفصيل واحد من هذا الاعتداء الخائب، ومن الكيفية التي جرت عليها الأمور.

«وبعد ذلك، أنت تعلم. فقد كانت تتبعني أينما ذهبت، بالحماس والهوس ذاته. وفي بيتك أنت يا دكتور التقيت بالقاتل، في بيتك يا سيدي الدكتور.. كنت مرتابة به، مع ذلك.. آه كم كنت في ريب منه.. هل تعرف ما الذي اقترحه علي في البداية؟ أن يقتلكِ أنتِ يا ابنتي! يا صغيرتي! وبثمن بخس

Twitter: @ketab_n

أيضاً! أؤكد لك ذلك! لقد عرض الشيء نفسه على الجميع. هذا متوقع منه.. وإذن فأنت ترين بأنني كنت أعرف حرفة قاتلك المأجور . وأنني استخبرت عنه جيداً. وأن اسمه روبنسون.. أليس هذا هو اسمه؟ قولي لي إذن، بأن هذا ليس اسمه؟ ما إن رأيته يجوس هنا معك، حتى ساورتني الشكوك على الفور.. لقد فعلتُ خيراً.. فلو لم يراودني الشك به فأين سأكون الآن؟».

وروت لي العجوز أيضاً وأيضاً، كيف جرت الأمور. فقد تحركت الأرانب حينما كان يربط المتفجرة خلف باب القفص. وكانت هي، العجوز، أثناء ذلك تراقبه من كوخها، وهو يفعل ذلك. وانفجرت المفرقعة. بكل ما فيها من خرادق، في وجهه تماماً فيما هو يجهز خدعته. في عينيه بالذات «لايكون الذهن حاضراً حينما ينفّذ القاتل جريمته، بالضرورة!» استخلصت العجوز.

أخيراً، فإن ما حدث لم يكن سوى كبوة رعناء، وقلة مهارة. «على هذا النحو تماماً يحولون الناس الآن. ! هكذا يعوّدونهم! ينبغي عليهم أن يقتلوا كل يوم، كي يأكلوا! لم يعد يكفيهم أن يسرقوا خبزهم وحسب.. بل وأن يقتلوا أمهم أيضاً! لم يعد في أجسادهم أي شيء آخر سوى الشر.. ولكن ها إنكم جميعاً تغوصون حتى الأعناق في الكيد والتآمر!.. وها هو قد صار أعمى الآن، ذلك القاتل! وستحملونه على أذرعكم إلى الأبد! أليس كذلك؟.. ولن تكّفوا عن تعلم النذالات معه!..».

لم تنبس الكنة بكلمة، غير أنه كان عليها أن توقف خطبة العجوز كي تخلص من هذه الورطة، وبينما كنا منصرفين إلى التفكير، أنا وهي، كانت العجوز تقوم بالبحث عن ابنها عبر الغرف.

Twitter: @ketab_n

من الصحيح، يا دكتور، أن لي ابناً! أين هو الآن أيضاً؟ وما الذي يكيده بالإضافة إلى ذلك؟»

كانت تترنح عبر الرواق، هازئة ضاحكة ما شاء لها الهزء والضحك.

عجوز، تضحك وتقهقه على هذه الصورة، ذلك شيء قلما يحدث إلا للمجانين، ويتساءل المرء، ترى أين يذهب حين يسمع كل هذا! ولكنها كانت مصرة على العثور على ابنها. كان قد فر إلى الشارع. «حسناً. فليختبئ، وليعش هكذا زمناً طويلاً، فهو سيجد نفسه مرغماً، بالتأكيد على العيش مع الآخر الذي هو فوق. على أن يعيشا سوياً.. مع ذلك الذي لن يرى النور قط، وعلى أن يطعمه، ذاك الذي انفجرت مفرقعته في وجهه.. لقد رأيت أنا! رأيت كل شيء! هكذا، بُم. رأيت كل شيء، ولم يكن ذلك أرنب، أؤكد لكم! آه! اللعنة ثم اللعنة! أين هو ابني، يا دكتور، أين هو؟ ألم تره أنت؟ إنه نذل خائر القوى أيضاً، ذلك الابن، والذي كان دائماً ماكراً. وأشد مكراً من الآخر. ولكن الكراهية انتهت الآن إلى الخروج من طبيعته القذرة. آه هذه الكراهية، أجل، إنها، ومنذ أمد بعيد، تنبع من طبائع فظيعة كطبيعته. وحينما تخرج فإنها حينئذ، العفن بعينه، لا شك في ذلك، يا دكتور، لقد وصلت الكراهية إلى هذا الحد. ينبغي أن لا نخطئها!»

كانت ما تزال تتسلى، راغبة، أيضاً في أن تدهشني. بترفعها إزاء هذه الأحداث، وأن تخزينا جميعاً، دفعة واحدة، وتهيننا بالجملة.

كانت مأخوذة بدور مؤات لها كلياً. تستمد منه الانفعال، وقد بلغ بها الفرح كل مبلغ. لم يكن لسعادتها حد على الإطلاق. طالما أنها ما تزال قادرة على تمثيل ذلك الدور، لم تعد العجوز هنروي تقبل بدور الشكوى والنحيب، دور العجائز، الذي تركوه لها منذ عشرين عاماً. وهي لم تعد تتخلى عن هذا

Twitter: @ketab_n

الدور الذي أتيح لها، الشديد الفتك، وغير المنتظر. أن يكون المرء عجوزاً، فهذا يعني أنه لن يجد بعد دوراً مفعماً بالحمية ليؤديه، يعني أنه سيصبح أسير تلك العطالة الغثة المسيخة والتي لا ينتظر منها سوى الموت. كانت رغبة الحياة تعاود العجوز، على حين فجأة، مع هذا الدور المترع بالحمية. لم تعد بالمقابل راغبة بأن تموت على الإطلاق، وبهذه الرغبة في الاستمرار بالعيش كانت تتألق، بهذا اليقين. لقد عثرت على النار. نار حقيقية وسط المأساة.

كانت تسخن أكثر فأكثر، لم تعد راغبة في أن تترك النار الجديدة، وتتركنا. لقد كفّت منذ زمن طويل، عن الاعتقاد بموتها، وتوصلت إلى أنها لم تعد تعرف كيف تفعل من أجل أن لا تستسلم للموت في أعماق حديقتها الرثة. وفجأة عرض لها عارض عنيف، عصف بيومياتها الرتيبة القاسية. فدفئت أيما دفء .

«موتي أنا، كانت الأم هنروي تولول الآن. أريد أن أرى موتي بعيني. أنتم تفهموني: لدي عينان كي أرى موتي، أنتم تسمعونني! ما يزال لدي عينان أريد أن أشاهد موتي بهما!».

لم تعد العجوز راغبة في أن تموت، على الإطلاق، كان ذلك واضحاً. لم تعد تعتقد بأنها ستموت.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

» من المؤكد بأنه يصعب دائماً إصلاح مثل هذه الأمور. وأن إصلاحها يكلف على الدوام غالياً جداً. في البداية لم نكن نعرف حتى أين سنضع روبنسون، في المستشفى؟ وهو ما يمكن أن يثير ألف شائعة من دون شك وثرثرات لا حصر لها.. أن نرسله إلى بيته؟ كان من المستحيل كذلك التفكير بمثل هذا الحل، بسبب الحالة التي كان يبدو وجهه فيها. طوعاً إذن أو كرهاً، كان آل هنروي مضطرين إلى إبقائه في بيتهم.

أما هو، الممدد فوق سريرهما في غرفة نومهما في الأعلى فكان يعاني الأمرّين، هلع شديد كان ينتابه، من أن يلقى به خارج الباب ثم يُلاحق، كان ذلك مفهوماً. كانت تلك واحدة من القصص التي لا يمكن، في الحقيقة، روايتها لأحد. ظلت مصاريع النوافذ في غرفته محكمة الإغلاق، غير أن الناس، والجيران بدؤوا يعبرون في الشارع أكثر من المعتاد، كي يشاهدوا فقط المصاريع المغلقة، ويجتسّون أخبار الجريح، كانت تروى لهم أخبار ويلقى على مسامعهم أمازيح ونكات. ولكن كيف يمكن منعهم من الاندهاش، من النمّ والثرثرة؟ وبالإضافة إلى ذلك، كيف يمكن تحاشي الافتراضات؟ لم تبلّغ النيابة العامة، لحسن الحظ بأي شكوى محددة. كانت الأمور تجري على هذا المنوال. أما بخصوص وجهه فقد تدبرت الأمر، لم يحدث أي إنتان، على الرغم من أن جرحه كان كثير التجاويف واللطخات: وأما عيناه فكنت أتوقع وجود ندوب على قرنيتهما تمنع عبور النور داخلهما إلا بصعوبة. هذا إن كان ممكناً أن يدخل فعلاً.

ربما سنجد وسيلة لإعادة البصر إليه بطريقة أو بأخرى، إن كان قد بقي لديه ما يمكن إصلاحه، ولكن كان علينا في اللحظة الراهنة أن نتخذ

Twitter: @ketab_n

الاحتياطات العاجلة، وعلى الأخص أن نحول بين العجوز وبين أن تتمكن من تعريضنا جميعاً إلى الخطر بنباحاتها القذرة أمام الجيران والمتطفلين، كان من العبث القول بأنها مجنونة، فذلك لا يفسر دائماً كل شيء.

إذا ما تدخل البوليس مرة واحدة في مغامرتنا فسيجرنا، لا نعود ندري إلى أين. كان الحؤول دون أن تثير العجوز الآن فضيحة، وإبقاؤها في فنائها الصغير يشكلان مهمة حساسة ودقيقة، كان كل واحد منا يحاول، بدوره، أن يهدئها، لم يكن بوسعنا أن نستعمل أسلوب العنف، ولكن الرقة والدماثة لم تكن تفلح دائماً، أيضاً، كانت العجوز مسكونة بروح الانتقام الآن، وكانت تبتزنا، ببساطة متناهية.

كنت أمر لرؤية روبنسون، مرتين في اليوم على الأقل، كان يئن تحت ضماداته، حالما يسمعني أصعد الدرج، كان يتألم، هذا صحيح، ولكن ليس بالقدر الذي يحاول أن يظهره لي. سيكون لديه ما يعزيه! كنت أتكهن، حينما سيتبين له بالضبط ما آلت إليه عيناه. ظللت أراوغ بما يكفي بشأن المستقبل.. كان جفناه يخزانه بشدة، وكان يتوهم بأنه بسبب هذا الوخز لم يعد يرى أمامه.

انهمك الزوجان هنروي في العناية به عناية فائقة، حسب تعليماتي. لامجال للسأم في هذا الجانب.

لم نعد نتحدث عن المحاولة، ولم نكن نأتي على ذكر المستقبل كذلك، وحينما كنت أغادرهم في المساء كانوا جميعاً ينظرون إلى بعضهم بعضاً، كل واحد بدوره، وفي كل مرة كانوا يتبادلون فيها تلك النظرات، وبمثل ذلك الإصرار، كان يخيل إليّ باستمرار بأنهم على وشك أن يفتك بعضهم ببعض فتكاً ذريعاً لا رحمة فيه. تلك النهاية التي ينتهي إليها تفكيرهم كانت تبدو لي

Twitter: @ketab_n

منطقية جداً، وملائمة لكل منهم. كان يصعب علي تخيل كيف يقضي ذلك المنزل لياليه. ورغم ذلك كنت أجدهم في الصباح، ونعود معاً إلى الأشخاص والأشياء حيثما كنا تركناهم معاً في المساء الفائت. ومع السيدة هنروي كنت أجدد الضماد والتطهير. بالبرمنغنات، ونشق مصراعي الشباك قليلاً على سبيل التجريب. لم يكن ثمة جدوى في كل مرة، فروبنسون لم يكن ليلاحظ حتى بأننا قد شققنا المصراعين.

على هذا النحو كان يدور عالمنا خلال الليل منذراً بأسوأ العواقب، وصامتاً كصمت المقابر.

وعاد الابن يستقبلني كل صباح، بعبارة قروية صغيرة، كان يقولها لي «إيه حسناً، هو ذاك يا دكتور، ها نحن في فترات الصقيع الأخيرة» كان يقول ذلك شاخصاً بعينيه إلى السماء من تحت الباحة الصغيرة ذات الأعمدة، كما لو كان ثمة أهمية للزمن الذي نحن فيه. زوجته كانت تنطلق مرة أخرى إلى حماتها ساعية إلى التفاوض معها عبر الباب المرتج بإحكام، دون أن تتوصل إلا إلى تأجيج غضبها.

فيما كنت أجدد الضمادات لروبنسون كان يروي لي كيف بدأ حياته. كان قد بدأ بالتجارة. وضعه والداه وهو في الحادية عشرة من عمره عند إسكافي متقن الصنعة ليقوم بتسليم البضاعة إلى الزبائن، وبينما كان ذات يوم يقوم بالتسليم دعته زبونة إلى أن يطارحها الغرام، لم يكن لديه حتى ذلك الحين سوى صور خيالية عن تلك النشوة. لم يعد بعدها إلى معلمه أبداً لفرط ما بدا له تصرفه ذاك شائناً. فأن يضاجع زبونة في ذلك الزمن الذي يتحدث عنه، كان ذلك، في الواقع عملاً لا يغتفر. قميص تلك الزبونة، من الموسلين كان قد ترك لديه تأثيراً خارقاً لا يمحى. وبعد مرور ثلاثين سنة، كان ما يزال يتذكر تماماً ذلك القميص. تلك

Twitter: @ketab_n

السيدة ذات القميص المحفحف، شقتها المملوءة بالأرائك، والسجف المهدبة. ذلك اللحم الوردي المعطر ترك لدى الصغير روبنسون طوال حياته مادة لمقارنات يائسة لا نهاية لها.

كثير من الأشياء مرت بعد ذلك.. جاب قارات وخاض حروباً كاملة، ولكنه لم ينهض قط من تلك الرؤيا، كان يبهجه مع ذلك. أن يعاود التفكير فيها. أن يروي ذلك النوع من برهة الشباب التي قضاها مع تلك الزبونة «حين يكون لك عينان مغلقتان هكذا فإن ذلك يجعلك تفكر. تتقاطر الصور إلى خيالك، حتى لتظن، بأن هناك سينما في رأسك..» لم أكن أتجرأ بعد على أن أقول له بأنه سيكون لديه الكثير من الوقت ليتعب من سينماه الصغيرة. فما دامت جميع الأفكار تقود إلى الموت، فستحين عليه لحظة من اللحظات، لن يعود يرى فيها سوى الموت معه داخل سينماه.

بالقرب من منزل هنروي كان ثمة مصنع صغير يعمل طوال النهار، مع محرك ضخم في داخله، كانوا يرتجفون داخل منزلهم بسبب الهدير من الصباح وحتى المساء، ومن ثم، فقد كان هناك مصانع أخرى أبعد قليلاً، تهدر دون انقطاع، وحتى خلال الليل «حينما سينهار كوخنا فلن يعود لنا أثر!» كان هنروي يمزح في تلك المناسبة، يساوره بعض القلق، مع ذلك.. «سينتهي بلا شك إلى السقوط» كان هذا صحيحاً.. فقد كان السقف يتفتت فوق الأرضية أنقاضاً صغيرة، عبثاً كان يهدئ مخاوفهما أحد المهندسين، فمنذ أن قررا أن يسمعا أشياء العالم، أحسا داخل بيتهما كما لو أنهما داخل قارب، نوع من قارب يمضي بهما من خوف إلى خوف. مسافران مسجونان، أمضيا زمناً طويلاً داخل مشاريع أكثر كآبة من الحياة، وتوفيرات أيضاً، والارتياب بالنور، وكذلك بالظلمة.

Twitter: @ketab_n

كان هنروي يصعد إلى الغرفة بعد الإفطار كي يقرأ شيئاً لروبنسون، مثلما كنت قد طلبت منه. كانت الأيام تمضي. حكاية تلك الزبونة المدهشة التي كان قد امتلكها أيام تدربه. قصها على هنروي أيضاً، وانتهت تلك الحكاية إلى أن تشكل نوعاً من الفكاهة العامة، لدى جميع من في المنزل، هكذا تنتهي أسرارنا حينما نطلقها في الفضاء، على ملأ من الآخرين. ليس ثمة ما يثير الخوف في داخلنا، وفوق الأرض، وفي أقطار السماء سوى ما لم نقله بعد. ولن نشعر بالطمأنينة إلا حينما نقول كل ما لدينا، مرة واحدة وإلى الأبد، حينذاك سنصمت في النهاية، وسنكون أشد خوفاً من صمتنا. هذا ما سيكون عليه الأمر في بيت هنروي.

خلال الأسابيع التي استمر فيها تقيح أجفانه كان يمكنني الهذر معه بشأن عينيه ومستقبله. تارة كان يزعم أن النافذة مغلقة في حين أنها كانت مفتوحة على مصراعيها، وطوراً أن الجو مظلم في الخارج.

غير أنه، ذات يوم، وفيما كنت أدير ظهري له، تقدم نحو زجاج النافذة كي يتأكد بنفسه، وقبل أن أتمكن من التدخل أزاح الضمادات من فوق عينيه، تردد لحظة؛ ولامس قوائم النافذة من اليمين ثم من اليسار لم يكن يريد أن يصدق في البداية، بأنه لا يرى، ومن ثم فقد كان عليه مع ذلك أن يصدق. كان عليه أن يصدق فعلاً.

«باردامو! كان يعوي حينئذ ورائي، باردامو!. إنها مفتوحة! النافذة مفتوحة أنا أقول لك!» لم أكن أعرف بماذا أجيبه. لبثت أمامه متبلداً. كان يضع ذراعيه الاثنين وسط فراغ النافذة، في الهواء الرطب.. لم يكن يرى أي شيء بالطبع، ولكنه كان يحس بالهواء. مد ذراعيه حينئذ بقدر ما وسعه ذلك، داخل الظلمة المحيطة به كما لو من أجل أن يلمس نهايتها. لم يكن يريد أن

Twitter: @ketab_n

يصدق الأمر. ومن الظلمة التي كانت تلفّه، أعدته إلى سريره، وجعلت أواسيه أيضاً، ولكنه لم يعد يصدقني أبداً. كان يبكي، لقد بلغ نقطة النهاية هو أيضاً. لم يعد ممكنًا أن أقول له أي شيء، ثمة لحظة تشعر فيها بأنك وحيد تماماً، حينما تبلغ نهاية كل ما يمكن أن يحدث لك. تلك هي نهاية العالم. الحزن نفسه، حزنك أنت، لا يعود يستجيب لك أبداً. سيكون عليك العودة حينئذ إلى الوراء. وسط الناس، أي ناس لا على التعيين، لن تكون صعب الإرضاء حينذاك، لأنك من أجل أن تبكي لابد لك من العودة إلى الناس. حيث كل شيء يبدأ من جديد. أجل عليك العودة إليهم.

«إذن! ماذا ستفعلين به عندما ستتحسن جراحه؟» سألت الكنة أثناء الإفطار الذي أعقب ذلك المشهد. كانا قد طلبا مني البقاء لمشاركتهما الطعام، داخل المطبخ. لم يكونا يعرفان، في الواقع لا هو ولا هي كيف سيخرجان من الوضع، كانت نفقة إعالته التي سيدفعانها تثير هلعهما، هي على الأخص، لأنها أكثر إطلاعاً من زوجها على الكلفة التي تتطلبها الترتيبات من أجل العاجزين، كانت قد حاولت كذلك القيام ببعض المساعي لدى مؤسسة المساعدة الحكومية. مساع كانت تتجنب أن تحدثني عنها.

ذات مساء بعد زيارتي اليومية الثانية حاول روبنسون بكل الوسائل أن يبقيني إلى جواره بعض الوقت، وجعل يحدثني، دون توقف، عن كل ما كان يمكنه أن يتذكره عن الأشياء وعن الرحلات التي قمنا بها سوياً وحتى عما لم يكن يحاول في أي يوم من الأيام تذكره، كان يتذكر أشياء لم يكن يتاح له الوقت أبداً لاسترجاعها، ففي عزلته، كان العالم الذي يجوبه يسيل متدفقاً بجميع النواحات والمسرات والثياب العتيقة والأصدقاء الذين تركهم. بازار حقيقي من المشاعر الموغلة في القدم كان يدشنه في رأسه دون عينين.

Twitter: @ketab_n

«سأقتل نفسي!» أخطرني بذلك، حينما بدا له شقاؤه بالغ الوطأة. ومن ثم فقد توصل مع ذلك، إلى أن يحمل شقاءه أبعد قليلاً. على غرار عبء ثقيل جداً فوق كاهله، عبء عبثي إلى أبعد الحدود. شقاء فوق طريق لم يكن يصادف فيها أحداً ليكلمه عنه، لفرط ضخامته وحدّته، ولن يكون بوسعه تفسيره، كان ذلك شقاء يتجاوز معارفه.

كان جباناً رعديداً، كنت أعرف ذلك، مفطوراً أيضاً على الأمل دوماً بالتخلص من الحقيقة. ولكنني من جهة أخرى، بدأت مع ذلك أتساءل إن كان هناك في أي مكان أشخاص جبناء حقاً.. يمكن القول بأن من الممكن دائماً أن يوجد بالنسبة لأي شخص نوع من شيء يكون مستعداً للموت من أجله، على الفور، وبسرور شديد أيضاً. ولكن المناسبة فقط لا تسنح دوماً ليموت المرء على نحو جميل، المناسبة التي تعجبه. إنه يذهب حينئذ إذن ليموت، في مكان ما، على النحو الذي يعجبه أن يموت فيه. ويظل هناك، أخيراً على الأرض، الإنسان غير المقتنع بالموت فقط، والذي يبدو في عيون الجميع مغفلاً وجباناً. هذا كل ما في الأمر! ليس الجبن إذن سوى مظهر خارجي فقط.

لم يكن روبنسون مستعداً لأن يموت في المناسبة التي سنحت له، وربما لو سنحت على نحو مختلف، فإن الموت كان سيروق له كثيراً.

الموت بوجه الإجمال، يشبه الزواج بعض الشبه، وهذه الميتة لم تكن تروق لروبنسون على الإطلاق، ذلك هو الأمر. لا جدال..

سيتوجب عليه إذن أن يستسلم لتقبلّ تعفنه ومحنته. غير أنه الآن ما يزال مهموماً جداً ومشغوفاً جداً بتلطيخ روحه على نحو مقزز بتعاسته وكربه، وفيما بعد سينظم أمر تعاسته، وحينذاك سيبدأ حياة حقيقية جديدة. لامناص له من ذلك أبداً.

Twitter: @ketab_n

«ستصدقني، إن شئت، كان يذكّرني، فيما هو يرمّق على هذا النحو، مزقاً من الذكريات، بعد العشاء. ولكن أنت تعلم، فعلى الرغم من أنني لا أملك مطلقاً، استعدادات حقيقية لتعلم اللغات، فقد توصلت، مع ذلك في الإنكليزية إلى أن أتمكن من إجراء حوار صغير في ديتروا، نسيته الآن تقريباً ما عدا جملة واحدة.. كلمتين اثنتين، تعودان إلي في كل وقت، منذ أن حدث ما حدث لعيني GENTLEMEN FIRST ذلك تقريباً كل ما يمكنني أن أتحدث به الآن بالإنكليزية، لا أعلم لماذا.. من السهل تذكره، هذا صحيح.. GENTLEMEN FIRST».. ورغبة مني لتغيير أفكاره، رحت أتحدث معه بالإنكليزية. كنا نكرر حينئذ ولكن مراراً: عبارة «السيد أولاً..» بمناسبة ودون مناسبة، مثل الحمقى، على سبيل الدعابة فيما بيننا. ثم انتهينا إلى أن نعلّمها لهنروي نفسه، الذي صعد إلينا كي يراقبنا.

فيما كنا نهدهد الذكريات، تساءلت بيني وبين نفسي، ترى ما الذي أمكنه أن يبقى من ذلك كله.. مما كنا نعرفه كلانا.. تساءلت.. ما الذي أمكن أن تكون قد آلت إليه موللي، لطيفتي موللي.. ولولا، تلك التي كنت أريد أن أنساها. ولكنني كنت، في كل الأحوال أود أن تكون لدي أخبار عنهن جميعاً. رغم كل شيء، عن الصغيرة ميزين أيضاً.. التي ينبغي أن تكون الآن مقيمة غير بعيد عن باريس. بالقرب مني في المحصلة. ولكن سيكون علي أن أقوم بنوع من الجولات، مع ذلك كي أتقصى أخبارها.. وسط العديد من الأشخاص الذين أضعت أسماءهم وعاداتهم، وعناوينهم، والذين ينبغي أن تكون حفاواتهم وكذلك ابتساماتهم قد تحولت بعد سنوات من القلق، والبحث عن الطعام، على غرار الجبن القديم، إلى تكشيرات قاسية. الذكريات نفسها لها شبابها.. فما أن نتركها تتعفن حتى تتحول إلى أشباح مقززة، تسحّ بالأنانية، وبالخيلاء،

Twitter: @ketab_n

وبالأكاذيب.. إنها تتعفن، على غرار التفاح. كنا نتحدث إذن، عن فترة الشباب. كنا نتذوقها ونعاود تذوقها، كنا نرتاب بها. أمي، بالمناسبة، لم أكن قد رأيتها منذ زمن طويل، وتلك الزيارات التي قامت بها، حين كنت في المشفى قلما نجحت في ترك أثر طيب على جملتي العصبية.. كانت أمي أسوأ حالاً مني فيما يتعلق بالكآبة والأحزان.. حبيسة دوماً، داخل حانوتها الصغير، كانت تراكم حولها قدر ما تستطيع من خيبات وخيبات، بعد العديد والعديد من السنين، وحينما كنت أذهب لرؤيتها، كانت تروي لي: «أنت تعرف الخالة هورتانس، لقد ماتت منذ شهرين في كوتانس.. ربما سيكون بإمكانك الذهاب إلى هناك؟ وكليمانتين. أنت تعرف كليمانتين؟ مساح الأرضيات الخشبية الذي كنت تلعب معه حينما كنت صغيراً؟.. إيه حسناً.. لموّه أمس الأول من شارع أبو قير. لم يكن قد تناول طعاماً منذ ثلاثة أيام..»

طفولة روبنسون لم يعد يعرف من أين يتناولها حينما كان يفكر بها، لفرط ما كانت تفتقر إلى الفرح والتسلية، وباستثناء حادثة الزبونة لم يكن يجد فيها شيئاً إلا ويثير يأسه إلى حد التقيؤ، داخل منزل، لم يكن يجد فيه سوى أشياء منفرة تفوح بالروائح، مكانس وصرر، وأدوات طعام، وصفعات.. السيد هنروي لم يكن لديه أي شيء يرويه عن صباه، حتى التحاقه بالجندية، ما عدا أنه كان يملك من تلك الفترة صورة فوتوغرافية، وهي ما تزال لديه، الآن فوق الخزانة الزجاجية.

حينما خرج هنروي من الغرفة أبلغني روبنسون بقلقه من أنهما لن يسلماه الآن أبداً عشرة الآلاف فرنك التي وعداه بها «لا تعتمد عليهما كثيراً، في الواقع» قلت له، كنت أفضل أن أهيئه لتلك الخيبة الأخرى.

قطع رصاص صغيرة، تلك التي بقيت من الشحنة المتفجرة، كانت قد برزت على حواف جراحه، كنت أنتزعها في أوقات متفرقة، بضع قطع منها

Twitter: @ketab_n

كل يوم.. كان ذلك يسبب له ألماً شديداً، حينما كنت أقلب مبضعي فوق ملتحمتي جفنيه.

عبثاً كنا نتخذ العديد من الاحتياطات، فقد بدأ أهل الحي بالثرثرة مع ذلك، في كل ما يعنّ لهم.. لم يشتبه روبنسون، لحسن الحظ فيما يدور حوله من ثرثرات، لأن ذلك كان سيزيد من وطأة مرضه، من دون ريب. كنا محاطين بالشكوك والشبهات. كانت الضجة التي تثيرها هنروي الابنة وهي تجوب أرجاء المنزل بخفيها، تقل شيئاً فشيئاً.. لم نكن نعتمد عليها، رغم أنها كانت هناك، بالقرب منا.

لما أن بلغنا وسط ركام الصخر، كانت أقل شبهة الآن، تكفي لتلقي بنا جميعاً في عباب أليم، كل واحد منا سيذهب حينئذ ليفرقع، لينفلق ليتهشم، ليذوب، لينطرح فوق الضفة. روبنسون، والحماة، والمفرقعة والأرنب، والعينان، والابن العجيب، والكنة القاتلة، سنذهب لننطرح هناك وسط جميع أوساخنا، وخزينا القذر، أمام الفضوليين المرتعشين. كنت أحس بالعار، ليس لأنني ارتكبت أي شيء جرمي على نحو واقعي أكيد، لا، ولكنني كنت أشعر بأنني مذنب آثم، مع ذلك. كنت على الأخص مذنباً بالرغبة في أعماقي بأن يستمر كل هذا، وبأنني لم أعد أرى ضيراً في أن نمضي جميعاً لنتجول أبعد فأبعد في أقاصي الليل!.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> ليس الأغنياء في حاجة إلى أن يقتلوا من أجل أن يأكلوا. إنهم يشّغلون الناس كما يقولون. لا يقترف الأغنياء الآثام بأيديهم هم، إنهم يدفعون المال. يفعل الآخرون كل شيء لإرضائهم، والعالم بأجمعه يرفل بالحبور. وبينما تكون نساؤهم جميلات فإن نساء الفقراء قبيحات. تلك نتيجة ولدتها القرون، دع عنك تبرجهن. إنهن جميلات، ظريفات، مغذيات على أحسن وجه، مغتسلات أحسن اغتسال، ومنذ أن استمرت الحياة لم تكن الأمور إلا على هذا المنوال.

أما بقية الناس، فعبثاً يشقون ويتعبون. إنهم ينزلقون، يسقطون في الكحول الذي يحفظ الأحياء والأموات. ولا يجنون أي شيء. ذلك مثبت لامراء فيه. ومنذ العديد من القرون يمكن رؤية بهائمنا، تولد، وتتعب، وتفطس أمام أنظار الجميع، دون أن يحدث لها في حياتها قط أي شيء غير عادي، اللهم إلا أن تستأنف بؤسها المسيخ الذي خلّفته لها بهائم أخرى. يتوجب علينا، مع ذلك، أن نفهم ما الذي يجري. موجات لا تتوقف من الكائنات غير المجدية تأتي من أعماق العصور. لتموت في كل وقت أمام عيوننا، ومع ذلك، نظل هناك، نأمل بأشياء.. لا نفكر بالموت الذي نحن فيه.

نساء الأغنياء مغذيات جيداً، مرفهات جداً، ينعمن بالراحة الهانئة، لذلك يصبحن جميلات. هذا صحيح. ربما كان هذا كافياً في النهاية! لا أدري! ولكنه سيكون على الأقل، مبرراً للعيش.

«ألا تجد أن النساء الأمريكيات أكثر جمالاً من النساء هنا؟»

Twitter: @ketab_n

كان روبنسون يسألني عن أشياء من هذا القبيل منذ أن جعل يهدهد ذكريات أسفاره. كان لديه شيء من الفضول، حتى أنه بدأ يتحدث عن النساء.

كنت أذهب لرؤيته الآن أقل غالباً.. بعد أن تم تعييني في تلك الأثناء ضمن هيئة استشارية في مستشفى صغير لمعالجة مرضى السل في الأنحاء المجاورة. ينبغي تسمية الأشياء بمسمياتها، فقد كنت أحصل من هذا العمل على ثمانمئة فرنك في الشهر. كان المرضى، بالأحرى، من أبناء المنطقة التي كنت أعيش فيها، من ذلك النوع من القرى التي لم تتوصل أبداً إلى الخلاص من الوحل. الغارقة في الأقذار، والمحاطة بدروب ضيقة، حيث كانت فتيات المدارس الصغيرات، المتفتحات والمخاطيات، على امتداد سياجات الأشجار المتشابكة، ينسللن من مدارسهن ويسلمن أنفسهن من شبق إلى آخر، يلتقطن منه عشرين قرشاً، وبطاطا مقلية، ومرض السيلان.. بلدة من بلدات سينما الطليعة حيث الغسيل القذر يسمم الأشجار وسائر البقول التي تسحّ بالبول، في أماسي أيام السبت.. لم أحقق في بضعة الشهور تلك خلال ممارسة عملي التخصصي أية معجزة. كان الوضع، مع ذلك، في حاجة إلى معجزات. ولكن مرضاي لم يكونوا يحرصون على أن أحقق معجزات، كانوا على العكس من ذلك يعتمدون على سلّهم كي ينتقلوا من حالة البؤس المطلق، حيث يختنقون منذ أمد بعيد، إلى حالة البؤس النسبي، التي توفرها المعاشات الحكومية الصغيرة جداً، كانوا يجرجرون قشعهم الأكثر أو الأقل إيجابية من مصح إلى مصح منذ الحرب، وقد ضوت أجسادهم من شدة الحمى التي كان ينشّطها شحة الطعام وكثرة الإقياء. والإقبال الشديد على تناول الخمور، والعمل، رغم كل ذلك، يوماً واحداً من ثلاثة أيام، والحق يقال.

Twitter: @ketab_n

كان الأمل بالمعاش الحكومي يتملكهم جسداً وروحاً. وسيأتيهم ذلك المعاش ذات يوم على غرار النعمة الربانية، شريطة أن تكون لديهم القوة على انتظاره مزيداً من الانتظار قبل أن يهلكوا نهائياً. لم يكن أحد من هؤلاء البؤساء الطامعين بالنفقة يعرف ما الذي سيصيبه من ذلك الانتظار مثلما أن أحداً منهم لم يكن يعرف كم كان بإمكانه الانتظار.

كانوا يمضون أياماً وأسابيع بكاملها يحدوهم الأمل، عند مدخل، وعلى عتبة مستشفاي، حينما يكون الجو ماطراً، بئسين رثين، يهدهدون آمالهم بالنسب المئوية لقشعهم، بقشع ملوث بعصيات السل على نحو واضح، بقشع حقيقي، قشع سلّي «مئة بالمئة». أما الشفاء فلم يكن يراود آمالهم إلا بعد النفقة الحكومية. كانوا يفكرون أيضاً بالشفاء بكل تأكيد.. ولكن غراراً، لفرط ما كانوا يرغبون بأن يكون لهم دخل شهري دون عمل. دخل زهيد للغاية، ولكنه كان يفتنهم كلياً، أياً كانت الشروط التي يعيشون فيها. بالإضافة إلى هذه الرغبة العنيدة، المطلقة، لم يكن يسكن داخلهم سوى رغبات صغيرة ثانوية، وحتى موتهم كان يغدو بالقياس إليها شيئاً ثانوياً إلى حد ما، مجازفة رياضية على الأكثر، فالموت في نهاية المطاف ليس سوى مسألة بضع ساعات، وحتى بضع دقائق، في حين أن المعاش، مثله مثل البؤس يدوم طول الحياة. الناس الأغنياء ثملون، بطريقة أخرى، لا يمكنهم أن يتوصلوا إلى فهم هذه الرغبات المسعورة بالأمن والطمأنينة. ثملون بنوع آخر من الثمل، ثمل النسيان، من أجل ذلك بالضبط، أصبحوا أغنياء، من أجل أن ينسوا.

كنت قد فقدت شيئاً فشيئاً عادتي السيئة، بأن أعد مرضاي هؤلاء بالشفاء والصحة لأن ذلك لا يملك أن يسعدهم كثيراً، لأن احتمال أن يرفلوا في ثوب العافية، ليس، في نهاية المطاف سوى الاحتمال الأسوأ بالنسبة إليهم، أما

Twitter: @ketab_n

الصحة الجيدة فتعني العمل، وبعد ذلك؟ في حين أن معاش الدولة، وحتى لو كان زهيداً، نعمة إلهية. دون قيد أو شرط.

حينما لا يكون لديك مال تقدمه إلى الفقراء فمن الأفضل أن تصمت. وإذا تكلمت عن شيء آخر غير المال، فإنك تخدعهم، تكذب، دوماً، تقريباً. من السهل على الأغنياء أن يتسلوا، لا بشيء سوى بالنظر إلى المرآة، على سبيل المثال. يتأملون فيها أنفسهم، لأنه ما من شيء، أمتع من مشاهدة الأغنياء لأنفسهم. وبغية إنعاشهم، تتم ترقيتهم كل عشر سنوات، درجة في وسام جوقة الشرف. مثل ثدي هرم، ومن ثم ينشغلون خلال عشر سنوات أخرى، وهذا كل شيء. كان مرضاي أنانيين، بائسين، ماديين، مختزلين داخل خططهم القذرة للحصول على المعاش الحكومي، من خلال قشعهم المدمى والإيجابي. أما ما تبقّى فكان لديهم سيان. وحتى فصول السنة كانت لديهم سواء. لم يكونوا يحسون بالفصول، ولا يرغبون بأن يعرفوا عنها إلا ما يتصل بالسعال والمرض، على نحو أنهم في فصل الشتاء، مثلاً، يصابون بالزكام أكثر مما في الصيف. غير أنهم، في المقابل يبصقون، بسهولة، دماً في الربيع. وخلال فصل الحرارة يمكن أن يفقدوا ثلاثة كيلوغرامات من وزنهم كل أسبوع. كنت أسمعهم أحياناً يتحدثون فيما بينهم، فيما هم ينتظرون دورهم، معتقدين أنني في مكان آخر. كانوا يتناولونني بكلام بذيء. ولا ينتهون من ذلك، ويسردون عني أكاذيب من نسج خيالهم. كان ذلك خليقاً أن ينعشهم حينما يغتابوني، على هذا النحو، وبما لا أدري من شجاعة سرية كانت ضرورية لهم. ولكي يصبحوا عديمي الرحمة أكثر فأكثر، مقاومين، خبثاء، لكي يستمروا في الوجود، كان اغتيابهم لي، وثلبهم واحتقارهم، وتوعدهم يفيدهم إلى حد كبير، ينبغي أن نصدق هذا. وعلى الرغم من كل ذلك، كنت أفعل كل ما بوسعي كي أكون لطيفاً معهم بكل الوسائل، لقد ارتبطت بقوة بقضيتهم، وحاولت

Twitter: @ketab_n

أن أكون نافعاً لهم، وأن أعطيهم الكثير من دواء الأيودور، كي أجعلهم يبصقون عصياتهم القذرة، كل هذا، دون أن أفلح إطلاقاً في تحييد شرورهم.

كانوا يظلون هناك، أمامي مبتسمين مثل خدم عندما كنت أسألهم، ولكنهم لم يكونوا يحبونني.. أولاً، لأنني كنت أحسن معاملتهم، ومن ثم لأنني لم أكن غنياً، ولأن علاجهم كان على يدي، وكان هذا يعني بأن علاجهم مجاني، وهو ما لم يكن مريحاً، على الإطلاق للمريض، حتى ولو كان يسعى إلى الحصول على نفقة، لم يكن ثمة نذالات إذن، يشيعونها عني خفية. لم أكن أملك سيارة أيضاً، مثل أغلبية الأطباء الآخرين في الأنحاء المجاورة. كان ذلك عاهة في رأيهم حين آتي إلى المستشفى على قدميّ. وحين كان يتم تحريضهم ضدي، ولم يكن زملائي يقصّرون في ذلك، فقد كانوا ينتقمون من كل حفاوتي بهم، من كوني خدوماً جداً، متفانياً جداً، كل ذلك كان اعتيادياً ومألوفاً. كان الزمن يمضي مع ذلك.

ذات مساء، وفيما كانت صالة انتظاري خاوية تقريباً، دخل كاهن إلى غرفتي يريد التحدث معي، لم أكن أعرفه من قبل، كدت أرفض استقباله لأنني لم أكن أحب الخوارنة. كانت لدي أسبابي، وعلى الأخص منذ أن باعني الكاهن في سان تابيتا إلى قبطان السفينة المبحرة إلى أمريكا، ولكن هذا الخوري الذي أمامي كان غريباً. كنت أحاول عبثاً التعرف عليه، لكي أشتمه بشيء من الثقة، لم أكن، في الحقيقة قد التقيت به قط، في أي مكان سابقاً. كان خليقاً. مع ذلك، أن يكون قد جال مثلي، زمناً طويلاً خلال الليل في رانسي، ما دام أنه من هذه الأنحاء، لعله كان يتجنبني إذن، حينما كان يخرج؟ كنت أفكر في ذلك. كان علي في النهاية أن أبلغه بأنني لم أكن أحب الخوارنة. وقد أحس هو بذلك. من خلال الطريقة التي باشر بها حديثه المسلي.. لم نكن إذن

Twitter: @ketab_n

على الإطلاق نتدافع حول المرضى أنفسهم. كان يخدم كنيسة هناك، في الجوار، منذ عشرين سنة. كان لديه جموع من المؤمنين، ولكنهم لم يكونوا يدفعون له كثيراً، كان، بالأحرى أشبه بمتسول بوجه الإجمال. وهو ما يقرّب الشقة بيننا. بدت لي جبته التي تغطيه مصنوعة من قماش غير عملي للتسكع في مناطق أشبه بحساء السمك. لفتّ نظره إلى ذلك، وشددّت على ما كان يلاقيه من عنت بسبب عدة العمل هذه، «تعودت عليها!» أجابني الخوري.

نفاد الصبر الذي توحي به ملاحظتي لم يضايقه مطلقاً، بل جعله أكثر لطفاً أيضاً، كان لديه بالتأكيد شيء ما يريد أن يسألني عنه، لم يكن صوته أعلى مما يدور في مسارة رتيبة. وقد جاءه هذا الصوت الخفيض، كما تخيلت ذلك، من مهنته، وفيما بدأ الحديث، حذراً وممهّداً، كنت أحاول أن أتخيل كل ما كان يصطنعه هذا الخوري، كل يوم من تكشيرات ومن وعود، كي يحصل على حريراته. من نوع تكشيراتي ووعودي. ومن ثم فقد تخيلته، كي أتسلى، عارياً تماماً أمام الهيكل. على هذا النحو، ينبغي أن تعتاد على أن تبدّل، منذ الوهلة الأولى، هيئة الرجال الذين يأتون لزيارتك. وحينذاك تفهم الرجل على نحو أسرع، وتتبين على الفور، داخل أية شخصية من الشخصيات يقبع واقعه كسرفة ذباب ضخمة وشرهة، تلكم مهارة جيدة للمخيلة، فحين تتخيله عارياً تماماً، يتلاشى سحره، ويتبدد بريقه، ولا يبقى منه أمامك، في المحصلة، سوى خرج مملوء بالإدعاء والقبح، يحاول جاهداً دون جدوى، أن يهذر بنحو أو بآخر. لا شيء يعصى أمام هذه التجربة، ثم توازن حساباتك في الحال.. إذ لايبقى ثمة سوى الأفكار، والأفكار لا تثير الخوف. وما من شيء تفقده معها. كل شيء ينسّوى وينتظم. في حين أن من الصعب عليك أحياناً أن تتحمل سحر رجل مكسو بالثياب، لأنه يحتفظ بروائح كريهة وبأسرار دفينة داخل ثيابه.

Twitter: @ketab_n

كانت أسنان الخوري في غاية السوء، زنخة ومسمرّة، محاطة في أعلاها بقلح مخضر، أسنان يسيل منها الصديد في المحصلة، كلمته عن صديد أسنانه، ولكنه كان منشغلاً جداً في الحديث معي عن أشياء.. لم يكن يكف عن عصر الأشياء التي كان يحدثني بها، بين أسناخه، بدفعات من لسانه الذي كنت أراقب جميع حركاته داخل فمه، كان لسانه مسلوخاً في مواضع صغيرة عدة فوق حوافه الدامية.

كانت تلك المراقبات الشخصية المدققة عادة من عاداتي، بل ميلاً متأصلاً لدي. فحين نركز على الطريقة التي نشكّل وننطق بها الكلمات فإن جملنا قلما تصمد لكارثة الانزلاق نحو الهذر، ذلك أشد تعقيداً وأكثر صعوبة من الجهد الميكانيكي الذي نبذله خلال الحديث. هذا التويج اللحمي المنتفخ، الفم، والذي ينقبض أثناء الصفير والمص، ويكّد دون توقف، يطلق كل أنواع الأصوات الدبقة عبر سدٍ نتن من الأسنان النخرة، أية عفونة! ذلك ما يناشدوننا بأن نحوله إلى مثل أعلى، ذلك صعب وأيم الله! فما دمنا لسنا أكثر من أسوار من الكروش الفاترة. والشديدة العفونة فسيشق علينا الأمر مع العاطفة. أن نكون عاشقين، فهذا لا يعني أن نستمر معاً، ذلك صعب! فالأقذار لا تسعى إلى أن تدوم، ولا إلى أن تتكاثر، وفي هذه النقطة نحن أتعس من الخراء. فهذا الحرص الشديد على الاستمرار في الحال التي نحن فيها يشكل عذاباً لا يطاق.

من المؤكد أننا لا نحب شيئاً أبهى من رائحتنا. كل تعاستنا تنجم عن كوننا في حاجة إلى أن نبقى: جان وبيير او غاستون مهما كلفنا ذلك، خلال كل أنواع السنين. هذا الجسد جسدنا، متنكر تحت قناع جزيئات متحركة وتافهة، إنه يثور طوال الوقت ضد تلك التمثيلية الهزلية الفظيعة التي تدعى البقاء، تريد جزيئاتنا الرشيقة أن تذهب لتضمحل وتتلاشى. بأسرع وقت بين

Twitter: @ketab_n

الأكوان، إنها تكابد من كونها «نحن» مخدوعة إلى ما لا نهاية، لا ريب في أننا سننفجر إذا ما ملكنا الشجاعة. ولكننا نخور حسب، من يوم إلى آخر. عذابنا العزيز على قلوبنا كامن هنا، ذرّي، داخل جلدنا ذاته، مع غرورنا وتغطرسنا.

لما كنت صامتاً واجماً بسبب استحضاري لتلك المخازي البيولوجية اعتقد الأب بأنه قد استحوذ علي. واستغل ذلك كي يغدو تجاهي رفيقاً إلى أبعد حد، بل وحتى أليفاً. ما من شك في أنه استعلم عني قبل أن يجيء، لامس بمنتهى الحذر الموضوع الماكر حول سمعتي الطبية في الأنحاء المجاورة. مشيراً إلى أنها كانت ستغدو أفضل، لو أنني سلكت مسلكاً آخر مختلفاً حين حللت في رانسي، منذ الشهور الأولى من عملي فيها. «المرضى، يا عزيزي الدكتور، علينا أن لا ننسى ذلك أبداً، محافظون من حيث المبدأ. إنهم يخشون، وهذا يمكن تصوره بسهولة، أن يخسروا الأرض والسماء..»

حسب رأيه، كان يجدر بي إذن، منذ بداياتي أن أغشى الكنيسة، كانت تلك خلاصته للنظام الروحي والعملي أيضاً، لم تكن الفكرة سيئة، امتنعت عن مقاطعته، ولكنني كنت أنتظر بصبر أن يأتي على ذكر الغرض من زيارته.

إذا ما رغبت بجو كئيب ومتجهم. فلا يمكن لي أن أرغب بأفضل من الجو الذي كان يخيم في الخارج، فلفرط ما كان الجو رديئاً، قارساً وملحاً خيل إلي بأنني لن أرى قط، مرة أخرى بقية العالم حينما سأخرج، وأن العالم سيذوب وينحل، متقززاً.

كانت ممرضتي قد أفلحت أخيراً في تسجيل بطاقاتها، جميع بطاقاتها حتى آخر بطاقة، لم يعد لديها أبداً أي عذر للبقاء هنا، لتتصت إلينا، خرجت إذن، مغيظة بنحو واضح، صافقة الباب خلفها عبر سحابة مطرية غاضبة.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> خلال تلك المحادثة أبلغني ذلك الخوري الذي كان يدعى بروتيست، بكثير من التحفظ والتردد بأنه كان يقوم، منذ بعض الوقت بمساع هو والسيدة هنروي البنت من أجل إنزال عجوزتها وروبنسون، كليهما معاً، في مؤسسة دينية غير باهظة النفقات، وأنهما كانا ما يزالان يبحثان.

لدى النظر إلى الأب بروتيست جيداً يمكنك عند اللزوم أن ترى فيه نوعاً من مستخدم في عرض البضائع مثل الآخرين. وربما مديراً لفرع من فروع العرض، مبلّلاً ومخضرّاً، ومجففاً، مئة مرة، كان رجلاً عامياً في الحقيقة، بوضاعة حركاته وإشاراته، وبأنفاسه أيضاً. قلما كنت أنخدع بصدد الأنفاس. كان هذا رجلاً يأكل بسرعة فائقة، ويشرب النبيذ الأبيض.

كانت الكنة هنروي، كما روى لي الأب، ومنذ البداية، قد ذهبت إليه لتراه في بيته بالذات، بعد محاولة الاغتيال بقليل، كي يخلصهم من الورطة القذرة التي كانوا قد أوقعوا أنفسهم بها. كان يبدو لي وهو يتحدث إلي عن ذلك كمن يبحث عن أعذار، وتفسيرات. فقد كان يشعر بالحرج من هذا التعاون. لم يكن من المفيد لي في الحقيقة أن أتردد، فقد كان الأمر واضحاً ومفهوماً. لقد جاء ليلقانا وسط عتمة الليل، وهذا كل شيء. تعساً له ذلك الخوري. فقد استحوذ عليه، هو أيضاً، نوع من الجرأة القذرة، شيئاً فشيئاً، مع رنين النقود. تباً! ولما كان الصمت يطبق على سائر مستشفاي، والليل ينغلق على المنطقة فقد خفض الخوري حينئذ نبرة صوته كلياً، كي يبلغني مساراته، لا لأحد سواي. ولكنه كان عبثاً يهمس مع ذلك، فكل ما كان يرويه لي، كان يبدو لي مدوياً، إلى حد

Twitter: @ketab_n

لا يطاق.. بسبب الهدوء حولنا بلا ريب. الحافل بالصدى، وربما في داخلي وحدي؟ اخرس! كنت أود أن أهمس له في كل وقت، بين كل كلمتين من كلماته التي كان يتفوه بها. كانت شفتاي تختلجان قليلاً بسبب الخوف. وفي نهاية كل جملة كنت أكف عن التفكير بها.

الآن وقد أدركنا الخوري داخل قلقنا لم يعد يعرف ما الذي يفعله كي يتقدم في إثرنا نحن الأربعة وسط الليل. زمرة صغيرة. كان يريد أن يعرف إلى أي مدى كنا عالقين داخل المجازفة، وإلى أين كنا نمضي؟ كي يستطيع هو أيضاً أن يمسك بيد الأصدقاء الجدد نحو النهاية التي سيكون من الضروري أن نبلغها معاً، وإلا فلن نبلغها أبداً. لقد كنا الآن في الرحلة ذاتها، كان الخوري يتعلم السير في الليل، مثلنا ومثل الآخرين، كان يتعثر أيضاً. كان يسألني كيف ينبغي له أن يتصرف كي لا يسقط. لم يكن عليه أن يأتي إذا كان خائفاً!. سنصل سوياً إلى النهاية، وحينذاك سنعرف ما الذي كنا نبحث عنه في تلك المخاطرة كنا نبحث عن الحياة، عن ومضة من شعاع في قلب الليل.

ومن ثم، فلعلنا لن نعرف شيئاً على الإطلاق، ولن نجد أي شيء، وذلكم هو الموت.

المهم في تلك اللحظة، أن نتقدم خبط عشواء. وحيثما وصلنا أيضاً، فلن يكون بمستطاعنا التراجع، لا مجال للاختيار، فعدالتهم مع قوانينها كانت لنا بالمرصاد، في زاوية كل ممر. كانت هنروي الابنة تمسك بيد العجوز وبيد زوجها، وأنا أمسك بأيديهم وبيد روبنسون، أيضاً. كنا معاً، ذلكم هو الأمر. كنت أشرح كل ذلك، على الفور، للخوري. وكان هو يفهم.

حيثما كنا قد وصلنا الآن، شئنا ذلك أم أبينا. فلن نفلح قط إذا ما انكشف سرنا، وأطلقته ألسن العابرين. كنت أقول ذلك أيضاً للخوري وأؤكد

Twitter: @ketab_n

عليه بشدة. إذا ما صادفنا أحد العابرين فعلينا أن نبدو كمن يتنزه. كأن شيئاً لم يكن. تلكم هي التعليمات.. أن نبقى طبيعيين تماماً. كان الخوري يعرف الآن كل شيء تقريباً، يدرك كل شيء، ويشد على يدي بدوره، كان خائفاً جداً، بالضرورة هو أيضاً. في البداية، كان متردداً، يغمغم مثل شخص بريء، وكلما تقدمنا على الطريق، وفقدنا أي شعاع ضوء هناك، حيث نحن. كان علينا التمسك بالحذر والتحوط، وإعادة النظر بكل خطوة، نخطوها إن لم نكن متأكدين تماماً من جدواها. الكلمات التي تقال في مثل هذه الأحوال، والتي كنا نرددها فيما بيننا لطمأنة بعضنا لم تكن تخلف أي أثر ولا ترجع أي صدى، لقد خرجنا من المجتمع. لا يقول الخوف نعم ولا يقول لا. يستحوذ الخوف على كل ما يقال، وعلى كل ما يجول في الذهن.

لا يفيد في شيء أيضاً، في مثل هذه الحالات أن تجحظ العيون في ظلمة الليل، بسبب الهلع من الضياع. يستولي الليل على كل شيء وعلى النظرات ذاتها، فالمرء يخويه الليل ويفرغه من الداخل. ينبغي أن يتمالك المرء نفسه مع ذلك، وإلا فسوف يسقط.

أناس النهار لا يفهمونك، يفصلك عنهم الخوف الشديد، تظل مسحوقاً تحت هذا الخوف، حتى اللحظة التي ينتهي فيها، بطريقة أو بأخرى، وحينئذ يمكنك في النهاية أن تنضم إلى هذه السلَطَات من البشر، في الموت أو في الحياة.

لم يكن على الأب سوى أن يساعدنا الآن وأن يسرع في التعلم، تلك كانت مهمته؛ ومن ثم فهو لم يأت إلا من أجل هذا، لقد بذل كل جهده من أجل إيجاد عمل للعجوز هنروي، في البداية، وبسرعة، ولروبنسون أيضاً، في الوقت ذاته، في ملجأ الأخوات في المقاطعة. كان هذا التدبير يبدو له ممكناً،

Twitter: @ketab_n

ولي أيضاً. سيكون علينا فقط الانتظار، خلال شهور، لوظيفة شاغرة، ولم يعد بإمكاننا نحن انتظار تلك الشهور، لقد طفح الكيل حتى الجمام.

كانت الكنة على حق. فكلما كان أبكر، كلما كان أفضل. فليذهبوا! فلنتخلص منهم.. جرب بروتيست حينئذ تدبيراً آخر، وافقت عليه على الفور، وقد بدا لي لبيباً إلى حد كبير، ومن ثم فقد كان يتضمن في البداية مهمتين اثنتين لكلينا، أنا والخوري، كان ينبغي إنجاز ذلك التدبير، دون أي تأخير تقريباً، كان علي أن ألعب فيه دوري الصغير، ذلك الذي يتكون من إقناع روبنسون بالذهاب إلى الجنوب، وأن أنصحه بطريقة حانية تماماً، بالطبع، ولكن بسرعة مع ذلك.

من دون أن أعرف ظهر أو بطن التدبير الذي تحدث عنه الخوري، كان علي ربما أن اتخذ احتياطاتي، كأن أوفر لصديقي بعض الضمانات على سبيل المثال.. لأنني، في نهاية المطاف، حين كنت أفكر بالتدبير الذي اقترحه علينا بروتيست كنت أجده مضحكاً وغريباً. غير أننا كنا على عجلة من أمرنا. بسبب الظروف، والتي كان أهمها أن لا يتأخر هذا التدبير، وقد وعدت بتنفيذ ما طُلب مني من تأييد للخطة ومن كتمان لها. كان هذا البروتيست يبدو لي معتاداً كل الاعتياد على الظروف الدقيقة من هذا النوع، وشعرت بأنه كان سيسهل علي كثيراً من الأمور.

من أين أبدأ أولاً؟ كان ينبغي تدبير رحيل سري إلى الجنوب، ما الذي سيفكر به روبنسون حول هذا الرحيل. ومن ثم سفره مع العجوز. بالإضافة إلى ذلك، والتي كان على وشك أن يقتلها.. سألح عليه.. هذا كل شيء.

إذا تكلمنا عن مهنة غريبة، فقد كانت المهنة التي تم تدبيرها لروبنسون وللعجوز في الجنوب مهنة غريبة، كان ذلك في تولوز. وتولوز مدينة جميلة،

Twitter: @ketab_n

سأراها مرة أخرى تلك المدينة: سأذهب لرؤيتها هناك! كان ذلك وعداً مني بأن أذهب إلى تولوز ما أن يستقرا فيها في منزلهما، وفي عملهما، وفي كل شيء.

حين كنت أفكر في الأمر، فإن رحيل روبنسون الوشيك كان يحزنني قليلاً، وكان في الوقت ذاته يفرحني كثيراً، لأنني على الأخص حصلت بسببه، لمرة واحدة على فائدة حقيقية صغيرة.. لقد أعطوني ألف فرنك. لم يكن مطلوباً مني سوى حث روبنسون على الذهاب إلى الجنوب. أن أؤكد له بأنه ما من مناخ أفضل لجراح عينيه من المناخ هناك، وأنه ليس بالإمكان أفضل من ذلك، ثم إنه كان محظوظاً، بوجه الإجمال لتخلصه من ورطته بثمن زهيد جداً، تلك كانت الوسيلة لإقناعه.

بعد خمس دقائق اجترار من هذا النوع، تشربت أنا نفسي بالاقتناع، وصرت على أتم استعداد للمقابلة الحاسمة، ينبغي طرق الحديد وهو محمّى. ذلك هو رأيي، لن تكون تولوز، على أي حال، أسوأ من هنا. لقد بدت لي فكرة هذا البروتيست، لدى تأملها، معقولة تماماً. هؤلاء الخوارنة، يستطيعون، مع ذلك، أن يخمدوا لك أسوأ الفضائح.

تجارة، ليست أسوأ من أي تجارة أخرى، ذلك ما قُدم لروبنسون عشية السفر، كعمل هناك. كان ذلك نوعاً من كهف يحتوي على مومياءات، على حد علمي، يقوم روبنسون بإدخال الزوار إلى الكهف الواقع تحت كنيسة، بأوبول(١) واحد. سائحون. تجارة حقيقية كما أكد لي بروتيست. كنت مقتنعاً تقريباً بذلك، وعما قريب سيساورني بعض الحسد ربما. وليس في كل حين يمكن تشغيل الأموات.

---

(١) أوبول: قطعة نقد ذات قيمة زهيدة.

Twitter: @ketab_n

أغلقت باب المستشفى، وها نحن على الطريق إلى آل هنروي، مصممين كل التصميم، كلانا أنا والخوري، عبر مستنقعات الوحل. إن تكلمت عن الجديد فقد كان ذلك جديداً. ألف فرنك من الأمل. لقد غيرت رأيي بالخوري. حين وصلنا إلى المنزل وجدنا الزوجين هنروي بالقرب من روبنسون في غرفة الطابق الأول، ولكن يا للحالة التي كان عليها روبنسون حينذاك؟

«إنه أنت! قال لي وهو في ذروة الانفعال. ما أن سمعني أصعد الدرج. لقد أحسست كأن أمراً ما سيحدث!.. هل ما يقولونه صحيحاً؟»

سألني عاوياً.

هو ذا ينفجر بالبكاء حتى قبل أن أتمكن من أن أجيب بكلمة واحدة. الآخران، آل هنروي، أشارا إلي بإشارات، بينما كان هو يندب.

«ورطة حقيقية، قلت لنفسي، الآخرون مستعجلون جداً!.. دائماً مستعجلون جداً!.. لقد صارحوه ببرود هكذا؟ دون تمهيد. ودون أن ينتظروني.

استطعت أن أستدرك الموقف تقريباً، لحسن الحظ، بكلمات أخرى. لم يكن روبنسون يطلب أكثر من ذلك أيضاً، وجه جديد للأشياء ذاتها. كان هذا يكفي. لم يكن الخوري الواقف في الرواق يجرؤ على دخول الغرفة، فمشى مترنحاً من الهلع.

«ادخل، دعته هنروي الابنة، في النهاية.. ادخل إذن! أنت لست في غير مكانك بالتأكيد، يا سيدي الأب! لقد فاجأت عائلة مسكينة في محنتها، وهذا كل ما في الأمر!.. الطبيب والكاهن معاً، أليس الأمر هكذا دائماً في اللحظات الأليمة من الحياة؟».

كانت تصوغ جملاً شعرية.. كانت تلك آمال جديدة للخروج نهائياً من البؤس ومن الليل، جعلتها شاعرية بطريقتها القذرة، تلك القاسية العديمة الرحمة.

Twitter: @ketab_n

بدت الحيرة والاضطراب على الخوري، وفقد كل تماسكه، وعاد يغمغم على مسافة من المريض، كانت غمغمته المشوبة بالانفعال والتأثر تصل إلى أسماع روبنسون الذي انطلق صياحه من جديد منتفضاً: «لقد خدعوني. خدعوني جميعاً».

دارت ثرثرات حول أمور سطحية فقط.. انفعالات.. الشيء ذاته دائماً، ولكن ذلك أعاد إلي زمام المبادرة، والجرأة، سحبت هنروي الابنة إلى أحد الأركان وخيرّتها بين إتمام الصفقة أو فسخها لأنني كنت أرى بوضوح بأن الرجل الوحيد القادر هنا، في الداخل على إخراجهم من هذا الوضع، كان ما يزال مغبوناً في النهاية. «العربون، قلت لها، وعربوني حالاً» حينما لا يكون هناك ثقة فليس ثمة مبرر ليزعج المرء نفسه، كما يقال. فهمت الزوجة، وأغلقت يدي حينئذ على ورقة من فئة الألف فرنك، وورقة أخرى مثلها أيضاً كي أكون واثقاً.. كنت قد مارست تأثيري على روبنسون، بدأت الآن بإقناعه.

كان ينبغي أن يتخذ قراره بالسفر إلى الجنوب.

الخيانة! ما أن يقترفها المرء، حتى يقترفها بسرعة. ينبغي اغتنام الفرصة. إنها أشبه بفتح نافذة داخل سجن. الجميع يرغبون بها، ولكن نادراً ما يستطيعون ذلك.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> بعد أن غادر روبنسون رانسي توهمت بأن الحياة كانت ستقلع من جديد، وأنه سيكون لدي على سبيل المثال، من المرضى أكثر من المعتاد. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق، في البداية ظهرت البطالة، الأزمة، في الأنحاء المجاورة، وكانت تلك هي الأسوأ. ثم بدأ الجو، على الرغم من فصل الشتاء، يعتدل ويغدو لطيفاً وجافاً، في حين أن الرطوبة والبرد هما ما نحتاجه، نحن الأطباء!. ما من آفات كذلك. فصل معاكس في النهاية وخائب جداً.

لاحظت كذلك بأن زملائي يذهبون لزيارات مرضاهم سيراً على الأقدام. ليس هناك ما يضاف إلى ذلك، محاولين الظهور بمظهر المتنزه المرح، ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر مغتاظين جداً، لأنهم بوجه التحديد، لايخرجون بسياراتهم، على سبيل التوفير. أما أنا، فلم يكن لدي سوى مشمّع مطري من أجل الخروج. هل بسبب ذلك أصبت بزكام حاد جداً، أم لأنني كنت قد اعتدت فعلاً على الإقلال الشديد من الطعام؟ كل شيء ممكن، هل الحمى هي التي عاودتني مرة أخرى؟ كان هناك بلا ريب لفحة برد صغيرة، قبيل الربيع، بدأت أسعل سعالاً متواصلاً، مريضاً بقذارة، كارثة. كان يستحيل علي في بعض الصباحات مجرد النهوض من الفراش، كانت عمة بيبرت تمر ببابي. فكنت أدعوها، فتصعد إلي، لأرسلها في الحال كي تقبض لي حساباً صغيراً، يدين لي به بعض أهل الحي، وقد دام الحساب الأخير، ذلك المبلغ المستعاد نصفه فقط، دام معي عشرة أيام، وأنا طريح الفراش.

Twitter: @ketab_n

توفر لدي الوقت لأفكر، وأنا ممدد على السرير. خلال الأيام العشرة. حينما سأستعيد قواي سأغادر رانسي. ذلك ما عزمت عليه. قسطان متأخران من أجرة البيت، بالإضافة إلى ذلك. وداعاً إذن يا قطع أثاثي الأربع! ودون أن أفوه بكلمة لأحد بالطبع، انسللت من البيت بمنتهى الهدوء، ولن أعود قط لرؤية غارين ــ رانسي ما حييت! رحلت دون أن أترك أثراً ولا عنواناً. فحين يطاردك السبع المنهك من الجوع والعفن. فلماذا النقاش، الفرار الفرار، دونما كلمة واحدة، ذلك ما يفعله اللبيب!

مع دبلومي في الطب، كان بوسعي أن استقر في أيما مكان، كان هذا صحيحاً.. ولكن ذلك المكان الآخر لن يكون أحسن ولا أسوأ.. يكون المكان أفضل قليلاً في البداية، بالضرورة، لأنه لابد من انقضاء بعض الوقت قبل أن يتمكن الناس من التعرف عليك، ليشرعوا في إيذائك، وليجدوا الوسيلة إلى ذلك، فما داموا يبحثون عن الثغرة التي ينفذون من خلالها للإساءة إليك بأسهل السبل فهم غير مطمئنين تماماً، ولكنهم حين يجدون تلك الثغرة فإن أذاهم يغدو متشابهاً في جميع الأمكنة. خلاصة الأمر، فإن تلك المهلة الصغيرة التي تكون فيها غير معروف، في كل مكان جديد هي المهلة الأهنأ بالنسبة إليك، وبعد ذلك، يبدأ الأذى من جديد، تلك هي طبيعتهم. ما يهمك هنا هو أن لا تنتظر طويلاً جداً كي يتعرف الناس على ضعفك، ينبغي سحق البق قبل أن يعثر على منافذه التي ينفذ منها. أليس هذا صحيحاً؟

أما المرضى، الزبائن.. فلم يكن لدي البتة أي وهم بصددهم. لن يكونوا أقل ضراوة، ولا أقل بلادة، ولا أقل جبناً ممن هم هنا. الخمر ذاتها، والسينما ذاتها، والنمائم ذاتها.. والخضوع الأعمى للحاجات الطبيعية، للفم وللشرج. إنهم سيشكلون من جديد هناك مثلما يشكلون هنا الحشد الفوضوي الثقيل الموحل،

Twitter: @ketab_n

المترنح ذاته، من إشاعة إلى أخرى، متشدقين دوماً متكسبين، سيئي النية، عدوانيين، بين خوفين اثنين.

ولكن ما دام المريض، يغير الجانب الذي ينام عليه في سريره، وفي حياته فلدينا نحن الحق في ذلك أيضاً، بأن ننقلب من جانب إلى الجانب الآخر. ذلك كل ما يمكن للمرء أن يفعله، وكل ما يجده من دفاع تجاه مصيره. ينبغي للمرء أن لا يأمل كثيراً بترك شقائه في أي مكان، على الدرب. فالشقاء أشبه بامرأة شريرة، قد تزوجت منها. لعل من الأفضل لك أن تتوصل إلى حبها قليلاً بدل أن تستنزف قواك في ضربها طوال حياتك. ما دمت بالتأكيد لن تتمكن من التغلب عليها.

وكان أن انسللت من قبوي في رانسي ملتزماً أقصى الهدوء والحذر. مررت أمام كوخ حاجبة العمارة دون أن يلمحني أحد أو يعرفني من أفراد أسرتها الذين كانوا حول طاولة الشراب والكستناء. كانت هي تحك جسمها. بينما كان الزوج منحنياً على الموقد أشبه بالمفلوج من الدفء. كان قد شرب كمية كبيرة من الخمر التي جعله لونها البنفسجي يغلق عينيه.

بالنسبة إلى هؤلاء الناس كنت أنزلق داخل المجهول، كما لو كنت داخل نفق عظيم لا نهاية له. من الجيد أن ثلاثة أشخاص على الأقل. يعرفونك، وبالتالي يراقبونك ويؤذونك، لا يعودون يعرفون على الإطلاق ما آل إليه أمرك.. هذا جيد. ثلاثة أشخاص، لأنني عددت ابنتهما أيضاً، طفلتهما تيريز، التي كانت تجرح دماملها المتقيحة لفرط ما كانت تحك جلدها باستمرار تحت لسع البراغيث والبق. والواقع أنني كنت أتعرض للسع هذه الحشرات بشدة في منزل حاجبة عمارتي، بحيث أنني حينما كنت أدخل إلى كوخهم كنت كمن يدخل إلى قلب غابة، كان الإصبع الطويل لمصباح الغاز يسطع ويصدر

Twitter: @ketab_n

صفيراً داخل الممر، ويلقي بأشعته على العابرين فوق حافة الرصيف، فيحولهم، دفعة واحدة، إلى أشباح تائهة ثملة.. كان العابرون يمضون بعد ذلك يبحثون قليلاً عن لون ما من الألوان، هنا، وهناك، أمام نوافذ ومصابيح أخرى، ثم يضيعون أخيراً، مثلي، وسط الليل، سوداً ورخوين.

لم أكن قط مضطراً إلى التعرف على هؤلاء العابرين. غير أنه كان يروق لي أن أوقفهم في تجوالهم الغامض، لحظة صغيرة، الزمن الكافي لأقول لهم فقط، مرة واحدة، بأنني كنت ذاهباً لأضيع في المجهول، كنت راحلاً، ولكن بعيداً جداً، بحيث كنت سأضجرهم، دون أن يكون بوسعهم أن يقولوا لي أي شيء.. لا هؤلاء ولا أولئك، ولا أن يفعلوا أي شيء..

حينما وصلت إلى شارع ليبرتي كانت سيارات الخضار تنطلق مرتجة صوب باريس، سلكت طريقها.. كنت تقريباً قد ابتعدت عن رانسي كلياً. لم يكن الجو دافئاً، ولكي أدفىء نفسي، انعطفت قليلاً صوب منزل عمة بيبرت. كان مصباحها يفكك عقد الظل في قاع الرواق. «كي أنتهي من كل هذا.. قلت لنفسي، ينبغي ان أقول للعمة، وداعاً».

كانت هناك فوق كرسيها، على جري عادتها، وسط روائح الكوخ. والموقد الصغير يدفئ كل ما حولها. ووجهها العجوز، الآن على وشك البكاء دوماً منذ أن رحل بيبرت عن الدنيا. على الجدار فوق صندوق الثياب، صورة فوتوغرافية كبيرة لبيبرت في المدرسة بمريلته. بيبرت والصليب. كانت تلك «صورة مكبرة» تحتفظ بها. أيقظتها من غفوتها.

«صباح سعيد، يا دكتور» انتفضت العمة.. ما أزال أذكر جيداً بأنها قالت لي: «تبدو مريضاً» قالتها على الفور.. اجلس إذن! لست بحالة طيبة أنا أيضاً.

Twitter: @ketab_n

– كنت ذاهباً لأقوم بجولة صغيرة، أجبتها، كي أستعيد بعض رباطة الجأش.

– هذا وقت متأخر، من أجل جولة صغيرة، قالت العمة، وعلى الأخص إن كنت ذاهباً صوب ساحة كليشي، الريح الباردة تخترق الجادة في مثل هذه الساعة. نهضت العمة حينئذ، وراحت تترنح هنا وهناك كي تعد لي مشروباً ساخناً، ولتتحدث على الفور، عن كل ما يعن لها، في الوقت ذاته، وعن آل هنروي، وعن بيبرت بالضرورة.

لم يكن ثمة ما أقوله كي أحول بينها وبين الحديث عن بيبرت، فقد كان ذلك يثير أحزانها وأوجاعها. وكانت هي تعرف ذلك أيضاً. رحت أصغي إليها دون أن أقاطعها أبداً. كنت كالمخدر تماماً. حاولت أن تذكرني بكل الخصال اللطيفة التي كان يتمتع بها بيبرت، والتي كانت تستعرضها بصعوبة، لأنها لم تكن خليقةً أن تنسى أي خصلة منها. كانت تبدأ من جديد، وحين تنتهي من ذلك كله، تروي لي جميع الظروف التي أحاطت بتربيته وإرضاعه بالرضاعة. وعندما تعثر أيضاً على خصلة صغيرة من خصال بيبرت كان ينبغي أن تضعها مع ذلك إلى جانب خصاله الأخرى، وحينذاك تعود إلى القصة من بدايتها، دون أن تنسى مع ذلك شيئاً، وكانت مضطرة في النهاية إلى أن تذرف بعض الدموع بسبب عجزها ووضعها.. ثم تشرد عن نفسها من التعب، وتغفو بمساعدة شهقاتها الصغيرة. لم يعد لديها القوة لتسترجع طويلاً من ظلال الماضي الذكرى الصغيرة لبيبرت الصغير الذي كانت تحبه جداً. كان العدم دوماً قريباً منها وفوقها. قليل من الشراب الساخن ومن التعب، ثم انتهى كل شيء، راحت تغفو شاخرة مثل طائرة صغيرة بعيدة تحملها الغيوم.. لم يعد لها أي إنسان في هذه الدنيا.

Twitter: @ketab_n

عندما انهارت على هذا النحو وسط الروائح كنت أفكر بأنني راحل وأنني لن أعود قط، إلى رؤية العمة، وأن بيبرت كان قد رحل دون تردد، رحيلاً نهائياً، وأنها سترحل هي أيضاً، العمة، كي تلحق به، وليس بعد وقت طويل. كان قلبها عليلاً أولاً، وكانت هرمة كلياً، كان قلبها يدفع الدم بجهد هائل داخل شرايينها، ويعاني مشقة في ضخه داخل العروق، سترحل العمة إلى المقبرة الكبيرة غير بعيد عن الحي، حيث الموتى هناك مثل جمع ينتظر. هناك في المقبرة كانت العمة تأخذ بيبرت كي يلعب، قبل أن يقع مريضاً. وكان لابد لذلك أن ينتهي بعد موته، وسنعود نحن لنرسم مثوانا الأخير، ويمكن القول بأننا سندركه جميعاً على غرار كرات اللعب التي ترتعش عند حافة الحفرة، تتردد قليلاً قبل أن تسقط في النهاية.

تنطلق الكرات عنيفة وهادرة أيضاً في البداية، ولكنها لا تذهب قط إلى مكان آخر في المحصلة. ونحن كذلك. وسائر الأرض لا تصلح إلا لهذا، إلا لتجعلنا نجد أنفسنا في جوفها جميعاً في النهاية. لم يكن ذلك بعيداً جداً بالنسبة إلى عمة بيبرت. لم يعد لديها الحماس تقريباً، لم يعد بوسعك أن تجد نفسك، خلال الحياة، لم يعد هناك الكثير من الألوان التي تسليك، والكثير من الأشخاص الذين يتحركون حولك، ثم لا تجد نفسك إلا في الصمت، حينما يكون الأوان قد فات، على غرار الموتى. ولكن كان علي أنا أيضاً أن أتحرك من جديد، وأن أذهب إلى مكان آخر.عبثاً كنت أفعل، عبثاً كنت أعرف... لم يعد بإمكاني البقاء في ذلك المكان.

كان دبلومي في جيبي منتفخاً بارزاً، ولكنه كان أكثر بروزاً من نقودي، وأوراق هويتي. أمام مركز البوليس كان عنصر الحراسة ينتظر تبديل نوبة منتصف الليل. ويبصق أيضاً قدر ما وسعه ذلك تبادلت معه تحية المساء.

Twitter: @ketab_n

في أحد أركان الشارع كان مركز الجمارك، والسعاة المخضوضرون داخل قفصهم الزجاجي. كانت الترامات قد توقفت عن السير. تلك هي اللحظة الملائمة للتحدث مع هؤلاء السعاة عن الحياة، والتي كانت دائماً تزداد صعوبة وكلفة. كانا اثنين هناك، أحدهما شاب والآخر عجوز، منحنيين فوق جداول كبيرة، ومن خلال زجاجهما كانا يلمحان الأرصفة الضخمة لظل التحصينات، تزحف شامخة داخل الليل تنتظر زوارق قادمة من البعيد، سفناً نبيلة، زوارق لم يشاهد مثلها قط، بالتأكيد، كان الجميع بانتظار وصولها.

ثرثرت إذن، لحظة من الزمن مع الساعيين، وتناولنا أيضاً قهوة صغيرة كانت تسخن فوق المدفأة الصغيرة، سألاني إن كنت أذهب كثيراً خلال العطل كي أتسلى على هذا النحو، خلال الليل، مع صرتي الصغيرة في يدي. «هذا صحيح» أجبتهما، لا جدوى من أن أشرح لهذين الساعيين أموراً غير مألوفة لهما.. فهما لم يكونا قادرين على مساعدتي في الفهم. ولما كنت قد اغتظت قليلاً من ملاحظتهما، فقد ساورتني رغبة قوية في أن أثير اهتمامهما ودهشتهما أخيراً. شرعت أحدثهما بسرعة وأنا واقف عن حملة نابليون عام ١٨١٦ والتي قادت القوزاق إلى المكان الذي كنا فيه بالذات، وهم يطلقون مدافعهم في إثر نابليون العظيم.

تحدثت عن ذلك بمرح وطلاقة، بالطبع، وهو ما أقنع، ناهيك الموظفين القميئين كليهما، وبقليل من الكلمات بتفوقي الثقافي، وتبحري التلقائي. ثم انصرفت عنهما هادئاً مطمئناً، صوب ساحة كليشي، عبر الجادة التي تفضي إليها.

ستلاحظون بأن هناك على الدوام مومستين اثنتين تنتظران في ركن من شارع السيدات. كانت تقفان في تلك السويعات المثقلة بالتعب والتي تفصل ثمالة اليوم عن تباشير الفجر.. بفضلهما كانت الحياة مستمرة عبر الظلال المعتمة.

Twitter: @ketab_n

كانتا تحملان حقائبهما بأيديهما، محشوة بوصفات طبية ومناديل لكل الاستعمالات وصور لأولاد من الريف. حينما اقتربت منهما وسط العتمة، كان لابد لي من الانتباه كي ألحظ وجودهما الذي لا يكاد يبين للنظر، لفرط ما كانتا متخصصتين، لقد بقيتا على قيد الحياة تحديداً للإجابة على جملتين أو ثلاث تلخص كل ما يمكن أن يفعله الرجال معهما. كانتا روحين حشريتين في جزمات ذات أزرار.

لا ضرورة للتحدث معهما بكلمة، ولا الاقتراب منهما أكثر من اللازم، فقد كانتا شريرتين. أبقيت بيني وبينهما مسافة، ثم أسرعت الخطى وسط قضبان السكة الحديدية. كانت الجادة طويلة.

في نهاية الجادة تماماً انتصب تمثال المارشال مونسي، مدافعاً دوماً عن ساحة كليشي منذ عام ١٨١٦ ضد الذكريات والنسيان.. ضد لا شيء على الإطلاق. مكللاً بتاج من اللآلئ غير النفيسة. وصلت بالقرب منه راكضاً، متأخراً مئة واثني عشر عاماً. عبر الجادة الخاوية.. لم يعد هناك روس، لم يعد هناك معارك ولا قوزاق، ما من جنود... لم يعد هناك أي شيء في الساحة.

كانت بضع سيارات تعبر سئمة قدر ما وسعها السأم، متجهة صوب المخارج.

يتذكر المرء الشوارع الكبيرة في الحالات العصيبة، كأماكن أقل برودة من غيرها. لم يعد رأسي يعمل إلا بفعل الإرادة بسبب الحمى. كان المشروب الساخن الذي تناولته لدى العمة يسري في عروقي، وليت ظهري هارباً أمام الريح التي كانت أقل برودة، حينما تتلقاها من الخلف. كانت سيدة مسنة بالقرب من ميترو سانت جورج تبكي على مصير فتاتها الصغيرة المريضة، في المستشفى، بالتهاب السحايا كما قالت لي، كانت تستغل ذلك من أجل جمع الصدقات، ولم يواتها الحظ.

Twitter: @ketab_n

عزيتها ببضع كلمات. حدثتها أنا أيضاً عن الصغير بيبرت وعن فتاة صغيرة أيضاً كنت أعالجها في المدينة، ماتت بالتهاب السحايا هي أيضاً، استمر احتضارها ثلاثة أسابيع، وأمها في السرير إلى جانبها قد جافاها النوم بسبب الحزن، كانت الأم تمارس العادة السرية طوال أسابيع الاحتضار الثلاثة، ولم يعد من الممكن إيقافها عن ذلك، بعد أن انتهى كل شيء.

هذا يثبت بأن من غير الممكن العيش دون لذة، وحتى لثانية واحدة. وأن من الصعب حقاً الغرق الدائم في الأحزان، هكذا هو الوجود.

تركت العجوز للحزن أمام الغاليري، كان عليها أن تفرغ حمولة من الجزر بالقرب من سوق الخضار، كانت تسلك طريق الخضار، مثلي، الطريق ذاته.

غير أن سينما «التارابو» اجتذبتني إليها. كانت جاثمة في الشارع مثل قطعة غاتو ضخمة وسط الأضواء. يؤمها الناس من كل حدب وصوب مسرعين مثل اليساريع. يخرجون من قلب الليل، ويحيطون بها، عيونهم جاحظة كي يملؤوها بالصور. النشوة متواصلة لا تتوقف، المشهد نفسه في مترو الصباح، غير أن الناس هنا، أمام التارابو يكونون مسرورين، وبينما يحك الأمريكيون في نيويورك بطونهم أمام صندوق النقود، فإن هؤلاء ينضحون بالنقود نضحاً، ثم لا يلبثون أن يندفعوا مصممين جذلين نحو جيوب النور. كانوا أشبه بالعراة، لفرط ما تنصب جداول النور فوقهم. وتزدان الحركات والأشياء بالأكاليل والمصابيح أيضاً. ويعسر عليهم الخوض في الحديث بأي شأن شخصي وسط هذا المحشر. كان ذلك أشبه بنقيض الليل.

غلبني الخدر والذهول فلذت إلى مقهى صغير مجاور. على الطاولة القريبة لمحت بارا بين، استاذي القديم وهو يتناول كوباً من الجعة، عثرت عليه

Twitter: @ketab_n

أخيراً، بقشوره، وبكل شيء فيه، وسرني ذلك أيما سرور: لقد طرأت تغيرات كبيرة على حياته كما قال لي: وقد احتاج إلى عشر دقائق كي يحدثني عنها. لم يكن ذلك مسـليًا. كان البروفسور جونيسيه مدير المعهد قد غدا خبيثاً جداً تجاهه. واضطهده أيما اضطهاد، مما حـدا ببارابين إلى الذهاب، استقال وغادر مخبره، كان هناك أيضاً أمهات فتيات الثانوية الصغيـرات اللـواتي كن يأتين بدورهن ينتظرنه عند باب المعهد، ويضربنه بقسوة، حكايات، تحقيقات، قلق.

في اللحظة الأخيرة، ومن خلال إعلان غامض في إحدى الدوريات الطبية استطاع أن يتدبر أمره بنوع آخر صغير من المعاش، ليس بالغ الأهمية بالطبع، ولكنه، مع ذلك. عمل غير مرهق، وضمن اختصاصه بالتحديد. كان هذا يعني التطبيق الذكي والبارع للنظريات الحديثة للبروفسور باريتون حول تأثير السينما على تفتح عقول الصغار القاصرين عقلياً.. خطوة إلى الأمام فريدة من نوعها في ميدان اللاشعور. لم يكن أحد في المدينة إلا ويتحدث عنها. كان ذلك أسلوباً عصرياً.

كان بارابين يصطحب بلهاءه الصغار إلى سينما تارابو الحديثة، كان يمر على بيوتهم ليأخذهم إلى مصح باريتون الصحي الحديث في الضاحية، وبعد المرور بتارابو يعيدهم إلى المصح من جديد، بلهى، شبعين من العروض، سعداء، أصحاء، وأكثر حداثة أيضاً. وحينما كانوا يجلسون أمام الشاشة، كانوا بحاجة أكثر إلى الاهتمام. جمهور ذهبي، الجميع مسرورون. الفيلم ذاته كان يعرض عليهم عشر مرات متتالية. فيفتنهم ويخلب ألبابهم الصغيرة. لم يكن لديهم ذاكرة، كانوا يحسون دائماً بالدهشة. كانت عائلاتهم مسحورة، وبارابين أيضاً، وأنا كذلك. كنا نتمازح بمرح ونشرب أكواباً وأكواباً من البيرة احتفالاً بإعادة التشكيل التي يقوم بها بارابين، حسب المناهج الحديثة. لم نغادر سينما تارابو إلا

Twitter: @ketab_n

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. بعد الحفلة السينمائية الأخيرة. كان من المقرر الآن السعي إلى لمّ المعاقين الصغار والذهاب بهم في باص إلى مصح الدكتور باريتون في فينييه على ضفة السين. عمل حقيقي.

ما دمنا مسرورين أنا وبارابين بالعثور على بعضنا، فقد خضنا في أحاديث شتى، للاستمتاع فقط وتبادل الخواطر، وروى كل منا للآخر أخبار رحلاته. ثم عرجنا في حديثنا على نابليون، وذلك بمناسبة الحديث عن تمثال مونسي في ساحة كليشي. كل شيء كان مبهجاً ما أن غدت غايتنا فقط أن نكون معاً. لأننا شعرنا حينئذ بأننا أحرار في النهاية. نسينا الحياة. نسينا كل ما يتعلق بأمور المال

استطراداً، حول نابليون نفسه، كان في جعبة بارابين حكايات ماجنة عنه رواها لي. كان بارابين ملماً جداً بتاريخ نابليون، كان مشغوفاً بذلك فيما مضى، كما أخبرني، حين كان ما يزال طالباً في المدرسة الثانوية في بولونيا. لقد تربى بارابين تربية راقية. وليس مثلي. وهكذا، فقد روى لي بهذه المناسبة، أن جنرالات نابليون وجدوا صعوبة شديدة بعد تقهقرهم أمام الروس في أن يمنعوه من البقاء في فارسوفيا، في أحضان عشيقته البولونية الفاتنة. هكذا كان نابليون حتى في معمعان الكوارث العظيمة والمحن، غير جاد، في المحصلة مع جوزيفينه. ما من حيلة إزاء ولعه بالمتع والمجون، وهو ولع البشر جميعاً، ذلكم هو الأمر الأشد مأساوية، أن لا يفكر الناس إلا بالسرير، بالقهوة، بالعرش، بالوزارات، في كل مكان! في كل مكان. نابليون أو غير نابليون. زوج مخدوع أم غير مخدوع. المتعة أولاً، فليهلك أربعمئة ألف جندي مهووس مدجج بالسلاح حتى الريش. ذلك هو لسان حال المهزوم العظيم. أي وغد! تلكم هي الحياة! وهكذا انتهى كل شيء، لقد قرف الطاغية

Twitter: @ketab_n

من المسرحية التي كانت تُمثل، قبل أن يقرف المتفرجون، وذهب ليضاجع عشيقته حين لم يعد لديه ما يهذي به أمام الجمهور. وحينئذ لاقى حسابه كاملاً، تركه القدر يسقط بعد أقل من سنتين. ليست مجزرة آلاف الرجال هي التي لامه عليها أنصاره المتحمسون. لا. فهذه المجزرة ليست شيئاً، ولكن لأنه غدا مضجراً على حين فجأة، وهو ما لم يغفروه له! لا تتوقف الأوبئة إلا في اللحظة التي تشمئز المكروبات فيها من سمومها. لقد أعدموا روبيسبير بالمقصلة لأنه كان يكرر دائماً الشيء نفسه. ونابليون لم يصمد أيضاً، أكثر من عامين بعد توسيعه لجوقة الشرف. كان عذاب هذا المجنون هو أنه وجد نفسه مرغماً على خلق الرغبة بالمغامرة لدى نصف أوروبا، حرفة مستحيلة، هلك بسببها في النهاية.

كانت وفود الناس تتجذب نحو الأضواء، يطاردها السأم والخوف، يبحثون عن التسلية. كان ثمة السينما. ذلك الأجير الصغير لأحلامنا، والذي يمكن شراؤه والحصول عليه لساعة أو ساعتين مثل مومس، وكان هناك الفنانون بالإضافة إلى ذلك تُعرض صورهم بعناية في كل مكان لإزجاء السأم، وحتى في المنازل، حيث يعرضون بخصل شعورهم المسترسلة، إنهم يفيضون كالسيل من كل مكان، وتسيل براعتهم عبر الطوابق، وترتج الأبواب بصورهم، وتزين بها المراحيض مثلما المسالخ، وبنك الإسعاف! كل ذلك لتسليتك، لإلهائك، لإخراجك من قدرك.

أي كوخ قذر يعيش فيه المرء حينما تكون حياته مملة خاوية. ليست الحياة سوى صف كصفوف المدرسة حيث السأم فيه هو الناظر، إنه لا يبرح يراقبك طيلة الوقت. عليك أن تظهر بمظهر المنشغل مهما كلفك ذلك، بشيء ما، أخاذ، وإلا فسيصل إليك ويلتهم دماغك، وحين يكون يوم من الأيام مجرد

Twitter: @ketab_n

٢٤ ساعة فقط، فمن الصعب احتماله. لا ينبغي أن يكون اليوم سوى استمتاع طويل لا يحتمل تقريباً. جماعاً طويلاً، شئنا أم أبينا .

هكذا تراودك أفكار مقززة ما أن تذهلك الضرورة عن نفسك، حينما تتسحق داخلك في كل ثانية رغبة بألف شيء آخر.

كان روبنسون فتى مهموماً باللانهائي أيضاً، في نمطه، قبل أن يصيبه ذلك الحادث. ولكنه الآن نال حسابه. كما أعتقد على الأقل.

انتهزت فرصة وجودنا في المقهى، هادئين. كي أروي أنا أيضاً لبارابين كل ما جرى معي منذ فراقنا. كان بارابين يتفهم الأمور، وحتى أموري، اعترفت له بأنني هدمت عملي كطبيب حين غادرت رانسي بطريقة غير مألوفة، هكذا كان علي أن أقول. لم يكن هناك ما يدعو إلى المزاح. أما بصدد العودة إلى رانسي. فلم يكن خليقاً التفكير بها. وقد وافقني على ذلك بارابين نفسه.

فيما كنا نتسامر بحميمية على ذلك المنوال. ونبوح بهمومنا لبعضنا في المحصلة، أعلن عن فاصل للاستراحة في سينما تارابو. ونزل موسيقيو السينما بكاملهم إلى الحانة. ليتناولوا قدحاً من الخمر معاً. كان بارابين معروفاً جيداً من قبل هؤلاء الموسيقيين.

علمت منهم بأنهم يبحثون بالتحديد، عن ممثل ثانوي يؤدي دور باشا أثناء الفاصل الموسيقي، وهو دور صامت، كان ممثل ذلك الدور قد رحل دون أن يقول كلمة. دور جميل، وبأجر لا بأس به مع ذلك، يؤدى في مقدمة الفاصل الموسيقي. ما من جهد يبذل. ثم إنه محاط بغنج فتان، بسرب رائع من الراقصات الإنكليزيات، آلاف العضلات المتحركة والمتميزة. ذلكم هو نوعي تماماً وحاجتي الملحة.

Twitter: @ketab_n

قدمت نفسي بلطف وبشاشة في النهاية، وانتظرت جواب مدير أعمال المسرح. ولما كان الوقت ضيقاً، ويصعب عليهم البحث عن ممثل آخر حتى بوابة سان مارتين. فقد سرَ مدير الأعمال لأنه عثر علي في المكان نفسه، ووفر على نفسه مشقة البحث، لم يدقق كثيراً في اختياري، واعتمدني إذن على الفور، ثم باشرت العمل، فطالما أنني لا أعرج. لم يكن مطلوباً مني أكثر من ذلك.

ولجت في تلك البواطن الجميلة الدافئة، والمثيرة لسينما تارابو. قفير من المقصورات المتأرجة. حيث تسترخي الراقصات الإنكليزيات خلال فترة انتظار المشهد يمزحن ويضحكن، في جمهرات ملتبسة. ما أن عثرت على بفتيكي بهذه الوفرة حتى سارعت إلى إقامة صلات مع تلك الشابات والرفيقات الطائشات، ومنحنني شرف التعرف على فريقهن الأكثر لطفاً ورشاقة في العالم ملائكة، ملائكة رصينات!

كانت الإيرادات هائلة في تارابو. ففي داخل الكواليس كان كل شيء باذخاً. الأفخاذ والأضواء والصابون والساندويش. أما موضوع المشهد الراقص الذي كنت أظهر معهن فيه، فكان مستمداً من تركمانستان، كما أعتقد. كان ذلك ذريعة لكلمات فارغة موقعة مع حركات رقص، مخلعة موسيقياً، مترافقة مع قرع طبول عنيف.

كان دوري موجزاً. ولكنه أساسي. كنت أشعر في البداية، وأنا منتفخ بالذهب والفضة، ببعض الصعوبة في الثبات بين الكثير من الدعامات والشمعدانات غير الثابتة، ولكنني أديت الدور بنجاح، وجوّدت فيه ما استطعت.لم يكن علي سوى الاستسلام للأحلام تحت مساقط الأضواء اللبنية.

Twitter: @ketab_n

طوال ربع ساعة، تكد عشرون راقصة، يندفعن في رقص باخوسي هائج، على وقع أنغام رخيمة، لإقناع الباشا المزعوم بسحرهن وفتنتهن. لم أكن أطلب أكثر من ذلك. كنت أفكر أن تكرار هذا الرقص، خمس مرات في اليوم، كان شاقاً على هؤلاء الراقصات. ودون أن تفتر قواهن أيضاً على الإطلاق، ومن مرة إلى أخرى كن يتثنين ويهززن أردافهن، بتلك الطاقة الخارقة وتلك الاستمرارية الدؤوبة التي لا تعرفها إلا سفن تمخر المحيطات بجهد لا متناه.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

« ما من حاجة إلى التخبط، والانتظار، حسبنا كل ذلك ما دام على الجميع أن يخرجوا الى الشارع. فهو وحده المهم، لا خلاف في هذا. إنه ينتظرنا. ينبغي الهبوط إلى الشارع، ينبغي اتخاذ قرار بذلك. ليس واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة من بيننا، بل الجميع. هناك، وسطه، نتردد قليلاً ونتصنع قليلاً، ولكن ذلك لن يطول.

في البيوت، لا شيء يستحق الاهتمام. فما أن يوصد باب على أحد حتى يبدأ بإصدار رائحة نتنة على الفور، وكل ما يضع يده عليه يفوح بالنتن. إنه يتقادم في مكانه، جسداً وروحاً، يتعفن. وإذا ما تعفن الناس، فذلك مفيد بالنسبة إلينا. ينبغي أن نهتم بهم، ينبغي إخراجهم، إبعادهم، عرضهم. كل الذين يتعفنون يكونون في الغرف. وحتى لو تزينوا، فإنهم ينتنون، مع ذلك

إذا تحدثنا عن العائلة، فقد كنت أعرف صيدلانياً في جادة سانت أوين علق على واجهة محله إعلاناً جميلاً يقول : بثلاثة فرنكات تحصل على مطهر، لتطهير سائر أفراد العائلة. يا لها من تجارة: إنهم يتجشؤون، يتجشؤون معاً داخل العائلة، يكرهون بعضهم كرهاً عميقاً. تلكم هي الأسرة الحقيقية، ولكن أحداً منهم لا يحتج أو يعترض لأن العيش مع الأسرة، مع ذلك، أقل كلفة من العيش في الفندق.

وإن تحدثنا عن الفندق، فنحن أكثر قلقاً فيه، وأقل إدعاء مما في الشقة.. وأقل شعوراً بالذنب أيضاً. نحاول هنا أن لا نلفت انتباه أحد إلينا. فما أن نصرخ أو نشتم، قليلاً أو غالباً جداً، حتى تسوء الأمور ثم إننا لا نتجرأ، على

Twitter: @ketab_n

التبول في المغسلة، لفرط ما يسمع كل شيء من غرفة إلى أخرى.. ولكننا ننتهي بالضرورة إلى اكتساب العادات الحسنة. على غرار ضباط البحرية خلال الحرب. كل شيء في الفندق يمكن أن يتزلزل من الأرض حتى السماء من لحظة إلى أخرى. .. نحن مهيؤون لذلك، ولا نبالي أبداً ما دمنا «نغفر» لبعضنا عشر مرات في اليوم، لا لشيء إلا لأننا نلتقي دوماً في الممرات.

في الفندق، عليك أن تتعرف في المراحيض على رائحة كل جار من جيران الدرج. ذلك سهل. من العسير عليك أن تحمل أية أوهام حينما تقيم في إحدى غرف الفندق. فالزبائن هنا لا يختالون في مشيتهم.. إنهم يسافرون بهدوء في الحياة، من يوم إلى آخر. دون أن يلفتوا انتباه أحد إليهم على غرار مسافرين في قارب يتعفن قليلاً، ثم يمتلأ بالثقوب، وهم يعرفون ذلك.

كان الفندق الذي نزلت فيه يجتذب طلاب المقاطعات على الأخص؟ روائح أعقاب السكائر القديمة، وأطعمة الإفطار، تستقبلك عند درجاته الأولى.. يهتدي إليه رواده، في الليل من بعيد، بسبب الأضواء الرمادية المشعة فوق بابه، والحروف الذهبية المسننة التي تتدلى من شرفته على غرار طقم أسنان ضخم قديم.

من غرفة إلى غرفة، عبر الممر، كان الطلاب يتزاورون. ها أنذا أعود إليهم، إلى هؤلاء الطلاب، بعد سنوات عملي البائسة في ممارسة المهنة .

كانت رغباتهم وأمنياتهم هي ذاتها! متصلبة وزنخة. ليست أقل ولا أكثر تفاهة مما كانت عليه، فيما مضى، حين غادرتهم. لقد تغيرت الكائنات البشرية ولكن الأفكار لم تتغير. كانوا يذهبون، مثلما في السابق، هؤلاء وأولئك يرمّون فتاتاً، أكثر أو أقل، من علم الطب وقشوراً من الكيمياء، وأقراصاً من الحقوق، وعلم الحيوان، في ساعات منتظمة تقريباً. في الطرف الآخر من الحي. كانت

Twitter: @ketab_n

الحرب قد مرت على قاعاتهم دون أن تحرك فيهم ساكناً على الإطلاق، وحينما كنت تطل على أحلامهم، بروح من التعاطف، يذهبون بك، مباشرة إلى السنة الأربعين من عمرهم. كانوا سيتحملون، على هذا النحو عشرين عاماً أخرى قادمة، مئتين وأربعين شهراً، من التقتير العنيد كي يصنعوا لأنفسهم سعادة.

تلكم صورة إيبينالية[١]. تقوم لديهم مقام السعادة، وفي الوقت نفسه مقام النجاح، ولكنها صورة متدرجة، ومصقولة. كانوا يرون أنفسهم في المربع الأخير، محاطين بأسرة قليلة العدد، ولكنها فريدة ونفيسة حتى الهذيان. وهم، لن يلتفتوا إليها مع ذلك، في المستقبل، على الإطلاق تقريباً. لا حاجة إلى ذلك، فقد خُلقت الأسرة لكل شيء ما عدا أن يرى أفرادها بعضهم. في البداية كانت قوة الأب وسعادته، مكرسة لمعانقة الأسرة دون أن يراها. . إنها قصيدته

الإقامة في الفندق الحافل بالبراغيث جعل رفاقي الطلاب يشعرون ببعض الخجل، يستحوذ عليهم النزق والانفعال بسهولة. فالبرجوازي الشاب في الفندق، طالب الجامعة، يشعر بأنه معاقب. وما دام عاجزاً حتى الآن، بالطبع، عن توفير أي دخل، فهو يعيش حياة البوهيميين الهامشيين، يوماً بيوم، كي ينسى وضعه، ويغرق في تلك الحياة، في ذلك اليأس من القهوة بالكريما.

في بداية الشهر كنا نمر بأزمة حقيقية قصيرة من التهيج الجنسي، كان الفندق كله يرتعش بالشبق، والجميع يغسلون أقدامهم. ثم تبدأ جولة من جولات المتعة. .. كان وصول الحوالات المالية من المقاطعات يشجعنا على ذلك. كان بوسعي ربما، أن أمارس الحب في تارابو مع إنكليزياتي الراقصات،

---

(١) نسبة إلى مدينة ايبينال: مدينة فرنسية صغيرة معروفة بأبنيتها الرومانية ذات الطراز القوطي.

Twitter: @ketab_n

وبنحو مجاني أيضاً. ولكني لدى التفكير بذلك كنت أتحاشاهن، بسبب المتاعب التي يثيرها القوادون الصغار الغيورون والتعساء من أصدقاء الراقصات الذين يتسكعون في الأروقة في إثر الراقصات.

ولما كنا نقرأ عدداً من الصحف الرقيعة في فندقنا. فقد تعرفنا على وسائل وعناوين لقضاء الوطر في باريس. ينبغي الاعتراف بأن تلك العناوين كانت مبهجة مغوية، بحيث كنا نستسلم للذهاب إليها. حتى أنا الذي كنت قد اجتزت جبال البيرينية، وطفت ما شاء لي الطواف، وعرفت تعقيدات من هذا النوع الخنزيري فإن لعبة الوصالات السرية لا يبدو أنها قد فارقتني كلياً. ذلك أنه يبقى في داخلك دائماً، فضول كامن تجاه الشذوذ. تحدثك نفسك بأن تلك الطريقة الشاذة لن تعلمك شيئاً، وأنه لا جدوى من أن تضيع دقيقة من أجلها. ومن ثم فأنت تعود إليها من جديد مرة أخرى، مع ذلك، كي تتأكد فقط من حقيقة أنها خاوية من المعنى. وتتعلم شيئاً ما جديداً بشأنها، وهذا كاف لكي يعيد إليك بعض التفاؤل.

تستدرك خطأك، تفكر بوضوح أكثر من السابق، تأمل حينئذ بأنك لم تعد ترجو من ممارستها أي متعة على الإطلاق، ثم تعود في النهاية لتمارس الشذوذ بالثمن ذاته. إنها في المحصلة، اكتشافات داخل مهبل امرأة بالنسبة لكافة الأعمار. انطلقنا بعد ظهيرة أحد تلك الأيام، ثلاثة من نزلاء الفندق بحثاً عن مغامرة لا تكلف كثيراً. لم يطل بنا البحث كثيراً بفضل علاقات بومون الذي كان يتولى مهمة تأمين كل ما يمكن أن نحتاجه من ترتيبات ومن مواعيد غرامية، في حي باتينيول الذي يقيم فيه. كان دفتر مذكرات بومون حافلاً بدعوات متباينة الأسعار. كان موئل المتعة ذاك، والذي لم يكن يبدو باذخاً يقع في طرف ساحة صغيرة داخل مسكن صغير لا يكاد النور يضيء جنباته

Twitter: @ketab_n

بحيث يلزمك من أجل أن تهتدي إلى طريقك داخله إلى قدر كبير من البصيرة والفطنة. كان ينبغي أن تزيح من أمامك العديد من السجف دون أن يفارقك القلق، حتى تبلغ ذلك القواد. الجالس دوماً وسط نور خافت

بسبب ذلك الغبش لم أكن أرى بومون بوضوح كامل، والحق يقال. وعلى الرغم من أننا تبادلنا الحديث طويلاً مع ذلك القواد، وساعدنا في وقت من الأوقات، وعرض علي أنواعاً من العروض. وكل أنواع الأسرار الخطيرة، فإنني سأعجز عن التعرف عليه إن كنت سألتقي به في جهنم.

أذكر فقط بأن العشاق العابرين الذين كانوا ينتظرون دورهم في الدخول لمقابلته داخل صالته كانوا يلبثون جالسين بنحو لائق جداً، من دون أي ألفة فيما بينهم، متحفظين دوماً، مثلما لدى نوع من أطباء الأسنان الذين لا يحبون الضجيج على الإطلاق، ولا الأضواء كذلك.

بفضل أحد طلاب الطب تعرفت على بومون. وقد دخل طالبنا هذا في سجلات البوليس تحت اسم مستعار رهيب: بالتهازار.

كانت الحوارات تدور بصعوبة بين الزبائن المنتظرين. والألم ينتشر في الأجساد، في حين أن المتعة والحاجة إليها كانتا مشفوعتين بالخجل.

من الخطيئة، شئنا ذلك أم أبينا، أن نكون زنائين وفقراء. حينما أطلعت بومون على حقيقة وضعي، وعلى ماضيَ الطبي، لم يتلكأ هو في الإفضاء إلي بعذابه الذي يضنيه... كان ثمة رذيلة تستنزفه، فقد أدمن على «الاستمناء» بيده باستمرار، تحت طاولة مكتبه أثناء الحوارات التي كان يجريها مع زبائنه،

Twitter: @ketab_n

ومع الباحثين، ومع النساء القلقات على عجانهن. «إنها مهنتي. أنت تفهمني! ليس من السهل علي الامتناع عن ذلك، مع كل ما يرويه لي هؤلاء الأوغاد...» كانت الزبونة، في المحصلة تقوده إلى الإسراف في ذلك، على غرار تلك الأفواه الواسعة جداً التي تهفو دوماً إلى التهام اللحم. بالإضافة إلى ذلك كنت أعتقد أن أحشاءه السفلية كانت محمّاة دوماً بفعل حمى مؤذية تصدر عن رئتيه، وأن السل لا بد سيفتك به بلا ريب، بعد بضع سنوات. كانت الثرثرات التي لا تنتهي لزبائنه المحبطين ولزبوناته المدَعيات تستنزف قواه أيضاً بطريقة أخرى. كانوا يرسلون إليه طوفاناً من الرسائل المحملة بالأعاجيب. كانت زبوناته مخاتلات يختلقن كومة من الحكايات والبهرجات، بصدد لا شيء وبصدد مؤخراتهن. بحيث أنه لن يجد شبيهاً لما كان يسمعه منهن لو قلب العالم رأساً على عقب. وكان الرجال بحاجة إلى نساء هائمات ومعجبات من أجل إشباع نزواتهن المشبوبة. لم يعد لدى هؤلاء الرجال ما يقدمونه من الحب، مثل تلك الحرارة وذلك الاندفاع اللذين كان يتمتع به زبائن المدام هيروت. كان يصل إلى بومون في بريد صباحي واحد من الحب غير المشبع ما يكفي لإطفاء كل حروب العالم. ولكن هذا الفيض العاطفي الداعر لم يكن يتعدى على الإطلاق الأرداف والمؤخرات، وكان ذلك هو التعاسة بعينها.

كانت طاولته تختفي تحت ذلك الركام الثقيل من الرسائل الحافلة بتلك الترهات المضطرمة. كنت أرغب في معرفة المزيد عما في داخلها من أسرار. وقد عزمت على أن أهتم في وقت من الأوقات بتصنيف تلك التجارة الرسائلية غير الشريفة. باشرت. كما نصحني بأنواع الآفات العصبية. على غرار تصنيف ربطات العنق أو الأمراض. الهذيانات أولاً في جانب، ومن ثم المازوخيون والفاسقون في جانب أخر. الضاربون بالسوط هنا، و«نوع المتسلطات» بالمقابل.

Twitter: @ketab_n

وهكذا بالنسبة لجميع الرسائل.. ثم ما لبثت هذه اللعبة أن تحولت إلى ما يشبه السخرة. لقد كانوا مطرودين من الجنة. . يمكنني قول ذلك، وكان بومون يرى مثل هذا الرأي أيضاً، بيديه الرطبتين، ورذيلته المتواصلة، والتي تكبدَه المتعة والعقاب في آن معاً. وبعد أشهر قليلة صرت أعرف ما يكفي حول تجارته. وحوله. وباعدت بين زياراتي له.

لم يتوقفوا في تارابو عن اعتباري ممثلاً مناسباً جداً، هادئاً جداً، دقيقاً في المواعيد، غير أنه بعد مضي أسابيع قليلة من الهدوء والاطمئنان. عاودني سوء الحظ من جانب غير متوقع. ووجدت نفسي مرغماً على حين فجأة أيضاً. على أن أترك دوري التمثيلي لأتابع دربي القذر.

حين أنظر، من بعد، إلى تلك الأيام التي قضيتها في تارابو أرى أنها لم تكن في المحصلة سوى نوع من مرسى محظور وماكر. كنت أرتدي دائماً أفخر الثياب، خلال تلك الشهور الأربعة، حيناً أمير وحيناً قائد روماني، لمرتين اثنتين أو طيار في يوم آخر، وكان أجري مجزياً ومنتظماً. أكلت في تارابو عن سنوات. خيانة! كارثة، ففي إحدى الأمسيات حدث انقلاب في مشهدنا التمثيلي، مشهد الآغا. لا أدري لأي سبب. وغدا المشهد الجديد يصور أرصفة لندن. ارتبت في الأمر على الفور، كان على انكليزياتنا في الداخل أن يتظاهرن الآن بالغناء والرقص على أرصفة التايمز، في أثناء الليل. بينما كنت أنا أؤدي دور شرطي إنكليزي، وهو دور صامت كلياً، كان على الشرطي أن يتجول من اليمين إلى اليسار أمام الدرابزين، وفجأة كما لو أنني لم أعد أفكر بغنائهن، تناهى إلي ذلك الغناء أقوى من الحياة، وبدّل وجهة القدر نحو الشقاء. وفيما كنَ يصدحن بالغناء، لم يعد بوسعي التفكير بشيء آخر سوى بكل بؤس العالم المعذب، وببؤس عالمي على الأخص. جعلني غناء أولئك الصبايا أعود إلى قلبي، مثلما يعود

Twitter: @ketab_n

سمك التون. وخيّل إلي مع ذلك، بأنني قد تمثلت ونسيت ما كان أدهى وأمرَ، لأن غناءهن كان هو الأدهى من أي شيء، كن يغنين أغنية جذلي لم يغنينها من قبل، ومع الغناء كان صوتهن يتموج كي يبلغ الأثر مداه الأقصى. وقد تلقيته في الصميم. حتى ليمكنني القول بأنني شعرت كما لو أنني مطروح فوق الشقاء وفوق الكروب..... متجولاً وسط الضباب ووسط الشكوى ! كانت الأغنية تقطر نحيباً.كنت أشيخ معها دقيقة إثر دقيقة. وكان الديكور يسح هو أيضاً. واصلت رفيقاتي الغناء، مع ذلك. لم يكن يبدو عليهن أنهن يدركن الأثر الفاجع الذي كانت تثيره فينا أغنيتهن. كن يتفجعن على حياتهن بأسرها، وهن يرقصن، بإيقاع موزون.. وحين تغلغل ذلك بعيداً في الأعماق. قوياً جداً، لم يبق ثمة خداع للذات، ولا مقاومة.

كنا جميعاً نكابد البؤس، على الرغم من البذخ الذي يغمر الصالة، ويغمر ثيابنا، ويغمر الديكور. كان البؤس يفيض، ينعصر فوق الأرض بكاملها، رغم كل شيء. كان يتصاعد منهن الحزن، دون أن يرغبن بإيقافه أو حتى فهمه.. كانت عيونهن هي الحزينة حسب. ولكن لا يكفي أن أقول العيون. كن يغنين اندحار الوجود. كنَ يحسبن ذلك على أنه الحب، لا شيء سوى الحب، لم تتعلم أولئك الصغيرات ما تبقى. كن يغنين أسى صغيراً مزعوماً، وكن يسمينه أسى الحب. وحين كن يافعات، غير مدركات كن يحسبن كل شيء على أنه أسى الحب..

>> حيثما أذهب... حيثما أنظر...

إليك وحدك... أو

إليك وحدك.. أو. ..

هكذا كن يغنين.

Twitter: @ketab_n

ذلكم هوس تلك الصبايا، وضع سائر البشرية، في خلفية، خلفية وحيدة، الحلم المقدس، الحب المضطرم، وفيما بعد سيعلمن ربما أين سينتهي كل ذلك، حينما لا يعدن أبداً بضات متوردات، حينما يحيق بهن الكرب الحقيقي لعالمهن القذر. كل تلك الصبايا، الست عشرة، بأفخاذهن المكتنزة كأفخاذ الأفراس، وأثدائهن المتوثبة... يمسكهن الشقاء من أعناقهن وأجسادهن، لم يكنّ يدركن، يمسكهن في البطن، وفي الأنفاس عبر سائر موجات أصواتهن الرقيقة والمصطنعة أيضاً.

كان الشقاء راخماً في داخلهن، ما من ثياب تغطيه، ما من لآلئ، ما من ضوء، ما من ابتسامة لخداعه، لإلهائه عنهن، فهو سيعثر عليهن، أينما اختبأن.. إنه يتسلى بابتزازهن. فيما هن ينتظرن دورهن، كل حماقات الرجاء والأمل كانت توقظه، تهدهده، تستحثه...

على هذا الغرار، يكون شقاؤنا، شقاؤنا الكبير، سهو دائم. غفلة بلا حدود.

تعساً إذن لذاك الذي يغني أغاني الحب، فالحب إنما هو الشقاء، لا شيء آخر غير الشقاء. شقاؤنا الذي يأتي دائماً ليكذب داخل أفواهنا، ذلك الروث.. وهذا كل شيء، إنه موجود في كل مكان، لا يعرف الرحمة. علينا أن لانوقظه، حتى ولو بنحو مصطنع، فما من تظاهر أو اصطناع أمام الشقاء. كانت انكليزياتي يعدن إلى الرقص والغناء ثلاث مرات في اليوم، رغم كل شيء، أمام الديكور وعلى أنغام الأوكورديون. كان خليقاً أن يؤول ذلك إلى تعس بلا حدود.

تركتهن يغنين ويرقصن. غير أنه كان بإمكاني القول بأنني كنت أرتقب الكارثة.

Twitter: @ketab_n

واحدة من تلك الصغيرات، سقطت مريضة في البداية، ألا فليخطف الموت هاتيك الظريفات الصغيرات اللواتي يستثرن الشقاء، ألا فليهلكهن، حبذا لو هلكن جميعاً! كان عليهن أن لا يتوقفن ليرقصن ويغنين في زوايا الشوارع خلف الأوكورديونات. فمن هناك غالباً كن يلتقطن العدوى، صدمة الحقيقة. وجاءت فتاة بولونية إذن، لتحل محل المريضة في لازمتها الغنائية. كانت البولونية تسعل هي أيضاً. كانت فتاة طويلة، متينة البنية وشاحبة، غدونا على الفور حميمين، وخلال ساعتين عرفت روحها بالكامل. أما بشأن جسدها، فكان علي انتظار بعض الوقت. هوس تلك البولونية كان إتلاف جهازها العصبي في تجارب حب عابر مستحيلة. وقد دخلت، بالضرورة في غناء الإنكليزيات الشجي، كأنما داخل الزبدة. بوجعه وبكل شيء. كان غناؤهن يبدأ برنة صغيرة لطيفة، لم يكن يبدو فيها أي شيء غريب، مثلها مثل جميع المقدمات التي تمهد للرقص، ثم ما يلبث الغناء أن يجعلك تعتصر قلبك لفرط أساك، كما لو كنت ستفقد الرغبة بالحياة. حتى ليبدو لك، كل شيء، صباهن، وكل شيء. على أنه باطل وقبض الريح. وتتنحّى بعيداً حينئذ بعد أن تتلاشى الكلمات وبعد أن يمضي الغناء، ويرحل النغم الطروب، لينام في مهده الحقيقي مهدك، حقيقة الحقيقة، مهد حفرتك الأخيرة كي تنتهي هناك، دورتان اثنتان تدورهما اللازمة، وتشعر بالميل إلى بلد الموت ذاك بلد أولئك الراقصات، البلد البديع، البلد الحاني والسريع النسيان مثل ضباب. كانت تلك الأصوات أصوات ضباب في نهاية المطاف.

كن يعاودن الغناء معاً، جميعهن، شكوى مترعة بمرّ العتاب لأولئك الذين ما يزالون هنا، يجرجرون حياتهم، ينتظرون على امتداد الأرصفة، جميع أرصفة العالم، حيث يمضون حياتهم حتى النهاية، يمارسون أعمالاً

Twitter: @ketab_n

ومهارات، يبيعون الأشياء والبرتقال للأشباح الأخرى، والأسرار والنقود المزيفة للبوليس وللفجار، ويروون أخباراً ملفقة، وسط ضباب الصبر الذي لانهاية له أبداً.

ثانيا، رفيقتي البولونية الجديدة كانت كمن يتقلب على الجمر في تلك الفترة، كنت أفهمها، بسبب موظف بسيط أربعيني يعمل في أحد البنوك، تعرفت عليه حين كانت في برلين، كانت مصممة على أن تعود إليه في برلينها، وأن تحبه رغم كل شيء، وبأي ثمن. ولكي تعود وتجده هناك، كانت ستفعل أي شيء.

كان عمال المسرح والفنيين يطاردونها، ينثرون لها وعود الوفاء الكاذبة، في عمق أدراجهم التي تفوح برائحة البول. كانوا يقرصونها من فخذيها، أولئك الخبثاء. بانتظار الأجوبة التي لم تكن تصل أبداً، ولكنها كانت لا تكاد تلحظ مناوراتهم لفرط ما كان يستحوذ عليها كلياً عشقها البعيد. لم يكن ينقضي أسبوع واحد في مثل تلك الظروف دون أن تمر بمحنة فريدة. لقد أتخمت قدرها، بإغواءات منذ أسابيع وشهور على غرار مدفع متخم بالنيران.

اختطف وباء الانفلونزا حبيبها البعيد. علمنا بالنبأ المفجع مساء أحد أيام السبت. وما أن تلقت النبأ حتى جرّتني مشعثة الشعر، تائهة اللب، باندفاع عاصف نحو محطة قطارات الشمال. لم يكن هذا كل شيء أيضاً. ولكنها، وسط هذيانها، كانت تزعم أمام كوة التذاكر بأنها ستصل إلى برلين في الوقت المحدد للمشاركة في الجنازة. كان الأمر يحتاج إلى رئيسين من رؤساء المحطة كي يثنوها عن عزمها، ويفهموها بأن الأوان كان قد فات.

في تلك الحالة التي انتابتها، لم يكن من الممكن أن أفكر بتركها. كانت متشبثة بفاجعتها، وأكثر من ذلك أيضاً بأن تُظهرها على صورة انتفاضات

Twitter: @ketab_n

تجتاح جسدها، أية فرصة قد أتيحت لي الآن! إن قصص الحب التي يعاكسها الشقاء ونأي المسافات، مثلها مثل قصص حب البحارة. لا مراء في ذلك، فحين لا تتيح لهم الظروف غالباً أن يلتقوا مع من يهوون، لا يعود بإمكانهم أن يتخاصموا معهم ويتراشقوا بالشتائم، وهذا لعمري مكسب كبير. طالما أن الحياة هذيان محشو بالأكاذيب فإن المرء كلما نأى وغاب، كلما استطاع أن يحشوها بالأكاذيب، وكلما غدا سعيداً بعد ذلك. وهذا طبيعي، ومطرد. فالحقيقة يصعب ابتلاعها.

من السهل الآن، على سبيل المثال أن يحدثونا بأشياء عن المسيح، هل كان المسيح يذهب إلى المراحيض أمام الجميع. إنني على قناعة بأن حذقه لم يكن ليدوم طويلاً لو تغوط أمام أنظار الناس.. قليل جداً من الحضور أمام الآخرين، ذلك هو المهم وعلى الأخص في أمور الحب.

لما أن تأكدت، مع تانيا بأنه لم يكن هناك قطار إلى برلين تعلقنا بالبرقيات، حررنا في مكتب البورصة برقية طويلة ومؤثرة، ولكن كان ما يزال أمامنا صعوبة في إرسالها. لم نكن نعلم على الإطلاق إلى من نرسلها، لأننا لم نكن نعرف قط أحداً في برلين، ما عدا الميت. ما عاد لدينا منذ تلك اللحظة سوى أن نتبادل كلمات بصدد الفقيد، وقد أتاحت لنا الكلمات القيام بجولتين أو ثلاث في محيط البورصة. ولما كنا في حاجة إلى أن نشغل أنفسنا في هدهدة الألم مع ذلك، فقد صعدنا بهدوء، باتجاه مونتمائر، ونحن نغمغم بالأحزان.

من بداية شارع ليبيك كنا نلتقي بأشخاص جاؤوا يلتمسون بعض الترويح في أعالي المدينة. كانوا مسرعي الخطى.. وحين وصلوا إلى القلب المقدس شرعوا ينظرون من علٍ إلى الليل على غرار تجويف هائل ثقيل، تكدست البيوت في قاعه.

Twitter: @ketab_n

فوق الساحة الصغيرة كان هناك مقهى بدا لنا من مظهره بأنه الأرخص. دلفنا إليه. وتركتني تانيا، من أجل مواساتها، وعرفاناً منها أعانقها متى أريد. كانت راغبة في الشراب، كان ثمة سكارى نائمون على المقاعد من حولنا. بدأت الساعة فوق الكنيسة الصغيرة تدق ساعات وساعات أيضاً، ولم تعد تتوقف. كنا قد وصلنا إلى نهاية العالم، كان ذلك يتكشف لي أكثر فأكثر، لم يكن بمقدورنا المضي أبعد. لم يعد ثمة بعد ذلك سوى الموتى.

فوق ساحة التير،المجاورة كان الموتى يبدؤون بالاستيقاظ. كان بإمكاني تمييزهم، كانوا يمرون بالضبط فوق غاليري ديفايل.

ولكن لابد، مع ذلك، من معرفة كيف كانوا حين عثرنا عليهم، أعني من الداخل، وعيونهم مغمضة تقريباً، لأن أدغال الضوء المتوهجة للإعلانات كانت تزعجهم كثيراً، وحتى عبر الغيوم. أدركت، في الحال بأنهم كانوا قد أخذوا معهم بيبرت، أشار إلي الاثنان كلاهما بإشارة صغيرة: بيبرت. ومن بعده أيضاً، وغير بعيد عنه الفتاة التي اعتراها الشحوب، الفتاة المجهضة أخيراً، فتاة رانسي.. وقد تصفّى جسدها كلياً من الدماء، هذه المرة.

كان هناك أيضاً زبائن قدامى، من هنا وهناك، وزبائن لم أعد أفكر بهم على الإطلاق، وآخرون غيرهم، ولمحت العجوز الزنجي داخل غمامة بيضاء وحيداً. ذلك الذي كان قد جُلد بالسوط جلداً مبرحاً، هناك في توبو، والأب غرابا، ضابط الغابة العذراء العجوز، كنت أفكر بهؤلاء، من وقت إلى آخر، بالضابط، وبالزنجي المعذب، وبالاسبنيولي أيضاً، وبذلك الخوري. جاء الخوري مع الموتى هذه الليلة، من أجل صلوات السماء. كان صليبه الذهبي يزعجه كثيراً، وهو يرفرف من سماء إلى أخرى، كان متعلقاً بصليبه وسط الغيوم، الأشد قذارة والأكثر اصفراراً. تعرفت أيضاً في الوقت ذاته على

Twitter: @ketab_n

آخرين كثيرين راحلين. وآخرين دائماً... كانوا من الكثرة بحيث شعرت بالخجل من نفسي حقاً. لأنه لم يكن لدي الوقت لمشاهدتهم حينما كانوا أحياء هناك، بجواري، سنوات طويلة .

لم يكن لدي إطلاقا ما يكفي من الوقت، هذا صحيح، ذلك لأنني كنت أفكر في نفسي وحسب .

في النهاية، تحول كل هؤلاء الأوغاد إلى ملائكة دون أن ألحظ ذلك. كان هناك الآن في كل مكان غيوم كثيفة من الملائكة، والمهلهلين، وغير المحتشمين يطوفون فوق المدينة، بحثت بينهم عن موللي، كانت تلك هي اللحظة المناسبة. لطيفتي، صديقتي الوحيدة، ولكنها لم تكن معهم... كانت خليقة أن يكون لها سماء صغيرة، لها وحدها، بالقرب من الإله الرحيم، لفرط ما كانت لطيفة. موللي.. لقد أثلج صدري أنني لم أعثر عليها بين هؤلاء الرعاع، كان هؤلاء هم رعاع الموتى، أنذالاً، لم يكونوا سوى الأوباش وطغمة الأشباح الذين تجمّعوا هذا المساء فوق المدينة، وعلى الأخص فوق المقبرة المجاورة، حيث كان يصل أيضاً أشخاص غير معروفين. مقبرة صغيرة مع ذلك، وأشخاص من العامة. تنزف دماؤهم، يفتحون أفواههم على اتساعها، كما لو كانوا يريدون الصراخ، ولكن لم يعد بإمكانهم ذلك... كان هؤلاء العاميون ينتظرون. مع الآخرين. كانوا ينتظرون لا بيروس، بطل الجزر، الذي كان يقود حشدهم في تلك الليلة، لم يكف لابيروس عن التذمر بسبب ساقه الخشبية، وبسبب الآلام التي كان يعاني منها حين كان يقف على هذه الساق، وبسبب منظاره الكبير الذي لم يكن يرغب في الخروج من الغيوم دون أن يكون حول عنقه، منظاره الشهير الطويل الذي يجعلك ترى الأشخاص والأشياء من بعيد. دائماً من بعيد جداً. ثمة قوزاق مدفونون بالقرب

Twitter: @ketab_n

من مولين. لم يفلحوا في الخروج من قبورهم. كانوا يبذلون جهوداً مخيفة، كانوا يحاولون مرات عديدة... ويسقطون باستمرار في قاع القبور، كانوا ما يزالون ثملين منذ عام ١٨١٠.

وابل من المطر هطل مع ذلك، زعزع صفوفهم، وما أن تبللوا ونال منهم البرد، فوق المدينة حتى تبددوا في جميع الجهات، ورقّشوا الليل بصخبهم، من غيمة إلى أخرى. اجتذبتهم على الأخص دار الأوبرا، كما يبدو، بجمر إعلاناتها في الوسط، ثم انبجست أطيافهم، منها، لتثب من جديد إلى الطرف الآخر من السماء. كانت الأطياف من الاضطراب والكثرة بحيث تغشى عينيك منها غشاوة ثقيلة. حينما دقت الساعة الرابعة بدأ الاندفاع الهائل خلف لابيروس، اندحار شنيع. ثم وصلت الأشباح من جهات الأرض الأربعة. جميع الأشباح من كل الأساطير والملاحم، يطارد بعضها بعضاً، يتحدى بعضها بعضاً، تحمل على كاهلها قروناً إثر قرون، وظل الشمال زمناً طويلاً مثقلاً بخليطها الكريه... ثم تحرر الأفق من زرقته، وصعد النهار من ثقب أحدثته الأشباح كي تفرّ منه، حينما كان الليل يلفظ آخر أنفاسه.

بعد ذلك غدا من الصعب العثور عليها... لابد من معرفة الخروج من الزمن.

هناك صوب إنكلترا يتم العثور عليها، حينما تصل إلى تلك الجهة، ولكن الضباب هناك، في جميع الأوقات، من الكثافة والتراص بحيث يبدو مثل أشرعة حقيقية يرتفع بعضها أمام بعض، من الأرض وحتى أعالي السماء، دائماً وأبداً، ومع الاعتياد والانتباه يمكن التوصل إلى العثور عليها رغم ذلك، ولكن ليس لزمن طويل على الإطلاق، بسبب الريح التي تحمل دوماً زوابع جديدة وغيوماً ضبابية من عرض البحر.

Twitter: @ketab_n

المرأة العظيمة الرابضة هناك، تحرس الجزيرة، المرأة الأخيرة التي ما يزال رأسها أكثر شموخاً من أعلى الغيوم. لم يعد ثمة سواها حياً داخل الجزيرة. شعرها المحمر الذي يعلو كل شيء، ما يزال يذهّب الغيوم قليلاً. ذلك كل ما تبقى من الشمس.

كانت تحاول أن تعدّ الشاي كما يروون.

كان عليها أن تحاول ما دامت ستقف هناك إلى الأبد، وهي لن تتوقف قط عن غلي شايها بسبب الضباب الذي يغدو شديد التكاثف، بالغ النفاذ. كان إبريق شايها عبارة عن هيكل قارب. أجمل من كل القوارب. وأكبر من كل القوارب. القارب الأخير الذي أمكن العثور عليه في سوتهامبتون. كانت تسخن فيه الشاي موجات إثر موجات تهزها، تحركها جميعها، بمجداف بالغ الضخامة.... كان ذلك ما يشغلها.

لم تكن تنظر إلى شيء آخر. رصينة ومنحنية دائماً

تمر دورية التفتيش فوقها تماماً ولكنها لا تتحرك، لقد اعتادت أن تأتي إليها جميع أشباح القارة لتضيع هناك...

إنها تقلّب، وهذا يكفي، تقلّب النار تحت الجمر بين غابتين ميتتين، بأصابعها الكبيرة.

تحاول أن توري النار، فكل شيء لها الآن، ولكن شايها لن يعود إلى الغليان على الإطلاق.

لم يعد ثمة حياة في ألسنة النيران

لم يعد ثمة حياة في العالم لأي شخص، إلا القليل لها، ثم ينتهي كل شيء.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

«« أيقظتني تانيا في الغرفة التي انتهينا إلى النوم فيها معا، كانت الساعة العاشرة صباحاً، ولكي أتخلص منها،أخبرتها بأنني لم أكن على ما يرام.. وأنني سأظل بعض الوقت في السرير.

واصلت الحياة دورتها. تظاهرت تانيا كما لو أنها صدقتني، وما أن خرجت من الغرفة حتى اتخذت أنا، بدوري، طريقي. كان علي أن أقوم بعمل ما، في الحقيقة. رقصة السرمندة تلك وأغنيتها الفاجعة، في الليلة السابقة كانت قد خلفت في نفسي شعوراً غريباً بالأسى. وعادت ذكرى روبنسون لتقض مضجعي. لقد تركته لمصيره، وأسوأ من ذلك أيضاً، لعناية الأب بروتيست. ليس ثمة ما يضاف إلى ذلك... كان قد بلغني بأن الأحوال هناك، في تولوز تمضي على أحسن ما يرام، وأن العجوز هنروي غدت أيضاً لطيفة معه. ولكن المرء في بعض الحالات قلما يسمع، إلا ما يود سماعه، وما يلائمه على أحسن وجه. لم تثبت لي تلك المعلومات المبهمة شيئاً على الإطلاق.

توجهت إلى رانسي يساورني القلق والفضول، التماساً لأخبار عنهما. أخبار صحيحة ومحددة. كان لابد لي من أجل الذهاب إلى رانسي من المرور بشارع باتينيول الذي يقيم فيه بومون. كان ذلك طريقي. عندما صرت على مقربة من منزله، دهشت جداً حين لمحته هو أيضاً في أحد أركان الشارع، كما لو أنه كان يقتفي خطوات سيد صغير على مسافة منه. بالنسبة إلى بومون الذي لم يكن يبارح منزله قط، كان ذلك بالتأكيد حدثاً مهماً. عرفت أيضاً الشخص الذي كان يتبعه، كان أحد زبائنه إنه «السيد» مثلما كان يسمي نفسه في رسائله إلى بومون.

Twitter: @ketab_n

منذ سنوات كان «السيد» يلاحق بومون بإلحاح كي يعثر له على صديقة صغيرة حسنة التربية. ذلكم هو حلمه. ولكن الآنسات اللواتي قُدِّمن إليه لم يكنّ بالمستوى المطلوب من التربية الذي يلائم ذوقه. فقد كن يرتكبن هفوات، كما كان يزعم. لم تسر الأمور سيراً حسناً إذن. لدى التفكير ملياً في الأمر نحن نصادف هناك نوعين اثنين من الصديقات الصغيرات. أولئك اللواتي لديهن «أفكار متحررة». وأولئك اللواتي تلقين «تربية كاثوليكية جيدة». تلكما طريقتان لأولئك التعسات كي يشعرن بأنهن متفوقات، طريقتان أيضاً في الوجود، طريقة اللواتي يؤرقهن القلق، وطريقة اللواتي يؤرقهن الكبت وعدم الإشباع، النوع «الفظ الكريه» والنوع «السمح المتساهل».

كل مدخرات «السيد» كانت تذهب شهراً بعد شهر على تلك المساعي، كان قد وصل الآن مع بومون إلى آخر قطرة من موارده، وآخر قطرة من أمله أيضاً، وقد علمت فيما بعد، بأن «السيد» قد انتحر في المساء ذاته في منطقة مجهولة. ما أن رأيت بومون إذن يخرج من منزله حتى داخلني الشك بأن شيئاً ما غير عادي كان يحدث. تبعتهما مسافة طويلة جداً عبر ذلك الحي الذي كان يُضيع حوانيته على امتداد الشوارع ويضيع ألوانه كذلك، واحداً بعد الآخر، ثم ينتهي أخيراً بحانات مؤقتة عند حدود مكتب الجمارك بالضبط. حينما لا يكون المرء مستعجلاً، فإنه يضيع في تلك الشوارع، يبلبله الغم في البداية، ولا اكتراثية المكان المفرطة بعد ذلك، وإذا كان يملك بعض المال فإنه يستقل سيارة تاكسي على الفور، كي ينجو بنفسه لفرط ما يشعر بالضجر. الناس الذين تصادفهم يسوقون مصيراً ثقيلاً جداً، بحيث تصاب بالحيرة من أجلهم. قذارة ! تقول لنفسك، ليس هذا بالكثير عليهم.

Twitter: @ketab_n

ومن ثم، فما من مقعد في تلك الشوارع لتجلس عليه. لون كستنائي ورمادي يشيع في كل مكان. وحين تمطر السماء، فإنها تمطر من كل مكان أيضاً من أمامك، ومن جنبك، ويغدو الشارع زلقاً حينئذ، أشبه بظهر سمكة ضخمة مع غرغرات مطر في الوسط. ولا يسعك حتى أن تقول بأن ذلك الحي هو الفوضى بعينها. إنه بالأحرى أشبه بسجن، سجن في غاية الكمال، سجن ليس في حاجة إلى أبواب.

بتجوالي، على ذلك النحو أضعت أثر بومون ومنتحره فوراً في نهاية شارع فينيغربيه. وهكذا بلغت مشارف الغارين رانسي، ولم يعد بمستطاعي أن أمنع نفسي من الذهاب لإلقاء نظرة من فوق حصون باريس.

من بعيد. يبدو الغارين رانسي جذاباً لعين الناظر. لا يمكن أن أقول عكس ذلك، بسبب أشجار المقبرة الكبيرة، ويستسلم المرء للوهم قليلاً، ويقسم يميناً بأنه إنما يشاهد غابة بولونيا.

حينما يريد المرء قطعاً، أخباراً عن شخص ما، عليه أن يذهب ليسأل أولئك الذين يعرفون أخباره. على أي حال، قلت لنفسي إذن، ليس ثمة ما أخسره إذا قمت بزيارة صغيرة إلى آل هنروي، فقد كان حرياً أن يعرفوا ما آلت إليه الأمور في تولوز. وها أنا ذا أرتكب عملاً طائشاً متهوراً. لم أسلك سبيل الحذر والحيطة.. ما كنت أعلم بأن قدميّ كانتا تطأان مناطق الليل القذرة. غير أنني كنت في وسطها الآن. ثمة شقاء لا قِبَل لك به يداهمك على الفور. كان عليك، منذ البداية، أن لا تسعى لرؤية أشخاص بعينهم مرة أخرى، وعلى الأخص آل هنروي، فأنت لن تنتهي قط من عواقب طيشك ذاك.

من عطفة شارع إلى عطفة أخرى ساقتني قدماي بحكم الاعتياد لأجد نفسي على بضع خطوات من منزل آل هنروي. لم أصدق نفسي بأنني أرى

Twitter: @ketab_n

من جديد منزلهم في المكان ذاته، كانت السماء تمطر، ولم يكن في الشارع أحد سواي! خانتني الجرأة على التقدم. كنت حتى على وشك العودة من حيث أتيت، حينما انفتح باب منزلهم نصف انفتاح، بما يكفي بالضبط لتشير هنروي الابنة إلي، بإشارة تدعوني بها إلى الدخول، لقد رأت بالتأكيد، كل شيء، كانت قد لمحتني من شقوق مغلاق النافذة، وأنا على الرصيف المقابل. لم يعد لدي حينئذ أي رغبة بالاقتراب، ولكنها ألحت علي، كما أنها كانت تدعوني باسمي.

«دكتور.. هيا إذن بسرعة!»

هكذا كانت تدعوني، بمطلق السلطة. كنت أخشى أن يلاحظني أحد، فأسرعت حينئذ في الصعود فوق الدرجات الصغيرة لبابها، لأعثر على الرواق الصغير ذي الموقد، ولأرى من جديد سائر الديكور. وقد أثار ذلك قلقاً في داخلي، ثم شرعت تحدثني عن أن زوجها سقط مريضاً، منذ شهرين وأن حالته تتدهور من سيئ إلى أسوأ.

ساورتني الريبة على الفور، بالتأكيد

«وروبنسون؟» سألتها على عجل

تمعنت في البداية بسؤالي ثم بدأت في الحديث بعد ذلك.

«كلاهما على ما يرام.. أمورهما تسير على أحسن حال في تولوز» أجابتني في النهاية، ولكن بسرعة، ودون أن تضيف شيئاً إلى ذلك. ثم عادت إلى الحديث من جديد عن زوجها المريض. كانت تود أن أهتم بأمره في الحال، ودون إضاعة دقيقة واحدة أيضاً. «لقد تفانيت في سبيله، إنني أعرفه جيداً زوجي.. وكيت وكيت.. إنه لا يثق بأحد سواي...، وهو لا يريد أن يرى طبيباً آخر غيرك.. وأنهما لم يكونا يعرفان عنواني..» وانخرطت أخيراً في بهرجات مصطنعة.

Twitter: @ketab_n

كان لدي الكثير من الأسباب للخوف من أن مرض زوجها هذا، كان أيضاً نتيجة لأسباب مريبة. كنت قد تلقيت أجري، كي أعرف حق المعرفة هذه السيدة، وعادات المنزل أيضاً، ومع ذلك فإن فضولاً شيطانياً دفعني للصعود إلى غرفة الزوج.

كان راقداً، بالضبط، فوق السرير ذاته الذي عالجت فيه روبنسون في إثر الحادث، قبل بضعة أشهر.

بضعة شهور تغير غرفة بالكامل، حتى حينما لا يحرك أحد فيها ساكناً عن ساكن. كانت الأشياء قد شاخت كلياً، وعراها البلى. وهي ما تزال تجد القوة، لا أدري من أين كي تشيخ، كل شيء كان قد تغير، من حولنا، ليس مكان الأشياء بالتأكيد، بل الأشياء ذاتها، في العمق. لقد كانت أشياء أخرى حينما رأيتها من جديد، كانت تملك، كما يخيل إلي، مزيداً من القوة كي تنفذ إلى داخلنا على نحو أشد أسىً وأعمق غوراً، وأكثر هدوءً مما في السابق. وتذوب، في ذلك النوع من الموت الذي يحدث في داخلنا، ببطء، يوماً بعد يوم، والذي نتدرب، بوجل على مواجهته في كل يوم، أقل بقليل مما في عشية اليوم السابق. ومن مرة إلى أخرى نرى الحياة ترقّ وتتغضّن في داخلنا ومعها الكائنات والأشياء التي نغادرها، مبتذلة، نفيسة، مخيفة أحياناً. يدمغ الخوف في النهاية كل ذلك بأخاديده، بينما نخبّ نحن عبر المدينة، وراء اللذة ووراء الخبز.

وعما قريب، لن يعود ثمة، أشخاص وأشياء، مسالمون، رحماء، عزل من السلاح، يحيطون بماضينا، لا شيء سوى أخطاء غدت خرساء.

تركتني المرأة وحيداً مع الزوج، كان الزوج قد خبا كل بريق فيه. لم تعد دورته الدموية تعمل إلا بمشقة، كان قلبه قد أصيب بالعطب.

Twitter: @ketab_n

«سأموت». كان يكرر ببساطة، أيضاً.

حينما كنت أواجه حالات من هذا النوع، كنت أستخدم نوعاً من قريحة ابن آوى. كنت أتسمع إلى دقات قلبه. من قبيل القيام بشيء ما في ذلك الظرف، مع بعض الحركات المتوقعة. كان قلبه يعدو، يمكنني قول ذلك، فيما وراء أضلاعه، حبيساً. كان يعدو سريعاً خلف الحياة، بصخب، ولكنه عبثاً كان يقفز، فهو لن يدرك الحياة. كان منهاراً، ولفرط ما كان يعثر، فإنه سيسقط عما قريب في العفن، كان ينعصر، محمراً، ويسيل على غرار رمانة مهمشة.. على هذا النحو سيبدو قلبه بعد أيام قليلة رخواً، مرمياً فوق الرخام، مشقوقاً بسكين بعد التشريح. لأن كل ذلك سينتهي بتشريح جنائي جميل، مثلما أتوقع.. بانتظار أن يبدأ جميع أهل الحي برواية حكايات قذرة حول ميتته والتي سيجدونها، ميتة غريبة أيضاً، بعد القصة الأخرى.

كان سكان الحي يرقبون زوجته عند المنعطف مع ركام من القيل والقال حول القضية السابقة التي ما تزال طرية في الأذهان. وستستمر زمناً بعد ذلك. لم يعد الزوج الآن يعرف كيف يتماسك، ولا كيف يموت. كان قد وصل إلى حالة هي أشبه بمن خرج من الحياة، ولكنه لم يتوصل مع ذلك إلى التخلص من رئتيه. كان يطرد الهواء، ولكن الهواء يعود. كان راغباً بقوة بأن يستسلم للموت، ولكن كان عليه أن يعيش، مع ذلك، حتى النهاية، كان ذلك عملاً شاقاً لا قِبَل له به.

«لم أعد أحس بقدميّ، كان الزوج يئن.. إنهما باردتان حتى الركبتين..» كان يريد أن يلمس قدميه، ولم يعد يقوى على ذلك.

لم يكن يستطيع أيضاً أن يشرب أي شيء. كانت تلك هي النهاية تقريباً، وحينما قدمت إليه الشراب الساخن الذي أعدته زوجته، تساءلت عما كان

Twitter: @ketab_n

يمكنها أن تضع في داخله، لم يكن للشراب رائحة طيبة، ولكن الرائحة ليست دليلاً. فالغاردين الذي يستخرج منه العطر يصدر رائحة سيئة بحد ذاته. أما بصدد الاختناق، مثلما كان الزوج يختنق، فليس هناك كبير أهمية لكون الشراب غريباً. كان الزوج يكابد، مع ذلك ألماً شديداً، كان يبذل جهوداً كبيرة، بكل ما تبقى لديه من عضلات تحت جلده، كي يتمكن من أن يتألم، ويتنفس أكثر. كان يصارع الحياة بقدر ما يصارع الموت. وهذا يعني الانفجار بالضبط! في هذه الحالات حين تبدأ الطبيعة باللامبالاة لا يعود للا مبالاتها من حدود. كانت زوجته تتنصت خلف الباب على نصائحي التي كنت أقدمها له، ولكنني كنت أعرف زوجته. تحركت ببطء وهدوء، وفاجأتها صائحاً «كويك ! كويك» لم يغظها ذلك على الإطلاق، وتوجهت إلي حينئذ، لتكلمني في أذني.

«ينبغي، همست لي، أن تجعله يخلع طقم أسنانه. لا ريب في أنه يضايقه حين يتنفس..» كنت أريد فعلاً أن أنزع من فمه طقم أسنانه.

«ولكن قولي له ذلك أنت بنفسك إذن» اقترحت عليها ذلك، كانت تلك، في الواقع، مهمة دقيقة في مثل حالته.

«لا! لا! سيكون أفضل لو قمت أنت بذلك! ألحت، سيتضايق كثيراً لو كلمته أنا.

ـ آه! أعربت عن دهشتي، لماذا؟

ـ منذ ثلاثين عاماً وهو يضع طقماً في فمه، دون أن يحدثني عنه مطلقاً..

ـ يمكن إذن أن نتركه في فمه، اقترحت عليها ما دام قد اعتاد على التنفس مع وجوده في فمه.

Twitter: @ketab_n

– أوه، لا! سألوم نفسي على ذلك أجابتني، وقد شاب صوتها انفعال غريب..

عدت بهدوء إلى الغرفة. سمعني الزوج أعود إلى جوار سريره، وقد سره أن أعود. ما بين اختناقاته كان يحدثني أيضاً، كان يحاول كذلك أن يكون لطيفاً معي بعض الشيء. سألني عن أخباري، إذا ما كنت قد وجدت زبناً آخرين «نعم، نعم» أجبته على كل أسئلته. سيكون الحديث معه طويلاً جداً ومعقداً جداً فيما لو شرحت له التفاصيل! لم تكن تلك هي اللحظة المناسبة، كانت زوجته مختبأة خلف مصراع الباب، وهي تشير لي بأن أطلب منه أيضاً خلع طقم أسنانه. اقتربت من أذن الزوج حينئذ ونصحته بصوت خافت بنزع طقمه.. ويا لها من زلة! «لقد رميت به في المرحاض..» قال لي ذلك حينئذ، بعينين أشد فزعاً أيضاً..، وسال لعابه بغزارة بعد ذلك.

إنها لحظة الاعترافات.. كنت أود لو يستفيد من ذلك كي يعطيني رأيه حول ما كان قد حدث بخصوص أمه.. ولكنه لم يعد يستطيع الكلام، كان يهذي. ثم بدأ لعابه يسيل بغزارة شديدة. إنها النهاية. ما من وسيلة لخروج جملة واحدة من فمه، كنت أمسح له فمه، ثم نزلت من غرفته. زوجته في الرواق، في الطابق الأسفل لم تكن مسرورة مني على الإطلاق، ووبختني تقريباً. بسبب طقم الأسنان كما لو كانت تلك غلطتي.

«إنه من ذهب يا دكتور! أنا أعرف ذلك. أعرف كم دفع من المال ثمناً له! لم يعد أحد يصنع مثله..» يا لها من حكاية طويلة. «أريد فعلاً أن أصعد إليه لأحاول أيضا» اقترحت عليها لفرط ما كنت مزعوجاً، ولكني اشترطت أن تكون معي.

Twitter: @ketab_n

لم يعد الزوج يتعرف علينا تقريباً، هذه المرة. قليلاً جداً فقط.. كان اللعاب يسيل أقل من فمه حينما صرنا بالقرب منه.. كما لو كان يرغب في سماع كل ما كنا نقوله، أنا وزوجته.

لم أحضر جنازته، لم يكن ثمة تشريح لجثته مثلما كنت أتوقع. حدث ذلك بهدوء.. ولكن هذا لم يمنع من أن نغتاظ كلانا، فعلاً، أنا والأرملة هنروي، بصدد طقم الأسنان.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> يتعجل الشباب دوماً في الذهاب لممارسة الحب، إنهم يسارعون جداً إلى الإمساك بكل ما يمنحهم الوهم باجتناء المتعة. ويولون اهتماماً بالغاً بكل ما يلبي أحاسيسهم. إنهم، إلى حد ما، أشبه بمسافرين بقطار يأكلون كل ما يقدم لهم على المائدة، ما بين صفارتين اثنتين. بحسب الشباب أن يتزودوا أيضاً بمقطعين غنائيين صغيرين أو ثلاثة، يستخدمونها، للارتقاء من الحوار إلى العناق والوصال. ذلك يكفي. ثم تراهم سعداء كل السعادة. يغمر السرور قلوب الشباب بسهولة، إنهم يستمتعون في البداية، ما شاء لهم الاستمتاع، لامراء في ذلك.

جميع الشباب يبلغون الشاطئ البهي، عند ضفة المياه، هناك حيث تبدو النساء أكثر حرية في النهاية، وعلى قدر من الحسن لا يعدن معه بحاجة إلى كذب أحلامنا.

ولكن ما أن يأتي الشتاء، حتى يكون من العسير عليهم أن يعودوا إلى الوراء، أن يقولوا لأنفسهم بأن كل ذلك قد مضى وانقضى، أن يعترفوا لأنفسهم بذلك. إنهم سيظلون مقرورين وسط الزمهرير، وسط العمر، يأملون ويأملون، ذلك مفهوم، المتعة والسعادة قبل كل شيء، ذلكم رأيي بالتأكيد. ولكن حين يبدأ المرء بالتواري عن الآخرين، فتلك إشارة بأنه بدأ يشعر بالخوف من اللهو معهم.. ذلك مرض بحد ذاته. ينبغي أن ندرك سبب الإصرار على عدم علاج عزلتنا. ثمة شخص كنت قد التقيت به خلال الحرب في المستشفى، عريف في الجيش، كان قد حدثني قليلاً عن تلك المشاعر. من الخسارة أنني ما عدت

Twitter: @ketab_n

رأيت ذلك الفتى على الإطلاق «الأرض ميتة، شرح لي.. وما نحن سوى ديدان فوقها. ديدان فوق جثتها الضخمة المقززة، نلتهم طوال الوقت أحشاءها ولا شيء غير سمومها.. لا شيء ينقذنا من ذلك. نحن جميعاً متعفنون منذ الولادة. وتلكم هي حالنا!».

لقد ساقوا ذلك المفكر، بسرعة إلى جانب الحصن، كان ذلك أيضاً ذريعة صالحة لإعدامه بالرصاص. قاده دركيان اثنان إلى الخارج، أحدهما كبير والآخر صغير. أتذكر ذلك جيدا. لقد كان فوضوياً، برأي المجلس الحربي.

حينما أفكر به، بعد مرور سنوات، تراودني الرغبة بأن أستعيد الكلمات التي قالها لي بعض الأشخاص، وأن أستعيد الأشخاص أنفسهم كي أسألهم عما كانوا يريدون قوله. ولكنهم رحلوا وأوغلوا في الرحيل. لم يكن لدي ما يكفي من المعرفة كي أفهمهم. أود أن اعرف ما إن كانوا قد غيروا رأيهم منذ ذلك الحين مرات ومرات. ولكن الأوان قد فات بالتأكيد، وانتهى كل ذلك، لم يعد هناك من يعرف شيئاً عنهم. لا ريب في أنهم، إذن، قد تابعوا دربهم وحيدين، وسط ظلمة الليل. بعد أن أضاعوا رفاقهم الحقيقيين. لم أطرح عليهم السؤال المهم، الحقيقي، حينما كان الوقت ملائماً للسؤال. بالقرب منهم لم ندرك شيئاً، فالإنسان ضائع، متأخر دائماً ومنذ البداية، كل هذا إنما هو حسرات لا تجدي فتيلاً.

لحسن حظي، جاء الأب بروتيست أخيراً ليراني، ذات صباح جميل كي نتقاسم العمولة، تلك التي تؤول إلينا من تجارة سرداب الدفن والتي كان بإدارة الأم هنروي. لم أكن أعتمد حينذاك على أمانة الخوري، لقد كان كما لو أنه سقط علي من السماء. خمسمئة فرنك، كانت نصيب كل منا! ونقل إلي، في الوقت ذاته، أخباراً طيبة عن روبنسون كانت عيناه، كما بدا ذلك لبروتيست

Twitter: @ketab_n

في تحسن دائم، ولم يعد جفناه يتقيحان أيضاً، كان الجميع يطلبونني هناك. وقد وعدت الخوري بالذهاب لزيارتهم، وكان هو نفسه مصراً على ذلك.

بحسب ما قاله لي، فهمت بأن روبنسون كان سيتزوج عما قريب من ابنة بائعة الشموع في الكنيسة، التي كانت تقيم بالقرب من المدفن. والتي كانت مسؤولة عن مومياءات الأم هنروي. كان ذلك الزواج جاهزاً تقريباً.

كل ذلك قادنا بالضرورة للحديث قليلاً عن المرحوم السيد هنروي ولكن دون إلحاح، ثم عادت المحادثة أكثر طلاوة حول مستقبل روبنسون وحول تلك المدينة، تولوز بالذات التي لم أكن أعرفها على الإطلاق والتي حدثني عنها غرابا، فيما مضى، وكذلك حول نوع التجارة التي كان يقوم بها هناك روبنسون والعجوز كلاهما، وأخيراً حول الفتاة الشابة التي كان روبنسون سيتزوج منها.. ثرثرنا قليلاً حول كل الموضوعات بالإجمال وبصدد كل شيء.. ألف وخمسمة فرنك: ذلك يجعلني متسامحاً، ومتفائلاً والحق يقال. وجدت جميع المشروعات التي حدثني عنها الخوري بشأن روبنسون حكيمة تماماً، ومعقولة وذكية، وملائمة تماماً للظروف. تطرقت خلال حديثنا الطويل إلى الأعمار. كنا قد تجاوزنا الثلاثين، أنا والخوري منذ سنوات بعيدة، كانت ثلاثيننا توغل في الماضي فوق ضفاف يابسة ومأسوف عليها بمرارة، لم يكن حتى من المجدي الالتفات للتعرف على تلك الضفاف.. لم نكن نخسر أي شيء ذي قيمة فيما نحن نشيخ «ينبغي أن نكون أنذالاً في النهاية، استخلصت جازماً، حتى نأسف على تلك السنة أكثر مما على غيرها.. يمكننا أن نشيخ، نحن أيضاً. بشيء من المرح. أيها الأب، وبمرح غامر أيضاً. ترى، كيف كان الأمس؟ هل كان مفرحاً؟ والسنة الأخرى السابقة؟ كيف تجدها أنت؟ على أي شيء نأسف إذن؟ أنا أسألك؟ على الشباب؟ لم يكن لنا نحن أي شباب!..

Twitter: @ketab_n

«من المؤكد أن الفقراء يجددون شبابهم من الداخل كلما تقدموا نحو نهايتهم، شرط أن يحاولوا التخلي، خلال الدرب عن كل الأكاذيب والمخاوف والميل المفرط إلى الطاعة التي زودوهم بها منذ ولادتهم، حينذاك يصبحون أقل إثارة للتقزز مما كانوا عليه في البداية. كل ما على الأرض ليس لهم، وهو لا يعنيهم! واجبهم الملقى على كاهلهم، واجبهم الوحيد هو أن يفرغوا من داخلهم كل أحمال الطاعة، أن يتقيؤوها. وإذا ما افلحوا في ذلك قبل أن يهلكوا كلياً فسيكون بمقدورهم حينئذ أن يباهوا بأنهم لم يعيشوا عبثاً».

كنت في أحسن حالاتي، بالتأكيد.. وهذه الخمسمئة فرنك أثارت حميتي، تابعت :«الشباب الحقيقي، الشباب الوحيد، أيها الأب هو أن تحب الناس جميعاً، دون تمييز. ذلك فقط ما هو حقيقي، ذلك فقط ما هو شاب وجديد. هل عرفت أيها الأب كثيراً من الشباب يقوم توازنهم على هذا الأساس؟ أما أنا فلا أعرف منهم أحداً. لم أر في كل مكان سوى حماقات سوداء وشائخة تتخمر داخل الأجساد الفتية أكثر أو أقل، وكلما تخمرت هذه القذارات، وكلما أقلقت الشباب، كلما ادّعوا حينئذ بأنهم شباب فعلاً. ولكن هذا ليس صحيحاً، إنه ترهات لا أكثر. شبابهم هذا أشبه بالدمامل بسبب القيح الذي يولد الألم داخلها، ويجعلها تتورم.

أزعج بروينست أن أتكلم على هذا النحو، ولكي لا أزيد في ازعاجه غيرت دفة الحديث.. لا سيما وأنه كان لطيفاً معي، وحتى حميماً.. غير أن من الصعب للغاية أن يمنع المرء نفسه من العودة إلى الموضوع الذي يقلقه، على غرار موضوع الحياة الذي كان يقلقني. يشقى المرء بموضوع حياته بكاملها حينما يعيش وحيداً. وينتابه الخبل من ذلك. أن يكون المرء وحيداً، يعني أنه يتدرب على الموت «ينبغي أن يموت المرء، قلت له أيضاً، أكثر من كلب، وأن يقضي ألف دقيقة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكل دقيقة ستكون جديدة مع ذلك

Twitter: @ketab_n

ومثقلة بما يكفي من الاحتضار كي يجعله ذلك ينسى ألف مرة كل ما أمكنه أن يحصل عليه من لذة في ممارسة الحب طوال ألف سنة سابقة. ليست السعادة على هذه الأرض، سوى أن تموت مع اللذة، داخل اللذة، وما تبقى فهو باطل وقبض الريح. ولكننا لا نجرؤ، بسبب الخوف، على الاعتراف بذلك».

فيما كان بروتيست يسمعني أهذي، على ذلك النحو، ذهب تفكيره إلى أنني كنت مريضاً بالتأكيد. ربما كان على حق. وكنت أنا على خطأ كلياً، وفي كل الأشياء. ففي عزلتي، وفيما كنت ألتمس العقاب للأنانية الشاملة، كنت أشطح بخيالي في الحقيقة، كنت أبحث حتى العدم عن العقاب. يميل المرء إلى السخرية قدر ما وسعه ذلك حينما تكون فرص الخروج نادرة، بسبب عوزه إلى المال، وأكثر ندرة أيضاً فرص الخروج من ذاته ومن المجامعة.

كنت أود أن لا أكون محقاً كلياً في إزعاج بروتيست بفلسفتي المضادة ليقينياته الدينية، ولكن ينبغي القول بأن هناك مع ذلك، داخل جوهر شخصيته ميل صغير قذر إلى التفوق، كان لابد له من أن يثير أعصاب كثير من الناس. حسب فكرته هو، فإن البشرية بكاملها تعيش فوق الأرض داخل نوع من الانتظار البائس للأبدية، لكل فرد منها رقم. أما رقمه فهو الرقم الجيد الذي مآله إلى الجنة، وأما بقية الأرقام فلم يكن يبالي بها.

أمثال هذه اليقينيات لا يمكن تحملها، ولكن لأنه قدم لي في ذلك المساء نفسه المبلغ الذي كان نصيبي من سفرة تولوز. كففت كلياً عن إزعاجه ومعارضته. كان الخوف من أن أضطر إلى الالتقاء بتانيا في تارابو، مع شبح حبيبها الراحل قد جعلني أقبل دعوته في الذهاب إلى تولوز، دون مزيد من الجدال. أسبوع أو أسبوعان من الحياة الهادئة! كنت أقول لنفسي. يمتلك الشيطان كل المغريات كي يغويك! ولن تنتهي أبداً من مطاردتها والسعي

Twitter: @ketab_n

خلفها. لو عاش المرء زمناً طويلاً، فلن يعرف إلى أين يذهب لكي يجد مزيداً من السعادة. إنه سيخلف في كل مكان جهائض سعادة، تنتن في زوايا الأرض، ولن يعود بمقدوره التنفس بسبب نتانتها. فبسبب محاولاتنا المقززة جداً لكي نكون سعداء نسقط مرضى، لفداحة إخفاقاتنا، قبل أن نهلك نهائياً بسبب تلك الاخفاقات.

لن نستطيع أن نذوي ونخمد ما لم ننس آمالنا. دعك عن الألم الذي نكابده من أجل تحقيقها، من أجل أن نجعل أحلامنا وسعاداتنا المجهضة، وحماساتنا وأكاذيبنا حيوية ومضطرمة، هل تريد أكثر؟ إليك أيضاً، وأموالنا إذن! وأساليبنا الصغيرة للحصول عليها، والخلود، بقدر ما نرغب به، والعطور، والمداعبات، ورغباتنا المهووسة بكل شيء أخيراً، كي ننتهي أخيراً إلى أن نبصق كل هذا بقدر ما نستطيع، ولا نعود إلى التحدث عنه لفرط خزينا وخوفنا من أن يكون حديثنا عنه شبيهاً بالتقيؤ. ليس العناد الضاري هو ما ينقصنا إذن. بل أن نكون بالأحرى على الدرب الحقيقي الذي يودي بنا إلى الموت بهدوء.

كان الذهاب إلى تولوز في المحصلة، حماقة كبيرة. حينما كنت أفكر بذلك كانت تساورني الشكوك والمخاوف. لم يكن لدي أعذار إذن. ولكن أن أتبع روبنسون على هذا النحو، وسط مجازفاته، فقد كان لدي ميل نحو الأشخاص المريبين. في نيويورك حينما كان يجافيني النوم، كان يقض مضجعي معرفة إن لم يكن بمقدوري مرافقة روبنسون أبعد وأبعد أيضاً. يغوص المرء عميقاً، ويستولي عليه الذعر في حلكة الظلام، ولكنه يريد أن يفهم مع ذلك، وحينئذ فإنه لا يعود يغادر القاع، بيد أن هناك الكثير من الأشياء لابد من فهمها في الوقت ذاته. فالحياة قصيرة جداً. ونحن لا نرغب أن نكون غيرمنصفين مع أي شخص. لدينا وساوس، ونتردد في الحكم فجأة،

Twitter: @ketab_n

ونخاف على الأخص بأن نموت ونحن مترددون. لأننا سنكون حينذاك قد جئنا إلى الأرض عبثاً ودون جدوى على الإطلاق. وهو أسوأ الأسوأ.

ينبغي الإسراع، ينبغي أن لا تخطئ موتك. ثمة المرض، ثمة البؤس الذي يبدد ساعاتك وسنواتك.. والنوم الذي يلطخ أيامك وأسابيعك بكاملها بلون الرماد، والسرطان الذي ينشب فيك ربما عنيداً، نازفاً من شرجك.

لن يكون لدينا الوقت مطلقاً، ناهيك عن الحرب المستعدة دوماً، هي أيضاً، وسط ضجر البشر كي تنطلق شرارتها من الكهف الذي حُبس فيه الفقراء. ولكن هل سيقتل المزيد من الفقراء فيها؟ ليس هذا محتماً.. من الأفضل ربما ذبح أولئك الفقراء الذين لم يدركوا؟ كي يولد آخرون، فقراء جدد. ودائماً على هذا النحو، إلى أن يأتي يوم يدرك فيه الفقراء الدعابة جيداً، الدعابة بكاملها.. هكذا يجري حش عشب المرج، إلى أن يحين الوقت الذي يغدو فيه العشب جيداً وطرياً حقاً.

حينما وصلت إلى تولوز، وجدت نفسي أمام المحطة متردداً، شربت كوباً من الجعة ورحت أتسكع في الشوارع. جميلة هي المدن التي لا نعرفها! تلك هي اللحظة والمكان اللذان يمكنك فيهما أن تفترض بأن الذين تصادفهم هم أناس لطفاء جميعاً.. تلك هي لحظة الحلم. يمكنك أن تستفيد من لحظة الحلم تلك كي تذهب لتضيع بعض الوقت في حديقة عامة. غير أن الإنسان لا يأمن أن يبدو مثل بارابين وهو يبحث عن الفتيات الصغيرات في الحديقة العامة. ينبغي الحذر. من الأفضل المرور على بائع المعجنات قبل اجتياز باب الحديقة، وعلى المخزن الجميل المتقن الترتيب في الزاوية على غرار ديكور ماخور، بعصافيره الصغيرة التي تزين المرايا بخطوط مائلة.. تكتشف نفسك في المرايا وأنت تلتهم في الداخل حبات اللوز بالسكر بلا نهاية، تنعكس

Twitter: @ketab_n

صورتك، فيها، ها هنا يقيم الملائكة الساروفيم. كانت آنسات المخزن يعلقن بنحو عابر على شؤون القلب والحب على هذا النحو:

«إذن، فقد قلت له، بأنه يستطيع أن يأتي إلينا يوم الأحد.. ولكن أمي سمعت بذلك، وعملت منه قصة يطول شرحها، بسبب أبي.

ــ ولكن ألم يتزوج أبوك امرأة أخرى؟ وقطع علاقته بالأسرة.

ــ وماذا يمكن أن يعني زواجه من امرأة أخرى؟ له الحق، مع ذلك. في معرفة مع من تخرج ابنته..

كان هذا أيضاً رأي آنسة أخرى في المخزن. وحول الموضوع دارت المناقشة المثيرة بين جميع البائعات. كنت أقف صامتاً في زاويتي كي لأزعجهن، أتناول الفطائر بالكريما وفطائر الفاكهة خفية، آملاً أن يتوصلن بسرعة إلى حل تلك المعضلات العائلية الحساسة، ولكنهن لم ينتهين من ذلك. لقد جعلهن فقر أفكارهن يقتصرن على الكراهية العمياء. كانت أولئك الآنسات غارقات في حالة من اللا معقول ومن التباهي والجهل، كان ذلك يسيل مع لعابهن وهن يهمسن بألف شتيمة.

ظللت على الرغم من كل شيء مفتوناً بغمهن البائس. كنت أنقضّ على الحلوى بشراهة، لم أحص عدد قطع الحلوى، ولا هن أيضاً، كنت آمل أن لأنصرف قبل أن يتوصلن إلى نتيجة. ولكن الانفعال جعلهن صماوات وخرساوات تجاهي. وانتهيت إلى الجلوس كي يدوخنني أكثر بلغط كلماتهن المتواصل. وبمغزى أفكارهن، كما لو كنت جالساً على حافة شاطئ حيث الموجات الصغيرة المتواصلة لا تفضي على الإطلاق إلى التناغم.

كنت أسمع وأسمع، وكنت أتمنى، هنا وهناك، في القطار، في المقهى في الشارع، في الصالون، وفي بيت حاجبة العمارة، كنت أسمع، وأنتظر أن ينتظم

Twitter: @ketab_n

الشر ويرتب صفوفه كما في الحرب. ولكن هذا الشر كان يتحرك فقط، دون أن يحدث شيء إطلاقاً. لا من قبل الآنسات البائسات، ولا من قبل الآخرين أيضاً. ما من شخص جاء ليساعدنا. هذر هائل ينتشر رمادياً ورتيباً فوق الحياة مثل سراب مثبط. دخلت سيدتان إلى المخزن فتلاشى السحر الباهت للمحادثة العقيمة والمنتشر بيني وبين الآنسات. وخفّت آنسات المخزن لاستقبال الزبونتين. بحفاوة سريعة ومباشرة. واندفعن لتنفيذ طلبات الزبونتين، وتلبية أدنى رغباتهما. كانت هذه الزبونة وتلك، تختاران، تنقران كالعصافير حلوى الفرنيات والفطائر كي يشتريانها، وعند الحساب، انفصلتا بلطف، وتظاهرتا بأنهما تتبادلان قطعاً من المعجنات كي تنهشاها «في الحال».

رفضت إحدى الزبونتين قطعة الحلوى، بألف كياسة، شارحة بإسهاب وحميمية للنساء الأخريات اللواتي كن ينصتن إليها باهتمام بالغ بأن طبيبها منعها من تناول كافة السكريات منذ مدة، وأن طبيبها هذا، كان بارعاً جداً، وقد حقق معجزات في شفاء حالات الإمساك المعوي في المدينة وخارجها. وأنه يعالجها، مع نساء أخريات من انحباس الغائط في مستقيمها، والذي كانت تعاني منه منذ أكثر من عشر سنوات، بفضل حمية خاصة. جداً، وكذلك بفضل دواء مدهش، لا يعرفه أحد سواه، لم تكن النساء الأخريات أبداً راغبات في أن يتفوق عليهن أحد بسهولة في أمور الإمساك، فقد كن يعانين من الإمساك أفضل من أي شخص آخر، لذلك فقد عاندنها، كن في حاجة إلى أدلة وإثباتات. وحين وجدت الزبونة أنها في موضع الشك أضافت فقط بأنها صارت تصدر الآن «ريحاً قوية فيما هي تتغوط، وأن هذه الريح كانت أشبه بأسهم نارية حقيقية، وأنها بسبب غائطها الجديد، التام التكوين والصلب جداً، كانت في حاجة إلى أن تضاعف احتياطاتها حين تتبرز.. فقد كان غائطها

Twitter: @ketab_n

الجديد الرائع صلباً جداً أحياناً، بحيث كانت تشعر بالألم في قاعدتها.. وكان يسبب له تمزقات.. كانت مضطرة إلى وضع الفازلين في أسفلها حينئذ، قبل الذهاب إلى المرحاض». كان دليلها لا يدحض.

على هذا النحو خرجت الزبونتان مقتنعتين، منفصلتين، ترافقهما حتى عتبة المخزن «العصافير» بالإضافة إلى كل ابتسامات المخزن.

بدت لي الحديقة العامة المقابلة ملائمة كمحطة صغيرة للاستجمام والتأمل، بما يكفي لاستعادة قواي الذهنية والروحية قبل الذهاب للبحث عن صديقي روبنسون.

في الحدائق العامة داخل مدن المقاطعات تظل المقاعد فارغة تقريباً، طيلة الوقت، خلال الفترات الصباحية، على مقربة من حافة أجمات ملبدة من الخيزران وأزهار المارغريت، وغير بعيد عن ركام من الحجارة فوق بحيرة من المياه المتجمعة، زورق صغير من الزنك محاط برماد خفيف. مربوط إلى حافة المياه. بحبله المتعفن، كان الزورق يتحرك، فوق المياه أيام الآحاد. مثلما أعلن عن ذلك فوق لوحة معلقة، وأجرة الجولة في البحيرة: «فرنكان اثنان».

كم من السنين. كم من الطلاب؟ كم من الأشباح؟

في جميع زوايا الحدائق العامة، ثمة على هذا النحو أكوام منسية من أحواض الزهور المتفتحة، من الأيكات الواعدة، من الشالات المزدانة بكل شيء. ولكن، ما من شيء جدي.

ثمة فسحة من الحلم، رغم ذلك! قلت لنفسي وأنا ذاهب للبحث عن روبنسون وعن كنيسة سانت ايبونيم. وعن ذلك المدفن الذي يضم المومياءات مع العجوز هنروي. لقد جئت لأرى كل ذلك. كان ينبغي أن أعقد العزم.

امتطيت عربة سارت بي بأنواع صغيرة من الخبب، في منعطفات وشوارع مظللة في المدينة القديمة. حيث النهار ما يزال عالقاً في قبضة

Twitter: @ketab_n

الصخب، كانت دواليب العربة تصدر جلبة خلف الحصان بحذوات حوافره المعدنية، مجتازة أقنية وعبّارات، لم يلتهم الحريق مدن الجنوب منذ زمن طويل، لم تكن شائخة يوماً مثلما كانت الآن. فالحروب لم تعد تعبرها قط.

وصلنا أمام كنيسة سانت ايبونيم، عند وقت الظهيرة. كان المدفن أبعد قليلاً، ينتصب فوقه تمثال للمسيح المصلوب. أشار إلي بعض المارة إلى الموقع وسط حديقة صغيرة جافة تماماً. يدخل الزائر إلى قبو الكنيسة من خلال نوع من الثقب الموصد بأحكام. لمحت من بعيد حارسة المدفن، فتاة شابة. سألتها على الفور عن أخبار صديقي روبنسون. كانت على وشك أن تغلق الباب. رسمت الفتاة ابتسامة رقيقة على وجهها كي تجيبني، وأخبرتني حالاً بأخبار طيبة.

في ذلك النهار الجنوبي، وفي المكان الذي كنا نقف فيه، كان كل ما حولنا قد غدا أحمر زهرياً. كانت أحجار الأسوار المنخورة تصعد نحو السماء على امتداد الكنيسة، كما لو أنها على وشك الذوبان في الفضاء هي بدورها. كانت صديقة روبنسون الصغيرة في العشرين من عمرها كما بدت لي، ذات ساقين ملفوفتين وصلبتين، وقد ممشوق فائق الرشاقة ورأس صغير جميل التقاطيع، عينان سوداوان بالغتا السواد، يقظتان، مما يروق لي جداً. ربما لم تكن الفتاة من نوع الفتيات الحالمات على الإطلاق. كانت هي التي تكتب رسائل روبنسون. تلك التي كنت أتسلمها. سبقتني بمشيتها المتئدة الخطو. نحو المدفن. قدماها، عقباها منحوتان باتقان. مشبكان متينان لشبقة حقيقية تلتفان بقوة حول من يمتطيها، في اللحظة المناسبة. ويدان قصيرتان، صلبتان، متماسكتان جداً، يدا عاملة طموحة. وبحركة صغيرة متكتمة أدارت المفتاح في الباب فتراقصت الحرارة من حولنا. تحدثنا عن أشياء من هنا وهناك. وما

Twitter: @ketab_n

أن انفتح الباب حتى قررت مع ذلك، أن تدخلني إلى المدفن للقيام بزيارة إليه،على الرغم من ساعة الغداء. بدأت أستعيد على الفور بعضاً من طيشي، كنا نغوص في الرطوبة المتزايدة خلف مصباحها. كان ذلك منعشاً، تظاهرت بأنني أتعثر بين درجتين كي أمسك بذراعها، وهو ما أثار بيننا جواً من الدعابة والضحك. وحين وصلنا إلى الأرض الممهدة في الأسفل، طوقت عنقها بذراعي لحظات، مانعت في البداية، ولكن ليس كثيراً.

بعد لحظة قصيرة من الانفعال التفقتّ حول بطنها، مثل يرقة ذباب لحظة الحب. فاسق داعر!، رطّبت وأعدت ترطيب شفاهي، ثمة مناجاة للأرواح، وتسلقت بنظري ببطء على امتداد فخذيها المقوسين، كان المشهد آسراً، مع ضوء المصباح الذي وضعته على الأرض، مما أتاح لي أن أشاهد، في الوقت نفسه التضاريس المتحركة على امتداد ساقيها. آه! لا ينبغي إضاعة هذه اللحظات، كنت أنظر إليها بطمع واشتهاء، وكوفئت بسخاء. أي إغراء! أي مزاج طيب مفاجيء! استأنفنا الحديث بنبرة من الثقة الجديدة والبساطة، صرنا أصدقاء.

«هل تقودين الزائرين إلى هنا غالباً؟ سألتها بخراقة وأنا أتنفس بجهد، وتابعت في الحال: «أليست أمك هي التي تبيع الشموع في الكنيسة المجاورة؟» لقد حدثني الأب بروتيست عنها.

ـ لقد حلت السيدة هنروي محلي خلال الغداء فقط، أجابتني، وفي فترة ما بعد الظهر أعمل في الأزياء بالقرب من شارع المسرح، هل مررت أمام المسرح لدى قدومك؟»

طمأنتني أيضاً، عن روبنسون، وأخبرتني بأنه كان يتحسن أكثر فأكثر، وأن الطبيب الأخصائي يعتقد بأنه سيرى عما قريب بما يكفي ليسير وحده في الشارع، وهو يحاول ذلك الآن. كل ذلك كان نبوءة طيبة، أما الأم هنروي فقد أكدت لي، بأنها مسرورة للغاية من عملها في المدفن، وهي تقوم ببعض

Twitter: @ketab_n

التوفيرات: ثمة أمر سيئ واحد هو أن البق يتفشى في المنزل ويمنع الجميع من النوم، لاسيما خلال الليالي العاصفة، حينئذ يشعلون الكبريت لطرده. من الواضح أن روبنسون كان يتحدث عني غالباً، وبعبارات طيبة أيضاً، وتطرقنا، استطراداً إلى موضوع وظروف الزواج.

والواقع، أنني مع كل ذلك لم أكن قد سألتها بعد عن اسمها،كان اسمها ماديلون؛ ولدت خلال الحرب. كان مشروع زواجهما ملائماً لي في كل الأحوال، ماديلون، إنه اسم سهل التذكر. من المؤكد أنها كانت خليقة بأن تعرف ما هي مقدمة عليه بزواجها من روبنسون... فهو في المحصلة، وعلى الرغم من التحسن الذي طرأ على عينيه سيكون عاجزاً على الدوام.. وهي تعلم بأن عينيه مصابتان إصابة بليغة... وإذن فقد كان له أعصاب ومعنويات مريض. كنت سأقول لها تقريباً، وأنبهها إلى ذلك. لم أكن أعرف البتة كيف أوجه الحديث عن زواجهما، ولا كيف أخرج منه.

ولكي أغير الموضوع، أبديت أهمية مفاجئة بأمر المدفن، وما دمت قد جئت من مكان بعيد جداً لرؤية المدفن، فقد كانت تلك هي اللحظة المناسبة للاهتمام به.

بمساعدة مصباحها الصغير أخرجنا أنا وماديلون، من الظلمة جثث الموتى المحنطة، واحدة إثر أخرى، كان ينبغي لمشهد هذه الجثث أن يدفع السائح إلى التفكير لدى رؤيته لها. كانت تلك الجثث المسندة إلى الجدار على غرار محكومين بالإعدام رمياً بالرصاص، لموتى منذ عهد بعيد... لم يعد لها على الإطلاق جلد ولا عظم... قليل جداً من كل ذلك فقط، في حالة بالغة القذارة، يغشاها النخر في كل مكان.

كان الزمن قد أتلف جلود تلك الجثث منذ قرون وترك آثاراً لا تمحى، لقد مزق كذلك بقايا الوجوه.. ووسع الثقوب والتجاويف. كان ما يزال أيضاً خيوط

Twitter: @ketab_n

طويلة من بشرتها. نسيها الموت بعد تلاشي الغضاريف، كانت بطونها خاوية من كل شيء. وقد جعلها ذلك أشبه بمهاد للظل في مكان سرّتها.

شرحت لي ماديلون بأن هؤلاء الموتى ظلوا داخل مقابر من الكلس الحي أكثر من خمسمئة سنة كي يصلوا إلى هذا الوضع. ليس بالوسع القول بأن تلك كانت جثثاً، فقد انتهى زمن هذه الجثث منذ أمد بعيد. وأصبحت على تخوم الانحلال إلى غبار، بكل بطء وهدوء.

كان الكهف يضم ستاً وعشرين جثة لكبار وصغار، لم يكونوا يطلبون أكثر من الدخول في الأزلية، ولكنهم لم يتركوهم بعد، نساء ورجال معلقون من أعلى هياكلهم، كان من بينهم أحدب، وعملاق، وحتى طفل رضيع تلف هيكله تماماً هو أيضاً، مع نوع من مريلة من الدانتيلا حول عنقه الصغير الجاف، إن كان يعجبكم، وبقايا أقمطة صغيرة.

كانت الأم هنروي تكسب كثيراً من النقود مع كشاطة القرون هذه. كنت أفكر بأنها كانت أشبه بهذه الأشباح تقريباً منذ عرفتها... كنت أروح وأجيء، ببطء أمام الجثث مع ماديلون، من واحدة إلى واحدة، أمام نوع من الرؤوس الخرساء، وسط حلقة من المصابيح الساطعة. لم يكن الليل يملأ كلياً قاع محاجرها. كان يخيل إليّ أيضاً أنها ترسل نظرات، ولكنها نظرات وديعة، مثل نظرات أشخاص عارفين.. ما كان يثير الإزعاج في كل ذلك هو رائحة الغبار التي تعلق في طرف أنفك.

لم تكن الأم هنروي تفوّت زيارة واحدة مع السائحين، كانت تشغّل الموتى مثلما في السيرك، مئة فرنك في اليوم كانوا يدفعون لها في المواسم الطيبة.

«ألا ترى بأنهم لا يبدون تعساء» سألتني ماديلون. كان سؤالها طقسياً.

لم يكن الموت يعني لها شيئاً، تلك الظريفة. لقد ولدت أثناء الحرب، زمن الموت السهل. أما أنا فكنت أعرف كيف يموت الناس. لقد تعلمت ذلك.

Twitter: @ketab_n

إنه موجع وجعاً لا حدود له. من السهل القول للسائحين بأن هؤلاء الموتى كانوا مسرورين. ليس لدى الموتى ما يقولونه. كانت الأم هنروي تربّت على بطونهم حيثما بقي فوق هياكلهم ما يكفي من رقّ التحنيط، وكان ذلك يصدر صوتاً رناناً «بوم، بوم» غير أن ذلك ليس دليلاً على أن كل شيء كان يسير بصورة جيدة.

عدنا أخيراً، أنا وماديلون إلى شؤوننا. كان صحيحاً إذن، بأن حالة روبنسون غدت أفضل. لم أسأل عن ذلك المزيد من الأسئلة، كانت الصديقة الصغيرة تبدو لي مصرة على الزواج! كان خليقاً أن تعاني ضجراً شديداً في تولوز. حيث الفرص نادرة فيها للقاء بفتى قام بأسفار كثيرة مثل روبنسون، وقد سمعت منه حكايات ونوادر، حقيقية وأقل صلة بالحقيقة أيضاً، كان قد روى لها بالتأكيد كثيراً من الحكايات عن أمريكا وعن البلدان المدارية، كان ذلك لا ريب فيه.

أنا أيضاً كنت في أمريكا، وفي البلدان المدارية، نويت أن أحدثها عن ذلك، وعن أننا غدونا أصدقاء لفرط ما سافرنا معاً أنا وروبنسون، كان المصباح ينطفيء، وقد أشعلناه عشر مرات بينما كنا نسوي حسابات الماضي مع المستقبل، كانت تحمي ثدييها مني واللذين كانا شديدي الحساسية.

مع ذلك، ولما كانت الأم هنروي على وشك العودة بين دقيقة وأخرى من الغداء. فقد كان علينا أن نصعد إلى ضوء النهار. عبر الدرج الصغير، والهش والصعب الارتقاء على غرار سلم. لم يفتني ملاحظة ذلك بوضوح.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

«« بسبب ذلك الدرج الرقيق جداً والغادر جداً لم يكن روبنسون ينزل غالباً إلى كهف المومياءات. كان يظل بالأحرى أمام الباب يلقي بالكلام المعسول للسائحين، ويتدرب أيضاً على التماس الضوء من هنا وهناك من خلال عينيه.

في أعماق المدفن كانت الأم هنروي تتدبر الأمور خلال ذلك الوقت، كانت تعمل عنها وعن روبنسون في الواقع مع المومياءات. كانت تزين جولة السائحين بأقوال صغيرة حول موتاها داخل لفافات الرق. «ليسوا منفرين أبداً، أيها السادة والسيدات، ما داموا قد حفظوا داخل الكلس، مثلما ترون منذ أكثر من خمسة قرون... مجموعتنا هذه هي الوحيدة في العالم... لقد اختفى اللحم بالطبع، وبقي الجلد وحده، بعد ذلك، ولكنه مدبوغ. إنهم عراة ولكنهم ليسوا غير محتشمين... ستلاحظون بأن طفلاً صغيراً دفن في الوقت ذاته مع أمه... وقد حفظ الطفل الصغير أيضاً على نحو جيد جداً، أما الكبير ذاك بقميصه الذي ما تزال بقاياه سليمة... فأسنانه كلها باقية في فمه. ستلاحظون...» ثم تشرع في التربيت على صدر كل منها حتى آخرها. وكان ذلك يصدر صوتاً كصوت الطبل «انظروا، أيها السادة والسيدات إلى هذا، لم يبق له سوى عين واحدة... جافة تماماً.. ولسان.. غداً مثل الجلد أيضاً!» ثم تتابع «إنه يخرج لسانه ولكن هذا ليس منفراً... يمكنكم أيها السادة والسيدات أن تعطوني ما تجود به أنفسكم حينما تذهبون، ولكن العادة جارية بدفع فرنكين للشخص الواحد ونصف ذلك للأولاد. يمكنكم أن تلمسوهم قبل ذهابكم من هنا...

Twitter: @ketab_n

وتتأكدوا بأنفسكم... ولكن لا تضغطوا بشدة. أوصيكم بذلك.. إنهم جميعاً في غاية الهشاشة...»

كانت الأم هنروي تحلم بأن تضاعف أجورها منذ وصولها. وهي تنتظر رداً من الأسقفية. لم تكن الواردات وقفاً عليها وحدها، بسبب خوري كنيسة سانت ايبونيم الذي كان يريد أن يقتطع ثلث الواردات. له وحده، ومن ثم روبنسون الذي كان يحتج باستمرار، لأنها لم تكن تعطيه حصة كافية، كما يزعم.

«لقد عملت، يجزم روبنسون، عملت مثل فأر... مرة أخرى أيضاً، لست محظوظاً... إنه عمل مربح، مع ذلك، ما تقوم به العجوز في كهفها. وهي تضع كل شيء في جيوبها، السافلة. أؤكد لك.

ـ ولكن لست أنت الذي تكسب النقود في الوضع الذي أنتما فيه. اعترضت على كلامه كي أهدئ من سخطه وأجعله يتفهم الأمر... وها أنت تتغذى على نحو جيد.. وهم يهتمون بك أفضل اهتمام».

ولكن روبنسون عاند مثل نحلة طنانة.. كانت طبيعته طبيعة من يلازمه الشعور بالاضطهاد. لم يكن يريد أن يفهم، ولا أن يخضع.

«لقد خرجت سالماً، بوجه الاجمال، من مهلكة قذرة.. أؤكد لك! دعك من الشكوى! كنت ستذهب إلى سجن سابين لو لم يحوّلوا وجهة سيرك نحو شاطىء الأمان، وها هم قد تركوك مطمئناً قرير العين. وقد التقيت، بالإضافة إلى ذلك، بالصغيرة ماديلون التي تمتاز بلطف بالغ، وهي تحبك بقوة... مهما كانت حالة مرضك؟ فما بالك إذن تشكو كل هذه الشكوى... وعلى الأخص أن عينيك الآن في تحسن دائم؟

ـ أنت تعني كما يبدو، بأنني لا أعلم إطلاقاً ممّ أشكو، أليس كذلك؟ أجابني روبنسون، ولكنني أشعر مع ذلك، بأن عليّ أن أشكو... هذا هو

Twitter: @ketab_n

الحال. لم يبق لي إلا أن أشكو... أقول لك... ذلك هو الشيء الوحيد الذي يسمحون لي به... أنت لست مضطراً إلى أن تصغي لي».

والواقع أنه لم يتوقف عن النواح منذ أن بقينا وحيدين، كنت أتهيب هذه اللحظات من الأحاديث الشخصية. نظرت إليه وهو يطرف بعينيه، وهما تسيلان، تحت أشعة الشمس أيضاً، وقلت لنفسي بأنه لا يثير التعاطف في النهاية. ثمة حيوانات مخلوقة على هذا النحو، عبثاً تبدو لنا بريئة وتعيسة وكل شيء. نعرف ذلك تماماً، ولكننا ننفر منها رغم كل شيء. ذلك أن شيئاً ما ينقصها.

«كنت ستهلك ربما في السجن، أكدت له مرة أخرى، من أجل أن أجعله يفكر أيضاً.

- ولكنني دخلت السجن فيما مضى، ليس الحال في السجن أسوأ مما أنا فيه الآن! كلامك متأخر..»

لم يكن قد قال لي بأنه كان في السجن. لابد أن ذلك حدث قبل أن ألتقي به، قبل الحرب. أصر على موقفه وقال جازماً: «ليس ثمة سوى حرية واحدة، أقول لك، ليس هناك سوى حرية واحدة فقط، هي أن ترى بوضوح أولاً، وأن تملك المال بعدئذ، ملء جيوبك، وما عدا ذلك باطل.

- إلى أين تريد إذن أن تصل في النهاية؟ سألته. والواقع أنه حين اضطر على هذا النحو، إلى أن يحزم أمره، ويعلن موقفه ويعبر عن نفسه، خاف وخانته الشجاعة، تلك هي اللحظة، مع ذلك، التي كانت جديرة بالانتباه.

فيما كانت ماديلون، خلال النهار تذهب إلى عملها في المشغل، وكانت الأم هنروي تتلو ابتهالاتها أمام الزبائن، كنا أنا وروبنسون نذهب إلى المقهى المظلل بالأشجار. ذلك هو الركن الذي كان يحبه روبنسون. ربما بسبب الضجة التي كانت تثيرها العصافير فوق الأشجار. كم كان هناك من

Twitter: @ketab_n

عصافير! ولا سيما عند الساعة الخامسة حينما تؤوب إلى أعشاشها، وقد هاجها الصيف. كانت ترفرف حينئذٍ، فوق المكان مثل عاصفة. وقد حدثوني، بأن حلاقاً كان له دكان ملاصق للحديقة، غدا مجنوناً، بسبب سماعه لزقزقتها فقط، مجتمعة خلال النهار، يمكن تصديق ذلك، لأننا لم نكن نسمع بعضنا البتة، بسبب جلبتها. ولكن ذلك كان مبهجاً، مع ذلك، بالنسبة إلى روبنسون.

«لو كانت العجوز تعطيني بانتظام أربعة قروش فقط، عن كل زائر، فسأجد ذلك مناسباً جداً.

ما انفك خلال خمس عشرة دقيقة بكاملها يتحدث عن هذا الشاغل الذي استحوذ عليه. كانت ألوان الأزمان الماضية تعاوده، مع ذلك، وحكايات أيضاً، حكايات شركة بوردورپير في أفريقيا، من بين حكايات أخرى، والتي كنا نعرفها كلانا مع ذلك. وقصص قذرة أخرى لم يكن قد رواها لي على الإطلاق، لم يكن يجرؤ ربما، كانت مدفونة في أعماقه.

بصدد الماضي كنت أتذكر موللي على الأخص حينما يكون مزاجي رائقاً، مثل أصداء ساعة ترن من بعيد، وحينما كنت أفكر بشيء ما لطيف ومحبب.. أفكر بها على الفور.

على كل حال، حينما تفتر أنانية الرجال قليلاً مع قدوم شتاء العمر فإنهم لا يحتفظون داخل قلوبهم سوى بذكرى النساء اللواتي كانوا يحبونهن حقاً.

لدى عودتنا في المساء من المقهى، لم نكن نفعل أي شيء، على غرار ضباط الصف بعد تقاعدهم.

لم يكن سيل السائحين يتوقف خلال الموسم، كانوا يجرجرون أنفسهم في سرداب الدفن، بينما الأم هنروي ماضية في إثارة جو من الدعابة بينهم. كان الخوري يستاء قليلاً من دعاباتها. ولكن بما أنه كان يقبض أكثر من

Twitter: @ketab_n

حصته، فقد كان يتجاوز عن ذلك. لم يكن يسمع من قبل، مثل هذه المجانات. كانت الأم هنروي تستحق عناء مشاهدتها والاستماع إليها وسط جثثها، كانت تنظر في وجوه الجثث تماماً، هي التي لم تكن تخشى الموت، والتي تغضن جلدها وملأته التجاعيد، حتى غدت أشبه بواحدة من مومياءاتها فيما هي تحمل مصباحها، وتثرثر ما شاء لها الثرثرة وسط ذلك النوع من الوجوه.

حينما عدنا إلى المنزل،حيث يجتمع الجميع، من أجل العشاء، ثار الجدال من جديد حول الإيرادات. ومن ثم فإن الأم هنروي كانت تخاطبني «دكتوري الصغير الواوي» بسبب ما كان قد حدث بيننا في رانسي. ولكن كان كل ذلك من قبيل المزاح بالطبع، كانت ماديلون تبذل جهداً في إعداد الطعام في المطبخ.. لم يكن المسكن الذي كنا فيه يستقبل سوى ضوء شحيح. كان ملحقاً بسكرستيا الكنيسة المحدودة المساحة، والمدعمة بروافد وزوايا عفّرها الغبار «على الرغم من كل شيء. لاحظت العجوز، ومع أن الجو هنا مظلم طيلة الوقت تقريباً، فإننا نجد فيه مع ذلك، ما ننام عليه، وما نضعه في جيبنا، وما نسدّ به رمقنا، وهذا كاف».

بعد موت ولدها، لم يدم حزنها وقتاً طويلاً. «كان دائماً هشاً معتل الصحة، كانت تحدثني عنه،. وفي حين أنني أنا، عجباً! التي تجاوزت السادسة والسبعين من العمر، لم يصدر عني أي شكوى على الإطلاق! فقد كان هو يشكو دائماً، إنه بالتأكيد من النمط ذاته الذي هو نمط صاحبك روبنسون... وكي أعطيك مثالاً، فأنت تعرف الدرج الصغير للمدفن، كم هو صعب وخطر، أليس ذلك؟.. إنه يرهقني، بالتأكيد ومع ذلك، فإنني أحصل منذ أيام على فرنكين اثنين لكل درجة... لقد عددت الدرجات. حسناً، من أجل هذه المكافأة سأصعد، حتى السماء، إن شئت!».

Twitter: @ketab_n

وضعت ماديلون كثيراً من التوابل في عشائنا، ومن الطماطم أيضاً. كان ذلك فريداً. ومن الخمر الأحمر. وما أن بدأ روبنسون بالشراب حتى شرع يقص علي كل ما حدث له منذ وصوله إلى تولوز. لم أكن أصغي إليه. لقد خيبّني وآثار نفوري كلياً. «أنت بورجوازي. انتهيت إلى وصفه كذلك (لأنه لم يكن ثمة مسبة أسوأ من هذه في تلك الفترة). أنت لا تفكر في النهاية، سوى بالمال... وحينما سيرتد إليك بصرك، ستكون أسوأ من الآخرين».

لم يغتظ روبنسون من هذه المسبة، بل يمكنني القول، بالأحرى، بأن ذلك قد منحه مزيداً من الشجاعة. كان يعلم بأن ما أقوله صحيح تماماً. لقد استقرت الآن أحوال هذا الفتى، كنت أقول لنفسي، ولم يعد من الضروري القلق بشأنه... ثمة امرأة صغيرة عنيفة إلى حد ما، وفاسقة أيضاً، لا خلاف في ذلك... يمكنها أن تحوله إلى رجل آخر كلياً. كنت ما أزال أحدث نفسي... كنت أعتبر روبنسون، منذ زمن طويل على أنه فتى مغامر، ولكنه في الحقيقة، لم يكن أكثر من نصف أبله. مخدوع أو غير مخدوع، أعمى أو غير أعمى... ذلك هو الحال..

والواقع أن العجوز هنروي كانت قد أصابته بالعدوى، على الفور، عدوى سعارها الشديد لجمع المال، وأصابته ماديلون بعدوى الزواج. وإذن فقد طفح كيله حتى الجمام. كانت حساباته ناجحة، لا سيما أنه كان يميل إلى الصغيرة ماديلون. كنت أعرف شيئاً ما عن ذلك. سيكون من الكذب، بداية، بأن أقول بأنني لم أحسده بعض الحسد، من وقت إلى آخر. كنا نغتنم أنا وماديلون بعض اللحظات بعد الغداء كي نلتقي في غرفتها، ولكن لم يكن من السهل ترتيب تلك المقابلات. لم نكن نتبادل أية كلمة، كنا رصينين غاية الرصانة.

ينبغي عدم الذهاب إلى الظن بأنها لم تكن تحب روبنسونها، ولكنه فقط كان يلعب لعبة الخطوبة، فيما كانت هي أيضاً تلعب لعبة الإخلاص. كان ذلك

Twitter: @ketab_n

هو الجو السائد بينهما. ولكن الأمر المهم في تلك العلاقة، أنهما كانا متفقين. كان ينتظر وقت الزواج كي يفض بكارتها، مثلما أفضى إلي، كانت تلك فكرته: الانتظار الأبدي، بالنسبة إليه، والمباشرة على الفور، بالنسبة إلي. وحدثني، بالإضافة إلى ذلك، عن أنه يفكر في تأسيس مطعم صغير، معها، وترك العجوز هنروي لحالها. كل شيء إذن كان مأخوذاً على محمل الجد. «إنها لطيفة وهي تعجب الزبائن، كان يتكهن، في أفضل لحظاته. ومن ثم فقد تذوقت أنت طبخها، أليس كذلك؟ لا أحد يضاهيها فيما يتعلق بالطبخ».

كان يفكر كذلك في أن يتمكن من استلاف مبلغ أولي صغير من الأم هنروي. كنت أتمنى أن يفلح في ذلك، ولكنني كنت أتوقع أن يجد صعوبة في إقناعها. «أنت ترى كل شيء وردياً» لفتّ انتباهه. قاصداً أن أهدئ قلقه وأن أجعله يفكر قليلاً. وفجأة انخرط في البكاء، وجعل يعاملني معاملة فظة. لاينبغي في المحصلة، تثبيط أي شخص.. واقتنعت فجأة بأنني كنت على خطأ، وأن السويداء هي التي كانت تسبب لي الضياع دوماً. كان العمل الذي يجيده روبنسون قبل الحرب هو النقش على النحاس. ولكنه لم يعد يرغب في أن يمسه من قريب أو بعيد، بأي ثمن. «برئتيّ هاتين أحتاج إلى الكثير من الهواء، هل تفهم، ثم إن عينيّ، لن تعودا إلى سابق عهدهما قط» لم يكن مخطئاً هو أيضاً، بمعنى من المعاني، ولم أجد ما أجيبه به. وحينما كنا نمر عبر الشوارع المزدحمة، كان الناس يلتفتون إلينا ليعبروا عن رثائهم للأعمى. يشعر الناس بالشفقة على العاجزين والعميان، يمكن القول بأنهم يكنّون حباً لهم مخزوناً في أعماقهم، لاحظت ذلك الحب المخزون مرات عديدة، ثمة الكثير منه لدى الناس، لا خلاف في ذلك، ولكن تعاستهم تكمن فقط في أنهم يظلون قساة على الرغم من ذلك الحب المخزون. لا يخرجونه إلى النور. ذلك هو

Twitter: @ketab_n

الحال، إنه حبيس في داخلهم، يظل كامناً دون أن يفيدهم في شيء، إنهم يبددونه ببساطة.

بعد العشاء، انشغلت ماديلون به، بليونها، كما كانت تسميه. كانت تقرأ له الصحيفة، كان مولعاً الآن بالسياسة، وكانت صحف الجنوب طافحة ببثور السياسة.

كان المساء يحدق بنا، والمنزل يغوص في ظلمة القرون. كانت تلك هي لحظة ما بعد العشاء التي يتكثف فيها زحف البق، لحظة مكافحته بمحلول لاذع، تركته فيما بعد لصيدلاني لقاء ثمن بخس. كان ذلك التركيب البسيط الذي جربته يسلي الأم هنروي، وقد حضرت جميع تجاربي. كنا ننتقل من عش إلى عش، وإلى الشقوق والزوايا لنبخر أسرابه بالسلفات التي أعددتها، كانت أسراب البق تتجمهر ثم تتلاشى تحت ضوء الشمعة التي كانت تمسكها لي بانتباه الأم هنروي.

فيما نحن نلاحق البق كنا نتحدث عن رانسي، كنا نفكر في ذلك المكان. وقد أضجرني الحديث عنها. سأبقى ربما في تولوز. خلال ما تبقى لي من الحياة. لم أعد أطلب أكثر من ذلك، في النهاية. أن أضمن معاشي وأن يكون الزمن كله لي. ولكن كان علي التفكير، مع ذلك، بالعودة وبالعمل، كان الزمن يمضي، وعمولة الخوري، أيضاً، وكل ما ادخرته.

وددت قبل الرحيل أن أعطي أيضاً بضعة نصائح صغيرة لماديلون، كانت ماديلون متيقظة بالتأكيد. ولكنها كانت جاهلة جهلاً مطبقاً فيما يتعلق بالمكروبات التي تنتقل من الرجال. وانطلقت في تقديم إيضاحات وشروح مفصلة للغاية بصدد ما كان عليها أن تلاحظه بعناية، قبل أن تستجيب لمداعبات الرجال وملامساتهم، وعن أشياء كلاسيكية لا بد من معرفتها في

Twitter: @ketab_n

النهاية، وهي مفيدة فعلاً. بعد أن أنصتت إلي جيداً، وتركتني أتكلم على هواي، احتجّت على طريقة حديثي، ووجهت إلي نوعاً من التعنيف «بأنها فتاة رصينة، وإن ما قلته معيب، وأنني كنت أحمل عنها فكرة سيئة، وبأنني كنت احتقرها، وبأن الرجال جميعهم مقززون."

قالت أخيراً، كل ما تقوله النساء في مثل هذه الحالة، كان ينبغي أن أتوقع ذلك، ستار واق يتسترن به. المهم، بالنسبة إلي، أنها كانت تصغي إلى نصائحي بانتباه، وأنها احتفظت بالجوهري منها. وما تبقى لم يكن بذي أهمية. غير أنها لدى سماعها إلي على هذا النحو فإن ما جعلها واجمة وحزينة، في الحقيقة، هو التفكير بأن من الممكن أن تصاب هي بكل ما حدثتها عنه من أمراض، من خلال الملامسات الرقيقة والتماس اللذة، لم أعد ألح إلا لكي أحدثها عن الأكياس الواقية الصحية جداً والسهلة الاستخدام. وأخيراً ولكي نبدو كمحللين نفسيين، حاولنا تحليل شخصية روبنسون «إنه ليس غيوراً، قالت لي: حينئذ، ولكنه يمر أحياناً بلحظات عصيبة».

«جيد.. جيد..» أجبتها، وانطلقت في تحديد شخصية روبنسون، مثلما كنت أعرفه، ولكنني لاحظت على الفور بأنني قلما كنت أعرف روبنسون، ما عدا بعض البداهات السخيفة عن مزاجه. لا شيء أكثر.

من المدهش أن المرء يجد صعوبة في تصور ما يمكنه أن يقول كي يجعل كائناً أكثر أو أقل قبولاً في عيون الآخرين. كنت أريد مع ذلك أن أجعله مقبولاً، رحت أغمغم.. كان ذلك مثيراً للرثاء منذ الكلمات الأولى..

في أيامنا هذه ليس من السهل أن تصنع «زهرة خلنج»، ذلك ليس سهلاً، إذ يفر من أمامك لا شعورك الباطن ما أن تقترب منه.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> حينما قررت الذهاب لشراء تذكرة القطار للعودة إلى باريس أصر الجميع على بقائي أسبوعاً آخر لأزور برفقتهم ضواحي تولوز، وضفاف النهر الندية المخضوضرة التي طالما حدثوني عنها، ولا سيما كروم العنب المنتشرة في الضواحي، والتي يبدو سكان المدينة قاطبة فخورين ومسرورين بها، كما لو أنها ملك لهم جميعهم، لم يكن خليقاً أن أذهب على هذا النحو، وأنا لم أزر سوى جثث الأم هنروي، هذا لا يجوز! من باب اللياقة، في نهاية المطاف.

ضعفت أمام هذا الفيض من اللطف والود. ولكني لم أتجرأ كثيراً على الإصرار على البقاء، وأبديت الكثير من التمنع، بسبب المودة التي نشأت بيني وبين ماديلون، تلك المودة التي غدت محفوفة بالمخاطر. فقد بدأت العجوز في الارتياب بشيء ما بيننا. إزعاج حقيقي.

ولكن العجوز لم يكن بوسعها أن ترافقنا في تلك النزهة. إنها، في البداية لا تريد أن تغلق مدفنها، ولو ليوم واحد. وافقت إذن على البقاء، وها نحن ننطلق في صباح أحد جميل إلى البرية. كان كل منا، أنا وماديلون نمسك روبنسون، من أحد ذراعيه فيما هو يسير بيننا، وحين وصلنا إلى المحطة، قطعنا تذاكر في الدرجة الثانية. كانت روائح السجق تفوح بقوة، مع ذلك، في مقصورتنا، مثلما في مقصورة الدرجة الثالثة. في إحدى القرى، واسمها سانت جان، نزلنا من القطار. وبدا على ماديلون كما لو أنها قد وجدت نفسها في منطقتها. فقد التقت على الفور بمعارف لها قادمين من كل مكان. كان النهار صيفياً رائعاً، كان علينا، ونحن نتنزه، أن نتحدث عن كل ما نراه لروبنسون «هنا توجد حديقة... هناك جسر وفوقه صياد مع صنارته... لم يصد الصياد

Twitter: @ketab_n

شيئاً.. انتبه إلى الدراجة...» كانت رائحة البطاطا المقلية، على سبيل المثال، تجتذبه بقوة، كان هو الذي جرنا نحو المحل الذي تباع فيه البطاطا المقلية لقاء عشرة قروش. كنت أعرف أن روبنسون كان يحبها دائماً، مثلما أحبها أنا أيضاً، ذلكم ولع باريسي، في حين أن ماديلون كانت تفضل الفيرموت، غير المشوب بالماء.

لم تكن الأنهار في الجنوب تجري كما يحلو لها، كانت تعاني كما يقال، بل إنها كانت دائماً على وشك الجفاف.التلال والشمس ، والصيادون، والأسماك، والقوارب، والحفائر الصغيرة، وأحواض الغسيل، والأعناب، وأشجار الصفصاف الباكية، وكل العالم، كان يرنو ببصره إلى الأنهار تلك برجاء، يتوسل إليها... كانوا يطلبون الكثير جداً من المياه، ولهذا لم يبق منها في سرير النهر إلا القليل. وحين تنظر إليها في بعض المواضع يخيل إليك أنك ترى طريقاً مغموراً ببعض الماء أكثر مما ترى نهراً حقيقياً. وما دمنا قد قدمنا للتسلية فقد كان علينا الإسراع في العثور على مكان على الضفاف، وحالما انتهينا من البطاطا المقلية قررنا القيام بجولة صغيرة بالقارب، قبل الغداء... كان ذلك مبهجاً... كنت أنا أجدف بالطبع. وكان كلاهما يجدفان في الجهة المقابلة، يده في يدها، روبنسون وماديلون.

ها نحن ننساب مع تيار الماء، يحتك القارب بقاع النهر، هنا وهناك، هي بصرخاتها الصغيرة، وهو، غير مطمئن تماماً. ذباب، وأيضاً ذباب.. ويعاسيب في كل مكان، تراقب النهر بعيونها الكبيرة، وتحرك أذنابها الدقيقة الجافلة.. ثمة حرارة مدهشة تجعل البخار يتصاعد فوق السطوح، كنا ننزلق فوق الدوامات الطويلة المنبسطة تحتنا، وفوق الأغصان الميتة.. وعلى مستوى الضفاف، كنا نمضي، باحثين عن نفحات ظل نلوذ به تحت أشجار

Twitter: @ketab_n

لاتخترقها أشعة الشمس.. كان الكلام يخلق مزيداً من الحرارة أيضاً، لم تكن نجرؤ على القول كذلك، بأننا قد تعبنا. كان روبنسون أول من أعياه التجديف.. ذلك طبيعي. فاقترحت حينئذٍ أن نتوقف عند أحد المطاعم المنتشرة على الضفاف. لم نكن نحن الوحيدين الذين خطرت لهم تلك الفكرة. كان كل صيادي الأسماك في منطقة شلال النهر قد حطوا رحالهم في المطعم قبلنا، منهمكين في الشراب. لم يكن روبنسون يتجرأ على أن يسألني إذا ما كان المقهى الذي اخترته غالياً، ولكني وفرت عليه مؤونة هذا القلق، على الفور، وطمأنته بأن كافة الأسعار كانت مسجلة فوق لوحة، وهي معقولة جداً. كان ذلك صحيحاً، ولم يترك هو يد ماديلون.

من أجل قضاء فترة ما بعد الظهرة، وترتيب جولة صيد مع روبنسون كان الأمر معقداً جداً... كان ذلك سيثير حزنه، مادام أنه سيعجز عن رؤية طوافة صنارته.. ولكنني كنت قد وصلت إلى حد الإنهاك من التجديف، من جراء تجديف الصباح فقط. هذا يكفي، لم يعد لدي القوة التي كانت لي أثناء عبور أنهار أفريقيا. لقد شخت في هذا الجانب مثلما في كل الجوانب الأخرى.

ولكي أغير هذه التمرينات أكدت بأن نزهة صغيرة على الأقدام على امتداد حافة النهر كانت ستفيدنا كثيراً، أو على الأقل، صوب تلك الحشائش العالية التي كنا نلاحظها على بعد كيلو متر تقريباً. بالقرب من حاجز أشجار الجوز.

انطلقنا ثانية، كنت أقود روبنسون من ذراعه فيما كانت ماديلون قد سبقتنا بضع خطوات. كان ذلك أسهل، من أجل التقدم وسط الحشائش. وعند إحدى ثنيات النهر، تناهت إلينا أصوات أوكورديون صادرة من قارب، قارب جميل كان يرسو في ذلك المكان من النهر، استرعت الموسيقا انتباه روبنسون. كان ذلك مفهوماً في مثل حالته، فقد كان دائماً ضعيفاً إزاء

Twitter: @ketab_n

الموسيقا.. سررنا إذن لوقوعنا على شيء ما يبهجه. وحططنا رحالنا فوق ذلك العشب والذي كان أقل تلوثاً بالغبار من عشب حافة النهر القريبة منا.

لا حظنا بأن ذلك القارب لم يكن عادياً. كان نظيفاً متقن الصنع، قارب للإقامة والنزهة، وليس للشحن، مزداناً بالورود. في داخله كوخ صغير مزين للكلب.. شرعنا نصف القارب لروبنسون كان يريد معرفة كل شيء..

«أريد فعلاً، أنا أيضاً، أن يكون لي قارب نظيف جداً مثل هذا. قال روبنسون، وأنت؟ وجه سؤاله إلى ماديلون...

– أنا أفهمك، هيا! أجابته ماديلون.. ولكن هذه فكرة أغلى مما تستطيع أن تدفعه يا ليون، هذا أغلى بكثير جداً، من ثمن بيت من بيوت الأجرة، أنا متأكدة من ذلك..

شرعنا ونحن في موقعنا ذاك نفكر في الثمن الذي يمكن أن يدفع لشراء قارب مثله، ولم ننته من تقديراتنا تلك... كان كل منا مصراً على الرقم الذي طرحه... من عادة الناس أن يقدروا الثمن عالياً جداً، في كل شيء.. كانت موسيقا الأوكورديون تصل إلينا رخيمة خلال تلك اللحظات... وأخيراً رأينا جميعاً بأن ثمنه لا يقل بالتأكيد عن مائة ألف فرنك... وهو ما يغري بالأحلام.

«أغلقي عينيك الجميلتين لأن الساعات قصيرة..

إلى موطن السحر والفتون، إلى موطن الأحلام العذاب...»

ذلك ما كانوا يغنونه داخل القارب، أصوات رجال ونساء مختلطة، ناشزة بعض النشاز، ولكنها بالغة الروعة مع ذلك، بسبب المكان، كان ذلك ينسجم مع دفء المروج، ومع الساعة التي كنا فيها، ومع النهر. أصر روبنسون على تقدير ثمن القارب بالألوف، ومئات الألوف كان يجد أنه يساوي أكثر من ذلك أيضاً، بحسب وصفنا له، فقد كان سطحه مزججاً، لكي

Twitter: @ketab_n

يغمره النور، ويرى من بداخله الأفق بوضوح. وكان النحاس يغلف جدرانه، كان باذخاً كل البذخ.

«أنت تتعب نفسك يا ليون. حاولت أن تهدئه ماديلون. من الأفضل أن تتمدد، على العشب الكثيف تحتك، ليس لك ولا لي أيضاً مثل هذا الترف، أليس كذلك؟ لا يستحق هذا في الحقيقة أن تهتاج وتتحمس..»

ولكنه كان متمدداً، وكان مهتاجاً، مع ذلك بسبب ثمن القارب الذي كان يرغب بكل قوة في أن يعرفه، ويحاول رؤية القارب الذي كان ثمنه غالياً جداً..

«هل له محرك؟..» سأل روبنسون. لم نكن نحن نعرف. كنت أنظر إلى مؤخرة القارب، ما دام كان مصراً على ذلك. لا لشيء إلا لكي أسرّه، كي يرى إن كنت أميز وجود قناة للمحرك.

«أغلقي عينيك الجميلتين.. فالحياة ليست سوى حلم.

الحب ليس سوى كذبة نحلم بها.

أغلقي عينيك...»

كانوا يواصلون الغناء على هذا النحو،أولئك الذين كانوا داخل القارب وأخيراً، أصابنا الإعياء واستسلمنا للنوم.

في لحظة من اللحظات، قفز الكلب السنبيلي خارج كوخه، وبدأ ينبح فوق جسر القارب، باتجاهنا، أيقظنا نباحه بشيء من الارتعاش، فزجرناه بعنف. أما روبنسون فقد اعتراه الخوف.

خرج شخص، يبدو أنه مالك القارب وأطل من الباب الصغير ثم تقدم فوق الجسر، لم يكن يرغب أن نزجر كلبه. فشرحنا له ما حدث. ولكنه حين عرف بأن روبنسون كان أعمى تقريباً، هدأ فجأة، بل إنه وجد نفسه مغفلاً، وغير رأيه بصدد تعنيفنا، وتخلى عن فظاظته، راغباً في إصلاح الأمور.

Twitter: @ketab_n

ورجانا من قبيل التعويض بأن نذهب لتناول القهوة داخل قاربه، لأنه كان يحتفل في ذلك اليوم بعيد زواجه. لم يعد يقبل أن نبقى هناك تحت أشعة الشمس، نتلطى بحرارتها، وكيت وكيت... وقد جاء ذلك في الوقت المناسب تماماً. كانوا ثلاثة عشر حول الطاولة.. شاب في مقتبل العمر هو المعلم، صاحب أهواء ونزوات. كان يحب القوارب كما شرح لنا.. وفهمنا ذلك في الحال، غير أن زوجته كانت تخشى النهر، وإذن فقد أوقفا قاربهما هنا. فوق الحصى تقريباً. بدوا مسرورين باستقبالنا، الزوجة بادئ بدء مخلوق جميل، كانت تعزف على الأوكورديون، مثل ملاك، كانت ودودة، مع ذلك، حين دعتنا لتناول القهوة، كان بوسعنا الآن أن نظهر أنفسنا في الصورة التي نشاء، فقد أولونا ثقتهم، في النهاية. وأدركنا على الفور بأنه لا ينبغي لنا أن نسبب الخزي لهذين المضيفين الفاتنين.. ولاسيما أمام مدعويهم، كان لدى روبنسون الكثير من العيوب، ولكنه كان عادة، فتى حساساً.. لم يكن في داخل قلبه سوى الأصوات تتردد، وقد أدرك بأن علينا أن نتماسك، وأن لا نبدي فظاظة أو فحشاً في القول. لم نكن نرتدي ثياباً أنيقة بالتأكيد، ولكننا كنا مع ذلك نظيفين ولائقين للغاية. تفحصت المعلم صاحب القارب عن كثب. كان خليقاً أن يكون في نحو الثلاثين من العمر. يزينه شعر أسمر جميل شاعري، وبدلة أنيقة من نوع بدلات البحارة، ولكنها في غاية الإتقان. أما زوجته الحسناء فكان لها عينان رائعتان من المخمل..

كان غداؤهم قد انتهى للتو، وظلت منه على الطاولة بقايا وفيرة. لم نرفض تناول قطعة صغيرة من الكاتو، ولكن لا. وأقداح من البورتو معها. منذ زمن طويل لم أسمع أصواتاً بهذه الرخامة والفرادة. كانت لهم طريقة خاصة في الكلام، طريقة الأشخاص المتميزين التي تبعث الوجل في نفسك، والتي كانت

Twitter: @ketab_n

تثير في داخلي الخوف، بصورة خاصة، ولا سيما نساؤهم. لم يكن كلامهم، مع ذلك سوى جمل سيئة الصياغة، ومدّعية، ولكنها مصقولة لامعة مثل أثاث قديم، كانت عباراتهم تثير الخوف بقدر ما كانت غير مؤذية. كنت أخشى أن أنزلق فوقها، حين أجيبهم فقط. وحتى حين يتخذون لهجة سوقية كي يغنوا أغاني الفقراء، على سبيل التسلية فإنهم يحتفظون بتلك اللهجة المتميزة، التي تثير فيك الريبة والقرف، لهجة تبدو كما لو أن في داخلها سوطاً صغيراً،على الدوام، مثلما يحتاج الأمر دائماً إلى سوط للتحدث مع الخدم، ذلك مهيج. ولكنه يحرضك في الوقت ذاته على أنْ تشمر ثياب نسائهم كي ترى عزة نفوسهم تذوب كما يقال.

شرحت لروبنسون طراز الأثاث الذي فرشت به حجرة القارب، كان طرازاً قديماً بكامله ذكرني إلى حد ما بحانوت أمي، ولكنه أكثر نظافة، وأفضل تنظيماً بالطبع.. فحانوت أمي كان يفوح برائحة بهار قديم..

بعد ذلك، رأينا لوحات المعلم صاحب القارب معلقة على حواجز في كل مكان. كان رساماً. كانت الزوجة هي التي أخبرتنا بذلك، وبألف طريقة أيضاً. كانت زوجته مولهة به، لم يكن ذلك خافياً، كان المعلم فناناً، نساء جميلات، شعور جميلة، إيرادات وفيرة، كل ما يلزم ليكونوا سعداء، تبهج قلوبهم أنغام الأكورديون المنسابة، والأصدقاء، والأحلام فوق القارب، فوق المياه القليلة العمق التي تجري من تحتهم.. سعداء جداً بأن لا يرحلوا عن هذا المكان... كانوا يملكون كل شيء في قواربهم وفي بيوتهم، كل ما هو حلو المذاق، ونداوة العالم النفيسة، تتسرب من بين «السجف»، ونسمات المراوح، وأمن السماء.

ما دمنا قد وجدنا أنفسنا هنا فقد كان علينا. أن ننخرط في الجمع، شراب مثلج، وفريز بالكريما في البداية، تحليتي المفضلة، كانت ما ديلون تثني جذعها كي تتناول الفريز مرة بعد مرة، هي أيضاً. وقد أبدت الآن كثيراً من ضروب

Twitter: @ketab_n

اللباقة والظرف. كان الرجال في المركب يجدونها لطيفة، ولا سيما والد الزوجة الذي كان واسع الثراء كما يبدو. كان مسروراً جداً بوجود ماديلون إلى جانبه، يتحرك بحمية كي يظهر أمامها لطيفاً محبباً، وراح يقرب لها كل أنواع الطعام والحلوى. وكانت هي تغطس وجهها بالكريما حتى طرف أنفها. من خلال الحديث مع والد الزوجة تبين لنا أنه أرمل، ولكنه نسي الآن ذلك، من دون شك. ثم ما لبثت ماديلون أن ثملت ودب السكر في أوصالها. كانت البدلة التي يرتديها روبنسون، وكذلك بدلتي قد أبلاها طول الاستخدام، وتوالي الفصول، غير أننا في الركن الذي نحن فيه كان يصعب رؤيتنا بوضوح، كنت أشعر مع ذلك بشيء من الصغار وسط الآخرين، المرفهين، والنظيفين مثل أمريكيين، مستحمين أحسن استحمام، متزيين بأجمل الأزياء، مستعدين للدخول في مسابقة للأناقة.

ماديلون النشوى والجذلة لم تعد تحس بأنها على ما يرام، كانت تتفوه بحماقات، وهي تتطلع نحو اللوحات المرسومة...

بدأت المضيفة، التي أحاطت قليلاً بالوضع، بالعزف على أكورديونها كي تلطف الجو وتضفي عليه الانسجام، فيما كان الجميع يغنون، ونحن أيضاً، ولكن بصوت خفيض، وبكثير من النشاز، تلك الأغنية ذاتها التي سمعناها ونحن في الخارج، قبل وقت قليل، وأغنية أخرى أيضاً.

وجد روبنسون وسيلة لينخرط في حديث مع السيد العجوز الذي بدا ملماً غاية الإلمام بزراعة الكاكاو. موضوع جيد، كان هناك الآن في القارب مستوطن في المستعمرات، لا بل مستوطنان. «حينما كنت في إفريقيا، سمعت روبنسون يؤكد، مثيراً دهشتي الشديدة، كنت مهندساً زراعياً في شركة بوردورييز. كرر روبنسون ذلك، وقد دفعت سكان قرية بكاملها إلى الجني... إلخ». لم يكن بوسعه أن يراني وهو يتكلم وانخرط في الحديث بانشراح... ما وسعه ذلك... ذكريات مبتدعة... أثارت إعجاب السيد العجوز إلى أقصى

Twitter: @ketab_n

حد.. أكاذيبَ. كل ما كان يخطر له كي يضع نفسه في مستوى العجوز المنافس. كان روبنسون متوازناً إلى حد كاف خلال حديثه، ولكنه كان يقلقني ويكدرني أيضاً فيما هو يهذي على هذا المنوال.

أجلسوه تكريماً له في صدر ديوان ضخم يضوع بالعطر، ثمة قدح من أفخر المشروبات في يده اليمنى، فيما كان يستحضر بحركات واسعة من يده اليسرى جلال الغابات العذراء، وثورانات الأعاصير المدارية.

ليس ثمة ما يقال. إن تكلمنا عن الراحة والسعادة، فقد كنا مرتاحين وسعداء في قاربهم، لاسيما أن ريحاً نهرية بدأت تهب، وتتسلل من النوافذ لتموج الستائر ذات الثنيات الأنبوبية، على غرار رايات ترفرف مع هبات ريح طرية.

أديرت من جديد أطباق المثلجات، ثم أقداح الشمبانيا.. إنه عيد زواج المعلم. كرر المعلم ذلك مئة مرة.. ولابد له من توفير السعادة، مرة واحدة، للجميع، وحتى للعابرين في الدرب، لنا نحن، لمرة واحدة. وخلال ساعة من الزمن، ساعتين، ثلاثة، سنغدو ربما جميعاً متآلفين متناغمين تحت ظله، سنغدو جميعاً أحباء، المعروفون منا، والآخرون والغرباء. وحتى نحن الثلاثة الذين اصطادونا من على ضفة النهر، لعدم توفر من هم أفضل منا، حتى لا يكونوا ثلاثة عشر فقط حول الطاولة. كنت على وشك أن أبدأ في غناء أغنيتي الصغيرة المرحة، ثم عدلت عن ذلك، وشعرت بالفخر فجأة، وبالصحو، ووجدت من المناسب من أجل تبرير دعوتنا أن أكشف لهم، على الرغم من كل شيء، بعد أن دارت الخمرة في رأسي، بأنهم بدعوتهم لي شخصياً، فقد دعوا واحداً من الأطباء الأكثر شهرة وتميزاً في منطقة باريس، لم يكن بمقدور هؤلاء الأشخاص أن يساورهم الشك بنا، بعد الإعلان عن نفسي بوضوح، ولا بضآلة شأن رفيقيّ أيضاً. وما أن سمعوا ذلك، حتى عبروا عن إعجابهم البالغ، وغمروني بالإطراء

Twitter: @ketab_n

دون تأخير، وبدأ كل منهم يسرّ لي بمتاعبه الجسدية. وانتهزت الفرصة كي أتقرب من ابنة أحد المتعهدين، قريبة صغيرة حسناء لصاحب القارب قوية البنية، تشكو بالتحديد من طفح جلدي ومن تجشؤ ترافقه حموضة دون سبب واضح.

حينما لا تكون معتاداً على المآكل الشهية، وعلى الرفاهية فإنك سرعان ما تثمل.. وحينذاك فإن الحقيقة لا تطلب شيئاً سوى أن تهجرك، يحتاج الأمر دائماً إلى القليل جداً كي تتحرر منها. ولا يعود المرء مبالياً بحقيقته، وسط تلك الوفرة المفاجئة من المتع واللذائذ. تستحوذ عليك حمى شديدة من جنون العظمة، بيسر بالغ. بدأت بدوري أهذي، وأنا أحدث القريبة الصغيرة عن طفحها الجلدي، كنت أتخلص من وضاعتي اليومية، محاولاً، على غرار روبنسون، الارتقاء إلى عالم الناس الأثرياء، من خلال الأكاذيب، التي هي نقود الفقراء.. الفقراء المثقلون بالخجل من لحمهم المعروض ببؤس، ومن هيكلهم المتداعي. لم يكن بوسعي أن أقرر إظهار حقيقتي لهم، كان علي مهما كلف الثمن، أن أخلق انطباعاً طيباً في نفوسهم، بدأت أجيب على أسئلتهم بابتداعات محضة، على منوال روبنسون حينما كان يكلم السيد العجوز قبل قليل.. واكتسحتني الخيلاء بدوري.. وزبونتي الرائعة.. والإرهاق.. وصديقي روبنسون.. والرسام الذي قدم لي الضيافة الكريمة في منزله البحري وتولوز.

ما أن شرب الضيف جيداً، وأكل جيداً، حتى غدا واثقاً من نفسه بسهولة. ولحسن الحظ فقد كان كل شيء يمر دون اعتراض. كان روبنسون قد سبقني إلى السعادة الخاطفة للأكاذيب المرتجلة، ولم يحتج الأمر، من أجل اقتفائه إلا إلى جهد يسير.

بسبب النظارات المدخنة التي يضعها روبنسون على عينيه، لم يتمكن أولئك الناس من أن يتبينوا بوضوح حالة عينيه. وعزونا بأريحية فائقة، الأذى

Twitter: @ketab_n

الذي لحق بعينيه إلى الحرب، ومنذئذٍ لذّ مقامنا وطاب، وارتقينا اجتماعياً، ومن ثم وطنياً إلى مقامهم. كان مضيفونا قد تفاجؤوا قليلاً في البداية، بنزوات الزوج، الرسام الذي كان وضعه الاجتماعي الراقي كفنان، يتيح له مع ذلك، من وقت لآخر، القيام بتصرفات غريبة غير مألوفة. وجعل المدعوون يعتبروننا تماماً، ثلاثتنا معاً أشخاصاً لطفاء وممتعين إلى أبعد حد.

لم تحرص ماديلون، كخطيبة لروبنسون على دورها هذا أمام الجميع، مثلما كان يتعين عليها، كانت تثير الجميع، بمن فيهم النساء بحيث تساءلت إن كل ذلك سينقلب إلى حفل جنسي جماعي، لا، فقد تبددت النوايا تدريجياً وتعطلت، بسبب الجهد اللاهث للمضي إلى ما وراء الكلمات، ولم يحدث أي شيء..

بقينا متشبثين بالكلمات وبالأرائك، وقد عمنا الذهول، من جراء سعينا جميعاً إلى أن نكون سعداء على نحو أشد عمقاً، وأعظم حرارة... سواء نحن أم الآخرون، سعداء بالروح حسب، بعد أن شبع الجسد، ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، أن نجتني كل سعادة العالم، في اللحظة الحاضرة. كل ما كنا نعرفه من مدهش في داخلنا وفي العالم.. كي يبدأ الجار بالاستمتاع أخيراً، كي يعترف لنا الجار، بأن هذا هو ما كان يبحث عنه مما هو معجز ورائع إلى حد الإبهار، وبأنه لم يكن ينقصه بالضبط، منذ سنين وسنين سوى هذه الهبة، كي يكون في النهاية سعيداً كل السعادة، وإلى الأبد... وأننا قد كشفنا له أخيراً عن مبرر وجوده الشخصي. وأنه لابد أن يذهب حينئذٍ ليقول للعالم أجمع، بأنه قد وجد مبرر وجوده، وبأننا سنشرب المزيد سوياً كي نحتفل ونسعد بهذه النعماء، وأن ذلك سيدوم إلى الأبد على هذا المنوال، وأننا لن نعود إطلاقاً على الأخص إلى تلك الأزمان الكريهة.. إلى ذلك الزمن الخالي من المعجزات، إلى الزمن الذي سبق تعارفنا، وأننا قد تلاقينا أخيراً على نحو بالغ الروعة.

Twitter: @ketab_n

لم يستطع المعلم أن يمنع نفسه عن قطع هذا السحر البهي. كان ثمة رغبة تستحوذ عليه في أن يحدثنا عن رسمه وعن لوحاته بحماس عارم، وبأي كلام يخطر له.. هكذا وبسبب هذه الحماقة التي استولت عليه، على الرغم من أننا سكارى، خيم علينا ابتذال جارف. ولشعوري بالهزيمة وجهت إلى المعلم بضع مجاملات حارة ومتألقة عن السعادة التي يشعر بها الفنانون، كان ذلك كل ما يحتاجه، فما أن تلقى مجاملاتي حتى كان ذلك أشبه بجماع. فقد انزلق نحو ديوان منتفخ من ديوانات سطح القارب، وغرق في النوم وعلى الفور، بهدوء، سعيداً بالطبع. كان المدعوون أثناء ذلك ما يزالون يتابعون مسابقات التفرس في الوجوه عبر نظرات رصاصية، وافتتان متبادل، تنوس بين وسن غير مرئي تقريباً وبين التلذذ بهضم دهني رائع.

وفّرتُ هذه الرغبة في النوم، واحتفظت بها إلى الليل، فالمخاوف التي يخلفها النهار غالباً ما تقصي النوم عن الجفون، وحينما يكون المرء محظوظاً في أن يوفر لنفسه، ما استطاع من ذخيرة من الغبطة، فسيكون غبياً بالتأكيد إن بددها في غفوات يسيرة مسبقة، كل شيء من أحل الليل. ذلكم هو شعاري. ينبغي التفكير بالليل طوال الوقت. وبعد ذلك فقد أصروا على بقائنا لمشاركتهم طعام العشاء، كانت ذلك هو زمن ترميم الشهية..

اغتنمنا فرصة الخدر الذي ألم بالجميع كي ننسل من المكان، خرجنا ثلاثتنا بحذر وتكتم، متحاشين المدعوين المهومين في النوم، والمنتشرين بلطف حول الأكورديون. والسيدة أيضاً، كانت عيون السيدة قد أذبلتها الموسيقا فراحت تطرف بحثاً عن الظل «إلى اللقاء قريباً جداً» قالت لنا، حينما مررنا بالقرب منها، وانتهت بسمتها في حلم.

Twitter: @ketab_n

مضينا بعيداً جداً، ثلاثتنا معاً، حتى ذلك المكان الذي كنت قد أشرت إليه عند كوع النهر، بين صفين من أشجار الجوز، أشجار تشمخ ذؤاباتها المستدقة نحو السماء. وهناك أشرفنا على واد عميق، ولاحت لنا على البعد أيضاً تلك المدينة الصغيرة، وسط ذلك المكان العميق الغور تتلوى حول برج للأجراس، منغرس مثل مسمار وسط حمرة السماء.

«في أية ساعة سنعود، عبرت ماديلون عن قلقها، على الفور».

«لا تقلقي. طمأنها روبنسون. سيصطحبوننا بسيارتهم.. هذا.. أكيد.. قال لي المعلم ذلك، لديهم سيارة..»

لم تعد ماديلون إلى الإلحاح، وظلت ساهمة تحلم بالفرح.. يوم رائع بحق..

«وعيناك يا ليون.. كيف حالهما الآن؟ سألته ماديلون.

ـ إنهما في حال أفضل. لا أرغب في أن أتحدث بشيء عنهما، لأنني لست متأكداً من ذلك، ولكنني أعتقد أنني بعيني اليسرى على الأخص، صرت أستطيع أن أعد الزجاجات على الطاولة. لقد شربت كمية لا بأس بها، هل لاحظت ذلك؟ كان ذلك ممتعاً..

- اليسرى، إنها جهة القلب، علقت ماديلون فرحة، كانت مسرورة جداً، ذلك مفهوم، كان يسعدها أن تتحسن حالة عينيه.

«هلم نتعانق إذاً» اقترحت عليه، كنت أشعر بأن وجودي فائض عن الحاجة بالقرب من هذا البوح بالعواطف. ومع ذلك، فقد كان يصعب علي الابتعاد، لأنني لم أكن أعرف بالتحديد إلى أين أذهب. تظاهرت بالذهاب لقضاء حاجة خلف الشجرة التي كانت لا تبعد كثيراً، وبقيت هناك متوارياً لأستمع إلى ما يدور بينهما من حديث، كان ما يبوحان به رقيقاً، كنت أسمع

Twitter: @ketab_n

عباراتهما المتبادلة، حوار حول الحب مسطح إلى أبعد الحدود، من المسلي دائماً مع ذلك أن تتعرف على الناس أكثر، لم أكن اسمعهما قط يتحدثان عن هذه الأشياء مثلما يتحدثان عنها الآن.

«هل تحبني فعلاً؟ سألته ماديلون.

- أحبك بقدر ما أحب عيني! أجابها روبنسون.

- هذا ليس قليلاً، ما قلته يا ليون... ولكن أنت لم ترني بعد يا ليون؟ لعلك حين تراني بعينيك، وليس فقط بعيون الآخرين، فلن تعود تحبني بهذا القدر؟ ففي تلك اللحظة سترى نساء أخريات، وربما ستميل إلى حبهن جميعاً؟ مثل أصدقائك؟..

تلك الملاحظة التي أفضت بها إليه، بهدوء، كانت موجهة إلي. لم أكن مخطئاً، كانت تخالني بعيداً، لا أستطيع سماعها.. وحينئذ وجهت إلي ضربة قوية.. لم تكن تضيع وقتها.. أما هو، الصديق روبنسون فبدأ يحتج.. «مثلاً..» قال لها، ليس ما تقولينه سوى افتراضات.. ثم استأنف!.

«أبداً، يا ماديلون! على الإطلاق.. كان يدافع عن نفسه. لست أنا من هذا النوع. ما الذي جعلك تعتقدين بأنني مثله؟.. أنا متعلق بك.. لست وغداً.. لقد قلت لك دائماً، بأنه ليس لدي سوى كلمة واحدة.. أقولها ولا أحيد عنها إلى الأبد، أنت جميلة، وأنا أدرك ذلك، ولكنك ستكونين اجمل بكثير أيضاً حينما أراك.. هل أنت سعيدة الآن؟ هيا كفكفي دموعك.. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك..

- هذا جميل يا ليون أجابته حينئذٍ، مكورة جسدها داخل جسده كانا يقسمان يمين الوفاء، لم يكن من الممكن إيقافهما، كانت السماء واسعة بما يكفي فوقهما.

Twitter: @ketab_n

«أريد أن تكوني دوماً سعيدة.. قال لها، بهدوء شديد لا أطلب منك أي شيء، ولك مني كل ما تطلبين...

– آه كم أنت طيب يا ليون، أنت أفضل مما كنت أتصور أيضاً.. أنت رقيق.. أنت وفي.. وأنت كل شيء..

– ذلك لأنني أعبدك يا حلوتي..

وراحا يتبادلان التسخين، ملتفين حول بعضهما.. ولكي يدفعاني بعيداً عن سعادتهما المتدفقة وجّها إلي طعنة قذرة..

بدأت هي أولاً: «الدكتور، صديقك إنه لطيف، أليس كذلك؟» أعادت الكرة.. «إنه لطيف.. لا أريد أن أقول أي شيء بحقه، ما دام صديقك.. ولكنه مع ذلك، رجل فظ مع النساء.. لا أريد أن أذكره بسوء ما دمت أعتقد حقاً بأنه يحبك فعلاً.. ولكنه في النهاية لن يكون من نوعي... سأقول لك... ألا يزعجك كلامي على الأقل؟» لا، لا شيء كان يزعج ليون، «إيه حسناً، يبدو لي بأن الدكتور، يحب كثيراً من النساء، على غرار الكلاب إلى حد ما، هل تفهمني؟.. ألا ترى أنت ذلك؟ إنه يبدو كمن يقوم عن امرأة ليقع على أخرى كما يقال... إنه يرتكب الفحش ثم يمضي، ألا ترى ذلك أنت؟ بأنه على هذا النحو؟

كان يرى النذل، كان يرى كل ما كانت تريده، كان يرى كل ما كانت تقوله صحيحاً كلياً، ومضحكاً، ومسلياً، كان يشجعها على المضي في حديثها، ويصدر حازوقات بين الفينة والفينة.

«نعم، صحيح ما لاحظته بشأنه يا ماديلون، إن فرديناند ليس سيئاً، ولكنه يفتقر كثيراً إلى الرقة واللطف، يمكن قول هذا، وليس وفياً بالإضافة إلى ذلك! أنا واثق من ذلك!

– لابد أنك تعرف بأن له عشيقات، أليس كذلك يا ليون؟

Twitter: @ketab_n

كانت الخبيثة تستكشف الأسرار.

«مثله مثل غيره، أجابها، بحزم، ولكن أنت تعلمين.. إنه في البداية، من السهل إرضاؤه..

كان لابد من خاتمة لهذا الكلام، وتكفلت ماديلون بذلك.

«الأطباء، هذا معروف، كلهم خنازير.. في أغلب الأوقات، ولكنه هو كما أعتقد، تافه في نوعه.

– لم تقولي يوماً كلاماً أكثر صواباً من قولك هذا «وافقها صديقي الطيب، صديقي السعيد، وتابع: «بصدد هذه النقطة، أنا واثق جداً، فلشدة ما هو ميال إلى النساء، فإنه يتناول عقارات ومخدرات، ومن ثم إذن، فهو يمتلك آلة والعياذ بالله، لو كنت ترين ضخامة حجمها، إنها غير طبيعية.

– آه.. آه! قالت ماديلون مرتبكة فجأة، وحاولت أن تتذكر شيئاً، هل تعتقد إذن بأنه سيصاب بأمراض، قل لي أنت؟ كانت قلقة جداً، وحزينة فجأة من جراء هذه المعلومات الشخصية الحميمة.

– بشأن هذا لا علم لي، كان روبنسون مضطراً أن يقر، لا أستطيع للأسف أن أؤكد أي شيء، غير أنه محظوظ في حياته التي يعيشها.

– مع ذلك، أنت على حق، لابد أنه يتناول مخدرات... بسبب ذلك فإنه يبدو غريباً في بعض الأحيان.

بدأ رأسها الصغير يعمل، ماديلون، على حين فجأة، ثم أضافت «سيكون ضرورياً، في المستقبل أن نرتاب به قليلاً..

– هل تخشين شيئاً مع ذلك؟ سألها روبنسون. هل له صلة بك على الأقل، هل حاول إقامة علاقة معك؟

Twitter: @ketab_n

- آه، لا، أنا لا أريد على الإطلاق، ولكن لا أدري أبداً ما الذي يدور في رأسه.. افترض مثلاً بأنه أصيب بأزمة. هؤلاء الأشخاص يصابون بأزمات من جراء المخدرات... لن أقبل في أي يوم من الأيام أن يعالجني..

- ولا أنا أيضاً وافقها روبنسون، وعند هذا الحد، بدأت الملاطفة والمداعبات.

«مدللي... مدللي، راحت تهدهد.

- معبودتي، معبودتي أجابها، ثم التحما ببعضهما وغرقا في عاصفة من القبل.

«قل لي بسرعة بأنك تحبني مرات ومرات قدر ما تستطيع، فيما أنا أضمك إلى صدري. كانت اللعبة الصغيرة قد بدأت بالعنق.

- لقد احمر وجهي، صاحت به وهي تلهث... أنا أختنق، دعني أتنفس قليلاً من الهواء، ولكنه لم يتركها تتنفس، ثم بدأ مرة أخرى، كنت وسط الحشائش أحاول أن أرى ما الذي يجري.. تناول حلمات ثدييها بين شفاهه، وراح يلهو بهما. أخيراً، قاما بألعاب صغيرة، وغشيت الحمرة وجهي أنا أيضاً، وهاجت مشاعري، ودهشت من الفضول الذي استحوذ علي.

«نحن الاثنين سنكون سعيدين، أليس كذلك، قل لي يا ليون؟ قل لي بأنك متأكد من أننا سنكون سعيدين؟»

كان ذلك فاصلاً للاستراحة، وكذلك لمشاريع المستقبل، التي لم ينتهيا منها، كما لو كانا يعيدان بناء عالم بكامله، ولكنه عالم لهما فقط. لم أكن أنا على الإطلاق داخله، يمكنني القول بأنهما لم يكفا عن التأكيد بأنهما سيتخلصان مني، وينظفا حياتهما الخاصة من أي ذكرى لي..

Twitter: @ketab_n

«منذ زمن طويل، أليس كذلك، وأنتما صديقان، أنت وفردَيناند؟» كان هذا الإلحاح يضايقه..

«منذ سنوات، نعم.. التقينا هنا.. وهناك.. أجابها روبنسون. التقينا في البداية بمحض الصدفة، خلال أسفارنا.. هو نمط من البشر يهوى رؤية البلدان.. وأنا أيضاً بمعنى من المعاني.. إذن فقد حدث ذلك كما لو أننا سلكنا معاً طريقاً واحداً، منذ زمن طويل... هل تفهمين؟» كان يعيد حياتنا إلى مجرد مصادفات تافهة.

«إيه حسناً، ستطويان إذن صفحة صداقتكما الحميمة، يا عزيزي اللطيف! ومنذ الآن أيضاً.. أجابته بتصميم حازم، وموجز. وواضح. هذا سينتهي! ألن ينتهي هذا يا عزيزي اللطيف؟ معي وحدي حسب، ستكمل طريقك الآن... هل تفهمني؟ وليس مع أحد غيري، يا ظريفي؟

- أنت غيورة منه إذن؟ سألها متردداً، مع ذلك، الأبله.

- لا.. لست غيورة منه... ولكنني أحبك جداً كما ترى يا ليوني. أريدك أن تكون لي كلياً... أن لا يشاركني فيك أحد... إنه فاسق جداً... أنت تفهم ذلك، قل لي بأنك تعبدني يا ليون! وأنك تفهمني؟

- أعبدك..

- حسناً

عدنا جميعاً إلى تولوز، في المساء ذاته.

وبعد يومين من ذلك وقعت الواقعة..

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> كان علي، مع ذلك الرحيل عن تولوز، وبينما كنت أحزم حقيبتي استعداداً للذهاب إلى المحطة.. سمعت شخصاً يهتف بشيء ما أمام المنزل، أصغيت إلى الصوت.. كان يطلب مني أن أسارع إلى النزول على الفور إلى المدفن. لم أكن ألحظ الشخص الذي يدعوني على ذلك النحو.. غير أنه من نبرة صوته بدا لي من المؤكد أنه ملهوف متعجل.. كان من الضروري الانطلاق على وجه السرعة كما فهمت منه..

«ألا يمكن الانتظار دقيقة إذن؟ هل المنزل يحترق؟» أجبت على الصوت، عازماً أن لا أتعجل الخروج... لقد حدث ذلك على الأغلب في الساعة السابعة قبل العشاء. كنت سأودعهم في المحطة وكان ذلك ملائماً تماماً، كانت العجوز في طريقها إلى المدفن، في تلك اللحظة، لتستقبل حجيج السائحين الذين كانت تنتظرهم في المدفن..

«هلم سريعاً يا دكتور.. كان الشخص الذي يناديني من الشارع ما يزال يهتف بإلحاح.. لقد وقعت مصيبة للعجوز هنروي.

«حسن.. حسن.. أجبته، سآتي على الفور. سأنزل... بالتأكيد!»

كنت بحاجة إلى بعض الوقت لأتمالك نفسي وأضفت: «اذهب أنت أمامي، قل لهم بأنني سأصل خلفك.. سآتي بسرعة... بعد ارتداء بنطالي..

- ولكن هذا مستعجل جداً! كان الشخص ما يزال يلح... لقد فقدت العجوز وعيها، أكرر لك، وكسرت عظمة في رأسها كما يبدو... سقطت من فوق درجات المدفن»..

Twitter: @ketab_n

«هذا جيد» قلت لنفسي وأنا أسمع هذا الخبر الجميل، لم أكن بحاجة إلى التفكير وقتاً طويلاً، انسللت، مباشرة، نحو المحطة، كنت قد حزمت أمري. كان قطاري ينطلق في السابعة والربع، مع ذلك. ولم أكن في حاجة إلى وداع أحد.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> ما لاحظه بارابين في البداية، حينما التقاني من جديد، هو ذلك الكدر والتجهم البادبين على سيمائي.

«ينبغي أن يكون التعب قد نال منك هناك في تولوز» علق بارابين متشككاً مثلما هو حاله دائماً.

صحيح أنني تعرضت هناك لانفعالات شديدة، في تولوز، غير أنه لم يكن يحق لي، في النهاية، أن أشكو، ما دمت قد تخلصت بأعجوبة، مثلما آمل على الأقل.. من سأم قاتل، ولذت بالفرار في اللحظة الحرجة..

شرحت لبارابين إذن المغامرة بالتفصيل، مع الشكوك التي كانت تساورني في الوقت نفسه، ولكنه لم يوافقني على أنني قد تصرفت بحكمة في ذلك الظرف... لم يكن الوقت يسمح لي مع ذلك بمناقشة الأمر. كانت مسألة العثور على عمل قد غدت ملحة جداً بالنسبة إلي في ذلك الوقت. ما من وقت أضيعه إذن في المزيد من الشروح والتعليقات. لم يعد في حوزتي سوى مائة وخمسين فرنكاً هي كل ما أدخره، ولم أعد أعرف قط أين أولي وجهي بعد الآن، كي أجد مأوىً لي. إلى تارابو؟.. ولكنهم لم يعودوا يشغّلون أحداً هناك. بسبب الأزمة الخانقة. إلى غارين رانسي إذن؟ أن أعود إلى معالجة المرضى؟ أمعنت التفكير في كل ذلك، على الرغم من كل شيء... كان ذلك هو أفضل الخيارات... رغم أني كنت أقبله على مضض مني.. ما من شيء ينطفئ مثل نار مقدسة. كان بارابين هو الذي مد لي في النهاية طوق النجاة من خلال موقع صغير عثر عليه في المشفى الذي كان يعمل فيه منذ شهور مضت.

Twitter: @ketab_n

كانت الأمور في ذلك المنزل ما تزال تجري على أحسن ما يرام، ففي ذلك المنزل لم يكن بارابين مكلفاً فقط بخدمة الأطفال القاصرين عقلياً خلال العروض السينمائية.. بل كان منشغلاً بالإضافة إلى ذلك بالصعقات الكهربائية.. ففي ساعات محددة ومرتين في الأسبوع كان يطلق زوابع مغناطيسية فوق رؤوس المعتوهين المتجمعين خصيصاً في حجرة محكمة الإغلاق، يغشاها ظلام دامس، وكل ذلك عبارة عن رياضة ذهنية في المحصلة، وتطبيقاً للفكرة الجديدة للدكتور باريتون، عرابه. كان شحيحاً جداً ذلك العراب الذي وافق على تشغيلي بأجر زهيد جداً، ولكن بعقد وشروط لاحصر لها، تصب كلها في مصلحته بالطبع.. رب عمل في المحصلة..

كنا في ذلك المستشفى لا نكاد نتقاضى أجراً، هذا صحيح، ولكننا كنا بالمقابل نتغذى بصورة حسنة، وننام في شروط مريحة جداً، وكان بإمكاننا أيضاً أن نتبادل العلاقات الجنسية مع الممرضات، كان هذا مسموحاً، شرط أن يكون بعيداً عن الأنظار بالطبع، لم يكن المعلم باريتون يرى ضيراً في مثل تلك التسليات. كان يلاحظ أيضاً بأن هذه التساهلات الجنسية تشد رباط كادر العاملين إلى المشفى. لم يكن غبياً، ولا قاسياً.

ومن ثم فإن تلك اللحظة لم تكن، في الواقع، لحظة طرح التساؤلات والشروط، في الوقت الذي كانت تقدم لي قطعة بفتيكي الصغيرة، التي جاءت في وقتها تماماً. حينما أفكر في الأمر لم أكن لأتوصل بنحو جازم إلى إدراك السبب الذي جعل بارابين يوليني هذا الاهتمام الكبير المفاجئ. كان سلوكه معي يبعث غلى القلق.. هل أنسب إليه، إلى بارابين، مشاعر أخوية... كان هذا تجميلاً له إلى حد بعيد. لابد أن الأمر كان أكثر تعقيداً. غير أن ذلك قد حدث.

Twitter: @ketab_n

على مائدة الطعام عند الظهر.. كنا نلتقي جميعاً.. كان ذلك هو العرف السائد. كنا نتحلق حول باريتون، معلمنا، طبيب الأمراض العقلية المحنك.. لحية مستدقة، أفخاذ قصيرة ولحيمة، لطيف المعشر، غير أنه بصدد موضوع التوفير، كان مضرب المثل، ولا سيما حين كان يجد ذريعة أو فرصة إلى ذلك..

بسبب المعكرونة، ونبيذ بوردو اللاذع، فقد أفسدنا باريتون أيما إفساد.. يمكنني قول ذلك. كروم عنب بكاملها آلت إليه كميراث. كان قد أسهب لنا في الحديث عن ذلك. يا لتعسنا! كان يملك مصنع نبيذ صغير، ذلك كل ما في الأمر..

مستشفاه في فينيه سورسين، قلما كان يخلو من المرضى، كان اسم المشفى «بيت الصحة» بارزاً فوق لافتة كبيرة، تحيط به حديقة كبيرة، يتنزه فيها مرضانا المعتوهون خلال النهارات الصاحية، متظاهرين على نحو مضحك، بأنهم يوازنون رؤوسهم فوق أكتافهم، كما لو أنهم يخشون دائماً من أن يريقوا ما بداخلها على الأرض، فيما هم يترنحون... كانت تلك الرؤوس مكتظة بكل أنواع الأفكار المتقلبة والغريبة والتي كانوا يحافظون عليها بحرص شديد..

لم يكونوا يحدثوننا عن كنوزهم العقلية... أولئك المعتوهون إلا بالكثير من التشنجات المذعورة أو من باب التسامح والتعطف، على منوال الإداريين المتشددين جداً والمدققين، كان من المستحيل إخراج هؤلاء الأشخاص من داخل رؤوسهم، ليس في رأس المجنون سوى أفكار عادية لأي إنسان، ولكنها حبيسة داخل رأسه، أما العالم فلا يدخل قط عبر ذلك الرأس، وهذا يكفي.. والواقع أن رأساً مغلقاً هو أشبه ببحيرة دون نهر. عفونة دون حد..

كان باريتون يمون المشفى بالمعكرونة والخضار من باريس، بالجملة، لذلك قلما كنا محبوبين من تجار فينيه سورسين، كانوا حاقدين علينا بالتأكيد،

Twitter: @ketab_n

فقد كان ذلك يؤرث لديهم الضغينة تجاهنا. حول مائدة الطعام، في بداية عملي، كان باريتون يلخص على نحو مطرد نتائج وفلسفة أحاديثنا المتهافتة، وبما أنه كان قد قضى حياته بين المختلين عقلياً، يكسب رزقه من العمل بينهم، ويقاسمهم حساءهم، ويلطف من خبلهم، فما من شيء كان يبدو له أكثر إملالاً من الحديث عن نزواتهم ووساوسهم خلال وجباتنا. «لا ينبغي أن يرد ذكرهم في أحاديث أناس طبيعيين» كان يؤكد على نحو دفاعي حاسم. وكان مصراً فيما يتعلق به على هذه القاعدة الصحية العقلية.

كان باريتون يحب الحوار، على نحو قلق تقريباً، كان يحب الحوار المرح والمسكن للهواجس، والمعقول، لم يكن يرغب في التركيز والإسهاب في الحديث عن المجانين، كان لديه نفور غريزي تجاههم، يكفيه مدى الحياة. قصص أسفارنا كانت تسحره بالمقابل. ولم أكن قط أعطيه ما يروي ظمأه منها... منذ وصولي تحرر بارابين من الثرثرة بنحو جزئي، وقد وصلت أنا في الوقت المناسب، لتسلية معلمنا خلال تناول وجبات الطعام. جميع رحلاتي رويتها له، وأعدت روايتها مرات ومرات، مرتبة بالطبع، مصوغة في قوالب أدبية مثلما كان الحال يتطلب، مثيرة مرحة. كان باريتون يصدر من لسانه ومن فمه ضجة عظيمة. كانت ابنته تجلس دائماً إلى يمينه على الرغم من سنيّها العشر.. كانت الصغيرة إيمي تبدو ذاوية على الدوام. شيء ما من الخمود والوهن، يدب في أوصالها، شحوب مزمن لا تخطئه العين،يغشى وجهها، كما لو أن غيمة صغيرة من السقم كانت تمر بلا انقطاع أمام ذلك الوجه الطفولي.

كان ثمة احتكاكات صغيرة تحدث بين بارابين وباريتون. غير أن باريتون لم يكن يحتفظ بأي ضغينة لأحد، ما دام لا يرتاب بأن له أية مصالح

Twitter: @ketab_n

في مشروعه.. كانت حساباته تشكل منذ زمن طويل، الجانب المقدس من وجوده.

ذات يوم وبينما كان بارابين يتحدث إليه أعلن له بارابين بغضب شديد، بأنه يفتقر إلى الأخلاق، أغضبت هذه الملاحظة باريتون في البداية، ثم سويت الأمور، كأن شيئاً لم يكن.. حينما كنت أروي قصص أسفاري كان باريتون يشعر ليس فقط بانفعال مجنح حالم، وإنما أيضاً بشعور من يقوم بتوفير المال.. «حينما أستمع إليك لا يعود لي حاجة إلى الذهاب لرؤية تلك البلدان، لفرط ما وصفتها وصفاً رائعاً يا فرديناند!» لم يكن بوسعه أن يفكر بمجاملة ألطف من هذه، يوجهها لي، لم نكن نستقبل في المشفى سوى المجانين الذين تسهل مراقبتهم، والإشراف عليهم، أما المجانين العدوانيون والمجرمون فلم نكن نستقبلهم على الإطلاق.

لم يكن مشفاه قط مكاناً كئيباً ومتجهماً، قليل من الشباك المعدنية، وبضع زنزانات فقط. كان الموضوع الأشد إثارة للقلق هو الصغيرة المعتلة الجسم، ابنته إيمي. لم تكن تُعدّ بين المرضى، تلك الطفلة. ولكن ذلك الوسط كان يسكنها..

بعض الصرخات العاوية، كانت تتناهى إلينا في صالة طعامنا بين وقت وآخر، ولكن مصدر تلك الصرخات كان دائماً خفياً ومتكتماً إلى حد كبير. كانت تستمر وقتاً قصيراً مع ذلك.. كنا نلاحظ أيضاً موجات طويلة ومفاجئة من الهيجان المفرط، كانت تجتاح المجانين من وقت إلى آخر، دون أية مناسبة. خلال تجوالاتهم التي لا نهاية لها بين مضخة الماء، وأجمات الشجر وأيكات أزهار البيغونيا. ثم ينتهي كل ذلك دون حوادث أو إنذارات من خلال حمامات فاترة وسيرومات مشبعة بالأفيون.

Twitter: @ketab_n

من بعض نوافذ غرف الطعام المطلة على الشارع كان ينطلق صراخ المجانين أحياناً، يثيرون قلق الجيران. ولكن ذعر هؤلاء المجانين يظل في داخلهم. كانوا منشغلين بهذا الذعر، يحتفظون به بنحو حميم، إزاء محاولاتنا العلاجية، كانت تلك المقاومة تستهويهم.

عندما أفكر الآن بجميع المجانين الذين عرفتهم في مشفى الأب باريتون لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشك بوجود كوابيس حقيقية في أعماق طبائعنا الدفينة، غير الحرب وغير المرض، ذينك الكابوسين اللانهائيين.

ربما كان العناء الثقيل لوجودنا في المحصلة، هو البلاء الذي نعانيه كي نظل عشرين سنة، أربعين سنة، وأكثر نعتبر أنفسنا عاقلين، كي لا نكون ببساطة، وعمق، نحن أنفسنا، أعني قذرين مدنسين. شرسين عبثيين. ثمة كابوس يجثم على صدورنا، حين نضطر إلى أن نقدم أشباه البشر العرج الذين هم نحن، على أنهم دائماً المثال الكلي، على أنهم فوق إنسانيين من الصباح حتى المساء.

كان لدينا في المشفى مرضى بمختلف الأجور والأسعار. كان الأكثر غنى منهم يظلون ملازمين حجراتهم المنجدة ببذخ، على طراز لويس الخامس عشر. كان باريتون يقوم كل يوم بزيارة صغيرة لهؤلاء المرضى الأغنياء، غالية الأجر جداً. كان هؤلاء ينتظرونه.

كان بارابين يظل متحفظاً على طاولة الطعام، ليس لأن نجاحاتي البلاغية أمام باريتون كانت تغيظه، على العكس من ذلك تماماً. كان يبدو بالأحرى أقل انشغالاً من السابق، أيام عكوفه على الميكروبات، بل ومسروراً تقريباً على وجه التحديد. لابد من ملاحظة أنه كان يشعر بالخوف الشديد بسبب قصصه مع الفتيات القاصرات. كان يظل مبلبلاً قليلاً إزاء الجنس. وفي ساعات فراغه كان يجوس حول مرج المشفى هو أيضاً مثل مريض، وحينما

Twitter: @ketab_n

كنت أمر بالقرب منه، كان يوجه لي ابتسامات صغيرة، ولكنها ملتبسة جداً، وصفراء للغاية، حتى ليخيل إلي، بأنها ابتسامات وداع.

حين قبل بنا باريتون، كلينا في الملاك الفني للمشفى فقد حقق مكسباً كبيراً، ما دمنا قد حملنا له معنا، ليس فقط كل إخلاصنا طوال الوقت، بل والتسلية أيضاً. وأصداء المغامرات التي كان شرهاً إلى سماعها ومفطوماً عنها. كان غالباً ما يسعده أن يبدي رضاه تجاهنا. ولكنه كان يعرب مع ذلك عن بعض التحفظات فيما يتعلق ببارابين. لم يكن على الإطلاق على وفاق كامل مع بارابين: «بارابين... لاحظ يا فرديناند.. قال لي ذات يوم بيني وبينه، إنه روسي. أن يكون المرء روسياً كان هذا يعني لدى باريتون شيئاً ما مورفولوجياً غير قابل للغفران، مثله مثل «مرض السكري» أو «اللغة الفرنسية الرديئة» وبعكوفه على هذا الموضوع الذي كان يقلقه منذ عدد من الشهور فقد بدأ بحضوري ولمصلحتي الخاصة في إعمال فكره والبوح بما يجول فيه. لم أكن أعرف باريتون معرفة جيدة. كنا نذهب معاً بين وقت وآخر إلى «مكتب التبغ» في البلدة لإحضار السجائر. «من الصحيح يا فرديناند؟ أن بارابين يبدو لي فتى في غاية الذكاء، هذا مؤكد ولكن ذكاء هذا الفتى اعتباطي كلياً، ألا ترى ذلك يافرديناند. فهو في البداية لا يريد التكيف.. هذا ما تلاحظه عليه فوراً، وهو أيضاً غير مرتاح إلى مهنته... وغير مرتاح كذلك في هذا العالم... أنت توافقني الرأي... ولكنني أرى هنا بأنه مخطئ! مخطئ كلياً، ما دام يعاني ويتألم... ذلك هو الدليل. لاحظ يا فرديناند كم أنا متكيف «شرع يربت بيده على قفص صدره». إذا بدأت الأرض غداً على سبيل المثال بالدوران في الاتجاه المعاكس، إيه حسناً! ماذا أفعل؟ سأتكيف يافرديناند، وللتو أيضاً. وهل تعلم كيف يا فرديناند؟ سأنام نومة طويلة لمدة اثنتي عشرة ساعة على الأكثر، وهذا كل

Twitter: @ketab_n

شيء! نعم سأتكيف! في حين أن بارابينك في وضع كهذا.. هل تعرف ما الذي سيفعله؟ سيجتر خططاً ومرارات طوال مئة عام. أنا واثق من ذلك أقول لك. أليس هذا صحيحاً تماماً؟ إنه سيفقد النوم فجأة ما إن تبدأ الأرض بالدوران بالمقلوب. سيرى، في ذلك لا أدري أي ظلم خاص!... ظلم لا حد له!... ذلك هو وسواسه، الظلم... لقد كان يحدثني كثيراً عن الظلم في الفترة التي كان ما يزال يتنازل فيها ويكلمني. وهل تظن أنه سيكتفي بالتباكي بسب الظلم؟.. سيكون ذلك نصف مصيبة! ولكن لا! سيبحث حالاً عن وسيلة ليخسف الأرض كي ينتقم يا فرديناند! والأسوأ من ذلك، سأقول لك ما هو الأسوأ إيه حسناً، إنه سيجد الوسيلة مثلما أقول لك! آه! حاول يا فرديناند أن تعي ما سأشرحه لك.. هناك مجانين بسيطون. وهناك بالمقابل مجانين آخرون. أولئك الذين يعذبهم هوس الحضارة. من الفظاعة بالنسبة لي التفكير بأن بارابين واحد من هؤلاء. هل تعلم ما قاله لي ذات يوم.

- لا يا سيدي..

- إيه حسناً، لقد قال لي «لا يوجد بين قضيب الرجل وبين الرياضيات يا سيد باريتون أي شيء على الإطلاق. ثمة الفراغ». ثم إليك أيضاً!.. هل تعلم ما الذي ينتظره كي يعاود التحدث معي من جديد.

- لا يا سيد باريتون، لا، لا أعرف شيئاً على الإطلاق..

- ألم يحدثك إذن عن ذلك.

- لا، لم يحدثني بعد..

- حسناً لقد قال لي بأنه لن يكلمني حتى يحل عصر الرياضيات، بكل بساطة... إنه مصمم قطعاً! ما رأيك بهذه الطريقة الوقحة التي يتصرف بها تجاهي، صديقك الأكبر سناً. رئيسك؟...»

Twitter: @ketab_n

كان لابد من أن أبدأ ببعض الدعابة حتى أنهي هذه الفانتازيا الفظيعة التي كانت تدور بيننا، غير أن باريتون لم يعد يقبل مثل هذه السفاسف، ووجد الوسيلة ليصب سخطه على عدد من الأشياء الأخرى.

«أه يا فرديناند! أنا أرى بأن كل هذا لا يبدو في نظرك سوى تفاهة محضة، أقوال ساذجة، ترهات مشتطة، وأشياء أخرى... هذا ما يبدو أنك قد استخلصته. هذا فقط.. أليس صحيحاً؟ آه، يا فرديناند الطائش! دعني، بالمقابل، أحذرك بكل عناية من هذا النهج في النظر إلى المظاهر فقط، أؤكد لك بأنك على خطأ كلياً!... أنت مخطئ تماماً!... مخطئ ألف مرة... في الحقيقة.. صدقني يا فرديناند بأنني خلال مسيرة عملي سمعت تقريباً كل ما يمكن سماعه هنا وفي أماكن أخرى من هذيانات باردة وساخنة! لم يفتني أي شيء!.. أنت ستصدقني يا فرديناند أليس كذلك؟ ولم أعط الانطباع أيضاً في أي يوم من الأيام، وهذا ما لاحظته أنت بالتأكيد، بأنني ميّال إلى الجزع... أو إلى المغالاة، لا، أليس كذلك؟ إن قوة الكلمة وحتى العديد من الكلمات، وحتى الجمل والكلام بأكمله لم تؤثر يوماً في الحكم الذي أصدره، ولكوني بسيط جداً منذ الولادة، وبالفطرة، فإنني كنت دائماً واحداً من أولئك البشر الذين لا تخلف الكلمات في نفوسهم أي خوف!.. إيه حسناً يا فرديناند. بعد تحليل دقيق ومنصف بشأن بارابين أجد نفسي مضطراً إلى الاحتراس منه.. وإلى إبداء أشد التحفظات صراحة. إن شذوذه لا يشبه تلك الشذوذات المسالمة والمألوفة، ولكنه ينتمي، كما بدا لي، إلى واحد من أشكال الشذوذ النادرة الخطرة، إلى إحدى تلك الأهواء الغريبة المعدية بسهولة.. الاجتماعية والظافرة باختصار. لعل حالة صديقك ليست هي الجنون كلياً... لا! ربما ليست هي سوى اليقين المفرط. ولكنني خبرت حالات من الاختلالات العقلية المعدية.. عرفت عدداً

Twitter: @ketab_n

كبيراً منها.. أنا الذي أحدثك يا فرديناند... لأولئك الذين يشعرون باليقين المطلق، ومن مختلف المنابع أيضاً... إن أولئك الذين يتحدثون عن العدالة، يبدون لي، في المحصلة، أكثر الكائنات سعاراً... أنصار العدالة هؤلاء، في واقع الحال، لا يعنون لي الكثير، أعترف لك... إنهم يقلقونني الآن، يثيرون سخطي إلى أبعد حد، أولئك الممسوسون، أليس هذا هو رأيك؟.. لقد اكتشفت لدى الناس ما لا أدري من سهولة في التحول إلى هذا الجانب الذي يثير خوفي، لدى جميع الناس، هل تسمعني؟.. لاحظ هذا يا فرديناند! لدى الجميع! مثلما إلى الكحول أو الشبق! ثمة استعداد لذلك، حتمية قدرية شائعة إلى أبعد مدى... هل تمزح يا فرديناند؟ أنت تخيفني إذن بدورك! أنت ضعيف! سريع العطب! رخو! خطر يا فرديناند! ولكنني أفكر بأنك جاد فعلاً، لا تنس أنني مسن يا فرديناند. يمكنني أن أسمح لنفسي بعدم الاكتراث بالمستقبل، سيكون ذلك مسموحاً لي بالتأكيد".

مبدئياً، وبنحو مستمر، وفي كل الأمور كنت أوافق معلمي وأجاريه في رأيه، لم أكن قد أحرزت تقدماً عملياً، خلال حياتي المضطربة، ولكنني تعلمت مع ذلك المبادئ الصالحة لآداب الخضوع والعبودية. وفجأة وبفضل هذه الحوارات، توثقت علاقتنا، وغدونا قريبين من بعضنا إلى الأبد، لم أكن قط مستاء من ذلك، كنت قليل الطعام على الطاولة.. معاوناً لطيفاً في المحصلة، مقتصداً كلياً، وغير طموح للحصول على قرش واحد. وغير خطر على الإطلاق.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> تقبع قرية فينيه سورسين بين تلين اثنين، عاريين، من الخضرة. ينسل ريشها يوماً بعد يوم بانتظار أن تبتلعها باريس.

إنها تفقد حديقة كل شهر. لوحات الدعاية لفرقة البالية الروسية تزين شوارع القرية بدءاً من مدخلها. ليس ثمة سوى الترام يخترق شوارعها مصراً على أن يغدو تاريخياً، وهو لن ينتهي إلا بثورة. الناس يعتريهم القلق، والأولاد لم يعودوا يتحدثون بلهجة آبائهم. المعجزة تتحقق، آخر قطعة خضراء اختفت من الوجود مع مجيء لافال. والخادمات المياومات رفعن أجورهن عشرين سنتيماً كل ساعة في أوقات العطل. جابية مركز البريد تشتري روايات لوطية معتقدة أنها روايات واقعية. يقول الخوري طز، متى يشاء، ويعطي نصائح للبورصة، لأولئك الذين يتمتعون بحكمة كافية. السين قتل أسماكه، وغدا أمريكياً، بين صفين من الصبابات- الجرارات -الرافعات التي تشكل منه على مستوى الضفاف ما يشبه طقم أسنان من أكوام العفونة وخردة الحديد... ثلاثة من فرّازي الأراضي دخلوا السجن. الأحوال تنتظم.

لم يفلت هذا التحول العقاري المحلي من باريتون. إنه يتحسر الآن بمرارة لأنه لم يقم بشراء المزيد من الأراضي في الوادي المجاور، قبل عشرين عاماً خلت، حين كانوا يتوسلون إليك أن تشتري متر الأرض بأربعة قروش، أي ما يعادل ثمن فطيرة غير طازجة. تلكم أزمان الحياة الرخية الماضية... ولحسن الحظ فإن معهده لعلاج الأمراض العقلية كان ما يزال يدافع عن نفسه بقوة، ولكن ليس من دون صعوبة. لم تكف العائلات النهمة

Twitter: @ketab_n

عن مطالبته وبإلحاح شديد أيضاً، ودائماً، بطرائق أكثر جدة في العلاج، وأكثر كهربائية. وأكثر سحرية ، وأكثر من كل شيء.. بإوالية أحدث على الأخص، وأجهزة أشد إدهاشاً، وعلى الفور أيضاً، وتحت طائلة أن يتجاوزه الآخرون في معركة المنافسة الطاحنة، بدأت تلك المعركة.. عبر مشاف مماثلة، كمنت وسط الغابات المجاورة لآزتييردي باسي ولمونترتوت، تترصد، هي أيضاً جميع المعتوهين والمختلين عقليا من الطبقات الموسرة.

سارع باريتون، يقوده بارابين إلى الانسياق مع الذوق العام، مع أفضل العروض بالتأكيد، ومع ترخيص الكلفة. ومع الاوكازيونات، ولكن على الفور، ودون توقف. وبمساعدة آلات إلكترونية حديثة غازيّة، ومائية، ليبدو دائماً، بهذا النحو، مجهزاً أفضل تجهيز للجري وراء الأهواء الشاذة للنزلاء المقيمين الصغار المبلبلين والأغنياء. كان المشفى ينوء تحت وطأة ضرورة مظاهر الأبهة والفخامة، وضرورة أن يكسب حظوة المجانين أنفسهم.

«حين افتتحت هذا المشفى، أفضى لي باريتون ذات يوم، وهو يبوح بمشاعر الأسف، كان ذلك قبل افتتاح المعرض الكبير تماماً، يا فريديناند... لم نكن نشكل، نحن الأطباء العقليين، سوى عدد محدود جداً من الأطباء الممارسين، أقل فضولاً، وأقل فساداً مما نحن عليه اليوم، أرجوك أن تصدقني! لم يكن أحد منا يحاول حينئذ أن يكون مجنوناً، بقدر ما كان الزبائن كذلك.. لم يكن أسلوب العلاج مستنداً مثلما هو اليوم إلى الهذيان، بحجة أن ذلك أفضل للعلاج، أسلوب داعر، لاحظ ذلك، على غرار كل ما جاء إلينا من الخارج تقريباً...

«في بداية عملي إذن، كان الأطباء الفرنسيون، يا فرديناند ما يزالون يحترمون بعضهم بعضاً، لم يكونوا يعتقدون بأنهم مضطرون إلى الهلوسة، في

Twitter: @ketab_n

الوقت ذاته مع مرضاهم، بغية مجاراة المرضى مــن دون شك؟ ماذا يدريني؟ من أجل إدخال السرور إلى قلوبهم... أين سيقودنا هذا؟.. أسألك يافرديناند؟... ما دام أطباؤنا قد غدوا أكثر مكراً وأسوأ مرضاً، وأعظم فساداً من المرضى الأشد عتهاً وجنوناً في مشافينا، لفرط ما مرغونا بنوع من الغطرسة الجديدة الغارقة في وحل جميع أشكال الخبل التي يظهرونها لنا، إلى أين نمضي الآن؟.. هل بوسعك أن تطمئنني يا فرديناند حول مصير عقلنا، وحتى مجرد حسّنا السليم؟ ما الذي سيبقى لنا من الحس السليم بمثل هذا الوضع؟ لا شيء، هذا متوقع! لا شيء قطعاً. يمكنني أن أتنبأ لك بذلك... هذا واضح تمام الوضوح...

«بداية، يا فرديناند... ألم تصبح كل الأمور سواء، أمام عقل حديث... لم يعد ثمة أبيض! لم يعد ثمة أسود أيضاً! كل شيء يتمزق وينهار!... إنه النوع الجديد! إنها الموضة! لماذا لم نصبح نحن أنفسنا مجانين، وعلى الفور! كي نبدأ! ونتباهى أيضاً بذلك، نعلن الاضطراب الروحي الكبير! ونحقق النجاح عبر جنوننا! من الذي يمكنه أن يمنعنا؟ أسألك يا فرديناند؟ يتفق لي يا فرديناند أن أنصت إلى بعض زملائنا، وهؤلاء، لاحظ يا فرديناند، من بين أوسع الأطباء شهرة، والمرغوبين أكثر من قبل المرضى، والأكاديميات، فأسأل نفسي إلى أين يقودنا هؤلاء؟ هذا لا يطاق في الحقيقة! هؤلاء المعتوهون يفقدونني رشدي. يقلقونني، يثيرون تقززي، على الأخص، وحين أسمع فقط نتائج أبحاثهم خلال إحدى مؤتمراتهم الحديثة يجتاحني رعب فظيع يا فرديناند، يخذلني عقلي حين أنصت إليهم فقط... ممسوسون، داعرون، محتالون. هؤلاء المنافحون عن الطب العقلي الحديث، يدفعوننا بتحليلاتهم إلى

Twitter: @ketab_n

الهاوية، بكل بساطة إلى الهاوية! وفي ذات صباح. إن لم تقاوموا، يا فرديناند، أنتم الشباب فسنهلك، افهمني جيداً، سنهلك!...

«أنت تعلم يا فرديناند بأن هؤلاء الأوغاد لن يكفوا قط عن الفسق بالعقل والإدراك خلال الليل والنهار وحتى في أحلامهم...! ليس ثمة ما أضيفه إلى ذلك!... لقد عمقت لك الموضوع، وبسّطت لك المسألة... لم يعد ثمة حول هؤلاء سوى أنقاض عضوية مقززة، مرملاد من ظواهر هذيانية تسح منهم، وتقطر من كل مكان... سينهار كل شيء يا فرديناند، كل شيء ستذروه الريح. أتنبأ لك بذلك، أنا العجوز باريتون، وليس بعد وقت طويل أيضاً، سترى ذلك بعينيك يا فرديناند، هذا الانهيار الهائل، لأنك ما تزال شاباً! سترى ذلك! آه! أنا أعدك بمباهج، ستشهدها عند جارك بارابين. هوب! وبنوبة هذيانية على الأكثر.. وإلى الأمام نحو الجنون أخيراً، وستتحرر أنت أيضاً كما تقول لي. ذلك ما يغريك منذ زمن طويل جداً، ولكن حين ستكون لدى المجانين، أصدقائك الصغار، أؤكد لك بأنك ستبقى عندهم.

«احفظ هذا جيداً يا فرديناند، إن ما يشكل بداية النهاية لكل شيء هو غياب المعايير، تلك الطريقة التي بدأ فيها الانهيار الكبير. إنني في وضع يمكنني به أن أوضح لك ذلك... ومن خلال المعايير الوهمية بدأ كل ذلك، من خلال المبالغات الأجنبية الغريبة. لم يعد ثمة قياس، ولم يعد ثمة قوة. وإذن إلى العدم أيها العالم بأكملك؟ ولم لا؟ سائر العالم؟ هذا مؤكد. إننا لا نسير في هذا الاتجاه، وإنما نعدو إليه عدواً! إنه اندفاع حقيقي! أنا أراه يا فرديناند، أرى العقل يتخلى شيئاً فشيئاً عن اتزانه، ثم نذوب في مشروع كبير من الطموحات القيامية! لقد بدأ ذلك عام ١٩٠٠... منذ ذلك الحين لم يعد في العالم، بوجه عام، وفي الطب العقلي، بوجه خاص سوى تنافس مسعور على من سيكون

Twitter: @ketab_n

أعظم فساداً وأشد شبقية، وأسوأ اختلافاً، وأكثر بعثاً على التقزز، وأعلى إبداعية، مثلما يقولون، على غرار زميلك الصغير، سَلطة عجيبة... إنه التنافس على الغرق الكامل في القبح، والشذوذ، بأسرع وقت ممكن، على الوحشية العديمة القلب والعديمة الاعتدال... هذا مؤكد يا فرديناند... إنه الوحش؟ رأس ضخم يسير حيثما يشاء... حروبه ولعابه، يتدفقان حولنا، وفي كل مكان... ها نحن في لجة السيل! بكل بساطة.. آه، كنا نضجر، كما يبدو، من وعينا. ولكننا لم نعد نضجر الآن، فقد بدأنا بالخبل والهذيان كي نغير أنفسنا... بدأنا إذن على حين فجأة نختبر «الانطباعات» و«الحدوس»، على غرار النساء. هل من الضروري أيضاً، عند هذا الحد الذي وصلنا إليه أن نربك أنفسنا بكلمة غادرة هي كلمة المنطق؟... بالتأكيد لا! سيكون المنطق بالأحرى نوعاً من الإزعاج، بوجود علماء تحليل نفسي، ماهرين للغاية! على غرار ما نراه في أيامنا، طليعيين فعلاً.. هل سيدفعني ذلك إلى القول بأنني أحتقر النساء؟ لا! أنت تعرف ذلك جيداً.. ولكنني لا أحب حدسهن وانطباعاتهن! إنني حيوان بخصيتين يا فرديناند، وحينما أمسك بواقعة من الوقائع فإنني أجد صعوبة في إفلاتها. وقد صادفتني واقعة في أحد الأيام، من المفيد ذكرها لك في هذا المقام.. فقد طُلب مني استقبال كاتب... كان يهذي دون توقف.. هل تعلم ما الذي كان يهتف به منذ أكثر من شهر؟ «أنا أصفّي... أنا أصفّي» هكذا كان الكاتب يزعق داخل المشفى، كان قد انتقل إلى الجانب الآخر من العقل، ولكنه بوجه التحديد كان ينوء تحت وطأة سائر آلام العالم الذي يريد تصفيته.. ثمة تضيق قديم يجعله يتسمم بالبول، كان يسد مثانته. لم أتوقف عن سبره وتخليصه من بوله قطرة قطرة.. كانت عائلته تصر على أن هذا الهذيان يعتريه، بسبب من عبقريته، كنت أحاول عبثاً أن أشرح للعائلة بأن ذلك كان بالأحرى بسبب المثانة العليلة لكاتبهم، ولكنهم لم

Twitter: @ketab_n

يتراجعوا عن قناعاتهم... فالكاتب حسب رأيهم، كان يرزح تحت وطأة نوبة من نوبات عبقريته، وهذا كل شيء، كان علي أن أجاريهم في رأيهم في النهاية... أنت تعلم بالتأكيد أن هذه ليست سوى عائلة؟ ومن المستحيل إفهام عائلة بأن فرداً فيها، أباً أو غير ذلك، لا يشكو في المحصلة سوى من التعفن المنحبس... فهي لن تدفع لك من أجل تعفن منحبس في جسد رجلها...»

منذ عشرين عاماً لم يكف باريتون على الإطلاق عن مجاراة الغرور المفرط لعائلات مرضاه، لقد جعلت تلك العائلات حياته شاقة... وعلى الرغم من صبره وتوازنه اللذين أعرفهما عنه فقد كان يحتفظ مع ذلك داخل قلبه بعقابيل كراهية زنخة ومزمنة تجاه العائلات. وفي الفترة التي كنت أعيش فيها إلى جواره، كان مرهقاً جداً، يبحث بعناد وعلى نحو خفي عن التحرر من هذا الإرهاق، عن الإفلات مرة واحدة وإلى الأبد من طغيان العائلات، بطريقة أو بأخرى، كل واحد منا يملك أسبابه للفرار من بؤسه الشخصي، وكل واحد منا، يتبع طريقاً مبتكراً، حسب الظروف، سعياً إلى تحقيق ذلك. سعداء جداً أولئك الذين يكفيهم الماخور..

كان بارابين يبدو سعيداً لأنه اختار درب الصمت. أما باريتون الذي لم أفهمه إلا فيما بعد، فكنت أتساءل في سري إن كان سيفلح في الإفلات من قبضة العائلات، من نيرهم، من ألف تفاهة مقززة للطب العقلي الغذائي، من وضعه بوجه عام. ولشدة رغبته بأشياء جديدة، قطعاً، ومغايرة، فقد كان مهيأً، في الواقع للفرار والتملص.. ومن هنا، بلا ريب، تتبع خطبه النقدية... كان أناه يرزح تحت وطأة الروتين، ولم يعد بمقدوره أن يتسامى أبداً. كان يريد الذهاب فقط، حاملاً جسده إلى مكان آخر. لم يكن باريتون موسيقياً على الإطلاق. كان يلزمه إذن أن يقلب كل شيء مثل دب حتى يتخلص من وضعه..

Twitter: @ketab_n

ثم تحرر باريتون الذي كنت أعتقد بأنه متعقل، بطريقة فضائحية مؤسفة إلى أبعد حد وسأحاول أن أتحدث بتمهل فيما بعد، عن الكيفية التي سارت عليها الأمور..

فيما يتعلق بي، آنذاك، كانت مهنة طبيب مساعد في مشفاه تبدو لي مقبولة.

لم يكن روتين العلاج شاقاً على الإطلاق، على الرغم، من إزعاجات يسيرة، بالطبع من وقت إلى آخر. فحينما كنت على سبيل المثال أتحدث طويلاً مع المرضى المقيمين، كان نوع من الدوار يعتريني حينئذٍ، كما لو أنهم كانوا يقودونني بعيداً عن ضفتي المعتادة، يقودونني معهم دون أن يبدو عليهم ذلك، بكلمات بريئة، حتى أجد نفسي وسط هذيانهم، كنت أتساءل خلال لحظة صغيرة، كيف السبيل إلى الخلاص، إن لم أكن بالصدفة قد احتجزت نهائياً داخل جنونهم، دون أن أعي ذلك.

كنت أقف عند الحافة الخطرة للمجانين، على تخومهم تقريباً، لفرط ما كنت دائماً محبباً من قبلهم، وهذا عائد إلى طبيعتي، لم أكن أنفعل أو أتأثر، ولكنني كنت طوال الوقت أشعر بالخطر كما لو أنهم كانوا يجتذبونني بمكر إلى أحياء مدينتهم المجهولة... مدينة كانت شوارعها تغدو أكثر فأكثر رخاوة، كلما كنت أتوغل بين بيوتها اللعابية، نوافذها ذائبة، شبه مغلقة على تلك الضجة المريبة، الأبواب والأرض متحركة... تستحوذ عليك الرغبة، مع ذلك، في أن تمضي فيها أبعد قليلاً، كي تعرف إن كان لديك القدرة على أن تعثر على عقلها، بين الأنقاض. ولكن العقل مصاب بالعطب، مثلما المزاج الطيب والنوم في مدينة النورستانيين. ولا يعود بإمكانك التفكير سوى بعقل تلك المدينة. ما من شيء فيها يسير سيراً طبيعياً. ثم ينتهي بك الأمر إلى الهزل والضحك.

Twitter: @ketab_n

كل شيء إذن، كان يمضي.. من شكوك إلى شكوك إلى أن حل يوم ٤ أيار، تاريخ مشهور كان ذلك اليوم.. كنت أشعر صدفة، بأنني في أحسن حال، خلال ذلك اليوم، كما لو كان ذلك معجزة. النبض ٧٨، كما لو بعد غداء جيد، حينما بدأ كل شيء في الانقلاب والتحول! رحت أتشبث بأي شيء.. كان كل شيء يتحول إلى السخط والتذمر. بدأ الناس يتخذون سحنة غريبة، وأصبحوا فظين كما بدا لي، مثل الليمون، أشدّ خبثاً وأذى مما كانوا عليه سابقاً. كنت قد صعدت عالياً جداً، من دون شك، بتهور أكبر ما تتحمله صحتي، ثم سقطت أمام المرآة، لأرى نفسي وقد علاني الكبر والشيخوخة..

لم أعد أبالي بقرف تلك الأيام الغائطية ولا متاعبها! بعد أن تراكمت بين الأنف والعينين، لقد كان هناك من تلك المتاعب أكثر مما يتحمله إنسان، بالنظر إلى كل ما كان حولي، فضلت آنئذ العودة إلى تارابو. لا سيما أن بارابين لم يعد يكلمني أنا أيضاً. ولكنني كنت قد احترقت في تارابو. من المؤلم جداً أن لا يكون لدي سوى رب عمل واحد. من أجل راحتي المعنوية والمادية، وعلى الأخص حين يكون طبيباً للأمراض العقلية، ما عدت مطمئناً جداً لما يدور في رأسه. ينبغي التماسك، ليس ثمة سبيل آخر، لم يبق لنا ما نتحدث عنه معاً سوى النساء، كان ذلك موضوعاً لطيف التأثير ويمكنني بفضله أيضاً أن آمل بتسليته، من وقت إلى آخر! وبهذا الصدد، فقد أولاني أيضاً ثقة كبيرة، بتجربتي معهن، جدارة مقززة.

لم يكن ثمة بأس على الإطلاق في أن باريتون كان ينظر إلي، بوجه عام بشيء من الاحتقار. ينبغي للعبد، مهما كلفه ذلك أن يكون جديراً بالاحتقار قليلاً، أو حتى كثيراً، ثمة مجموعة من العيوب الصغيرة المزمنة

Twitter: @ketab_n

المعنوية والجسدية تبرر المصير الذي يكابده العبد.. والأرض تدور على نحو أفضل حينما يجد كل امرئ فوقها مكانه الذي يستحقه..

خليق بالكائن الذي يستخدمه الآخرون أن يكون وضيعاً متذللاً محكوماً بالانحطاط، فذلك يريح النفس.. ولا سيما أن باريتون كان يدفع لنا أجوراً زهيدة كلياً. في تلك الحالة من الشح الشديد كان الموظفون يظلون مرتابين، قلقين، إلى حد كبير... أن أكون محبطاً، وفاسقاً وفاسداً، ومخلصاً، فإن ذلك يجد تفسيره، وتبريره، لدى باريتون في المحصلة. ولن يكدر باريتون سوى أن أكون مطلوباً من البوليس. كان ذلك هو ما يجعلني مخلصاً متفانياً.

كنت قد تخليت بالإضافة إلى ذلك، منذ أمد طويل عن كل كبرياء أو شعور بالكرامة. فقد بدا لي هذا الشعور دائماً أعلى من الشرط الذي أعيش فيه. أغلى ثمناً ألف مرة، بالقياس إلى مواردي، كنت أجد نفسي مرتاحاً كلياً من خلال التضحية بكبريائي نهائياً.

كان يكفيني الآن أن احتفظ بالتوازن داخل وسط يمكن احتماله، غذائياً وجسدياً، أما الباقي فلم يكن يهمني قط في الحقيقة، ولكنني كنت أحس في ذلك بصعوبة كبيرة في اجتياز بعض الليالي، ولا سيما حين كانت ذكرى ما حدث في تولوز تقض مضجعي ساعات بكاملها... كنت أتخيل حينئذٍ، ولم يكن بوسعي أن أمنع نفسي عن ذلك، أتخيل كل أنواع العواقب المأساوية لسقوط الأم هنروي في حفرة مومياءاتها. كان الخوف يعتصر أمعائي، ويشد بقبضته على قلبي الذي كان يدق حتى يكاد يقفز بكامله خارج سريره، كي يذرع غرفتي في أحد جهاتها ثم في الجهة الأخرى حتى أعماق الظل، وإلى أن يطلع الصباح. كنت وسط هذه الأزمات، أحس باليأس من أن أجد في لحظة من اللحظات ما يكفي من غياب الشعور، كي أتمكن من أن أهجع ولو

Twitter: @ketab_n

للحظات، لا تصدقوا إذن أبداً، على الفور شقاء البشر، اسألوهم فقط إن كان ما يزال باستطاعتهم أن يناموا؟ فإذا أجابوا بنعم، فإن كل شيء على ما يرام، وحسبهم ذلك.

لم يعد يتفق لي أبداً أن أنام نوماً عميقاً.. لقد فقدت الثقة نهائياً، تلك التي ينبغي أن يكون لدى المرء قسط عظيم منها بالفعل، كي ينام نوماً عميقاً بين البشر، كنت في حاجة على الأقل إلى مرض، حمى، كارثة محددة، كي أستطيع أن أعثر على قليل من تلك اللامبالاة وأصرف قلقي تماماً، وأهتدي إلى الاطمئنان الأحمق والسماوي... كانت الأيام الوحيدة التي احتملتها، والتي يمكنني أن أتذكرها خلال العديد من السنوات هي بعض الأيام التي أصبت فيها بنزلة صدرية حادة، رافقتها حمى ثقيلة جداً.

لم يكن باريتون يسألني أبداً عما يتعلق بصحتي، كان يتحاشى أيضاً الخوض بأمور صحته هو «العلم والحياة يشكلان مزيجاً مشؤوماً يا فرديناند! تجنب دوماً أن تعتني بنفسك، صدقني... كل سؤال تطرحه حول الجسد يغدو ثغرة. بداية للقلق، للوساوس...» هكذا كانت مبادئه البيولوجية المبسطة والأثيرة، كان يتظاهر بالمكر في المحصلة، «ما أعرفه يكفيني» كان يقول ذلك غالباً، أيضاً، كي يجعلني انبهر به.

لم يكن يحدثني قط عن المال. ولكن ذلك كان من أجل أن يفكر به هو أكثر، وبحميمية أعظم..

مشكلات روبنسون مع عائلة هنروي كنت أحتفظ بها أيضاً في أعماق شعوري، على نحو غير مفهوم أيضاً، وغالباً ما كنت أحاول أن أروي طرفاً منها، لباريتون. ولكنه لم يكن يلقي إليها بالاً على الإطلاق. كان يفضل قصص أفريقيا، وخاصة حين كان الأمر يتعلق بحكايات عن زملاء أطباء

Twitter: @ketab_n

كنت قد التقيتهم غراراً في بعض الأمكنة، وممارسات هؤلاء الزملاء الطبية غير المعتادة، الغريبة أو المريبة.

من وقت إلى آخر، كنا نمر في المشفى بحالة استنفار بسبب البنيّة الصغيرة إيمي.. فعند العشاء، وعلى حين فجأة، لم نكن نجد لها أثراً لا في الحديقة ولا في غرفتها، بالنسبة إلي، كنت أتوقع دائماً أن نعثر عليها ذات مساء مقطعة الأوصال خلف أجمة من الأجمات. فمع مجانيننا المتسكعين في كل مكان، كان يمكن أن يحدث الأسوأ. كانت فوق ذلك قد نجت من الاغتصاب مرات عديدة. كانت الصرخات تنطلق حينئذٍ، تتلوها توبيخات عنيفة ثم توضيحات واستقصاءات لا نهاية لها. عبثاً كنا نحاول منعها من العبور في بعض الممرات المحمية من الأنظار. كانت تلك الطفلة تعود على نحو لا يرد إلى الزوايا الصغيرة. ولم يكنْ والدها يقصر في ضربها على مؤخرتها ضرباً لا ينسى، ولكن ذلك لم يكن يثنيها.

حين كنا نلتقي بالمجانين. أو نتجاوزهم عبر الممرات كان علينا دائماً، نحن العاملين في المشفى، أن نظل على حذر بعض الشيء، فالمرضى العقليون يقتلون بسهولة أكبر من الناس العاديين. وهكذا فقد غدا ذلك بالنسبة إلينا نوعاً من العادة، بأن نجعل ظهرنا إلى الحائط حين نلتقي بهم، مستعدين دائماً لأن نتلقى منهم ركلة قوية في أسفل البطن، لدى أول حركة منهم. إنهم يترصدونك، يمرون بجوارك، فالجنون وحده، غير مفهوم كلياً. كان باريتون يتأسف لأن أياً منا لم يكن يجيد اللعب بالشطرنج، لذا كان ينبغي علي أن أبدأ بتعلم هذه اللعبة من أجل إسعاده فقط. خلال النهار كان باريتون ينخرط في نشاطات مزعجة وصغيرة جداً تجعل الحياة مرهقة حوله. ثمة فكرة مزعجة وصغيرة جداً لها طابع عملي على نحو تافه ومسطح، كانت تخطر له كل

Twitter: @ketab_n

صباح. تبديل لفافة ورق التواليت بورق طلحيات، على سبيل المثال. كان يضطرنا إلى التفكير طوال أسبوع بكامله إلى أن نبدد الوقت على قرارات متناقضة، وقد قرر أخيراً، انتظار شهر بيع التصفية للقيام بجولة على المخازن.. ثم طرأ همّ آخر جديد.. هو صدرات الفلانيلة... هل ينبغي ارتداؤها تحت؟.. أم فوق القميص؟.. ثم طريقة اختيار سلفات الصودا؟.. كان بارابين يلوذ بالصمت المطبق خلال تلك المحاورات شبه العملية.

دفعني الضجر إلى أن أروي لباريتون مغامرات أكثر بكثير من كل ما كانت قد تضمنته أسفاري. كنت قد استنفدت كل ذخيرتي! وكان هو بدوره أخيراً، يشغل كلياً الفترات الشاغرة من حوارنا باقتراحاته وتحفظاته الصغيرة فقط، لم يعد ثمة سبيل إلى الخروج من ذلك. فبسبب الإنهاك الذي نلته منه، ولأنني لم أكن أملك، على غرار بارابين لا مبالاة مطلقة لأحمي نفسي، كان ينبغي أن أجيبه على الرغم مني، لم يعد بوسعي أن أمنع نفسي إلى ما لا نهاية من اللغو الفارغ حول الميزات المقارنة للكاكاو والقهوة بالكريما، كان يسحرني بحماقته.

كنا نعود إلى الحديث حول كل شيء وحول لا شيء، حول مرض الدوالي، وحول التيار الفارادي وحول التهاب النسيج الخلوي في منطقة الكوع. وانتهيت تماماً إلى الغمغمة بحسب إشاراته وميوله حول لا شيء وحول كل شيء. كان باريتون يصطحبني. يسبقني في هذه النزهات البلهاء، وقد أشبعني حواراً حتى أبد الآبدين. كان بارابين يضحك في سره، وهو يستمع إلينا نخوض في تلك المماحكات، حول وجبات المعكرونة الشريطية، ورشاش نبيذ بوردو يتطاير من أفواهنا فوق غطاء المائدة.

ولكن، سلام عليك يا ذكرى باريتون! ذلك الوغد، لقد انتهيت أخيراً مع ذلك، إلى جعله يختفي، وقد تطلب مني ذلك كثيراً من المهارة.

Twitter: @ketab_n

من بين مرضاي الذين عهد إلي بحراستهم، على نحو خاص، كان الأشد عتهاً بينهم يثيرون فيّ قلقاً شديداً، دوشاتهم هنا، مسابرهم هناك. عيوبهم الصغيرة، عنفهم، وسواس النظافة لديهم.. كانت إحدى الشابات النزيلات تسبب لي غالباً ملاحظات حانقة من المعلم.. كانت تدمر الحديقة بقطع جميع أزهارها، كان ذلك وسواسها، ولم أكن أحب ملاحظات المعلم... كان باريتون يسميها «الخطيبة». فتاة أرجنتينية ذات بنية جسدية غير سيئة على الإطلاق، ولكن بنيتها النفسية مضطربة جداً. تهيمن عليها فكرة وحيدة هي الزواج بأبيها.. كانت تنتقل من زهرة إلى زهرة في أجمات الزهور فتقطفها جميعها، وتغرزها في شال كبير أبيض ترتديه ليلاً ونهاراً. كانت عائلتها المتعصبة دينياً تشعر بخجل شديد من حالتها، وهكذا حجبوا فتاتهم عن العالم، وحجبوا كذلك فكرتها. كانت الفتاة بحسب رأي باريتون تعاني من عواقب تربية متشددة وقاسية، ومن أخلاقية مطلقة، انفجرت على وجه التقريب، داخل رأسها.

عند الغروب كان عالمنا بأكمله يهجع بعد نداءات متكررة طويلة، وبعدئذٍ نمر على الحجرات من أجل أن نمنع المهيجين من المرضى على الأخص من أن يستمنوا بنحو مفرط، قبل أن يناموا، وفي مساء يوم السبت كان من المهم تهدئة المرضى والاهتمام الفائق بهم لأن أهاليهم كانوا يأتون يوم الأحد لزيارتهم. ومن المسيء للمشفى أن يجدوا أبناءهم مبيضي البشرة من فرط الاستمناء.

كل هذا ذكرني بيبيرت وبالشراب السكري الذي أعددته له حينما شكت لي خالته من أنه يمارس العادة السرية. وقد استخدمت هذا الشراب في المشفى بكثرة، كنت قد احتفظت بصيغته، وانتهيت إلى أن أومن بفعاليته. كانت حاجبة المشفى تبيع حبات اللوز المسكر، مع زوجها. كنت أدعو الزوج،

Twitter: @ketab_n

من وقت إلى آخر، لمواجهة أزمات الهياج لدى المرضى بحباته السكرية. هكذا كانت الأمور والشهور تسير، دون تعكير كبير في المحصلة. لم يكن لدينا ما نشكو منه إذا لم يخطر لباريتون على حين فجأة خاطر آخر جديد يعكر صفونا.

منذ زمن طويل، بلا شك كان باريتون يتساءل بينه وبين نفسه إن لم يكن بوسعه أن يستخدمني على نحو أكبر وأفضل أيضاً، بالأجر ذاته، ثم توصل أخيراً إلى تحقيق ذلك.

ذات يوم بعد الغداء أعلن فكرته على الملأ. قدم لنا، في البداية طبقاً من السلطة مملوءً بمقبلاتي الأثيرة، فريز بالكريما، بدا لي ذلك للتو مثيراً للريبة، والواقع أنني ما كدت أنتهي من التهام آخر فريزة حتى هاجمني بمطلق سلطته علي.

"فرديناند، قال لي هكذا، لقد سألت نفسي فيما إذا كنت ستوافق على إعطاء ابنتي إيمي بضعة دروس في الإنكليزية؟ ماذا تقول في ذلك؟ أعلم أنك تمتلك لهجة ممتازة، واللهجة في الإنكليزية أمر جوهري أليس كذلك!... ومن ثم فإنني اقول دون أن أجاملك، أنت يا فرديناند اللطف بعينه.

- ولكن بالتأكيد، سيد باريتون» أجبته متفاجئاً.

وتقرر الأمر، في الحال، بأن أعطي لإيمي منذ الغد صباحاً درسها الأول. ودروساً أخرى تالية، على ذلك المنوال، فيما بعد.. خلال أسابيع.

بدءاً من دروس الإنكليزية هذه، دخلنا جميعاً في مرحلة كدرة وملتبسة قطعاً، تتالت الأحداث خلالها بإيقاع لم يعد على الإطلاق هو إيقاع الحياة اليومية العادية.

Twitter: @ketab_n

أصر باريتون على حضور الدروس، جميع الدروس التي كنت أعطيها لابنته. وعلى الرغم من عنايتي البالغة القلقة، فإن الصغيرة البائسة إيمي قلما كانت تفهم الإنكليزية ولا شيء منها على الإطلاق. لم تكن في الواقع، تحرص على معرفة ما كانت تعنيه كل تلك الكلمات الجديدة. كانت تتساءل أيضاً عما نبتغيه منها جميعاً بإصرارنا، نحن الطغاة، على هذا النحو، على أن تحفظ فعلاً تلك المعاني.. لم تكن تبكي. هذا صحيح.. كانت إيمي تفضل أن ندعها تتدبر أمرها بلطف، مع القليل جداً من اللغة الفرنسية التي كانت تعرفها، والتي كانت صعوباتها وسهولاتها كافية تماماً كي تشغل حياتها بكاملها.

غير أن والدها لم يكن يعيرها أذناً صاغية «ينبغي أن تصبحي فتاة حديثة يا صغيرتي إيمي! كان يحثها دون كلل أو ملل، في سبيل مواساتها.. أنا أتألم. أنا والدك، أتألم، من أنني لم أعرف ما يكفي من الإنكليزية كي أتدبر أمري كما يجب، مع المرضى الأجانب.. هيا، لا تبكي يا صغيرتي العزيزة... أصغي جيداً بالأحرى إلى السيد باردامو، إنه صبور جداً، ولطيف جداً، وحينما تتقنين بلسانك لفظ The، مثلما يلفظها لك فسأشتري لك».. هذا وعد، دراجة جميلة.

ولكن إيمي لم تكن ترغب بأن تلفظ The ولا Enough، ولا أية كلمة على الإطلاق.. كان الأب هو الذي يلفظ بدلاً عنها Theو enough. ومقاطع أخرى كثيرة أيضاً، على الرغم من لهجته، لهجة أهل بوردو، وهوسه بالمنطق الثقيل للغة الإنكليزية. وخلال شهر، شهرين على هذا الغرار، وكلما نما لدى الأب شغف بتعلم الإنكليزية كانت إيمي تنتهز الفرصة للابتعاد أكثر فأكثر عن التخبط بين الحروف والأصوات، حتى أن باريتون استحوذ علي كلياً، استأثر بي، ولم يعد يفلتني، وراح يمتص كل إنكليزيتي.

Twitter: @ketab_n

لما كانت غرفتانا متجاورتين فقد كان بوسعي أن أسمعه منذ الصباح فيما هو يرتدي ثيابه، يحوّل حياته الشخصية من خلال اللغة الإنكليزية
The coffee is black.. My shirt is white.. The garden is green..
How are you today Bardamu? كان يعوي عبر الحاجز بين غرفتينا. لقد مال على نحو مبكر جداً إلى الأشكال الأكثر إضمارية في اللغة الإنكليزية.

مع هذا الانحراف في سير الدروس كان لابد لباريتون أن يقودني بعيداً جداً.. فما أن لامس بعض الملامسة الأدب العظيم حتى بات من المستحيل أن نتوقف.. وبعد ثمانية أشهر من التقدم غير الطبيعي، كان قد توصل تقريباً إلى أن يكوّن نفسه، على نحو كلي على الصعيد الأنكلو سكسوني، ونجح في الوقت نفسه في أن يثير تقززي كلياً، على نحو مضاعف أضعافاً.

شيئاً فشيئاً، انتهينا إلى أن نخلي سبيل الصغيرة إيمي تقريباً، خارج محادثاتنا، فاستعادت سكينتها أكثر فأكثر، وعادت وادعة مطمئنة إلى غيومها دون أن تنسحب.. لن تتعلم إيمي الإنكليزية، هذا هو الأمر.. كل شيء من أجل باريتون..

عاد الشتاء، وحلت أعياد الميلاد. كانوا يعلنون في مكاتب السفر عن تذاكر سفر إلى إنكلترا، ذهاباً وإياباً بأسعار مخفضة.. كنا نعبر الشوارع أنا وبارابين ذاهبين إلى السينما، حين وقع نظري على تلك الإعلانات. دخلت أحد المكاتب لأستعلم عن الأسعار،

ولما أن اجتمعنا حول الطاولة ألقيت من جملة ما ألقيت، كلمتين لباريتون. لم يبد عليه في البداية، أنه أعار معلوماتي أي اهتمام. وترك الأمر يمر دون أي تعليق، ظننت أنه قد نسي الأمر كلياً حينما ذكرني به ذات مساء، ورجاني أن أعيد على مسامعه موضوع تلك الإعلانات.

Twitter: @ketab_n

بين جلساتنا الأدبية الإنكليزية كنا نلعب غالباً بالبلياردو الياباني وبلعبة «البوشون» في إحدى غرف المنزل وهي غرفة مجهزة بقضبان صلبة، تقع فوق مسكن الحاجبة.

كان باريتون بارعاً في تلك الألعاب، وكان بارابين يتحداه عادة ويخسر أمامه دائماً، كنا نقضي في صالة الألعاب الصغيرة المرتجلة هذه أمسيات بكاملها، ولا سيما خلال الشتاء، حينما كانت الأمطار تنهمر، كي لا نلوث الصالة الكبيرة لمعلمنا. كنا في بعض الأحيان نضع مجنوناً تحت المراقبة داخل صالة اللعب ذاتها، ولكن ذلك كان نادراً. بينما كانا يتباريان بخفة، فوق غطاء المائدة أو على أرضية الغرفة «بلعبة البوشون»، كنت أتسلى، إن جاز لي التعبير عن حالتي التي أنا فيها، بمحاولة الشعور بأحاسيس سجين في زنزانته، كان هذا الإحساس ينقصني. وبشيء من الإرادة، أمكنني وأنا على تلك الحال، أن أتوصل إلى الإحساس على غرار السجين بصداقة الأشخاص النادرين الذين يعبرون الشوارع في محيط المشفى، وبعد أسابيع شعرت بحنين إلى الحركة الصغيرة التي يحدثها الترام وهو يعود بالموظفين من باريس رزماً وديعة. ولدى انعطافته الأولى بعد حانوت البقالة تنتهي هزيمتهم، وينسكبون، بكل هدوء في قلب الليل، لم يكن لدي إلا القليل من الوقت كي أعدّهم. ولكن باريتون قليلاً ما كان يتركني أحلم كما أهوى، ففي وسط لعبة بالبوشون كان يبادرني فجأة بأسئلة غريبة.

«How do you say.. مستحيل... باللغة الإنكليزية يا فرديناند؟...»

لم يكتف باريتون على الإطلاق، بتحقيق تقدم في الإنكليزية، كان يطمح، مع كل بلاهته إلى الكمال. كان يرفض الحديث عن مستوى متوسط أو عن تنازلات. ولحسن الحظ، فإن أزمة ألمتّ به حررتني منه.. ذلك هو المهم.

Twitter: @ketab_n

كنا كلما تقدمنا في قراءة تاريخ إنكلترا، يفقد شيئاً من طمأنينته، ويفقد في النهاية أفضل ما يتمتع به من تفاؤل. ثم إننا لما عرضنا للشعراء الإليزابيتيين طرأت تبدلات روحية كبيرة داخل عقله، وفي أعماق شخصه. كنت أشعر في البداية، ببعض الصعوبة في إقناع نفسي، ولكنني كنت مضطراً في النهاية، مثل الجميع إلى قبوله مثلما كان قد غدا، مثيراً للرثاء، في الحقيقة. اهتمامه الشديد، والذي كان متزمتاً فيما مضى، يعوم الآن، منجرفاً نحو ما هو أسطوري، انحطاط متواصل. وشيئاً فشيئاً صار يظل ساعات بكاملها داخل منزله بالذات، هناك، أمامنا، حالماً، نائياً... وعلى الرغم من أنه كان يثير تقززي حقاً وفعلاً، فقد أحسست مع ذلك ببعض تبكيت الضمير لرؤيته يتفكك على هذا المنوال. كنت أعتقد بأنني أتحمل بعض المسؤولية عن هذا التدهور... لم يكن اضطرابه الروحي غريباً عني كلياً... وقد دفعني ذلك إلى أن أقترح عليه أن نوقف لبعض الوقت تدريباتنا الأدبية، بحجة أن فترة من الراحة والفراغ كانت ضرورية لنا، وفرصة لتجديد مصادرنا الوثائقية... لم يكن باريتون من الغفلة بحيث تنطلي عليه هذه الخدعة الغثة والمصطنعة، وواجهني على الفور برفض أكيد... بشيء من الرفق، ولكن بحزم كلي. كان ينوي أن يواصل معي دون توقف اكتشاف إنكلترا الروحية... مثلما كان قد تعهد.. لم يكن لدي ما أجيبه به... فخضعت. كان يخشى كذلك من أنه لم يعد لديه ما يكفي من العمر كي يبلغ مبتغاه.. كان ينبغي، في المحصلة، وعلى الرغم من أنني كنت أستشعر ما هو أسوأ، أن أتابع معه، كيفما اتفق هذه الرحلة الأكاديمية الموحشة.

والواقع أن باريتون لم يعد قط، في المحصلة، هو ذاته. كان كل ما حولنا، من أشخاص وأشياء، مما هو غريب غير مألوف، ومما هو أكثر

Twitter: @ketab_n

بلادة، يفقد أهميته، وحتى الألوان التي كنا قد عرفناها اتخذت عذوبة حالمة ومبهمة كلياً...

لم يعد باريتون يبدي سوى اهتمام عرضي، وفاتر أكثر فأكثر بالتفاصيل الإدارية داخل مشفاه، أما عمله الذي كان مشغوفاً به طيلة أكثر من ثلاثين سنة فقد وقع كلياً على عاتق بارابين الذي تفرغ لترتيبات الخدمات الإدارية... تلك البلبلة المتنامية ليقينياته، والتي كان ما يزال يسعى إلى إخفائها بخجل عن الملأ، غدت الآن جلية لنا جميعاً، يصعب نكرانها

غوستاف مانامور، رجل البوليس الذي تعرفنا عليه في فينيه من أجل استخدامه أحياناً في الأعمال الحرجة في المشفى، والذي كان الكائن النافذ البصر الذي أتيح لي أن ألتقيه بين عدد آخر من الدائرة ذاتها. سألني ذات يوم في تلك الفترة، إذا ما كان المعلم يتلقى أحياناً أخباراً سيئة جداً.. طمأنته ما وسعني ذلك، ولكن دون أن أتوصل إلى إقناعه.

جميع تلك الأقاويل عن تغير أحواله لم تكن تثير اهتماماً لدى باريتون. كان مصمماً فقط أن لا يبدو مضطرباً وتحت أية حجة من الحجج، كنا في بداية دروسنا نتصفح بسرعة كبيرة، حسب رغبته، كتاب تاريخ إنكلترا من تأليف ماكولي، وهو مؤلف بالغ الأهمية، ستة عشر مجلداً. كنا نعاود، بناء على طلبه، تلك القراءة الفريدة، وضمن شروط معنوية مثيرة للقلق كلياً، مقطعاً. بعد مقطع.

صار باريتون يبدو لي مصاباً أكثر فأكثر على نحو خطير بعدوى التأمل. فحينما كنا نبلغ ذلك المقطع البالغ القسوة، والذي يهبط فيه مونموث الطامع بالعرش فوق شطآن مجهولة في كنت... في اللحظة التي بدأت مغامرته تطوّح في الفراغ... حين لم يعد مونموث الطامح بالعرش، يعلم جيداً

Twitter: @ketab_n

ما الذي يطالب به... ما الذي يريد فعله. وما الذي كان قد فعله... وحين بدأ يقول لنفسه بأنه كان يريد فعلاً أن يذهب، ولكنه لم يعد يدري، إلى أين ولا كيف يذهب... حينما أحاقت به الهزيمة... وسط غبش الصباح... حينما ابتلع البحر آخر السفن... حينما بدأ مونموث التفكير للمرة الأولى... فإن باريتون لم يكن يبلغ أيضاً، فيما يخصه، وهو على ما هو عليه من تفاهة وانعدام شأن، إلى اتخاذ قراراته الخاصة... كان يقرأ ويعاود قراءة هذا المقطع، ويهمس به لنفسه مرة ثانية أيضاً... وحين يبلغ به الإرهاق كل مبلغ، كان يغلق الكتاب ويتمدد على مقربة منا.

مر زمن طويل وهو يستعيد المقطع بكامله في ذاكرته، وعيناه نصف مغلقتين.. بلهجته الإنكليزية التي كانت أفضل من جميع لهجات أهل بوردو التي أتيح إلي أن أسمعها، كان يستظهره لنا مرات ومرات.

في مغامرة مونموث حينما تتكشف السخرية المريرة لطفلية البشر البائسة ولطبيعتهم المأساوية أمام الأبدية كان باريتون بدوره يقع تحت رحمة دوار عنيف، ولما لم يعد يمسك بقدرنا اليومي إلا بخيط واهٍ فقد انتهى من الوجود.. ومنذ تلك اللحظة، يمكنني القول، لم يعد باريتون واحداً منا، لم يعد بوسعه ذلك..

في نهاية تلك الأمسية ذاتها. طلب مني اللحاق به في حجرة إدارته.. كنت أتوقع بالتأكيد، ونحن على ما نحن عليه أن يفضي إلي بقرار خطير، طردي فوراً على سبيل المثال... إيه حسناً! لا شيء من ذلك. فالقرار الذي اتخذه كان على العكس من ذلك، مؤاتياً جداً بالنسبة إلي. والواقع أنه نادراً ما كان يحدث لي أن أفاجأ بأقدار مؤاتية بحيث لا أستطيع أن أمنع نفسي من

Twitter: @ketab_n

ذرف بضع دمعات. كان باريتون يريد أن يعتبر هذه الشهادة عن انفعالي على أنها حزن ألم بي، وأراد هو بدوره أن يواسيني...

«هل سيخالجك الشك بكلامي يا فرديناند إذا ما أكدت لك بأنني قد احتجت إلى قدر أكبر وأسمى من الشجاعة كي أقرر مغادرة هذا المشفى؟... أنا الذي تعرف أنت عاداتي المتأصلة... أنا العجوز في المحصلة، والذي لم تكن مسيرة عمله كلها، سوى مراجعة طويلة، دؤوبة جداً ودقيقة جداً لمقدار من المكر الشرير البطيء والسريع.. كيف توصلت، خلال بضعة أشهر، وهل يمكن تصديق ذلك، إلى أن أتخلى عن كل شيء؟.. وها أنا ذا، جسداً وروحاً في حالة من الانفصال التام، ومن النبل... يا فرديناند... هوراه.. مثلما تقول بالإنكليزية.. لم يعد ماضيّ بالتأكيد، يعني لي أي شيء! سأولد من جديد يافرديناند بكل بساطة.. أنا أرحل! أوه، إن دموعك أيها الصديق الطيب لن يسعها أن تخفف من القرف العميق الذي أستشعره لكل ما يشدني إلى هذا المنزل طوال عدد كبير من السنين الخاوية من المعنى، هذا كثير جداً! حسبي يا فرديناند.. أنا راحل أقول لك! أنا أفرّ! أولي الأدبار! من المؤكد إنني أتمزق! أعلم ذلك! إنني أنزف! أرى ذلك! إيه حسناً يا فرديناند، ها أنذا أتخلى عن عالمي مجاناً، بلا ثمن، أي ثمن يا فرديناند! أنت لن تجعلني أعود على أعقابي! هل تسمعني؟ حتى لو تركت عيناً من عيني تسقط هنا في مكان ما وسط هذا الوحل. فلن اعود لألتقطها! إذن! هذا كل ما اقوله لك، فهل ترتاب الآن بإخلاصي؟

لم أعد أرتاب بشيء على الإطلاق، كان باريتون قادراً بلا ريب، على فعل أي شيء.. وارتأيت فوق ذلك، بأنه كان من المحتم أن أعارض الموقف الذي وضع نفسه به، تركت له مهلة، ثم حاولت مع ذلك، قليلاً ثنيه. عن

Twitter: @ketab_n

قراره. كنت أجازف في محاولة أخيرة كي أعيده إلينا... عبر حجج وذرائع مقابلة... أدليت بها برقة وتهذيب.

«دعك من هذا يا فرديناند، لا تأمل بأن تراني متراجعاً عن قراري. إنه قرار نهائي لا رجعة عنه أقول لك! سأكون سعيداً جداً إن لم تعد تحدثني عن ذلك... للمرة الأخيرة يا فرديناند، هل تريد أن تجعلني سعيداً؟ ففي مثل عمري تغدو النداءات الباطنية نادرة... أليس كذلك؟ ولكنها تستعصي على التعديل.

تكلم كانت أقواله بالضبط، أقواله الأخيرة تقريباً التي نطق بها «ربما، يا عزيزي السيد باريتون، تجرأتُ مع ذلك على مقاطعته، ربما كانت هذه الأنواع من العطلات المرتجلة التي تستعد للقيام بها لا تشكل بالضبط سوى حدث روائي إلى حد ما... تحول مؤات، استراحة طيبة، خلال مسيرة عملك الشاقة بالتأكيد! ولعلك بعد أن تجرب حياة أخرى... أحفل بالمتعة، وأقل منهجية، من تلك التي تعيشها هنا، لعلك ستعود إلينا بكل بساطة، سعيداً بسفرك، سئماً مما صادفت من أمور غير متوقعة؟ ستعود حينئذٍ، على نحو طبيعي جداً إلى موقعك على رأس عملنا... فخوراً بخبراتك الجديدة... متجدداً في المحصلة، متسامحاً كلياً من دون شك، ومتقبلاً حينذاك للرتابة اليومية في عملنا الروتيني.. شائخاً في النهاية... إذا سمحت لي مع ذلك بالتعبير على هذا النحو يا سيد باريتون؟

- أي إطراء هذا يا فرديناند! ها أنت قد وجدت الوسيلة إلى ملامسة غروري الذكري، الحساس المتطلب أيضاً... لا يا فرديناند! كل البراعة التي تظهرها لن يسعها، في أية لحظة من اللحظات أن تلطف كل ما ظل عدائياً ومؤلماً بنحو شنيع، في أعماق إرادتي. وفوق ذلك يا فرديناند، فإن زمن

Twitter: @ketab_n

التردد، والعودة إلى حيث كنت، قد ولى... أعترف لك يا فرديناند، وأصرح أمام الملأ بأنني خاو! مخبول! مهزوم أمام أربعين عاماً من الحقارات الحاذقة... هذا كثير جداً... ما أريد أن أجربه. هل ترغب في معرفته؟ يمكنني أن أبوح لك به. يا صديقي الأوفى. أنت الذي أردت فعلاً أن تحمل بنزاهة وحب نصيباً من آلام عجوز مدحور... أريد يا فرديناند أن أذهب لأضيع روحي مثلما يضيع كلبه الأجرب، كلبه العفن، بعيداً. رفيقك الذي يثير نفورك قبل أن يموت... أخيراً، وحيداً... مطمئناً..

- ولكن يا عزيزي السيد باريتون، إن هذا القنوط الشديد الذي كشفت لي فجأة عن دواعيه القاسية لم يكن قط بادياً لي، وهذا ما يدهشني، في أية لحظة من اللحظات التي كنت استمع إليك فيها. على العكس من ذلك تماماً، فما تزال ملاحظاتك اليومية تبدو لي اليوم حصيفة جداً... وجميع مبادراتك مرحة ومثمرة.. ومداخلاتك الطبية حاذقة جداً ومنهجية.. عبثاً أبحث في مجرى نشاطاتك اليومية عن أدنى إشارة إلى الوهن أو الانهيار... ولكنني في الحقيقة لم ألحظ أي شيء من ذلك..»

غير أن باريتون للمرة الأولى منذ تعرفت عليه لم يكن يشعر بأية سعادة من الاستماع إلى مجاملاتي. وقد نهاني بلطف عن مواصلة إطرائه، والثناء عليه.

«لا، يا عزيزي فرديناند، أؤكد لك.. هذه الشهادات الخالصة عن صداقتك تلطف بالتأكيد، وعلى نحو غير متوقع اللحظات الأخيرة من وجودي هنا، غير أن كل عنايتك هذه لن يسعها أن تجعلني متسامحاً مع ذكرى ماض يرهقني ويضنيني، تسيل به هذه الأماكن.. والتي أريد بأي ثمن وضمن أي شروط أن أبتعد عنها.

Twitter: @ketab_n

- ولكن هذا المشفى أيضاً، يا سيد باريتون، ما الذي سنفعل به بعد الآن؟ هل فكرت بذلك؟

- نعم، بالتأكيد، فكرت به يا فرديناند، ستتولى أنت إدارته طوال فترة غيابي... وهذا كل شيء.. ألم تعقد دائماً علاقات حسنة مع المرضى.. إدارتك ستكون مقبولة.. وكل شيء سيسير على أحسن وجه. سترى ذلك، يا فرديناند. أما بارابين، فما دام أنه لا يطيق المحادثة والحوار، فسيهتم بالأمور الميكانيكية، بالأجهزة والمخابر... إنه يجيد ذلك! على هذا النحو ستنتظم كافة الأمور..

الواقع أنه كان قد غدا شخصاً آخر يصعب التعرف عليه. «ولكن ألا تخشى البتة، يا سيد باريتون. من أن يثير رحيلك تعليقات ماكرة من قبل منافسينا في الجوار؟ من باسي على سبيل المثال؟ أو من مونترو؟.. أو من غارغان ليفري؟.. من كل من يحيطون بنا؟.. وعيونهم تراقبنا، من الزملاء المخادعين دون كلل.. أي معنى سيعطونه لاعتزالك النبيل والإرادي؟ كيف سيصفونه؟ هروب من الواجب؟ طيش؟ هزيمة؟ إفلاس؟ من يعلم؟...»

هذا الاحتمال جعله، من دون شك يفكر طويلاً وبعناء شديد، كان ما يزال مضطرباً، هناك. أمامي، شاحباً وهو يفكر بذلك...

إيمي، ابنته، مخلوقنا البريء، كانت ستعاني، في ذلك كله مصيراً قاسياً إلى حد كبير، لقد عهد برعايتها إلى عمة من عماتها، لا أحد يعرفها في الحقيقة، في الريف. وهكذا فإن كافة الأمور الشخصية قد سويت ولم يبق لنا، لي ولبارابين إلا بأن نبذل جهودنا لإدارة جميع مصالحه وأمواله. لندع القارب إذن يجري دون قبطان.

كان بإمكاني أن أسمح لنفسي بعد هذه المسارات الحميمة، كما بدا لي، أن أسأل معلمنا عن الجهة التي ينوي الانطلاق إليها في مغامرته...

Twitter: @ketab_n

«إلى إنكلترا! يا فرديناند» أجابني دون أن يرف جفنه.

كل ما حدث لنا خلال زمن قصير جداً. بدا لي بالتأكيد عسيراً على التمثل والاستيعاب. ولكن كان جديراً بنا مع ذلك أن نتكيف مع هذا القدَر الجديد دونما إبطاء..

في الغد ساعدناه، بارابين وأنا على إعداد متاعه. جواز السفر مع كافة الأوراق والتأشيرات أثارت دهشته قليلاً. لم يكن قد امتلك سابقاً جواز سفر... ترنح مرة أخيرة إزاء مسألة الياقات القاسية أو الطرية التي كان عليه أن يرتديها خلال الرحلة، وكم ياقة من كل نوع؟ ظلت هذه المعضلة بين أخذ ورد، حتى ساعة انطلاق القطار. قفزنا ثلاثتنا إلى الترام الأخير المتجه إلى باريس، لم يكن باريتون يحمل سوى حقيبة خفيفة، عازماً أن يظل في كل مكان يذهب إليه، وفي جميع الظروف، متحركاً بحرية، خفيفاً للغاية.

على الرصيف، أثار الارتفاع النبيل لدرجات سلم القطارات العالمية انفعاله. كان متردداً في تسلق تلك الدرجات المهيبة، استغرق في التأمل أمام الحافلة كما لو أنه أمام أحد الأوابد، ساعدناه بعض المساعدة، ما أن استقر في الدرجة الثانية حتى ألقى إلينا بملاحظته الأخيرة، ملاحظة مقارنة، وعملية وباسمة «ركاب الدرجة الأولى ليسوا أفضل».

مددنا له أيدينا، لقد حانت ساعة الرحيل، صفر القطار مؤذناً بالانطلاق، واهتز هيكله بقوة، مصدراً قعقعة كارثية، كان وداعنا جافاً دونما حرارة. إلى اللقاء، يا أولادي!» كان لديه الوقت ليقول لنا ذلك بعد أن انفصلت يده عن أيدينا المرفوعة.

كانت يده تتحرك هناك وسط الدخان، ممدودة في قلب الضجيج، في ظلمة الليل عبر القضبان، بعيدة أكثر، بيضاء.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> لم أشعر بأسف على رحيله، ولكن ذلك الرحيل خلق فراغاً مهيباً داخل المشفى.

الطريقة التي رحل بها جعلتنا بادئ بدء حزينين، على الرغم منا تقريباً، لم تكن طبيعية تلك الطريقة التي رحل بها. كنا نتساءل عما يمكن أن يحدث لنا بعد هذا الحدث.

غير أنه لم يكن لدينا الوقت لنتساءل طويلاً، ولا لنشعر بالضجر أيضاً، فلم تكد تنقضي أيام معدودة بعد مرافقة باريتون إلى المحطة حتى أخبروني بأن ثمة من جاء يزورني في المكتب، لي أنا بوجه خاص، الأب بروتيست.

أخبرته حينئذٍ بأخبار، وأخبار كثيرة... والطريقة الفريدة، بوجه خاص التي كان قد تركنا فيها باريتون جميعاً، كي يذهب ليتجول في بلاد الشمال. أبدى بروتيست دهشة عظيمة حين أخبرته بذلك، وعندما فهم في النهاية، لم يكن يتبين في هذا التغيير سوى الفائدة التي كان يمكنني أن أجنيها من مثل هذا الوضع. «هذه الثقة من مديرك تبدو لي أرفع تعبير عن ترقيتك يا عزيزي الدكتور!» كان يثرثر بلا نهاية.

حاولت عبثاً تهدئته، وقد اجتاحته الحميا. لم يعد يكف عن عبارات المجاملة، وعن التنبؤ لي بأعظم مستقبل. وبمسيرة طبية مزدهرة. مثلما كان يقول. لم يعد بوسعي مقاطعته.

بمزيد من العناء عدنا مع ذلك، إلى الأمور الجدية، إلى تلك المدينة تولوز بالتحديد، التي جاء هو منها، تركته بالطبع يروي لي بدوره، ما كان

Twitter: @ketab_n

يعرفه، وتظاهرت أنا كذلك بالدهشة، والذهول، حين أخبرني بالحادث الذي وقع للعجوز.

«كيف؟ كيف؟ قاطعته، هل ماتت؟.. ولكن متى حدث ذلك هيا؟»

استطراداً في الحديث كان عليه أن يبوح لي بما يعرفه.

دون أن يظهر لي قطعاً بأن روبنسون كان هو الذي دفع العجوز فوق درجها الصغير، لم يمنع نفسه مع ذلك منِ أن يطرح هذا الافتراض... لم يكن لديها الوقت لتقول أوف قبل أن تلفظ أنفاسها كما يبدو... هذا ما فهمته...

كان ذلك جميلاً، ومعداً بعناية... ففي المرة الثانية التي يكرر فيها روبنسون المحاولة، لم يخطئ العجوز.

كان روبنسون، لحسن الحظ، يُنظر إليه في الحي في تولوز على أنه أعمى كلياً. لذا فإنهم لن يعتبروا ما جرى أكثر من حادث، مأساوي بالتأكيد، ولكن من الممكن مع ذلك تأويله كذلك بعد إمعان النظر قليلاً في كل شيء، في الظروف، وفي عمر العجوز. وفي أن ما حدث كان في نهاية النهار. حين تكون العجوز متعبة... لم أحرص في تلك اللحظة على معرفة المزيد، كنت قد تلقيت ما يكفي ويزيد من الأسرار.

رغم ذلك، فقد لاقيت عنتاً في تغيير دفة الحديث. فالأب بروتيست قد استحوذت عليه حكايته، كان يعود إليها أيضاً ودائماً، آملاً بلا ريب في أن يخترق أسواري، أن يعرضني للشبهة. كان الوقت ظهراً... كان يمكنه أن يسرع إلى غايته.. ولكنه عدل عن ذلك، واكتفى بأن يحدثني عن روبنسون، وعن صحته، وعن عينيه... في هذا الصدد، كان روبنسون يتحسن باطراد... ولكن معنوياته هي التي كانت دائماً سيئة، معنوياته بوجه القطع. لم تكن تسير على ما

Twitter: @ketab_n

يرام، وهذا على الرغم من العناية، ومن الحنان الذي تغدقه عليه المرأتان باستمرار. ولكنه بالمقابل، لم يكن يكف عن الشكوى، من مصيره ومن حياته.

لم أتفاجأ لدى سماعي كل ما يقوله الخوري، فقد كنت أعرف روبنسون. وما كان يتمتع به من سوداوية وجحود، ولكنني كنت أرتاب بالأب كثيراً جداً.. لم أكن أنبس بكلمة أثناء حديثه لي. لم يحصل إذن على أية فائدة مما بذله لي من أسرار.

«صديقك. يا دكتور، على الرغم من أنه يعيش الآن حياة رغدة، سهلة، وفضلاً عن ذلك احتمالات زواج سعيد بعد وقت قريب، خيب جميع آمالنا. ينبغي أن أعترف لك. ترى، ألم يعاوده ذلك الميل المشؤوم إلى الأعمال الطائشة، ذلك الميل الفاسد الذي تعهده أنت فيه في أوقات أخرى؟ ما الذي تراه أنت في هذه الحالات. يا عزيزي الدكتور؟»

لم يكن روبنسون يفكر هناك، إذا ما فهمت جيداً إلا بأن يترك كل شيء ويولي الفرار، كانت خطيبته وأمها مغتاظتين من ذلك في البداية، ثم بدأتا تشعران بحزن ثقيل لا حد له... ذلكم ما جاء ليفضي به إلي الأب بروتيست. كل ذلك كان مكدراً بالتأكيد. قررت من جانبي بأن أصمت، ولا أتدخل، بأي ثمن، في الشؤون الصغيرة لتلك العائلة. محادثة مجهضة، غادرنا بعضنا أنا والأب عند باب الترام. ولدى عودتي إلى المشفى لم يكن ذهني هادئاً مطمئناً.

بعد وقت قصير جداً من هذه الزيارة تلقينا من إنكلترا الأخبار الأولى من باريتون، بضع بطاقات بريدية، يتمنى لنا فيها جميعاً «صحة جيدة، وحظاً طيباً». كتب لنا أيضاً بضعة أسطر ضئيلة الأهمية.

Twitter: @ketab_n

علمنا أنه مر بالنرويج، وبعد بضعة أسابيع وصلتنا برقية يطمئننا فيها قليلاً «عبوراً سعيداً» إلى كوبنهاغن.

مثلما توقعنا فإن غياب المعلم أثار تعليقات خبيثة جداً في فينيه نفسها وفيما حولها. كان من الأفضل من أجل مستقبل المشفى بأن لا ندلي من الآن فصاعداً، حول أسباب هذا الغياب إلا بالحد الأدنى من التفسيرات، أمام مرضانا، مثلما أمام زملائنا في الجوار.

مرت شهور أيضاً، شهور من الحذر الشديد، كدرة، صامتة، انتهينا إلى أن نتحاشى كلياً استعادة ذكرى باريتون ذاتها فيما بيننا. كانت ذكراه، بالإضافة إلى ذلك، تثير فينا جميعاً شيئاً من الخجل.

ثم عاد الصيف، لم يكن بإمكاننا أن نظل طوال الوقت في الحديقة لمراقبة المرضى. ولكي نثبت لأنفسنا بأننا كنا، على الرغم من كل شيء أحراراً إلى حد ما، كنا نغامر في الذهاب إلى ضفة السين. مسألة خروج من قوقعتنا.

بعد ردم الضفة الأخرى يبدأ سهل جانفيييه. امتداد بهي جداً، رمادي وأبيض، حيث المداخن ترتسم بلطف وسط الغبار والضباب، وقريباً جداً من مرسى السفن تقوم حانة البحارة، تحرس مدخل القناة، فيما يندفع التيار الأصفر نحو هويس القناة.

كنا نرنو بأبصارنا إلى ذلك المشهد من علٍ طوال ساعات. وغير بعيد عن ذلك يمتد نوع من مستنقع كبير أيضاً تصل رائحته المتكتمة حتى طريق السيارات. اعتاد عليها الجميع. لم يعد لهذا الوحل أي لون، لفرط ما شاخ وتعب بسبب الفيضانات، كان يبدو أحياناً في أمسيات الصيف لطيف المنظر، حينما

Twitter: @ketab_n

كانت السماء الوردية تتحول إلى مشاعر رقيقة. كنا نذهب هناك إلى الجسر، لنستمع إلى ألحان الأوكورديونات الصادرة من القوارب، فيما هي تنتظر أمام البوابة، حين ينتهي الليل إلى المرور فوق النهر، ولا سيما تلك القوارب القادمة من بلجيكا والتي ترتدي لوناً يذهب من الأخضر إلى الأصفر، تجف فوق سطحها ثياب داخلية نسائية مغسولة مزدانة بالخيوط، تلعب بها الريح وتنفخها من الداخل مع كل هبة.

كنت أذهب غالباً، إلى حانة البحارة. وحيداً في الساعة الميتة التي تعقب الغداء. حينما تكون هرة المعلم ترقد وادعة بين جدران أربعة، كما لو أنها سجينة داخل سماء صغيرة من الطلاء الخزفي الأزرق، لها وحدها فقط.

هناك، كنت أنا أيضاً، أهوم في النعاس، في بداية ما بعد الظهيرة؟ أنتظر، مهجوراً تماماً، أن تمضي تلك الساعات من النهار.

رأيت ذات يوم شخصاً مقبلاً من بعيد، كان يصعد الطريق، استبدت بي الحيرة طويلاً لدى النظر إليه، وما كاد يصل الجسر حتى عرفته، لقد كان روبنسوني ذاته. ما من خطأ محتمل! «جاء إلى هنا ليبحث عني! قلت لنفسي على الفور. لابد أن الخوري قد أعطاه عنواني!... ينبغي أن أتخلص منه سريعاً».

كنت أجد من الفظاعة أن يزعجني أحد في تلك اللحظة التي بدأت أرمم فيها أناي الصغير، كنت أرتاب بما تأتيني به الدروب وقد صدق ظني. ها هو روبنسون إذن، قد وصل قريباً جداً من الحانة. وحين خرجت إليه بدا عليه أنه تفاجأ برؤيتي. «من أين أتيت أيضاً، سألته هكذا بخشونة- من الغارين... أجابني

Twitter: @ketab_n

- حسناً، هذا جيد، هل أكلت؟ سألته. لم يكن يبدو عليه بالمرة أنه قد أكل، ولكنه لم يكن يريد أن يبدو عليه الإنهاك من الجوع لدى وصوله. «ها أنت ذا ما تزال تتجول إذن؟» أضفت، لأنني لم أستطع أن أقول له الآن، بأنني كنت غير مسرور على الإطلاق برؤيته ثانية. والواقع أنه كان قد كدرني إلى أبعد حد.

وصل بارابين أيضاً من ناحية القناة كي يلقاني. كان مجيئه في الوقت المناسب. كان بارابين متعباً لكونه أمضى وقتاً طويلاً في الحراسة داخل المشفى. والحق أنني كنت أتصرف على هواي فيما يخص الخدمة في المشفى. في البداية، وفيما يتعلق بالوضع كنا سنفعل أي شيء أنا وبارابين كي نعرف بالضبط متى سيعود باريتون. كنا نأمل بأنه سينتهي عما قريب من تجواله كي يعاود تجارته، ويهتم بها بنفسه. كان ذلك أكثر مما نتحمل. لم يكن لدينا أي طموح، لا أنا ولا بارابين، ولم نكن نبالي باحتمالات المستقبل، كان خطأ منا، مع ذلك.

ينبغي التعامل بإنصاف مع بارابين، ذلك أنه لم يطرح قط أي سؤال حول الوكالة التجارية للمشفى، ولا حول الطريقة التي أتصرف فيها مع الزبائن، كنت أخبره فقط، مع ذلك، رغماً عنه في الحقيقة. كنت أتصرف، إذن، وحدي. أما بصدد حالة روبنسون فقد كان من المهم أن أطلعه عليها.

«حدثتك سابقاً عن روبنسون، أليس كذلك؟ سألته على نحو تمهيدي. أنت تعرف جيداً صديقي في الحرب؟ هل تذكرته؟»

كان قد استمع إلي بالطبع مئة مرة عن قصص الحرب، وعن حكايات إفريقيا أيضاً، ومئة مرة بطريقة مختلفة. كانت تلك طريقتي.

Twitter: @ketab_n

«إيه حسناً، تابعت كلامي.. ها هو روبنسون الآن، جاء بعظمه ولحمه من تولوز كي يزورنا... سنتغذى سوياً في المشفى.» والواقع أنني حين تحدثت على هذا النحو باسم المشفى. شعرت ببعض الكدر. ذلك نوع من إذاعة الإسرار كنت قد ارتكبته، كان علي مراعاة للظرف أن أمتلك سلطة مرنة، لطيفة، تجعلني غير مرئي تماماً. ثم إن روبنسون نفسه لم يسهل علي الأمور، فعلى الطريق الذي كان يقودنا إلى البلدة، كان يبدو فضولياً جداً، وقلقاً، ولا سيما حول موضوع بارابين الذي كان وجهه المتطاول والشاحب بالقرب منا يشغل باله. لقد اعتقد في البداية بأن بارابين كان أحد المجانين، ومنذ أن عرف أين كنا نقيم في فينيه صار يرى مجانين في كل مكان. وقد طمأنته وهدأت مخاوفه.

- وأنت سألته، هل عثرت، على الأقل، على عمل ما منذ أن عدت إلى هنا؟

- سأبحث عن عمل.. اكتفى بهذا القدر في رده علي

- وعيناك، هل شفيتا تماماً؟ هل ترى جيداً بهما الآن.

- نعم، أنا أرى بهما مثلما في السابق...

- إذن هل أنت مسرور؟ قلت له.

لا، لم يكن مسروراً، كان عليه أن يفعل أي شيء آخر سوى أن يكون مسروراً. تجنبت التحدث إليه عن ماديلون حالاً. كان ذلك موضوعاً حساساً جداً بيننا. قضينا وقتاً طويلاً أمام طاولة الشراب، وانتهزت الفرصة كي أطلعه على كثير من الأشياء في المشفى، وعلى تفاصيل أخرى أيضاً. لم أستطع أن أمنع نفسي من الثرثرة خبط عشواء، لست مختلفاً كثيراً في المحصلة عن

Twitter: @ketab_n

باريتون. انتهى العشاء، بجو من المودة، وبعد العشاء، لم أستطع مع ذلك، إعادة روبنسون، في الحال التي هو فيها، إلى الشارع، قررت على الفور أن أهيئ له في صالة الطعام سريراً صغيراً بانتظار الغد، لم يبد بارابين أي رأي على الإطلاق «حسناً يا ليون! قلت له. هذا مكان تبيت فيه، ما دمت لم تجد بعد مكاناً تأوي إليه...

– شكراً رد علي ببساطة، ومنذ تلك اللحظة، كان يذهب كل صباح عبر الترام إلى باريس زاعماً أنه يبحث عن وظيفة وكيل تجاري.

كان قد لاقى الأمرين في المعمل، كما كان يقول، وهو يود أن يعمل «وكيلاً تجارياً». لعله كان يواجه صعوبة في العثور على تمثيل من هذا النوع. ينبغي أن يكون المرء منصفاً، ولكنه لم يعثر على الإطلاق على أي عمل من أي نوع.

ذات مساء عاد من باريس أبكر من المعتاد. كنت ما أزال في الحديقة أراقب حواف الحوض الكبير. جاء إلي ليقول لي كلمتين.

«اصغ إلي! بدأ كلامه.

– أنا أصغي إليك. أجبته.

– ألا يمكنك أن تدبر لي وظيفة هنا، بالذات. لم أجد أي شيء في أي مكان آخر.

– هل بحثت جيداً؟

– أجل بحثت جيداً.

– تريد وظيفة في الملجأ؟ ولكن ماذا ستعمل هنا؟ ألم تجد إذن عملاً صغيراً في باريس؟ هل تريد أن يسعى من أجلك بارابين لدى أشخاص يعرفهم كي يؤمنوا لك عملاً.

Twitter: @ketab_n

كان ذلك مزعجاً له، حين اقترحت عليه التوسط لإيجاد عمل.

- «ليس الأمر أنني لم أجد عملاً. تابع حينئذٍ. ربما سأجد... عملاً صغيراً.. حسناً، ولكنك ستفهمني.. ينبغي حتماً بأن أتظاهر بأنني مريض عقلياً... من الملح، ومن الضروري أن أبدو مختلاً عقلياً.

- حسن. قلت له حينئذٍ، لا تتفوه أمامي بالمزيد عن ذلك.

- بلى، بلى، يا فرديناند، على العكس، ينبغي أن أقول لك المزيد عن ذلك، كان مصراً. أنت تفهمني جيداً... ولكنك كما أعرفك منذ البداية، بحاجة إلى وقت طويل كي تفهم وكي تقرر...

- هيا إذن، قلت له. مستسلماً، تحدث..

- إن لم أتظاهر بأنني مجنون، فسوف تسوء أحوالي، أراهنك على ذلك... ستتأزم أموري.. إنها قادرة على إيداعي في السجن.. أنت تفهمني الآن..

- تقصد مادلين أليس كذلك؟

- نعم بالتأكيد، إنها هي!

- هذا لطيف!

- يمكنك أن تقول ذلك..

- أنتما متخاصمان كلياً الآن؟

- كما ترى..

- تعال من هنا، إذا كنت تود أن تقدم لي تفاصيل! قاطعته حينئذٍ، ثم انتحيت به جانباً. كان لابد من الاحتراس أكثر بسبب المجانين.. إذ يمكنهم أن يفهموا أيضاً أموراً، وأن يلغطوا بها على نحو مضخم أيضاً...»

Twitter: @ketab_n

صعدنا إلى إحدى غرف المعزل، ولما خلونا فيها لم يستغرق روبنسون وقتاً طويلاً ليعيد أمامي تمثيل خطته المدبرة، للقضاء على العجوز لاسيما أنني كنت متثبتاً من قدراته، وكان الأب بروتيست قد تركني أفترض ما تبقى.

في المحاولة الثانية لم يخطئ روبنسون العجوز. لم يعد من الممكن القول بأنه ارتبك أيضاً مرة أخرى. لا، على الإطلاق، ذلك مؤكد.

- أنت تفهم، صارت العجوز تضايقني أكثر فأكثر... وعلى الأخص منذ اللحظة التي بدأت تتحسن فيها حالة عينيّ، أي حينما بدأت أستطيع السير وحدي في الشارع... رأيت الأشياء من جديد بدءاً من تلك اللحظة.. ورأيت العجوز ثانية أيضاً.. صرت أرى على نحو أفضل منها. كانت هناك أمامي طوال الوقت! كما لو كانت تسد طريق حياتي... كنت أعتقد بأنها كانت تفعل ذلك عن عمد، بأن تكون هناك... لا لشيء إلا لكي تسمم حياتي... لا يمكن تفسير ذلك على نحو آخر! وفي المنزل الذي كنا فيه جميعاً، أنت تعرف المنزل جيداً، لم يكن من السهل أن لا نتشاجر. لقد رأيت أنت كم كان صغيراً!

- ودرجات المدفن، لم تكن متماسكة، أليس كذلك؟»

كنت قد لاحظت بنفسي كم كان الدرج خطراً، حينما قمت بزيارتي لأول مرة، برفقة ماديلون، فقد كانت الدرجات تهتز تحت أقدامنا وتتداعى. «نعم، بالنسبة إلى الدرج كان متداعياً كلياً تقريباً». وافقني، بكل صراحة.

- والأشخاص الذين كانوا هناك؟ سألته أيضاً، الجيران، الخوارنة، الصحفيون... ألم يدلوا بملاحظات صغيرة، حينما حدث ذلك؟.

- لا، صدقني.. ومن ثم.. لم يكونوا يعتقدون بأنني أنا الجاني... كانوا يعتبرونني جباناً رعديداً، أعمى.. هل تفهم؟.

Twitter: @ketab_n

– أخيراً، أنت تعتبر نفسك سعيداً إذن، لأن الأمور لم تجر خلاف ذلك؟.. وماديلون؟ ما الذي فعلته في هذه الخدعة. هل شاركت فيها أيضاً.

– لا على الإطلاق، ولكن رغماً عنها مع ذلك ودون أن تدري. ما دام أنه كان علينا، كما تعلم، أن نعود إلى المدفن كلانا نحن الاثنين، بعد أن تخرج منه العجوز، على هذا النحو رتبت الخطة. كان علينا أن نكون في داخله كلانا أنا وماديلون.

– لماذا إذن بعد ذلك تعثرت علاقة حبكما؟

– هذا الأمر، أنت تعلم، من الصعب جداً شرحه..

– ألم تعد تريدك؟

– ولكن بلى، على العكس. إنها تريدني فعلاً، حتى أنها ظلت مصرة بقوة على موضوع الزواج.. أمها أيضاً كانت تريد ذلك وأكثر من السابق، تريد أن يتم الزواج بسرعة، بسبب أن مومياءات الأم هنروي قد آلت إلينا، وصار لدينا ما يكفل لنا العيش ثلاثتنا جميعاً باطمئنان منذ الآن .

– ما الذي حدث بينكما إذن؟

– إيه حسناً، أريد منهما أن تتركاني كي أذهب بسلام... الأم وابنتها..

– اسمع يا ليون! أوقفته فوراً لدى سماعي منه تلك الكلمات.. اصغ إلي... أضاليلك هذه لا يمكن أخذها مأخذ الجد أيضاً. ضع نفسك مكان ماديلون وأمها، هل ستكون مسروراً لو كنت في مكانهما؟ كيف؟ حينما وصلت إلى هناك لم يكن في قدميك حذاء، كان وضعك مهلهلاً للغاية، ولم تكن تكف عن الدمدمة والاحتجاج طوال النهارات بأن العجوز تسرق نقودك، وكذا وكذا... ثم اختفت العجوز، أنت أخفيتها بالأحرى.. وبدأت من جديد

Twitter: @ketab_n

تبدي الاستياء مرة أخرى، وتقطب وجهك. ضع نفسك مكان هاتين المرأتين. ضع نفسك ولو قليلاً! هذا لا يطاق! لقد كنت تستحق مئة مرة أن تركلاك. أود كثيراً أن أقول لك ذلك!»

هذا ماقلته لروبنسون في تلك اللحظة.

«هذا ممكن، أجابني حينئذٍ سريعاً، ولكن من العبث كونك طبيباً، ومثقفاً وكل شيء، فأنت لا تفهم طبيعتي...

- اصمت يا ليون، قلت في النهاية، اصمت أيها التعس الصغير، أنت وطبيعتك. أنت تتحدث عن نفسك كمريض! من المؤسف أن باريتون قد رحل الآن إلى أربع جهات الأرض، وإلا لكان عالجك مما أنت فيه، سيكون ذلك أفضل ما يمكن عمله من أجلك. بأن يتم عزلك في البداية! هل تسمعني! أن تعزل، وسيهتم باريتون حينئذٍ بطبيعتك.

- لو كنت تحمل في داخلك ما أحمل، لو كنت مررت أنت بما مررت به، عاند روبنسون وهو يسمعني، لكنت أنت مريضاً من دون شك! أراهنك على ذلك، بل وربما أسوأ مني أيضاً، خائراً مثلما أعرفك!..»

بدأ روبنسون الآن يهاجمني بشدة كما لو كان يملك الحق بذلك.

كنت أنظر إليه وهو يكيل لي اللوم والتوبيخ. كنت معتاداً على سوء المعاملة من قبل المرضى. لم يعد يضايقني ذلك. كان قد هزل هزالاً شديداً منذ وصوله إلى تولوز. ثمة شيء ما لم أكن أعرفه بعد كان قد علا وجهه، حتى ليبدو كما لو أن ثمة صورة فوق ملامحه، يحيط بها النسيان والصمت.

في حكايات تولوز كان ما يزال ثمة شيء آخر، أقل خطورة لم يستطع أن يهضمه أو يتمثله، ولكنه حين كان يتذكره، يعاوده مع ذلك سخط شديد.

Twitter: @ketab_n

ذلك أنه كان مضطراً إلى رشوة جميع المتاجرين من حوله دون أي فائدة. حين استعاد المدفن، لم يكن مقتنعاً بأن عليه أن يقدم عمولات، ذات اليمين، وذات اليسار، للخوري، ولمؤجرة الكراسي، ولدار العمدة، وللكاهن ولأشخاص آخرين أيضاً، وكل هذا دون نتيجة في المحصلة. كان ذلك يبلبله حين يعود إلى الحديث عنه. كان يسمي هذه الأساليب بالسرقة.

«وإذن، هل تزوجتما في نهاية المطاف؟ سألته كي أستخلص منه شيئاً.

- ولكن لا، أقول لك، لم أعد أريد ذلك.

- ولكنها ليست سيئة مع ذلك، الصغيرة ماديلون؟ يمكنك أن تقول العكس؟

- ليست هذه هي المسألة..

- ولكن بلى بالتأكيد، تلك هي المسألة، ما دمتما حران مثلما قلت لي... وإذا ما رغبتما بمغادرة تولوز، يمكنكما فعلاً أن تتركا القبو بعهدة أمها، خلال زمن، ثم تعودان فيما بعد..

- بصدد بنية جسدها يمكنك قول ذلك، استأنف روبنسون، إنها فعلاً لطيفة، أوافق على ذلك، ولكن تخيل أنه حينما ارتد إلي بصري للمرة الأولى، كما لو أن ذلك حدث عن عمد، كانت هي أول من وقع عليه نظري.. هل تتخيل.. في غمرة الضوء! ولم يمض شهران تقريباً حتى سقطت العجوز ميتة، لقد عاد إلي نظري فجأة ليقع أول ما يقع على ماديلون، وفيما كنت أحاول رؤية وجهها. لمع شعاع ضوء في المحصلة. هل تفهمني؟

- لم تكن مقبولة؟

- بلى كانت مقبولة، ولكن ليس هذا ما أعنيه.

Twitter: @ketab_n

- وقد وليت الفرار مع ذلك...

- نعم.. ولكنني أريد أن اشرح لك ما دمت تريد أن تفهم، لقد كانت هي التي توددت إلي في البداية، إذ وجدتني مسلياً.. وأتمتع بحيوية جمة... وأنني محبب جداً.. مظاهر خادعة.. بهرجات...

- ربما كان الندم هو الذي كان يقلقك.

- الندم؟

- لا أدري أنا.

- سمه ما شئت، ولكن لم أكن على ما يرام. هذا كل شيء. أعتقد على كل حال، بأن ذلك لم يكن ندماً.

- كنت مريضاً إذن؟

- ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو، بالأحرى. مريض.. نعم مريض، منذ ساعة على الأقل وأنا أحاول أن أجعلك تقول بأنني مريض...

- حسناً! هذا جيد، سأقول بأنك مريض، ما دمت تعتقد بأن ذلك هو الأسلم.

- ستفعل حسناً، كان ما يزال يلح، لأنني لا أضمن أي شيء من جانبها... إنها قادرة فعلاً أن تبوح بكل شيء قبل أن يمر وقت طويل.

كان ذلك أشبه بنوع من نصيحة يقدمها لي، كما يبدو. لم أكن أريد نصيحته، لم أكن أريد قط هذا النوع من النصائح بسبب التعقيدات التي كانت ستجرها من جديد.

- هل تعتقد أنت بأنها ستعترف؟ سألته أيضاً كي أتأكد... ولكنها كانت تبدو في نهاية المطاف متواطئة بعض التواطؤ؟ وهذا سيجعلها تفكر لحظة قبل أن تبدأ بإسالة لعابها.

Twitter: @ketab_n

– تفكر؟ قفز من مكانه حينئذٍ وهو يستمع إلي. يبدو بوضوح بأنك لا تعرفها... «جعله ذلك يمزح وهو يستمع إلي». ولكنها لن تتردد لحظة واحدة!.. مثلما أقول لك. لو كنت قد خالطتها مثلي فلن ترتاب بذلك! إنها عاشقة مولهة، أكرر لك، أنت لم تخالط إذن عشاقاً على الإطلاق؟ فحينما تكون المرأة مولهة، تكون مجنونة، هذا بسيط كل البساطة! مجنونة! وهي مولهة بي ومجنونة بي... هل تدرك ذلك، الأمر بسيط جداً! لن يوقفها هذا عند حد! على العكس... لم يكن بوسعي أن أقول بأن ما يفوه به كان يدهشني مع ذلك بعض الدهشة، بأن ماديلون وصلت خلال بضعة شهور إلى هذه الدرجة من الوله المجنون، ذلك لأنني كنت مع ذلك أعرفها معرفة يسيرة جداً... كان لدي فكرة بشأنها، ولكنني غير قادر على قولها.

بحسب الطريقة التي كانت تتدبر فيها أمورها في تولوز، ومثلما سمعتها حين كنت خلف أشجار الحور يوم القارب، كان من الصعب أن أتصور بأنها استطاعت أن تغير سلوكها إلى هذا الحد خلال وقت يسير... كانت تبدو لي على جانب من الشطارة، أكثر مما هي مأساوية. متحللة بلطف ومكتفية بأن تتزوج، مع بعض قصص صغيرة، وشيء من التصنع والخداع، ما أمكنها ذلك، غير أنه في اللحظة التي كنا نتحدث فيها، لم يكن لدي ما أقوله. لم يكن علي إلا أن أدع الأمور تجري في أعنتها «طيب! حسناً! هذا مفهوم!، قلت مستخلصاً، وأمها إذن؟ لابد من أن تثير بعض الضجة أيضاً، حينما تدرك بأنك قد وليت منهم فراراً.

– صدقت، لقد كانت تكرر أيضاً طوال النهار بأن لدي طباع خنزير، لاحظ ذلك. في تلك اللحظة التي كنت فيها بحاجة إلى أن يكلمني أحد بلطف..

Twitter: @ketab_n

أية موسيقا! لم يعد من الممكن في المحصلة أن يستمر وجودي مع الأم أيضاً، بحيث أنني عرضت على ماديلون أن أترك القبو لهما وحدهما، بينما أقوم أنا في المقابل، بجولة، برحلة وحدي، لأرى بعض نواحي البلاد..

«ستذهب معي، اعترضت حينئذٍ... أنا خطيبتك، أليس كذلك؟ ستذهب معي يا ليون... أو لن تذهب أبداً!... كانت تلح منذ البداية. أنت لم تتعاف بعد بما فيه الكفاية...

– بلى، لقد تعافيت، وسأذهب وحدي! كنت أجيبها... ثم لم ننته من ذلك أبداً.

«ما من امرأة إلا وترافق زوجها! كانت الأم تقول لي.. ليس أمامكما إلا أن تتزوجا» كانت تؤيد ابنتها كي تستثيرني.

«لدى سماعي هذه المماحكات كنت أعاني الأمرّين. أنت تعرفني! كأنني كنت في حاجة إلى امرأة للذهاب إلى الحرب، أو للخروج من الحرب... وفي أفريقيا هل كان لدي نساء؟ وفي أمريكا، هل كان لدي امرأة؟ ومع ذلك، فحين كنت أسمعهما يتحدثان على هذا المنوال في الموضوع ذاته، طوال ساعات كان يجتاحني ألم شديد، ينشب في بطني! المغص! أنا أعلم لأي شيء تصلح النساء في المحصلة! وأنت أيضاً، أليس كذلك؟ لا لشيء على الإطلاق. وفي ذات مساء كانت الأم وابنتها قد أفقدتاني صبري بذلك الخليط المشوش من الأضاليل، وحينئذٍ قذفت في وجه الأم رشقة من الشتائم تحمل كل ما كان يخطر لي من أفكار عنها «لست أنت سوى عجوز بلهاء، قلت لها... أنت أيضاً أكثر غباء من الأم هنروي... لو كنتِ عرفت عدداً قليلاً من الأشخاص والبلدان الذين عرفتهم أنا لما انبريت سريعاً إلى إسداء النصائح ذات اليمين وذات الشمال. هل تحسبين انك

Twitter: @ketab_n

بالتقاطك فضلات الشحم في زوايا كنيستك المقززة، في الليل والنهار، ستفهمين الحياة، اخرجي إذن قليلاً، أنت أيضاً، فهذا سيفيدك! اذهبي إذن وتجولي قليلاً أيتها العجوز القذرة، سينعشك ذلك، سيكون لديك القليل من الوقت لتتلي صلواتك، وستخف نتانة رائحتك أيتها البقرة!...»

«على هذا الغرار عاملتُ الأم، أؤكد لك بأنني ومنذ زمن طويل قد تعبت من شتمها، وأنها كانت، بكل قذارة في حاجة إلى ذلك الشتم، على الأكثر... بالإضافة إلى أن ذلك كان، بالأحرى، يريحني كلياً... كما لو أنه يحررني مما كنت أعانيه. وبدا لي أن تلك الجثة النتنة لم تكن تنتظر سوى هذه اللحظة التي كشفت فيها عن شعوري تجاهها، كي تنقض علي، بدورها بكل النعوت القذرة التي تعرفها، سالت بها مع لعابها حينئذٍ، وحتى أكثر مما كان يلزم منها، لقد أوسعتني قذفاً وشتماً... «لص! تنبل! نذل! فاجر! ليس لديك حتى مهنة، ستنقضي سنة عما قريب وأنا أطعمك، أنا وابنتي! أنت لاتصلح لشيء! قواد!...» هل تسمع ذلك؟.. مشاحنات عائلية حقيقية... ثم كأنما قد فكرت لحظة، وقالت بصوت خفيض أولاً، ثم صاحت من أعماق قلبها «قاتل... قاتل» فتثلجت أطرافي قليلاً بسبب ذلك.

«حين سمعت البنت ذلك داخلها الخوف من أن أنقض على أمها فألقت بنفسها بيننا، وأغلقت فم أمها بيدها، وقد فعلت خيراً. كانتا إذن على اتفاق في الرأي فيما بينهما، الجثتان العفنتان كلتاهما، قلت هذا لنفسي، كان ذلك جلياً، وأخيراً خرجت لا ألوي على شيء. لم تكن تلك اللحظة لحظة عنف، ثم لم أكن أبالي على أي حال باتفاقهما في الرأي... هل يمكنك الاعتقاد بأنهما بعد أن تهدأ ثائرتهما ستتركاني هادئاً؟ أنت تتصور ذلك! ولكن لا، هذا يعني أنك

Twitter: @ketab_n

لا تعرفهما... لقد أرجأت الفتاة ذلك، ولكن ناراً كانت تشتعل في قلبها ومن ثم في إستها... وقد عاودتها النار من جديد.

«أنا أحبك يا ليون، أنت ترى جيداً بأنني أحبك، يا ليون... «لم تكن تعرف سوى هذه العبارة.. أنا أحبك» كما لو أنها كانت جواباً شافياً على كل شيء.

«أما تزالين تحبينه؟ تجيب أمها، حين تسمعها، ولكن ألا ترين إذن بأنه ليس أكثر من سوقي داعر؟ أتفه من أي شيء، الآن وقد استرد نظره بفضلنا، سيسبب لك التعاسة يا ابنتي. أقسم لك على ذلك، أنا أمك..» بكى الجميع في نهاية هذه المشاحنة، وحتى أنا، لأنني لم أكن راغباً في المزيد من الخصام مع هاتين البغيتين وفي إزعاج نفسي أكثر مما ينبغي رغم كل شيء... خرجت إذن، ولكن نفسي حدثتني بأن من الخير لي أن تدوم هذه الخصومة زمناً طويلاً. وقد جرت ذيولها أسابيع حافلة بالشجار، لسبب أو لآخر، كنا نترصد بعضنا بعضاً طوال أيام، وليال على الأخص.

«لم يكن بوسعنا اتخاذ قرار بالانفصال عن بعضنا بعضاً، ولكن القلب لم يعد صافياً، كان ما يزال هناك على الأخص، مخاوف تشدنا إلى بعضنا معاً.

«أنت تحب إذن امرأة أخرى؟ كانت ماديلون تسألني من وقت إلى آخر.

«ولكن لا، بالتأكيد.. كنت أحاول طمأنتها ولكن لا.. كان من الواضح أنها لا تصدقني، ففي رأيها، أن المرء لابد له أن يحب شخصاً ما في حياته، وأن عليه أن يستمر على حبه إلى الأبد.

«قولي لي، كنت أجيبها، ما الذي يمكنني أن أفعله بامرأة أخرى؟ ولكنها كانت مهووسة بالحب، ما عدت أعرف ما الذي أقوله لها كي أهدئها. كانت

Twitter: @ketab_n

تبحث عن عبارات ما سمعت بها قط في السابق.. لم أكن أعتقد أبداً أنها تخفي في رأسها مثل هذه الأشياء.

«لقد حطمت قلبي، يا ليون، كانت تتهمني، جادة كل الجد، تريد أن ترحل، كانت تهددني، ارحل! ولكنني أحذرك بأنني سأموت من الحزن، يا ليون!..» سأكون أنا سبب موتها؟ ما الذي يعنيه كل ذلك، قل لي، أنا أسألك! «ولكنك لن تموتي أبداً! كنت أؤكد لها. أنا لم آخذ منك شيئاً على الإطلاق، كما أننا لم ننجب أطفالاً، هيا! فكري! هل نقلت إليك عدوى أي مرض؟ لا؟ إذن؟ أريد فقط أن أذهب، وهذا كل شيء! كمن يذهب في عطلة. هذا بسيط مع ذلك.. حاولي أن تكوني عاقلة..» وكلما حاولت أكثر أن أجعلها تفهم وجهة نظري، كلما كان اقتناعها أقل، وفي نهاية المطاف لم تعد تفهم على الإطلاق، كانت تغدو ساخطة لفكرة أن بإمكاني أن أنفذ فعلاً ما كنت أقوله. وأن نيتي في الذهاب كانت حقيقية وبسيطة ومخلصة.

«كانت تعتقد بالإضافة إلى ذلك بأنك أنت من يدفعني إلى الفرار منها... من الواضح أنها حين لم تفلح في استبقائي من خلال اتهام مشاعري والتشكيك بها، حاولت أن تمسكني بطريقة أخرى.

«لا تعتقد يا ليون، قالت لي حينئذٍ، بأنني أتمسك بك من أجل أعمال المدفن... فالنقود عندي سيان في الواقع، كما تعلم.. ما أريده يا ليون، هو أن أبقى معكِ.. أن أكون سعيدة.. هذا كل شيء... ذلك أمر طبيعي... لا أريد أن تتركني... من غير المقبول أن يتفارق اثنان بعد أن أحبا بعضهما مثلما كنا نحب بعضنا... أقسم لي على الأقل بأنك لن تغيب وقتاً طويلاً..

Twitter: @ketab_n

«وعلى هذا النحو، بعد ذلك، استمرت أزمتها أسابيع. يمكن القول بأنها كانت مدلهة ومضجرة للغاية... كانت تعود كل مساء إلى لوثة حبها، لم تكن تمانع، على كل حال، في أن نترك المدفن معاً في حراسة أمها، بشرط أن نتمكن كلانا من العثور على عمل في باريس.. دائماً معاً... كأننا نشكل رقماً واحداً! كانت تريد أن تفهم أي شيء ما عدا أن اذهب أنا بسبيلي، وتذهب هي بسبيلها، لم يكن ثمة حيلة بشأن ذلك.. وهكذا فكلما كانت تبدو متمسكة بي، كلما كانت تجعلني مريضاً، حتماً!

«كان من العبث محاولة جعلها تتعقل، كنت أدرك ذلك لفرط ما أضعت من الوقت في إقناعها، وكان ذلك يجعلها بالأحرى أشد غرابة أيضاً، وجدت نفسي مضطراً إلى أن أبدأ بابتكار أساليب جديدة كي أتملص من حبها، مثلما كانت تزعم... من هنا خطرت لي الفكرة بأن أثير خوفها من خلال الزعم بأنني كنت أغدو مجنوناً بين حين وآخر. وإن ذلك كان يأتيني على هيئة نوبات.. دون سابق إنذار... كانت تنظر إلي بطرف عينها نظرة شزراء، دون أن تكون واثقة تماماً من أن ذلك محض كذب أيضاً وذلك بسبب ما كنت قد رويته لها سابقاً من مغامرات، ومن ثم لأن الحرب قد تركت آثارها علي، وبسبب المكيدة الأخيرة على الأخص مع الأم هنروي، وبسبب طريقتي الغريبة أيضاً في التحول عنها فجأة، وهو ما حملها على التفكير مع ذلك.

«خلال أكثر من أسبوع ظلت تفكر، وتركتني هادئاً تماماً. كان لابد لها من أن تفضي إلى أمها بكلمتين اثنتين عن نوبات جنوني المزعومة... وأقلعت كلتاهما تقريباً عن ملازمتي... «لقد انطلت عليهما الخدعة، كنت أقول لنفسي، لقد نجحت، وها أنا ذا حر..» وتخيلت نفسي أنسل هادئاً مطمئناً باتجاه باريس دون

Twitter: @ketab_n

أن أثير الظنون! ولكن مهلاً! كنت أرغب بأن أفعل ذلك بمهارة فائقة... أن أتقن الدور تماماً... كنت أعتقد بأنني قد وجدت وسيلة بارعة كي أثبت لهما مرة واحدةٍ وإلى الأبد بأن ذلك كان حقيقياً فعلاً، وبأنني كنت مجنوناً جنوناً مطبقاً في كل ساعة من الليل والنهار... «تحسسي! قلت لماديلون ذات مساء تحسسي الورم هنا خلف رأسي! ألا تحسين بالجرح فوقه، إنه ورم ضخم أليس كذلك؟..

«حينما جست بيدها الانتفاخ خلف رأسي أثار ذلك شعورها على حد أعجز عن وصفه لك... ولكنه زادها تهيجاً أيضاً، ولم يثر نفورها على الإطلاق... «ها هنا كنت قد جرحت في الفلاندر، وقد ثقب عظم جمجمتي حينذاك.. جعلت أؤكد لها...»

«آه! يا ليون! قفزت حينئذ من مكانها وهي تتلمس الانتفاخ، سامحني، يا ليوني! لقد ارتبت بك حتى الآن، ولكنني أسألك العفو من أعماق قلبي! أنا أدرك الآن بأنني كنت دنيئة معك! أجل! أجل! يا ليون، كنت كريهة! لن أعود خبيثة معك في أي يوم من الأيام! أقسم لك! أستغفرك يا ليون! الآن حالاً لن تمنعني من أن أطلب مغفرتك، قل؟ سأعيد إليك سعادتك! سأعتني بك جيداً، هيا! منذ اليوم! سأكون صبورة دوماً معـك! سأكون لطيفة جداً، سوف ترى يا ليون، سأتفهمك إلى أبعد حد، بحيث لن تستطيع أن تستغني عني، وسأعطيك من جديد قلبي كله، إنني ملك لك! كل حياتي يا ليون أقدمها لك! ولكن قل لي بأنك قد غفرت لي على الأقل، قل يا ليون...

«لم اقل شيئاً من جانبي، أي شيء.. إنها هي التي قالت كل شيء، حينئذٍ، كان من السهل عليها أن تجيب نفسها بنفسها... كيف كان علي إذن أن أتصرف كي أوقفها؟

Twitter: @ketab_n

«ما أن لامست جرحي وانتفاخي، حتى جعلها ذلك كما لو أنها ذابت حباً دفعة واحدة... كانت تريد من جديد أن تأخذ رأسي بين ذراعيها ولا تتركه قط، وأن تجعلني سعيداً إلى أبد الآبدين، سواء أردت أم لم أرد... وبدءاً من هذا المشهد لم يعد لأمها الحق في أن توجه إلي أية شتيمة.. لم تعد ماديلون تتيح لها النطق بكلمة واحدة. لو رأيتها... لما تعرفت عليها في تلك اللحظات، كان تريد أن تحميني من كل سوء.

«كان لابد من إنهاء ذلك، كنت أفضل بالتأكيد أن نفارق بعضنا كأصدقاء متحابين... ولكن لم يعد ثمة فائدة من المحاولة... كانت متشبثة أكثر بحبها، شديدة العناد، وذات صباح بينما كانت هي وأمها خارجتين في أعمال لهما، فعلتُ مثلما فعلتَ أنت، جمعت أشيائي في صرة صغيرة، وانسللت بهدوء.. لا يسعك أن تقول بعد كل هذا بأنني لست صبوراً بما يكفي؟ أكرر لك مرة أخرى بأنه لم يعد بمقدوري أن أفعل أي شيء. ها قد عرفت الآن كل شيء.. وحينما أقول لك بأن هذه الصغيرة قادرة على فعل كل ما يخطر لها، ويمكنها بكل بساطة أن تأتي بين لحظة وأخرى لتطاردني هنا، فلا يحق لك إذن أن تجيبني بأن لدي رؤى وأوهاماً. أنا أعلم ما أقول! أعرفها جيداً! وسأكون أكثر اطمئناناً، في رأيي إن وَجَدتني محبوساً مع المجانين... سأكون هكذا مرتاحاً أكثر حين أتصرف كمجنون لا يفقه شيئاً.. ذلك ما احتاج إليه، مع هذه الصغيرة.. أن لا أفقه شيئاً...

لو أن روبنسون كان قد روى لي ما رواه قبل شهرين أو ثلاثة لكان ذلك قد أثار اهتمامي، ولكنني كنت كمن شاخ دفعة واحدة.

Twitter: @ketab_n

والواقع أنني كنت قد غدوت أكثر فأكثر على غرار باريتون، غير آبهٍ بأي شيء. كل ما رواه لي روبنسون عن مغامرته في تولوز لم يعد يشكل بالنسبة إلي أي شيء على الإطلاق. كنت أحاول عبثاً أن أتحمس لحالته ولكن حالته كانت تفوح بروائح العفونة، عبثاً أقول، وأزعم، فالعالم قد غادرنا بلا ريب، قبل أن نرحل عنه نهائياً.

كل الأشياء التي تعلقت بها، يأتي عليك يوم تقرر فيه أن تتحدث عنها أقل فأقل، وتجد صعوبة كبيرة حين تضطر إلى الحديث عنها. تكتفي أن تتحدث دائماً بأناة.. تختصر.. تعزف عن الحديث... منذ ثلاثين سنة وأنت تتحدث... لم تعد تحرص على أن تكون على حق... تبارحك الرغبة بالاحتفاظ حتى بالمكان الصغير الذي كنت قد احتفظت به لنفسك وسط المسرات.. تتقزز... يكفيك منذ الآن أن تأكل القليل من الطعام، وأن تؤمّن القليل من الدفء والنوم ما وسعك ذلك، وأنت تسير على درب اللاشيء... سيتعين عليك من أجل أن تستعيد الاهتمام أن تعثر على تكشيرات جديدة. وترسمها على وجهك أمام الآخرين... غير أنك لا تعود تملك تغيير قاموس كلماتك.. تغمغم.. تبحث طويلاً عن تعابير وعن اعتذارات كي تظل هناك مع أصحابك. ولكن الموت هناك أيضاً، تفوح رائحته، على مقربة منك طوال الوقت، أقل غموضاً من لعبة بيلوت. ما يبقى نفيساً لديك هو أحزانك الصغيرة حسب، كأن تذهب لرؤية عمك العجوز في مقبرة غابة كولومب، لأنك لم تجد الوقت لرؤيته حين كان ما يزال على قيد الحياة والذي انطفأت أغنيته الصغيرة إلى الأبد ذات مساء من أماسي شباط. ذلك كل ما احتفظت به من الحياة، هذا الأسف الصغير البالغ القسوة. أما الباقي فقد تقيأته كثيراً أو قليلاً

Twitter: @ketab_n

على امتداد الدرب، بكثير من الجهود ومن الألم. فأنت لم تعد سوى مرآة قديمة تعكس الذكريات في ركن من أركان أحد الشوارع حيث لم يعد يعبر أحد تقريباً.

وما دمت تسأم، فإن ما هو أقل إملالاً بالنسبة إليك، هو أن تجعل الملل عادة من عاداتك المنتظمة. هكذا كنت أحرص على أن ينام الجميع في الساعة العاشرة، داخل المشفى وكنت أنا من يطفئ الكهرباء، وكانت الأمور تسير وحدها.

فوق كل ذلك، لم نكن أنا وبارابين نشطح بعيداً في الخيال. كنا مهتمين بما يكفي بنظام باريتون «القاصرون عقلياً إلى السينما» أما بصدد التوفيرات المالية فلم يعد المشفى يحقق الكثير. وحين كنا نبذّر المال أحياناً، كنا نقول لأنفسنا بأن ذلك ربما سيجعل المعلم يعود من رحلته، ما دام هذا يثير قلقه.

اشترينا أوكورديوناً من أجل أن يتمكن روبنسون من ترقيص المرضى في الحديقة خلال الصيف، كان من الصعب الاهتمام بالمرضى في فينيه طيلة الليل والنهار، لم يكن بوسعنا أن نرسلهم طوال الوقت إلى الكنيسة فقد كان ذلك يصيبهم بكثير من الضجر.

من تولوز لم نعد نتلقى أية أخبار، كما أن الأب بروتيست لم يعد على الإطلاق لرؤيتي. وقد انتظمت الحياة في المشفى على نحو رتيب متكتم، ولكننا من الناحية المعنوية، لم نكن على ما يرام. ثمة الكثير من الأشباح هنا وهناك.

مرت شهور أيضاً، استعاد روبنسون خلالها سيماءه، وفي الفصح هاج مجانيننا وماجوا قليلاً كان ثمة نساء متبرجات بأبهى زيناتهن يعبرن ويعاودن العبور أمام حديقتنا. ربيع مبكر.

Twitter: @ketab_n

في تارابو كان الملاك الفني قد تجدد عدداً من المرات منذ كنت أؤدي دوري الصامت، وغادرت الإنكليزيات الصغيرات إلى مكان قصي جداً، حسبما علمت، إلى استراليا.. ولن أراهن قط مرة أخرى.

أما كواليس المسرح، فمنذ قصتي مع تانيا، أغلقت في وجهي. ولم أعد ألح على دخولها.

بدأنا كتابة رسائل إلى أماكن متفرقة، وعلى الأخص إلى قنصليات بلدان الشمال كي نحصل على بضع إشارات حول المعابر المحتملة لباريتون، ولكننا لم نتلق من هناك أي جواب شاف.

كان بارابين ينجز بهدوء وصمت عمله التقني، إلى جانبي. منذ أربعة وعشرين شهراً. لم يتفوه تقريباً بأكثر من عشرين جملة. كنت مضطراً إلى أن أتصرف وحدي تقريباً في الأمور الصغيرة المادية والإدارية التي كان يتطلبها الوضع اليومي. وقد حدث لي أن وقعت في بعض الهفوات. ولم يوجه لي بارابين أي لوم إطلاقاً. توافقنا معاً مستعينين باللا اكتراث، إضافة إلى ذلك كان في صندوقنا أموال سائلة إلى درجة كافية تكفل الجانب المادي من مؤسستنا. فبعد تسديد حسابات الممونين والإيجار كان يبقى معنا ما نعيش به في بحبوحة. وكانت نفقة ايمي تدفع بالطبع إلى عمتها بانتظام.

كنت أجد رونسون أقل قلقاً بكثير مما كان عليه حين قدم إلينا. وقد استعاد بشاشته وثلاثة كيلو غرامات من وزنه. بدا لنا في المحصلة أنه ما دام هناك مجانين صغار لدى العائلات فستكون هذه العائلات مسرورة في العثور علينا بسهولة، على مقربة من العاصمة، كانت حديقتنا هي الوحيدة التي تستحق الزيارة. كانوا يقصدونها من باريس للإعجاب بأحواض الأزهار وبأجمات الورود في أيام الصيف اللطيفة.

Twitter: @ketab_n

في أحد من آحاد حزيران، خيّل إلي أنني تعرفت على ماديلون، لأول مرة، وسط جمع من المتنزهين...كانت ساكنة لا تبدي حراكاً أمام سورنا المشبك. لم أرغب في البداية في أن أخبر روبنسون بهذا الظهور المفاجئ لماديلون. كي لا أفزعه. ومع ذلك فبعد أن فكرت ملياً أوصيته بعد بضعة أيام بأن لا يبعد من الآن، في هذا الوقت على الأقل خلال نزهاته الغامضة في الجوار، والتي كان قد اعتاد عليها. أقلقته هذه النصيحة، غير أنه لم يصر على أن يعرف أكثر من ذلك.

في أواخر تموز، تلقينا من باريتون بضع بطاقات بريدية من فنلندا هذه المرة.. وقد سرنا ذلك، ولكنه لم يتحدث لنا مطلقاً عن عودته. كان فقط يتمنى لنا مرة أخرى «حظاً سعيداً» وألف شيء ودي، شهران مرا، وشهران آخران تساقط فيهما غبار الصيف فوق الطريق، وفي عيد جميع القديسين أثار أحد مجانيننا صخباً أمام المستشفى. هذا المريض الذي كان في السابق وادعاً تماماً ولائق التصرف لم يكن يحتمل التمجيد الجنائزي لعيد القديسين، ولم نستطع أن نمنعه في الوقت المناسب من الصراخ من نافذته بأنه لا يريد أبداً أن يموت... لم يكف المتنزهون عن أن يعتبروا ذلك مضحكاً. وفي اللحظة التي حدث فيها ذلك الهجوم المباغت داخلني من جديد إحساس مزعج جداً ولكن على نحو أكثر وضوحاً من المرة الأولى بالتعرف على ماديلون في الصف الأول من مجموعة من المتنزهين في المكان ذاته من سياج الحديقة.

في غضون الليلة التي تلت ذلك استبد بي القلق، حاولت أن أتناسى ما رأيته ولكن كل جهودي لتناسي ذلك ظلت دون جدوى. كان من الأفضل لي أن أكف عن محاولة النوم.

Twitter: @ketab_n

منذ زمن طويل لم أعد إلى رانسي، وما دمت قد غدوت فريسة للكوابيس فقد تساءلت إن لم يكن من المفيد الذهاب في جولة إلى تلك الأنحاء التي جاءتني منها جميع التعاسات العاجلة والآجلة.. كنت قد خلّفت فيها كوابيس كثيرة، وإذا ما واجهتها الآن فسيمكنني أن أعتبر ذلك عند اللزوم نوعاً من التطهر... للوصول إلى رانسي كان الطريق الأقصر انطلاقاً من فينيه هو السير بمحاذاة الرصيف الواصل إلى جسر جانفييه الممتد فوق السين. كان الضباب البطيء الحركة، المتصاعد من النهر يتمزق عند مستوى الماء مزقاً، متسارعة، عابرة مندفعة مترنحة لتسقط في الجهة الأخرى من الحاجز فوق سرج زيتية. مصنع الجرارات الضخم الذي يقع إلى اليسار كان يختفي وسط قطعة كبيرة من الليل. كانت نوافذه مضاءة بأشعة حريق كالح يشتعل داخل الأفران ولا يتوقف أبداً. بعد تجاوز المصنع يجد المرء نفسه وحيداً على الرصيف... ولكن لم يعد ثمة مجال لأن يتوه. فبحسب التعب الذي قد ألّم به يدرك أنه وصل.

يكفي حينئذٍ أن تستدير إلى اليسار نحو شارع بورنير الذي لا يمتد طويلاً. وليس من العسير بعد ذلك أن تهتدي إلى طريقك بسبب القنديل الأخضر والأحمر الذي يضيء طريق العبور ولا ينطفئ أبداً.

حتى في دجنّة الليل سأذهب ربما، وعيوني مغلقة إلى منزل آل هنروي. فقد كنت قد ترددت عليه مرات ومرات، فيما مضى.

غير أنني في ذلك المساء وحينما وصلت أمام بابهم بدأت أفكر بدلاً من أن أتقدم.

كانت الابنة هنروي تسكن الآن وحدها في المنزل. كنت أفكر بها. الجميع ماتوا. لابد أنها قد عرفت أو أنها ترتاب على الأقل، بالطريقة التي

Twitter: @ketab_n

انتهت فيها عجوزتها في تولوز. ترى ما الأثر الذي أمكن أن يخلفه فيها موت العجوز؟

كان المصباح الغازي فوق الرصيف يغمر بالبياض طنف الباب الزجاجي على غرار ثلج متراكم فوق الدرج، بقيت هناك في ركن الشارع أنظر فقط، وقتاً طويلاً. سيكون بمقدوري التقدم لقرع الباب، كانت ستفتح لي، بالتأكيد. لم يكن بيننا على أي حال أي خصام. وفي المكان الذي كنت أقف فيه كان البرد قارساً جداً.

كان الشارع ما يزال ينتهي بمستنقع موحل مثلما كان على أيامي. كانوا قد وعدوا بأعمال في الشارع، ولكنهم لم يباشروا بها. ما من أحد كان يمر من هناك. ليس الأمر أنني كنت خائفاً منها، من الابنة هنروي لا، غير أنني فجأة لم يعد لدي رغبة برؤيتها ثانية. كنت مخطئاً بالسعي إلى رؤيتها من جديد. هناك، أمام منزلها اكتشفت فجأة بأنه لم يعد لديها أي شيء تخبرني به. سيكون من المضجر أن أستمع إليها وهي تتحدث. هذا كل شيء. ذلك ما غدا كل منا بالنسبة إلى الآخر.

كنت قد أوغلت في الليل أبعد مما أوغلت هي، بل وأبعد حتى من العجوز هنروي التي ماتت. لم نعد الآن معاً لقد غادرنا بعضنا نهائياً. ليس فقط عبر الموت بل وعبر الحياة أيضاً. حدث ذلك بسبب قوة الأشياء، كل واحد لذاته، هذا ما كنت أقوله لنفسي، ثم غادرت مكاني عائداً إلى فينيه.

لم يكن لدى الابنة هنري الآن ما يكفي من المعرفة كي تكون في موازاتي على الدرب. بصدد طبيعتها،نعم! ذلك ممكن،كان لديها ذلك الطبع... ولكنها كانت تفتقر إلى المعرفة. كانت تلك هي العقدة... ما من معرفة لديها.

Twitter: @ketab_n

مهمة جداً هي المعرفة. لم يعد إذن بإمكانها أن تفهمني، ولا أن تفهم ما الذي جرى حولنا، إنها قاسية وعنيدة بقدر ما وسعها العناد.. ولكن هذا لا يكفي. لابد أيضاً من القلب ومن المعرفة كي يذهب المرء أبعد من الآخرين.. عبر شارع سانزيون سلكت طريقي كي أنعطف نحو السين ثم عبر جادة فاسو. كنت قد هدّأت من قلقي، وغدوت مسروراً تقريباً، لأنني أدركت عبث الإصرار على رؤية الابنة هنروي. لقد توصلت إلى فقد تلك الشريرة القاسية عبر الطريق.. كنت قد تفاهمت في السابق مع تلك المرأة الابنة.... خلال فترة طويلة... ولكنها الآن لم تكن قد هبطت بما يكفي بالقياس إلي، لم يكن بوسعها أن تهبط لتلحق بي. لم يكن لديها المعرفة ولا القوة. لا يصعد المرء في الحياة بل يهبط. لم يعد بوسعها. لم تعد تستطيع الهبوط إلى حيث كنت.. كان ثمة الكثير من الليل حولي بالقياس إليها.

لدى مروري أمام المبنى الذي كانت عمة بيبرت حارسة لمدخله كنت سأدخل ربما إليه أيضاً كي أرى فقط أولئك الذين كانوا يشغلون الآن مسكنها، هناك حيث اعتنيت ببيبرت، ومن أمام بابه كنت قد غادرت ذلك الحي. ربما كانت ما تزال صورة بيبرت بلباس التلميذ معلقة فوق السرير. ولكن الأوان كان قد فات لإيقاظ العالم. وهكذا مررت به دون أن ألفت نظر أحد.

أبعد قليلاً في قرية ليبرتي وجدت مخزن بيزين ما يزال مضاء. لم أكن أتوقع ذلك ولكن لم يكن سوى ثمة مصباح في واجهة المخزن، كان بيزين يعرف كافة الأشياء والأخبار عن الحي، لفرط ما كان يجلس في الحانات، ويعرف كل شيء، من سوق البراغيث حتى بوابة مايو.

سيكون بمقدور بيزين أن يروي لي حكايات فيما لو كان مستيقظاً. دفعت بابه فقرع جرسه، ولكن ما من أحد أجابني. كنت أعلم أنه نائم في

Twitter: @ketab_n

خلفية المخزن داخل صالة طعامه إن صح القول. هناك بالضبط كان بيزين وسط الظلمة. رأسه فوق الطاولة بين ذراعيه، جالساً على نحو مائل بالقرب من عشائه البارد الذي كان ينتظره، من العدس، كان عليه أن يبدأ الطعام حين عاد، ولكن النعاس استولى عليه في الحال. كان يشخر شخيراً عالياً، لقد شرب أيضاً، حتى الثمالة.

لقد وجدت بيزين دائماً فتى طيباً، ليس أكثر دناءة من الآخرين، لين الجانب، سهل الإرضاء، لم أشأ إيقاظه من نومه بدافع الفضول، من أجل أسئلتي الصغيرة، رحلت عنه إذن بعد أن أغلقت مفتاح الغاز في المخزن.

لم يكن يجيد حماية نفسه، بالتأكيد في نوع التجارة التي كان يزاولها، ولكنه على الأقل لم يكن يجد صعوبة في النوم العميق.

عدت حزيناً مع ذلك إلى فينيه، وأنا أفكر بأن كل هؤلاء الأشخاص، والبيوت، والأشياء، الغارقين في القذارة والكآبة لم يعودوا يحركون بي على الإطلاق أي خلجة، مثلما في السابق، ومهما كان بإمكاني أن أكون بارعاً فإنني لم أعد أملك ربما ما يكفي من القوة أيضاً، وهذا ما كنت أشعر به، كي أذهب بعيداً أيضاً، هكذا، وحيداً.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

«« بخصوص وجبات الطعام. حافظنا في فينيه على العادات التي كانت سارية أيام باريتون. كنا نلتقي جميعاً على المائدة، غير أننا آثرنا الآن أن يكون ذلك في صالة البليارد الواقعة فوق مسكن حاجبة المشفى. كانت هذه الصالة أكثر ألفة من تلك الصالة الحقيقية التي ما تزال تهيم فيها ذكريات غير سارة لحواراتنا بالإنكليزية، ومن ثم فقد كانت صالة الطعام غاصة بكثير من قطع الأثاث الفاخر جداً من طراز «١٩٠٠» مع زجاج نوافذ من الأوبال المتغير الألوان.

في صالة البلياردو، كان بوسعنا أن نرى كل ما كان يجري في الشارع، وكان ذلك مفيداً بالتأكيد. أما بصدد المدعوين فكنا نستقبل أحياناً على العشاء أطباء من الجوار، من هنا وهناك، بالإضافة إلى ضيف تقليدي مألوف هو غوستاف، عنصر شرطة التهريب. يمكن القول إنه كان ضيفاً يومياً مواظباً. تعارفنا هكذا عبر النافذة، حين كنا نشاهده يقوم بعمله يوم الأحد، عند تقاطع الطرق في مدخل البلدة. كان يلاقي كثيراً من العنت مع ازدحام السيارات. تبادلنا في البداية بضع كلمات، ومن ثم غدونا من أحد إلى أحد. متعارفين على بعضنا تماماً. وقد أتيحت لي الفرصة لأعالج ابنتيه في المدينة، واحدة بعد الأخرى. من الحصبة، ومن النكاف. كان غوستاف ماندامور، هكذا كان يدعى، مخلصاً لنا. غير أن المحادثة معه كانت متعبة قليلاً، لأنه كان يجد صعوبة مع الكلمات. كان يجد الكثير من الكلمات، ولكن لم يكن يخرجها، بل تظل بالأحرى محبوسة داخل فمه، تثير ضجة مسموعة.

Twitter: @ketab_n

على هذا النحو دعاه روبنسون أول من دعاه إلى صالة البلياردو، على سبيل المزاح، كما أعتقد، ومنذ ذلك الحين كان غوستاف يعود إلينا في الساعة ذاتها من كل مساء، في الساعة الثامنة. كان يجد نفسه مرتاحاً معنا، أفضل مما في المقهى، كما كان يقول، وذلك بسبب النقاشات السياسية التي كانت تثور غالباً بين رواد المقهى. لم يكن يطيق أي نقاش في السياسة على الإطلاق، ففي حالة غوستاف كانت السياسة موضوعاً حساساً جداً. لذا فقد كان يشعر بالضجر بسببها في المقهى. لم يكن من حيث المبدأ يحب الحديث في السياسة، ولا سيما حين يكون قد شرب قليلاً.

حينما كنا نفكر، أنا وباراباين، في كيفية الخروج من الوضع الذي كنا فيه، والذي آل إلينا بعد رحيل باريتون، لم نكن نشكو أبداً. ذلك سيكون خطأ كبيراً منا، لأننا في المحصلة كنا قد أصبنا نوعاً من حظ خارق، وحصلنا على كل ما كان يلزمنا، على صعيد التقدير والاعتبار، مثلما على صعيد الرفاه المادي.

كنت، أنا فقط في ريب من أن تلك المعجزة يمكن أن تدوم، ربما كان ذلك بسبب ماضيّ الدبق والموحل والذي كان يلوح أمامي دائماً. في بداية عملي في فينيه، تلقيت ثلاث رسائل مغفلة التوقيع بدت لي مريبة ومتوعدة إلى أبعد حد. وبعد ذلك تلقيت عدداً آخر من الرسائل مفعمة بالحقد والضغينة. من الصحيح أننا كنا نتلقى غالباً في فينيه رسائل مجهولة المصدر، لم نكن نعيرها في العادة أي اهتمام، كانت صادرة، في الأغلب الأعم عن مرضى سابقين كانوا يحسون بالاضطهاد داخل المشفى.

ولكن هذه الرسائل وصيغها كانت تقلقني مزيداً من القلق. لم تكن تشبه الرسائل الأخرى، كانت التهم التي تتضمنها محددة جداً، ومن ثم فلم تكن

Twitter: @ketab_n

تتعلق بأحد إطلاقاً إلا بي وبروبنسون. تلك الرسائل باختصار، كانت تتهمنا بأننا نقيم فيما بيننا علاقة زوجية، وكان هذا الزبل افتراضاً مزعوماً. لم أر من الضروري في البداية، أن أتحدث بذلك إلى روبنسون، ثم قررت مع ذلك أن أخبره، لأنني ما عدت أنتهي من تلقي رسائل جديدة من الطراز ذاته. بحثنا حينئذٍ معاً عمن كان يمكنه أن يرسل هذه الرسائل، أحصينا جميع الأشخاص المحتملين بين معارفنا المشتركين، فلم نجد أحداً. بالإضافة إلى ذلك فإن اتهامنا بالشذوذ الجنسي كان واهياً، فأنا لم أكن من هذا النوع، ثم إن روبنسون لم يكن ببساطة يبالي بالأمور الجنسية، لا من هذا الجانب ولا من الجانب الآخر، وإذا ما كان ثمة شيء يشغله، فإنه لم يكن بالتأكيد قصص العلاقة الجنسية. ينبغي على كل حال أن يكون مرد ذلك إلى الغيرة التي تدفع صاحبها إلى تصور مثل هذه الدناءات القذرة.

خلاصة الأمر، فنحن لم نكن نعرف أحداً آخر سوى ماديلون يمكنه أن يلاحقنا حتى فينيه بهذه الافتراءات. كان الأمر سيان عندي أن تواصل كتابة هذه الأشياء، ولكنني كنت أخشى أن يستبد بها الحنق من عدم ردنا عليها بأي شيء، فتأتي لتلاحقنا هي ذاتها بشخصها، ذات يوم وتثير فضيحة داخل المشفى. كان علي أن أتوقع الأسوأ.

أمضينا، على هذا النحو، بضعة أسابيع، كنا ننتفض خلالها مع كل قرعة جرس، كنت أتوقع زيارة من ماديلون، أو أسوأ من ذلك أيضاً، زيارة من المحكمة.

في كل مرة كان المخبر ماندامور يصل فيها للعب الورق أبكر قليلاً من المعتاد، كنت أسأل نفسي إن لم يكن يحمل لنا تحت نطاقه استدعاء إلى مركز الشرطة. غير أن ماندامور كان في تلك الفترة لطيفاً غاية اللطف ومريحاً

Twitter: @ketab_n

جداً. وفيما بعد فقط، بدأ يتغير تغيراً ملحوظاً، كان ما يزال في تلك الفترة يخسر تقريباً كل يوم في كافة مبارياته في لعب الورق، دون أن يستاء أو يغضب. وإذا ما تغير طبعه فإن ذلك كان عائداً إلى خطأ منا.

في ذات مساء، سألته مستفسراً لماذا لم يكن يفوز إطلاقاً في ألعاب الورق؟ لم يكن لي الحق في الواقع، بأن أسأل ماندامور عن ذلك، لمجرد الرغبة فقط في معرفة سبب خسارته؟ وكيف؟ لا سيما أننا لم نكن نلعب من أجل المال، وفيما نحن نتناقش حول سوء حظه، اقتربت منه، وتفحصته ملياً. لاحظت بأنه كان مصاباً بقصر بصر الشيخوخة على نحو بالغ. والواقع أنه وسط الإضاءة التي كانت تغمرنا، لم يكن يميز إلا بصعوبة ورق السباتي عن الديناري.

بدأت في معالجة عاهته، مقدماً له نظارات جميلة، سُر في البداية سروراً عظيماً وهو يحاول تجريبها، ولكن سروره لم يدم طويلاً، بدأ يلعب بصورة أفضل بفضل نظاراته، ويخسر في اللعب أقل مما في السابق، ثم عزم على أن لا يخسر قط مرة أخرى، ولكن ذلك لم يكن ممكناً، حينئذٍ بدأ يغش في اللعب، وحين راح يخسر على الرغم من محاولات غشه جعل يبدي استياءه منا ساعات بكاملها، لقد غدا باختصار شخصاً لا يطاق.

كنت حزيناً لذلك. كان غوستاف يغتاظ دون أدنى سبب وجيه. إضافة إلى ذلك. كان يسعى إلى أغاظتنا بدوره، إلى إثارة قلقنا وهواجسنا أيضاً. كان ينتقم بطريقته حين يخسر.. ومع أننا لم نكن نلعب من أجل المال، وقد كررت ذلك على مسامعه، بل من أجل التسلية ونشوة الفوز فقط، غير أنه كان ساخطاً رغم ذلك. وهكذا ففي ذات مساء لم يحالفه الحظ فيه توجه إلينا بالكلام فيما هو منصرف «أيها السادة، سأقول لكم أن تكونوا على حذر!.. مع الأشخاص

Twitter: @ketab_n

الذين تخالطونهم. لو كنت أنا مكانكم لأخذت حذري... ثمة فتاة سمراء تمر منذ أيام من أمام مشفاكم وغالباً جداً، في رأيي... ما يكون لها أسبابها... إنها ساخطة من أحدكم، وأنا أوضح لكم بأنني لن أكون متفاجئا قط.» هكذا قذفنا ماندامور بذلك الأمر الخبيث قبل أن ينصرف. والواقع أنه لم يخطئ هدفه الصغير. ومع ذلك فقد تابعت في اللحظة ذاتها «حسن . شكراً غوستاف . أجبته بكل هدوء .. أنا لا أرى من يمكن أن تكونه السمراء الصغيرة التي حدثتنا عنها؟ ما من امرأة بين مريضاتنا القديمات قد شكت حسب علمي، من الرعاية التي نقدمها. لاشك أن الأمر يتعلق بفتاة ضالة بائسة... سنعثر عليها بالتأكيد.. أخيراً أنت على حق... من الأفضل دائماً أن نعرف...نشكرك مرة أخرى ياغوستاف لأنك نبهتنا...ومساءً سعيداً!».

لم يعد بمقدور روبنسون فجأة أن ينهض عن كرسيه. وما أن خرج المخبر حتى تفحصنا المعلومات التي كان قد قدمها لنا من كافة النواحي. كان من الممكن رغم كل شيء أن تكون امرأة أخرى غير ماديلون... فقد كان هناك أخريات يجئن هكذا، يتسكعن تحت نوافذ المشفى... ولكن كان لدينا حدس قوي مع ذلك بأن تلك الفتاة هي ماديلون، وكان هذا الشك كافياً كي يملأ نفوسنا بالهلع. إن كانت هي. فما الذي تنويه مجدداً؟ومن ثم فعلى أي شيء تعتمد في عيشها منذ عدة شهور في باريس؟ وإذا ما كانت خليقة أن تأتي إلينا بشخصها، فقد كان علينا أن نتنبه، وأن نتخذ استعداداتنا في الحال.

«اسمع ياروبنسون قلت جازماً حينئذ. هذه هي اللحظة قطعاً، ولن تتكرر ثانية.. ما الذي تبغي أن تفعله؟ هل ترغب في العودة معها إلى تولوز؟

– لا! أقول لك، لا ولا» كان هذا جوابه وكان حاسماً..

Twitter: @ketab_n

- حسناً! قلت حينئذ، ولكن في هذه الحالة إن كنت حقاً لا تريد العودة معها فمن الأفضل في رأيي أن ترحل لتكسب رزقك خلال فترة من الزمن على الأقل خارج البلاد.. بهذه الطريقة ستتخلص منها بالتأكيد، فهي لن تذهب لتتبعك إلى هناك، أليس كذلك؟ أنت ما تزال شاباً.. وها قد غدوت قوياً.. ومرتاحاً.. سأعطيك بعض المال، وإذن سفراً سعيداً... هذا هو رأيي! ثم إنك تعلم بأن وضعك هنا ليس وضعاً مناسباً.. ولا يمكنه أن يدوم طويلاً؟...»

لو أنه أصغى إلي، لو إنه رحل في تلك اللحظة، لكانت الأمور قد صلحت، ولكان قد أراحني، ولكنه لم يوافق.

«أنت لا تبالي بي يافرديناند! أجابني روبنسون، ليس لطيفاً أن أرحل وأنا في هذا العمر... انظر إلي جيداً، هيا» لم يعد يريد أن يرحل كان متعباً من السفر والتجوال.

«لا أريد أن أذهب أبعد ... كان روبنسون يكرر .. عبثاً كل ما تقول..عبثاً كل ما تفعل.. سوف لن أذهب أبداً.

هكذا كان يرد على صداقتي. ومع ذلك فقد أصررت على رأيي..

- وإذا ما وشت بك ماديلون. افرض، بشأن قضية الأم هنروي؟ أنت نفسك من قال لي بأنها قادرة على ذلك..

- تعساً لي حينذاك! أجابني، لتفعل ما تشاء..»

كانت جديدة هذه النبرة التي يتكلم بها. لأن التسليم بالقدر لم يكن من طبعه في السابق..

«على الأقل، اذهب وابحث لك عن عمل صغير في مكان مجاور، في مصنع مثلاً. لن تكون بذلك مضطراً إلى البقاء معنا كل الوقت.. وإذا جاءوا للبحث عنك فسيكون لدينا الوقت لإخطارك. كان بارابين من رأيي كلياً، بصدد

Twitter: @ketab_n

هذا الموضوع حتى لقد تحدث معنا قليلاً بشأن الظرف الراهن. لا شك إذن بأن ما كان يحدث بيننا، بدا له خطيراً كل الخطورة، ويتطلب حلاً عاجلاً. كان لا بد لنا إذن من أن نبذل جهدنا في تدبير عمل لروبنسون، وفي إخفائه عن الأعين، كان من بين الأشخاص الذين تربطنا بهم صلات وثيقة أحد الصناعيين في المحيط المجاور، صانع مركبات كان يشعر تجاهنا ببعض العرفان نتيجة خدمات صغيرة حساسة جداً قدمناها له في ظروف حرجة، وقد قبل أن يجرب روبنسون في الرسم باليد على صناديق المركبات. كان العمل دقيقاً، وليس شاقاً، ومرتفع الأجر.

«ليون قلت له، في صباح اليوم الذي بدأ فيه العمل. لاتكن كسولاً في عملك الجديد، لا تلفت إليك الأنظار بأفكارك الخائبة ..عليك أن تصل في الوقت المحدد.. لا تذهب قبل الآخرين..قل صباح الخير لكل من حولك... تماسك جيداً في النهاية... أنت تعمل في مشغل لائق، وقد أوصينا بك مدير المشغل.»

ولكن ها هو ذا قد لفت إليه الأنظار مع ذلك تواً، فقد رآه مراقب العمل في مشغل مجاور، يخرج من المكتب الخاص برب العمل كان هذا كافياً، تقرير، نفس خبيثة، طرد.

عاد إلينا روبنسون إذن، مرة أخرى، ودون عمل، بعد أيام معدودات، أي قدر!

ثم إنه عاد يسعل تقريباً في اليوم ذاته، فحصنا صدره بالسماعة، سمعنا سلسلة طويلة من الخرخرات صادرة من أعلى رئته اليمنى، لم يعد أمامه سوى أن يلازم الغرفة.

في مساء أحد أيام السبت، قبل العشاء بالضبط، حدث أن طلب أحد الأشخاص حضوري شخصياً إلى صالة الدخول.

Twitter: @ketab_n

أخبرني بأن هناك امرأة تنتظرني.

كانت هي، بقبعة صغيرة، وقفازين. تذكرتها جيداً، ما من حاجة إلى مقدمات، لقد جاءت في الوقت المناسب، عاملتها بكل خشونة.

«ماديلون أوقفتها عن الكلام، إذا كنت ترغبين برؤية ليون من جديد، أود أن أنبهك فوراً بأنه لا فائدة من الإلحاح. يمكنك أن تعودي من حيث جئت. إنه مريض في رئتيه وفي رأسه... وحالته خطرة جداً فوق ذلك... لايمكنك رؤيته، وفضلاً عن ذلك فليس لديه ما يقوله لك.

- ولا حتى لي، ردت بلجاجة.

- لا، ولا حتى لك.. على الأخص لك أنت...، أضفت.

كنت أعتقد أنها كانت ستقفز من مكانها، لا، كانت تميل برأسها فقط، أمامي، من اليمين إلى اليسار، شفاهها مضغوطة، وعيناها تسعيان للعثور علي، حيثما كانت قد تركتني داخل ذكرياتها، لم أعد هناك، لقد غيرت موضعي، أنا أيضاً داخل ذكرياتها. في الحالة التي كنا فيها، فإن رجلاً قوياً كان سيبعث في قلبي الخوف، أما هي فليس ثمة ما أخشاه منها، كانت أقل قوة مني، كما يقال. منذ زمن طويل كان ثمة رغبة قوية تستحوذ علي بأن أوجه صفعة قوية إلى رأس تملكه الغضب، كي أرى كيف تتحول الرؤوس في مثل تلك الحالات. أو بتقديم شيك بمبلغ كبير، هذا ما يلزم لرؤية جميع الأهواء الغاضبة التي تتذبذب داخل رأس من الرؤوس، وهي تتغير بضربة واحدة، ذلك أشبه بمناورة سفينة شراعية فوق بحر مضطرب، كل ما في الكائن البشري ينحني أمام ريح جديدة، كنت أرغب في أن أرى ذلك.

منذ عشرين عاماً على الأقل، تلاحقني هذه الرغبة، وسط الشارع، في المقهى، في كل مكان، حيث يتخاصم أناس أكثر أو أقل عدوانية، وسخفاً،

Twitter: @ketab_n

وتشدقاً، ولكنني ما كنت لأجرؤ على الإطلاق خوفاً من الضربات التي ستنهال علي، وعلى الأخص من الخجل الذي سيعتريني بسبب تلك الضربات. ولكن الفرصة، لاحت الآن، هذه المرة، وكانت رائعة.. «هل ستنصرفين؟» قلت لها. لا لشيء إلا لكي أستثيرها أكثر أيضاً، وأهيئها.

لم تعد تعرفني وأنا أتحدث إليها على هذا النحو، ابتسمت ابتسامة كريهة إلى أبعد الحدود، كما لو أنها كانت تجدني مضحكاً وتافهاً لا يُعتد بكلامي... «فلاك! فلاك» وجهت إليها صفعتين لا يتحملهما حمار.

تمددت في الحال على الديوان الوردي الكبير في الجهة المقابلة قرب الحائط، ورأسها بين يديها، كانت تتنفس أنفاساً سريعة متلاحقة، وتئن مثل كلب صغير ضرب بشدة. ثم كما لو أنها فكرت، نهضت فجأة بخفة متناهية، واجتازت الباب، حتى دون أن تدير وجهها، لم أر أي شيء، كل ما سلف لا يجدي شيئاً. ولابد من البدء من جديد.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> عبثاً كل ما فعلناه، كانت أشد دهاء منا كلنا مجتمعين، والدليل على ذلك أنها التقت من جديد بروبنسونها، ومثلما كانت ترغب أيضاً... كان بارابين أول من رآهما سوياً، على رصيف أحد المقاهي مقابل محطة الشرق.

كنت أرتاب بأنهما كانا يلتقيان معاً، ولكنني لم أعد أرغب البتة بأن أبدو مهتماً بعلاقاتهما. لم يكن ذلك يعنيني في شيء في المحصلة.. وفضلاً عن ذلك، فإن روبنسون كان يفي بالتزاماته تجاه المشفى، ويؤدي خدماته بنحو لا بأس به تجاه المرضى المفلوجين، وهو عمل شاق إلى أبعد الحدود، كان ينظف أوساخهم، ويجفف سوائلهم، ويغير ثيابهم الداخلية، ويساعدهم في تناول طعامهم، لم يكن لنا أن نطلب منه المزيد.

وإذا ما كان يستفيد من فترات ما بعد الظهر التي كنت أرسله فيها إلى باريس لأداء بعض المهمات، كي يلتقي بماديلونه، فقد كان ذلك شأنه. المهم في الأمر أننا ما عدنا البتة نرى ماديلون في فينيه سورلاسين، منذ الصفعة، ولكنني كنت أتصور بأنهما كانا يتناولاني في حديثهما، بلا شك خلال لقاءاتهما القذرة.

لم أعد أحدث روبنسون أيضاً عن تولوز كما لو أن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

ستة أشهر مرت على هذا المنوال، حلوة مرة! ثم إن شاغراً طرأ في ملاك الممرضات، وصرنا جميعاً على حين فجأة، في حاجة ماسة إلى ممرضة ذات خبرة في العلاج الفيزيائي وتدليك العضلات كانت ممرضتنا قد رحلت كي تتزوج دون أن تخطرنا برحيلها.

Twitter: @ketab_n

تقدم عدد كبير من الفتيات الحسناوات لهذه الوظيفة، وحرنا في اختيار واحدة من بين عدد من المخلوقات القوية من جميع الجنسيات اللواتي توافدن على فينيه، منذ ظهور إعلاننا. ثم وقع اختيارنا في نهاية المطاف على سلوفاكية تدعى صوفي بدا لنا لحمها المرن والبض، وطريقتها في المشي والحركة لا تقاومان، ينبغي الاعتراف بذلك، صحة سماوية!

لم تكن هذه الصوفي تعرف سوى قليل من الكلمات باللغة الفرنسية وتأهبت أنا من جانبي، وكان ذلك أدنى ما تتطلبه الكياسة، لإعطائها دروساً دون تأخير، أحسست لدى الاحتكاك بها عن قرب بتجدد الميل داخل نفسي إلى التعليم. كان باريتون، مع ذلك يفعل كل شيء كي ينفرني من هذا العمل. ولكن أي شباب! أية حيوية! أية عضلات! أية رقة! كانت صوفي فطنة سريعة الاستجابة! مدهشة إلى أبعد حدود الإدهاش! لم يكن يقلل من ذلك الجمال أي من تلك الاحتشامات المصطنعة أو الحقيقية التي تعرقل الحوارات الغربية جداً، بالنسبة إلي وباختصار شديد، لم أكف لحظة عن الإعجاب بها، من عضلة إلى عضلة، ثم عبر مجموعات العضلات، كنت أتابع الجسد دون توقف وانقطاع.. عبر المنحدرات العضلية، عبر المناطق البارزة والغائرة.. ذلك العنفوان المتناغم والمنفلت في الوقت نفسه، والموزع على هيئة حزم هاربة أو مذعنة للجس بنحو متناوب، تحت الجلد المخملي المتوتر، والمسترخي، والمعجز...

أوان تلك الأفراح الحية، تلك الهارمونيات العظيمة، الفيزيولوجية آت عما قريب... الجسد، إله معبود تقلبه يداي الخجلتان... يدا رجل عفيف... ذلك الكاهن المجهول... إذنّ مسبق بالموت وبالكلمات... ألا كم من البهارج المزيفة والمنتنة! تلطخ الجسد بوسخ كثيف من الرموز، تزينه حتى النهاية، بالتغوطات الفنية التي يجني منها التاجر المتميز نصيبه من الربح.. وليحدث بعد ذلك ما يحدث! تجارة

Twitter: @ketab_n

رائجة. استثمار للإثارة عبر استحضار ذكرى الجسد. بوسعنا أن نملك ذكريات عن الجسد، بوسعنا أن نشتريها، وذكريات جميلة وزاهية للغاية. لقد غدت الحياة أكثر قسوةً وتعقيداً مع تلك الأشكال الجسدية الأنثوية المعروضة في كل مكان. مغامرة فظيعة. ليس ثمة ما هو أكثر بعثاً لليأس والقنوط! وإلى جانب تلك الرذيلة لعرض صورة الجسد الخالي من العيوب لا يمثل الكوكايين سوى تسلية لنظار المحطات.

نعود إلى صوفيانا! لقد كان حضورها المجرد يشبه تهوراً في مشفانا الكالح والهلع والمريب.

بعد مرور بعض الوقت من الحياة المشتركة، شعرنا بسعادة غامرة بالتأكيد من أن نعد صوفي من بين ممرضاتنا... ولكننا لم نستطع أن نمنع أنفسنا من التخوف من أن تبدأ ذات يوم، في إفساد مجموع احتياطاتنا اللامتناهية، أو أن تحيط علماً بنحو مفاجئ، ذات صباح بكل واقعنا المزري.

كانت صوفي ما تزال تجهل تماماً حالة الإهمال العفن التي كنا منغمسين فيها! مجموعة من المحبطين الفاشلين! كنا معجبين أشد الإعجاب بها، متفجرة بالحياة بالقرب منا، وهي تنهض ببساطة حسب، أو تأتي إلى طاولتنا، أو تذهب أيضاً... كانت تفتن عقولنا..

وفي كل مرة كانت تقوم فيها بتلك الحركات البسيطة للغاية، كنا نحس بالدهشة والفرح. كنا نرتقي عالياً بشاعريتنا، بسبب إعجابنا فقط بكونها جميلة للغاية وأشد عفوية منا. كان إيقاع حياتها ينبجس من منابع غير منابعنا. كانت منابعنا زاحفة ومستكينة على الدوام، يسح منها اللعاب.

تلك القوة الجذلى، المتميزة، والعذبة في آن معاً والتي تمور فيها من جمة شعرها إلى عرقوبها كانت تهيج اضطرابنا، وتثير قلقنا على نحو فتان، أجل! كانت تقلقنا فعلاً، تلك هي الكلمة المناسبة.

Twitter: @ketab_n

إذا كانت غريزتنا تنعم بالفرح فإن معرفتنا الفظة بأشياء هذا العالم كانت، بالأحرى تعكره. فالمعرفة دوماً تربض هناك في الأعماق المذعورة، تلوذ داخل كهف الوجود، خاضعة للأسوأ عادة، بفعل التجربة.

كانت صوفي تمتلك تلك المشية المجنحة، المرنة والمحكمة، مثلما نعهدها غالباً جداً لدى النساء الأمريكيات، مشية الكائنات المستقبلية العظيمة التي تنزع حياتها الطموحة والخفيفة نحو سبل جديدة للمغامرات. ثلاثة صوارٍ من الجذل، على الدرب نحو اللانهائي.

بارابين نفسه الذي لم يكن مع ذلك من ذوي النفوس الشاعرية التي تأبه لموضوعات الجاذبية تلك، كان يبتسم لنفسه كلما ظهرت صوفي أمامه. كان تأملها وحده، ينعش الروح، ولا سيما روحي، التي ظلت تواقة متلهفة.

من أجل أن أباغت صوفي، وأجردها بعضاً من ذلك البهاء، من ذلك النوع من السطوة والسحر الذي تمارسه علي، لكي أنزلها من عليائها في المحصلة، وأؤنسنها قليلاً لتطابق مقاييسنا الهابطة والدنيئة دخلت إلى حجرتها فيما كانت نائمة.

كان مشهد صوفي حينئذٍ مغايراً تماماً، أليفاً ومدهشاً مع ذلك، ومطمئناً أيضاً، كانت راقدة في السرير، دونما استعراض، ودونما أغطية. الفخذان ملتحمان، اللحم رطب ومنبسط. كانت تعبر عن ذاتها إزاء التعب. كانت صوفي تتمسك بضراوة بحبال النوم في أعماق جسدها، كانت تصدر شخيراً.. تلك هي اللحظة الوحيدة التي أجدها في متناول يدي. لم يعد ثمة سحر ولا رقى، لم يغد ثمة هزل. لا شيء سوى الجد. كانت تكد في الاتجاه المعاكس للوجود، وفي امتصاص الحياة منه أيضاً... كانت منهومة في تلك اللحظات، ثملة كذلك لفرط ما تسترد من تلك الحياة.. خليق أن تراها خلال تلك

Twitter: @ketab_n

الغفوات.. منتفخة تماماً، وتحت جلدها الوردي لا تكف أعضاؤها عن الانتشاء. كانت طريفة حينئذٍ ومضحكة شأنها شأن جميع الناس. كانت تثمل من السعادة خلال لحظات أيضاً، ومن ثم فإن ضوء النهار بدا يسقط فوقها، وكما لو بعد انقشاع غيمة ثقيلة، كانت ستستعيد انطلاقتها، ظافرة، طليقة.

كان بوسعي أن أغمر بالقبل كل ذلك الجمال، كان من الممتع إلى أبعد حد أن ألمس بيدي كل شيء في تلك اللحظات حيث تغدو المادة هي الحياة، أن أعلو ذلك السهل المنبسط اللانهائي الذي ينفتح أمام الرجال، أن أقول: أوف، وأرتع فوقه ما وسعني الرتع، كان ذلك أشبه بصحراء شاسعة.

فيما بيننا، كأصدقاء، أكثر مما كأرباب عمل وعمال، كنت أنا، كما أعتقد، أقرب المقربين إليها. ولكنها كانت تخدعني بانتظام، يمكنني قول ذلك، مع ممرض في جناح المجانين، وهو عامل إطفاء قديم. زاعمة أن ذلك من أجل صالحي مثلما كانت توضح لي، من أجل أن لا تثقل علي وترهقني، بسبب الجهود الفكرية التي أبذلها خلال العمل، والتي لم تكن تنسجم تماماً مع نوبات طبعها المندفع. من أجل راحتي كلياً إذن، كانت تجعلني مخدوعاً وجاهلاً في الأمور الصحية.

كل ذلك لم يكن يخلف لدي قطعاً سوى البهجة الخالصة، ولكن قصة ماديلون ظلت مستقرة في وعيي، وقد انتهيت ذات يوم إلى أن أحدث صوفي عنها كي أرى ما الذي ستقوله، كان ذلك يحررني قليلاً من الحديث عن متاعبي وضجري. لقد طفح الكيل.. حقاً، بسبب النزاعات التي لا تنتهي بينها وبين روبنسون والأحقاد الناجمة عن حبهما التعس.

وافقتني صوفي على رأيي بهذا الصدد كل الموافقة.

Twitter: @ketab_n

بوصفنا أصدقاء، أنا وروبنسون، كانت صوفي ترى بأنه يتوجب علينا جميعاً أن نتصالح، بكل بساطة، وبكل رفق وفي أسرع وقت ممكن. كانت تلك نصيحة خالصة تنبع من قلبها الطيب، لديهم الكثير من القلوب الطيبة في آسيا الوسطى، ولكنها فقط، لم تكن عليمة كل العلم بأمزجة الناس هنا وبردود أفعالهم، كانت تنصحني بأصدق النوايا في العالم ولكن بعكس الصواب تماماً. وقد تبينت هي فيما بعد بأنها كانت على خطأ... ولكن في وقت متأخر جداً..

«عليك أن تلتقي من جديد بماديلون، كانت صوفي تشير علي، لا شك أنها فتاة لطيفة، في الحقيقة، حسب رأيها، كل ما في الأمر أنك أثرتها، وكنت فظاً للغاية، ومنفراً معها... والآن أنت تدين لها باعتذار، وحتى بهدية جميلة كي تجعلها تنسى...» هكذا تعالج الأمور في بلدها. كانت المساعي التي نصحتني باتخاذها غاية في اللطف والكياسة، ولكنها غير عملية.

اتبعت نصائحها، لا سيما أنني كنت أستشف في نهاية كل ذلك المواقف المصطنعة، وتلك التقاربات الدبلوماسية لعبة صغيرة ممكنة ستكون مسلية للغاية، كما أنها تدخل بعض التجديد! كانت صداقتي تغدو، تحت ضغط الأحداث، والعمر، صداقة جنسية على نحو متكتم، خيانة، كانت صوفي تساعدني دون أن تريد ذلك على أن أخون في تلك اللحظات، كانت أقل فضولاً بكثير من أن تحب المخاطرات. طبيعة ممتازة، وغير بروتستانتية بالمرة، لم تكن تسعى إلى أن تقلل من فرص الحياة التي لا ترتاب بها من حيث المبدأ. نمطي المفضل تماماً. كانت تذهب أبعد من ذلك أيضاً، كانت تفهم ضرورة تغيير أوضاع الوصال من الخلف، ومن الأمام وكانت اختياراتنا ممتعة جداً.

رغبت صوفي، وكنت أجد ذلك طبيعياً، في أن أتمكن من إعطائها بعض التفاصيل عن مظهر ماديلون، كانت تخشى أن تبدو خرقاء، في الأمور

Twitter: @ketab_n

الخاصة أمام فرنسية، ولاسيما بسبب الشهرة الفنية والجمالية التي شاعت عن الفرنسيات في الخارج. أما بالنسبة إلى تحمل وجود روبنسون في الوقت ذاته، فقد رضيتُ بذلك من أجل أن تسعدني. لم يكن روبنسون يزعجها على الإطلاق،كما قالت لي. خلاصة الكلام، أننا كنا على اتفاق في الرأي، وذلك هو الأمر المهم.

انتظرت بعض الوقت، حتى تلوح فرصة ألقي خلالها بكلمتين في إذن روبنسون عن خطتي في مصالحة شاملة، وفي ذات صباح، كان روبنسون يعيد نسخ الملاحظات الطبية على الدفتر الكبير في مكتب أمانة الصندوق، كانت اللحظة مواتية لطرح مبادرتي. قاطعته لأسأله بكل بساطة عما يتصوره من مساع يقوم بها لدى ماديلون من أجل تناسي الشجار العنيف الذي حدث فيما بيننا في الماضي القريب، وما إذا كان ممكناً في المناسبة نفسها أن أقدم صديقتي الجديدة صوفي إليها؟ وسألته أخيراً، إن لم يكن يعتقد بأن اللحظة قد حانت كي نوضح مواقفنا جميعاً مرة واحدة في جو من المودة.

تردد قليلاً، في البداية، لاحظت ذلك بوضوح، ثم أجابني، ولكن من دون حماس، بأنه لا يرى في ذلك ضرراً. كنت أعتقد، في الواقع، بأن ماديلون كانت قد أفضت إليه بأنني سأحاول رؤيتها ثانية عما قريب، بذريعة أو بأخرى. وبصدد الصفعة التي تلقتها مني في اليوم الذي جاءت فيه إلى فينيه لم أنبس بكلمة حولها.

لم يعد بوسعي المجازفة بأن يتطاول علي روبنسون الآن، أو أن يعاملني بفظاظة أمام الملأ. فعلى الرغم من كوننا أصدقاء ومنذ زمن طويل في ذلك المشفى، فقد كان مع ذلك تحت أمرتي، السلطة أولاً.

Twitter: @ketab_n

تم إنجاز هذا النوع من مسعى المصالحة في شهر كانون الثاني. قررنا أن نلتقي جميعاً في باريس يوم أحد. لأن ذلك كان ملائماً أكثر، وأن نذهب سوياً إلى السينما، وأن نمضي لحظة، في البداية وسط أفراح عيد الباتينيول، إن لم يكن الجو شديد البرد في الخارج. كان قد وعد باصطحابها إلى عيد الباتينيول، وكانت هي مشغوفة بالأعياد الشعبية الجوالة، كما أخبرتني سابقاً. كان ذلك في أوانه، فللمرة الأولى كنا نرى بعضنا من جديد، وسيكون ذلك أفضل إن حدث ذلك اللقاء بمناسبة عيد.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

»» يمكنني القول بأننا متعنا أنظارنا بالعيد، ومتعنا رؤوسنا أيضاً، بم وبوم، ثم بوم أيضاً، سأدور بك! وسأهيجك وسأدوخك! وها نحن جميعاً في غمرة العيد، مع الأضواء، ومع الضوضاء، ومع كل شيء، وإلى الأمام نحو الرشاقة والبراعة. نحو الجسارة، نحو الهزل والمجون! زيم! كل واحدٍ يسعى إلى أن يبدو على سجيته، وأن يتظاهر بالحيوية والنشاط، متحفظاً قليلاً مع ذلك، كي يظهر للناس بأنه معتاد على مثل هذه التسليات في أماكن أخرى أكثر كلفة، أماكن «غالية» كما يقال بالإنكليزية.

اتخذنا سمت الماكرين، والمزاحين المرحين، على الرغم من الريح الشمالية الباردة، والمزعجة أيضاً، وذلك الخوف القابض للنفس بأننا أسرفنا أيما إسراف في اللهو، وأنا سنندم على ذلك غداً، وربما أيضاً طوال الأسبوع.

أصوات الموسيقا تصعد من ميدان الفروسية. لم يفلح الميدان في تقيؤ فالسه، فالس فاوست، ولكنه بذل كل ما في وسعه، كان الفالس يهبط ويرتفع حول السقف المدور الذي يدوّم بآلاف الفطائر الضوئية الصادرة من المصابيح. لم يكن ذلك مريحاً. وكان الأورغ يتألم وهو يطلق الموسيقا من جوفه.

في ميدان الرمي، كانت ماديلون بقبعتها المرفوعة فوق جبينها أبرعنا جميعاً «انظر! كانت تقول لروبنسون، أنا لا أرتجف، رغم أنني شربت كثيراً». خرجنا إذن من المطعم «قدح آخر» تناولت ماديلون زجاجة الشمبانيا،

Twitter: @ketab_n

راهنتها حينئذٍ بأنها لن تلحق بي في ميدان سباق السيارات «أتحداك» أجابتني بمرح ،.. هوب! كنت مسروراً لأنها قبلت رهاني، كان ذلك وسيلة كي أتقرب منها، لم تكن صوفي غيورة. كان لديها أسبابها.

صعد روبنسون في سيارة إذن خلف ماديلون، مثل رزمة، وصعدت أنا في سيارة أخرى أمام صوفي. وبدأنا سلسلة من الصدامات الفريدة.. سأبعجك! وسأوقفك.. ولكنني رأيت فوراً بأن ماديلون لم تكن ترغب في هذا التدافع، ولم يكن ليون يحب ذلك أيضاً.. يمكن القول بأنه لم يكن على ما يرام... وفيما كنا نتعلق بالدرابزين، ونحن ندور في الحلبة شرع بعض صغار البحارة في جسّنا بأيديهم بعنف، رجالاً ونساءً، كنا نرتعش، ندافع عن أنفسنا، نمزح، ثم وصل من كل مكان جساسون، ومع الموسيقا أيضاً ومع الحماس والإيقاع. كنا نتلقى في ذلك النوع من البراميل ذات العجلات الصغيرة رجات عنيفة، بحيث أننا في كل مرة نصطدم فيها كانت عيوننا تخرج من محاجرها، وأي فرح! وأي عنف مع الهزل والضحك.. سائر أوكورديون الأفراح! كنت أريد أن أتصالح مع ماديلون قبل أن نغادر العيد. كنت مصراً على ذلك، ولكنها لم تكن تستجيب على الإطلاق لمبادراتي، على نحو إيجابي، كانت تبدي نفوراً مني، وتحافظ على مسافة بينها وبيني. ظللت متردداً، وعاودها مزاجها السوداوي، وغيرت أيضاً من مظهرها ومن كل شيء.

لاحظت أنها كانت شاردة بالقرب من صوفي، متكدرة.. كانت حفاوة صوفي تبعدها بنحو ملحوظ، ولكنها كانت تفكر الآن في أمور فائقة الأهمية، كان ذلك يقلقني. غير أنها كانت تبتسم. كنا في العيد، ولا وقت للتباكي، علينا أن نعيّد.

Twitter: @ketab_n

كانت قد وجدت عملاً عند إحدى قريباتها، مثلما أفضت إلى صوفي، في شارع روشيه، في محل لصنع المشدات.. كنا نميل إلى تصديقها. لم يكن من الصعب أن أدرك منذ تلك اللحظة، بأن المصالحة آلت إلى الإخفاق، وأن تدبيري كان فاشلاً.

كان من الخطأ السعي إلى رؤيتها ثانية. لم تكن صوفي تدرك الموقف بعد، لم تشعر بأننا كنا بذهابنا لرؤيتها من جديد قد عقدنا الأمور... كان على روبنسون أن يخبرني، أن ينبهني إلى أنها كانت متصلبة جداً في هذا الموضوع.. كانت تلك خسارة.. حسناً! تزم! تزم! وإلى الإمام مع ذلك، وإلى الأمام دائماً نحو «الكاتربلر» مثلما كانوا يسمون ميدان السباق! كنت أنا من أقترح ذلك.. كنت أنا من يدفع النقود، من أجل التقرب مرة أخرى من ماديلون، ولكنها كانت تتسل على الدوام. محاولة أن تتجنبني، كانت تنتهز فرصة الازدحام كي تذهب إلى رصيف آخر، أمام روبنسون، ومعه.. كنت مخدوعاً، ثمة أمواج ودوامات من الظلمة غشت عيوننا.. لا شيء يمكن عمله، هذا ما خلصت إليه. وكانت صوفي ترى رأيي في النهاية.. وأدركت بأنني كنت في كل ذلك ضحية لمخيلتي العجيبة.. «أنت ترى، بأنها مستاءة! أعتقد بأننا نفعل خيراً بتركهما هادئين الآن... يمكننا ربما أن نقوم بجولة في الشابانيه قبل أن نعود...» كان هذا الاقتراح يروق لصوفي، لأنها كانت قد سمعت الكثير عن الشابانيه حينما كانت ما تزال في براغ، وهي لم تكن تطلب أكثر من أن تجرب الدخول إلى الشابانيه الآن كي تتمكن من أن تحكم عليه بنفسها. ولكننا قدرنا بأن ذلك سيكلفنا أكثر مما بحوزتنا من مال، كان علينا إذن أن نعود إلى الاهتمام بالعيد.

Twitter: @ketab_n

حينما كنا وسط الكاتربلر كان روبنسون بلا شك قد أثار نزاعاً مع ماديلون، فقد نزل الاثنان من سيارة السباق مستاءين كلياً. كان مزاجها في ذلك المساء فاسداً بالتأكيد.اقترحت من أجل تهدئتهما وإصلاح الأمور لعبة مسلية تشغلهما عن بعضهما، مسابقة لصيد أعناق الزجاجات. قطبت ماديلون جبينها في البداية ثم التحقت بنا مع ذلك، أصابت بحلقتها الهدف، أدخلتها في عنق الزجاجة مع قرعة الجرس، كليك! وفازت باللعبة. أصيب البائع بالدهشة وسلمها الجائزة «نصف زجاجة... غراندوق دوما لفوازون».. وعلى الرغم من براعتها في اللعبة فإنها لم تكن مع ذلك راضية... «لن أشرب الزجاجة..» أعلنت لنا على الفور.. «هذا الشراب رديء...» كان روبنسون هو الذي فتح الزجاجة كي يشرب منها هوب! وضعها على فمه على طريقة نفخ البوق. كان منظره مضحكاً، لأنه لم يشرب منها قطرة تقريباً.

مررنا بعد ذلك أمام عرس الدمى المصنوعة من الزنك، دحرجنا نحوها جميعاً كرات صلبة. والواقع أنني كنت عديم المهارة، هنأت روبنسون على براعته، ولكن ذلك لم يجعله يبتسم. يمكن القول بأننا كنا نجرهما جراً إلى سخرة حقيقية.. ما من وسيلة لاستثارتهما. لإقناعهما «نحن في العيد» كنت أصيح بهما، ثم أعيتني الحيل في النهاية.

كان سيان بالنسبة إليهما كل ما أفعله لإثارتهما. وما أردده من تلك الأشياء داخل آذانهما. لم يكونا يسمعانني «أين الشباب إذن؟ كنت أسألهما، ما الذي نفعل به... الشباب؟ ماذا أقول إذن، أنا الذي يكبركما بعشر سنوات؟ هيا يا حلوتي..» كانا ينظران إلي حينئذٍ. ماديلون وهو، كما لو كانا يقفان أمام شخص مصاب بالتسمم، مهذار، كأن كلامي لم يعد يستحق عناء الرد عليه.

Twitter: @ketab_n

كما لو لم يعد ثمة أهمية حتى لأن يردّا علي بكلمة، كما لو أنني لم أعد افهم بالتأكيد، مهما حاولا أن يشرحا لي الأمر. ربما كانا على حق؟ قلت لنفسي حينئذٍ ونظرت بقلق إلى كل من يحيط بنا من الناس الآخرين.

ولكن أولئك الناس كانوا يفعلون كل شيء، كي يتسلوا، لم يأت هؤلاء الناس إلى هنا مثلنا، كي يهدهدوا أحزانهم الصغيرة، لا شيء من ذلك، كانوا يأخذون من العيد. بفرنك واحد هنا... بخمسين سنتيماً هناك.. الكثير من الضوء.. من الكلام المعسول، من الموسيقا، من حب اللوز المسكر.. كانوا يتحركون على غرار ذباب، ومعهم يرقاتهم الصغيرة بين أذرعهم، أطفال كابون باهتون، يتلاشون لفرط شحوبهم وسط انهمار الأضواء الساطعة. قليل من اللون الوردي فقط بقي لهم حول أنوفهم في مكان الزكام والعناقات.

بين جميع منصات الرمي تعرفت جيداً على الفور على «مركز الأمم». ذكرى لم ألحظها لدى الآخرين، ها قد مرت خمس عشرة سنة... قلت لنفسي إنها ذكرى لي فقط، انقضت خمس عشرة سنة... فقدت خلالها رفاقاً على الدرب.. كنت أحسب بأن «مركز الأمم» لن يخرج قط من الوحل الذي كان يحيط به في سانت كلود، ولكنه خضع لكثير من التغيير، واصبح الآن جديداً تقريباً في المحصلة، مع موسيقا مصاحبة ومع كل شيء. كان هذا واضحاً للعيان، كانت التعرفة فرنكين اثنين. مررنا به على عجل. كنت أشعر ببرد شديد، ولذلك لم أحاول الرمي، كان من الأفضل أن نمشي، ليس لأن النقود كانت تنقصنا. فقد كانت جيبي ملأى بالنقود التي ترن بصوت مسموع.. تلكم هي موسيقا الجيب الصغيرة.

Twitter: @ketab_n

كنت أحاول أي شيء، في تلك اللحظة كي أغير الأفكار، ولكن ما من أحد تراجع عن موقفه وأفكاره. لو أن بارابين كان معنا، لكان الوضع أسوأ من دون شك. كان بارابين حزيناً منذ جاء إلى هذا العالم، وقد بقي لحسن الحظ، يحرس المشفى. شعرت بندم بالغ على مجيئي. كانت ماديلون قد بدأت بالضحك مع ذلك، ولكن ضحكها لم يكن قط مسلياً. أما روبنسون فكان يضحك هازئاً بالقرب منها لكي لا يفعل أي شيء آخر.. وانخرطت صوفي فجأة في إلقاء النكات.. وكان ذلك طفاح الكأس..

حين مررنا من أمام كوخ التصوير الفوتوغرافي.. رآنا المصور مترددين. لم نكن عازمين على الدخول لالتقاط صورة، ما عدا صوفي ربما، ولكننا وقفنا أخيراً أمام آلته بعد ترددنا أمام بابه، خضعنا لإيعازاته البطيئة، ونحن نقف فوق جسر كرتوني، من صنعه هو، يمثل سفينة، سفينة لابيل فرانس، لبثنا على هذا النحو لحظة طويلة وعيوننا اليمنى تنظر إلى الأمام تتحدى المستقبل. كان زبائن آخرون ينتظرون نافذي الصبر نزولنا عن الجسر، وقد انتقموا لانتظارهم الطويل بتعليقاتهم الساخرة وبملء صوتهم، بأننا كنا قبيحين جداً.

لقد استغلوا فرصة عدم قدرتنا على الحركة أمام المصور. ولكن ماديلون التي لم تكن تهاب أحداً، شتمتهم بالمقابل بلهجة جنوبية أصيلة. كان موقفها ذاك متوقعاً.

كنا مدهوشين، جميعاً.. صورة لكل منا، لم نعد قبيحين مثلما كنا من قبل، كان المطر يخترق سقف كوخ المصور، وقد كلت أرجلنا من التعب وتجمدت، وهاجمتنا الريح فيما نحن في وضعية التصوير، من الثقوب

Twitter: @ketab_n

المنتشرة في كل مكان من جدران الكوخ، حتى كادت أن تنتزع معاطفنا عن أجسادنا.

ينبغي العودة إلى التسكع من جديد، بين الأكواخ. لم أكن أجرؤ على اقتراح العودة إلى فينيه فقد كان الوقت مبكراً جداً. كان الأورغ الذي يضج بمشاعر محتدمة قد اغتنم فرصة ارتعاشنا من البرد كي يجعلنا نرتعد أكثر أيضاً مستثيراً أعصابنا. كان يهزأ باندحار العالم بأكمله، عاوياً بحدة. معلناً الهزيمة من بين زماراته المفضضة. وسيتلاشى لحنه وسط ظلمة الليل، غير بعيد، عبر الشوارع العبقة برائحة البول والمنحدرة من التلال.

كانت الخادمات البريتانيات يسعلن أكثر مما في الشتاء المنصرم. هذا صحيح، حينما كن يصلن إلى باريس. كانت أفخاذهن المرمرية الخضراء والزرقاء تزين، ما أمكنهن ذلك، ظهور الخيول الخشبية التي يمتطينها، فتيان "أوفيرنييه" الذين يدفعون عنهن أجرة تلك التسليات والحذرون جداً، لم يكونوا يطؤوهن إلا مع الأكياس الواقية من الزهري، لم يكونوا راغبين بالتقاط العدوى مرة ثانية. كانت الخادمات يتثنين وهن ينتظرن الحب وسط القرقعة الشجية بقبح، المنبعثة من ساحة الألعاب. كن يشعرن بشيء من الألم في بطونهن، ولكنهن كن يتغنجن مع ذلك وسط ذلك الزمهرير. تلك هي اللحظة الثمينة، لحظة اختبار شبابهن الغض على الغاوي المنشود الذي لعله يكون كامناً هنا وسط هذا الحشد المرتعد من البلهى. لم يتجرأ بعد ربما على اقتحام الحب.. كل شيء يحدث مع ذلك كما في السينما، بما في ذلك السعادة. لعله يحبك حب العبادة من نظرة واحدة، ذلك الفتى، ابن مالك العقارات، ولا يتخلى عنك قط. هذا ممكن، هذا يكفي. وفوق ذلك فهو لطيف، وفوق ذلك فهو جميل، وفوق ذلك فهو غني.

Twitter: @ketab_n

في الكشك المجاور، قريباً من المترو تقف البائعة، غير عابئة بالمستقبل، تحك ملتحمتها الملتهبة الرمداء، وتخرج بتأن القيح بأظافرها. كانت تلك متعة، غريبة ومجانية، منذ سنين ست، وعينها ملتهبة على تلك الصورة، تتآكلها أكثر فأكثر.

المتنزهون زرافات، يتجمعون بسب البرد القارس، يلتحمون حول اليانصيب. دون أن يحالفهم التوفيق. يخبون بسرعة، ويقفزون كي يدفؤوا وسط كتلة الجمهور الذي يواجههم. أمام العجل ذي الرأسين.

طال بنا التسكع والتجوال حتى بلغنا نهاية العيد.. وسط الفراغ الهائل الذي تغشيه الظلمة الداكنة حيث تذهب العائلات للتبول... نصف دورة إذن! وسنعود سيراً على أقدامنا، أكلنا بعض حبات الكستناء، كان طعمها رديئاً، وقد ظهرت في داخلها سرف ديدان، كانت ماديلون هي التي اكتشفتها، كما لو أنها متعمدة. ومنذ تلك اللحظة لم تعد الأمور تسير على ما يرام فيما بيننا. كنا ما نزال نتمالك أنفسنا قليلاً حتى ذلك الوقت، ولكن الكستناء تلك جعلت ماديلون ساخطة كل السخط.

حين توجهت نحو الساقية كي تبصق الكستناء المتعفن صاح بها روبنسون، كما لو أنه يريد أن يمنعها من ذلك. لا أدري ما الذي قاله لها ولا ما الذي انتابه، ولكن تلك الطريقة ببصق الكستناء لم تكن تروق أبداً لليون، وسألها بخرق بالغ هل وجدت داخلها شيئاً؟ لم يكن ذلك سؤالاً يطرح عليها... وها هي ذي صوفي تحاول التدخل في حوارهما الساخن، لم تكن تفهم لماذا يتخاصمان، كانت تريد أن تعرف.

Twitter: @ketab_n

تضايقا إذن أكثر، حين قاطعتهما صوفي، الغريبة عنهما. وفي تلك اللحظة بالذات مر من بيننا رهط من الصياحين، شتتوا شملنا. كانوا يصطادون المومسات، في الواقع، ولكن بطريقة مهووسة، مزامير وصرخات، جميع أنواع الصرخات المذعورة، وحين تمكنا من الالتئام كان النزاع ما يزال ناشباً بين روبنسون وبينها.

«تلك هي اللحظة المناسبة للعودة، كنت أفكر بيني وبين نفسي. إذا ما تركناهما معاً دقائق أخرى فسيثيرون فضيحة وسط العيد. كفانا متاعب من أجل هذا اليوم» لقد أخفق كل شيء. كان علينا أن نعترف.. «هل تريد أن نرحل؟» اقترحت على روبنسون، نظر إلي حينئذٍ وكأنه تفاجأ بسؤالي. ومع ذلك فقد بدا لي أن هذا القرار هو الأكثر حكمة «ألم تكتفوا إذن من التجول في العيد» قلت مضيفاً.. أشار إلي حينئذٍ بأن من الأفضل أن أسأل ماديلون في البداية عن رأيها. ولكنني لم أكن أجد ذلك حكيماً جداً..

«ولكننا، سنصطحب ماديلون معنا! انتهيت إلى القول.

- نصطحبها؟ إلى أين تريد أن نصطحبها إذن؟ أجاب روبنسون.

- ولكن إلى فينيه، هيا» رددت عليه.

كانت تلك هفوة مني... هفوة أخرى... ولكن لم يعد بوسعي التراجع، فقد قلتها.

«لدينا غرفة فارغة من أجلها، هناك في فينيه... أضفت. ليست الغرف هي التي تنقصنا، هيا! يمكننا بالإضافة إلى ذلك أن نصنع وجبة حساء صغيرة كلنا معاً، قبل أن نذهب إلى النوم... سيكون هذا أكثر بهجة من هنا بالتأكيد، حيث نكاد نتجمد تماماً منذ ساعتين. لن يكون ذلك صعباً..» لم تجب ماديلون بشيء

Twitter: @ketab_n

على اقتراحاتي. لا بل إنها لم تكن تنظر إلي وأنا أتكلم، ولكنها لم تكن تضيع مع ذلك كلمة واحدة مما كنت أقوله. وأخيراً فكل ما قيل، قد قيل، ولا مجال للتراجع عنه. حينما انتحيت جانباً، اقتربت مني بهدوء لتسألني ما إذا كانت هذه حيلة خبيثة أخرى أريد أن ألعبها معها أيضاً بدعوتي لها إلى فينيه.

لم أجب بشيء. ليس بالوسع محاكمة الأمورمع امرأة غيورة مثلما كانت ماديلون. ربما سأقدم لها أيضاً ذرائع وحكايات لن تخلص منها قط ثم إنني لم أكن أعرف على وجه الدقة ممن وممَ كانت تغار... من الصعوبة غالباً فهم تلك المشاعر التي تنبع من الغيرة. كنت أتصور أنها في المحصلة تغار من كل شيء.

لم تعد صوفي تعرف كيف تتصرف، ولكنها استمرت على إصرارها في أن تظل لطيفة غاية اللطف، كانت أيضاً قد أخذت ماديلون من ذراعها، ولكن ماديلون كانت أشد غضباً وإصراراً على موقفها الساخط من أن تستجيب لمثل تلك الملاطفات. اندسسنا بصعوبة بالغة وسط حشد من الناس ينتظرون "الترام". كنا في ساحة كليشي، وفي اللحظة التي كنا سنصعد فيها إلى "الترام"، أفرغت غيمة حمولتها فوق الساحة، وانهمر المطر شلالات، وفاضت السماء بالطوفان.

وخلال لحظة، اندفعت جميع السيارات بسرعة خاطفة لا تلوي على شيء. «أنت لن تعرضني للإهانة من جديد أمام الناس؟ قل يا ليون؟» كنت أسمع ماديلون تعاود سؤاله بصوت خفيض على مقربة منا. لم تكن الأمور على ما يرام. «لقد سئمت، أليس كذلك من رؤيتي؟ .. قل إذن بأنك سئمت؟ كانت ماديلون تواصل كلامها. قل ذلك إذن؟ أنت لا تريد أن تراني مع ذلك.. ولكنك تفضل أن تكون معهما لوحدك، أليس كذلك؟ أنتم تنامون كلكم معاً.

Twitter: @ketab_n

أراهن على ذلك، حينما لا أكون هنا؟.. قل إذن بأنك تحب أن تكون معهما أكثر مما تحب أن تكون معي... قلها، حتى أسمعها منك...» وبعد ذلك ظلت صامتة دون أن تنطق بكلمة. وقد انغلق وجهها على تكشيرة حول أنفها الذي كان يرفعها نحو فمها، ثم يجذبها ثانية. كنا ننتظر فوق الرصيف؟ «أنت ترى كيف يعاملني صديقاك؟.. قل يا ليون؟..

ولكن ليون نفسه، لابد من إنصافه، لم يكن يرد عليها بشيء. لم يكن يستثيرها، كان ينظر إلى الجهة الأخرى، نحو الواجهات، والشارع والسيارات. كانت تلك الساعات عصيبة على ليون. ولما لم تر ماديلون بأن تلك الأنواع من التهديد قد تركت أي أثر على روبنسون فقد لاحقته بطريقة أخرى، ومن ثم فقد بدأت تحدثه من جديد برقة ولين.

«أنا أحبك بقوة، يا ليوني، قل بأنك تنتظرني، بأنك تحبني أليس كذلك؟ أنت تعرف على الأقل ما فعلته من أجلك؟ لم يكن ربما من الضروري أن أجيء معك اليوم؟ أنت تحبني مع ذلك قليلاً جداً يا ليون؟ ليس من الممكن بأن لا تحبني على الإطلاق... أنت تمتلك قلباً، قل يا ليون، تمتلك قليلاً من القلب مع ذلك؟... لماذا إذن تستخف بحبي؟ لقد صنعنا حلماً جميلاً كلانا معاً.. لكم أنت قاسٍ معي رغم ذلك... لقد ازدريت حلمي يا ليون.. لقد دنسته... يمكنك أن تقول بأنك حطمت المثال الذي صنعته.. هل تريد إذن أن لا أعود أؤمن بالحب، قل؟ والآن، أنت ترغب في أن أنصرف عنك إلى الأبد إذن؟ هل هذا ما تريده فعلاً؟..» وفيما كانت تسأله هكذا كانت قطرات المطر تتساقط فوقنا عبر مظلة المقهى.

Twitter: @ketab_n

كانت ماديلون بالتأكيد مثلما وصفها لي سابقاً. لم يكن قد اختلق أي شيء فيما يتعلق بشخصيتها الحقيقية. لم أستطع أن أتخيل بأنها كانت قد توصلت بهذه السرعة إلى مثل هذه الحرارة العاطفية. كان الأمر على هذا النحو فعلاً.

لما كانت السيارات وسائر حركة المرور تثير ضجة حولنا، فقد اغتنمت الفرصة كي أهمس مع ذلك بكلمة صغيرة في أذن روبنسون حول الوضع الذي كنا فيه، بأن نخلص منه الآن. وننتهي من كل ذلك بأقصى سرعة، مادامت محاولتنا قد فشلت، وننسحب بهدوء قبل أن تسوء الأمور أكثر ويستحكم العداء بينهما حتى الموت... كنت أخشى ذلك «هل تريد أن أجد لك عذراً، همست له، وأن ينسحب كل منا إلى جهته...

- لا تفعل ذلك على الأخص، أجابني روبسون، لا تفعل ذلك. ستكون قادرة على أن تفجر أزمة هنا، ولن يكون بإمكاننا إيقافها!» ولم أصر على موقفي. ربما كان مما يسعد روبنسون في النهاية أن يتعرض للشتم علناً. ثم إنه كان يعرفها أفضل مني. لما أن توقف وابل المطر، وجدنا سيارة تاكسي فاندفعنا إليها، وها نحن نجلس، بعضنا إلى جانب بعض، لم يتفوه أحد بكلمة، في البداية. كان غم ثقيل يخيم بيننا، ومن ثم فقد كنت قد ارتكبت ما يكفي من الهفوات، لذا كان بوسعي الانتظار قليلاً قبل أن أعاود الحديث.

جلسنا أنا وليون في المقعد الأمامي، وشغلت المرأتان المقعد الخلفي. إنها أمسيات العيد، كان شارع أرجنتيل مزدحماً، ولا سيما عند مدخله، وبعد ذلك كان ما يزال أمامنا ساعة كاملة حتى نصل إلى فينيه بسبب زحام السيارات، لم يكن من السهل البقاء ساعة دون التفوه، بكلمة، ونحن ننظر إلى

Twitter: @ketab_n

بعضنا، وجهاً لوجه، وعلى الأخص حين يعم الظلام، ونكون قلقين قليلا، بعضنا، بسبب البعض الآخر.

لو أننا بقينا هكذا ، صامتين مغتاظين،.. كل واحد منا في حاله لما حدث شيء. ما زال هذا رأيي إلى اليوم، حينما أفكر بما حدث. حاصل الكلام، أنني أنا من وصل حبل الحديث من جديد، واستؤنف النزاع حينئذٍ على الفور، وبنحو صاخب. مع الكلمات لا يرتاب المرء إطلاقاً بما يكفي. لا تبدو الكلمات شيئاً ذا بال، وهي لا تشف عن أخطار بالتأكيد. إنها بالأحرى رياح خفيفة، أصوات صغيرة من الفم، لا ساخنة ولا باردة، تستولي عليها الأذن ما إن تقال. يستولي عليها ملل الدماغ، ذلك الملل الهائل الرمادي الرخو الذي يغلف الدماغ، ما كنا نرتاب بالكلمات حتى وقع البلاء.

كلمات، ثمة بعض منها ما يختفي بين كلمات أخرى، مثل الحصى الصغيرة، لا يتعرف عليها المرء بنحو خاص، وبعد ذلك تجعلك ترتعد طوال حياتك، بكل كيانك، بضعفك وقوتك، إنه الهول حينئذٍ. جرف كاسح، وتظل هناك مثل مشنوق.. فوق لجة الانفعالات.. فما حدث كان عاصفة، أقوى بكثير منك، هي من العنف بحيث لن تصدق إطلاقاً بأن من الممكن أن يحدث مثل ذلك البركان داخل مشاعرك.. وإذن، فنحن لم نكن نرتاب مطلقاً، بما يكفي، بالكلمات. ذلك ما استخلصته. ولكن بداية إليكم ما حدث.. كان التاكسي يتبع الترام بسبب الترميمات.. «ررون، ررون..» كان يهدر.. قناة صغيرة كل مئة متر. لم يكن يكفيني هذا الترام الذي يسير أمامنا، بثرثرته وصبيانيته. كان صبري ينفد. لم أعد أطيق تلك المشية البطيئة التي هي أشبه بمشية الجنازة، ولا هذا الغموض الذي يسود في كل مكان.. كنت أتعجل كسر هذا الصمت كي أعرف ما الذي كان

Twitter: @ketab_n

يمكن أن يجري في الخلف، كنت أراقب، أو بالأحرى، أحاول أن أراقب، ما دمت لم أعد أراها تقريباً، في الزاوية اليسرى، في خلفية التاكسي، ماديلون، كانت تدير وجهها دوماً نحو الخارج، نحو مشهد الطبيعة، نحو الليل، في الحقيقة.. كنت ألاحظ بغيظ بأنها كانت ما تزال على عنادها. وكنت أنا، من جانبي. مزعج حقاً. سألتها، كي أجعلها فقط تدير رأسها نحوي:

«قولي لي إذن يا ماديلون!، ربما يكون لديك مشروع للتسلية تتحرجين من أن تفضي به إلينا؟ هل ترغبين أن نتوقف في مكان ما قبل العودة، قولي ذلك، وفوراً؟!..

– تسلية! تسلية. أجابتني كما لو أنني أهنتها. «أنتم لا تفكرون أبداً إلا بهذا! بالتسلية!..» وفجأة، نفثت من صدرها مجموعة من التنهدات، عميقة جداً، نادراً ما سمعت تنهدات بهذا القدر من الشجى والتأثير في النفس.

«أنا أفعل ما أستطيع! أجبتها، إنه الأحد!

– وأنت يا ليون؟ سألته حينئذ. هل تفعل كل ما يمكنك فعله، قل؟» كان سؤالها مباشراً.

– صدقيني! أجابها ليون:

كنت أنظر إليهما كلا الاثنين حينما كنا نمر أمام المصابيح، لمحت نيران الغضب وهي تفور.. كانت ماديلون حينئذ منحنية، كأنها تهم بعناقه، يمكن القول قطعاً بأننا في ذلك المساء لم نفوّت أية هفوة لم نرتكبها.

كان التاكسي يمضي بنا من جديد ببطء متناهٍ، بسبب الشاحنات الكبيرة المصطفة في كل مكان أمامنا.. كان روبنسون متضايقاً من ذلك العناق الذي همّت به ماديلون، فدفعها عنه بخشونة. لا بد من قول ذلك، من المؤكد أن حركته تلك لم تكن لطيفة، لا سيما أن ذلك قد حدث أمامنا نحن الآخرين.

Twitter: @ketab_n

«ما الذي فعلتَه أيضاً لليون كي يغدو خبيثاً بهذا القدر؟ هل تجرؤ على أن تقوله لي حالاً؟.. أية أشياء قد رويتها له أيضاً..». شرعت تتحدث إلي بهذه الصورة.

- ولكن لا شيء على الإطلاق، أجبتها. لم أحدثه قط بأي شيء! لست مهتماً بخلافاتكما..».

بالتأكيد، كان ذلك صحيحاً، لم أتحدث إلى ليون بأي شيء يتصل بهما من قريب أو بعيد.. كان حراً. كان ذلك شأنه، أن يبقى معها أو أن ينفصل عنها. لم يكن ذلك يعنيني. ولكن ليس ثمة حاجة لمحاولة إقناعها. فهي لم تعد تدرك شيئاً، وعدنا كرة أخرى إلى مواجهة الصمت، داخل التاكسي، ولكن الجو ظل ملبداً تماماً بالشتائم، بحيث لم يكن ممكناً أن يصمد طويلاً. كانت ماديلون تكلمني هذه المرة بصوت من تلك الأصوات الهادئة التي لم أعهدها تتحدث بها سابقاً. صوت رتيب على غرار شخص مصمم كلياً، لم يعد بوسعي أن أتبين حركاتها، وهي تغوص في جلستها، في زاوية المقعد الخلفي. كان ذلك يضايقني كثيراً.

كانت صوفي، في أثناء ذلك تمسك بيدي.. لم تعد صوفي فجأة تعرف أين تندس، الفتاة المسكينة.

بينما كنا نتجاوز شارع سانت أوين بدأت ماديلون تجأر من جديد بالشكوى والتظلم تجاه ليون، وعلى نحو جنوني مسعور، طارحة عليه الآن أسئلة لا نهاية لها، وبصوت عال، حول عاطفته نحوها ووفائه لها. كان ذلك مربكاً كل الإرباك لي ولصوفي، ولكنها كانت من الاحتداد إلى درجة أنه كان سيان لديها أن نسمع ما تقوله، على العكس تماماً. لم يكن من الذكاء من

Twitter: @ketab_n

جانبي أيضاً إدخالها معنا في هذه اللعبة، فقد كان ذلك يتيح لصوتها أن يرن رنيناً، ويفتح شهيتها، انسياقاً مع طبيعتها لأن تعنفنا بكل قسوة. كان التاكسي أيضاً مبادرة خرقاء أخرى من جانبي.

ليون نفسه، لم يعد يصدر عنه أي رد فعل. في البداية، كان مرهقاً من الأمسية التي كنا قد أمضيناها سوياً. ومن ثم فقد كان يعوزه النوم دائماً، كان ذلك مرضه.

«اهدئا، هيا! وجدت الفرصة لأن أجعل ماديلون تسمعني، ستتفاهما كلاكما لدى وصولنا.. لديكما كثير من الوقت.

- لدى وصولنا! لدى وصولنا! أجابتني حينئذ بنبرة لا يمكن لأحد أن يتخيلها. لدى وصولنا؟ ولكننا لن نصل أبداً أقول لك! تابعت كلامها. أنا فتاة شريفة!.. أنا أشرف منكم جميعاً!.. يا عصابة الخنازير.. تحاولون عبثاً أن تسخروا مني. أنتم لستم أهلاً لأن تفهمونني! أنتم أشد نتانة من أن تكونوا قادرين على فهمي! كل ما هو شريف، وكل ما هو جميل لا يمكنكم أن تفهموه.

كانت تهاجمنا أخيراً في كرامتنا، واستمرت على هذا النحو. كنت عبثاً أتمالك نفسي داخل مقعدي، وبأقصى ما أستطيع، محاولاً أن لا أصدر نفساً واحداً عالياً، كي لا أزيد من هياجها، ومع كل تغير في سرعة التاكسي كانت تنطلق من جديد في ثورة غضب عارمة، كان أي شيء كافياً في تلك اللحظات كي يصدر عنها ما هو أسوا، كما لو أنها كانت تستمتع بجعلنا تعساء، لم يعد بإمكانها أن تمنع نفسها من الذهاب فوراً إلى أقصى حدود طبيعتها.

«لا تعتقدوا بأن الأمر سيمر بسلام على هذا النحو! كانت تواصل تهديدنا. وأنه سيكون بإمكانكم أن تتخلصوا مني بهدوء! آه، لا، إذن، أحب أن

Twitter: @ketab_n

أقول لكم ذلك في الحال! لا، لن تسير الأمور كما تشتهون! أنتم جميعاً قذرون أوغاد.. لقد سببتم لي التعاسة! أريد أن أوقظكم، أيها القذرون المقززون!..».

وفجأة، انقضت على روبنسون، وأمسكته من معطفه وجعلت تهزه بكلا ذراعيها. لم يفعل هو شيئاً كي يحرر نفسه منها. وما كنت لأتدخل لتخليصه. يمكنني الاعتقاد بأن ذلك كان يسعده، بأن يراها محتدمة أكثر تجاهه. كان يضحك هازئاً. لم يكن ذلك طبيعياً. كان يرتعش فيما هي ماضية في شتمه مثل دمية متحركة أنفه إلى الأسفل، وعنقه مرتخ تماماً.

في اللحظة التي كنت سأقوم خلالها بحركة تحذير صغيرة كي أوقف هذه الفظاظات! تحفزت هي للمقاومة، ثم بصقت البحصة في وجهي هذه المرة، أخرجت كل ما كان متراكماً في قلبها منذ زمن طويل. كان ذلك دوري، يمكنني القول، وأمام الجميع: «ابق هادئاً إذن أيها الشبق! على هذا النحو بدأت الهجوم. ليس من شأنك أن تتدخل بيني وبين ليون! عنترياتك، أيها السيد، لم تعد تخيفني، أنت تسمعني؟ أليس كذلك؟ لم تعد تخيفني ! إذا ما رفعت يدك علي مرة واحدة في يوم من الأيام، فستعلمك ماديلون كيف ينبغي عليك أن تتصرف في الحياة!.. تخدع رفاقك من وراء ظهورهم وبعد ذلك تصفع نساءهم!.. أية وقاحة هذه! ألا تستحي من نفسك إذن!» حين سمع ليون هذه الحقائق، بدا كما لو أنه صحا قليلاً، لم يعد يضحك بهزء. تساءلت خلال لحظة قصيرة إذا ما كنا سنتحدى بعضنا، سنوسع بعضنا ضرباً ولكماً. ولكن لم يكن المكان متسعاً للقتال، ونحن أربعة داخل التاكسي. كان ذلك يطمئنني. فالمكان كان ضيقاً جداً.

كنا ننطلق على الأخص، بسرعة كافية الآن فوق بلاط الشوارع المحاذية للسين، وكان الاهتزاز أكثر مما يسمح لنا بالحركة.

Twitter: @ketab_n

«هلم يا ليون.. توجهت إليه آمرة! هلم معي. أسألك للمرة الأخيرة!\!
هل تسمعني.. هيا؟ دعهم وشأنهم. ألا تسمع ما أقوله لك؟».

كوميديا حقيقية.

أوقف التاكسي، هيا يا ليون! أوقفه أم سأوقفه أنا بنفسي!».

ولكن ليون لم يكن يتحرك من مقعده، كأنه مشدود بلولب

«ألا تريد أن تأتي إذن؟ بدأت من جديد. لا تريد أن تأتي؟!

كانت قد نبهتني إلى أنه فيما يتعلق بي. من الأفضل لي أن ألبث هادئاً مطمئناً. «ألا تأتي!» كانت تكرر دعوتها له. وواصل التاكسي سرعته، بعد أن غدت الطريق حرة أمامه الآن، وكنا ما نزال مشعثين، على غرار طرود ملقاة هنا وهناك.

«حسن، استخلصت أخيراً، ما دام لم يجبها بأي شيء. هذا جيد. أنت نفسك من يريد ذلك! غداً، أنت تسمعني، وليس الغد ببعيد سأذهب إلى مفوض البوليس، وسأشرح له، للمفوض كيف سقطت الأم هنروي عن الدرج! أنت تسمعني، الآن، قل يا ليون؟ أنت مسرور؟ أنت تتظاهر بالصمم؟ إما أن تأتي معي على الفور أو سأذهب لأرى المفوض غداً! هل تريد إذن أن تأتي معي أم لا؟.. أوضح موقفك..» كان ذلك تهديداً واضحاً لا لبس فيه.

قرر ليون مع ذلك أن يجيبها بشيء ما في تلك اللحظة.

«ولكنك كنت ضالعة أيضاً، قولي إذن، ليس لديك ما تقولينه..» حينما سمعت ذلك. لم تهدأ على الإطلاق، على العكس تماماً.. «لا يهمني على الإطلاق أن أكون ضالعة معك! هل تريد أن تقول بأننا سنذهب كلانا إلى السجن؟.. وأنني شريكة معك؟ هل هذا ما تريد قوله؟ ولكني لا أطلب أفضل من ذلك..».

Twitter: @ketab_n

ثم بدأت فجأة تضحك هازئة، مثل امرأة هستيرية. كما لو أنها ما ابتهجت يوماً قط مثلما ابتهجت الآن لدى سماعها ذلك.

«ولكنني لا أطلب أفضل من ذلك، أكرر لك، ولكن ذلك يعجبني، أن أدخل السجن، أقول لك ذلك! لا تحسب بأنني سأنهار بسبب السجن! سأذهب بكل طيب خاطر، إلى السجن، ولكنك ستذهب أنت أيضاً حينئذ، قل يا وغدي؟.. لن تسخر مني طويلاً على الأقل!.. أنا لك، حسناً، ولكنك أنت لي! ولن تملك إلا أن تبقى معي هناك! أنا أعرف حباً واحداً، أيها السيد! لست مومساً!».

كانت تتحدانا أنا وصوفي في الوقت ذاته، وهي تقول ذلك.

على الرغم من كل هذا كانت التاكسي ما تزال تسير بنا، وكان ليون ما يزال على قراره بعدم إيقاف التاكسي.

«لن تأتي إذن؟ هل تفضل الذهاب إلى سجن الأشغال الشاقة؟ حسناً!.. أنت لا تبالي بأن أشي بك؟!.. وبأنني أحبك؟.. لا تبالي أيضاً أليس كذلك؟.. لا تبالي بمستقبلي؟. لا تبالي بكل شيء، منذ البداية أليس كذلك؟ قل ذلك؟

- نعم، بمعنى من المعاني، أجابها ليون هذه المرة.. أنت على حق.. أنا لا أبالي !؟ ولكن ليس بك أنت أكثر مما بأي امرأة أخرى. لا تأخذي ذلك على أنه إهانة على الأخص!.. أنت لطيفة في النهاية.. ولكن لم يعد لدي رغبة بأن يحبني أحد.. فهذا يقززني..»

لم تكن تتوقع أن يقول لها ما قاله. في وجهها تماماً، هنا، ولفرط ما فوجئت بذلك لم تعد تعرف تماماً من أين ستستأنف السباب الذي بدأته. كانت مبلبلة إلى حد ما، ولكنها استأنفت مع ذلك. «آه هذا يقززك!.. كيف يقززك ذلك!.. وماذا تعني؟.. أشرح إذن أيها الجاحد القذر..

Twitter: @ketab_n

- لا! لست أنت من يقززني، بل كل شيء، أجابها، ليس لدي رغبة.. ينبغي أن لا تحقدي علي من أجل ذلك..

- كيف، ما الذي تقوله؟ أعده مرة أخرى؟.. أنا وكل شيء؟». كانت تحاول أن تفهم. «أنا وكل شيء؟ اشرح ذلك إذن؟ ما الذي يعنيه هذا؟.. أنا وكل شيء؟.. لا تتكلم بالصينية!.. قل لي ذلك بالفرنسية. قل لي أمامهما. لماذا أقززك أنا الآن؟ ألا تتهيج إذن مثل الآخرين، قل أيها الوغد الضخم ... هه؟ أتجرؤ على أن تقول هنا ؟.. أمام الجميع بأنك لا تستطيع.... ؟».

على الرغم من فورة غضبها فإن طريقتها في الدفاع عن نفسها، بملاحظاتها تلك، كانت تبعث على الضحك، ولكن لم يكن لدي الوقت للضحك ولا المزاح فقد أعادت الكرة موجهة هجومها نحوي «وهو. هذا الجالس بجانبك إذن، قالت ذلك مشيرة إلي، ألم يكن يحاول أن يستمتع بي في كل مرة استطاع فيها أن يمسكني في زاوية من الزوايا، هذا الوغد، هذا المتملق. فليجرؤ إذن وليقل لي العكس؟.. قولوا إذن جميعكم بأنكم تريدون أن تبدّلوا.. اعترفوا بذلك، وأن هذه اللعبة الجديدة هي ما يلزمكم! لعبة الجنس الجماعي، يا عصابة الفاسدين المنحطين! يا عصابة الخنازير! لماذا تبحثون عن الأعذار؟ لستم سوى سئمين متقززين، وهذا كل شيء! لم يعد لديكم الشجاعة لتعترفوا برذائلكم، إنها تخيفكم، رذائلكم!».

في تلك اللحظة، فإن روبنسون هو الذي أخذ على عاتقه مهمة الرد عليها، وبلغ به الغضب أيضاً كل مبلغ، وراح يزعق هو أيضاً ليس أقل منها.

«ولكن بلى، رد عليها. لدي الشجاعة، تماماً مثلما لديك!.. وإذا شئت أن تعرفي كل شيء..كل شيء بالتأكيد.. حسناً فإن ما ينفرني! وما يقززني الآن

Twitter: @ketab_n

هو كل شيء، وليس فقط أنت!.. بل كل شيء!.. والحب على الأخص. حبك أنت مثلما حب الآخرين.. أولئك الذين يملكون عواطف كالتي تملكينها، هل ترغبين أن أقول لك ما الذي يشبه كل هذا؟ إنه يشبه ممارسة الحب في المراحيض؟ هل تفهميني الآن؟ وكل العواطف التي تبحثين عنها كي أبقى لازقاً بك تبدو لي إهانات إن شئت أن تعرفي.. ومع ذلك لا يخطر لك على بال بأنك كريهة ومنفرة لأنك لا تدركين ذلك، ولا يخطر لك أيضاً بأنك مثيرة للتقزز! كفاك تكرار ما يردده الآخرون وأنت تجدين ذلك طبيعياً.. لأن الآخرين يحدثونك بأنه ليس هناك ما هو أفضل من الحب. وأن الحب يزهر ويثمر مع كل البشر، وفي كل الأوقات.. حسناً، لقد سئمت أنا من حب البشر قاطبة!.. هل تسمعيني؟ إنه آخر ما أهتم به.. حبهم المقرف!.. لقد جافيتِ الصواب!.. وصلت متأخرة! لم يعد يثمر كل ما تفعلينه! هذا كل شيء!.. ومن أجل ذلك تثورين غاضبة. هل تصرين مع ذلك على ممارسة الحب وسط كل ما يجري؟.. وسط كل ما ترينه؟ أم أنك لا ترين شيئاً من ذلك؟ أنا أرى بالأحرى بأن الأمور لديك سواء!.. تتظاهرين بأنك عاطفية في حين أنك فظة أكثر من أية امرأة أخرى.. هل تريدين أن تأكلي لحماً متعفناً؟ مع صلصتك من الحب والرقة؟.. هل هذا ينجح إذن؟.. ليس بالنسبة إلي!.. إذا كنت لاتشمين شيئاً فنعم الأمر بالنسبة إليك! ذلك لأنك قد أغلقت أنفك! ينبغي أن تكوني مصابة بالخبل حتى لا يقززك ذلك. حسناً، فإن ما بيني وبينك، الحياة بكاملها. ألا يكفيك ذلك.»

- ولكن كل ما لدي نظيف. ردت معاندة.. يمكن للمرء أن يكون فقيراً ونظيفاً مع ذلك. متى رأيت بأن ما لدي لم يكن نظيفاً؟ هذا ما أردت أن تقوله

Twitter: @ketab_n

كي تحقرني. إن لدي خلفية نظيفة، يا سيد!.. لا تستطيع ربما أن تقول ذلك عن خلفيتك!.. ولا عن قدميك أيضاً.

– ولكنني لم أقل ذلك مطلقاً يا ماديلون! لم أقل شيئاً كهذا على الإطلاق! بأن ما لديك ليس نظيفاً؟ أنت ترين جيداً بأنك لا تفهمين أي شيء!» ذلك كل ما وجده من جواب كي يهدئها.

«أنت تزعم بأنك لم تقل أي شيء إذن؟ لم تقل أي شيء؟ اسمعوا الآن هذا الذي جعلني أشد انحطاطاً من الأرض، ثم يزعم أيضاً بأنه لم يقل شيئاً. ولكن ينبغي قتله كي لا يعود بمقدوره أن يكذب مزيداً من الكذب!.. السجن ليس كافياً لخنزير مثله. قواد قذر متعفن! لا، ليس هذا كافياً!.. حبل المشنقة هو ما يلزمه!».

لم تعد تريد أن تهدأ. وما عدنا نفهم شيئاً مما يدور بينهما من شجار داخل التاكسي، لم نسمع سوى كلمتين ضخمتين تترددان وسط الضجة التي كانت تثيرها السيارة، من جراء اصطكاك الدواليب بالمطر، وبالريح التي كانت تنقض على الأبواب والنوافذ عاصفة مزوبعة..تهديد ووعيد كان يحوم بيننا، ويمسك بتلابيبنا. «هذا دنيء» رددتها مرات عدة. لم تعد تستطيع أن تقول شيئاً آخر.. «هذا دنيء». ثم جربت اللعبة الكبيرة: «هل تأتي؟ قالت له، هل تأتي يا ليون؟ واحد؟ هل تأتي معي؟ اثنان؟.. انتظرت قليلاً «ثلاثة؟» ألن تأتي إذن؟.. لا! أجابها ليون دون أن يتحرك قيد أنملة. افعلي ما تشائين!» أضاف أيضاً، كان ذلك جوابه.

من المؤكد أنها تراجعت قليلاً في مقعدها، إلى عمقه تماماً، ولا بد أنها أمسكت بالمسدس بكلتا يديها، لأن النار حينما انطلقت كانت متجهة مباشرة إلى بطنه، والطلقتان معاً تقريباً. مرتان متتاليتان، وعبق التاكسي حينئذ بالدخان اللاذع.

Twitter: @ketab_n

كانت السيارة تتابع سيرها مع ذلك. سقط روبنسون بجسمه علي بنحو جانبي، وجسده يرتج بقوة مغمغماً «هوب! هوب!» لم يكن يتوقف عن الانين «هوب! وهوب» كان السائق قد سمعه بالتأكيد.

أبطأ من سرعته قليلاً في البداية، كي يفهم ما جرى. ثم توقف تماماً في النهاية أمام أحد مصابيح الغار.

ما أن فتح باب السيارة، حتى دفعته ماديلون بعنف وألقت بنفسها خارجاً، وتدحرجت فوق تراب الردم. ثم انسلت وسط ليل الحقول مخوضة في الوحل. عبثاً كنت أناديها، كانت قد ابتعدت.

لم أعد أعرف ما الذي سأقرره بشأن الجريح. أن أذهب به الى باريس؟ ذلك سيكون قراراً عملياً أكثر.. كنا بعيدين جداً عن منزلنا.. وضعناه أنا وصوفي بين المعاطف، حشرناه في الزاوية ذاتها التي استقرت فيها ماديلون كي تطلق النار. «بهدوء» طلبت من السائق، ولكن كان ما يزال يسير بسرعة كبيرة، كان متعجلاً، وكانت الارتجاجات تجعل روبنسون يئن متوجعاً.

لما أن وصلنا أمام المنزل لم يرغب السائق حتى أن يعطينا اسمه. كان قلقاً بسبب المتاعب التي سيجرها عليه كل ذلك مع البوليس، والشهادات..

كان يزعم أيضاً بأن بقعاً من الدم قد لوثت وسائد سيارته، وهو يريد أن يرحل دون تأخير، ولكنني أخذت رقم السيارة.

كان روبنسون قد تلقى الرصاصتين في بطنه، وربما الثلاثة، لا أدري بالضبط كم عددها.

لقد سددت مباشرة أمامها، كنت قد رأيتها. لم تكن الجراح تنزف، وعلى الرغم من أننا وضعناه بيننا أنا وصوفي، وثبتناه جيداً إلا أنه كان يرتج كثيراً

Twitter: @ketab_n

مع ذلك، ويتحرك رأسه في كافة الاتجاهات كان يتكلم. ولكن كان من الصعب فهم ما يقول. لقد غرق في هذيان «هوب، وهوب» واستمر يدندن، سيكون لديه الوقت ليموت ربما قبل أن نصل.

عاد الطريق مبلطاً من جديد، حينما صرنا أمام سورنا المشبك أرسلت الحارسة لتبحث عن بارابين في غرفته، بسرعة، وقد نزل على الفور، واستطعت معه ومع ممرض أن نحمل ليون حتى سريره.

حين جردناه من ملابسه تمكنا من فحصه وجس جدار بطنه. كان الجدار مشدوداً تحت أصابعنا، نابضاً بقوة، وكان كامداً أيضاً في بعض المواقع. عثرت على ثقبين، أحدهما فوق الآخر، ولم أعثر على ثالث، لا بد أن إحدى الرصاصتين قد ضاعت.

لو كنت مكان ليون، لفضلت لنفسي نزيفاً داخلياً. فهذا يغرق البطن بالدماء وتأتي النهاية بسرعة. يمتلأ غشاء البطن وينتهي كل شيء. أما إذا حدث النزيف خارج الغشاء، فستتفشى العفونة والعدوى. وهذا يطول.

كان بوسعنا أن نسأل أنفسنا ما الذي سنفعله كي ننتهي من ذلك. كان بطنه ينتفخ، وكان ليون ينظر إلينا، ثابتاً في مكانه لا يريم. كان يئن، ولكن ليس كثيراً، لم يكن ذلك سوى نوع من السكينة. لقد رأيته سابقاً مريضاً جداً في عدة مواضع مختلفة من جسمه، ولكن وضعه هذه المرة كان جديداً تماماً، الآهات، والعينان وكل شيء. لم نعد نمسك به مثلما يقال، كان يمضي بعيداً من دقيقة إلى دقيقة. كان ينضح حبات كبيرة جداً من العرق، كما لو كان يبكي من كل مسام وجهه، ما يزعجك بعض الشيء في تلك اللحظات أن تغدو بمثل هذا البؤس وهذه القسوة التي غدوت عليها. ينقصك كل ما يلزم تقريباً كي تساعد شخصاً على أن يموت.

Twitter: @ketab_n

قلما يعود في داخلك سوى أشياء نافعة للحياة في أيامك المقبلة. الحياة الهائنة، حياتك أنت وحدك، القسوة وانعدام الرحمة. لقد فقدت الثقة على الدرب طردت الرحمة التي بقيت لديك، إلى قعر جسمك مثل قرص قذر.. دفعت الرحمة إلى نهاية معيك الغليظ مع القذارة . لقد كانت هناك إن شئت القول.

لبثت واقفاً أمام ليون، لم أفلح في الشفقة عليه، وما شعرت يوماً بمثل هذا الضيق. لم يكن ليون يجدني.. كان يعاني من ذلك.. كان يبحث بالتأكيد عن فرديناند آخر، أعظم مني بلا شك، كي يموت، كي يساعده بالأحرى على أن يموت، بهدوء أكثر. كان يبذل جهوداً لكي يعرف ما إذا كان العالم سيحقق يوماً بعض التقدم، كان المسكين يقوم بمراجعة في قرارة نفسه، ترى هل كان الناس سيتغيرون قليلاً نحو الأفضل لو أنه لم يكن خلال حياته التي عاشها جائراً أحياناً تجاههم دون إرادة منه.. ولكن لم يكن هناك سواي، سواي أنا، وحيداً إلى جانبه. فرديناند حقيقي، ينقصه كل ما يجعله إنساناً أكبر من حياته التعيسة، ينقصه الحب تجاه حياة الآخرين. فمن هذا الحب، لم يكن في جعبتي شيء، أو كان لدي منه قليلاً جداً في الحقيقة، بحيث لم يكن ثمة حاجة إلى إظهاره، لم أكن كبيراً كالموت. كنت أصغر بكثير.

لم أكن أملك الفكرة الإنسانية العظيمة. كنت سأشعر، في الواقع، بالحزن تجاه كلب يفطس أمامي بسهولة أكبر مما تجاه روبنسون. ذلك لأن كلباً من الكلاب ليس ماكراً، في حين أن ليون كان ماكراً بعض المكر رغم كل شيء. أنا أيضاً كنت ماكراً. كنا ماكرين.. كل ما تبقى لدي كان قد ذهب على امتداد الدرب، وحتى تلك التكشيرات التي ما يزال من الممكن استخدامها أمام الموتى، كنت قد فقدتها. كنت بالتأكيد قد فقدت كل شيء على الطريق، لم أكن أعثر على

Twitter: @ketab_n

أي شيء مما هو بحاجة إليه كي يموت. لا شيء سوى السخريات الخبيثة. كان شعوري أشبه بمنزل لا يذهب إليه أحد إلا في العطلات. فهو لايكاد يصلح للسكنى. غير أن المحتضر متطلب. فالاحتضار لا يكفيه.. لا بد من أن يستمتع في الوقت نفسه وهو يموت. بالفواقات الأخيرة، ينبغي أن يستمتع بها أيضاً وهي تتبثق من درك الحياة الأدنى، بالبولة التي تملأ الشرايين.

يبكي المحتضرون أيضاً لأنهم لا يستمتعون بما يكفي وهم يموتون، إنهم يتطلبون.. يحتجون.. تلكم هي كوميديا الشقاء التي نسعى خلالها للعبور من الحياة إلى داخل الموت نفسه.

حينما حقنه بارابين بحقنة مورفين استعاد حواسه قليلاً حتى أنه حكى لنا حينئذ أشياء حول ما كان قد حدث له.. «من الأفضل أن ينتهي ذلك على هذا النحو..» قال ذلك ثم استأنف «ليس هذا سيئاً جداً مثلما كنت أعتقد..»، وحينما سأله بارابين، في أي مكان من جسمه كان يتألم بالضبط، كنا نرى بوضوح بأنه كان على عتبة الرحيل، ولكنه أيضاً كان حريصاً، رغم كل شيء على أن يقول لنا أشياء أيضاً. كانت تعوزه القوة وكذلك الوسائل. كان يبكي. وراح يختنق ويضحك بعد ذلك مباشرة، لم يكن مثل مريض عادي. ولم نكن نعرف كيف نتماسك أمامه.

كان كما لو أنه يحاول الآن أن يساعدنا عن أن نعيش نحن الآخرين. كما لو أنه يبحث لنا عن أفراح كي نبقى. كان يمسك بأيدينا كل واحد منا بيد، عانقته. لم يكن بوسعي أن افعل شيئاً سوى ذلك من دون أن أخطئ. انتظرنا، لم يعد يقول شيئاً. وبعد مرور وقت، ساعة ربما لا أكثر، كان النزيف الداخلي هو الذي حسم الموقف، ولكنه كان غزيراً، فائضاً كثيفاً. وذهب به دون تأخير.

Twitter: @ketab_n

بدأ قلبه ينبض بسرعة أكثر فأكثر، بسرعة قصوى. كان قلبه يعدو خلف دمه، منهكاً مستنفداً هناك، صغيراً، في نهاية شرايينه، ليرتعش عند أطراف أصابعه، علاه الشحوب من العنق ثم استولى على الوجه بكامله، ثم انتهى إلى الاختناق. مضى مرة واحدة كما لو كان يستعد للقفز، فيما هو يضغط على يدينا، بذراعيه كليهما.

ثم إنه عاد هناك أمامنا، في الحال تقريباً، متشنجاً، حاملاً كل وطأة الموت.

نهضنا نحن، حررنا أيدينا من يديه، ظلت يداه في الهواء متصلبتين تماماً، منتصبتين، يغشاهما الاصفرار والزرقة تحت ضوء المصباح.

داخل الغرفة كان روبنسون يبدو الآن كغريب، يغادر بلداً جار عليه، ولم يعد أحد يجرؤ على أن يكلمه.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

>> كان بارابين يحتفظ بصفاء ذهنه، وقد وجد وسيلة كي يرسل أحداً لإحضار رجل من مركز البوليس. كان هذا هو غوستاف بالتحديد غوستافنا، الذي عين حاجباً بعد تركه العمل في مراقبة التهريب.

«هذه مصيبة أيضاً» قال غوستاف ذلك ما أن دخل إلى الغرفة ورأى مارأى.

ثم جلس جانباً كي يسترد أنفاسه قليلاً، ويشرب أيضاً جرعة على طاولة الممرضين التي لم ترفع عنها الأطباق والأقداح بعد.

«مادامت تلك جريمة فلابد من نقله إلى المركز» اقترح غوستاف ثم علق أيضاً، «كان روبنسون فتى لطيفاً. لم يكن ليؤذي ذبابة، أنا أتساءل لماذا قتلته؟..» ثم عاود الشرب، كان الشراب يؤذيه، ولكنه كان يحب الزجاجة. ذلكم كان ضعفه.

بحثنا معه عن محمل في المخزن، كان الوقت متأخراً الآن من أجل إيقاظ الموظفين المسؤولين، قررنا نحن بأنفسنا نقل الجسد إلى مركز البوليس. كان المركز بعيداً في الجهة الأخرى من البلدة بعد تقاطع السكة الجديدة، في آخر منزل على طرف البلدة.

هكذا بدأنا السير، كان بارابين يحمل من الأمام، وغوستاف ماندامور من الطرف الآخر، ولكنهما لم يكونا يسيران بخط مستقيم تماماً لا هذا ولا ذاك، قادتهما صوفي خلال النزول على الدرج الصغير، لاحظت بأن صوفي لم يكن يبدو عليها التأثر في تلك اللحظة، لقد حدث ما حدث بالقرب منها مع ذلك، وكان من الممكن أن تتلقى إحدى الرصاصات حينما كانت المجنونة الأخرى تطلق النار. ولكن صوفي، مثلما لاحظتها في مواقف أخرى كان

Twitter: @ketab_n

يلزمها الوقت قبل أن يداهمها الانفعال والتأثر. لم يكن ذلك عن برود في طبيعتها،مادام أن ذلك قد اجتاحها مثل إعصار، غير أنه كان يلزمها الوقت...

كنت أود أن أتبعهما أنا أيضاً قليلاً، كي أتأكد بأن ذلك قد انتهى كلياً، ولكن بدلاً من أن أتبعهما مع محملهما، كما كان ينبغي لي، رحت أمشي بالأحرى ذات اليمين وذات الشمال على امتداد الطريق ولما أن اجتزت في النهاية المدرسة الكبيرة الواقعة على أطراف تقاطع السكة الحديدية انسللت عبر طريق صغير يهبط بين الأسيجة ثم يتجه مباشرة شطر السين.

من فوق الحاجز المشبك رأيتهما يبتعدان بالمحمل، كانا يبدوان كما لو أنهما يختنقان وسط غلالات الضباب المنعقدة خلفهما. وعلى الرصيف، كان الماء يدفع بقسوة الزوارق المتراصة في وجه الفيضان، ومن سهل جانفييه كانت نفحات محملة بالصقيع ما تزال تتداح فوق دوامات النهر، فتجعله يتلألأ ما بين القناطر.

هناك، في البعيد كان يترامى البحر. غير أنه ما كان علي الآن أن أذهب بخيالي نحوه، كان لدي الكثير مما يؤرقني، كنت أحاول عبثاً أن أتلاشى كي لا أعود إلى نفسي. انتهت جرجرة أقدامي، ولكن من يصدق؟.. أوصد العالم أبوابه... عند النهاية التي بلغناها نحن الآخرين! ولكن مثلما في العيد.. فأن تكون حزيناً ليس هذا كل شيء ينبغي أن تمتلك القدرة على البدء بالموسيقا من جديد، أن تذهب للبحث عن مزيد من الحزن... من يصدق؟... كنت أكثر استعداداً أيضاً لتحمل المزيد! ومع ذلك لم أكن قد أوغلت بعيداً في الحياة بقدر ما أوغل روبنسون... لم أكن قد حققت أي نجاح في المحصلة. ولم أمتلك فكرة صلبة واحدة، مثل تلك التي كان قد امتلكها كي يتلقى الضربات، فكرة أضخم أيضاً من رأسي الضخم، أضخم من كل الخوف الذي كان في داخلي، فكرة جميلة، رائعة ومريحة جداً كي أموت. كم سيلزمني من حيوات كي أصنع لنفسي، على هذا النحو، فكرة أقوى من العالم كله؟ كان من

Twitter: @ketab_n

المستحيل علي الوصول إلى ذلك! لقد حبط سعيي في المحصلة، كانت أفكاري تجول في رأسي داخل فراغ. كانت أشبه بشمعات صغيرة متواضعة، وامضة، ترتعش مدى الحياة وسط عالم فظيع كل الفظاعة.

ربما كانت حالي قد صلحت منذ عشرين عاماً، لم أكن لأستطيع القول بأنني لم أحقق بعض النجاح، ولكنني ما كنت لأفكر في النهاية بأنني قد توصلت مثلما توصل روبنسون إلى أن أملأ رأسي بفكرة واحدة، فكرة شديدة البهاء، أقوى من الموت، وأن أتوصل فقط بفكرتي إلى أن أسكب في كل مكان عصارة من الفرح واللامبالاة والشجاعة مثل بطل مفعم بعصارة الحياة.

ستملأ الشجاعة أعطافي حينذاك، ستفيض مني في كل مكان، ولن تعود الحياة ذاتها شيئاً سوى فكرة مطلقة عن الشجاعة التي تحرك كل شيء، البشر والأشياء، من الأرض حتى السماء. ومن الحب سأمتلك الكثير، في الوقت نفسه، بحيث سيبقى الموت حبيساً داخل الحب، وسيكون الموت من الدفء بحيث يربض هناك، مستمتعاً داخل الحب، وينتهي بأن يتسلى بالحب هو أيضاً مع جميع البشر... ذلك ما سيكون جميلاً كل الجمال، ما سيثمر أحسن الثمار! كنت أتسلى وحيداً على الرصيف مفكراً في كل ما ينبغي علي أن أنجزه بشأن الأشياء والبشر كي أتوصل إلى أن أترع نفسي بالقرارات اللانهائية.. علجوم حقيقي مثالي! إنها الحمى في نهاية المطاف.

منذ ساعة على الأقل كان رفيقاي يبحثان عني! لا سيما أنهما لاحظا حينما غادرتهما بأنني لم أكن على ما يرام... كان غوستاف ماندامور هو أول من رآني تحت قنديل الغاز، «هيه دكتور!... ناداني... يمكن القول بأن ماندامور كان له صوت مهيب «من هنا... إنهم يطلبونك في المركز! من أجل شهادتك!» «لا تبدو يا دكتور... أضاف، ولكن في أذني حينئذ، لا تبدو حقاً في حالة جيدة!» رافقني في الطريق، وهو يسندني بيده كي يساعدني على السير... كان غوستاف يحبني

Twitter: @ketab_n

بالتأكيد، لم أكن أوجه إليه قط ملامة بسبب إفراطه في الشراب. كنت أدرك كل شيء، في حين أن بارابين كان حازماً معه بعض الشيء، كان يردعه من حين إلى آخر عن الشراب، كان غوستاف على استعداد أن يفعل أشياء كثيرة من أجلي، كان معجباً بي أيضاً، كان يقول لي ذلك، لم يكن يعرف السبب، ولا أنا أيضاً، ولكنه كان معجباً بي. كان الوحيد في ذلك.

انعطفنا معاً عبر شارعين أو ثلاثة حتى لاح لنا مصباح المركز، لم يعد بمقدوري أن لا أتماسك، كان التقرير قد أعده غوستاف وهذا ما يقلقه، لم يكن يتجرأ على أن يقول لي ذلك، كان قد جعل الجميع يوقعون بأسمائهم في أسفل التقرير، ولكن تقريره مع ذلك كان ما يزال ينقصه بعض الأمور.

كان لغوستاف رأس ضخم. من نوع رأسي، كان بوسعي أن أرتدي قبعته، وهذا كاف، ولكنه كان ينسى بسهولة التفاصيل. لم تكن الأفكار تخطر له بيسر، كان يجد صعوبة فائقة كي يعبر عن نفسه وأكثر من ذلك أيضاً، كي يكتب، وقد ساعده بارابين في كتابة التقرير، ولكن بارابين لم يكن قد رأى أي شيء من فصول الدراما... كان على بارابين أن يبتكر، ولم يكن المفوض يرغب بالابتكار في التقارير، لم يكن يريد سوى الحقيقة مثلما كان يقول.

فيما كنا نصعد درج المفوضية كنت أرتعش، لم يكن بمقدوري أن أروي للمفوض شيئاً ذا بال، كنت مرهقاً للغاية حقاً.

كانوا قد وضعوا جسد روبنسون هناك، أمام صفوف الملفات الضخمة لإدارة الشرطة.

أوراق مطبوعة في كل مكان، حول المقاعد، وأعقاب سكائر قديمة، «الموت للجناة» ذلك ما كان مكتوباً على الأوراق بوضوح.

«لقد أنهكت نفسك يا دكتور؟» سألني السكرتير، بنحو ودي تماماً، حينما وصلت أخيراً. كنا جميعاً في غاية التعب، رحنا نغمغم بالتناوب.

Twitter: @ketab_n

تم الاتفاق أخيراً على حدود ومسافات الرصاصات، كانت إحدى الرصاصات ما تزال في القناة الفقرية، ولم يعثر عليها، وقد دفن روبنسون معها، جرى البحث عن الرصاصات الأخرى، كانت قد استقرت في داخل التاكسي. كان ذلك مسدساً قوياً.

جاءت صوفي للقائنا، كانت قد بحثت عن معطفي، عانقتني، وضغطت على جسدي بقوة، كما لو أنني كنت سأموت أنا بدوري أو أنني سأطير، «ولكنني لم أمت! كنت أحاول جاهداً أن أكرر لها، لم أمت، هيا يا صوفي» وما كان ممكناً لهذا أن يهدئ من روعها.

شرعنا في نقاش مع السكرتير المفوض حول النقالات والمحامل التي كان السكرتير قد رأى الكثير منها، وحول الجرائم، واللاجرائم، والكوارث، كان يود أن يروي لنا تجاربه دفعة واحدة، ولم نعد نجرؤ على المغادرة كي لانغضبه، كان ودوداً جداً. وقد أسعده أن يتحدث لمرة واحدة، مع أناس مثقفين، وليس مع سوقة،ولكي لا نزعجه إذن، رحنا نتسكع في أرجاء مركزه.

لم يكن لدى بارابين معطف واق من المطر، وكان غوستاف وهو يصغي إلينا يهدهد ذكاءه، كان يحتفظ بفمه مغلقاً، وقد مد عنقه الغليظ كما لو أنه كان يجر سيارة، لم أكن قد سمعت بارابين يتحدث بهذا القدر من الكلمات منذ العديد من السنوات، منذ أيام دراستي، والحق يقال، كل ما حدث في هذا اليوم كان قد أثمله.. قررنا العودة إلى المشفى مع ذلك. اصطحبنا ماندامور معنا، أما صوفي التي كانت تحتضنني من وقت إلى آخر والتي كان جسدها مفعماً بقوى من القلق والحنان، وقلبها أيضاً، وكل خلية من جسمها، فكنت أستمد منها شحنة عظيمة من القوة. كنت متضايقاً، لم تكن تلك قوتي، كنت في حاجة إلى قوتي أنا كي أذهب لأموت على نحو رائع ذات يوم، مثلما مات

Twitter: @ketab_n

ليون، لم يكن ثمة وقت أضيعه في العبوس والتجهم، إلى العمل! كنت أقول لنفسي ولكن الموت لم يكن يأتي.

لم تكن صوفي تود أيضاً أن التفت كي أشاهد الجثة مرة أخرى، خرجت إذن دون أن ألتفت. «أغلق الباب» كان ذلك مكتوباً. كان بارابين ظمئاً، لفرط ما تكلم من دون شك، لفرط ما تكلم لنفسه، لدى مرورنا أمام حانة القناة، قرعنا بأيدينا مصراع الشباك فترة قصيرة من الوقت، أعاد ذلك إلى ذاكرتي طريق نوارسور، خلال الحرب، الضوء الشحيح ذاته فوق الباب، على وشك الانطفاء، جاء المعلم بنفسه ليفتح لنا الباب، لم يكن يعلم بما جرى، وقد أخبرناه نحن بخبر الدراما التي حدثت. «دراما الحب» كما كان يسميها غوستاف.

تفتح الحانة أبوابها قبل الفجر تماماً، من أجل ربابنة الزوارق. كان هويس القناة قد بدأ بالدوران ببطء في آخر الليل، كان المشهد مفعماً بالحيوية، كانت الضفاف تتفرج عن النهر بهدوء شديد، ثم تصعد عالياً فوق الماء من الجانبين. انبثق العمل من قلب العتمة. بدأنا نرى كل شيء، بسيطاً جدا، قاسياً جدا، عرائش الكروم هنا، حبائك الأحطاب المركومة هناك، وفي البعيد، على الطريق، يعود الرجال من أماكن قصية، يتسربون داخل النهار القذر رزماً صغيرة مرتعدة. يغسلون وجوههم بضوء النهار، فيما هم يمرون أمام الفجر، إنهم يذهبون بعيدا، لايرى سوى وجوههم الشاحبة البسيطة. وما تبقى يلفه الليل البهيم، سيكون عليهم جميعاً أن يموتوا ذات يوم أيضاً. ترى، كيف سيفعلون ذلك؟.

إنهم يصعدون نحو الجسر، وبعده يتوارون قليلاً قليلاً داخل السهل، ويأتي بعدهم آخرون دوماً، رجال ، يبدون أكثر شحوباً أيضاً، كلما كان النهار يصعد من جميع الأقطار ، ترى بأي شيء يفكرون؟.

كان الخمار يريد أن يعرف كل شيء عن الدراما، عن ظروفها، وقد روينا له كل شيء.

Twitter: @ketab_n

كان يدعى فودسكال، فتى من الشمال، نظيف جداً وقد روى له غوستاف أيضاً المزيد من التفاصيل.

كان غوستاف لا يفتأ يكرر الحديث عن ظروف الحادث، لم يكن ما يرويه مهماً مع ذلك، كان يضيع من جديد بين الكلمات، ولما كان ثملاً، فقد عاود الحديث من جديد، كل ما في الأمر أنه لم يعد لديه ما يقوله آنئذ، أي شيء. كنت سأصغي إليه مع ذلك أيضاً، بكل هدوء، على غرار نعاس ثقيل، ولكن الآخرين احتجوا حينئذٍ على حديثه مما جعله يستشيط غضباً.

ولشدة غضبه، فقد نهض ليصطدم بقوة بمدفأة صغيرة. فانهارت بكاملها، وانقلب كل شيء عالياً سافلاً، الأنبوب وشبكة الجمر، والفحم المشتعل، كان ماندامور قوياً، يعادل أربعة رجال.

رغب بعد ذلك في أن يرينا الرقص الحقيقي فوق النار. فخلع حذاءه وجعل ينط وسط الجمر.

خطر لبارابين أن ماندامور كان يريد منه أن يبعده عن النار مستفيداً من كونه ثملاً.

أبعده بارابين عن النار، وأشعره بالخجل من نفسه. دفعنا ماندامور جميعاً إلى طرف الطاولة، وانهار أخيراً، متعقلاً، وهو يطلق آهات عالية، وروائح ثقيلة، ثم غرق في النوم.

من بعيد أطلقت سفينة الجر صفارتها، اجتاز نداؤها الجسر. وقنطرة أيضاً. ثم أخرى، هويساً آخر، جسراً آخر بعيداً، بعيداً جداً، كانت تدعو إليها قوارب النهر جميعها، والمدينة كلها، والسماء والبرية، ونحن. كانت تقودنا نحوها، والسين أيضاً، وكل الأشياء التي لم نعد نتحدث عنها قط.

✧ ✧ ✧

Twitter: @ketab_n

حسن عـودة

- مجاز في الآداب، جامعة دمشق، قسم اللغة العربية، عام ١٩٧٠.
- مدرس للغة العربية وآدابها في مدارس الأونروا خمسة وعشرين عاماً.
- مترجم عن اللغة الفرنسية.
- ترجم خمسة عشر كتاباً، منها :

❖ الصورة – الحركة: للفيلسوف الفرنسي جيل دولوز، وزارة الثقافة.

❖ الصورة – الزمن: للفيلسوف الفرنسي جيل دولوز – وزارة الثقافة.

❖ حياتي وأفلامي: لمخرج الفرنسي جان رينوار، وزارة الثقافة.

❖ رحلة في أقاصي الليل: رواية للكاتب فرديناند سيلين، وزارة الثقافة.

❖ موت بالتقسيط: رواية للكاتب فرديناند سيلين، قيد الطبع.

❖ الكهانة العربية قبل الإسلام: للمؤرخ الفرنسي من أصل لبناني توفيق فهد، دار قدس.

❖ اللغة والمرآة: بحث في الصوفية وعلم النفس للدكتورة حورية عبد الواحد، دار بدايات.

❖ الهوية غير المكتملة: حوار مع الشاعر أدونيس أجرته الشاعرة الفرنسية شانتال شواف. دار بدايات.

❖ أحاديث مع والدي: حوار أجرته نينار أدونيس مع والدها الشاعر أدونيس. قيد الطبع.

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

Twitter: @ketab_n

عن الكاتب والرواية

مات سيلين في عزلته دون أن يحظى في حياته بشهرة أو مال، مات كاتباً ملعوناً بسبب التهمة التي التصقت به بأنه معاد للسامية. غير أن هذا الكاتب المعذب الروح، المسافر أبداً في أعماق الليل يركض خلفة الجميع اليوم، لعلهم يقتنصون خيطاً واحداً من ضوئه وها هوذا الضوء يغمره في كل مكان، وينفض الغبار عن رواياته، ويعترف أعظم الروائيين اليوم بأنه أحد معلمي الرواية الكبار في القرن العشرين.

ترتبط رائعة سيلين «رحلة في أقاصي الليل» بسيرته الذاتية، بوجهيها الواقعي والنفسي، وبتجربته الشخصية في إدراك واقع عصره، والانطلاق منه إلى تأمل وضع البشرية. وأهم ما يميزها هو تلك الروح الهجائية اللاذعة والمرة التي تخللتها إزاء المجتمع الفرنسي وإزاء المتحكمين بمصيره.

تتميز هذه الرواية بثورتها الأسلوبية والجمالية، وقد كتب الكثير عن أسلوب سيلين منذ صدور الرواية عام ١٩٣٢، فصنف فرويد أسلوب سيلين ضمن النزعة العدمية، ورأى برناتوس بأن عدمية سيلين منحازة إلى الفقراء، وأكد ثرونسكي بأن الثورة الحقيقية للثقافة الفرنسية تعيش وتخفق وتتدفق من خلال أسلوب سيلين.

يقول سيلين: إنني أكتب للناس الجالسين في بيوتهم، وحين يقرؤني هؤلاء بصوت خافت يشعرون بأن أحداً يكلمهم، يتحدث إلى أعصابهم وليس إلى آذانهم، لأنني أكتب بحميمية فائقة.

مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب
٢٠٠٧

سعر النسخة داخل القطر [illegible] ل.س — في الأقطار العربية مايعادل [illegible] ل.س